المجلة الزيتونية

مجلة علمية أدبية اخلاقية

تصدرها الهيئة من مدرسي جامع الزيتونة المعمور

شهرية وسنتها عشرة اشهر

الجزء الاول	تونس ـ في ذي القعدة ١٣٥٧ ـ جانفي ١٩٣٩	المجلد الثالث

رئيس قلم تحريرها .

محمد المختار بن محمود

المفتي الحنفي

بالديار التونسية

صاحب المجلة ومديرها :

محمد الشاذلي بن القاضي

المدرس من الطبقة الاولى بجامع الزيتونة

والخطيب الثاني بجامع حموده باشا

المراسلات :

ترد باسم مدير المجلة بمحل الادارة

الادارة :

نهج الباشا رقم ٣٣ بتونس ـ تليفون ٤٩-٢٦

المطبعة التونسية بنهج سوق البلاط عدد ٥٧ بتونس

فهرس العدد



صورة الهيئة المؤسسة للمجلة الزيتونية

وهم من اليمين : المشايخ محمد الهادي ابن القاضي ـ الطاهر القصار ـ صاحب الفضيلة المختار بن محمود ـ محمد الشاذلي ابن القاضي ـ الحطاب بوشناق ـ محمود بن الطاهر

المجلة الزيتونية

مجلة علمية أدبية اخلاقية
تصدرها الهيئة من مدرسي جامع الزيتونة المعمور

شهرية وسنتها عشرة اشهر

الجزء الاول	تونس - في ذي القعدة ١٣٥٧ - جانفي ١٩٣٩	المجلد الثالث

رئيس قلم تحريرها
محمد المختار بن محمود
المفتي الحنفي
بالديار التونسية

صاحب المجلة ومديرها:
محمد الشاذلي ابن القاضي
المدرس من الطبقة الاولى بجامع الزيتونة
والخطيب الثاني بجامع حمودة باشا

المراسلات:
ترد باسم مدير المجلة بمحل الادارة

الادارة:
نهج الباشا رقم ٣٣ بتونس - تليفون ٤٩-٢٦

المطبعة التونسية بنهج سوق البلاط عدد ٥٧ بتونس

بسم الله الرحمن الرحيم

باسمك اللهم تفتتح الاعمال . ومنك نستمد الهداية في الحال والمآل ؛ وبتوفيقك يحفظ القلم من الزيغ والزلل . وينشرح الصدر لصالح العمل ؛ ونعي مقررات الشريعة الاسلامية ، لنقوم باعباء دينك الذي ارتضيت لنا وذلك غاية الامنية ، ونصلي ونسلم على رسول الرحمة ، ومجلي الظلمة ، من أرسلته بنور الايمان ، وأدبته بأداب القرءان ؛ واقمت به الحجة على من عاند وكفر ؛ فظهر به الحق واستقر وعلى ءاله الغر الميامين . وأصحابه مصابيح الظلام بين العالمين ، الذين نشروا الاسلام وكانوا له نعم الحافظ الامين ، وكل من اقتفى أثرهم ، وسلك مسالكهم المستبين ؛ وبذل وسعه لاعلاء كلمة الحق والدين

اما بعد فها نحن نشق الطريق لقطع المرحلة الثالثة بالمجلة بعد ان قطعت مرحلتيها الاولى والثانية بعزم صادق وايمان قوي ، مثابرة على الخطة التي برزت متحلية بها ؛ لم تحد عن المبادي التي أنشئت من أجلها . فخورة بما رزق الله من التوفيق للقيام بمهمتها على قدر ما سمحت به الظروف ، ثابتة بما أمدنا الله به من قوة امام العواصف التي تعترض كل ناشيء في اوليات خطاه ، متمادية في سيرها على نحو سيرتها الاولى من حيث المبدا ، متطلعة الى الرقي شأن كل جاد في عمله

فقد قامت المجلة في بحر هاتين السنتين بمهمات جمة وأدت خدمات للمجتمع الاسلامي نحمد الله الذي رزقنا التوفيق للقيام باعبائها

فكان لها ـ رغما على قرب العهد بانشائها ـ فضل عظيم لا ينكر بما نشرته من المباحث المختلفة والتحقيقات النفيسة والمواضيع المتنوعة التي شارك في تحريرها اعيان العلماء سواء في بلادنا التونسية او في غيرها من الاقطار الاسلامية فكانت مجالا للافكار الصائبة والتحارير المفيدة وكانت مطمح انظار الخاصة فضلا عن العامة وكانت من جهة اخرى واسطة بين اعيان علماء جامع الزيتونة ونبغاء المفكرين في بلادنا وبين بقية العلماء والمفكرين في سائر الاقطار المشرقية اذ لا يخفى ان للمجلات في هذا الزمان فضلا عظيما في تعريف الناس ببعضهم والابانة عما في كل قطر من الاسرار والفضائل التي لولا النشر لما ظهرت ولما اطلع عليها الناس .

ولا يخفى ان بلادنا التونسية من احوج البلدان الى الدعاية والاشهار لانها رغما عما فيها من كبار العلماء الذين يعدون من مفاخر علماء الاسلام سواء في هذه الايام او في الازمنة السابقة ورغما عن وجود جامعة علمية كبرى فيها تخدم اللغة العربية والشريعة الاسلامية وهي الجامعة الزيتونية ادام الله عمرانها ورغما عن كون البلاد التونسية من اشهر البلدان واعظمها في التاريخ القديم وكان لها صيت عظيم وكانت مطمح انظار عدة دول كبرى في الزمان السالف فانها تكاد تكون اليوم مجهولة عند كثير من الامم الشرقية ولا اريد انهم يجهلون اسمها وانما هم يجهلون مزاياها وخصائصها .

ويكفي الدلالة على ذلك ان اقص لقرائنا القصة الاتية :

عند ما كنت في باريس في شهر رجب سنة ١٣٥٦ تهيأت لي الفرصة للاجتماع بكثير من المشارقة فكانوا يسئلونني عن تونس سؤال من يجهل عنها كل شيء فاذا حدثتهم عما في البلاد التونسية من الخصائص والمزايا تعجبوا من ذلك وقالوا ما كنا نظن ان البلاد التونسية على ما وصفته لنا ولا على اقل منه .

واعجب شيء وقع لي اثناء هذه الاجتماعات اني تلاقيت برجل من العراق يتظاهر بانه مثقف نبيه فلما علم اني من تونس قال لي : هل هناك من يتكلم اللغة العربية في تونس ؟ فتعجبت من سؤاله واجبته بشيء من الشدة والاعتزاز بالنفس فقلت له : ان البلاد التونسية تعتبر في العصر الحاضر من اشد الاقطار الاسلامية اعتناء باللغة العربية واعتزازا بالاسلام ويكفيك ان تعلم ان بتونس جامعة هي الجامعة الزيتونة ليس لها من عمل الا خدمة اللغة العربية والشريعة الاسلامية يهرع الناس اليها ليتلقي العلوم ولها الفضل لا على البلاد التونسية فقط بل حتى على الجزائر وطرابلس فهي تعتبر جامعة الشمال الافريقي . فقال لي : كنت اجهل هذا كله واشكرك على ما افدتني به . فقلت له : واأسفاه على الرابطة الشرقية كيف انحلت حتى صار المسلمون يجهلون بعضهم الى هذا الحد .

ونحن اذا رجعنا الى السبب الحقيقي في هذا الجهل نجده يرجع الى عدم وجود الدعاية الكافية للبلاد التونسية . والدعاية انما تكون بظهور العلماء والمفكرين وتسابقهم في ميادين التحارير العلمية حتى يعلم الناس فضلهم ومزاياهم وقد كانت هذه المجلة المتواضعة احسن وسيلة لظهور ما لعلماء تونس من القيمة العلمية ونحن نؤمل ان يكون عملها في المستقبل من هذه الناحية اكثر افادة واجدى نفعا .

هذا ورغما عما قامت به هذه المجلة من الاعمال التي نرجو ان تكون مفيدة بحول الله . فان امامنا برامج متسعة لترقيتها . والارتقاء بها الى مصاف المجلات العلمية الكبرى في العالم وما ذلك على الله بعزيز . وذلك يتوقف تحقيقه على امور اهمها انتظام ميزانية المجلة من الناحية المالية وهنا يجب علينا ان نصرح لقرائنا الذين يهمهم هذا المشروع ويعز عليهم بقاؤه ومن الواجب ان لا يكون بيننا وبينهم حجاب : ان ما نلاقيه منهم من التشجيع الادبي وان كان بعيدا في حد ذاته لكنه لا يغني في ترقية المجلة واطراد حياتها لان هذه المشاريع انما تبقى وتنمو باعتمادها على ميزانية واسعة يصرفها القائمون على تلك المشاريع في سبيل تحسينها والرقي بها ونحن رغما عن كون مقصدنا من تاسيس هاته المجلة هو مقصد ادبي علمي محض لا نرمي من ورائه الى اي ربح يحصل لنا لكن على كل حال لا بد لنا من مال نعتمد عليه لبقاء هاته المجلة والاستمرار عليها اذ ليس من الانصاف ان نتحمل بجميع المشاق الادبية التي لا تخفى على احد ثم نتحمل مع ذلك المشاق المالية كما وقع لنا في العام الماضي والذي قبله فقد صرفنا من مالنا الخاص مبلغا عظيما من المال وقد صرفناه بصدر

رحب احتفاظا على مشروعنا العزيز من ان تتطرقه يد الاهمال او الفناء ولكننا نعلم وقراؤنا يعلمون ايضا ان هذا امر لا يمكن ان يدوم لان الانسان مهما قويت عزيمته وصح يقينه فلا بد له من الاعانة المادية ليستمر على عمله والا فسيأتيه يوم لا محالة يبوء فيه بالفشل ويفقد عزيمته وصبره

وهذا موضوع وان كنا لا نود ان نطيل القول فيه لكن تلدد بعض المشتركين في العام الماضي وانعايهم لنا اوجب علينا ان نصرح به هنا حتى يكون قراؤنا على علم وحتى يكون لهم راي معنا في تلافي هذا المشكل الذي وان لم يفض الى تعطيل المجلة ـ والحمد لله ـ لكنه افضى الى اختلال مواعيد صدورها .

هذا وان المجلة قد احرزت على رضى قرائها الافاضل الذين ما انفكوا يشجعوننا برسائلهم الحافلة المفصحة عن ابتهاجهم بما نشرته المجلة من الابحاث العلمية والمقالات الرائعة واعرابهم عن الاغتباط بها وحسن مسلكها وجودة رونقها وبهذا يصح لنا ان نقول ان المجلة قد اعتبرتها الاوساط العلمية المنهل العذب الذي يرده الظمآن فيجد فيه شرابا سائغا شهيا عذبا قراحا ، وشجرة مباركة يستمد من ظلها روادها الراحة والسعادة . ويؤكد هذا اقبال الطبقة المستنيرة على مطالعتها وحرصهم على اقتنائها ورغبتهم المتزايدة في نشرها بين سائر الطبقات ، وسؤالهم عنها اذ تأخر صدورها بضعة ايام كل هذا يزيدنا ايمانا بسمو هذا المشروع الجليل الذي عقدنا العزم من اول نشأته على السير به نحو الكمال بعونه تعالى وحسن توفيقه وادخال الاصلاحات التي تمليها علينا الرغبة في رقي المجلة المطرد وما يقدمه لنا السادة الاكارم قراء المجلة من الملحوظات الحسنة فنحن عند ظنهم بنا في ادخال التحسينات الفنية عقب الفنية وكلما سمحت لنا الظروف والمقادير بذلك . وقبل ان نختم كلمتنا هذه نوجه تمنياتنا الحارة ودعواتنا الخالصة للسادة العلماء الاعلام الذين شجعونا في مشروعنا الجليل وأمدونا باعانتهم في التحرير او النصح او غير ذلك مما عاد على المشروع بالحسنى

كما انا نعتذر عما اعترى المجلة في عامها الثاني من الصدمات التي ثبتت امامها بكل قوة وعزيمة راسخة ولم تؤثر فيها الاعاصير

هذا ونقدم على كاهل الاجلال والاحترام دعواتنا الخالصة للسدة الشامخة العلية امير البلاد وملاذ الشعب ابي الخيرات الباشا احمد الثاني . بلغه الله الأماني . وانار به العدل واعز به الشرع وحفظه في آل بيته الاعلام ووزرائه الفخام انه تعالى سميع قريب وبالاجابة جدير

القرآن الكريم



تفسير سورة البقرة

(هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة)

من تفسير العلامة الهمام الشيخ سيدي محمد
الطاهر ابن عاشور شيخ الاسلام المالكي

الهدى اسم مصدر الهدي ليس لوزنه نظير الاسرى وتقى وبكى ولغى مصدر لغى في لغة قليلة وفعله يتعدى الى المفعول الثاني بالى وربما تعدى اليه بنفسه على طريقة الحذف المتوسع فيه كما تقدم في قوله تعلى اهدنا الصراط المستقيم وتفصيل انواع الهداية تقدم هنالك والمتقي من اتصف بالاتقاء وهو طلب الوقاية والوقاية الصيانة والحفظ من الاذى والمكروه والمراد من الهدى ومن المتقين في الآية معناهما اللغوي فالمراد أن القرءان من شأنه الايصال الى المطالب الخيرية وان المستعدين للوصول به اليها هم المتقون والمراد بالمتقين المؤمنون الذين ءامنوا بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم وتلقوا القرءان بعزم على العمل به فالقرءان هدى في زمن الحال لان الوصف بالمصدر في قوة الوصف باسم الفاعل اي هو هاد في حال النطق بهذا الكلام والمتقون هم المتقون في الحال ايضا لان اسم الفاعل حقيقة في الحال اي ان جميع من نزه نفسه واعدها لقبول الكمالات يهديه هذا الكتاب ثم ان القرءان لم يزل هدى للمتقين فان جميع انواع هدايته نفعت المتقين في سائر مراتب التقوى على حسب حرصهم ومبالغ علمهم واختلاف مطالبهم فمن منتفع بهديه في الدين ومن منتفع به في السياسة وتدبير الدولة ومن منتفع به في الاخلاق والفضائل ومن منتفع به في التشريع والتفقه في الدين وكل اولئك من المتقين وانتفاعهم به على حسب مبالغ تقواهم . فان قصر باحد حظه عن كمال الانتفاع به فانما ذلك لنقص فيه لا في الهداية ولا تزال المنابقة بين اهل العلم في مقدار الاهتداء بمعاني القرءان . وما يعد من المتشابه انما هو معان كبرت على الافهام وقد كشف بعض معانيها مرور الايام على انها يعلمها الراسخون في العلم على التحقيق في معنى قوله تعلى واخر متشابهات

(الذين يومنون بالغيب) يتعين ان يكون كلاما متصلا بقوله للمتقين على معنى الصفة وجوز

صاحب الكشاف كونه مستانفا مبتدا وكون اولئك على هدى خبره وعندي انه تجويز لما لا يليق بالبلاغة اذ الاستيناف يقتضي الانتقال من غرض الى ءاخر وهو المسمى بالاقتضاب وانما يحسن في مقام البلاغة اذا اشبع الغرض الاول وافيض فيه حتى اوعب او حتى خيف سئامة السامع وذلك موقع اما بعد او كلمة هذا او نحوهما والا كان تقصيرا من المتكلم لا سيما واسلوب الكتاب اوسع من اسلوب الخطابة لان الاطالة في اغراضه امكن وكأن هذا هو الذي عناه قس بن ساعدة بقوله

لقد علم الحي اليمانون انني اذا قلت اما بعد اني خطيبها

اي اعلمها بالخطابة وبموقع اما بعد من الخطبة . والغيب مصدر بمعنى الغيبة قال تعلى ذلك ليعلم اني لم أخنه بالغيب ، ليعلم الله من يخافه بالغيب . وربما قالوا بظهر الغيب قال الحطيئة

كيف الهجاء وما تنفك صالحة من ءال لام بظهر الغيب تاتيني

وفي الحديث دعوة المؤمن لاخيه بظهر الغيب مستجابة . وقد اطلق الغيب في لسان الشارع على ما غاب عن الحس ومشاهدة الناس كالجنة والنار والملائكة وقد جاء الغيب بهذا المعنى في القرءان في قوله تعلى : وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو . فاذا اريد من الغيب هنا المصدر بمعنى الغيبة جعلت الباء للملابسة ظرفا مستقرا فالوصف تعريض بالمنافقين وان اريد بالغيب الاسم وهو ما غاب عن الحس من العوالم وما وراء المادة كانت الباء صلة ليؤمنون فالمعنى حينئذ الذين يؤمنون بما اخبر به الرسول من غير عالم الشهادة كالملائكة والبعث والروح ونحو ذلك وكان الوصف تعريضا بالمشركين الذين انكروا ما وراء المادة (وقالوا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل فمزق انكم لفي خلق جديد) ونحو ذلك

وانما اختير لبيان التقوى هذه الصفات دون غيرها لانها أول ما شرع من الاسلام فكانت شعار المسلمين ولان هذه الصفات هي دلائل اخلاص الايمان لان الايمان في حال الغيبة عن المؤمنين حال خويصة النفس ادل على اليقين والاخلاص حين ينتفي الخوف والطمع ان كان المراد بالغيب ما غاب او لان الايمان بما لا يصل اليه الحس أدل دليل على قوة اليقين حتى انه يتلقى من الشارع ما لا قبل للرأي فيه وشأن النفوس أن تبنو عن الايمان به لانها تميل الى المحسوس فالايمان به على علاته دليل قوة الثقة بالمخبر وهو الرسول ان كان المراد من الغيب ما قابل الشهادة ومعنى يؤمنون يصدقون وفعله ءامن وهو مزيد امن وهمزته المزيدة دلت على التعدية فأصل ءامن تعدية أمن ضد خاف اي صيره ءامنا ثم اطلقوا ءامن على معنى صدق ووثق حكى ابو زيد عن العرب ما ءامنت ان اجد صحابة يقوله المسافر اذا تأخر عن السفر كانه ءامن نفسه وازال خوفها من عدم صحبة الخفير فافاد مبالغة في أمن كأقدم على الشيء بمعنى تقدم اليه وعمد اليه فصار فعلا قاصرا بمعنى حصل له الامن اي من الشك واضطراب النفس واطمأن لذلك لان معنى الامن والاطمئنان متقارب ثم انهم يضمنون آمن معنى

اقر فيقولون ءامن بكذا اي اقر به ويضمنونه معنى اطمأن فيقولون ءامن له (افتطمعون ان يؤمنوا لكم) (١) (ويقيمون الصلاة) الاقامة مصدر أقام وهو معدى من قام بالهمزة الدالة على الجعل والتصيير ومعنى الاقامة هنا جعلها قائمة ماخوذا من قامت السوق اذا نفقت وتداول الناس فيها السلع والبيع والشراء فيجيء من ذلك أقام بمعنى جعلها قائمة وقد دل على هذا الاعتبار في يقيمون تصريح بعض اهل اللسان به قال ايمن بن خريم (٢)

اقامت غزالة سوق الضراب لاهل العراقين حولا قميطا

فانه لو شاء لقال اقامت غزالة الضراب وكان اوجز وأحسن كما جاء في هذه الاية واصل القيام في اللغة هو الانتصاب المضاد للجلوس والاضطجاع ونحوهما وانما يقوم القائم لقصد عمل صعب لا يتأتى من قعود فيقوم الخطيب ويقوم العامل ويقوم الصانع ويقوم الماشي فكان للقيام لوازم عرفية مأخوذة من عوارضه اللازمة ولذلك اطلق على النشاط في قولهم قام بالامر وعلى الاستواء في قولهم استقام وقوام الانسان وقامته وعلى التحرك والتداول في قولهم قامت السوق وقامت الحرب وقالوا في ضده ركدت ونامت وفي الحديث الفتنة نائمة فإطلاق القيام على هذه المعاني من قبيل المجاز المرسل وقد شاع هذا المجاز حتى ساوى الحقيقة ولذلك صح بناء المجاز والاستعارة على هذه المعاني فاقامة الصلاة في الاية استعارة تبعيه شبهت المواظبة على الصلوات والعناية بها بجعل السوق نافقة رائجة وهذا اظهر الوجوه فان الثناء على المصلين اريد به الثناء على شدة عنايتهم بها ومواظبتهم عليها ولهم في الاية وجوه اخرى كلها بعيدة وقد عبر هنا بالمضارع كما وقع في قوله يؤمنون ليصلح ذلك للذين أقاموا الصلاة فيما مضى وهم الذين ءامنوا من قبل نزول الآية والذين هم بصدد اقامة الصلاة وهم الذين يؤمنون عند نزول الآية والذين سيهتدون الى ذلك وهم الذين جاءوا من بعدهم اذ المضارع صالح لذلك كله لان من فعل الصلاة في الماضي فهو يفعلها الآن وغدا ومن لم يفعلها فهو اما يفعلها الآن او غدا وجميع اقسام هذا النوع جعل القرءان هدى لهم . ولما كان المضارع مرادا به ما ذكرنا وكان حينئذ بمعزل عن افادة التجدد أي تكرر الحصول اشتق من الاقامة المقتضية للتجدد والتكرر فلم يقل ويصلون

---

(١) التضمين هو ان يقصد بلفظ فعل او نحوه معناه ويلاحظ معه معنى فعل ءاخر يناسبه محذوف يدل عليه بذكر شيء من متعلقاته بحيث لا يصلح ذلك المتعلق ان يكون متعلقا بالفعل المذكور وهو من ايجاز كلام العرب لانه استغناء بذكر المتعلق بالكسر عن ذكر المتعلق بالفتح كما استغنى بذكر الفعل المذكور عن ان يؤتى له بمتعلق بالكسر

(٢) ايمن بن خريم بالخاء المعجمة والراء شاعر قال قصيدة يحرض أهل العراق على قتال الخوارج ويذكر غزالة زوجة شبيب الخارجي كانت تولت قيادة الخوارج بعد قتل زوجها وحاربت الحجاج عاما كاملا ثم قتلت وأول القصيدة

ابى الجبناء من أهل العرا ق على الله والناس الا سقوطا

لئلا يفوت معنى المواظبة اذ المضارع وحده غير صالح في هذا المقام للتكرير فلا تغفلوا عن هذه النكتة من نكت الاعجاز

والصلاة اسم مصدر صلى وهي بوزن فعلة محرك العين ولامها واو لما ياتي فلذلك قلبت الفا لما تحركت بعد فتحة وقد استغنوا باسم المصدر عن المصدر وهو التصلية فاهملوا المصدر لالتباسه بتصلية النار قال بعض اهل اللغة هي حقيقة في الدعاء وجعلوا اطلاقها على العبادة المخصوصة نقلا شرعيا. وقال بعضهم هي العبادة بكيفية مخصوصة واستشهدوا بقول الاعشى

يراوح من صلوات المليك طورا سجودا وطورا جؤارا

وجعلوا اطلاقها على العبادة المخصوصة في الاسلام تخصيصا للفظ ببعض مدلولاته مثل الغلبة وعندي ان هذا هو القول الوجيه لان العرب قد عرفوا في الجاهلية الصلاة بمعنى العبادة وعرفوا الركوع والسجود لاجل العبادة وقد اخبر الله تعلى عن ابراهيم بقوله « ربنا ليقيموا الصلاة » وكانت اليهود معاشرين للعرب وهم اهل صلاة وكذلك كان من العرب النصارى وهم يصلون وقد قال النابغة في رثاء النعمان بن الحارث الغساني وذكر دفنه في موضع يقال له الجولان

فئاب مصلوه بعين جلية وغودر بالجولان حزم ونائل

اراد المصلين عليه من القسيسين اذ كان النعمان متنصرا وقال النابغة ايضا

او درة صدفية غواصها بهج متى يرها يهل ويسجد

واما اطلاقها على الدعاء فهو فرع عن هذا والصلاة مشتقة من الصلا وهو عرق غليظ في وسط الظهر يفترق عند عجب الذنب فيكتنفه فيصير صلوين اشتقت الصلاة منه لان المصلي اذا ركع وسجد تحرك ذلك العرق حركة شديدة وانما اطلقت على الدعاء ايضا لان الداعي ينحني ويطأطىء

ولاجل مراعاة هذا الاشتقاق كتبوها في المصحف بالواو اذلو لم يكن هذا قصدهم لما كان وجه لكتابتها بالواو بخلاف الزكاة . وقد قيل انها كتبت في المصحف بالواو اشارة الى لغة تفخيم اللام في الصلاة لان اللام المفخمة مع الفتح تقارب مخرج الضم وهو بعيد

وصية الفاروق رضى الله عنه

من عرض نفسه للتهمة فلا يلومن من اساء به الظن ، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرا وانت تجد لها من الخير مخرجا ، ولا تتهاون في الحلف بالله فيهينك . واعتزل عدوك ، واحذر صديقك الا الامين ، والامين من خشي الله تعالى . ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ؛ ولا تستعن على حاجتك من لا يحب نجاحها لك ، وشاور في أمرك الذين يخافون الله

الحديث الشريف

باب قول النبيء صلى الله عليه وسلم

اذا رأيتم الهلال فصوموا واذا رأيتموه فأفطروا *

وقال طه عن عمار : من صام يوم الشك فقد عصى ابا القاسم صلى الله عليه وسلم

روى البخاري عن عبد الله بن مسلمه عن مالك عن نافع عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر رمضان فقال لا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه فان غم عليكم فأقدروا له. حدثنا عبد الله ابن مسلمه حدثنا مالك عن عبد الله ابن دينار عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الشهر تسع وعشرون ليلة فلا تصوموا حتى تروه فان غم عليكم فاكملوا العدة ثلاثين. حدثنا ابو الوليد حدثنا شعبة عن جبلة بن سحيم قال سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول قال النبيء صلى الله عليه وسلم الشهر هكذا وهكذا وخنس الابهام في المرة الثالثة. حدثنا ءادم حدثنا شعبة حدثنا محمد بن زياد قال سمعت ابا هريرة رضي الله عنه يقول قال النبي صلى الله عليه وسلم او قال قال ابو القاسم صلى الله عليه وسلم : صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته فان غبي عليكم فاكملوا عدة شعبان ثلاثين

البيان

قد تقرر في الاصول ان تكاليف الشريعة المطهرة انما وضعت لمصالح العباد في العاجل والآجل، وانها راجعة الى حفظ مقاصدها في الخلق ، وانها انما جاءت لتخرج المكلفين عن دواعي اهوائهم حتى يكونوا عبادا لله قال جل ذكره وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون قال ابو اسحاق الشاطبي في المسئلة الثامنة من كتاب المقاصد من الموافقات : المصالح المجتلبة شرعا والمفاسد المستدفعة انما تعتبر من حيث تقام الحياة الدنيا للحياة الاخرى لا من حيث هوى النفوس في جلب مصالحها ومفاسدها العادية قال وهذا المعنى اذا ثبت لا يجتمع مع فرض وضع الشريعة على وفق اهواء النفوس

* الختم الذي القاه المقدس المبرور الشيخ الشاذلي ابن القاضي بجامع حموده باشا في رمضان عام ١٣٠٥

وطلب منافعها العاجلة كيف كانت وقد قال عزت كلمته ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن اه . ثم من جملة التكاليف الشرعية صوم رمضان قال عز من قائل شهر رمضان الذي انزل فيه القرءان هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه . شرعه سبحانه وتعلى لمصالح عظيمة وفوائد جسيمة منها كسر النفس وقهر الشيطان وذلك لان الشبع نهر في النفس يرده الشيطان والجوع نهر في الروح ترده الملائكة . ومنها معرفة الغني مقدار نعمة الله عليه باقداره على ما منع منه كثير من الفقراء من فضول الطعام والشراب فانه بامتناعه من ذلك في وقت مخصوص وحصول المشقة له بذلك يتذكر به من منع من ذلك على الاطلاق فيوجب له شكر نعمة الله عليه بالغنى واليسار ويدعوه ذلك الى رحمة اخيه الفقير المحتاج ومواساته بما يمكن مما اعطاه الله وقد وعد سبحانه عليه بالثواب العظيم في دار النعيم ففي الحديث القدسي الصوم لي وانا أجزي به . وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم انه قال للرجل الذي سأله عن افضل الاعمال : عليك بالصوم فانه لا مثل له يقول الله تعلى يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي ، الصيام لي وانا أجزي به والحسنة بعشر امثالها . ومن المعلوم أن الكريم اذا تولى الاعطاء بنفسه كان في ذلك اشارة الى تعظيم ذلك العطاء وتفخيمه وفيه مضاعفة الجزاء من غير عدد ولا حساب ثم ان الشارع اوجب صيام رمضان معلقا برؤية هلاله على ما هو صريح الاحاديث المذكورة في هذا الباب الا الحديث الاول منها فالجمهور على انه بمعنى الحديثين الاخيرين حتى كانا مفسرين له ولذلك اخرهما البخاري رحمه الله وذهب الحنابلة الى ان معنى فاقدروا له قدروه تحت الحساب . وذهب غيرهم الى ان معناه قدروه بحسب المنازل وقد ذكر الامام الزاهدي في القنية اقوالا ثلاثة للحنفية في العمل بالحساب فنقل اولا عن القاضي عبد الجبار وصاحب جمع العلوم أنه لا بأس بالاعتماد على قول الفلكيين وليس بواجب ونقل عن ابن مقاتل أنه كان يسألهم ويعتمد على قولهم اذا اتفق عليه جماعة منهم واستبعده الامام السرخسي ونقل عن مجد الائمة الترجماني أنه اتفق اصحاب ابي حنيفة الا النادر والشافعي انه لا اعتماد على قولهم اه وقد حكى في المعراج الاجماع على عدم اعتبار اقوال المنجمين وانه لا يجوز للمنجم ان يعمل بالحساب المخالف للرؤية لنفسه اه وما ذهب اليه الامام السبكي من الشافعية من الاعتماد على قولهم بناء على ان الحساب قطعي قد رده المتأخرون من اهل مذهبه بان الشارع اعتبر الشهادة لانه نزلها منزلة اليقين فلا عبرة بغيرها اذا خالفها بل قد الغى الشارع غيرها بالكلية لقوله : نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا قال شهاب الدين القرافي في الفرق الثاني والمائة من الفروق في العمل بالحساب قولان عندنا وعند الشافعية والمشهور في المذهبين عدم اعتبار الحساب فاذا دل حساب تسيير الكواكب على خروج الهلال عن شعاع الشمس من جهة علم الهيئة لا يجب الصوم فلو كان الامام يرى الحساب فاثبت الهلال به لم يتبع لاجتماع السلف على خلافه مع ان حساب الاهلة والكسوفات والخسوفات

قطعي فان الله تعلى أجرى عادته بان حركات الافلاك وانتقالات الكواكب السبعة السيارة على نظام واحد طول الدهر بتقدير العزيز العليم فلا ينخرم ذلك ابدا والعوائد اذا استمرت افادت القطع فالحساب ينبغي ان يعتمد عليه كاوقات الصلوات فانه لا غاية بعد حصول القطع لكن قد فرق بينهما الجمهور وعليه السلف والخلف بان الله تعالى نصب زوال الشمس سببا لوجوب الظهر وكذلك بقية الاوقات لقوله جل ذكره أقم الصلاة لدلوك الشمس أي لاجله والدلوك اما زوال الشمس أو غروبها كما قاله صاحب الكشاف وكذلك قوله سبحانه وتعالى فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والارض وعشيا وحين تظهرون . قال المفسرون هذا الكلام خبر ومعناه الامر بالصلوات الخمس في هذه الاوقات فحين تمسون المغرب والعشاء وحين تصبحون الصبح وعشيا العصر وحين تظهرون الظهر . والصلاة تسمى سبحة ومنه سبحة الضحى اي صلاتها فالآية امر بايقاع هذه الصلوات في هذه الاوقات وقد دل غير ذلك من الكتاب والسنة على أن نفس الوقت سبب للوجوب فمن علم السبب بأي طريق كان العلم لزمه حكمه المترتب عليه شرعا فلذلك اعتبر الحساب المفيد للقطع في أوقات الصلوات واما الاهلة فلم ينصب صاحب الشرع خروجها عن الشعاع سببا للصوم حتى يكون مجرد الخروج سببا لوجوب الصوم بل اعتبر رؤية الهلال خارجا عن شعاع الشمس هو السبب فاذا لم تحصل الرؤية لم يحصل السبب الشرعي فلا يثبت الحكم الذي هو الوجوب ويدل على ان صاحب الشرع لم ينصب نفس خروج الهلال عن شعاع الشمس سببا للصوم قوله صلى الله عليه وسلم صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ولم يقل لخروجه عن شعاع الشمس كما قال تعالى أقم الصلاة لدلوك الشمس ثم قال عليه الصلاة والسلام فان غم عليكم فاقدروا له اي خفيت عليكم رؤيته فاقدروا له اي قدروا له تمام العدد ثلاثين يوما اي انظروا في اول الشهر واحسبوا ثلاثين يوما وفي الرواية الاخرى فاكملوا العدة ثلاثين فنصب رؤية الهلال او اكمال العدة ثلاثين ولم يتعرض لخروج الهلال عن الشعاع واما قوله تعلى فمن شهد منكم الشهر فليصمه فلا دلالة فيه على المطلوب قال ابو علي لان شهد لها ثلاث معان بمعنى حضر ومنه شهدنا صلاة العيد وشهد بدرا وشهد بمعنى أخبر ومنه شهد عند الحاكم اي أخبره بما يعلمه وشهد بمعنى علم ومنه قوله تعالى والله على كل شيء شهيد أي عليم وهو في الاية بمعنى حضر ومعنى الآية فمن حضر منكم المصر في الشهر فليصمه اي حرا مقيما احترازا من المسافر فانه لا يلزمه الصوم واذا كان شهد بمعنى حضر لا بمعنى شاهد وراى لم يكن فيه دلالة على المطلوب وهو اعتبار الرؤية ولا على اعتبار الحساب ايضا فان الحضور في الشهر اعم من كونه ثبت بالرؤية او بالحساب فلاجل هذا الفرق قال الفقهاء ان كان الحساب غير منضبط فلا عبرة به وان كان منضبطا لم يجب به الصوم لان الشارع لم ينصبه سببا اه قلت ما ذهب اليه الشهاب من أن شهد بمعنى حضر هو ما رجحه صاحب الكشاف حيث قال اي فمن كان شاهدا اي حاضرا مقيما في الشهر فليصم

فيه ولا يكون مفعولا به كقولك شهدت الجمعة لان المقيم والمسافر كلاهما شاهدان للشهر اه قال الفاضل السيالكوتي في حواشي البيضاوي شهد على الوجه الثاني بمعنى رأى على ما قيل لانه ما وجد في الكتب المتداولة الشهود بمعنى الرؤية نعم جاءت المشاهدة بمعنى الرؤية اه وتمام الكلام في تفسير القاضي وحواشيه . وههنا بحثان الاول في اوقات الصلوات وذلك انه جرت عادة المؤذنين وأرباب المواقيت بتسيير درج الفلك فاذا شاهدوا من درج الفلك ما يقتضي ان درجة الشمس قربت من الافق قربا يقتضي ان الفجر طلع امروا الناس بالصلاة والصوم مع ان الافق يكون صاحيا لا يخفى فيه طلوع الفجر لو طلع ومع ذلك فلا يجد الانسان للفجر اثرا البتة وهذا لا يجوز فان الله تعالى انما نصب سبب وجوب الصلاة ظهور الفجر فوق الافق ولم يظهر فلا تجوز الصلاة حينئذ فانه ايقاع للصلاة قبل وقتها وبدون سببها وكذلك القول في بقية الصلوات قال الشهاب فان قلت هذا جنوح منك الى انه لا بد من الرؤية وانت قد فرقت بين البابين وميزت بين القاعدتين بالرؤية وعدمها وقلت السبب في الاهلة الرؤية وفي اوقات الصلوات تحقيق الوقت دون رؤيته فحيث اشترطت الرؤية فقد بطلت ما ذكرته من الفرق قلت الجواب عنه اني لم اشترط الرؤية في اوقات الصلوات لكني جعلت عدم اطلاع الحس على الفجر دليلا على عدمه وانه في نفسه لم يتحقق لان الرؤية هي السبب ونظيره في الاهلة لو كانت السماء مصحية والجمع كثير ولم ير الهلال جعلت ذلك دليلا على عدم خلوص الهلال عن شعاع الشمس وكذلك لو رايت الظل مائلا عند الزوال لجهة المغرب ولم اره مائلا الى جهة المشرق بل متوسطا بين الجهتين جعلت ذلك دليلا على عدم دخول الوقت وعدم السبب ففرق بين كون الحس سببا وبين كونه دالا على عدم السبب فاني في الفجر جعلته دليلا على عدم السبب لا أني اشترطت الرؤية ولذلك لم استشكل ذلك الا والسماء مصحية والحس لا يجد شيئا من الفجر اما لو كان حسابهم يظهر معه الفجر مع الصحو طالعا من الافق ويخفى مع الغيم لم استشكله وقلت انما يخفى لاجل الغيم لا لاجل عدمه في نفسه لكن لما رايت حسابهم في الصحو لا يظهر معه الفجر علمت ان حسابهم يقارن عدم السبب فان الحس كما يدل على وجود الفجر يدل أيضا على عدمه باتساق الظلمة وعدم الضياء اه كلام الشهاب وانا اقول في جواب هذا الاشكال ان الفجر يطلع شيئا فشيئا على القطر ففي أول طلوعه يكون الضيا ضعيفا جدا بحيث لا يدركه البصر لضعف البصر كما صرح به في المواقف الا ترى أنه بعد اعتبار وقت طلوعه بزمن قريب يظهر منتشرا لكل بصر سليم في ذلك القطر وما كان ذلك الا لكونه ينتشر شيئا فشيئا اذ من المعلوم ان سير الشمس تدريجي كغيره من الافلاك البطيئة فقوله ان الحس كما يدل على وجود الفجر يدل ايضا على عدمه ممنوع اذ عدم ادراك الحس لضيا الفجر لا يدل على عدم الفجر في الواقع حسبما علمت ان طلوعه على القطر يكون جزئيا شيئا فشيئا وان البصر مع ضعفه لا يدرك اول طلوعه مع اتساع الافق مع ما وقع له تسليمه من ان

الحساب قطعي الا ان الشارع لم يعتبره في الصوم فقط وعلى هذا فلا يلزم ما ذكره من لزوم ايقاع الصلاة قبل وقتها ولا وجوب الامساك قبل وقته المقدر فيه شرعا. نعم لو كنا نقطع بان البصر يدرك الفجر في أول طلوعه لتم البحث وما ذكره الشهاب فيه موافقة الى ما قاله ابن دقيق العيد حسبما نقله عنه الشهاب الرملي الشافعي في فتاواه اذ قال ما نصه قال ابن دقيق العيد الحساب لا يجوز الاعتماد عليه في الصلاة اه. لكنه مخالف لما عليه السلف والخلف فان الجمهور على اعتبار ذلك في اوقات الصلوات كما سبق تقريره من كلام الشهاب. نعم كون الحساب قطعيا ليس بمجمع عليه فقد نقل العالم الامام الابي في شرح صحيح مسلم عن بعض المالكيه ان الحساب حدس وتخمين ولا يجوز الاعتماد عليه الا في القبلة واوقات الصلوات اه. ولعله انما اعتبر على هذا القول لانه غاية ما يمكن في التوصل الى معرفة القبلة ومعرفة دخول اوقات الصلوات فيرجع الامر فيه الى غلبة الظن وهي منزلة منزلة اليقين شرعا كما صرح به بعض الفقهاء في غير ما موضع من كتب الشريعة بخلاف الهلال كما سياتي تحريره حيث اناط الشارع وجوب الصوم بالرؤية لا بمجرد طلوع الهلال على القطر وخروجه عن شعاع الشمس وان لم يكن بحيث يراه البصر السليم .

البحث الثاني ان المالكية جعلوا رؤية الهلال في بلد من البلاد سببا لوجوب الصوم على جميع اقطار الارض ووافقهم الحنابلة على ذلك وقالت الشافعية لكل قوم رؤيتهم واتفق الجميع على ان لكل قوم فجرهم وزوالهم وعصرهم ومغربهم وعشاءهم فان الفجر اذا طلع على قوم يكون عند ءاخرين نصف الليل وعند ءاخرين نصف النهار وعند ءاخرين غروب الشمس الى غير ذلك من الاوقات وما من درجة تطلع من الفلك او تتوسط او تغرب الا وفيها جميع الاوقات بحسب آفاق مختلفة واقطار متباينة فاذا طلعت الشمس في اقصى المشرق كان نصف الليل عند البلاد المغربية منهم او اقل من ذلك او اكثر على حسب البعد من ذلك الافق فاذا غربت في اقصى المغرب كان نصف الليل عند البلاد المشرقية او اقل او اكثر بحسب قرب ذلك القطر من القطر الذي غربت فيه الشمس وكذلك بقية الاوقات تختلف هذا الاختلاف ولذلك وقع في الفتاوى الفقهية مسالة اشكلت على جماعة من الفقهاء في اخوين ماتا عند الزوال احدهما بالمشرق والآخر بالمغرب أيهما يرث صاحبه فافتى الفضلاء من الفقهاء بان المغربي يرث المشرقي لان زوال المشرق قبل زوال المغرب فالمشرقي مات اولا فيرثه المتأخر لبقائه حيا متأخر الحياة فيرث المغربي المشرقي

اذا تقرر الاتفاق على ان اوقات الصلوات تختلف باختلاف الافاق وان لكل قوم فجرهم وزوالهم وغير ذلك من الاوقات فيلزم ذلك في الاهلة بسبب ان البلاد المشرقية اذا كان الهلال فيها في الشعاع وبقيت الشمس تتحرك مع القمر الى الجهة الغربية فما تصل الشمس الى افق المغرب الا وقد خرج الهلال من الشعاع فيراه اهل المغرب ولا يراه اهل المشرق واذا كان الهلال يختلف باختلاف الافاق وجب ان يكون

لكل قوم رؤيتهم في الاهلة كما ان لكل قوم فجرهم وغير ذلك من اوقات الصلوات وهذا حق ظاهر وصواب متعين، لما وجوب الصوم على جميع الاقاليم برؤية الهلال بقطر منها فبعيد عن القواعد والادلة لم تقتض ذلك اه. كلام الشهاب وانا اقول في الجواب من جهة المالكية والحنابلة وكذلك الحنفية على ما هو ظاهر المذهب عندهم وهو الذي عليه الفتوى كما نقله زين ابن نجيم في البحر عن الخلاصة ان الخطاب تعلق عاما في الصوم بمطلق الرؤية في حديث صوموا لرؤيته فان الظاهر منه مطلق الرؤية اذ لم يعلقه الشارع برؤية اهل القطر بخصوصه حتى يجب اعتبار رؤية اهل القطر لا رؤية غيرهم من أهل الارض وحيث تعلق عاما على ما هو الظاهر فيجب صوم اهل الارض برؤية اهل قطر منهم نعم قد ذكر العالم الامام الابي في شرح صحيح مسلم ان الحديث محتمل قال ما نصه الحديث يحتمل الامرين لان قوله صوموا لرؤيته يحتمل ان يريد اي رؤية كانت ويحتمل ان يريد لرؤيتكم انتم اه. وهذا الاحتمال الثاني هو الذي جنح اليه الامام فخر الدين ابو محمد عثمان الزيلعي في التبيين وايده منلاخسرو في الدرر بان كل قوم مخاطبون بما عندهم في اوقات الصلوات وبعدم وجوب العشاء والوتر على فاقد وقتهما اه. فبحث الشهاب مسبوق به للحنفية وغيرهم ولما كان امر العبادات مبنيا على الاحتياط مع كون الاسلوب ورد بكيفية عامة على ما هو الظاهر وجب اعتباره وترك الاحتمال الآخر حتى يقوم عليه دليل خاص في المقام واعتبار القياس على الصلاة لا يفيد مع قيام النص الظاهر منه اعتبار الرؤية مطلقا مع كون الاحتياط خلافه ولهذا قال الشيخ كمال الدين ابن الهمام في فتح القدير الاخذ بظاهر الرواية احوط اه. كلامه رحمه الله فقول الشهاب ان الادلة لم تقتض ذلك ممنوع

بقي هاهنا بحث آخر وهو انه قد سالني بعض من احبابنا الفضلاء وهو انه اذا راى الهلال شخص واحد في حال الغيم أو اكثر منه في حال الصحو وكانت الرؤية بواسطة المرءاة المسماة مرءاة الهند وكان بحيث لولا المرءاة لم ير الهلال فهل تكون هاته الرؤية معتبرة شرعا حتى يلزم الناس الصوم بتلك الرؤية او لا تكون معتبرة شرعا حتى لا يلزم الناس الصوم بتلك الرؤية ؟ واقول في الجواب عنه اما اولا ان هذه الصورة التي صورها السائل غير معقولة وذلك لان الهلال اذا لم يخرج من شعاع الشمس لا يمكن رؤيته لا بالمرءاة ولا بغيرها من البصر السليم وذلك لان المرءاة لا تزيل شعاع الشمس الذي هو نور ذاتي لها كما صرح به صاحب المواقف وغيره عن الهلال حتى تمكن رؤيته لان المرءاة المذكورة غاية ما تفيد انها يرى بها الصغير كبيرا مع بعد المسافة واما ازالة النور عن المرءي بحيث يرى بها لا بغيرها فكلا. وايضا اذا لم يخرج الهلال عن شعاع الشمس لم يكن موجودا اصلا لانه لا وجود لنوره الا بمقابلة الشمس وهذا ظاهر لا شك فيه اذا تقرر هذا فاذا رئي الهلال بالمرءاة المذكورة كان بحيث يرى بالبصر السليم وحينئذ فلا تتحقق الصورة التي صورها السائل واما ثانيا فاقول على فرض تسليم معقولية هذه الصورة ان الرؤية بالمرءاة معتبرة شرعا فيلزم الناس الصوم على مقتضى فروع المذهب

المذكورة في غير هذا الباب الدالة على اعتبار الرؤية بالمرءاة رؤية حقيقية شرعا وان لم ار نصا في المسئلة في هذا الباب فمن الفروع ما ذكره اصحابنا كصاحب البحر والفتح والتنوير وغيرهم في فصل المحرمات من كتاب النكاح من انه يحرم على الرجل اصول المراة وفروعها المنظور الى فرجها الداخل من زجاج او ماء هي فيه ولا يحرم اصول المراة المنظور الى فرجها الداخل من مرءاة او ماء هي خارجة عنه قال الشيخ كمال الدين ابن الهمام في فتح القدير لان المرءي في المسئلة الاولى عينه وفي المسئلة الثانية مثاله لا هو لان البصر في المسئلة الاولى ينفذ فيرى نفس ما فيه وان كان لا يراه على الوجه الذي هو عليه ومنها ما صرحوا به في باب اليمين في الاكل والشرب من كتاب الايمان اذا حلف لا ينظر الى وجه فلان فرءاه خلف الزجاج وتبين الوجه يحنث لا من المرءاة كما في البزازية قال الشيخ كمال الدين ابن الهمام في فتح القدير والعلة في هذا هو ما ذكرناه سابقا من ان المرءي خلف الزجاج عينه ومن المرءاة مثاله. ومنها ما ذكره اصحابنا في باب خيار الرؤية من كتاب البيع انه اذا اشترى سمكة رءاها في الماء كان له خيار الرؤية قال الكمال ابن الهمام في فتح القدير لانه وان كان مرءيا حقيقة لكن لا يراه على الوجه الذي هو عليه فلذا كان له الخيار لان المطلوب في هذا الباب الرؤية حقيقة على ما هو عليه وفي المسئلة خلاف قال في البحر نقلا عن التحفة لو نظر في المرءاة فرأى المبيع قالوا لا يسقط خياره لانه ما راى عينه بل مثاله ولو اشترى سمكة في ماء يمكن اخذه بلا اصطياد فراءها فيه قيل يسقط خياره لانه راى عين المبيع وقيل لا يسقط لانه لا يرى في الماء على حاله بل يرى اكبر مما كان فهذه الرؤية لا تعرف المبيع اهـ. كلامه فانظر كيف اتفقوا على ان الرؤية وقعت على عينه وانما قال اصحاب القول الثاني بعدم السقوط لانه يرى اكبر مما كان لا لانه لم ير حقيقة. اذا تقرر هذا فاذا راى الهلال شخص واحد في الغيم او اكثر في الصحو فان تلك الرؤية صحيحة شرعا فيلزم الناس الصوم لانهم رأوا الهلال بحقيقة برؤية عينه ويصدق عليه الحديث فيجب الصوم على الناس بهذه الرؤية ولا مانع يمنع من اعتبارها شرعا على مقتضى اعتبار الرؤية بالمرءاة شرعا رؤية حقيقية غاية ما في الباب انه يرى الهلال اكبر مما كان وهذا لا يضر في تحقق الرؤية نعم عدم التكلف للرؤية بالمرءاة ليس شرطا في الرؤية وفرق بين اشتراط عدم الشيء وعدم اشتراطه والمسئلة من القسم الثاني قطعا اذ الشارع لم يشترط في الرؤية التكلف بالآلات كالمرءات ونحوها لكن اذا وقع في الخارج ورأوا الهلال بالمرءات فلا جرم تكون الرؤية المذكورة معتبرة شرعا حيث كانت الرؤية واقعة بالعين على عين المرءي نعم لو رىء الهلال من المرءاة بالانعكاس حتى كان المرءي مثاله لا عينه فهذه الرؤية غير معتبرة شرعا فلا يلزم الناس الصوم بهذه الرؤية قطعا وانما يلزمهم بالاولى فقط لكن اعتبار الرؤية شرعا في هذا الباب ليس على اطلاقه بل السببية فيه مشروطة بشرط وهو خروج الهلال عن شعاع الشمس فتكون الرؤية سببا لوجوب الصوم على الناس بشرط ان يخرج عن شعاع الشمس

وهو شرط للوجوب ويدل على هذا ما ذكره شهاب الدين القرافي في الفرق الثاني والمائة من الفروق اذ قال ما نصه واما الاهلة فلم ينصب صاحب الشرع خروجها عن شعاع الشمس سببا للصوم حتى يكون مجرد الخروج سببا لوجوب الصوم بل اعتبر رؤية الهلال خارجا عن شعاع الشمس هو السبب اه وعلى هذا فلا يجب الصوم على الناس بمجرد الرؤية المذكورة على فرض تحققها وماخذ الشرطية من جعل خارجا حال ومن المقرر في الاصول ان الاحوال شروط كما هو مذكور في كتب الشريعة هذا الذي تحرر لي في المسئلة والعلم امانة في عنق العلماء كما قاله ابن نجيم في البحر

وقوله صلى الله عليه وسلم الشهر هكذا وهكذا الخ قال الامام الابي في شرح صحيح مسلم في هذا الحديث الارشاد الى تقريب الاشياء بالتمثيل وهذا الذي قصده صلى الله عليه وسلم ولم يمنع ذلك لاجل ما وصفهم به من الامية لا يحسبون ولا يكتبون لانهم لا يجهلون الثلاثين والتسع والعشرين مع ان التعبير عنها باللفظ اخف من الاشارة المكررة

وأنما وصفهم بذلك سدا لباب الاعتداد بحساب المنجمين الذي تعتمده العجم في صومها وفطرها وفصولها وفي هذا الحديث اعتبار الاشارة في الاحكام وانها بمنزلة النطق في الطلاق والبيع والوصايا وغير ذلك . وفيه صحة طلاق الابكم واقراره وشهادته وحده للقذف اذا فهم منه القذف نص على جميع ذلك في المدونة اه اقول مذهب اصحابنا الحنفية في الاشارة فيها تفصيل اما الاخرس وهو الابكم فقد قال ابن نجيم في الاشباه الاشارة من الاخرس معتبرة وقائمة مقام العبارة في كل شيء من بيع وهبة ورهن ونكاح وطلاق وعتاق وابراء واقرار وقصاص الا في الحدود ولو حد قذف فلا تثبت بالاشارة وكذلك الشهادة فانها لا تقبل و ما يمينه في الدعاوي ففي ايمان خزانة الفتاوي وتحليف الاخرس ان يقال له عليك عهد الله وميثاقه ان كان كذا فيشير بنعم قال الشيخ كمال الدين ابن الهمام والمراد باشارته التي يقع بها طلاقه الاشارة المقرونة بتصويت منه لان العادة منه ذلك فكانت بيانا لما اجمله ثم انهم اختلفوا في ان عدم القدرة على الكتابة شرط للعمل بالاشارة والمعتمد عدم الاشتراط نعم لا بد في اشارة الاخرس من ان تكون معهودة منه والالم تعتبروها هنا فروع لم ارها الان الاول اشارة الاخرس بالقراءة وهو جنب ينبغي ان تحرم عليه اخذا من قولهم ان الاخرس يجب عليه تحريك لسانه بها فجعلوا التحريك قراءة . الثاني علق الطلاق بمشية اخرس فاشار بالمشية ينبغي الوقوع لوجود الشرط الثالث لو علق بمشية رجل ناطق فخرس فاشار بالمشئة ينبغي الوقوع ه وبحث الفاضل الحموي في الفرع الاول بقوله في الاخذ من ذلك نظر لان جعلهم التحريك قراءة تكليف بالقراءة بحسب الامكان في باب العبادات ولذا قالوا الاقرع يجري الموسى على راسه وان لم يكن بها شعر في باب الحج تكليف بالحلق بقدر الامكان في باب العبادات ولم يعهد مثل ذلك في باب المحرمات اه يعني ومسئلتنا من باب المحرمات لا من باب العبادات واما غير الاخرس فان كان معتقل

اللسان ففيه اختلاف والفتوى على انه ان دامت العقلة الى وقت الموت يجوز اقراره بالاشارة والاشهاد عليه ومنهم من قدر الامتداد بسنة وهو ضعيف وان لم يكن معتقل اللسان لم تعتبر اشارته مطلقا لا في الحدود ولا في غيرها الا في اربع ـ الكفر والاسلام والنسب والافتاء. كما تنقيح الحامدية ويزاد اخذا من مسئلة الافتاء بالراس اشارة الشيخ في رواية الحديث وآمان الكافر والطلاق اذا كان تفسيرا لمبهم كما لو قال انت طالق هكذا واشار بثلاث وخص الثلاث اما لو قال انت طالق واشار بثلاث لم يقع الا واحدة واما لو قال انت هكذا مشيرا باصابعه ولم يقل طالق فقال في الاشباه لم ار فيه نصا قال الفاضل الحموي في حواشيه قال بعض الفضلاء يجب ان لا يقع شيء ولو نوى الطلاق لان اللفظ لا يشعر به والنية لا تؤثر بدون اللفظ اه وانما لم يقع الا واحدة في قوله انت طالق واشار بثلاث لفقد التشبيه بالعدد قال الفاضل القهستاني في شرح النقاية لانه كما لا يتحقق الطلاق بدون اللفظ لا يتحقق عدده بدونه ايضا اه واما ما نقله الحموي عن بعض الفضلاء وهو خير الدين الرملي فقد بحث فيه في رد المحتار اذ قال ورأيته بخط السايمحاني مقتضى ما في الخانية من قوله ولو قال لامرأته انت ثلاث قال ابن الفضل اذا نوى يقع انه يقع في مسألتنا اذا نوى قال الفاضل الرحمتي لان الظاهر ان هكذا مثل قوله ثلاث قال في رد المحتار لان كلا منهما مرتبط بلفظ طالق مقدر وقول خير الدين الرملي ان اللفظ لا يشعر به ممنوع وتمامه فيه. ثم على مقتضى ما ذكره الابي في شرح صحيح مسلم من ان الحديث فيه الارشاد الى اعتبار الاشارة كالنطق يرد على اصحابنا الحنفية الاشكال بانكم قد خالفتم ما دل عليه الحديث من عدم اعتبار اشارة الناطق مطلقا الا في المسائل المستثناة فما وجه ذلك وما وجه استثناء تلك المسائل وما وجه عدم اعتبار اشارة الاخرس في الحدود ولو حد القذف ؟ فالجواب عنه اما عن المخالفة فبالمنع وذلك لان الحديث ورد مورد التشريع والتعليم فهو من قبيل الفتوى وقد علمت استثناءها فلا يدخل فيه ما كان من غير ذلك القبيل حتى يكون مرشدا الى اعتبار الاكتفاء بالاشارة في غيره. واما عن استثناء تلك المسائل فاما عن الكفر والاسلام فللحديث الذي رواه في شرح الشافية ان جارية اريد اعتاقها في كفارة فجيء بها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسالها اين الله فاشارت الى السماء فقال اعتقها فانها مسلمة نقله الفاضل الحموي في حواشي الاشباه. واما عن الافتاء فقد قال في مجمع الفتاوي انما اعتبرت الاشارة فيه لان جواب المفتي ليس بحكم متعلق باللفظ انما اللفظ طريق معرفة الجواب عند المستفتي واذا حصل هذا المقصود استغنى المستفتي عن اللفظ كما لو حصل الجواب بالكتابة بخلاف الشهادة والوصاية فانهما يتعلقان باللفظ. والاشارة انما تقوم مقام اللفظ عند العجز عنه اه وأما عن النسب فلان الاشارة يفهم منها المقصود في الجملة وانه يحتاط في اثباته ولذا اثبتوا نسب ولد المشرقي من المغربية ومثله امان الكافر فانه يحتاط فيه ايضا فكان اعتبار الاشارة فيهما الاحتياط. واما عن الطلاق فلانا قلنا باعتبار الاشارة حيث وقعت تفسرا للمفهم لا وحدها قال الامام الزيلعي في التبيين ان الاشارة بالاصابع تفيد العلم بالعدد عرفا وشرعا اذا اقترنت بالاسم المبهم. واما عن عدم اعتبار اشارة الاخرس في الحدود مع ان اشارته صحيحة شرعا فلان الاشارة لا تخلو عن احتمال وهو شبهة والحدود تدرأ بالشبهات صرح به ارباب كتب المذهب في ابواب الحدود لقوله صلى الله عليه وسلم ادرؤا الحدود بالشبهات ما استطعتم وهذا الدرء كان رحمة من المولى الكريم انزله على لسان رسوله الرؤف الرحيم عليه منا افضل الصلاة وأزكى التسليم .

التشريع الاسلامي

معنى دين الاسلام وشريعته ـ ما نتمايز به الاديان ـ المقصد من الارسال
حكمة التدريج في التشريع ـ الاحكام الشرعية اهي مؤبدة ام موقته

بقلم العلامة الكبير فضيلة الشيخ محمد العزيز
جعيط المفتي المالكي والاستاذ بجامع الزيتونة

دين الاسلام وشريعته

قد تواطأت كلمة المسلمين على اختلاف طوائفهم وتباين منازعهم تواطأ هجم على ربات الحجال في قصورهن وبلغ الرعاة في شعف الجبال ان دين الاسلام وشريعته جملة اعتقادات وءاداب وطاعات واحكام متلقاة من المرشد الاعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فما دعا اليه عليه الصلاة والسلام من لاعتقادات التي يظاهرها الاحلام الراجحة وينصرها التدبر الصادق مما يفضي الى معرفة الله عز وجل او يكشف عما هو متوار بحجاب الاستتار من احوال الآخرة وما جاء به عليه الصلاة والسلام من الاداب القيمة المزكية للنفوس والصادة عن الانغماس في حمأة الرذيلة وما امر به من الطاعات سواء في ذلك ما تجلت حكمته وما دق امره وما شرعه من الاحكام اللاحقة باحوال الحياة كل ذلك امسمى دين الاسلام وشريعته ويشهد لكون الاحكام من الدين قوله تعلى ولا تاخذكم بهما رافة في دين الله فجعل اقامة الحد من دين الله وقوله صلى الله عليه وسلم (في حديث الصحيحين في بيان الايمان والاسلام والاحسان) فانه جبريل اتاكم يعلمكم دينكم فسمى الجميع دينا وما معنى الايمان بالرسل الا تصديقهم في الارسال وفيما جاءوا به ومن جملة ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام الاحكام اللاحقة باحوال الحياة

ما نتمايز به الاديان

الاديان والشرائع وان تعددت واختلفت بتعدد الارسال الا انها مرتضعة افاويق الوفاق فيما يتطلع الى الاعتقادات المتعلقة بالربوبية واحوال الآخرة والى الاخلاق الفاضلة وانظر الى دعواهم لعبادة الله كيف اتحدت وفي القرءان من ذلك انموذج عظيم ولتواطئهم في الاعتقادات على شيء واحد امر الله نبيه بالاقتداء بهداهم فقال بعد ان ذكر جماعة من المرسلين اولئك الذين هدى الله **فبهداهم اقتده**

اما الاحكام وكيفية العبادات فهي التي ربما تختلف فيها كما يرشد اليه كتاب الله فيما قصه علينا في حق عيسى عليه السلام فقال جل ثناؤه (ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولا حل لكم بعض الذي حرم عليكم) ويفصح به قول الله تعلى في وصف النبيء الامي سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام (يامرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم) اي يحل لهم الطيبات مما حرم عليهم ويضع عنهم الثقل والشدائد التي كانت عليهم كقتل النفس في التوبة وقطع اثر النجاسة وقال تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا

المقصد من الارسال

المقصد الاسمى من الارسال والفائدة له نفخ روح الاعتقادات الطاهرة في ارجاء الصدور والتجميل بصبغة الاخلاق الفاضلة والتلقين لما يقرب الى الله تعالى زلفى من الطاعات وتقرير الاحكام المتعلقة باحوال الحياة يشهد لذلك قوله تعالى (هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) وقد علمت مسمى الدين فيما سلف وقوله تعالى (لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) اي القرءان والسنة ومن جملة ما تضمناه العقائد والاخلاق والقواعد العامة والاحكام الجزئية ولو لم يكن من مقاصد الارسال ما وقع الامتنان به ومثل ذلك قوله تعالى (كما ارسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم اياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة الآية ولهذا اخذ النبيء صلى الله عليه وسلم العهد على الوفاء في الاعتقادات والاحكام والاداب فقال (كما في صحيح البخاري عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه) بايعوني على ان لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا اولادكم ولا تاتوا ببهتان تفترونه بين ايديكم وارجلكم ولا تعصوا في معروف فبايعوه على ذلك

حكمة التدريج في التشريع

الارسال وان تضمن فوائد جمة للعباد بيد ان المرسل به ورد في الاكثر على سبيل التدريج وبحسبك نزول القرءان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اول ما بعثه الله بمكة وهو ابن اربعين سنة الى ان توفاه اليه بالمدينة فكانت مدة نزوله عليه عشرين سنة او ثلاثا وعشرين على حسب الاختلاف في سنه عليه الصلاة والسلام والحكمة في ذلك التيسير على الناس وتهيئتهم لقبول ما يرد عليهم فان النفوس اذا صقلت مرءاتها بالاعتقادات الطاهرة وتشبعت من الاخلاق الفاضلة وارتاضت بالطاعات لربها مرنت على الائتمار لاوامر مرشدها والانتهاء عن نواهيه وفي ورود ذلك دفعة واحدة حرج الفصال عن المالوف جملة والتباعد عن المعتاد بغتة فكان من اللطف بالعباد والرحمة لهم ان تلقوا ذلك في ازمنة متعددة لم يشعروا فيها بثقل التكاليف ووقر الاحكام وعلى هذا السنن وردت

الشريعة السمحة فكانت مناهلها عذبة سائغة للشاربين وما خرج صلى الله عليه وسلم من الحياة الدنيا حتى ضرب الدين بعطن وكملت احكامه قال تعالى اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا

والتدريج في الشريعة من الله تعالى كما رايت اما النبي صلى الله عليه وسلم فلم يكن ليعرض عن التبليغ وما كان ليصده عن الضرب به بين ظهرانيهم توقع الاعراض ولا خيفة النفور من العباد وقوفا عند امر الله تعالى القائل يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالاته والله يعصمك من الناس والقائل فاحكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا

الاحكام محمولة على التابيد

الاحكام الموحى بها الى النبي صلى الله عليه وسلم محمولة على الدوام اعتبارا بالظاهر منها ولا يرفع ذلك الا ورود ما ينسخها بوحي من الله تعلى وقد انعقد على ذلك اجماع الكافة واشتهر اشتهارا استوى في العلم به خاصة الناس وعامتهم حتى حكى القاضي عياض في الشفا الاجماع على تكفير كل من دافع نص الكتاب او نص حديث مجمع على نقله مقطوع به مجمع على حمله على ظاهره اه. ومتى مست الاحكام يد التغيير بغير طريق الشرع لم تنسب الاحكام الجديدة للشريعة وانما تنسب لمغيرها كحالة القوانين الوضعية ومما يزيد ذلك ايضاحا ويترك الشبه تتضاءل حوله افتضاحا ان الشرائع ما تعددت الا باعتبار تغير الاحكام فالشريعة الموسوية مثلا لم تنسب لموسى عليه السلام الا باعتبار الاحكام المتغيرة عن حالتها في الشرائع التي بين يديها اذ لا اختلاف بين الشرائع في غير الاحكام والطاعات كما علمت ولهذا كان الانبياء المبعوثون لتعليم شريعة سالفة واحيائها لا تنسب اليهم تلك الشريعة وانما تنسب لمن شرعها اولا بامر ربه كانبياء بني اسرائيل المبعوثين بشريعة موسى عليه وعليهم السلام فتغير الاحكام يوجب ان يكون ذلك شريعة اخرى غير الشريعة المتقدمة على ان الاحكام لو كانت مشروعة اعتبارا بما يناسب الاحوال الحاصلة وقت ورودها حتى يلزم تغيرها بتغير تلك الاحوال لنبه على ذلك الشارع رفعا للبس وحماية من الوقوع في مهاوي الضلال كما بين ان النهي عن ادخار لحوم الاضاحي لحالة عرضت وهي الدابة التي نزلت المدينة واذ ضرب النبي صلى الله عليه وسلم عن بيان هذا صفحا فمن انبانا ان مشروعية تلك الاحكام باعتبار الاحوال العارضة حتى تحدثنا انفسنا بامكان تغييرها شرعا وانظر انكار الصحابة على مروان بن الحكم لما قدم الخطبة في العيدين على الصلاة في خلافة معاوية رضي الله عنه ولم يصغ الى ما تعلل به من تغير الاحوال

ولو كانت الاحكام تتغير بتغير الاحوال ما صح الوعد بالجنة لمن قرا القرءان واحل حلاله وحرم حرامه ولا امر الرسول صلى الله عليه وسلم باتباع سنته ولا نهيه عن المحدثات مع ان الاحاديث في ذلك كثيرة اخرجها الترمذي وابن ماجه وابو داود والطبراني وغيرهم

محمد العزيز جعيط

حكمة الصوم والحج

بقلم العلامة الكبير مفخرة المغرب الشيخ محمد
الحجوي مندوب المعارف بالحكومة الشريفية

ان الله شرع للمسلمين شرائع عالية تهذيبا لهم وتدريبا ، ورياضة على الاخلاق العالية كالصوم والحج والزكاة وغيرها

ان الصوم شرعه الله والنبي صلى الله عليه وسلم بعث في جزيرة العرب القاحلة الكالحة بشمسها وغليان رمالها ففرض عليهم صوم نصف سدس السنة فقبلوا وامتثلوا وضحوا بنصف سدس عمرهم لا يتمتعون فيه بحرية في اكل ولا شرب ولا نوم. هجروا ملذاتهم على ضئالة الملذاب ونزرة نعيم الحياة الدنيا في تلك الارض الجرداء العطشى. تدريبا لهم ان يتهيأوا للاسفار الشاقة كي يصبروا على لايوائها ويزهدوا في ملذاتهم لينالوا الشرف الاعظم وليتذوقوا ما يقاسيه الجائع من فقر او غربة ليواسوه ولا يتركوه عرضة الهلاك ولذلك اوجب عليهم الزكاة والكفارات ليجدوا صندوق احتياط لديهم يواسوه منه. ويستل من البخيل رغم انفه. لذلك كان عثمان بن عفان الخليفة الثالث يخطب الناس في رمضان يامرهم باخراج زكواتهم مواساة للفقراء والضعفاء وذوي الاستحقاق

كما ان للصوم فوائد اخرى ادبية صحية ينتفع بها الجسم لا سيما ذوو الثراء والتنعم وذلك معلوم من قواعد الصحة مشهور لدى غير المسلمين فاحرى عند المسلمين ولذلك كان الصوم موجودا عند كل الامم او جلها غير المسلمين وقبل الاسلام كما قال تعلى كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم الآية غير انه لم يكن مدة شهر رمضان الذي انزل فيه القرءان

ان المسلمين فرطوا في اكثر الشرائع التي اكرموا بها ولم يعرفوا لها قيمة في متأخر الازمان كما هو مشاهد الا الصوم والحج

لاي شيء تحافظوا عليهما . . . ؟

تحافظوا عليهما لما يعلمون انهما رياضة على التضحية بل على اعلى انواعها وهي التضحية النفسية

في الصوم يضحي الانسان بما به قوام حياته الخاصة وملذاته الشهوانية من تمتع باكل وشرب وراحة ونوم ونكاح ومقدماته بل حتى بالتفكر في مقدماته فهم يروضون انفسهم على هذه العبادة الشاقة نعم المتناهية في ذلك في كل الفصول سواء برد الشتاء وزمهرير الثلج او قيظ المصيف وضيق النفس من لاوائه او نعيم الربيع وازهاره والخريف وثماره

ولقد بقي المسلمون محافظين على هذه الشريعة باعتبار المجموع واغلب كل امة منذ ثلاثة عشر

قرنا ونصف لم يفعلوا فعل الامم قبلهم التي ادخلت على صيامها انواعا من التغييرات حتى انعدم عندهم تقريبا الا ما شذ وهكذا تحافظوا على هذه الشعيرة العظيمة الفعل في التهذيب حتى من لم يكن يصلي ولا يفعل شيئا من شعائر الاسلام تجده محافظا كل المحافظة على الصيام. لم تستهوهم المدنية العصرية وما يرونه عند الامم الاخرى من الاستهتار في أتباع الشهوات والتفنن في الملذات واختراع الفتاوي والبهت في الدعاوي وتقنين قوانين سفسطائية يسقطون بها هيئة الديانات والتمسك بشرع السموات مع ما يظهر كل حين من بهرجة الحياة والرقي في انواع البذخ واستجلاب اصناف الراحات كل ذلك لم يؤثر على افكار مجموع الامة الاسلامية ولله الحمد. فترى الجمهور يستقبل هذا الشهر العظيم شهر الرياضة والشفقة والرقي الروحي بابتسام حقيقي وفرح جدي لا تصنع فيه ولا نفاق باتم فرح واكمل سرور فيهجرون فيه كل حرية نفسية ويمتثلون الاوامر القدسية ويعبدون الله وهم فرحون مسرورون مع انهم في الحقيقة متالمون لكن لا يحسون بالم ولا يتوجعون او يتفجعون بل بالعكس يتنعمون لانهم يعلمون انه تدريب لهم على التضحية كالتدريب على الخدمة العسكرية عند المتمدنين. لذلك كان اعظم غزاة ظهر فيها الاسلام وقعت في اول رمضان شرع فيه الصيام في السنة الثانية. ان المسلمين يعلمون انهم بالتدريب على الصيام امكن لسلفهم في مدة اثنتي عشرة سنة ان يبلغوا من المدينة المنورة الى الحدود الهندية والصينية شرقا والى طرابلس الغرب غربا والى سواحل البحر المتوسط والبحر الاسود والى السودان المصري فهذه هي الخريطة الاسلامية التي تركها لهم عمر بن الخطاب وبلغها بعد نبينا عليه السلام هو والخليفة قبله في مدة نحو اثنتي عشرة سنة بدون طيارة ولا مدفع ولا دباب ولا غواص ولا اسطول ولا سكة حديد ولا سيارة ولا سلك ولا لاسلكي وانما هو الايمان مع الارتياض على التضحية. وتحمل كل رزية. كان العربي يركب فرسه ويحمل شيئا من دقيق الشعير المقلى وجرعة ماء يقطع الفيافي ويحارب الشمس والمطر والثلج والوعر والوحش بالصبر والرياضة والايمان

وهكذا هو الحج ايضا رياضة على السفر الى مسافات شاسعة ثم عند الوصول لمكة المشرفة يروض نفسه على ان يتساوى مع الناس كلهم في الشارة واللباس سواء الملوك والسوقة وفي المجالس ويتخالط المسلم مع اخيه سواء كان اسود او أحمر او اصفر او ابيض ليكمل كل واحد ما يراه من النقص في الجنس الآخر بالارشاد والامداد ويعرف احوال العالم الاسلامي كله ويتنازل عن انانيته ان كان عظيما فينزل الى التسوية والى الديموقراطية الحقيقية

ويتنازل عن حريته فلا يقفُ في عرفات او مزدلفة الا في محل كذا ويرمي الاحجار في محل كذا بالخصوص متساويا مع غيره ويروض نفسه على ان يفخمها ويتادب فيسميها جمارا مثلا وهكذا كل افعال الحج والعمرة لها حكم يضيق الوقت عن استقصائها. ولعل في هذا التنبيه بيانا لباقيها ـ

وبهذا يتبين وجه المحافظة على ابقاء الحج بالاشهر العربية. والصوم كذلك لتكون رياضتهما متاتية في الفصول كلها

حتى ان يوم اول رمضان واول شوال واول ذي الحجة ابقاه المسلمون على حاله كما كان في زمن النبوة يعتمد فيه رؤية الهلال ولا نقلد منجما ارشادا لنا الى الديموقراطية العجيبة يتساوى فيها طبقات الامة المنجم وغير المنجم وكل واحد يمكنه ان يشاهد الهلال ولا يقلد فيه ولا يجعل للمنجم أريستوقراطية (اومسولينية) ومن يضمن لنا عدم غلط المنجم

وفي ذلك تدريب للامة على التفكير والنقد واعطاء الراي والاجتهاد وبذل المجهود واظهار الاعتناء بهذه الشعائر الهامة ولنضرب مثلا

اذا اجتمع مغربي وتونسي تجدهما يتذاكران بتمام الحرية والصفاء ويتدربان على تبادل الاراء بانصاف عقب رمضان

المغربي مثلا يقول لاخيه التونسي عجب كيف تتقدمون قبلنا كل سنة (١) بيومين كاملين في خصوص شعبان ورمضان وشوال دون بقية الشهور لاي شيء يا اخي نختلف ونحن امة واحدة وجنس واحد ولغة واحدة ودين واحد ومذهب واحد (لان الهلال الامر فيه بتونس للمالكية) وثقافة واحدة ووجهة واحدة وان التفاوت في خصوص الشهرين بيومين كاملين لا يخلو من مغزى دقيق تريدون ان تتقدموا علينا في كل شيء . ام تظنون ان بيننا من البعد ما يوجب هذا الفرق . . ؟ كلا فليس هناك ما يوجبه . نعم لو كان يوم واحد لاحتمل ولكان في السنة كلها . لكنه يومان وفي شهرين فقط وفي الغالب تتقدمون على الشرق والغرب معا ولا يعضدكم الفلكيون فها انتم في هذين الشهرين تكونون اميريكيين ثم يقع التدحرج في الشهور شيئا فشيئا حتى يرجع الامر الى اتفاق . يا اخي اظن ان لكم حبسا يتقاضاه الشهود ان سبقونا فان لم يسبقونا حرموا . ان كان هذا فالواجب ابطال هذا الحبس لانه حبس يؤدي الى حرام . التونسي يجيب اخاه في هدو ومجاملة كما هي سجيته المباركة. ويقول والله يا اخي لا يوجد هذا ولا ذاك ولا ذاك وانما الديموقراطية قد يبالغ فيها حتى تؤول الى اريستوقراطية . والشيء اذا جاوز حده استحال الى ضده . ان الشريعة جعلت للشهود حرية آلت الى ديكتاتورية . ياتينا الشهود فيقولون راينا الهلال فكيف نكذبهم ؟ فيقضى الامر بما يقولون . . ؟ فنسأل الله ان يمد قضاتنا بروح نقد نزيه يقدرون به على القبول والرد . وكل امة انعدم منها النقد وقف رقيها بل صار الى وراء

المغربي : والله اني لاتألم اذا سمعت النقد من الاجانب في مثل هذه المسالة البسيطة التي صعب علينا ان نتفق فيها فكيف نفعل لو كانت عندنا مشاكل غيرنا الصعبة الحل

---

(١) يستثنى عام ٥٣ وعام ٥٤ وعام ٥٥ فقد وقع اتفاق القطرين

صفحة من تاريخ تونس

التاريخ

وزراء تونس قبل الحماية وبعدها

بقلم العالم المؤرخ امير الامراء سيدي
محمد بن الخوجه مستشار الحكومة التونسية

قبل التعريف بخطة الوزراء والقابهم في نظام الدولة التونسية على عهد الحماية الفرنساوية وقبلها يستحب التعريف اولا بمعنى الوزارة في اصطلاح اهل النظر قديما وحديثا . فالوزارة معتبرة عندهم كجزء متمم للامارة لان الامير لا يقدر على مباشرة شئون الامة وتدبير مصالحها بانفراده فكان من المتعين ان يتخذ له وزيرا يستنيبه في التدبير ويشاركه في انفاذ أوامره ونواهيه وكانت الوزارة في البدء وزارة تفويض ووزارة تنفيذ لا ثالث لها قال في الاحكام السلطانية : وكانوا يشترطون في الوزارة ان يكون صاحبها من أهل الكفاءة فيما وكل اليه من أمري الحرب والخراج له خبرة بهما ومعرفة بتفصيلها . وحكي ان الخليفة المامون كتب في اختيار وزير فقال اني التمست لاموري رجلا جامعا لخصال الميز ذا عفة في خلايقه واستقامة في طرايقه قد هذبته الاداب واحكمته التجارب ان اوتمن على الاسرار قام بها

التونسي : وانا كذلك اتالم من هذا النقد بالخصوص . واتالم جد التالم من وجود شيء بيننا يعبر عنه في قواميسنا بالخلاف ولا نجد عبارة اخرى تلطف على ءاذاننا فنتجنب بها لفظ الخلاف لكننا امة افريقية ويا للاسف اشتقت من الفرقة بلا خلاف وهي تشعر بالخلاف . ليتنا نجد مرادفا للفظ افريقية لا يدل على الفرقة وينعدم بيننا الخلاف

المغربي : نعم يا اخي الانصاف انك اجبت الجواب القاضي على نقدي فان الشاهد هو الذي يقضي على القاضي . ولكن القاضي يجب عليه ان يعلم ان زرقاء اليمامة لم تترك ولدا

واني اعلم ان المغاربة ليس عندهم الصحو الذي في اديم الجو التونسي الجميل الصقيل وليس عندهم ما عند التونسيين من الاعتناء بامر الاهلة . ولم نسمع قط انه كان عندهم قاضي الاهلة

ولكن هذا كله لا يعدو ان يكون الفرق يوما واحدا . اما فرق يومين في رجب وشعبان فذلك من البعد بمكان ولو عمل بهذا الاستبعاد لكذب شهود رجب ثم شعبان ونتفق في اول رمضان واني اسأل الله ان يؤلف القلوب ويقرب الافكار

م ٠ ح

وان قلد مهمات الامور نهض فيها يسكته الحلم وينطقه العلم وتكفيه اللحظه وتغنيه اللمحه له صولة الامراء واناءة الحكماء وتواضع العلماء وفهم الفقهاء ان احسن اليه شكر وان ابتلي بالاساءة صبر لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه اه . قال الامام الماوردي : اذا كملت هذه الاوصاف في الزعيم المدبر وقل ما تكمل فالصلاح بنظرة عام وما يناط برأيه وتدبيره تام وان اختلت فالصلاح بحسبها يختل والتدبير على قدرها يعتل اه . هذا وقد جرى عمل امراء تونس منذ القديم باتخاذ وزراء لهم قياسا على غيرهم من ملوك الاسلام في الشرق والغرب فمن مشاهير وزراء الدولة الاغلبية نصر بن الصمصامه حاجب الامير ابراهيم بن الاغلب الثاني واشتهر في الدولة الحفصية الوزير البربري احمد بن تفراجين في المائة الثامنة وكان من أدهى أهل زمانه . وفي عهد حكم الاتراك اشتهر الوزير الحاج علي ثابت في ايام يوسف داي . كاشتهار الوزير يوسف خوجه صاحب الطابع في دولة الباي حمودة باشا الحسيني والوزير خير الدين في عهد المشير محمد الصادق باي ثم اعلم ان للدولة التونسية في الزمن الحاضر ثلاثة وزراء من التونسيين وثلاثة وزراء من الفرنسويين وهؤلاء الثلاثة يتولون خطة الوزارة بطريق الاصالة وهم المقيم العام بصفة وزير للخارجية والجنرال القائد الاعلى للجيوش الفرنسوية بصفة وزير للحربية والاميرال الوالي البحري ببنزرت بصفة وزير للبحرية وقبل التعريف بخطة وزراء كلا الشقين نتكلم على اصل خطة الوزارة بالبلاط الحسيني ومتى كان ظهورها بين الناس . فالبايات الاولون لم يكن لديهم في البداية متوظفون بلقب الوزراء بل كان لكل واحد من أصحاب الوظائف العالية بالبلاط الملوكي لقب خاص به . فكان المأمور الاسمى على رأس طائفة المأمورين السامين بالدولة هو صاحب الطابع يليه الباش كاتب فالخزندار فالباش مملوك . وقد اتفق لهم الجمع بين خطتي صاحب الطابع والخزندار في شخص واحد كما كان الحال في زمن الوزير شاكر فقد كان قابضا على تينك الخطتين بيد من حديد وقد حفظ له التاريخ ذكرا خالدا في مقام الاقتصاد والاحتفاظ بمداخيل الدولة رغم دسائس اعدائه ومكائد اضداده وهو أول من وضع ميزانية قارة للدخل والخرج تضمنت جراية ملكية للمولى حسين باشا باي قدرها خمسة ءالاف ريال في الشهر واليه ترجع مزية دفع الدين الذي ترتب يومئذ على الدولة بسبب سوء تصرف الوزير حسين خوجه باش مملوك وقدره ثلاثة ملايين الامر الذي ءال بهذا الوزير للسجن وبيع مكاسبه لفائدة الدولة ومن ذلك خزانة كتبه المشهورة التي صارت بالتالي وقفا على طلبة العلم بجامع الزيتونة

فأرباب الوظائف العالية التي ذكرناها كانوا في الحقيقة هم الوزراء لان البايات لقرب عهدهم بحكم الدايات ونظام حكومتهم هو الديوان المركب من الباشا والباي والداي والآغه والكاهية كانوا يتحاشون عن اتخاذ أعوان لهم بعنوان وزراء بالعنوان الرسمي في اواسط القرن الماضي لسياسة لهم في ذلك نحو سلاطين ءال عثمان ولما تأتى لهم اتخاذ الوزراء بالعنوان الرسمي في اواسط القرن

الماضي كانوا لا يتجاهرون بذلك في مخاطبتهم مع الباب العالي وأول من خلع هذا القيد هو المشير محمد الصادق باي عند توجيهه للوزير خير الدين في طلب فرمان الولاية اثر صعوده على العرش الحسيني في سنة ١٢٧٦ قال المؤرخ الشيخ احمد بن ابي الضياف عند ذكر هذا الحادث : قال لي (الباي) نقصت من مقام خير الدين حيث لم تصفه بوزير البحر فقلت له هذه عادتنا في مكاتيب الدولة العلية فقال لي انه لم يتقدم ارسال وزير فقلت اني سلكت طريق الادب مع الحضرة السلطانية لان السلطنة تخاطب سيادتكم بالوزير واني للوزير ان يكون له وزير وفي مجاري العرف ان الوزير من خواص سلطنة الاستقلال فقال لي لم نحقر انفسنا ونحن في اعين الناس عظماء وان قنصل الفرنسيس يسلم لي الاستقلال الى ان قال وأمرني باعادة المكاتيب فاعدتها بزيادة لفظ الوزير اهـ .

واعلم ان أول وزير سمي رسميا بهذا اللقب هو وزير العمالة مصطفى خزندار في عهد المشير أحمد باي الاول ولكن المؤرخين ومن حذا حذوهم من الكتاب وخاصة اهل الدولة واهل العلم كانوا يطلقون لقب الوزير على رجال البلاط وينعتونهم بذلك لان الوظائف المباشرين لها كانت مطابقة لخطة الوزارة في العرف بين الناس وممن اشتهر بذلك اللقب في اوائل العصر الحسيني على عهد المولى محمد الرشيد باي وأخيه المولى علي باي الوزير اسماعيل كاهية والوزير رجب خزندار والوزير مصطفى حفصه كاشتهار الوزير يوسف خوجه صاحب الطابع في ايام الباي حمودة باشا والوزير العربي زروق والوزير حسين باش مملوك والوزير شاكير صاحب الطابع والوزير سليمان كاهية والوزيرين الاخوين محمد ومحمد ابني محمد الاصرم في دولة الباي حسين باشا بن محمود باي وءاخر تلك الطبقة من الوزراء بالصفة التي قررناها الوزير مصطفى صاحب الطابع صهر الباشا مصطفى باي . فلما ءالت الدولة لنوبة المشير أحمد باي وهو من علمت في حب الظهور والتعالي والتدرج في الحكم المطلق مع التغالي والطموح في مجاراة الدول ذات الرسوخ في المدنية وذلك رغم فقر هذه البلاد وعجزها في زمنه عن مذاهب الاسراف والتبذير الامر الذي ءال بها الى الافلاس في ءاخر ايامه رتب خطط الوزراء التي دخل عليها واضاف لها وزراء ءاخرين منهم وزير العمالة الذي تقدم ذكره وهذه الخطة تقابلها خطة وزير الداخلية في الاصطلاح الاوروباوي ووزير البحر وكان يلقب قبل ذلك بامين الترسخانة ووزير الحرب وكان هو صاحب الزغاية ووزير الخارجية وكان هو ترجمانه والواسطة بينه وبين القناصل المنتصبين بتونس ومن هذه الخطة تولدت خطة مدير التشريفات في الدولة الصادقية ولكن بعنوان ءاخر قاصر على الترجمة وترتيب اساليب القبول في بعض المواكب ثم عزز طائفة الوزراء بالوزير الاكبر وابقاه على وزارة العمالة والحق بهم الدولاتلي وهو نفسه الداي ولقبه بوزير التنفيذ فكان اصحاب الخطط الوزيرية في دولة المشير احمد باي هم :

الوزير الاكبر – وزير العمالة – الخزندار – الباش كاتب – وزير الحرب – وزير البحر وزير الخارجية – وزير التنفيذ

وانتزعت من يومئذ الصبغة الوزيرية من خطة صاحب الطابع ومن خطة الباش مملوك

واعلم ان اولئك الوزراء كانوا كلهم من طبقة المماليك حاشا الباش كاتب فانه كان من أهل العلم ومن أبناء البيوت التونسية(١)

(١) كانوا ينتخبون صاحب هذه الخطة في الدور القديم من بين أهل العلم وكان الباش كاتب هو الواسطة بين العلماء وبين الدولة وهذه الخطة عريقة في الدولة الحسينية وكانت موجودة ايضا في الدول التي تقدمتها ولكنها تختلف عنها في التسمية فقط فكان الباش كاتب في عهد الدولة الحفصية هو رئيس ديوان الانشاء وهذا اللقب كانوا ينعتونه في الدولة المرادية وفي اوائل الدولة الحسينية ايضا وكان من وظائفه الرقابة على ضبط المجابي وحسابات الدولة وهذا هو الاصل في اقامة نائب عن وزير القلم في هذا الزمان بادارة المال لتعقب حسابات العمال . اما الفضلاء الذين تولوا هذه الخطة في الدولة الحسينية من أولها الى هذا الزمان فقد يسر الله لي جمع اسمائهم بعد عناء البحث الطويل واليك البيان :

ففي دولة المولى حسين بن علي تركي كان رئيس ديوان الانشاء والكتابة هو الشيخ الحاج بلحسن السهيلي

وفي دولة الباشا علي باي الاول تولى تلك الخطة الشيخ عبد اللطيف السهيلي وقتل فتولاها بعده الشيخ عبد الرحمن البقلوطي

وفي دولة المولى محمد الرشيد باي تولاها الشيخ احمد بن محمد الاصرم

وفي دولة اخيه المولى علي باي الثاني عاد لها الشيخ عبد الرحمن البقلوطي

وفي دولة ابنه الباي حمودة باشا باشرها الشيخ عبد الرحمن المذكور وخلفه في الخطة الشيخ الحاج حمودة بن عبد العزيز فالشيخ محمد بن حسين الدرناوي فالشيخ محمد بن محمد الاصرم واستمر على مباشرتها الى ان تولى مكانه اخوه الشيخ محمود الاصرم فكان هو الباش كاتب في دولة المولى حسين باي الثاني

وفي دولة اخيه المولى مصطفى باي كان صاحب خطة الباش كاتب هو الشيخ محمد بن محمد الاصرم وباشرها ايضا في اوائل دولة ابنه المشير الاول احمد باي وبقي على خطته مع الانقطاع عن مباشرتها في بقية الدولة المذكورة وكذلك في مدة المشير الثاني محمد باي وتوفي في صدر دولة المشير الثالث محمد الصادق باي سنة ١٢٧٧ وهذا الفاضل جمع بين عزة النفس وبين فصاحة القلم ورقة الادب ومن شعره قصيدة فريدة تضمنت كثيرا من الرموز والاشارات لاحوال دولة متبوعه المشير احمد باي وهي احدى خرائده الكثيرة التي نسجت عليها عناكب النسيان لانها لم تخرج من بطون الدواوين لعالم النشر نقتطف منها ما به الحاجة هنا نقلا عن كناش للكاتب الاديب المرحوم الشيخ حمودة تاج ومطلعها :

الصبر مفتاح لكل اياس ... فاصبر ولا تك للنصيحة ناسي

ومنها :

لهفي على ترشيش حتى قيل لي ... وان الضنين بها وبالايناس
ما في وقوفك ساعة من باس ... تقضي زمام الاربع الادراس
فانقض صبري والتجلد مطمعي ... جريا على حال بغير قياس
فانجاب جنح الليل عن صبح الهدى ... عن وجه احمد طيب الانفاس
احيى السرور وزال وجه الباس ... وغدا الهناء لكل ناد كاسي

ووزير الخارجية الذي كان من أبناء الجنس الطلياني ولكنه كان في حكم المماليك (١) ومن ذلك العهد اخذت تلك الخطط في التدرج نحو الصبغة الوزيرية الحقيقية تبعا لناموس التطور الطبيعي المستمد من التمدن الاروباوي الذي كان يزداد يوما فيوما بهذه الديار من وقت استيلاء فرنسا على الجزائر في سنة ١٢٤٦ فكانت الدولة التونسية في عهد المشير محمد الصادق باي قائمة على أركان متينة لها شبه من قريب بالوزارات في الدول المتمدنة حيث اقاموا لجانب كل وزير مستشارا يعضده في المباشرة ورتبوا اقسام الخدمة واحدثوا خطة وزير القلم في سنة ١٢٨١ اضيفت

وتتوجت ترشيشنا بمليكها ... وازدانت الدنيا بحسن لباس
واسود وجه عدوها حسدا لها ... وابيض وجه صديقها الوثاس

الى ان قال :

يا احمد الميمون في حركاته ... يا ابن المكارم يا ابا العباس
العدل اس للدوام مصيره ... والظلم بنيان بغير أساس
والنفس تأبى أن تضام جبلة ... فاكتل لها ما كلته للناس
والبيت لا يرسو بغير عمادة ... فاجمع اذا اوتاده بقياس
لا تصلح الدنيا ولا احوالها ... ما لم تكن أنت الطبيب الاسي
واحذر مكائد كل من صاحبته ... واعمل بما قد قيل في الخناس
اني سبرت الخلق طرا اصبحوا ... فوضى بلا كيل ولا مقياس

ولما التحق الشيخ محمد الاصرم بالدار الآخرة في سنة ١٢٧٧ كما سلف ذكره بقيت خطة الباش كاتب بحال شغور الى سنة ١٢٨١ وفيها تقدم للخطة عن جدارة واستحقاق العلامة الشيخ محمد العزيز بوعتور من خريجي جامع الزيتونة ومن بيوت المجد وهو اول من تولى خطة وزير القلم في السنة المذكورة أحدثها لاجله المشير محمد الصادق باي لجعله في منزلة واحدة مع بقية وزرائه لان خطة الباش كاتب ادركها يومئذ الوهن والضعف بسبب ابتعاد صاحبها عن ساحة الدولة مدة تقرب من عشرين سنة فاصدر له الباي امرا بولايته باش كاتب وامرا ءاخر بولايته وزيرا للقلم ثم اضاف له وزارة المال ولقبه بعد ذلك بوزير الاستشارة ويعتقد كثير من اهل هذا العصر ان الشيخ احمد بن ابي الضياف تولى خطة الباش كاتب ووزارة القلم والحقيقة انه لم يتول الواحدة ولا الاخرى، نعم انه ترجع له مزية تهذيب اساليب ديوان الانشاء بالدولة لانه اول من امتلك بتونس كتاب نفح الطيب قالوا انه ابتاعه يومئذ بالف ريال ومائة ريال واستفاد منه وافاد وكان لقبه الرسمي كاتب سر الدولة واتفق له مباشرة خطة الباش كاتب بالنيابة في كامل المدة التى احتجب فيها صاحبها الشيخ محمد الاصرم لما كان عليه من حدة الطبع الامر الذي دعى سمو الباي للاعراض عنه ولكن المشير محمد الصادق باي تفضل عليه بلقب وزير وهذا اللقب بقي اسمه مقرونا به الى هذا الزمان. واما الاعيان الذين تقدموا لخطة الباش كاتب ووزارة القلم بعد الشيخ محمد العزيز بوعتور فقد ذكرنا اسماءهم بقائمة الوزراء في عصر الحماية

(١) هو أمير الامراء الكونت جوزايبن رافو من بيوت المجد الطلياني التحق بالبلاط الحسيني في عهد المولى مصطفى باي وتدرج في المناصب العالية وقام بالمأموريات الهامة في دولة المشير احمد باي فكان وزيره للخارجية توفي بباريس في ٢ اكتوبر ١٨٦٢ ونقل جثمانه ودفن بتونس وخلفه في خطة الترجمة ابنه امير الامراء الكونت فيليكس رافو وتوفي في ١٩ اشتنبر ١٨٧٢

للباش كاتب ليكون في صعيد واحد مع وزراء الدولة فهما خطتان اثنتان لا خطة واحدة جمعهما سمو الباي محمد الصادق لاول مرة في شخص كاتب سره الشيخ محمد العزيز بوعتور واضاف له في سنة ١٢٩٠ لقب وزير الاستشارة وفيما بين ذلك قلده خطة وزير المالية في سنة ١٢٨٣ فكان وزيرا للمال بلا مال لان صناديق الدولة كانت يومئذ أفرغ من فؤاد أم موسى كما تفضل بلقب الوزير على كاتب سر الدولة الشيخ أحمد بن أبي الضياف ومات هذا اللقب مع صاحبه في سنة ١٢٩١ وأحدثوا تبعا لذلك خطة كاتب سر الوزير الاكبر (١) نيطت بعهدة امير الامراء الشيخ محمد البكوش وفي سنة ١٢٨٦ احدث الباي خطة الوزير المباشر وهي خطة لها شبه من قريب بخطة الكاتب العام في عهد الحماية وسنعود للكلام عليها قريبا ثم احدث الباي لقب وزير الشورى بعنوان الوزير محمد خزندار وأضاف لقب وزير استشارة لمستشار المعارف حسين المملوك وكلفه مع ذلك بالنافعة وهي الاشغال العامة وجعل للوزير المباشر المتقدم ذكره وهو المرحوم خير الدين حق النظر على كافة الوزارات واليك نص الامر العلي (٢) الصادر في تسميته مع بيان سلطته ووظائفه :

من عبد الله سبحانه المتوكل عليه المفوض جميع الامور اليه المشير محمد الصادق باشا باي صاحب المملكة التونسية سدد الله تعلى اعماله وبلغه من ثمرات النجاح اماله الى من يقف على أمرنا هذا من أبنائنا امراء الامراء أعيان الوزراء وأمراء الالوية وأمراء الالايات وقائمي المقامات وأمناء الالايات والبنباشية وكافة الجنود العسكرية والقواد والمخازنية وسائر أولي الولايات فيما لنا من الجهات أصلح الله أحوال جميعهم وأجرى على نهج السداد جميع صنيعهم . اما بعد فاننا بمقتضى أمرنا المؤرخ بيوم التاريخ المتضمن ما ظهر لنا من المصلحة وهي جعل الوزارة الكبرى مركبة من وزارة العمالة والخارجية والمال والنظارة على وزارتي الحرب والبحر اولينا الهمام المفخم نخبة الاعيان وعمدة أهل المجد والشان أمير الامراء الوزير ابننا خير الدين يباشر خدمة الوزارة الكبرى تحت رءاسة جناب وزيرنا الاكبر ويلقب في خطابه ومخاطباته بالوزير المباشر فليقم بخطته عالما بمقدارها متصفا بما يحمد من جميل اثارها وعلى سائر رجال دولتنا اعانة ابننا المذكور على خدمته وتيسير أسباب نجاحها والله ولي اعانته وتوفيقه الى نهج النجاح وطريقه . وكتب في ١٥ شوال المبارك سنة ١٢٨٦ اهـ

(١) خطة كاتب سر الوزير الاكبر في الدور القديم وقع الغاؤها عند ما نفض الوزير مصطفى خزندار يده من الوزارة الكبرى لان خلفه في الخطة الوزير خير الدين اعاد ترتيب الوزارات على قواعد جديدة في سنة ١٢٩٢ وجعل كتابة السر من مشمولات خطة رئيس القسم الاول وهكذا استرسل الامر في مدة الوزراء الاولين في عهد الحماية الى ان تولى الوزارة الكبرى المرحوم ابو النخبة مصطفى دنقزلي فاحيا تلك الخطة واسندها لكاهية رئيس القسم الاول وهو السيد مصطفى صفر شيخ المدينة الحالي

(٢) احتوت مكتبتنا ضمن ما لدينا من الوثائق التاريخية على عين المرسوم الملوكي الصادر بولاية الوزير خير الدين خطة الوزير المباشر

فكان للدولة التونسية في سنة ١٢٨٦ ثماني وزارات منوطة بمن يأتي ذكرهم

الوزير الاكبر — الوزير المباشر — وزير العمالة — وزير الخارجية — وزير القلم وباش كاتب — وزير المال — وزير الحرب — وزير البحر

ويستفاد من كتاب صفوة الاعتبار ان اربعة من هذه الوزارات كانت يومئذ بيد الوزير مصطفى خزندار قال في صفحة ٢٣ من الجزء الثاني عند التعرض لذكر مرتبات هذا الوزير

١٤٠٠٠٠	مرتبه على الوزارة الكبرى
٦٠٠٠٠	مرتبه على وزارة العمالة
٦٠٠٠٠	مرتبه على وزارة الخارجيه
٦٠٠٠٠	مرتبه على وزارة المال
٦٠٠٠٠	مرتبه على نيشان ءال البيت الحسيني الذي هو حامل له
٣٨٠٠٠٠	الجملة ريالات

وهذا المقدار يساوي نحو المليونين ونصف من الفرنكات بصرف هذا الزمان. ثم الغيت خطة الوزير المباشر بدسايس من كادهم امره بالبلاط الصادقي

هذا ما يتعلق بنظام الوزراء قبل الحماية. وسنتحدث في العدد الاتي ان شاء الله عن نظام الوزراء من عهد الحماية الى اليوم.

محمد بن الخوجة

المعـروف

المعروف هو الصفة التي رغب فيها رسول رب العالمين قال عليه الصلاة والسلام كل معروف صدقة وانما يختار له محله الذي هو اهل له . قال خالد بن صفوان : لا تصنع المعروف الى ثلاثة : الفاحش واللئيم والاحمق فاما الفاحش فيقول : انما صنع هذاي (٣) اتقاء لفحشي ، واما الاحمق فلا يعرف المعروف فيشكره ، واما اللئيم فكالارض السبخة لا تثمر ولا تنمي. فاذا (٤) رايت السري فدع المعروف (٥) عنده واستحصد الشكر ، وانا لك الضامن.

الشرف الحسني والحسيني

وجد بالقيروان من أواسط الدور الاغلبي

بقلم الفاضل المؤرخ الشيخ محمد طراد
احد اعيان العدول بمدينة القيروان

يوجد الى اليوم بمقبرة قريش المعروفة سابقا بالمقابر الغربية والآن بالجناح الاخضر قبران متلاصقان يعرفان الى اليوم بقبري الحسنين عليهما عمود من الصخر الابيض مكتوب عليه (١) بالخط الكوفي المحفورة حروفه الدال على انها كتبت في أواسط وأواخر الدور الاغلبي غير انه لا يوجد به تاريخ وفاة احد الاخوين ومع ذلك فهو ادل دليل على ان وفاتهما كانت في اواخر المائة الثانية للهجرة وبكل تقدير لا يمكن ان تكون بعد المائتين والخمسين لانهم لم يستعمل عندهم في ذلك العصر ذكر تاريخ الوفاة على القبور ولو لمشاهير الرجال مع شهرة تلك القبور وامكنتها وزيارة الناس لها الى اليوم

وها هي قبور اشهر مشاهير الرجال موجودة الى اليوم ولا كتابة عليها كقبر ابراهيم بن الاغلب بن سالم التميمي اول ولاة بني الاغلب لبني العباس ولاه الرشيد العباسي امارة افريقية سنة ١٨٤ ووفاته سنة ١٩٩ وقبره بمقبرة باب نافع معروف الى اليوم مشهور عند جميع الناس حتى الصبيان

وكذا يقال في قبر سحنون الذي لم يوضع عليه الى اليوم ما يشعر بوفاته عام ٢٤٠ مع شهرته النادرة المثال واعتناء الناس بزيارته الى اليوم

وكذا يقال في قبر ابنه محمد وحفيده الذين اقام سؤدد العلم بدارهم مائة ونيفا وعشرين سنة الى غير ذلك من مشاهير العلماء والتابعين

وانما حب الناس عموما في ءال البيت دعا الناس لتشهير هذين الحسنين الصميمين فجعلوا هذا العمود على قبريهما والتنويه بئال النبي صلى الله عليه وسلم الا كرمين وذكر خصائصهم الواردة في السنة ولا حاجة تدعوهم لذكر تاريخ الوفاة

وهذا لا يحملنا على اهمال معرفة وفاتهما ولو على سبيل التقريب والقياس وذلك بعدة طرق منها انا اذا عملنا بالقاعدة المعمول بها من كثير في مثل هذا الشان - ونسبت لابن خلدون - وهي ان القرن اعني المائة سنة بثلاثة احيال ، وعددنا الاباء بين هذين الحفيدين وجدهما سيدنا الحسن السبط رضي الله عنهم نجدهم من والدهما احمد لجدهما الحسن السبط ستة اباء فيكونان موجودين في ءاخر المائة الثانية من وفاة جدهما الحسن السبط رضي الله عنهم

وهناك طريق ءاخر وهو طريق القياس وربما جاء مؤيدا ومدعما لما تقدم وهو ان التاريخ حكى لنا ان من الملوك الادريسيين بمراكش محمد (١) بن ادريس (٢) الاصغر بن ادريس (٣) الاكبر بن عبد الله (٤) بن الحسن (٥) المثنى بن الحسن (٦) السبط ولي عام وفاة والده ٢١٣ وتوفي عام ٢٢١

ومثله الشريف الحسيني المشهور بابن طباطبا وهو محمد (١) بن ابراهيم (٢) بن اسماعيل (٣) ابن ابراهيم (٤) بن الحسن (٥) بن الحسين (٦) بن علي بن ابي طالب الذي قدم على المهدي العباسي فاجازه باربعين الف دينار وبايعه الناس وقتل بمكة سنة ١٦٩

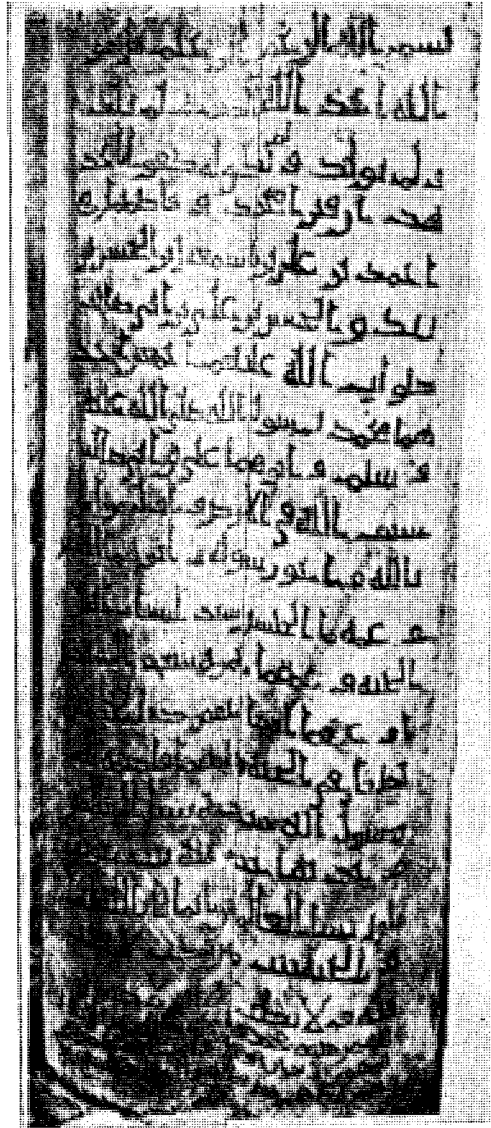
فاقتضت هاته الاقيسة وهذا التقدير ان هذين الحسنين توفيا قبل عام ٢٥٠ للهجرة

واما الشرف الحسيني بالقيروان والكلام على السادة ءال عوانة فسيتبع هذا بحوله تعالى

---

(١) انظر نص الكتابة في الصفحة التالية

مثال العمود الذي على قبري الحسنين



بيان مارسم على العمود

١ - بسم الله الرحمن الرحيم قـل هو
٢ - الله احـد الله الصـمـد لـم يـلـد
٣ - ولم يولـد ولم يكن له كفؤا أحـد
٤ - هـذان قبـرا محمد وفـاطمة ابـني
٥ - احمد بن علي بن اسمعيل بن الحسن بن
٦ - ابي بكر بن الحسن بن علي بن ابي طالب
٧ - صلوات الله عليهم اجمعين جد
٨ - هما محمد رسول الله صلى الله عليـه
٩ - وسلم وابوهما عـلي بن ابي طـالب
١٠ - سيف الله في الارض واول من امن
١١ - بالله واخو رسوله وابوهمـا الحسن
١٢ - وعمهمـا الحسين سيدا شبـاب اهل
١٣ - الجنة وعمهمـا حمزة سيد الشهـد
١٤ - وعمهمـا ايضا جعفر ذا الجنـاحين
١٥ - الطيار في الجنة وامهما فـاطمة بنت
١٦ - رسول الله سيـدة نسا العالمين
١٧ - وجدتهمـا خديجة بنت خـويلد
١٨ - اول نسا العلمـين ايمانـا بـالله لهـا
١٩ - في الجنـة بيت من قصب لا صخب
٢٠ - فيـه ولا نصب هـولا صفـوة
٢١ - الله من خلقه محمد فاهل بينه الطيبون الاخيار
٢٢ - المتقون الابرار الذين إذهب الله عنهم الر
٢٣ جس وطهرهم تطهيرا رضي الله عنهم اجمعين

---

(٧) ذكر الصلاة هنا عوض قوله رضي الله عنهم دلنا على ان الكتابة في هذا العمود تاريخها متاخر عن تاريخ وفاة هذين الاخوين وذلك لان الصلاة على علي وءاله انما حدثت من عهد العبيديين ويشرح هذا انه لما اتى ابو العباس الصنعاني اخو عبيد الله المهدي بجيشه لقتال زيادة الله بن الاغلب ءاخر ملوك بني الاغلب سنة ٢٩٦ وفر منة الاخير وحل بقصر ابراهيم بن احمد بن الاغلب بن قادة وجاءه اهل القيروان مسلمين عليه ولم يكن من بين علمائهم ابو عثمان سعيد بن محمد الغساني المعروف بابن الحداد المولود بالقيروان سنة ٢١٩ والمتوفى بها سنة ٣٠٢ ارسل اليه ابو العباس ولما جاءه ناظره في عدة مجالس قال له في اولها انتم تبغضون عليا يا اهل المدينة (يعني المالكية) فقال ابو عثمان علي مبغض علي لعنة الله والملائكة والناس اجمعين وكيف ابغض عليا وقد سمعت سحنون بن سعيد (شيخه الذى اخذ عنه) وهو امام اهل المدينة بالمغرب يقول علي بن ابي طالب امامي في ديني اهتدى بهديه واستن بسنته رحمة الله عليه فقال ابو العباس بل صلوات الله عليه قال ابو عثمان فرفعت صوتي وقلت ان الصلاة في كلام العرب الدعاء وقلت قال الاعشى

تقول بنتي وقـد قربت مـرتحلا … يا رب جنب ابي الاوصاب والوجعـا
عليك مثـل الذى صليت فـافتنمي … نومـا فان بجنب المـرء مضطجعـا

قال ابو عثمان ثم قلت نعم فصلى الله على علي بن ابي طالب والحسن والحسين واهل طاعة الله اجمعين من أهل السماوات والارضين الخ ما ذكره ابو العرب في طبقات علماء افريقية

الفتاوي والاحكام

ورد على ادارة المجلة الاسئلة الآتية وقد اجاب عنها العالم الفاضل الشيخ علي النيفر المدرس المالكي من الطبقة الاولى بجامع الزيتونة :

س (١) — ما قولكم في امام جمعة تأخر عن الحضور بالجامع يوم الجمعة حتى ايس من حضوره الجماعة وقرب وقت العصر فقدموا من بينهم من صلى بهم الظهر لعدم من يحسن الخطبة منهم وبفراغهم من الصلاة جاء الامام فهل يؤدون معه صلاة الجمعة ام لا ؟

(الجواب) ان هؤلاء الجماعة معذورون في تركهم الجمعة وادائهم لها ظهرا حيث كاد يخرج وقت الجمعة الاختياري ولم يكن فيهم من يحسن الخطبة اذ من المعلوم ان الخطبتين شرط صحة في صلاة الجمعة قال خليل عاطفا على شروط صحة صلاة الجمعة ما نصه ـ وبخطبتين قبل الصلاة مما تسميه العرب خطبة اه ـ وحيث زال عذرهم بحضور من يحسن الخطبة وهو امامهم الراتب وجب عليهم اداء الجمعة معه ولو كان ذلك في وقتها الضروري الممتد الى الغروب لان وقت صلاة الجمعة هو وقت صلاة الظهر قال خليل ما نصه ـ او زال عذره ـ قال عبد الباقي في شرح هذه العبارة على طريقة المزج حسب عادته ما نصه ـ (او زال) عمن صلى الظهر لعذر (عذره) ويدرك مع الامام ركعة فانها تجب عليه ـ اه

س (٢) — ما قولكم في واقعة حال صورتها ان هناك قرية لا تقام بها الجمعة يصلي اهلها الجمعة بقرية اخرى تبعد عنها نحو الاربعة اميال مات بعض اهل القرية الاولى يوم جمعة فرأى اهل قريته ان الاولى الاشتغال بمؤن تجهيزه ودفنه وان كان ذلك مؤديابهم الى ترك صلاة الجمعة لانهم اذا أخروا ذلك الى ما بعد صلاة الجمعة تاخر امر الجنازة الى ما بعد العصر وربما لم يفرغوا منه الا مع الغروب واراد امام قرية الجمعة تأخير امر الجنازة الى ما بعد صلاة الجمعة ليتسنى الجمع بين الفضيلتين وتنازع الفريقان في ذلك فما وجه الصواب في هذه القضية

(الجواب) ان ما رآه اهل القرية من المبادرة بتجهيز الميت المؤدي الى تركهم صلاة الجمعة هو الحق سواء خيف على الميت التغير بسبب التاخير ام لم يخف عليه ذلك اما في الصورة الاولى فلقول حافظ المذهب ابن رشد ـ ومما يبيح التخلف (اي عن صلاة الجمعة) الاشتغال بجنازة ميت ينظر في امره اذا لم يجد من يكفنه وخشي عليه التغيير ان اخره لصلاة الجمعه اه ـ اما في الصورة الثانية فلقول الامام ابن الحاج في المدخل (ويصلح ان يكون دليلا للصورة الاولى ايضا) ما نصه قد وردت

السنــة ان من إكرام الميت تعجيل الصلاة عليه ودفنه وكان بعض العلماء يحافظ على السنــة اذا جاءوا بالميت الى المسجد صلى عليه قبل الخطبة ويامر اهله ان يخرجوا الى دفنه ويعلمهم ان الجمعة ساقطة عنهم ان لم يدركوها بعد دفنه فجزاه الله خيرا عن نفسه على محافظته على السنة والتنبيه على البدعة اهـ. قال العلامة الاجهوري ما نصه - ظاهر المدخل ان السنة ما ذكر حيث دخلوا به وقت الخطبة وان لم يخش تغيره ولا خشي عليه الضيــاع اهـ فاذا كان تاخير دفن الميت بمقـدار صلاة الجمعـة بدعة يتحاشى عنها فتاخيره الى الغروب اشد ابتداعا خصوصا اذا اضفنا الى ذلك كلـه عدم وجوب صلاة الجمعـة على اهل قرية الميت حيث كان بين قريتهم وقرية الجمعة مسافة لا يجب عليهم بعها السعي لصلاة الجمعة

س (٣) ما قولكم في حادثة تشبه الحادثة قبل هذه غير ان قرية الميت تقام بها الجمعـة والخطيب هو الغاسل والوقت عند الزوال ايهما اولى للامام تقديم الجنازة وتاخير صلاة الجمعة الى وقت اصفرار الشمس ام تقديم صلاة الجمعة وتاخير الجنازة الى الاصفــرار

(الجواب) ان السنــة في الجنازة ان لا تاخر كما تقدم عن ابن الحــاج في المدخل والامام يصلي الجمعة بالناس ويتولى غسل الميت غيره الا اذا لم يوجد من يحسنه سواه فهنا يبادر بغسل الميت وجوبا ان خشي على الميت التغير واستحبــابا ان لم يخش تغيره ويؤم غيره في صلاة الجمعة الا اذا كان اهل القرية كلهم اميين فيصلونها ظهرا في ءاخر وقتها الاختياري ويعيدونها جمعة ان لم تغرب الشمس فــان قدم الامام صلاة الجمعة على غسل الميت في هذه الصورة الاخيرة فليصل على الميت قبل الاصفــرار او بعد الغروب لكراهة الصلاة على الميت بعد الاصفرار وحرمتها وقت الغروب والله اعلم

علي النيفر

حكم اخلاقية

قال ابو الحسن علي بن محمد الصغاني :

الحزم اسد الاراء ، والغفلة اضر الاعداء ، ومن قعد عن حليلته اقامته الشدائـد ، ومن نــام عن عدوه انبهته المكائد ، ومن سالـم الناس سلم ، ومن قـدم الحزم غنم ، ومن لزم الحلم لم يعــدم السلم ، ومن ضعف رايه قوي ضده ، ومن ساء تدبيره اهلكه جده ، والغرة ثمرة الجهل ، والتجربة مرآة العقل والصبر على الغصة يؤدي الى الفرصة ، ومن استرشد غويا ظل ، ومن استنجد ضعيفــا ذل ، ومن ضل مشيره قل نصيره ، والاناة حسن ، والتودد يمن ، ومن نام عن نصرة وليه ، انتبه بوطأة عدوه ، ومن دام كسله خــاب امله ، والعجول مخطيء وان ملك ، والمتثـد مصيب وان هلك ، ومن بان عجزه ، زال عزه ، ومن استبد برايه خفت وطأته على اعدائه ، والرفق مفتــاح الرزق ، ومن نظر في العواقب ، سلم من النوائب ،

الوعظ والارشاد

تزكية النفس

خطبة منبرية للعالم الفاضل الشيخ الجيلاني
حمزه الامام بجامع مصطفى بالمهدية

الحمد لله الذي جعل قواعد الاسلام كلها وسائل لتزكية النفوس من الشرك والفساد، واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له امرنا بتزكية نفوسنا لان في ذلك الفلاح والسداد. واشهد ان سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله كان يحب الخير لجميع العباد، اللهم فصل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى ءاله واصحابه السادة الامجاد، وسلم تسليما كثيرا . ايها الاخوان ان اعمال الخير اثر الايمان ولا يكون المرء مؤمنا الا اذا كان لاعتقاده الباطن اثر في عمله الظاهر اما من اكتفى من الاسلام باسمه، ومن الشرع برسمه. ثم لا يكون لذلك اثر في تزكية نفسه، فهو من المنافقين، وان صلى وصام وزعم انه من المسلمين، لان مخالفة الظاهر للباطن ءاية النفاق والمنافقون في الدرك الاسفل من النار، ولهم في الآخرة الخزي والعار . اني اعجب يا عباد الله اشد العجب لمن يعتني بتنظيف نعله وثوبه ولا يعتني بتنظيف قلبه وهو يعلم ان وسخ النعل والثوب لا يورثان في الآخرة عذابا، ولا يشددان على النفس حسابا، وان وسخ القلب بالحقد والحسد والبغض يجعل القلب في خراب ويسود الصحيفة والكتاب ويجعل بين صاحبه وبين الله كثيف الحجاب . اني احب للمسلم ان يعتني بتنظيف جسمه وثوبه لان النظافة من الايمان والوسخ من الشيطان لكني لا احب للمسلم ان يوجه معظم عنايته لنظافة ظاهره واهمال باطنه لئلا يكون غاشا والغشاش ليس من المسلمين. ولا من اتباع النبي الناجين. ان من الناس من ترى بضاعته كلاما في كلام، ظاهره سلام وباطنه خصام، يحسب ان شهادة لسانه وحركات جسمه بالصلاة وتحريك شفتيه بالتسبيح هي كل شيء في الاسلام او هي كافية ليحسب في عداد المتقين ونسي ان قواعد الاسلام كلها وسائل تؤدي الى غاية مثلى هي تطهير النفوس من النفاق . والتجمل بمكارم الاخلاق . تاملوا عباد الله في قول الله عز وجل (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وقول النبي صلى الله عليه وسلم من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا تروا ان العبادة البدنية لا تقع موقعها من رضاء الله تعالى الملك الديان الا اذا ادت الى تزكية النفس من جميع

الموبقات والادران . لما لها من الاثر البين والنفع الظاهر في مصالح البشر والدنو من مواطن الخير والبعد عن مواطن الشر لذلك قال بعض علمائنا المتقدمين (ادركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في الكف عن اعراض الناس) وكما قلنا في الصلاة فكذلك في الزكاة فان المال شقيق الروح فمن جاد بماله على الفقير ابتغاء مرضاة ربه عظمت في عينه الحياة الباقية وصغرت الفانية واستنار قلبه بنور الايمان واقام البرهان على صدق نسبته الى الاسلام واتباعه لاوامر الملك الديان وكذلك الحج فهو الدواء الاجتماعي لمرض الفرقة بين الامم، ولتذكر يوم القيامة والعرض على محيي الرمم، الذي بالاعادة للحياة حكم، وبالجملة فانكم لا تجدون قاعدة من قواعد الدين الا كانت غايتها تزكية النفس وجعلها نقية طيبة لان الجنة طيبة لا يدخلها الا طيب ولهذا تقول لهم الملائكة (سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) وقال تعالى (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة) فكل هذه الآيات والاحاديث الشريفة صريحة في انه لا سبيل الى تزكية النفس الا سلوك طريق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لانه هو الموصل الى طريق الله قال تعالى (وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) فطريق الله منهج المؤمنين الصادقين والحصن الحصين للخائفين ، فمن سلك غيره اخطأ مراده ولاقى يوم الجزاء كل الهوان والبلاء المبين ، فما بالكم ايها المسلمون لا تتنبهون وقد كوتكم الحوادث بنيرانها كيا ما بالكم لا تحرصون على ان تكونوا عاملين صادقين مستقيمين كما امركم رب العالمين ما بالكم اعرضتم عن تعاليم الدين واتبعتم الشيطان اللعين فمن اكبر آفات الامم يا عباد الله ان يتهاون اهلها في امور دينهم فيبوءوا بالنكال والخسران المبين وفي التنزيل من النذر ما لو قرع الاسماع الواعية لصد القلوب الجامحة عن غوايتها ولرد النفوس النافرة الى هدايتها ، من ذلك قول الله عز وجل « أفأمن الذين مكروا السيئات ان يخسف الله بهم الارض او ياتيهم العذاب من حيث لا يشعرون او ياخذهم في تقلبهم فماهم بمعجزين او ياخذهم على تخوف فان ربكم لرءوف رحيم » ان الاسف يملا افئدتنا يا عباد الله في هذه السنين لانهيار صرح الدين والاسى يفتت الاكباد لازدياد الفساد فاننا لا نعلم زمانا اجترأ فيه الناس على الباطل كهذا العصر الذي يسمونه عصر العلم والحضارة والنور وما هو في الحقيقة الا عصر الفسق والكذب والغش والزور والبهتان والتملق والخيانة والتضليل وجميع انواع الفجور . كأن الاختلاق ونقض العهد من خلال الخير التي يتنافس فيها المتنافسون . ويسارع اليها المؤمنون . والله لولا ايماننا ويقيننا بان الله جل وعلا رفع البلاء العام والاستئصال التام لكنا اول المنتظرين للطوفان الذي لا عاصم منه او للطير الابابيل التي ترمي الناس بحجارة من سجيل ذلك اننا نرى المسلم كل يوم ضاربا بسيف الاعتداء في رقاب اخوانه المسلمين لا يألو جهدا في الاضرار بهم والنيل منهم ويزعم مع ذلك انه من المصلين وهو في الحقيقة من اكبر المنافقين بل ان ابليس خير من هؤلاء الكذابين الدجالين لان إبليس كان عاقلا وصادقا في قوله حين قال « رب بما

اغويتني لازينن لهم في الارض ولا غوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين » فقد صرح بانه يزين للعباد ويغويهم ولم ينافق ولم يخادع ولم يكذب واعلن انه يستثني منهم المخلصين . فالله الله عباد الله اتقوا الله وطهروا قلوبكم من جميع الاحقاد والاضغان وتذكروا هول الموقف وزفرات النيران واستعدوا ليوم تشيب فيه الولدان فالكيس الحكيم هو الذي يشمر عن ساعد الجد ويعد العدة لمواصلة السير والعدة هي الزاد في السفر ، فالمسافر بالزاد يبلغ مراده ويحصل ما أمله من وطر

واليكم عباد الله عدة السفر لمن شاء منكم ان يتقدم او يتأخر

اولا — الاحسان في جميع الاعمال ومعنى الاحسان ان تراقب الله في جميع شؤونك كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك ومن راقب الله استحيا ان يراه حيث نهاه او يفقده حيث امره ودعاه فان زلت قدمه استغفر لذنبه ومن يغفر الذنوب الا الله ثم عاد الى المراقبة فلا ياتيه الموت الا وقد اعد نفسه للرحيل زاده التقوى في هذه الدار فاذا مات دخل الجنة مع الابرار — ثانيا — الاخذ بالحلال وترك الحرام فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان الله طيب لا يقبل الا طيبا وان الله امر المؤمنين بما امر به المرسلين فقال تعالى (يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا) ثم ذكر الرجل يطيل السفر اشعث اغبر يمد يده الى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فانى يستجاب له — فمن اكبر الدواعي الى تزكية النفس الاخذ بالحلال في جميع الاحوال — ثالثا — ذكر الله (قال تعالى واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال) ولا تكن من الغافلين ففي الذكر حياة للقلوب وتزكية للنفوس وهو نعم الرفيق في وقت الضيق ،وفي القبر عند فقد الاهل والصديق ، فمن ذكر الله ذكر ومن هجره هجر

اسأل الله الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ان يعيننا على طاعته ويغسل قلوبنا من جميع الاوساخ والادران ويحفظنا من معصيته وكيد الشيطان حتى نكون من الصالحين انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير الا ان احسن ما تتشنف به ءاذان المؤمنين كلام مولانا رب العالمين

اعوذ بالله من الشيطان الرجيم

ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها

عمر ابن الخطاب

كما يصفه صعصعة بن صوحان رضي الله عنهما .

قال معاوية بن ابي سفيان لصعصعة : صف لي عمر بن الخطاب ؟ فقال :كان عالما برعيته ، عادلا في قضيته عاريا من الكبر . قبولا للعذر . سهل الحجاب . مصون الباب . متحريا للصواب . رفيقًا بالضعيف غير محارب للقريب . ولا خاف للغريب

كلمة حول

ولاية الشيخ محمد المختار بن محمود

مفتيا حنفيا بالديار التونسية

بعد ظهر يوم الخميس السابع عشر من شهر رمضان الماضي شرف الجناب العالي صاحب المملكة التونسية الحاضرة في موكبه الفخيم وبعد جلوسه على عرش الامارة بسراية المملكة مثل بين يديه العالم الجليل المدرس الشيخ محمد المختار بن محمود الذي ابلغه شيخ المدينة امير الامراء سيدي مصطفى صفر في اليوم قبله استدعاء الملك الجليل بالحضور على الساعة الثانية بعد الزوال (كما هي السنة الجارية عند ارادة اسناد ولاية شرعية) وبعد ان قدم الشيخ فروض التحية والاجلال للحضرة الشامخة العلية دام لها العز والتاييد . تقدم صاحب المعالي امير الامراء سيدي عبد الجليل الزاوش وزير العدلية نحو الشيخ وسار به الى غرفة خاصة حيث خلع عليه شعار الخطة

وتقدم بالشيخ امام الامير فاستوى الامير الجليل قائما مستقبلا فضيلة الشيخ وبعد تقديم فروض الطاعة واستواء الامير على كرسي المملكة اعلم صاحب الدولة المولى الوزير الاكبر امير الامراء سيدي الهادي الاخوة ان سيدنا ومولانا قلد الشيخ محمد المختار بن محمود خطة الفتيا على المذهب الحنفي يتولاها على بركة الله وتوفيقه متحليا بفضائلها ناهجا فيها منهج العلماء الاتقياء الازكياء امثاله

فتقدم فضيلة الشيخ والقى بين يدي الملك خطابا بليغا مؤثرا (١) :

وعلى اثر الولاية وقع تنصيب فضيلة الشيخ بالمحكمة الشرعية حيث ذهب اليها يصاحبه جناب شيخ المدينة فتلقاه اصحاب الفضيلة شيوخ المجلس الشرعي بقاعة المجلس فابلغ جناب شيخ المدينة الى فضيلة مولانا شيخ الاسلام سيدي محمد بن يوسف الولاية الصادرة من الملك فتلقاها فضيلته بكل حبور واجلس الشيخ في منصبه الشريف كمفتي خامس في الدائرة الحنفية . وقدم لفضيلته شيوخ المجلس اجمل تهانيهم وتمنياتهم مبتهجين بهذه الولاية المباركة التي اسندت لمن هو جدير بها

والشيخ بن محمود عرفه قراء المجلة من يوم تأسيسها رئيسا لتحريرها وعرفوه بابحاثه القيمة ومقالاته التي دبجتها يراعه السيالة . فلاقت من نفوسهم كل اكبار وتقدير ، الامر الذي ترك القراء يقدمون الى الادارة كل ثناء وتشجيع .

ولا غرو فان نفسا مثل نفس فضيلته انطبع فيها حب الخير العام الى اقصى حد . وهو لا يألو جهدا في الاصلاح كلما وجد اليه سبيلا ، فهو حفظه الله منذ نعومة اظفاره اشرأبت نفسه الى الاصلاح

---

(١) انظر خطاب فضيلة الشيخ المفتي بصفحة ٤٢

تجده باحثا ومجدا في سيرة عظماء الاسلام المصلحين حتى يسير على خطاهم ويقتدي بسيرتهم المثلى في الارتقاء بالمجتمع العلمي الخاص وبالمجتمع العام حسب المستطاع وكلما تهيأت الاسباب وساعدت الظروف فشارك في المؤسسات العامة والخاصة والجمعيات على اختلاف مشاربها . وتحاريره القيمة في المجلات والصحف السيارة ذات صبغة خاصة بما تفيض عليها نفسه الطاهرة الطموحة فهي المنهل العذب الذي يستقي منه الضمآن

ولقد عرف الناس الشيخ ابن محمود خطيبا ومحاضرا كما عرفوه محررا ومدرسا وحاكما في المجلس المختلط . فما من جمعية علمية او ادبية الا ورغبت منه ان يساهم في انتاجها العلمي والادبي فاعتلى منابرها وحاضر الجمهور في اغراض هامة.وما صدى محاضرته التي القاها على منبر جمعية قدماء الصادقية عن (المرأة المسلمة) التي لاقت كل اعجاب من الحاضرين وقدرها الخاصة ايما تقدير عنا ببعيد فالشيخ مشهود له من الكافة بالباع الطويل والعبقرية النادرة وحسن التوفيق والايمان الكامل لا تاخذه في الحق لومة لائم يجاهر بآرائه وينصاع للحق . يخاف الله ويخشاه . تقي نقي ذو مجد اثيل وعلو همة لا يعبأ بسفاسف الامور طموح الى المعالي ، منقطع للادب والعلم يدافع عن كرامة العلم والعلماء ، بلغ به اخلاصه لجامع الزيتونة والزيتونيين الى ابلغ مدى ولا جرم فان الشيخ ولد في مهد زيتوني علمي ونشأ تحتضنه الفضيلة ، وترعاه المروءة ولما شب وانار صدره القرءان الذي حفظه عن ظهر قلب انخرط في سلك تلامذة المعهد الزيتوني سنة ١٣٣٤

وتدرج في سلم مراتبه الى ان نال اعجاب شيوخه الجلة قبل ان ينال شهادة المعهد الثانوية سنة ١٣٤١ ولما ارتقى الى مزاولة علوم التعليم العالي اقبل عليها بنفس النشاط الذي كان عليه قبل بل ابلغ فاخذ التفسير عن شيخ الاسلام الحنفي سيدي محمد بن يوسف وشيخ الاسلام المالكي سيدي محمد الطاهر بن عاشور ادام الله النفع بهما . وحضر دروس المحلي على فضيلة الشيخ محمد العزيز جعيط والمنعم الشيخ محمد بن القاضي ودلائل الاعجاز والمطول على فضيلة شيخ الاسلام المالكي وفضيلة الشيخ بلحسن النجار المفتي المالكي . والدرر على الإمام الشيخ محمد بيرم المفتي الحنفي والعلامة المنعم الشيخ عثمان بن الخوجه والحديث على الشيخ محمد العزيز جعيط والشيخ بلحسن النجار .

وفي سنة ١٣٤٤ ارتقى الى خطة التدريس من الرتبة الثانية وفي سنة ١٣٥١ ارتقى الى خطة التدريس من الرتبة الاولى وفي سنة ١٣٤٥ اسندت اليه خطة حاكم نائب بالمجلس المختلط العقاري وفي سنة ١٣٤٩ عين حاكما رسميا به ثم عين مدرسا بالمدرسة الصادقية .

ولقد زان كل المناصب التي تولاها بجدارة واخلاص الامر الذي دعى الملك ا-لميل لانتخابه لخطة الافتاء ذات المقام الاسمى لما يتوسم في حضرته من عظيم الجدارة ليقوم باعبائها احسن قيام ويشد عضد رجال المجلس الشرعي العلي انار الله بهم الحق ، واعز بهم الدين . وحمى شريعة رسوله على ممر الدهور والسنين .وقد تواردت على الشيخ قصائد التهاني من امهر الادباء نثبت منها القصيدة العصماء التي هنأه بها العالم الفاضل الشيخ الطاهر القصار

هذا وان هيئة المجلة تتقدم الى رئيس تحريرها مجددة له التهاني مغتبطة بهذه الولاية المباركة التي ستهيء للشيخ اسبابا عديدة للاصلاح الذي وطد نفسه عليه . وستزيده نشاطا ايضا على القيام بالمهمة العظيمة في رئاسة تحرير المجلة ادام الله النفع به .

خطبة فضيلة الشيخ المفتي

حمدا لمن أيد الشريعة المحمدية بالاتقياء من العلماء الاعلام . وابـد الملة الحنيفية فلا يتطرقها خلل مدى الليالي والايام . فلم تزل بحفظ الله يستضاء بانوارها الساطعة . ويهتدى بنجومها اللامعة . ويستقى بغيوثها الهامعة . وهي لخيري الدنيا والآخرة جامعة .

ويزيدها مر الليالي جدة وتقادم الايام حسن شباب . والصلاة والسلام الاتمان على سيدنا محمد نخبة ولد عدنان . افصح من نطق بالضاد . وافضل من هـدى الى طريق الحق والرشاد . الحاث على تبليغ شريعته حث الواجب . حيث قال ليبلغ الشاهد منكم الغائب . وعلى الآل والصحابة الاكرمين الذين شادوا الدين . واظهروا الحق اليقين . والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين)

اما بعد فان العدل اساس العمران . وبه تنتظم حياة البشر ويقضى على الظلم والعدوان . ولئلا ينزع الى الغداية نازع . جعل الله شريعـة الاسلام خاتمة الشرائع . فكانت كفيلة بحفظ الحقوق البشرية وموضحة لوظيفة كل احد من الراعي والرعية .

وان اول شيء يشترط لتحقيق هاته المزية . وحفظ الحقـوق المرعية . ان يمن الله تعالى على المملكة بان يكون اميرها جامعا بين التدين والاستقامة . وخوف الله وصون الكرامة . وهذا ما تحقق في هذا العصر السعيد على يدي جلالة ملكنا المؤيد بالنصر والتاييد . فقد كان هذا الملك الهمام . معجزة في سلسلة الملوك العظام . جمع الله له خصالا يندر اجتماعها في سواه . واحيي على يديه من المكارم ما يكاد يندثر لولاه . ولو لم يكن له الا مزيـة الاهتمام بالجانب العلمي حتى اينعت ثماره . وتفيأت قطوفه وتفتحت ازهاره . لكفاه شرفا وفخرا . ومثوبة عند الله وذخرا . هذا واني ليعجز لساني في هذا الموقف الرهيب . عن توفية حق الشكر لهذا الملك المعظم الذي لم يات له الزمان بظريب . على ما حفني بـه من عناية . واولاني من رعاية . باسناده الي خطة لها من بين المناصب العلمية شان واي شان وهي الافتـاء على مذهب الامام الاعظم ابي حنيفة النعمان رضي الله عنه . ولعمري انهـا لخطة شريفة وحليـة منيفه . تولاها من قبلي علماء اعلام وايمة بررة كرام . فزانوها بالعلم الغزير . والتوفيق الذي يسهل معه كل امر عسير . وارجـو من الله تعـالى ان يوفقني للسير على سننهم القديم . والاهتـداء الى صراطهم المستقيم . حتى اكون محققا لما يعلق علي من امل . وجامعـا في التوفيق بين القول والعمل . ومن المصادفات التي اراها من بشائر الخير وهي جديرة بالذكر ان وافقت ولايتي يوم غزوة بدر التي هي اول غزوة وقعت في الاسلام . ومن بعدهـا توالت الغزوات واستمرت الفتوحات لنبينا عليه الصلاة والسلام . فزحزح الشرك حتى رد خاسئا محسورا . واستمر لواء الاسلام ظافـرا منصورا . والشيء قد يكتسب الشرف بالجوار . والله يفعل ما يشاء ويختار .

تهنئة

بخطة الافتاء

للعالم المدرس الشيخ الطاهر
القصار المدير السابق للمجلة

لكم بوظيفة الفتيا الهناء ... تشيد به الصداقة والاخاء
وتنظمه يد الاشعار عقدا ... فرائده المودة والوفاء
وينشره فم الاخلاص مسكا ... يؤرج من نواسمه الفضاء
ويبلغه لسان الود عهدا ... ونعم العهد يكنفه الصفاء
وداد شيد الاباء منه ... بناء لا يطاوله بناء
مصانعه بها الاخلاص افق ... وظاهرة الوفاء به ذكاء
تظل قبابه الشماء حبا ... له في كل صالحة سناء
كذاك الود ان ما فاب اصل ... الم به من الفرع الرعاء
اخي يا حافظا عهدي وودي ... بعصر عز فيه الاوفياء
تقبل خطة الفتيا عروسا ... ترنحها الملاحة والبهاء
تهادى في الرياش قطاة واد ... زهاها حوله حب وماء
ولاقت فوق ضفته اليفا ... فجللها لبهجته الحياء
اليف قد زكا خلقا ونفسا ... سجيته الحصافة والذكاء

اللهم يا من امرتنا بالدعاء ووعدتنا بالاجابة وامرتنا بالاخلاص في العمل وان تكون اليك الانابة امنن علينا ببقاء ملكنا الهمام وبهجة الليالي وزينة الايام . وأجر الخير على يديه . واجعل السداد والصلاح في كل ما يقرره ويرتئيه . حتى تكون بلادنا التونسية مضرب الامثال في التقدم والازهار ما بين الممالك الاسلامية . وايده اللهم بآل بيته الكرام . الغطارفة الصناديد من نسل حسين المقدام حتى يكون شمسا وهم من حواليه بدور . يرثون المجد كابرا عن كابر ما تعاقبت الدهور . واجعل له من وزرائه الجلة الكرام . سواعد متينة لتسيير الامور على غاية ما يرام . لا سيما وزيره الاكبر الصادق قولا وفعلا . والكريم حسبا ونبلا . الذي له في تحقيق اغراض ملكنا المؤيد بالله انواع من الاخلاص قلما حفظها الزمان لسواه . واختم بالصالحات اعمالنا وحقق بفضلك ءامالنا . حتى تتحقق الاغراض وتنجز الاماني . بحرمة القرءان العظيم والسبع المثاني .

محمد المختار بن محمود

اذا مسك اليراعة ضاق ذرعا	كمي الحرب والبيض اللوء
وان خطب الجموع سمعت حقا	له في كل مشكلة مضاء
اديب بارع الآداب تعنو	لموردة المراشف والدلاء
بديع اللفظ خلاب المعاني	ولكن كلها دال وراء
انيس لايمل له حديث	جليس لا يمل له ثواء
اصيل الراي ثبت ليس يلفى	له في ساحة الحق النواء
ولوع بالمفاخر والمعالي	عدواه الحماقة والرياء
مليء بالمعارف ليس ينبو	له سهم ولا يخبو ضياء
تازر بالتقى طفلا وكهلا	وهل يلد العصاة الاتقياء
ومن ورث المفاخر عن اصول	بذكر خلالهم يسمو الثناء
سما بيت ابن محمود بقطر	تعطر ماءه وصفا الهواء
هو الخضرا معالمها رياض	واهلوها كرام ازكياء
مباركة منازلها نوام	نتائجها واسخبها سخاء
وراعيها ابو العباس ملك	لرفعة شانه ينمى العلاء
فطب يا ايها المختار نفسا	بعيش لاعداك به الهناء
وطل في مذهب النعمان صرحا	فيغشى امة الحق السناء
وخذها درة عصماء عزب	عن الشعرا وصين لها البهاء
ولم تكشف محاسنها لغيري	ومثلي من يزاح له الغطاء
وان كان الهنا في الختم حسنا	فلي من ذلك الغرض ابتداء

وصايا ثمينة

اربع لا يزول معها ملك : حفظ الدين واستكفاء الامين . وتقديم الحزم . وامضاء العزم

واربعة تدل على صحة الرأي : طول الفكر . وحفظ السر . وفرط الاجتهاد . وترك الاستبداد

واربعة تولد المحبة : حسن البشر وبذل البر . وقصد الوفاق . وترك النفاق

واربعة من علامات الكرم : بذل الندى . وكف الاذى . وتعجيل المثوبة . وتاخير العقوبة

واربعة توصل الى اربعة : الصبر الى المحبوب . والجد الى المطلوب . والزهد الى التقى . والقناعة الى الغنى

النهضـة العربيـة
في العصر الحاضر (*)

بقلم امير البيان شكيب ارسلان

تمهيـد

لقد تكلمنا منذ ايام في النادي العربي عن نهضة العرب السياسية وسيرهم في طريق الاتحاد فيما بينهم اقتداء بغيرهم من الامم اللائي كن مفككات مبعثرات فما زلن يسعين في الانضمام الى ان اصبحن كتلة واحدة : ونحن نتكلم الآن عن نهضة العرب العلمية التي هي في الواقع أساس النهضة السياسية مختارين لهذه المحاضرة مكان المجمع العلمي الذي هو المنبر الطبيعي للمباحث العلمية . كما اخترنا النادي العربي منبرا للكلام عن الوحدة العربية التي هي من مباحثه . وانما كان الفرق بين البحثين ان الواحد منهما سياسي صرف لا يجوز الخوض فيه الا بالمقدار الذي تسمح به المصلحة وان الآخر علمي بحت يقدر ان يستقصي فيه الباحث ما شاء دون ان يتعرض لمحذور او يعرض امته لضرر وبهذه المناسبة اعلن اني آسف بل جد آسف من ان ارى بعض اخواننا معتقدين ان الانسان اذا حاضر في باب السياسة وجب عليه ان يفرغ جعبته من اولها الى آخرها وان يجهر بكل ما يدور في خلده كما لو حاضر في باب العلم فهذا لا شك مذهب من يسميه الافرنج « بالولد الهائل » ومن ليس في الواقع جديرا بأن يطرق باب السياسة اصلا بل بين هذا والسياسة ما بين المشرق والمغرب فنحن لا نرضى ان نكون من الاطفال الهائلين ولا من الذين لا يعرفون الى اين يذهب الكلام بل نحن ولله الحمد من امة اشتهرت بالمرونة والدهاء وسرعة اللحظ وقد جاء في امثالها : اللبيب من الاشارة يفهم ولقد كان هادينا الاعظم صلى الله عليه وسلم اذا اراد غزوة ورى بغيرها . ومنا الذي يقول :

ومن لم يصانع في امور كثيرة　　　يضرس بانياب ويوطأ بمنسم

وقائل هذا البيت هو الذي قال فيه سيدنا عمر رضي الله عنه انه اشعر العرب لقوله ومن ومن . ثم ابدأ بالكلام عن نهضة العرب العلمية فاقول : منذ عشر سنوات (اي سنة ١٩٢٧) اقترح علي الطيب الذكر الاستاذ يعقوب صروف صاحب مجلة المقتطف التي انتهت اليها رئاسة المجلات العلمية ان اكتب الى المقتطف شيئا في موضوع النهضة الشرقية في هذه الخمسين سنة الاخيرة فكتبت يومئذ فصلا ظهر في احزاء المقتطف من تلك السنة وراق العلامة المشار اليه كثيرا وقد بدأته بما يلي :

لا حاجة بنا الى القول بأن احلى مجاري هذه النهضة كان في العلم والتعليم . وعندي انه لا نهضة

(*) هذه المحاضرة التي القاها عطوفة امير البيان شكيب ارسلان في شهر اكتوبر سنة ١٩٣٧ بدار المجمع العلمي العربي بدمشق اهداها برسم المجلة الزيتونية صديقنا الاستاذ محمد تيسير ضيان الكيلاني صاحب جريدة الجزيرة الفيحاء فبادرنا بنشرها افادة لقرائنا الكرام

للامم سوى النهضة العلمية فاذا وجدت هذه جاءت سائر النهضات من سياسيــة وعسكرية واجتماعية واقتصادية الخ ءاخذا بعضها برقاب بعض فاذا قلنا ان الشرق الادنى نهض نهضة علمية كفينا تعداد سائر مظاهر نهوضه ومعارج رقيه لان العلم وحده هو المفتاح وبه وحده الدخول الى داخل البــناء وكل نهضة لا يكون ظهرها العلم فما هي الا ساعة وتضمحل وقد يقال ان نهضة شرقنا هـذه ضئيلة لا تستحق ان تذكر بالقياس الى معالي الامم الراقية وانما لا نبرح متخلفين بمساوف شاسعة عن امد اوروبا واميركا واليبان فلماذا نشغل انفسنا بما لا يشغل حيزا في التاريخ العام وعلى هـذا نجاوب انه ليس العلم متعلقا بالكمال وحده ولا البحث موقوفا دائما على ما بهر النهى وبلـغ سدرة المنتهى وانما العلم هو ما تناول الدرجات كلها الدنيا منها والقصوى والبحث هو الذي به توزن مقادير الاشياء وتحدد نسبة بعضها الى بعض ونسبها الى الوقت . ثم اننا اذا تحرينا الحقيقة وجدنا الشرق العربي قد اجتاز في هذه الخمسين سنة في طريق العلم والحضارة الحديثة ما لم يتهيأ لاوروبا ان تجتازه قبـلا في اطول جدا من هذا الردح من الدهر . وذلك انه من الطبيعي ان يسهل على المتاخر ما لا يسهل على المتقدم لان المتقدم قد يضطر ان يمهد الطريق ويسير واما المتاخر فما عليه الا ان يلحقه ويسير على طريق مذلل امامه .

محمد علي الكبير مؤسس النهضة

فالنهضة الشرقية العربية — نسميها بالعربية اخراجا لما سواها من نهضات الشرق كنهضة اليابان والصين في الشرق الاقصى ونهضة فارس والافغان والهند في الشرق الاوسط ونهضة الترك في الشرق الادنى بحذائنا — قد بدأت في الواقع منذ اكثر من مائة سنة لعهد محمد علي عزيز مصر فهو اول من لحظ الخطر الحائق بالشرق من جراء جموده على اساليب العمران القديمة وجعل نصب عينيه مجارات الغرب في اساليبه الجديدة

محمد علي هو المؤسس الحقيقي لهذه النهضة الشرقية العربية ليس بوادي النيل فحسب بل في البلاد التي تجاور هذا الوادي المبارك وفي مقدمتها سورية واول ما استنشق السوريون ريح الحضارة الحديثة انما كان في زمن محمد علي وفي زمن غزاة ولده ابراهيم باشا للشام ثم انكفأ ابراهيم باشا الى مصر سنة ١٨٤٠ وبقيت في سورية آثار الانتباه ونزعة التجدد وجد السوريون لا سيما اهل الساحل منهم ينشدون اسباب المدنية الغربية لما رأوا فيها من القوة والرفاهية . وانس المرسلون والاميركيون هذا الاستعداد في اهل سورية فأسسوا في بيروت كليتهم الشهيرة التي كانت النبراس الاول التي استضاءت به سورية ولا يزال هذا النبراس يزهر في افاق الشرق الى يومنا هذا . ورأت امم اخرى (كالفرنسيين والالمان والطليان والروس) ان ارض سورية قابلة جدا لبذور المعارف فبثوا فيها المدارس والكتاتيب

وكل ذلك كان يبدأ في بيروت ثغر الشام البسام . ففي بيروت والحق يقال ابتزغ زرع العلم العصري واخرج شطاه ثم انبث في جميع الشامات ثم فيما جاورها واستغلض واستوى على سوقه يعجب حتى الزراع الاوروبيين انفسهم واضطرت الدولة العثمانية ان تفتح المكاتب الرشدية والاعدادية في سورية وان تقبل كثيرين من شبانها في مكاتبها العالية في القسطنطينية فتخرج فيها الوف من الناشئة منهم من تقلدوا مناصب ملكية او عدلية ومنهم من تعاطوا مهنة المحاماة ومنهم اطباء وصيادلة ومنهم ضباط نبغوا في الفنون العسكرية وامتازوا بين الاقران من ضباط العرب في العراق والسورية واليمن كلهم ممن تخرج في مكتب باغالدي في الاستانة وقد يزيدون على ثلاثة ءالاف فيما يقال مع ان النهضة العلمية في مصر لم يكن الاصل فيها لا الكلية الاميركية ولا الكلية اليسوعية في بيروت ولا مكاتب الدولة في الاستانة لا ينكر ان مصر كانت ميدانا لجياد القرائح السورية وان انبغ الذين تخرجوا في بيروت انما ظهروا واشتهروا وتعلقت قناديلهم بمصر هذا كما ان لمصر على الشام فضل تخريج عدد لا يحصى من ابناء هذه في العلوم اللغوية والشرعية بالجامع الازهر وتخريج عدد كبير من اطباء سورية بالقصر العيني فما زال كل من القطرين المصري والشامي يشد الواحد منهما الآخر في كل ضرب من ضروب الرقي العقلي وقلما جد في احدهما شيء الا سمعت رجع صداه في الآخر على ان النهضة الشرقية العربية وان كان قد ذر قرنها منذ قرن فاكثر لم تسر هذا السير الحثيث الا في الخمسين سنة الاخيرة التي شهدها كاتب هذه الاحرف بجميع صفحاتها . وذلك لاني بدأت بالكتابة في الصحف وبمرافقة الحركة العلمية في سيرها منذ ٥٠ سنة متوالية فلي الحق اذا بان ادعي معرفة تاريخ هذه النهضة وما دخلت فيه من التطورات على قدر ما يستطيع خادم امين للعلم زاول عمله في مكافحة الجهل طوال مدة خمسين سنة دون ان يتخلف يوما واحدا

الصحافة

لا نزاع في ان الصحافة العربية قد كانت من اقوى عوامل هذه النهضة بما اثارته من الحركة الفكرية ونقلت من اخبار الغرب الناهض الى اهل الشرق النائم وقد كان بحسب معلوماتي وربما اكون مخطئا في بعضها - اول جريدة عربية صدرت في الشرق جريدة الوقائع المصرية بعهد محمد علي ولكن بقيت صورية مدة طويلة لا تصدر فيها جريدة ويقال ان اول جريدة صدرت في بلادنا هي جريدة (حديقة الاخبار) انشأها خليل افندي الخوري من شعراء لبنان في وقته وذلك سنة ١٧٦٠ ثم اصدر المعلم بطرس البستاني الشهير نشرات وطنية في بيروت لذلك العهد . ولم يلبث ان نشر جريدة اسبوعية باسم الجنة ثم جريدة يومية باسم الجنينة ثم مجلة شهرية باسم البستان وقد التزم هذه المادة في التسمية لمناسبتها مع اسمه « البستاني » وكذا اليسوعيون قد أصدروا في بيروت جريدة باسم البشير تغلب عليها المباحث الدينية الكاثولوكية ثم اصدر القس لويس الصابونجي جريدة النحلة . واصدر

غيره جريدة اسمها النجاح . واصدر الاميركيون جريدة اسمها النشرة الاسبوعية . ثم تحرك المسلمون فاصدروا جريدة سموها ثمرات الفنون وكانت تصدر بادارة الشيخ عبد القادر القباني وقد تولى تحريرها في البداية العلامة الشيخ يوسف الاسير ثم خلفه عليها العلامة الشيخ ابراهيم الاحدب الطرابلسي وهذا كله كان بين ١٨٦٠ و ١٨٨٠ اي في مدة عشرين سنة فوجدت في بيروت في ذلك العهد عدة مطابع وصارت تطبع الكتب العربية بعد ان كان طبع الكتب العربية منحصرا في مطبعة بولاق المصرية وغيرها من مطابع مصر وكانت قد صدرت في الاستانة في اثناء حرب القريم سنة ١٨٥٥ جريدة مرآة الاحوال وذلك بامر الدولة وتولى تحريرها رزق الله حسون الكاتب الشهير وقد وقعت الي عدة نسخ كانت باقية عندنا من تلك الجريدة فيها اخبار حرب القريم وغيرها من الاخبار ومما اتذكره انه كان عند ذكر خديوي مصر يلقبه سعادة عزيز مصر واظن ان جريدة مرآة الاحوال هذه هي الجريدة العربية الثانية بعد تقويم الوقائع المصرية وقد بقيت تصدر في عاصمة السلطنة العثمانية عدة سنوات الى ان فر رزق الله حسون من الاستانة الى اوربا على اثر حادثة جرت معه وقيل فيها انه اختلس مالا للدولة فلاذ بالفرار وكان احمد فارس الشدياق في باريس فقدم الى الاستانة وانشأ جريدة (الجوائب) المشهورة فكانت في وقتها اشهر جريدة عربية في العالم وكان لها مشتركون في جميع الاقطار الاسلامية ، نظرا لبراعة كاتبها احمد فارس المعدود من اكبر كتاب القرون الاخيرة واما رزق الله حسون فبعد ان فر الى اوربا نشر كتابا تحت عنوان « النفثات » نال فيه من الدولة العثمانية ومن صاحب الجوائب فاشار هذا الى كتاب النفثات بقوله : « كان حسون لصا وله سرقات انقلب لصا وله نفثات » واظنني غير مخطىء اذا قلت انه لذلك العهد او بعده بقليل ظهرت جريدة في تونس اسمها « الرائد التونسي » وظهرت جريدة اخرى في مصر باسم وادي النيل ، وربما يكون قد صدر في مصر جرائد اخرى لم اسمع بها ولست محاولا في هاته العجالة الاحاطة باسماء جميع الجرائد العربية التي صدرت وتواريخ صدورها وانما اذكر اليوم اشهرها على سبيل التمثيل واقول انه لما انتشرت جريدة الجوائب بمكان احمد فارس من علم اللغة وبراعة الانشاء وسعة المدارك كانت عاملا قويا من عوامل النهضة العربية الادبية وصار صاحبها يطبع في الاستانة من نفائس الكتب العربية التي كانت مجهولة والتي اطلع عليها في خزائن الكتب القسطنطينية ما اعجب به العالم العربي كله لا سيما انه نشرها بالطبع الجميل وربما كانت خدمته للثقافة العربية بهذه المطبوعات في الدرجة الثانية من خدمة مطبعة بولاق واني قد ادركت وانا ابن ثلاث عشرة سنة او اربع عشرة سنة عهد احمد فارس في اواخر عمره وكان لا يزال وقد بلغ من الكبر عتيا يخدم هذه اللغة الشريفة التي كان من اعلامها ومن شاء ان يعلم مدى براعة احمد فارس ومبلغ بلائه في سبيل اللغة العربية والوطن العربي فليراجع مجموعة كنز الرغائب في منتخبات الجوائب فهي كتاب يحتوي على سبعة مجلدات لا يمكن ان يستغني عنه من اراد الاطلاع على الحركة العلمية العربية والحركة السياسية العالمية بين ١٧٦٠ و ١٨٨٠

(يتبع)

الاشتراك

عن سنة بالحاضرة وبلدان المملكة والجزائر والمغرب
الاقصى وسوريا فرنكات ٣٠
« في الخارج غير البلاد المذكورة فرنكات ٤٠
يخصم الربع للتلامذة

وصولات الاشتراك لا تعتبر الا اذا كانت
معضاة من امين المال

محمد الهادي ابن القاضي

والمخابرات المالية لا تكون الا معه

الادارة نهج الباشا رقم ٣٣ — تونس

ثمن الجزء فرنكات ٣

المجلة الزيتونية

علمية

مجلة علمية أدبية اخلاقية

تصدرها الهيئة من مدرسي جامع الزيتونة المعمور

شهرية وسنتها عشرة اشهر

ثمن النسخة ٣ فرنك

الجزء الثاني	تونس ـ في ذى الحجة الحرام ١٣٥٧ ـ فيفرى ١٩٣٩	المجلد الثالث

المطبعة التونسية ـ نهج سوق البلاط عدد ٥٧ ـ تونس

المجلد الثالث | الجزء الثاني

فهرس العدد

المجلة الزيتونية

مجلة علمية أدبية اخلاقية

تصدرها الهيئة من مدرسي جامع الزيتونة المعمور

شهرية وسنتها عشرة اشهر

الجزء الثاني	تونس - في ذي الحجة الحرام ١٣٥٧ - فيفري ١٩٣٩	المجلد الثالث

القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ

من تفسير الامام الحجه الشيخ سيدي محمد الطاهر بن عاشور شيخ الاسلام المالكي

(ومما رزقناهم ينفقون) صلة ثالثة في وصف المتقين مما يحقق معنى التقوى وصدق الايمان وهو بذل أعز الاشياء على النفس أعني المال في مرضاة الله تعالى لان الايمان لما كان مقره القلب ومترجمه اللسان كان محتاجا الى دلائل صدق صاحبه وهي عظائم الاعمال فمن ذلك التزام ءاثاره في الحضرة والغيبة الدال عليه - الذين يؤمنون بالغيب - ومن ذلك ملازمة اداء الصلوات لانها دليل على تذكر المؤمن جانب من ءامن به ومن ذلك السخاء ببذل المال للفقراء الذين هم عباد من آمن به

والرزق ما يناله الانسان من موجودات هذا العالم التي يدفع بها ضرورته وحاجته وينال بها ملائمه سواء كانت من الاعيان أم من القيم وأشهر استعماله أو حقيقته بحسب ما رأيت من كلام العرب وموارد القرآن أنه حقيقة فيما يحصل من ذلك للانسان خاصة واما اطلاقه على ما يتناوله الحيوان من المرعى والماء فهو على المجاز كما في قوله تعلى: وما من دابة في الارض الا على الله رزقها. فهو بمنزلة المجاز في قوله تعالى: وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكم. والرزق شرعا عند اهل السنة كالرزق لغة اذ الاصل عدم النقل الا لدليل فيصدق اسم الرزق على الحلال والحرام لان صفة الحل والحرمة غير ملتفت اليها في مقام طلب الانفاق وهي تختلف باختلاف احوال التشريع فقد يكون بعض الرزق حلالا في وقت ثم يصير حراما بعده مثل ثمن الخمر قبل تحريم التجارة فيه ومثل بعض صور الربا فالمقصود في الآية انهم ينفقون مما في أيديهم وحال المؤمن لا تحمل الا على الموافق شرعا. وخالفت المعتزلة في ذلك في جملة فروع مسألة خلق المفاسد والشرور وتقديرهما. وهذه المسألة أي مسالة الرزق من المسائل التي فرضت فيها المناظرة بين الاشاعرة والمعتزلة كمسالة الآجال ومسألة السعر. وتمسك المعتزلة في مسألة الرزق بادلة لا تنتج المطلوب. والانفاق في اللغة اعطاء الرزق فيما يعود بالمنفعة على النفس وعلى الاهل والعيال من طعام ولباس وفي نفع النفس كالصدقة واريد به هنا بثه في نفع الفقراء وأهل الحاجة وتسديد نوائب المسلمين بقرينة المدح واقترانه بالايمان والصلاة فلا شك أنه هنا خصلة من خصال الايمان الكامل وما هي الا الانفاق في سبيل الخير والمصالح العامة دون الانفاق على النفس والعيال اذ لا يمدح أحد بانفاقه على نفسه وعياله لان ذلك مما تدعو اليه الجبلة فلا تحرض عليه الشريعة ومن المفسرين من أدخل الانفاق على النفس والعيال في ذلك ولا وجه له.

وتقديم المجرور على عامله وهو ينفقون لمجرد الاهتمام بالرزق عند الناس فيكون في التقديم ايذان بانهم ينفقون مع ما للرزق من المعزة على النفس فهو كقوله تعلى ويطعمون الطعام على حبه. وفي الاتيان بمن التي هي للتبعيض ايماء الى كون الانفاق المطلوب شرعا انفاق بعض المال لان الشريعة لم تكلف الناس حرجا وهذا البعض يقل ويتوفر بحسب احوال المنفقين فالواجب منه ما قدرت الشريعة نصبه ومقاديره وما زاد على الواجب لاينضبط. وفي التعبير بالمضارع في ينفقون اشارة الى تكرر ذلك منهم وان ذلك دأبهم وعادتهم.

(والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك) عطف على الذين يؤمنون بالغيب فانه بعد أن اخبر أن القرءان هدى للمتقين المبينين بانهم الذين يؤمنون بالغيب ذكر فريقا ءاخر من المتقين وهم الذين ءامنوا بما أنزل من الكتب قبل النبيء صلى الله عليه وسلم ثم ءامنوا به وهؤلاء هم مؤمنو أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وهم قد دخلوا في جملة الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة الخ

الا ان لهم خصلة اخرى اوجبت تخصيصهم بالذكر والتنويه بشانهم تلك الخصلة هي انهم لم يسبق لهم كفر فكانوا ممن ءامن مرتين ولما كان قصد تخصيصهم بالذكر يستلزم عطفهم وكان العطف بدون تنبيه على انهم فريق ءاخر قد يوهم ان القرءان لا يهدي الا الذين يؤمنون بما انزل من قبله لان هذه خاتمة الصلات فلا بد من تحققها مع الصلات المتقدمة فلا يكون للذين ءامنوا بعد الشرك حظ في هذا الثناء وكيف وفيهم خيرة المؤمنين من الصحابة دفع هذا الايهام باعادة الموصول ليؤذن بأن هؤلاء فريق ءاخر غير الفريق الذي اجريت عليهم الصفات الثلاث الاول وبذلك يتبين ان المراد بالموصول وصلاته الثلاث الماضية هم الذين ءامنوا من المشركين من العرب لوجود المقابلة ويكون الموصولان للعهد وعلم ان الذين يؤمنون بما أنزل من قبل هم ايضا يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وينفقون علما حاصلا بدلالة تشبه فحوى الخطاب لانهم احدر بذلك. والانزال جعل الشيء نازلا والنزول هو الانتقال من علو الى سفل وهو حقيقة في انتقال الذات وقد يطلق على انتقال الاوصاف تبعا للذات التي تتصف بها فهو مجاز عقلي ويطلق الانزال ومادة اشتقاقه بوجه المجاز على معان راجعة الى تشبيه فعل بالنزول لاعتبار شرف ورفعة معنوية قال تعلى: يا بني ءادم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم. وقال وأنزل لكم من الانعام ثمانية ازواج . لان ذلك الخلق والتقدير لما كان من فعل الله جعل كأنه نازل من علو وشرف . وانزال الوحي الى الانبياء يكون على احد هذين المجازين لانه اما نازل تبعا لنزول الملك ان كان بواسطة الملك فهو نزول معنى تبعا لنزول الذات الحاملة له وما تتنزل الا بامر ربك وان كان وحيا بلا واسطة الملك اوكلاما من وراء حجاب فهو نزول معنوي لكونه بتكوين الله تعلى بوجه خاص فكان منتسبا لجانب رفيع الشان .

واقول ان المراد بما أنزل قبل النبيء عليه السلام وما أنزل اليه هما الشرائع التي سبق نزولها والمقدار الذي تحقق نزوله من شريعة الاسلام قبل نزول هذه الآية فان الثناء على المهتدين انما يكون بانهم حصل منهم ايمان بما نزل لا توقع ايمانهم بما سينزل لان ذلك لا يحتاج الى الذكر اذ من المعلوم ان الذي يؤمن بما أنزل يستمر ايمانه بكل ما ينزل على الرسول لان العناد وعدم الاطمئنان انما يكون في اول الامر فاذا زالا بالايمان أمنوا من الارتداد وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب فالايمان بما سينزل في المستقبل حاصل بفحوى الخطاب وهي الدلالة الاحروية فلا حاجة الى دعوة تغليب الماضي على المستقبل في قوله تعالى أنزل على طريقة صاحب الكشاف وعندي ان فائدة اناطة الايمان بالشيء المنزل من الله دون ان يقال والذين يؤمنون بك من اهل الكتاب الاشارة الى ان هؤلاء هم الذين لا يؤمنون بامور موهومة تصدهم عن اتباع الاسلام كقولهم ان التوراة لا تقبل النسخ وانه يجيء في ءاخر الزمان من عقب اسراءيل من يخلص بني اسراءيل من الاسر والعبودية ونحو ذلك من كل ما لم ينزل في الكتب السابقة ولكنه من الموضوعات او من فاسد

التأويلات ففيه تعريض بغلاة اليهود والنصارى الذين صدهم غلوهم في دينهم وقولهم على الله غير الحق عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم

(وبالآخرة هم يوقنون) الواو للعطف لذكر صلة مدح ثانية للذين يؤمنون بما أنزل الى النبيء صلى الله عليه وسلم وبما أنزل من قبله وهي ايمانهم بالآخرة اي اعتقادهم بحياة ثانية بعد هذه الحياة وانما خص هذا الايمان بالذكر عند الثناء عليهم من بين بقية اوصافهم لانه ملاك التقوى والخشية التي جعلوا من موصوفيها لان هذه الاوصاف كلها جارية على ما أجمله الوصف بالمتقين على اختلاف مراتب التقوى فان اليقين بدار الثواب والعقاب هو الذي يوجب الحذر والفكرة فيما ينجي النفس من العقاب وينعمها بالثواب وذلك الذي ساقهم الى الايمان بالنبيء صلى الله عليه وسلم ولان هذا الايمان بالآخرة من مزايا اهل الكتاب . والايقان حصول اليقين في النفس واليقين هو العلم بالشيء عن نظر واستدلال او بعد شك سابق ولا يكون شك الا في امر ذي نظر . وقيل هو العلم الذي لا يقبل الاحتمال وقد يطلق على الظن القوي اطلاقا عرفيا حيث لايخطر بالبال انه ظن ويشتبه بالعلم الجازم. وفي قوله تعالى بالآخرة هم يوقنون تقديم للمجرور الذي هو معمول يوقنون على عامله وهو تقديم لمجرد الاهتمام بالآخرة على ما اختاره العصام رحمه الله في حاشية تفسير البيضاوي وانا اختار ما ذهب اليه واري ان في هذا التقديم تعريضا بالثناء على هؤلاء الموقنين بانهم ايقنوا باهم ما يوقن به المؤمن فليس التقديم مفيدا للاختصاص والحصر اذ لايستقيم معنى الحصر هنا بان يكون المعنى انهم يوقنون بالآخرة دون غيرها وقد تكلف العلامة صاحب الكشاف وشارحوه لافادة الحصر من هذا التقديم بما ليس مناسبا للثناء على الذين اتبعوا الاسلام من اهل الكتاب ببيان ضلال كانوا فيه. وقوله هم يوقنون جاء بصيغة الجملة الاسمية التي خبرها فعل لقصد افادة قصر الافراد لان تقديم المسند اليه على الخبر الفعلي يفيد القصر غالبا وهذا القصر للرد على المشركين الذين يدعون انهم يوقنون بالآخرة فقد كان المشركون فريقين فريق لا يؤمن بالآخرة وهم الدهريون الوارد فيهم قوله تعالى: وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفي خلق جديد أفترى على الله كذبا ام به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد . وغيره من ءايات القرءان وفريق ءامنوا بالبعث والحشر مثل زهير في قوله يخاطب عبسا وذبيان

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب او يعجل فينقم

وكان كثير من العرب يحبسون راحلة الميت الكريم عند قبره حتى تموت جوعا ويقولون انه يحشر راكبا عليها والا يحشر راجلا فقصد بيان ان يقين هؤلاء بالآخرة هو مساو لانكار البعث في عدم ترتب فائدة التقوى والاتعاظ به لانه ايقنوا بالآخرة ايقانا مجملا لم يكسبهم تقوى واما المتبعون للحنيفية في ظنهم مثل أمية بن ابي الصلت وزيد بن عمرو بن نفيل فلم يلتفت اليهم لقلة عددهم او لانهم ملحقون باهل الكتاب لاخذهم عنهم كثيرا من شرائعهم المنسوبة الى ابراهيم عليه السلام وفي كلا التقديمين تعريض بالمشركين الدهريين ونداء على انحطاط عقيدتهم .

الحديث الشريف

اليوم اكملت لكم دينكم

قال البخاري حدثني محمد بن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن قيس عن طارق بن شهاب قالت اليهود لعمر انكم تقرءون ءاية لو نزلت فينا لاتخذناها عيدا فقال عمر اني لاعلم حيث أنزلت وأين أنزلت وأين رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزلت يوم عرفة وانا والله بعرفة قال سفيان واشك كان يوم الجمعة ام لا اليوم اكملت لكم دينكم

قد تقرر ان هذه الشريعة المباركة معصومة محفوظة من التحريف والتبديل لا تتغير احكامها باختلاف الزمان ولا بتعاقب الاحوال قال تعالى: لا تبديل لكلمات الله. وقال صلى الله عليه وسلم الحلال ما جرى على لساني الى يوم القيامة والحرام ما جرى على لساني الى يوم القيامة قال ابو اسحق الشاطبي من خواص هذه الشريعة الثبوت من غير زوال فلا تجد فيها بعد كمالها نسخا ولا رفعا لحكم من احكامها لا بحسب عموم المكلفين ولا خصوص بعضهم ولا بحسب زمان دون زمان ولا حال دون حال بل ما كان سببا فهو سبب ابدا لا يرتفع وما كان شرطا فهو ابدا شرط وما كان واجبا فهو واجب ابدا او مندوبا فمندوب وهكذا جميع الاحكام فلا زوال لها ولا تبديل ولو فرض بقاء التكليف الى غير نهاية لكانت احكامها كذلك

ولما بايع الناس عمر بن عبد العزيز صعد المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال ايها الناس ليس بعد نبيكم نبي ولا بعد كتابكم كتاب ولا بعد سنتكم سنة ولا بعد امتكم امة الا وان الحلال ما احل الله في كتابه على لسان نبيه حلال الى يوم القيامة الا وان الحرام ماحرم الله في كتابه على لسان نبيه حرام الى يوم القيامة

ومن كلامه الذي عني به العلماء وكان يعجب مالكا جدا قوله: سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الامر بعده سننا الاخذ بها تصديق لكتاب الله واستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله ليس لاحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر في شيء خالفها من عمل بها مهتد ومن انتصر بها منصور ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى واصلاه جهنم وساءت مصيرا. والمراد بسنة ولاة الامر سنة الخلفاء الراشدين كما جاء مفسرا في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه مرفوعا للنبيء صلى الله عليه

هذا درس ختم الحديث الشريف الذي القاه صاحب الفضيلة العلم الهمام شيخ الاسلام الحنفي سيدي محمد بن يوسف ابقاه الله يوم ١٧ رمضان عام ١٣٥٧ بجامع حمودة باشا المرادي وقد حضره الامير الجليل سيدنا احمد باشا باي صاحب المملكة التونسية ورجال دولته الفخام حسب عادته السنوية

وسلم عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجد واياكم ومحدثات الامور . وانما قرن سنتهم بسنته لانهم رضي الله عنهم فيما سنوه اما متبعون لسنة النبيء صلى الله عليه وسلم واما لما فهموه من سنه صلى الله عليه وسلم وان كان على وجه يخفى على غيرهم لا ثالث لهذين الاحتمالين وبالجملة فاحكام هذه الشريعة بعد كمالها ابدية مستمرة في جميع الاحوال والاطوار وان زاعم التبديل او التجديد منحرف عن الجادة الى بنيات الطريق

ولقد تمالأت الادلة على عصمة هذه الشريعة وحفظها تصريحا وتلويحا منها قوله تعالى : انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون . نزلت هذه الآية ردا على قول المشركين يا ايها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون استهزاء وانكارا للوحي صريحا ولحفظه استلزاما فرد الله عليهم بان المنزل للذكر تحقيقا على القطع والبتات هو الله تعالى وانه هو المتولي حفظه . لذلك ترى كلا من طرفي او جملتي الرد مقترنا او مقترنة باداة التوكيد المزدوج استقصاء في الرد عليهم من جهتي الصراحة والاستلزام وقطعا لما خامر اوهامهم الفاسدة من الطمع في عدم الحفظ وطرو التغيير . والسنة وان لم تذكر فما هي الا وحي يوحى وهي مع ذلك مبينة للكتاب ودائرة حوله فهي منه واليه ترجع في مواردها ومعانيها كما قال تعالى وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم . والتبيين اما بالنص على المقصود او بما يرشد الى ما يدل عليه بطريق الاجتهاد

وقد قيض الله تعالى لعموم الكتاب والسنة رجالا احكموا اصولها وحرروا معاقدها وفصولها وسادة يناضلون عن الدين بما أوتوا من الحكمة والعلم بموارد الشريعة ومداركها فمهما عارض في الدين من اهل الزيغ والاهواء معارض او جادل بالشبه خصم مناهض غبروا في وجهه بالادلة القاطعة وذلك كله من حفظ الكتاب الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

ومن اللطائف القرءانية ما حكاه الشاطبي في الموافقات عن ابي عمرو الداني في طبقات القراء عن ابي الحسن المنتاب قال كنت يوما عند القاضي ابي اسحق اسماعيل بن اسحق فقيل له لم جاز التبديل على اهل التوراة ولم يجز على اهل القرءان فقال القاضي قال الله عز وجل في اهل التوراة بما استحفظوا من كتاب الله فوكل الحفظ اليهم فجاز التبديل عليهم وقال في القرءان انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون فلم يجز التبديل فمضيت الى ابي عبد الله المحاسبي فذكرت له الحكاية فقال ما سمعت كلاما احسن من هذا اه.

وبمثل ذلك صرح صاحب الكشاف في تأويل الآية فقال وهو حافظه في كل وقت بخلاف الكتب المتقدمة فانه لم يتول حفظها وانما استحفظها الربانيين والاحبار فاختلفوا فيما بينهم بغيا فكان التحريف ولم يكل القرءان الى غير حفظه اه.

قلت وصاحب الكشاف وان كان متأخرا لكن التنبه الى هذه اللطيفة الشريفة من الفريقين كيفما

كان على وجه الاستباق او توارد الخواطر فان المرجع في استمدادها قوله تعالى فالله خير حفظا كما لا يخفى ٠

ومنها قوله تعالى: آلر كتاب أحكمت ءاياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ٠ احكمت ءاياته اي نظمت نظما رصينا محكما لا اخلال فيه لا من جهة اللفظ ولا من جهة المعنى ثم فصلت ءاياته فصولا سورة سورة او ءاية ءاية او فصلت بدلائل التوحيد وفوائد المواعظ والاخبار تشبيها لها بالعقد المفصل بفرائد اللئالي على طريق الاستعارة وثم للتراخي في الرتبة لان التفصيل بعد الاحكام او للتراخي في الاخبار اعتبارا ان انقضاء اللفظ الاول ينزله منزلة المتباعد على وزان الاشارة للمنقضي بصيغة البعد كما في قوله تعالى ذلك الكتاب لا ريب فيه وقوله من لدن حكيم خبير تقرير لاحكام الآيات وتفصيلها على اكمل ما ينبغي كما تشعر به صيغة المبالغة وهو صفة اخرى لكتاب او خبر بعد خبر وفي الكشاف اوصلة لاحكمت وفصلت لان المعنى احكمها حكيم وفصلها خبير قال وفيه طباق حسن اي لف ونشر مرتب مبني كما ترى على تعلق الظرف بالفعلين معا على التوزيع لا على طريق التنازع وهو تاويل وجيه للغاية يعرفنا ان منع توارد العاملين على معمول واحد اغلبي او مخصوص بما لم يكن على التوزيع لتنزيل التوزيع معنى منزلة التفريق لفظا واتصال كل من القيدين بعامله المتعلق به على ان تعليل المنع باجتماع مؤثرين ربما لا يسلم في الاحكام اللفظية والاعتبارات الاصطلاحية بل يحقق لنا قولهم في المثل اضعف من حجة نحوي ولا غرو فيما توخاه صاحب الكشاف هنا فقد صرح في غير هذه الآية بان ذلك من باب الميل الى جانب المعنى وان العرب يميلون في مواضع من كلامهم مع المعاني ميلا بينا وان كان على خلاف ظواهر الالفاظ

وليس المراد بالطباق المطابقة وهي المقابلة بين الاوصاف المتنافية كالخفة والثقل في حديث الكلمتين الحبيبتين الى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ثم ان وصف الكتاب بكون ءاياته احكمها حكيم وفصلها خبير يشعر اشعارا جليا بحفظه وعدم تغييره

ومنها قوله تعالى الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما فنفى عن الكتاب العوج باخلال في اللفظ وتناف في المعنى او بانحراف عن الدعوة الى الحق واثبت كونه قيما اي مستقيما معتدلا لا إفراط فيه ولا تفريط او قيما بمصالح العباد وصفا له بالتكميل بعد وصفه بالكمال ولا شك أن وصف الكتاب بما يقتضي الكمال والتكميل يدل دلالة ظاهرة على الحفظ وعدم الزيادة والنقص كوصف الدين بالاكمال في ءاية الباب وهي قوله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا

والمراد بالاكمال إكمال الاحكام أصولا وفروعا بالمنصوص عليه وكليات التشريع الراجعة الى ذلك الاصل العظيم الذي يعبر عنه علماء مصر والاندلس وشمال افريقيا بالمصلحة والمفسدة وعلماء

الشام والعراقين بالحسن والقبح لا بالمعنى المختلف فيه بل باحد المعنيين العقليين بالاتفاق أعني كون الفعل ملائما او غير ملائم أو كونه صفة كمال أو نقص وذلك مساو لكونه مصلحة او مفسدة كما لا يخفى وبتلك الكليات المستفادة من موارد الشريعة ومصادرها تتجلى أحكام غير المنصوص من الحوادث المتجددة بواسطة الاجتهاد الماذون فيه بالكتاب والسنة فبالمنصوص وكمال الكليات وقواعد الاجتهاد حصل كمال احكام الدين كليه وجزئيه واندفع ما عسى ان يختلج ببعض الاذهان وهو ان من الوقائع ما لم يكن منصوصا عليه في الكتاب والسنة بل ما من حادثة الا ولها في الشريعة حكم اما منصوص او مقيس على المنصوص لا سائبة في الاسلام

والمراد باليوم الزمان الحاضر وما يتصل به ويدانيه من الازمنة الماضية والآتية كلفظ الآن وقيل يوم نزول الآية وهما متقاربان وربما استشكل تقييد الاكمال باليوم على المعنيين لانه يقتضي نقصان الدين الذي كان عليه المسلمون قبل ذلك اليوم وللمفسرين في الاحتراز عن هذا الاستشكال وجوه المختار منها ما ذكره القفال وحاصله بايضاح ان الدين المكلف به لم يكن ناقصا البتة بل هو كامل في كل وقت من مبدا البعثة الى يوم نزول الآية غير أن كماله المذكور في الآية كمال حقيقي اذ لم ينزل بعد هذه الآية شيء من أحكام الحلال والحرام وفي اثناء البعثة كمال نسبي بحسب الزمان لوقوع التدريج في المشروعية على حسب الحوادث حكمة من الله وعلما فمجموع الاحكام في كل وقت هو الدين كله في ذلك الوقت الى وقت نزول الآية ففيه تمت الاحكام التي اراد الله بقاءها ما دامت السماوات والارض

وفي التنصيص على إكمال الدين مع مساق الامتنان تعريض بأن النبيء صلى الله عليه وسلم بلغ جميع ما أمر بتبليغه ولم يكتم شيئا مما أمر بتبليغه وقالت عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها من زعم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كتم شيئا من الوحي فقد أعظم الفرية على الله والله يقول يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالاته والله يعصمك من الناس . أي بلغ جميع ما أنزل اليك غير مراقب في تبليغه احدا ولا خائف ان ينالك مكروه وان لم تفعل اي وان لم تبلغ ما أنزل اليك فما بلغت ما ارسلت به . وظاهر اللفظ ان الجزاء هو الشرط اي وان لم تبلغ لم تبلغ وهما متحدان معنى كاتحاد المبتدأ والخبر في قول ابي النجم : انا ابو النجم وشعري شعري

والتحقيق أن مضمون الشرط هو نفي تبليغ البعض ومضمون الجزاء هو نفي أصل التبليغ وهما متغايران في المعنى أي وان لم تبلغ بعض ما أنت مأمور بتبليغه ولو كلمة واحدة فما بلغت حينئذ الرسالة ولا اديت شيئا منها وهذا التحقيق وان حصلت به المغايرة بين الشرط والجزاء لم يزل محل نظر وموضع تامل من جهة انعقاد الجزاء وهو نفي اصل التبليغ بالشرط الذي هو عدم تبليغ البعض وترتبه عليه مع ان السلب الجزءي لا يستلزم السلب الكلي وبعبارة من ترك البعض لا يقال انه ترك الكل

وفي ذلك نظران النظر الاول ان ترتب نفي اصل التبليغ على عدم تبليغ البعض حقيقي باعتبار

ان مجموع الرسالة شيء واحد فكتمان البعض في المستقبل يضيع ما أدي منها في الماضي كالصلاة اذا ترك بعض أركانها أو تخلف شرط من شروطها فانها تبطل من أصلها ولا يعتد بشيء مما ادي منها

النظر الثاني أن الترتب مجازي على وجه المبالغة بابراز الكلام في معرض التسوية بين كتمان البعض وكتمان الكل في عدم الاداء او المؤاخذة تهويلا لشلن كتمان البعض على شاكلة فكأنما قتل الناس جميعا هكذا ينبغي تقرير كلام المفسرين في هذه الآية

وحكى القاضي ابو عبد الله المقري في الجزء الذي الفه في ترجمة شيوخه ومن اجتمع به في رحلته انه لما نزل بظاهر قسنطينة تلقاه رجل من الطلبة فسأله عن هذه الآية وان لم تفعل فما بلغت رسالته فان ظاهرها ان الجزاء هو الشرط وذلك غير مفيد واجابه بان المعنى وان لم تبلغ في المستقبل لم ينفعك تبليغك في الماضي لارتباط اول الرسالة بآخرها كالصلاة ونحوها فعبر بانتفاء ماهية التبليغ عن انتفاء المقصود منه وهو تبليغ الجميع قال ثم اجتمعت بابن عبد السلام بجامع بوقير بتونس فسالته عن ذلك فلم يزد على أن قال هذا مثل قوله عليه الصلاة والسلام فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله وقد علمتم ما قال الشيخ تقي الدين قال المقري وكلام تقي الدين لا يعطي الجواب عن الآية اي لان ما قاله تقي الدين هو حصول المغايرة بتقدير قيد في كل من جملتي الشرط والجزاء أي فمن كانت هجرته الى الله ورسوله نية وقصدا فهجرته الى الله ورسوله حكما وشرعا ولا شك ان هذا التقدير غير ميسور في الآية لذلك قال المقري ان كلام تقي الدين لا يعطي الجواب عن الآية. ولعل ابن عبد السلام لم يرد خصوص التقدير الذي في الحديث بل اراد مجرد التنبيه على تقدير قيد مناسب تحصل به المغايرة ايضا

وفي الحديث وجوه أخر منها أن التغاير في المعنى لا بتقدير قيد في جملة الجزاء بل بالاحالة على الوصف المفهوم من السياق والمعهود الذي استقر في النفوس اشعارا بان ذلك الوصف الذي به التغاير من اللوازم الغنية عن التصريح اي فهجرته هي الهجرة المطلوبة او المعتد بها شرعا مثلا وشعري المعهود الذي اشتهرت بلاغته اشتهارا لا خفاء فيه ومنها ان الجزاء المذكور جار على اقامة السبب مقام المسبب الذي هو الجزاء في الحقيقة والمعنى فهجرته مقبولة او مشروعة لانها لله ورسوله وكل من الوجهين يمكن اجراؤه في الآية على ضعف لا يخفى على الناقد البصير

وتأمل ايها الباحث عن محاسن البيان ولطائف الاسلوب الحكيم لترى كيف ذكر الشرط في الآية بغير عنوان الجزاء فقيل وان لم تفعل بدل وان لم تبلغ اشعارا بالمغايرة في المعنى على ضرب من التاويل

هذا وقد أخرج البخاري هنا في كتاب التفسير الاثر المروي عن عمر رضي الله عنه بلفظ قالت اليهود لعمر انكم تقرءون ءاية الخ وفي المغازي ان ناسا من اليهود وهاتان الروايتان متساويتان وفي كتاب الايمان ان رجلا من اليهود قال لعمر رضي الله عنه ءاية في كتابكم تقرءونها لو علينا نزلت

لاتخذنا ذلك اليوم عيدا أي لعظمناه وجعلناه عيدا في كل سنة قال اي ءاية قال : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا. قال عمر قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبيء صلى الله عليه وسلم وهو قائم بعرفة يوم الجمعة

وهذا الرجل كما في كثير من الروايات هو كعب الاحبار واطلق عليه الوصف المذكور اما لان سؤاله كان قبل اسلامه فأنه أسلم في خلافة عمر أو على طريق المجاز باعتبار ما مضى والجمع بين رواية كون السائل واحدا ورواية كونه جماعة هو أن السائل في الواقع جماعة وتكلم كعب بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن غيره

ولا خلاف بين المحدثين في أن الوارد في الاثر ان يوم نزولها هو يوم عرفة أي في حجة الوداع سنة عشر وجمهور المحدثين على أنه يوم الجمعة وهو الصحيح الذي عليه غالب الروايات

لا يقال ان الجواب بمعرفة الوقت والمكان لا يطابق السؤال عن جعل اليوم عيدا لانا نقول قد وقع التصريح في كثير من الروايات بان يوم نزولها يوم عيد وفي رواية وكلاهما بحمد الله لنا عيد وفي رواية بلفظ وهما لنا عيدان وفي رواية اخرى في يوم عيدين يوم الجمعة ويوم عرفة

ولا يخفى ان الجواب بذلك ارقى مما يتطلبه السائل لتضمنه انها نزلت في يوم عيدين لا بجعل العباد بل بالوضع الشرعي وذلك من زيادة التفضيل لهذه الامة

وفي كلام بعضهم ان يوم عرفة يسمى عيدا باعتبار انه يعقبه عيد الاضحى واستروح له بما في الصحيح شهرا عيد لا ينقصان رمضان وذو الحجة حيث سمي رمضان عيدا لانه يعقبه عيد الفطر وحينئذ ففي يوم نزول الآية ثلاثة اعياد كما قال الشاعر

عيد وعيد وعيد صرن مجتمعه وجه الحبيب (ونحن نقول) وجه الامير ويوم العيد والجمعة

وانما كان يوم الجمعة عيدا لاختصاصه باحكام ومزايا تنبيء عن تفضيله على سائر ايام الاسبوع اجلها الساعة التي يستجاب فيها الدعاء وفي تعيينها اقوال اصحها او من اصحها ما بين ان يجلس الامام على المنبر إلى ان تنقضي الصلاة كما في صحيح مسلم عن ابي هريرة مرفوعا وفي حديث ءاخر صححه الحاكم وغيره انها ءاخر ساعة من يوم الجمعة والظاهر انها ساعة لطيفة يختلف وقتها بالنسبة الى كل بلد وكل خطيب فان الشمس لا تتحرك في درجة الا وهي تطلع على قوم وتغيب عن ءاخرين

وفي الحديث الحث في الدعاء على تحري مظان الاجابة من الاوقات الفاضلة والاحوال الشريفة كيوم عرفه ويوم الجمعة وشهر رمضان واثر الصلوات المكتوبة ونحو ذلك قال تعلى وبالاسحار هم يستغفرون وفي الحديث ان الدعاء بين الآذان والاقامة لا يرد وعن النبي صلى الله عليه وسلم ان العبد لا يخطئه من الدعاء احدى ثلاث اما ذنب يغفر له واما خير يعجل له واما تاخير يدخر له وفي الحديث اذا سأل احدكم ربه فتعرف الاجابة فليقل الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ،

لا عزاء بعد ثلاث

بقلم مولانا شيخ الاسلام المالكي ابقاه الله

تسير على الالسن أقوال تصادف هوى من الناس فتدفعهم الشهوة الى قبولها ، ويتلقونها تلقي النفس للمحبوب غير مصغية الى عذولها ، ثم تتسع بين العامة قددا ، ولا يتطلدون لها سندا ، ولربما كانت من قبل ان تتعلق بها الاهواء ، عاكفة في حجر الانزواء ، وكذلك تراها اذا انصرفت عنها الاهواء ، تذهب كما يذهب الغثاء ، ولقد يبلغ الغلو في بعض الاحوال فيكسو هذا القبول حلية مشذورة ، اذ يجعل تلك الاقوال من السنة المأثورة ، وبهذه العلة كثرت الاحاديث المشتهرة ، التي نسبتها الى الرسول الكريم مستنكرة

وفي عداد هذه الاقوال التي راجت كلمة « لا عزاء بعد ثلاث » تناقلها الناس وظنوها من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم وفرعوا على هذه النسبة تفاريع واحكاما ، ووقتوا المآتم اوقاتا وأياما

وليس هذا القول من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم وشواهد الغلط في نسبته اليه واضحة سندا ومعنى ، اما من جهة السند فهذا كلام لم ينسبه الى رسول الله ولا الى اصحابه احد اذ لا يوجد له ذكر فيما علمنا من كتب الحديث المعدة لاخراج الحديث الضعيف والتنبيه على الاحاديث الموضوعة بله كتب الصحيح والحسن

واما من جهة المعنى فهو غير مستقيم لان العزاء لغة هو الصبر فيصير المعنى لا صبر بعد ثلاث أي ليال وهذا معنى باطل لان الصبر بعد مضي ثلاث ليال اقرب الى الحصول منه عند حلول المصيبة او في اليوم الاول وهكذا ما زادت الايام كان الصبر امكن واقرب وفي الحديث الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الصبر عند الصدمة الاولى » يعني الصبر الكامل والا فالصبر مامور به ومثاب عليه في كل وقت بقدر ما يحمل المصاب نفسه على دفع الجزع والحزن وبقدر ما له من جزع وحزن مدفوعين ، فان قيل لعل المراد بقوله لا عزاء بعد ثلاث اي لا ثواب على الصبر بعد ثلاث قلنا هذا لا يستقيم لانه يصير الكلام اغراء بالدوام على الحزن والجزع اذا فاتت ثلاث الليالي قبل ان يحصل الصبر او بعضه مع ان الحزن يعاود الحزين ولو بعد مدة طويلة ولا يملك له دفعا الا بمعاودة الصبر وقد عاود الحزن يعقوب عليه السلام بعد مدة طويلة كما حكى الله عنه بقوله وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ـ الى قوله ـ قال انما اشكو بثي وحزني الى الله ، مع انه قد صبر عند الصدمة الاولى اذ قال حين اخبره اولاده بهلاك يوسف : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ، وقال حين اخبروه باسر بنيامين فصبر جميل عسى الله ان يأتيني بهم جميعا ، فثبت ان المعنى المفاد من كلمة لا عزاء بعد ثلاث معنى باطل ،

ولا يصح ان يكون النفي في قولهم لا عزاء بعد ثلاث مرادا به النهي مثل لا وتران في ليلة أي لا تعزوا ولي الميت بعد ثلاث اي النهي عن تذكيره بواجب الصبر وترغيبه فيه بعد مرور ثلاث ليال على موت ميته كما يتوهمه الناس فيسوقون هذا الكلام في هذا الغرض لانه لو كان ذلك المراد منه لقيل « لا تعزية بعد ثلاث » لان الفعل الذي يدل على هذا المعنى هو عزى المشدد يقال عزاه اي جعله ذا عزاء اي صبر مثل سلى فيكون مصدره التعزية مثل التسلية ولم يسمع في كلام العرب اطلاق لفظ العزاء على معنى التعزية وبذلك يجزم بان لا تصح نسبة هذا الكلام الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لان فساد المعنى من علامات الوضع فلو كان هذا الكلام قد روي حديثا لعلمنا أنه موضوع فكيف وهو لم يروه أحد وأما ما سرى هذا الكلام الى الاوهام فهو سوء النقل وقلة التمييز فان اصل هذا القول هو كلام مأثور عن الوزير يحي بن خالد البرمكي انه قال « التعزية بعد ثلاث تجديد للمصيبة والتهنئة بعد ثلاث استخفاف بالمودة » وهو كلام نفيس مغزاه وجوب المبادرة بالتعزية والتهنئة لان في ايقاعهما بعد ذلك ادخال ضرر على أصحاب المصيبة أو ايذانا بقلة الابتهاج بحصول النعمة لمن حصلت له وليس المراد ترك الامرين بعد ثلاث لان ذلك أشد جفاء فجاء بعض الضعفاء في الادب فحرف لفظ التعزية الى لفظ العزاء وقلب معنى التنبيه على الجفاء فصيره نهيا ثم عبر عنه بصيغة نفي الجنس التي تستعمل في النهي يظن نفسه قد نحى به منحى ايجاز الامثال وما ءافة الاخبار الا رواتها . وقد توهم كثير من الناس في تونس بسبب هذا أن اقامة المئآتم للميت ثلاثة أيام هو أمر من السنة أخذا بمفهوم العدد في مقالة « لا عزاء بعد ثلاث » فجعلوه شاهدا شرعيا لبعض عوائدهم اقامة مأتم يوم الدفن والمأتم المسمى بالفرق الاول وهو ثالث يوم ليوم الدفن وابطلوا ما يسمى بالفرق الثاني الذي هو سادس يوم الدفن وما يسمى بالزيارة الذي هو نهاية الاسبوع الثاني ليوم الوفاة ومأتم الاربعين ومأتم غلق العام مع ان هذه العوائد مفعولها ومتروكها لاحظ لها في السنة وما هي الا من العوائد المبتدعة الجارية على احكام البدعة الخمسة وهم وان احسنوا فيما ابطلوه منها فانهم لم يصيبوا في اعتقادان ما استبقوه هو من السنة

هذا ولاكمال الفائدة في هذا الغرض نلم بالمقصد الشرعي في باب التعزية فان من مقاصد الشريعة ابطال ما كان عليه اهل الجاهلية من اظهار الحزن والجزع عند المصيبة ومن التظاهر به والمبالغة فيه والاعانة عليه ولذلك ورد الوعيد الشديد على النياحة وشق الجيوب ولطم الخدود وحثو التراب ورثاثة الحال. وحكمة هذا التشريع الجليل الذي انفرد به الاسلام أن حلول المصائب بالانسان من نواميس هذا العالم وهي من مكاره الدنيا فمن شأنها ان تغم النفس وتفسد المزاج فينشأ عن أعراضها ادواء كثيرة مضرتها على صحة البدن محققة ولذلك كان الجزاء عليها بالثواب الجزيل لان ما يصيب المؤمن من الرزايا يناله عليه الثواب حتى الشوكة يشاكها كما ورد في الصحيح فاذا راض المؤمن نفسه على الصبر

وتلقي المصيبة بالجلد خف معمولها في صحته ومزاجه واذا بالغ في الحزن وعاوده قوي معمول المصيبة فاشتدت الاعراض المنهكة للبدن والمسلم مأمور بحفظ بدنه. على ان الجزع لايخفف الرزية فكانت مضرة الحزن خالصة غير مشوبة بمصلحة فلذلك لم يكن في تربيته عذر وكانت مفسدته الخالصة قاضية بحكم التحريم ولم يرخص الا في العذر الجبلي منه كدمع العين وصعداء النفس وحرم غير الجبلي منه تحريما شديدا كالنياحة والقول وهو دعوى الجاهلية . وفي الحديث الصحيح ليس منا من شق الجيوب ولطم الخدود ودعا بدعوى الجاهلية ولذلك كان اثم من يجدد الحزن لاهل الميت شديدا مثل اللاء يسعفن نساء الميت بالنياحة وبذكر محاسنه وتعظيم رزيته وبعكس ذلك من خفف عن أهل الميت مصيبتهم. ففي سنن الترمذي وابن ماجه عن ابن مسعود مرفوعا من عزى مصابا فله مثل أجره (وهذا الحديث غريب تفرد به علي بن عاصم عن محمد بن سوقة قال الترمذي وقد نقم على علي بن عاصم وتكلم فيه لاجل هذا الحديث) وفي سنن ابن ماجه والترمذي عن محمد بن عمرو بن حزم مرفوعا « ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبة الا كساه الله من حلل الكرامة يوم القيامة » وفي هذا التشريع حكمة أخرى عائدة الى الخلق وهي الارتياض على تلقي المكاره برباطة جاش وجلادة حتى لا تذهب حلول المصائب بلب المسلم ولا تملك سائر قلبه فلا يهتدي للخلاص منها سبيلا فذلك من سمو الاخلاق ولما كان الغالب في الجاهلية ظهور الحزن في النساء خص النساء بالنهي عن ذلك في أحاديث كثيرة لا رخصة في شيء منها لشيء من مظاهر الحزن المتعلقة بالذات من فعل وقول سوى البكاء بلا صوت وفيها رخصة قليلة لما يتعلق باللباس في حديث النهي عن أضعف هذه الاحوال وهو لبس السواد وترك الزينة وهو ما روي في الموطا وغيره لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر ان تحد على ميت فوق ثلاث ليال الا على زوج اربعة اشهر وعشرا أي اذا كانت عدتها بالاشهر وأما الحامل فتحد مدة الحمل لان عدتها وضع حملها وذلك سد لذريعة التزويج في العدة حفظا لحق الميت في اثبات نسبه ورخص النبيء صلى الله عليه وسلم في البكاء بلا صوت مدة ثلاثة ايام ففي كتاب ابي داود عن عبد الله بن جعفر ان رسول الله امهل ءال جعفر بن ابي طالب ثلاثا ان ياتيهم ثم أتاهم فقال « لا تبكوا على أخي بعد اليوم » . وروي ان الخنساء جاءت المدينة حاجة فدخلت على عائشة رضي الله عنها وعلى الخنساء صدار من شعر أسود وهي حليقة الرأس فقالت لها عائشة اخناس قالت لبيك يا اماه قالت اتلبسين الصدار وقد نهي عنه في الاسلام فقالت لم اعلم بنهيه . وبهذا يعلم ان جميع ما يفعله بعض الناس من تجديد ذكر الاحزان على الاموات والتجمع للبكاء في الاعياد ونحوها من المحرمات شرعا وكذلك الحزن الذي يزعمه العامة في يوم عاشوراء وما يليه حدادا على الحسين بن علي رضي الله عنهما

قاله محمد الطاهر ابن عاشور

التعاضد المتين
بين العقل والعلم والدين

بقلم العلامة المصلح الهمام الشيخ محمد الحجوي
وزير معارف الحكومة المغربية الشريف

٨
لبنة التمام

تقدم في السؤال صدر هذا الكتاب ان في الشريعة الاسلامية اصولا وفروعا يظهر منها انها مبنية على ان الدين فوق العقل واخرى يظهر منها العكس . فقد يقول قائل انك لم تستوف الجواب ما دمت لم تبين ذلك فاقول

لم اقف في الشريعة الاسلامية على اصل ولا فرع بني على الاصل الاول ولا الثاني

نعم المسيحيون يزعمون ان الدين فوق العقل وذلك انهم قالوا بالتثليث والحلول والاتحاد واثبات البنوة والابوة للالاه تعالى وتقدس . ومنعوا الناس ان يفكروا ان الارض كرية الشكل او تدور حول الشمس . وغير ذلك من عقائد واحكام لاتتوافق والعقل ولا العلم زعما منهم ان الكتاب المقدس نص عليها فمن لم يقل بها كفروه وحرقوه . ولما رأوا قيام البراهين القاطعة على وحدانيته تعالى وانه كان ولا يزال قائما بنفسه قيوما بخلقه مستغنيا عن كل ما سواه قبل المسيح وامه وبعدهما ووقتهما وان كرية الارض امر محسوس الى غير ذلك من ادلة قامت ضدهم عقلا وحسا التجأوا الى القول بان الدين فوق العقل ظنا منهم ان مشكلات الدين المسيحي تنحل بدوس براهين العقل وتزييفها او بالاقل عدم الاعتراف بها . وهيهات ان جيش العقل مضمون له النصر فلا يهزم ولا يزيف والعالم منذ كان لاطاقة له على مقاومته ولا الثورة عليه بل هو خاضع له اتم الخضوع . ولاسيما بعد نضوج العقل وتوطيد اركان الفلسفة في انحاء المعمورة . فأفكار العالم مهما تكثفت بالاوهام وصدئت بالخرافات : فانها بادنى تنبيه تسارع الى التشبث بالعقل وتنجذب اليه بقوة مغناطيسية وتطأطىء الراس لقوته القاهرة للوجود وللوجدان . اما المسلمون فانهم في حل من هذه الانقال المسيحية كلها

لان الدين هو الذي حررو فكرهم من حملها والدين متعاضد مع العقل والعلم اتم تعاضد لذلك لا يقولون بفوقية الدين على العقل ولا فوقية العقل على الدين لان دينهم لم يكلفهم ان يعتقدوا ما لا يسلمه العقل الصحيح ولم يرض لهم التقليد ولنذكر بعض ما توهمه السائل من تلك الاصول والفروع فاقول :

ما يوهم ان الشرع مبني على ان الدين فوق العقل

اولا ـ لم اقف على ما يوهم ذلك من الاصول الا قول العلماء ان العقل لا يصل الى كنه الذات العلية وصفاتها السنية

والحقيقة ان الذات العلية وصفاتها السنية فوق (١) مستوى العقول . فليس للعقل سبيل الى كشف حقيقتها ، وحسبه الاعتراف بالعجز لكونه في عالم الكثافة ، وهو نفسه خلق ضعيف معترف بعجزه عن الوصول الى ما هو فوق مستواه . والعقل لم يصل الى كل شيء بل لايزال عاجزا عن اشياء من عالمه نفسه ، بل ما جهله منه اعظم مما وصل اليه بمراحل شاسعة ، فقد عجز عن حقيقة الروح وحقيقة نفسه ، ومن عجز عن حقيقة نفسه فكيف يصل الى حقيقة خالقه ، بل هناك اشياء من عالمه هو يراها ويحسها او يشعر بها ولا يدري حقيقتها كالكهرباء فكيف يتطلع الى ما لا مطمع له فيه وليس من عالمه ، وفي الحقيقة لا يتوصل لمعرفة حقيقة الله الا بالعجز عنها كما قال ابو بكر الصديق العجز عن الادراك ادراك

وليس في قواعد العقل ما يحيل عجز العقل عن معرفة حقيقة الله وصفاته لكونه محجوبا عن ذلك كما انه محجوب عن كنه حقيقة السماء وما في النجوم وامور علوية بل امور سفلية في العالم الذي هو في مستواه ومن جنسه

ولكن العقل ايضا لا يحيل الوصول الى ذلك وبالجملة ليس هناك شيء اثبته العقل ونفاه الدين او نفاه الدين واثبته العقل فتعارضا فقدمنا الدين على العقل كما هو موضوع المقام بل هناك شيء لم يصل العقل اليه ووقف عنده حائرا وعذره الدين في حيرته ولم يكلفه الوصول اليه

ثانيا ـ ومن الفروع قول علي كرم الله وجهه لو كان الدين بالعقل لكان اسفل الخف اولى بالمسح من اعلاه وقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يمسح على ظاهر خفيه

وجوابه ان ليس هناك دليل عقلي او علمي يوجب علينا مسح اسفل الخف فجاء الدين بمسح اعلاه وانما سيدنا علي يرشدنا الى ان الفروع الفقهية لا يتمسك فيها بالقياس مع وجود النص فالقياس حينئذ فاسد الوضع ؛ ذلك ان القياس على الوضوء اقتضى مسح اسفل الخف واعلاه والنص جاء باباحة الاقتصار على اعلاه فقدمنا مقتضى النص على مقتضى القياس وكل منهما دليل شرعي غير ان القياس مركب من نقل وعقل .

ثالثا ـ قول ابي حنيفة لو قلت بالراي لاوجبت الغسل من خروج البول المتفق على نجاسته

---

(١) الفوقية معنوية لا نعلم كنهها

دون المني المختلف فيه ولقلت فيه بالوضوء فقط ولاعطيت الذكر نصف ما يجب للانثى في الارث لانها اضعف منه (٢)

وجوابه انه من نوع ما قبله ايضا وذلك انه قياس على منصوص عارضه نص فعمل بالنص والغي القياس .

ونجيب ابا حنيفة بان المني روعي فيه اللذة التي تعم البدن فوجب تعميم غسل البدن بخلاف البول الذي يتكرر في اليوم مرات .

وان الانثى اعطيت النصف ارثا لمناسبة وظيفتها في المجتمع وهي الامومة اذ ليست مكلفة بالحرب ولا ان تقوم بنفقة الزوج ولا اولادها بل بالعكس كلف غيرها بنفقتها وذلك اقوى من اعتبار ضعفها .

رابعا ـ اعترض بعض المتفرنجين على حديث اذا وقع الذباب في شراب احدكم فليغمسه ثم لينتزعه فان في احدى جناحيه داء وفي الاخرى شفاء فرد الحديث مع كونه في الصحيح بان الذباب يسقط على النجاسة فينقل ما فيها من جراثيم الامراض فكيف يغمس فى الماء ثم يشرب مع ان الواجب طبا التحرز منه كليا .

وجوابه ان هذه فكرة طبية لم تنضج وان وجوب التحرز كليا لم يصل لحد ان يكون يقينيا بل الامتحان العلمي دل على ان في الذباب مادة سامة ـ يسميها الاطباء مبعد البكتريا ـ تقتل كثيرا من جراثيم الامراض فلا يبقى لها تاثير في جسم الانسان فاذا سقط الذباب في شراب او طعام والقى الجراثيم من اطرافه فاقرب مبيد لتلك الجراثيم هو مبعد البكتريا الذي يحمله في جوفه قريبا من احد جناحيه ؛ فاذا كان هناك داء فدواؤه قريب منه بغمسه كله ثم طرحه فذلك كاف لدفع ضرره هكذا قرر بعض الاطباء المصريين في محاضرة القاها بجمعية الهداية بمصر ونقلتها مجلة الاسلام في عدد ١٨ جمادى الاولى عام ١٣٥٥

واقول ايضا ان الحديث لم يوجب غمس الذباب مع الشرب . بل لو طرح الشراب كليا لما كان هناك وزر ؛ وانما هو سرف في ماء قد لا تكون له قيمة ؛ وانما الشارع يراعي حال قلة الماء في السفر والصحراء فارشدنا الى المران على الاقتصاد ودفع ما عسى ان يضطر اليه ؛ فالامر للارشاد ؛ بدليل علة الحكم المدلول عليها بفاء السببية فالعلة ليست تعبدية تقتضي الوجوب . وانما هي ارشاد لمن شاء الاقتصاد ودفع الداء بالدواء .

خامسا ـ ينبغي ان ننبه هنا الى ان ابن خلدون امام التاريخ والفلسفة قال في المقدمة في مواضع : اذا وجد من الوحي ما يتصادم مع العقل يلزم اتهام العقل والايمان بالوحي هـ .

---

(٢) نقله ابن سلطان في المرقاة على المشكاة هـ مؤلف .

فاقول هذا من الامام تجويز عقلي واحتمال فكري ؛ ولم يات بمثال يتحقق فيه ذلك ؛ ولو فرض وجوده فاما ان نجد الوحي احاديا غير متواتر او متواترا ولكن دلالته غير قطعية . فهذا اذا صادم امرا عقليا يقينيا دل الامتحان العقلي على يقينيته هو الذي حكم فيه السلف بالوقف او التفويض وحكم فيه بالتاويل المعتزلة واكثر الاشاعرة ؛ ولذلك اولوا ءايات التشبيه واحاديث الصفات .

والسلف مع تفويضهم او وقفهم لا يردون ما دل عليه صريح العقل القطعي فهم مفوضون لا مقوضون . والدليل العقلي القطعي واجب التسليم عند الجميع غير متهم ؛ ولا اظن ابن خلدون يخالف هذا ؛ وانما محمل كلامه عندي على الدليل العقلي الذي لم يصل لحد القطع ولم يقم اختبار حسي على يقينيته وهذا في مصاف الظنون بل هو ملغى لا اعتبار به امام النصوص الشرعية القطعية بل والظنية فلا يوهنها وهو متهم ساقط امامها .

اما تصادم قاطعين احدهما عقلي والآخر شرعي فهذا ما لا تجده اصلا كما سبق ولا يصح حمل كلام ابن خلدون عليه وان كان ظاهره لانه مستحيل الوجود .

ما يوهم ان الشرع مبني على ان العقل فوق الدين

ان المعتزلة القائلين بالتحسين والتقبيح العقليين وكثيرا من الاشعرية مصرح بتقديم العقل على النقل اذا كانا قطعيين معا . وممن صرح بذلك (١) ابو البقاء في ءاخر كلياته قائلا يعتبر النقل من قبيل المتشابه وينسب مثل هذا لامام الحرمين (٢) في الارشاد والغزالي وتلميذه ابن العربي المعافري والامام الرازي واتباعهم . واحتجوا لذلك بان الادلة العقلية قطعية وان النصوص النقلية لا تفيد (٣) اليقين وتقدم لنا البحث في هذه المسالة والرد عليهم بما يكفي .

---

(١) فهو عكس ابن خلدون

(٢) قد شنع على هؤلاء الامام احمد ابن تيمية في كتابه موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول المطبوع بمصر بهامش كتابه منهاج السنة . ولقد سلف مني صدر هذا التحرير اني لم اقف على من صنف في مسالة تعاضد العقل والعلم والدين ولقد اقمت ابحث عمن صنف في ذلك نحو السنتين بعد ما نشرت جريدة السعادة المغربية اصل كتابي هذا ثم وقفت على نص كتاب ابن تيمية المذكور الاول في المكتبة الناصرية بسلا في ربيع النبوي عام ١٣٥٦ ولقد وجدته مجموعا واسعا في مجلدات . ولكنه نحا غير المنحى الذي انتحيته اذ تتبع ادلة علماء الكلام في العقائد ينقضها بناء منه على انها تناقض الكتاب او السنة مع انه لم يظهر وجه التناقض الحقيقي بمعناه الفني وقد توافقنا والحمد لله في المبدإ الذي هو موافقة المعقول للمنقول غير انه سلك طريق ابن خلدون في تقديم المنقول بل زاد هو ولوظنيا فكانه نقض مبرمه وتبغي مراجعة كتابه ومقابلته مع هذه الرسالة فرب ساقية انفع من بحر ومقرض كتابه يقرئك السلام

(٣) هذه الحجة يتبين منها ان النقل عندهم عن قبيل المظنون والقطعي يقدم على الظني باتفاق فيمكن ان نقول انهم لا يقدمون العقلي على النقلي فالخلاف بيننا وبينهم في حال لانهم يرون آن حال النقلي هو الظن فقط ونحن نرى انه قد يكون قطعيا فتامل ذلك

كما اختلستهم طريقة المعتزلة في التحسين والتقبيح العقليين . وهي مسألة طويلة اشبع الاصوليون القول فيها بحثا وقتلوها نقدا واوسعوهم تشنيعا بانهم تحكموا على الله في دينه واحكامه ولكن كثير من الاشعرية وقعوا فيها وهم لا يشعرون .

كما وقع المعتزلة في معضلة اعظم وهي انهم مهما توهموا معارضة ما بين نص شرعي ولو قطعيا وبين شبهة عقلية وقع في وهمهم انها قطعية نص على قطعيتها حكيم يوناني او هندي مثلا من غير اختبار ولا امتحان علمي مدقق الا وقلدوه فقالوا بقطعيتها ونبذوا النص بالتاويل ولو بعيدا ان كان متواترا او بتجاهله وانكاره ان كان احادا ولو في اصح الصحيح ووهنوا النصوص حيث زعموا انها لا تفيد يقينا بحال كما سبق وما كان ينبغي ذلك .

لذلك قالوا ان الله لا يرى حتى في الآخرة معتمدين على قول بعض الفلاسفة ان القديم لا يراه الا القديم ، ولا يسمع كلام القديم الا القديم ، وان الرؤية شرطها اللون والجسمية والقرب الحسي وغير ذلك مما هو محال في حقه تعلى وهو معتاد في المرئيات الحادثة . لكننا نقول لهم الى الآن لم تقيموا دليلا قطعيا على ان القديم لا يراه الا القديم ولا يسمعه الا القديم . بربكم بينوا لنا من الذي سمع الشرائع والاوامر والنواهي . وماذا تعملون في قوله تعلى «انما امرنا لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون » فمقالكم هذا هادم للنبوات والاخبار عن الله وشرائعه اذا لم تكن مسموعة متلقاة منه تعلى اذ تصيرونها محل ارتياب ، كما ان ما شرطتموه في الرؤية لم تاتوا عليه ببرهان ، وليس في العقل ما يمنع رؤية الباري او من لم تتوفر فيه شروطكم ، وجريان العادة بها في الحادث لا يوجب القطع باشتراطها في القديم ولا في الحادث اذ كثيرا ما نرى تخلف العادة ،

وقياس القديم على الحادث فاسد وما انصفك من احالك على غائب .

وقالوا ايضا بنفي صفات المعاني كالقدرة والارادة والعلم والكلام والسمع والبصر اعتمادا منهم على ان القديم لا يتعدد وهي قاعدة اخذوها عن اهل الفلسفة وزادوها تعميما فقالوا ولو موصوفا وصفة . وما كان ينبغي لهم زيادة نغمة في طنبور الفلاسفة .

اذ دليل نفي تعدد موصوف وصفة لا يصح ان يسمى دليلا فضلا عن ان يكون قطعيا

والقرءان العظيم اثبت لله بعض صفات المعاني صريحا فقال : انزله بعلمه . وقال : اني اصطفيتك على الناس برسالتي وبكلامي . واثبت بعضها كناية وهي ابلغ نحو قوله تعلى « يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر » وقوله « الم تر انه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا »

التاريخ

صفحة من تاريخ تونس

الوزراء التونسيون

قبل الحمايـة وبعدهـا

(٢)

بقلم العالم المؤرخ امير الامراء سيدي
محمد بن الخوجه مستشار الحكومة

تكلمنا في العدد السابق على نظام الوزراء قبل الحماية واما الوزراء يوم انتصاب الحماية في ١٢ ماي ١٨٨١ (١٣ جمادى الآخرة ١٢٩٨) فهم :

أمير الامراء مصطفى بن اسماعيل	الوزير الاكبر ووزير الخارجية ورئيس الكمسيون المالي
أمير الامراء محمد خزندار	وزير الشورى
أمير الامراء الشيخ عبد العزيز بوعتور	وزير القلم وباش كاتب ووزير الاستشارة
أمير الامراء سليم	وزير الحرب
أمير الامراء أحمد زروق	وزير البحر
أمير الامراء حسين	وزير الاستشارة ومستشار المعارف والنافعة
الشيخ محمود بوخريص	كاهية الباش كاتب (١)

ثم ظهرت في تلك الاثناء أحوال أوجبت اعفاء الوزير حسين من خطة وزير الاستشارة ومن مستشار قسم العلوم والمعاوف ومن المأمورية المنوطة بعهدته بايطاليا وهي محاسبة ورثة القايد نسيم شمامة عن تصرف مورثهم في مالية الدولة التونسية (٢) بصفة قابض عام وكان ذلك في ٢١ رمضان ١٢٩٨ وزيد في النكاية به بعد ذلك فجردوه عن رتبة أمير الامراء في ٢٩ صفر ١٢٩٩ ولكن التونسيين من الخاصة والكافة ما زالوا ينعتونه بالوزير في محرراتهم ومحادثاتهم وبعضهم يجهل وقوع فصله عن خططه وامتيازاته بالدولة. وكان حسين هذا من المماليك القلائل الذين كانت لهم بضاعة في العلم (٣)

(١) هذه الخطة احدثت لاجله ولم تمنح لغيره قبله وبعده قالوا انه وقع احداثها لاغلاق باب المطامع في وجه من كان يتوقع منه المزاحمة للباش كاتب وتوفي الشيخ محمود بوخريص في سنة ١٣٠١

(٢) يستفاد من عبارة مفكرات الوزير خير الدين التي قامت بنشرها في هذه الاثناء مجلة مشيخة قرطجنة ان المال المتخلد بذمة القائد نسيم للدولة التونسية يبلغ العشرين مليونا

(٣) لدينا بعض وثائق تاريخية من انشائه وبخط يده تشهد برسوخ قدمه في الكتابة والخط

اكتسبها من مزاولته لعلوم العربية بمدرسة الهندسة احربية بباردو ثم بملازمة استاذه وصاحبه الشيخ محمود قابادو وبمجالسة العلماء من اصدقائه كالمرحوم الشيخ احمد بن الخوجة والمرحوم الشيخ سالم بوحاجب . وقد تضمن أحد كناشات اول هذين الشيخين قصيدة من انشائه في امتداح الوزير حسين عند رجوعه والوزير خير الدين من الاستانة مع الخلعة السلطانية المهداة لسمو الباي اثر ولايته الملك في سنة ١٢٧٦ ومما جاء فيها قوله :

علم تجمل بالديانة والتقى ۞ وسداد رأي باهر برهانا
يسقي السلافة في كؤوس بيانه ۞ سحبان منها لم يزل نشوانا
ما تونس الخضراء الا روضة ۞ قد كان منها الروح والريحانا

وفي مستهل الدولة العلوية وقع ترتيب الخطط الوزيرية على اسلوب جديد موافق لقاعدة الاحتساب والرقابة من السلطة العليا الفرنساوية في تصرفات الوزراء التونسيين بالدولة فالغيت خطة وزير الشورى كما الغيت وزارة الحرب ووزارة البحر القديمتين وأبقيت خطة الوزير الاكبر وخطة الباش كاتب وزير القلم والاستشارة وأسندت الوزارة الخارجية للوزير المقيم وفقا لنص معاهدة باردو وتقلد الجنرال قائد الجيوش الفرنساوية بالعمالة خطة وزير للحربية بالدولة التونسية وفي مدة الوزير المقيم م . فلاندان اعطي لقب وزير البحر بالدولة التونسية للاميرال الوالي البحري ببنزرت . ثم في سنة ١٣٣٨ وقع احداث خطة وزير العدلية التونسية بمساعي الوزير المقيم م . لوسيان سان دبر ذلك سياسة منه على وجه الترضية للفكر العام التونسي الذي كان متطلبا للتفريق بين السلط فكان الوزراء التونسيين من يومئذ ثلاثة : الوزير الاكبر — وزير العدلية — الباش كاتب وزير القلم والاستشارة —

وبالتالي وجد للمرة الاولى في التاريخ التونسي لقب الوزير بالعنوان الشرفي فكان أمير الامراء السيد الطيب الجلولي وزيرا أكبر شرفيا عند استعفائه من الوزارة الكبرى في سنة ١٣٤٠ . وتكرر هذا اللقب بامناحه لغيره من الوزراء المحالين على التقاعد في هذه السنين القريبة وبديهي أن للوزير الاكبر حق الرئاسة على زميليه التونسيين مع الامتياز بحمل نيشان البيت الحسيني وليس لغيره من ابناء البلاد ان يطمع في مد عنقه لتلك النيشان الرفيع الشان وشذ امناح غيره من الوزراء التونسيين نيشان العهد المرصع وهذه القاعدة لم تتخلف في عصر الحماية الا مرتين مرة في مدة المولى علي باي ومرة في سنة ١٣٤٥ على عهد المولى محمد الحبيب باي فقد تفضل به على صاحبنا المرحوم امير الامراء السيد الطاهر خير الدين في السنة المذكورة وبعد ان صار هذا الوزير الفقيد وزيرا شرفيا احسنت له الدولة الفرنساوية بالصنف الاول من (اللجيون دونور) وكان من القدر المقدور أن وصول هذا الوسام العالي لتونس وافق يوم التحاق صاحبه بالدار الآخرة

هذا وللوزراء التونسيين على السواء حق العضوية بمجلس الوزراء وهذا المجلس ليس له قانون

صدر بتأسيسه وانما وجوده مستفاد من أمر ترتيب الميزانية التونسية الاولى في عهد الحماية جمعه الوزير المقيم م. كمبون برءاسته لاول مرة في سنة ١٣٠٠ ولم يكن للدولة التونسية مجلس وزراء في عهد الدور القديم وغاية ما هنالك أن سمو الباي كان يجمع مجلسا من أهل شورته في الامور الهامة وربما أضاف لهم بعض أهل العلم فقد أتيح للشيخ أحمد بن الخوجه وللشيخ مصطفى رضوان الحضور في مناسبات كثيرة بمجالس مشورة المشير محمد الصادق باي وكانَ المشير محمد باي لا يبت امرا عظيما في الشئون الخاصة بأهل العلم وما التحق بها الا بعد مراجعة صهره الشيخ محمد بيرم الرابع وهو الذي أشار عليه بجعل نظام للمحاكم الشرعية ومنشور ترتيبها المعلق بديوان دار الشريعة من انشائه وبديهي ان اهل مشورة سمو الباي هم الوزراء ولكن الوزير الاكبر هو لسان صاحب العرش الحسيني وهو الواسطة بين سموه وبين الدولة وهو الذي بعهدته عرض الاوراق الرسمية على الطابع السعيد وقراءتها من حقوق الباش كاتب واليك اسماء الذوات الذين باشروا الوزارة الكبرى ووزارة العدلية ووزارة القلم في عصر الحماية من البداية الى هذا اليوم :

الوزارة الكبرى	سنة الولاية	وزارة العدلية	سنة الولاية	وزارة القلم	سنة الولاية
السادة		السادة		السادة	
محمد خزندار	١٢٩٨	الطاهر خير الدين	١٣٣٨	محمد العزيز بوعتور	١٢٨١
محمد العزيز بوعتور	١٣٠٠	علي السقاط	١٣٥٣	محمد الجلولي (١)	١٣٠٠
محمد الجلولي	١٣٢٥	سالم الصنادلي	١٣٥٤	يوسف جعيط	١٣٢٥
يوسف جعيط	١٣٢٦	عبد الجليل الزاوش	١٣٥٥	الطيب الجلولي	١٣٢٦
الطيب الجلولي	١٣٣٣			مصطفى دنقزلي(٢)	١٣٣٣
مصطفى دنقزلي	١٣٤٠			خليل بوحاجب	١٣٤٠
خليل بوحاجب	١٣٤٥			الهادي الاخوة	١٣٤٥
الهادي الاخوة	١٣٥٠			يونس حجوج	١٣٥٠
				علي السقاط	١٣٥٤
				عبدالجليل الزاوش ٣	١٣٥٤
				احمد بن الرايس	١٣٥٥

(١) هو اول من تولى خطة الباش كاتب من غير اهل الطبقة العلمية وقع اختياره من طبقة كبار العمال لانه ابلى البلاء الحسن بالاعانة على تمهيد الراحة بجهة صفاقس اثناء احتلال عساكر فرنسا لتونس ومن مزاياه السعي والحصول على تخفيض الغرامة الحربية المضروبة على صفاقس من عشرة الى ستة ملايين وعلى قياسه استمر في هذا الزمان انتخاب وزير القلم من طبقة كبار أصحاب الوظائف المخزنية

(٢) محرز على شهادة العالمية في اللغة الفرنسوية

(٣) محرز على شهادة الليصانصية في الحقوق

واعلم ان الاعيان الذين تقدموا لخطة الوزارة ابتداء من سنة ١٣٢٦ كلهم من خريجي المدارس العصرية وأغلبهم من قدماء تلامذة المدرسة الصادقية. ولقد صرح الوزير المقيم م. الابتيت عند حضور السيد مصطفى دنقزلي لاول مرة بمجلس الوزراء أن معرفة اللغة الفرنساوية ستكون في المستقبل هي القاعدة عند تسمية الوزراء التونسيين وهذا القيد هو الذي منع بعض كبار المتوظفين ممن لا يحسنون الفرنساوية من التقدم لخطة الوزارة وكل ميسر لما خلق له

ثم اعلم ان الوزير محمد خزندار الذي هو أول من تولى الوزارة الكبرى بعد نصب الحماية لم يتقلب أحد أكثر منه في الوزارات بالدولة الحسينية منذ بدايتها الى هذا اليوم فقد باشر كل الوزارات عدا وزارة القلم فكان في أوقات مختلفة وزيرا أكبر ووزيرا للعمالة ووزيرا للخارجية ووزيرا للحربية ووزيرا للبحرية ووزيرا للشورى وسفيرا في مأموريات جليلة لدى الباب العالي وبعض الدول الاروباوية وباشر مع ذلك رئاسة كمسيون المالية واشتهر بين أهل عصره بلقب قائد سوسة لما أبقى ببلاد الساحل من الذكر الجميل أثناء ولايته عليها بعد الايام المظلمة التي عرفها أهل الساحل اثناء نزول محلة احمد زروق بديارهم وأما لقب الخزندار المضاف لاسمه فانه انجر له من متبوعه الوزير شاكير صاحب الطابع المباشر اذاك لخطة خزندار فغلب عليه لقب سيده شاكير ولقد داخله الحسد ضد تابعه وهو من صنائعه فحاول الفتك به لولا تأخير أجله وذلك هو سبب سقوط احدى رجليه وكان محبا في ءال البيت الاطهار وتشرف بمصاهرتهم وخدم من الملوك المولى حسين باي الثاني والمولى مصطفى باي والمشير أحمد باي والمشير محمد باي والمشير محمد الصادق باي والمولى علي باي ومات في سنة ١٣٠٦ من دون عقب بعد أن أطل على التسعين ودفن بمقابر الاشراف بوصاية منه ولولا ذلك لكان مثواه بالتربة الملكية كأسلافه السابقين واللاحقين ولما تخلى عن الوزارة الكبرى في سنة ١٢٩٥ بعد ولايته الاولى (١) منحه سمو الباي جراية عمرية قدرها ستون الف ريال في العام

(١) ننقل هنا نص الظهير الصادر بولايته الوزارة الكبرى وهذا النص بعينه هو المعمول به نحو كل من يتولى الصدارة بتونس :

من عبد الله سبحانه المتوكل عليه المفوض جميع الامور اليه المشير محمد الصادق باشا باي صاحب المملكة التونسية سدد الله أعماله وبلغه من غاية الخير ءاماله أما بعد فاننا أصدرنا هذا الظهير والخطاب الذي هو بكل مكرمة أثير الى الخاصة والجمهور ليعلموا ان الصدر الهمام عضد دولتنا ويمين مملكتنا امير الامراء ابننا محمد لما تحققناه بالعيان من أمانته واصابته الغنيتين عن البرهان ونصيحته المعتد بها في هذا الشان قدمناه على بركة الله تعالى واوليناه وزيرا اكبر بدولتنا التونسية يباشر سائر شئونها المعتادة وامورها على العادة وعلى من يقف على هذا الظهير الجليل من اهل مجلسنا العلي بالشريعة المحمدية وابنائنا امراء الامراء اعيان الكبراء وامراء الالوية وامراء الالايات وقائمي المقامات وامناء الالايات والبينباشية وكافة الجنود العسكرية والقواد والمخازنية ان يعلموا ما لابننا المذكور من المفاخر التي هو بها حقيق والمعالي التي هو بنيلها خليق ونستوهب له من الله كمال الاعانة والتوفيق الى مناهج الرشاد ومحاسن كل طريق وكتب بسراية حلق الوادي في ١١ رجب ١٢٩٤ اهـ

ولم يعط سلفه الوزير خير الدين أكثر من خمسين الف ريال في السنة كانت جارية له الى حضور أجله بالاستانة في سنة ١٣٠٧ (١)

واما طريقة تعيين من يدعوه حسن الحظ لخطة الوزارة فان ذلك يقع باتفاق بين سمو الباي المعظم وبين دولة الحماية واختيارهما في ذلك يكون رهين الظروف والاحوال ولقد اتفق مرة تكرر المراجعة اياما عند اختيار بعض الوزراء في عهد المولى محمد الناصر باي فتدخل مسيو روا كاتب الدولة العام وحصل الوفاق واتفق لبعضهم مد اعناقهم للوزارة واطلوا عليها من نافذة السياسة فخابت ءامالهم وذهبت مساعيهم ادراج الرياح وءاخرون سعوا لنوالها وتهافتوا وطاروا حول فانوسها كالفراش فاحترقت اجنحتهم ووقعوا في الحضيض ولله در الشاعر حيث قال

على قدر الكساء امد رجلي وان طال الكساء امد اخرى

وبديهي أن خطة الوزير التونسي في عصر الحماية لا شبه لها بخطة سالفه في زمن الدور القديم فوزراء الدور الماضي كانوا خاضعين للحكم المطلق وكان اكثرهم مفقود التربية العلمية ووزراء هذا العصر أكثرهم من أهل الثقافة العصرية ونشأوا تحت جناح الحكم القانوني في دائرة العدالة والنظام والذي رسم لهم خط السير هو الوزير الشيخ محمد العزيز بوعتور صاحب المواهب النادرة والرأي الحصيف فقد بقي متربعا على منصة الوزارة الكبرى مدة ربع قرن وكان مع ذلك محرزا على صفتين حميدتين قل ان يجتمعا في رأس واحد وهما ذكاء اياس وصبر أيوب قال م. ماز من أعضاء مجلس الشيوخ في خطاب تاريخي القاه بتونس سنة ١٨٩٠ : « ان هذا الوزير جدير بالترأس على اية وزارة اروباوية » ناهيك انه قضى خمسة وعشرين عاما في الصدارة كان اثناءها من انصار أهل العلم ومثال الفضل والمروءة والحذق والاستقامة وكان ءاخر عهده بالدنيا شهادة اخلاص منه لصاحب العرش الحسيني خطها بيده الفانية قبل وفاته بساعتين في غرة المحرم ١٣٢٥ وبعث بها للمولى محمد الناصر باي وكان مع ذلك صادق الولاء للحماية لعلمه أن من معانيها طاعة متبوعه المعظم مع الاخلاص والرسوخ فيه لسدته العلية وللدولة الفرنساوية ومن عرف قدر الناس عرف الناس قدره

محمد بن الخوجة

(١) عند ارتقائه لمسند الصدارة العظمى بالدولة العثمانية وجه تلغرافا لسمو الباي في الاعلام بذلك وفي طلب ابقاء جرايته العمرية ونص التلغراف : قد شملتني عواطف الحضرة السلطانية باحالة رتبة الصدارة الى هذا العبد العاجز وبتوفيقه تعالى وقعت المباشرة لاجراء امورها التي نحن موكلون عليها ونرجو من الله تعالى الاعانة في الامور كلها كما نطلب من مكارم اخلاقكم ابقاء توجيهاتكم السنية حيث اني نعدها من أهم الامور وعلى كل حال النظر لسيدي وكتب في ١٠ حجة ١٢٩٥ اهـ. قلت ان من اهم الاسباب في ولايته الصدارة العظمى كتابه أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك لان السلطان عبد الحميد خان لما وقف عليه أعجب به أيما اعجاب

جامع الزيتونة
يؤدي رسالة الدين الاسلامي منذ ١٢٤٣ عاما

طرائف من حديث شائق لامير اللواء حسن حسني عبد الوهاب ممثل الشمال الافريقي في مجمع اللغة العربية الملكي قد كان افضى بها لمحرر جريدة الجهاد الغراء

لا خلاف اننا في مصر - وبخاصة منا اولئك الذين يصلون انفسهم بالدراسات الازهرية عن طريق التعليم في الازهر ، او التحصيل فيه او الكتابة عنه - حقيقيون ان نتأثر خطوات - الزيتونيين - الذين يقومون في الجانب الغربي من الشمال الافريقي على ما يقوم عليه الازهريون هنا من تعريف ثقافة الاسلام ، ومن قيادة الشعب قيادة دينية موفقة .

وما أحسب القراء اذ يستوعبون هذا الفصل بمنصرفين عنه وفي اطوائهم قليل او كثير من الاسف ، لانهم سينصرفون الى جمهرة من الطرائف التي تستطيع وحدها ان تهيء لهم ساعة ممتعة سارة يدركون فيها حقائق ما اعتقد انهم - كلهم - قد الموا بها من قبل ، لانها - فيما يخيل لي - اول ما يذاع من نوعه في صحيفة في مصر

سفير تونس

والواقع انه يطيب لي ان اعترف الآن بمصدر هذه الحقائق ، او هذه الطرائف ، فاقول انها بعض ما كان من احاديث تلقفتها من صاحب السعادة الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب باشا امير اللواء وحاكم الاقليم الجنوبي في تونس ، وممثل الشمالي الافريقي في مجمع اللغة العربية الملكي في القاهرة

والحق ان عبد الوهاب باشا يؤدي مهمة السفير التونسي مرحلة اقامته على ضفاف النيل ، لانه يدعو لوطنه دعاية تضفي على المصريين اثواب التطلع اليه ، والتأمل فيه . والرجل على هذا كله قد تخصص في التاريخ فهو يتحدث عن مراحل وطنه بلسانه الذرب وكأنه يطلق عقالها من كتاب منشور فهو اذن مصدر هذا الفصل الشائق الممتع .

قبل ان نعرف الازهر

اننا في مصر نتهيأ لاستقبال العيد الالفي للازهر بعد اعوام ، وما يضيره في قليل او كثير ان يكون في العالم الاسلامي مسجد آخر سبق الازهر الى ما اصبح على الزمن محض اختصاصه ، فاذا شاء المؤرخون للازهر ان يذكروا العوامل التي دفعت الفاطميين الى تشييد - الجامع الازهر - والى تزويده فيما بعد ذلك بالمجاورين يطلبون العلم ، فلا تثريب عليهم ان يذكروا - جامع الزيتونة - وان يقولوا عنه انه كان اقوى تلك العوامل واجزلها تأثيرا على الفاطميين . ذلك ان - جامع الزيتونة - في تونس كان معروفا قبل ان يستقيم على اديم القاهرة ظل الازهر الشريف

ففي عام ١١٤ هجرية - وكان العالم الاسلامي الا قليلا من شعوبه يخضع لحكم الامويين - ولى الامر على افريقيا - وهي مجموعة الدول القائمة في الشمال الافريقي - عبد الله بن الحبحاب بعد ان كان واليا على مصر باسم الامويين ايضا...

وكان - ابن الحبحاب - من اولئك الولاة الذين يعنون بالعلم عنايتهم بتوضيح الطابع العمراني على البلد الذي تنتهي مقاليد الحكم فيه اليهم . ومن هنا اخذ يخضع العاصمة الافريقية لمزاجه فزودها بكثير من ءاثار إنتاجه . وكان - جامع الزيتونة - اكثرها روعة وأجزلها خلودا

على مذهب مالك

وأخذ التونسيون المتشوفون الى علوم الدين ينفذون الى جامع الزيتونة من بابه المتأنق الى مقصوراته ذات العمد القائمة تحت سقفه شواهد على دقة الفن بعد أن تأخذهم روعة مأذنته السامقة أخذوا يقتعدون اديم الجامع مستمعين الى دروس الفقه في مذهب مالك الذي بقي حتى الآن على عهدة مذهب جمهور الشعب . وان كان المذهب الحنفي هو الذي يسعى في ظله عظمة الباي

وكان العالم الثبت - علي بن زياد التونسي - هو أول من عرف التونسيين بمذهب - الامام مالك - في الفقه لانه كان معاصرا له ولانه كان اعرف اهل جيله بكتاب - الموطأ - الذي يعتبر بحق اخصب ما انتجه الامام مالك العظيم. ولقد أقرأ ابن زياد كتاب الموطأ في الزيتونة (١)

اعلام نابهون

والحق ان جامع الزيتونة في مقدوره ان يزهو بعديد من الاسماء الكبار الضخام التي بقيت حتى الآن موضع اجلال الفاقهين علوم الدين واللغة والاجتماع والمنطق . فاذا نحن تركنا — ابن زياد — لناخذ طريقنا الى من اعقبوه لكان من المتحتم علينا ان نذكر العالم الفقيه - محمد بن عبد السلام - صاحب الاثر الرائع في فقه مالك ، والامام محمد بن عرفه صاحب الاقوال الذائعة في هذا المذهب لانه أول من وضع حدود الفقه ، والعالم النحوي الجليل - ابن عصفور - الذي يطلق النحاة عليه — سيبويه الاصغر — وابي داؤد سليمان الجربي الذي تعتبر كتبه في المنطق حجة يركن المناطقة اليها مطمئنين

ابن خلدون

ومن حق - الزيتونة - ولا ريب ان تفاخر بانها الجامعة التي استطاعت ان تنجب للعالم الاسلامي عالما مؤرخا اجتماعيا رحالة ذائع الصيت في هذا كله ، ونعني به العلامة — ابن خلدون — ولقد حرص — الزيتونيين — على ذكراه حرص الضنين فأنشأوا قبالة الجامع مدرسة اطلقوا عليها اسم — المدرسة الخلدونية — وجعلوا منها مظهرا جديدا من مظاهر التطور الدراسي الذي انتهت جامعة الزيتونة اليه

مكتبتان

بقيت مظاهر الحياة الاولى على جامع الزيتونة ، تتحدث عنها تلك النقوش الكوفية التي تنتظم

(١) انظر المدارك

القبة القائمة على رأس المحراب وهي نقوش خطية تحدث المتطلع اليها عن ءاثـار الاغـالبة في طليعة القرن الثالث الهجري ، واذا كان الجامع قد خضع لطبيعة التجديد جيلا بعد جيل ، فان هذا التجديد قد اصاره مزودا بمكتبتين رائعتين ، احداهما وقد انشأت منذ قرن ـ وتدعى المكتبة الاحمديـة ـ تتألف من الوف الكتب التي وقفها عليها المقدس احمد باشا الاول ، وتغلب الكتب الخطية على هذه المكتبة، وهي من القدرة الى حد لا يهيىء لها في غيرها نظائر واشباه وهنا عني القائمون على الزيتونـة بامر المكتبة الاحمدية فهيأوا لها حشدا من الخزائن القائمة داخل الجامع واما المكتبة الثانية فانهـا تدعى ـ المكتبة العبدلية ـ وهي في تسميتها تنتسب الى مؤسسها ـ ابي عبد الله محمد الحفصي ـ احد امراء تونس من بني حفص وقد هييء لها مستقرها في واحد من اورقة ـ الزيتونة ـ حيث يقبل المتـأدبون والطلاب اليها ليطالعوا فيها ما يحلو لهم من الكتب . . . التي لا تعار !

قـلب المدينـة

يتوسط جامع الزيتونة مدينة ـ تونس ـ وهو من المساجد المتأنقة المزهوة بما امتد على اديمها من البسط وما نثر على ذوائب عمدها من ثريات الكهرباء . ويرى التونسيون من الجيل الاسلامي الاول حتى الآن في ـ الزيتونة ـ ما يراه المصريون في الازهر فهم يقدرونه حق قدره فيحيون فيه ليالي رمضان وما اليها من مواسم واعياد . وانهم لينزلون راضين عن كثير من المال الذي تنتجه عقارات حبسوها عليه ووقفوها على القائمين بشعائره ومن هذه الاوقاف واليها سخاء الحكومة المطرد يؤدي جامع الزيتونة رسالته اداء لا خلاف على انه يغبط الذين يعنون باللغة والدين

سيـدات نـافعـات

والى جانب « الزيتونة » تقوم طائفة من البنايات الحديثة المزودة بالماء والكهرباء ليتخذها الطلاب « المجاورون » بيوتا لهم وهي بنايات اقامها في شتى العهود جمـاعة السراة في تونس . وانه لمن مفاخر التونسيين حقا ان يكون منهم سيدات نافعات حريصات على البذل في سبيل العلم فقد شيدت احداهن ـ وهي من فضليات بني حمزة في مدينة المهدية ـ دارا جميلة جعلت منها مسكنا لعديد من طلاب الزيتونة

٣٧٠٠ طالبـا

ينتسب الآن الى جامع الزيتونة سبعمائة وثلاثه ءالاف طالب وهذا الجيش من الطـلاب موزع على « الجامع » وعلى « المدرسة الخلدونية » وعلى طائفة من المساجد في ـ تونس وفي « القيروان » وفي غيرهما من المدن وهذا التوزيـع صورة من صور المعاهد الاقليمية التي تتبع الجامع الازهر في مصر

والدراسة في الجامع تقوم على الاسلوب الازهري القديم ولكنها في ـ الخلدونية ـ تتخذ لها اسلوب الازهر الحديث ومراحل هذه الدراسة سبعة اعوام في الزيتونة وثلاثة او اربعة اعوام في مساجد الاقاليم والشهادات التي تعطى من الزيتونة هي (التطويع) وهذه تعادل الكفاءة . و (التمييز) وهي تعادل البكالوريا(١)

(١) شهادات الجامع ثلاث الاهلية ـ والتحصيل ـ والعالمية

باسم الطلاب

وطلاب الزيتونة هم الذين تعود اليهم الكلمة فيما يتصل بتعديل مناهج الدراسة . في ثلاثين عاما انشئت المدرسة الخلدونية لان الطلاب اخذوا يتطلعون الى عمل حاسم يوفر عليهم السعي في ظل منطق العصر الذي يعيشون فيه . ولما رأوا ان - الجامع - لن يكون مكانا لائقا للخرط الجغرافية او اللوحات الموضحة لعديد من العلوم الحديثة اخذوا يهتفون بانشاء مكان يدرسون فيه تلك العلوم واستجابت الحكومة التونسية النداء فانشأت هذه المدرسة لهم واثر كل خمسة اعوام تمضي يعمد الطلاب الى حركة عملية يوضحون فيها ءارائهم في المناهج . وما اليها مما يتصل بمصائرهم بعد ان يظفروا من دراستهم بما يريدون

حقوقيون

وعلى ان الحكومة التونسية تعترف بشهادات « الزيتونة » وتقر اصحابها على عديد من وظائف الدولة كالتدريس والقضاء فانها تمهد للمتخرجين في الزيتونة ما لم تمهد مثله حكومة مصر لعالم ازهري ذلك ان المتخرج في الزيتونة يستطيع ان ينظم نفسه في سلك الطلاب بمدرسة الحقوق

وزراء الدولة

واذا كان غير قليل من المصريين المتفوقين قد استهلوا مرحلتهم الدراسية الاولى في الازهر فان عديدا من الذين اصبحوا فيما بعد وزراء تونسيين قد استهلوا هم الآخرون عهدهم الدراسي في الزيتونة . بل انه يوجد من الذين اتموا تحصيلهم العلمي في - الزيتونة - رهط من قادة الشعب التونسي يحضرنا منهم الآن الشيخ ابراهيم الرياحي والشيخ احمد بن الخوجة والشيخ محمد الطاهر بن عاشور والشيخ محمد بن يوسف .

شيخ الزيتونة

وللزيتونة شيخ يقوم بمثل ما يقوم به شيخ الازهر في مصر . وله اعضاء من العلماء يعينونه على عمله الشاق ومكانته في بيئة الحكم وفي بيئات الشعب هي مكانة الصدارة وشيخ الزيتونة الآن هو - الشيخ صالح المالقي -

الاجانب والمساجد

اما بعد فانه يطيب لنا ءاخر الامر ان نسجل هنا ظاهرة لعل التونسيين هم الذين يتفردون بها وهي ان مساجدهم لا تفتح ابوابها للسائحين . فليس في مقدور أي اجنبي - غير مسلم - ان ينفذ اليها مهما يكن قدره وخطره . . (١)

اما في القاهرة فاسألوا جيوش الاجانب الذين يعج بهم الازهر وملء ايديهم مصوراتهم يلتقطون بها ما يحلو لهم من الصور . ثم يجعلونها في مواطنهم موضع تندر . او زراية او ما يطيب لك ان تقول .

مندوب (الجهاد)

---

(١) ولم يشذ عن ذلك الا مساجد القيروان فهي تفتح للسواح وعلى الاخص جامع عقبة الذي له المقام الاسمي في نفوس المسلمين وعسي ان نرى الحكومة لا ترخص للاجانب ذلك في المستقبل

الخيال في الادب العربى

بقلم احمد المختار الوزير

١

تمهيد

نصدر هذه الحلقة الدراسية الثانية باستعراض جملة قصيرة جامعة نقتبسها تحصيلا لحديثنا السالف في الحلقة الاولى التي خصصناها لدرس العاطفة في الادب العربي (١) فقد سبق ان قلنا ان العاطفة هي العنصر الاصيل لهذا الانتاج الذي نسميه الادب . بل هي اخطر عنصر يحتويه النص الادبي . اذ كلما قرأنا قطعة ادبية شعرية كانت ام نثرية . نشعر في دخيلة نفوسنا بثورة وجدانية . وتموج عاطفي . قد يكون طاغيا عنيفا وحادا قويا وقد يكون هينا ضعيفا سريع الركود والزوال . تلك حالنا في قراءة النصوص الادبية ودرسها . وانها لحال عجيبة تجعل لزاما علينا ونحن نعالج هذه البحوث النقدية . ان نسال هذه الاسئلة كيف استطاع الاديب الشاعر والناثر ان يحرك في نفوسنا هذه الهزات العاطفية . السارة والمؤلمة ؟ وايضا ما الذي ساعده ومكنه من ذلك ؟

وقد يكون من حقنا ان نتمادى في القاء هذا السؤال على كل صاحب فن من هذه الفنون المنعوتة بالجمال والطرافة . وبالطرف والابتكار . من حقنا ان نسأل المصور الماهر في صناعته كيف استأثر اعجابنا واستمالتنا الى النظر والتلهي بما عرضه على انظارنا فوق لوحه الحافل بالاصباغ والالوان المتجسمة الظل والضياء المظهرة حذقه البارع في محاكاة مظاهر الطبيعة ومشاهدها الماثلة امام بصره النافذ الى اعماق سرها العجيب ؟ وان نسأل الموسيقار المبدع في تأليف نغماته والحانه . من تلكم التراجيع والاصداء . الصادحة الناطقة نطقا بليغ التعبير في كل همساته الضعيفة الخافتة وصرخاته العنيفة الحادة ؟ وقل مثل ذلك في النحت والعمارة . السنا نشعر دون شك ونحن في مقام النظر الى طرف من هذه الفنون نظرا فاحصا بشيء قليل أو كثير من اللذة المريحة والسرور الطافح بالبشر والرضا . او بالالم الممض والكآبة والنفور ؟ وهذا الشعور المختلف انما هو أثر من ءاثار ذلكم الانفعال العاطفي الذي أيقظته في نفوسنا بواعث الفن ومثيراته وفواعله

فالسؤال الذي نتلقى به الانتاج الادبي من الشعر والنثر هو نفسه الذي نتلقى به كل انتاج فني مؤثر يملك الحس والشعور بقوة تأثيره . وتلاحق بواعثه . ومحرضاته المغرية الفاتنة . وهكذا نسأل من جديد كيف أثار الاديب . والموسيقار . والمصور . والناحت . مكنون المشاعر والعواطف في نفوس القراء والسامعين والنظار على اختلاف اهوائهم وتباين نزعاتهم وميولهم ورغائبهم .

---

(١) انظر العاطفة في الادب العربي المنشورة ببعض اجزاء المجلد الثاني

ولو شئنا اختيار وضع آخر لهذا السؤال لكان لنا ان نقول : ان ميزة الفن العظمى وغايته السامية انما هي الالهام. والتأثير. ولكن ما مصدر ذلكم الالهام اللافظ الناطق وما سبب ذلكم التأثير السحري العجيب. الذي يغشي قلوبنا ببريق الوانه الخاطفة. وانواره المشرقة. وتستبد تيارات فواعله المكتظة المتلاحقة بما في قرارة نفوسنا من المشاعر والعواطف ؟ نسأل هذا السؤال ولو أن الذاكرة. تعيد للذهن في غير حرج او عناء بعضا من تلكم الاجابات الكثيرة المنوعة. التي جادت بها قرائح من كانوا يبذلون مدخر الجهد في اختيار أوضح تفسير وتأويل لحل ما في هذه القضية من الغموض. لابتعدنا كثيرا عن القصد. وانصرفنا انصرافا عن موضوعنا الذي توفرنا لدرسه وتحصيله

وخير لنا من كل ذلكم ان نكتفي بهذا الجواب الذي يقوم على أساس وطيد من قواعد علم النفس ارتاح اليه النقاد المحدثون .وليس ينكره النقاد المتقدمون. ولا من يسلكون سبيلهم في الدرس والنقد. وفي التعليل والتوجيه. وجوابنا هذا ربما كان ادعى الى ثقة الاعتقاد وسكينة الاطمئنان من كل جواب غيره. ولكن لابد لنا قبل البدء في الاخذ بتاصيله وتفصيله. ان نمهد له بذكر كلمة وجيزة عن الفارق بين العلم والفن. تدنينا من القصد وتسهل علينا الاستفادة والنفع

العلم والفن

وايسر الفروق الظاهرة بين العلم والفن. هي هذه الفروق التي نعثر عليها في فصول تعريف العلم. وفي مصطلح تعريف الفن

العلم

فالعلم ظاهرة عقلية تنشأ عن دوام البحث والتنقيب. وعن النظر الفاحص. والاستقصاء الشامل وعن التجربة والاختبار. واطراد الاسباب والعلل مع حدوث النتائج. الصادقة الثبوت. وغاية العلم فكرية تعليمية. ترمي الى تحديد المعاني. وكشف الحقائق الثابتة التي لا يختلف الناس في فهمها. والانتفاع بها. والتي تزود العقل البشري بما يزيل الجهالة وينفي الغباوة. ويشجع ويعين على استقبال الحوادث. وممارسة الحياة في غير ما فزع او اضطراب. ولغة العلم تعتمد دقة التصوير. وبساطة التعبير. ولها بقدر اتساع دائرة العلم اوضاع اصطلاحية خاصة. تنحصر دلالتها في حدود المعنى المراد. والحقيقة الواقعة.

الفن

اما الفن : فهو نقل الاثر الذي يحدثه التأمل العميق. في مظاهر الطبيعة والحياة. وخفايا ما في هذا الوجود. من غيب النفوس واسرار القلوب ، واظهاره في شكل مبتكر طريف فالفن كما ترون ظاهرة شعورية . تنشأ عن قوة الحس . وانتباه الخاطر . ووفرة الشعور ودقة الملاحظة .

وغايته الالهام التهذيبي من طريق اثارة الوجدان . وبعث الشعور السامي . والاحساس النبيل . والوسيلة الى ذلكم تختلف باختلاف الفنون . وان كانت في جملتها ترجع الى سبب واحد هو هذا السبب الذي نحاول درسه وشرحه معتمدين في بحثنا على احدث نظريات علم النفس . واراء أعلام النقد الادبي من المحدثين الذين ما زلنا نتلقى عنهم انفع الدروس واصح البحوث . وما زلنا نستهدي برشاد هديهم فيما نحن بسبيله من درس هذه الاداب العربية التي نحاول مخلصين ان نبلغ بها المقام المحمود . وأن نصل بها الى أبعد غاية في الرفعة والكمال .

تحصيل نظرية علم النفس

اما نظرية علم النفس في بيان الوسيلة التي يثير بها الفن هزات الشعور السارة . او المؤلمة . فنلخص ذكرها فيما يلي . ثم نتبعها بما يوضحها ويفسرها من الامثلة والشواهد التي تؤكد لنا صدق النظرية من جهة . وتجدد نشاطنا ورغبتنا في الاستمتاع بلذة الفن من جهة أخرى .

وأمثل طريقة لتحصيل هذه النظرية أن نعرض بالدرس لطبيعة هؤلاء الذين نسميهم بحق عباقرة الفن . وعشاق الطبيعة المعاميد . من كل شاعر . وكاتب . وموسيقار ومصور . وناحت . فاننا اذا ما تعرفنا بوجه صحيح بعض ما امتازوا به من الخصائص النفسية . والفكرية . أمكننا أن ندرك من خلال ذلكم الوسيله التي يعتمدونها في التبليغ والالهام . وأثارة الحزن أو السرور وهكذا نلم بعض الشيء بمعاني النبوغ . وما فيه من جهد وغناء .

الموسيقار

فالموسيقار كلف بهذه الاصوات الهاتفة والهمسات الناطقة . والصرخات الراغية . يطيل السمع وتلطف ذاكرته الصوتية كل هذه النغمات الشاردة في فضاء الطبيعة ويعي ما يسمع من زقزقة العصفور . ونوح الحمام . ودمدمة النحل . وحفيف الاوراق وتغريد البلابل . وخرير الجداول . يسمع جلجلة الرعود القاصفة ورجيفها . وولولة الرياح العاصفة وترنيمها . يسمع عجيج البحار الطاغية وضجيجها . وهينمة الانفاس وكل أنة وحنة وزفرة . يسمع هذه الاصوات وغيرها من النغمات الشجية التي توقعها الطبيعة على أوتار خفية . ثم هو ما يزال يستذكرها . ويستعيدها . ما يزال مشغولا بها ينقلها ويقلدها ويحاكيها . ولكنه يضيف اليها ويهذبها . ويلائم بينها ثم لا يلبث أن يهتف بها صادحا مغنيا . فتخرج للناس معبرة عما في نفسه وقلبه وعقله .

المصور

كذلكم المصور الحاذق يعنى عناية كاملة بهذه الاشباح والاطياف والهياكل . والاودية المترامية والسهول والوهاد . والجبال السامقة في الفضاء الى أعالي السماء . يحب المروج والحقول والجنات اليانعات ويهوى الصحاري والبراري والغابات . وينظر بعينيه وقلبه نظرة فاحصة منقبة عميقة متأثرة الى كل

هـذه الالوان المتشاكلة،. وغير المتشاكلة . والمتشابهة وغير المتشابهة . المرسومة على اجنحة الطيور ولفائف الزهور . وعلى سفوح الجبال حيث الجنادل والصخور . وعلى حاشيـة الافق المجلوة حيث يمتد الشفق الزاهي . وحيث تقيم الطبيعة محرابها القدسي من قوس قزح فتبدو للناظرين هالاته موشحة بالرائع الجميل من الالوان والاصباغ الخاطفة اللامعة . يصعد بصره الى قلب هذه القبة الزرقاء فيرى ما يتهـادى في مسراحها من نور النجوم السارية . والكواكب الساهرة . ويرى البدر في لياليه الحافلة بما يرسله على الكون الساكن تحت اجنحة الليل من شعاعه الباهر وضيائه الحائر . ثم لا يلبث ان يصوب نظره الى هذه البحيرة الساجية الساكنة . فيرى ما يرف على صفحتها اللامعة من الاطياف والاشباح المترقصة مع الظل في خفة ونشاط .

كذلكم يستجلي المصور كل هـذه الالوان وقلما يراهـا ولا تتجسم معانيها وخيالاتها في فضاء روحه . وصفاء خاطره . ولمعان ذهنـه . ففي البياض الباهت معاني الطهر . والصدق . والمحبة . والاخلاص وفي زرقة البنفسج معاني الذهول والرحمة والترفق الحادب . والعطف الشديد . وفي الاحمر المشبوب لمحات القوة والعذاب . وفي الاسود الطامس ذكريات الاتراح والكآبة والحزن واليأس الثقيل .

ومن خاطره الحافل بخيالات هـذه المظاهر والمعاني الواضحة . يستمد أشكال الصور . ويبدع ما شاء وشاء له الفن في تأليفها . وتنسيقها كل الابداع . وقلما ينقصه شيء ثم لا يجد لـه من مادة خياله الخصيب ما يكمله به على خير وجه بداعة . وانسجاما . وفتنة وجمالا . وليس يرضى المصور الماهر أن يختار الجميل الذي يستحليه . والحسن الـذي يرتضيه . من مناظر الطبيعة ومشاهدها ثم ينقله فوق لوحه . ولا يزيـد اذ ان هبـة الفن تسمو به وتنزه عمله عن أن يكون نسخا قاصرا . ونُقلا مجردا . وتدعوه ملحة الى الخلق والابداع والابتكار . (وربما نقل الجبـال عن الطبيعة فلا يلبث أن ينسفها نسفا ويدكها تبديلا وتغييرا في سبيل الاتقان والاجادة) .

فالمصور يلتقط بعينيه من رسوم الطبيعة كل حسن وجميـل . ثم يتصور « الجمال » في خياله . ويفتن في تكميله . ثم يتناول الريشة واللوح . ويبذل ما يبذله من الجهود في محاكات ما يستحضره في مسارح خياله . وما يتجلى بخاطره من تلكم المعاني القدسية البالغة نهايـة الكمال في الفتنة والجمال . ولو كنت في مقام أطالب فيه . بالبرهان واستحضار الدليل على صدق هـذه القضايا . لاخترت حديث « جيدو » ذلكم المصور الذي ملأ حديثه الدنيا وطبقت شهرته الافـاق . اذ قـال عن نفسه وكان يرسم الرسوم في كنيسة الراهب ميخائيل في رومة « وددت لو كان لي جناحا ملاك اطير بهما الى السماء . لارى رئيس الملائكة . واعود فأرسمه كما هو . واذ تعـذر علي الصعود . والفيت البحث عن نظيره في هذه الدنيـا من باب العبث الباطل . رجعت الى مخيلتي ومثال الجمال المتجلي فيها ورسمت ما رسمت . ولم ينقصني شيء . . »　(للبحث بقية)　احمد المختار الوزير

ايطاليا في طرابلس برقة

الى الامة العربية والعالم الاسلامي بصفة عامة والى رجال الدين والعلماء والخطباء منها خاصة ايطاليا تنتهك حرمة بيوت الله فتطرد المصلين منها • وترغم الهيئة الشرعية على اعتناق الجنسية الايطالية

كان يوم الخميس الواقع في ١٨ فيفري الحالي يوم حزن في طرابلس اذ انتهكت فيه حرمة المساجد. اذ عمدت حكومة الطليان الى جلب عدد من الالمانيين السواح في طرابلس يصحبهم جماعة من الطليان ويصحب الجميع سليمان باشا قره ملي الى الفرجة على جامع الباشا وصادف ذلك فريضة صلاة المغرب وكان المسلمون اذ ذاك متهيؤون للصلاة فاطردهم الحاكم الايطالي وامرهم بان يصلوا خارج الجامع وقد وقع ذلك بصفة لا يمكن لاحد ان يعارض فيها وذهب المصلون اشتاتا ودخل الضيوف للجامع ! ! انظروا ايها المسلمون الى اي حد بلغ استهتار الطليان واستخفافهم بالاسلام والمسلمين انظروا واسمعوا ايها العلماء ورجال الدين عواقب سكوتكم وجناية تكاسلكم على الاسلام

ان بقية أهالي طرابلس المسلمين المهاجرين سيعيشون مبعثرين في مختلف الاقطار وسيعيش الفريق الباقي منهم داخل طرابلس في أرضها لكن سيعتنق الديانة المسيحية ويتمذهب بالفكرة الفاشيستية لان الظروف والوسائل التي نفذت في الاندلس كمحاكم التفتيش وغيرها ها هي تنفذ اليوم في اخوانكم الطرابلسيين بل بصفة اشد وامر وان اختلفت الاسماء ففي الاندلس كان اذ ذاك في امكانهم الفرار والهجرة اما في طرابلس اليوم فهذا مستحيل لا على طريقة قانونية ولا على طريقة لصوصية لما اتخذته ايطاليا من الاحتياطات وفي الاندلس نصبت محاكم تفتيش يمكن معها التفكير سرا. اما في طرابلس فقد جعل الطليان ضروريات الحياة للمسلم بعد سلبه من كل شيء غير ممكنة الا بالتجنيس والا فلا رزق ولا معيشة ولا احترام على أن المسلم المتظاهر بالتدين في طرابلس أصبح كالكرة تتلاقفها ازجل السيارات بارادة سائقيها من الطليان بدون ان يهتم الفاعل بفريسته ولا تحيره جنايته الشنيعة وكانه داس خنفساء لم يقع عليها نظره بل يرى أنه داس عقربا مؤذية. لمن نشكوا هذا يا رب قد بح الصوت وفقد النصير وعظمت البلوى واشتد الكرب . انا لله وانا اليه راجعون.

وا محمداه دينك أخذ في التقهقر واتباعك تخاذلوا وتكاسلوا فاوطانهم اغتصبت وأملاكهم نهبت وارواحهم زهقت واشلاؤهم تبعثرت ولغتهم احتقرت ولا يلبي بعضهم بعضا ولا ينجد أحدهم الآخر انها حالة اسيفة ومصير محزن وتخاذل مشين

لما رأته حكومة الفاشيست من تمسك المسلمين بدينهم رغم ما اتخذته ايطاليا من التدابير عمدت

اخيرا الى الهيئة الشرعية تطالبها باتخاذ الجنسية الايطالية كما استدعت جميع العلماء والاعيان وطالبتهم بذلك وقد بلغنا ان بعض اعضاء المجلس الشرعي استقالوا من مناصبهم ولم يقبل احد بذلك الا ان الحكومة هددتهم تهديدا مرعبا ان لم يمتثلوا ويقال ان شخصية اقدمت على هذا الامر تحت عوامل التهديد والوعيد والانذار الصارم

ان قضية طرابلس برقه اليوم أصبحت قضية دينية بحتة لانها قد اجتازت حدود السياسة وجميع الحقوق المدنية . أتعلمون ايها المسلمون ما هو قصدنا الذي نطالب به . هو أننا نريد البقاء ضمن الامة العربية ولنا ذاتية وميزات والمحافظة على ديننا ولغتنا . والايطاليون يريدون محو ديننا من قلوبنا ومحق لغتنا وصبغ ارضنا بالصبغة الايطالية الفاشيستية . فنحن جاهدنا لاجل ذلك ونجاهد بجميع الوسائل الى ان نلقى الله تعالى . وهم آخذون في تنفيذ إغراضهم فمحوا كل ما يقال له عربيا . وها هم الآن اجهزوا على الدين واللغة لمحوهما من قلوب اهلهما وسيتوصلون الى ذلك ما لم يجدوا من الاسلام قوة ترجعهم عن غيهم ان كان توجد للاسلام قوة في هذا الوقت والا فعلى طرابلس وأهلها السلام وعلى بقية الشمال الافريقي انتظار دوره .

يا رجال الاسلام يا من تتغنون بالوحدة العربية والجامعة الاسلامية . فان لكم ارضا يقال لها طرابلس برقه هي من افريقيا في الوسط ومن العروبة في الصميم ومن الاسلام في الذروة قد سلبت من ايديكم واخذت ترسل لها ايطاليا افواج الجائعين ليملؤا بطونهم الخاوية من خيراتها ويكسوا اجسامهم العارية من رزقها وليشتتوا العرب الذين هم اهلها ولكم فيها دين اسلامي اصبح محتقرا مهانا فهو الآن في طريقه راجعا الى المدينة المنورة حيث قبر صاحبه صلى الله عليه وسلم فان لم تسرعوا الى تطمينه واثباته فهو راحل لا محالة . وانتم المؤتمنون عليه فاتقوا الله في واجبكم . ولكم لغة عربية في طرابلس سيقضى عليها وتصبح في خبر كان .

(فاقم وجهك للدين القيم من قبل ان ياتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون) واحسرتاه على الاسلام والمسلمين تلقت طرابلس برقة ثلاث صدمات في ثلاثة اشهر متواليات - اعلان الحاقها بايطاليا رسميا وفرض التجنيس الفردي توطئة لازالة الاسلام من قلوب اهله وبعث عشرات الالاف من زعانف الطليان لاحلالهم محل المسلمين توطئة لاقرار خمسة ملايين منهم في ارضها حتى لا يمكن للعرب والمسلمين في المستقبل ان يقولوا بلادنا . يقع كل هذا في طرابلس برقة وفي تونس التي هي الهدف الاول لايطاليا بعد طرابلس في يوم من الايام هذه الداهية الدهماء والكارثة الكبرى وفي تونس ايمة يعظون المسلمين في المساجد وتجتمع حولهم العامة والخاصة فلم يخطر ببال احد منهم ان يلقي على مستمعيه كلمة في هذا السبيل يشرح لهم بها ما اصاب دينهم ووطنهم واخوانهم في طرابلس اسوة بزملائهم في الاقطار الشرقية وها انني اضع هنا نبذة من مقال نشره الاستاذ مصطفى حسني السباعي في مجلة الفتح . في موقف سوريا من كارثة فلسطين التي لا تقاس على كارثة طرابلس فيما اظن يقول الاستاذ مصطفى : وقصارى القول ان السوريين وقفوا من فلسطين موقفا مشرفا وهم يعطفون على جهادها عطفا قويا عمليا ويتبعون اخبار الفظائع بألم عميق والفضل الاكبر في هذا الاهتمام يعود الى العلماء والخطباء اولا والى الصحافة ثانيا . فلا تخلوا صحيفة من ذكر فلسطين والحث على تاييدها

بحرارة واخلاص كما لا تخلو خطبة ولا درس في مسجد من الهاب الشعور الديني في نفوس العامة حتى صار ذكر فلسطين على لسان الخطيب او المدرس كافيا لاستدرار العبرات واثارة الشعور) ذكرنا هاته الكلمة لورود ذكر العلماء والخطباء فيها اما في تونس والمغرب كله فاذا استثنينا المجلة الزيتونية والصحافة التونسية وصحيفة واحدة جزائرية هي البصائر . التي قامت بقسط لا باس به من واجبها فليس هناك حركة شعبية في الشعور العام فها اننا نكتب اليهم النداءات وننشر اليهم ما يقع فلم يتجاسر احد من رجال الدين والعلم على رفع قلمه ليقول لبيكم لبيكم مع ان ساداتنا العلماء هم اعرف الناس بقوله تعالى (ان الذين ءامنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله والذين ءاووا ونصروا اولئك بعضهم اولياء بعض) ويقول (وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر) وقوله جل شأنه (والذين ءامنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين ءاووا ونصروا اولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم) .

أ ترضون باستيلاء اعداء العرب والاسلام بصفة خاصة واعداء الانسانية بصفة عامة ان يستولوا على قطعة من ارضكم ويمحقوا فريقا من جنسكم ويعبثوا بتقاليد كم ودينكم وانتم تنظرون ولا تتحركون وتسمعون فلا تجيبون وتنادون فلا تلبون وتعلمون فلا تعملون . ألم تعلموا ما وقع في طرابلس برقة وما هو واقع في اخوانكم هناك من الضغط والارهاق والاذلال والاحتقار . اين انتم يا رؤساء الشريعة السمحة ويا خطباء المساجد الفصحاء ويا مدرسي العلوم يا ايها الاباء الروحيون لآلاف من الشبيبة الاسلامية ما هي حجتكم امام الله وماهو جوابكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم يسألكم عما فرطتم فيما امركم به . أتقولون له اننا خشينا سطوة الاعداء . الجواب : فلا تخافوهم وخافوني ان كنتم مؤمنين . ويقول لكم صلى الله عليه وسلم اني قلت لكم : (ما ترك قوم الجهاد الا عمهم الله بالعذاب)

ان ربكم الذي جعلكم خلفاء في الارض واختار لكم الاسلام دينا يريد منكم ان تكونوا عمليين مدافعين عن هذا الدين الحنيف وهو يناديكم لذلك بصريح العبارة في قوله جل وعلا « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » « وجاهدوا في الله حق جهاده » . يا ورثة الانبياء ما كان في يوم من الايام الانبياء الذين انتم ورثتهم ينظرون الى الدين يهان واللغة تطرد من ربوعها واتباعهم ترغم على الردة كرها وهم ساكتون لا يتحركون بل كانوا دائما فاتحين مبشرين . فها اننا نناديكم ونستصرخكم ايها المسلمون فتعاونوا معنا وانجدونا وقوموا بما فرضه الله عليكم ولا تبخلوا باموالكم وانفسكم وابذلوا كل نفس ونفيس في سبيل المحافظة على دينكم وارضكم وقوميتكم بكل ما اوتيتم من قوة وستجدون عند الله الجزاء الحسن لانه لا يضيع اجر المحسنين

اننا حقا والله اليوم اصبحنا في الحالة التي وصفنا بها النبيء الكريم صلى الله عليه وسلم (يوشك أن تتداعى عليكم الامم كما تتداعى الاكلة على قصعتها . فقال قائل أ من قلة نحن يومئذ قال صلى الله عليه وسلم لا بل انتم يومئذ كثيرون ولكنكم غثاء كغثاء السيل الحديث . وها نحن في هاته الحالة لم نستطع حتى دفع الاعتداءات المتوالية علينا في ديارنا ونستنجد ببعضنا فلا نجد ونادي بعضنا فلا يلبي احدنا اخاه ويا للاسف مع ان مولانا الاعظم يقول المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه . ويقول من فرج عن مسلم كربه فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة . وقال : المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا

احمد زارم الطرابلسي

في موكب

رابع عيد الاضحى

الفريدة العصماء التي القاها شاعر البلاط الملوكي شيخ الادباء الاستاذ العربي الكبادي بين يدي الحضرة العلية في موكب رابع عيد الاضحى تهنئة للامير بالعيد السعيد

أعد ذكر سلع والحطيم وزمزم … وشنف به أذن المشوق المتيم
وان جزت بالبيت العتيق فقل له … الا انعم صباحا أيها البيت واسلم
فتاسيس ابراهيم يكفيه أنه … زيارته فرض على كل مسلم
رعى الله ذياك المقام ومن به … اقام واقصاه على كل مجرم
منازل وحي شرف الله ارضها … وقرر في أرجائها خير موسم
الى مثلها شد المطي أخو الحجا … ولم يلهه حب الرباب وتنعم
رأى طاعة الرحمان اربح متجر … وزورة بيت الله أكبر مغنم
فلم تعتنق أجفانه طيب الكرى … ولم تكتحل بالغمض خوف التندم
اذا فاتها ما نال كل مشمر … من القرب والقربى ومحو التأثم
الا ليت شعري والحوادث شانها … معاكسة الآمال من كل مغرم
أأبلغ هاتيك البقاع واجتلي … محاسنها قبل الحمام المحتم
وادعو الى المولى الذي فيض كفه … اعاد الى الخضراء عهد التنعم
فقد أصبحت في عهده جنة الدنا … ونالت به الآمال من غير مغرم
يحن لها من زارها وهو ان نأى … يفارقها كرها فراق متيم
وما ذاك الا العدل قد صان ربعها … فباتت ولا تخشى اغارة ملجم
فبالعدل تسييج الممالك كلها … ومفخرها الاسنى ونيل التقدم
لذاك ترى العمران قد عم تونسا … وصير ذكراها كما الشهد في الفم
وفاض بها العرفان في كل بلدة … ولولاه لم تذكر ولم تتكلم
بفضل الذي ساس الامور بحكمة … سياسة شهم للتدابير محكم
مليك حباه الله مجدا مؤثلا … وخص علاه بالمقام المفخم
وقد أخلص التقوى الى الله ربه … فلم يتصف يوما بظلم ومأثم
تخصص بالفعل الجميل وعما … بفضل جزيل فات حد التوهم

فلذ بحماه ان جفا الدهر واعتدى تجد فوق ما ترجوه من خير مكرم
مناقب لو نال النجوم ضياؤها لما كان من ليل على الناس مظلم
وهل كابي العباس في الناس من له مع الملك أخلاق لها الحلم ينتمي
سمعنا بمعن في السماحة والندى كذا بابن قيس في ضروب التحلم
فادهشنا ما حدث الناس عنهم وقد اقسموا عن صدقهم كل مقسم
فلما اتى هذا الامير تيقنت نفوس الورى صدق الحديث المنمنم
وما ذكروا من فضلهم بعض ما نرى لدى ملك ساد الورى بالتكرم

❁ ❁ ❁

أأحمد هذا العيد قد يمم الحمى ليلثم كفا انقذت كل معدم
اتى بعد عيد الفطر يختال ناشرا برود التهاني والسرور المعمم
يصاحبه مستانسا هامر الحيا فيشفي فؤاد الخائف المتألم
تلفع في أيامه جو ارضنا بثوب من السحب الثقيلة أسحم
ترى الشمس تبدو تارة ثم تختفي كحسناء بين الانجلا والتكتم
وقد لمع البرق الخفوق كانه فؤاد جبان او كجذبة لهذم
فطابت به اصالنا وغدونا وفزنا بحظ لم يكن بالمرجم
وغنت على غصن السرور طيوره فجادت على اسماعنا بالترنم

❁ ❁ ❁

أمولاي هذا الوفد قد جاء مثلما تعود سعيا للجناب المعظم
لتقبيل كف دابها كفها الاذى عن البائس العاني حليف التبرم
واظهار ما تخفي القلوب من الولا بجو من الاخلاص والود مفعم
فانتم مصابيح تنير لقاصد سبيل الهدى والحق دون تجمجم
وانك بحر يقذف الدر موجه لراج توخاه وليس بمرزم
ومن قال ان القطر يحكيك لم يصب ودعواه لم تنظر بغير التجهم
فذلك يعطي عابسا ونوالكم يقارنه للطف عذب التبسم
لقد زاد عيد النحر حسنا وبهجة على الفطر في ظرف به الانس يحتمي
فما راعنا ما راع بالفطر قبله بما نال من علياكم من تألم
لذلك اولته الولاء نفوسنا ولم يك فينا بالثقيل المذمم
فدم سالما للملك تكسوه عزة باحجام ذي عقل واقدام ضيغم
لك الدهر مطواع بما انت راغب لسدتكم يرنو بالحاظ معظم

مؤتمر جمعية الحرمين الشريفين

ان جمعية الحرمين الشريفين التي تعقد في كل عام جلسة عامة في احدى عواصم الشمال الافريقي الثلاث - تونس والجزائر والمغرب الاقصى - قد عقدت اجتماعها في هذا العام بالبلاد التونسية - وبهذه المناسبة فقد احتفلت بلادنا احتفالا عظيما بمناسبة قدوم الوفدين المغربي والجزائري اللذين اشتمل كل واحد منهما على نخبة من اعيان العلماء والفضلاء بالقطرين الشقيقين ، وقد كان عدد القادمين في هذا العام اكثر من المعتاد . وكان الوفد المغربي تحت رئاسة فضيلة العلامة الجليل الشيخ سيدي محمد الحجوي وزير المعارف بالمغرب الاقصى ومعه اعيان من فقهاء المغرب الاجلاء ، منهم الشيخ محمد العربي الناصري والشيخ احمد سكيرج (الشاعر المكثار) - وكان الوفد الجزائري تحت رئاسة الفاضل الماجد السيد بوعزيز بن قانه شيخ العرب بالقطر الجزائري ومعه نخبة من قضاة الجزائر وعلمائها ووجهائها - منهم الشيخ محمد بن ساسي قاضي قسنطينة والشيخ المولود بن الموهوب مفتيها (الذي بلغ الاسماع بواسطة المذياع) وكان بصحبة الجميع حضرة السيد قدور بن غبريط رئيس الجمعية وقد عقدت الجمعية جلستها الرسمية على الساعة العاشرة من صبيحة يوم الاثنين في ١٢ شوال وفي ٥ ديسامبر الفارطين في دار الباي في بيت الوزير الاكبر ، تحت رئاسة صاحب الدولة جناب المولى الوزير الاكبر للدولة التونسية سيدي الهادي الاخوة ، وبمحضر الوفدين المغربي والجزائري وجميع الاعضاء التونسيين وفي مقدمتهم اصحاب الفضيلة مشايخ المجلس الشرعي وهم شيخا الاسلام سيدي محمد بن يوسف وسيدي محمد الطاهر ابن عاشور والمشايخ المفتين سيدي محمد العزيز جعيط وسيدي بلحسن النجار وسيدي علي بن الخوجه وسيدي محمد المختار بن محمود والقاضي الحنفي سيدي محمد دامرجي والقاضي المالكي سيدي الطيب سياله .

وقد افتتح الجلسة جناب المولى الوزير الاكبر بخطاب بليغ رحب فيه بالضيوف الكرام ، وتعرض لبعض اعمال الجمعية واثنى على رئيسها الفاضل وختم خطابه بالدعاء لصاحبي الجلالة ملك تونس سيدنا احمد باشا باي وسلطان المغرب سيدي محمد بن يوسف - وبعد انتهائه وقف رئيس الجمعية جناب الوزير المفوض السيد قدور بن غبريط واعتذر عن القائه خطابه بنفسه واناب عنه الشيخ جعفر الناصري فالقى بالنيابة خطبة الرئيس وقد اشتملت على بيان تاريخ تأسيس هاته الجمعية والادوار التي قامت بها ، ثم تعرض لتحديد موضوع الجمعية ، فذكر انها لا دخل لها في احباس الحرمين الموجودة بالاقطار الثلاثة ، وانها لا تتصرف في شيء من اموال الاوقاف المذكورة ، وانما سميت جمعية احباس الحرمين لانها تملك عقارا في مكة موقوفا على الحجاج وتنوي ان تملك عقارا مثله في المدينة

وبعد الانتهاء من الخطاب المذكور عرض الرئيس ميزانية الجمعية قبضا وصرفا . فكانت خلاصة ذلك - ان المداخيل (الصواير) فرنكات ٠٠«٤٠٩٠٠٠ وان جملة المصاريف فرنكات ٠٠«٤٨٣٤٠٠ - وان جملة ما يصرف على جامع باريس من ارزاق للايمة والمؤذنين وما يتبع ذلك فرنكات ٠٠«١٠٩٠٠٠

ثم تعرض لبيان الاعمال التي يقوم بها جامع باريس لفائدة عموم المسلمين فهو زيادة على كونه يجمع شمل المسلمين عند اداء الصلوات لا سيما في يوم الجمعة - فانه يكفل الاموات ويتولى حفظهم وغسلهم وايصالهم الى مقرهم الاخير في المقبرة الاسلامية الكائنة في ضواحي باريس في جهة (بوبنيي) وان جملة الاموات الذين تولى امرهم الجامع اثناء عام ١٩٣٨ عددهم ١٨٠ منهم ١٤٠ من الجزاير و٢٠ من المغاربة و٢ من تونس و٥ من مصر و٣ من ايران و٣ من السنغال و٢ من العراق و٣ من التونقان و١ من تركيا و١ من اذربيجان ثم تعرض للدروس التي تلقى بجامع باريس - وللاعانة التي قررتها الجمعية لتنشيط حركة التاليف بالاقطار الثلاثة - الى غير ذلك من الاعمال التي قامت بها الجمعية والتي تسعى لتوسيع نطاقها عندما تتسع ميزانيتها .

وبعد الانتهاء من ذلك الفت الشيخ محمد المختار بن محمود نظر الجمعية ورئيسها بالخصوص الى مسئلة تنظيم باخرة الحجاج ووجوب الاعتناء بها حتى يكون الحجاج في راحة تامة اثناء سفرهم لبيت الله الحرام . وذلك لان الحجاج قد تشكوا في العام الماضي من المعاملة السيئة التي وقعت لهم على ظهر الباخرة سينايا . ومن الاتعاب الشديدة التي قاسوها . وايده في ذلك الشيخ محمد الحجوي والشيخ المولود ابن الموهوب وغيرهم من الحاضرين . فاجاب الرئيس عن ذلك بان الخلل الذي وقع في العام الماضي سيقع تداركه في هذا العام بحول الله وسيقع بذل الجهد في السهر على حفظ راحة الحجاج . وسيقع التفاهم مع ملتزم الباخرة في تطبيق ذلك . لا سيما والجمعية سترسل نائبا عنها مع الباخرة تكون وظيفته مراقبة معاملة الحجاج وابعاد الاذى عنهم . ووعد بان يحضر بنفسه عند خروج الحجاج من تونس

واثر ذلك دخل الاديب الفاضل الشيخ محمد المقداد الورتتاني واهدى للضيوف نسخا من سفره الازرق المسمى (النفحة الندية في الرحلة الاحمدية) والقى قصيدة في تحية المؤتمر . ثم انفض الاجتماع . واخذت صورة للحاضرين في صحن دار الباي .

وقد وقعت عدة اقتبالات للضيوف الاجلاء من طرف اعيان التونسيين نخص بالذكر منها المائدة التي اعدها جناب المولى الوزير الاكبر بنزل (دار زروق) بسيدي ابي سعيد والمائدة التي اعدها فضيلة مولانا شيخ الاسلام المالكي سيدي محمد الطاهر ابن عاشور بسانيته في المرسى . والمائدة التي اعدها جناب المقيم العام في السفارة الفرنسية والمائدة التي اعدها سيدي محمد بن الخوجه مستشار الحكومة التونسية ومؤرخ المجلة الزيتونية في نزل (تونيزيا بلاص) والمائدة التي اعدها امير الامراء سيدي محمد سعد الله مدير الاوقاف بمطعم بغداد

وقد لاحظنا ان فقهاء تونس لم يشاركوا في هاته الاحتفالات التي اقيمت للضيوف الا الحفلة التي وقعت في دار شيخ الاسلام حيث استدعى لها بعضهم (لا كلهم) - واذا كان السبب في ذلك ظاهرا بالنسبة للحفلات التي اقيمت في الفنادق فما هو السبب بالنسبة للاحتفالات التي اقيمت في المحلات الخاصة ؟ وقد قضى الزائرون الكرام بعد ذلك اياما سافروا فيها لبعض الجهات بداخل المملكة . وتاملوا في مغالها . وافتتنوا بمباهجها . ثم رجعوا بسلامة الله الى اوطانهم .

رئيس قلم تحريرها :

محمد المختار بن محمود

المفتي الحنفي

بالديار التونسية

صاحب المجلة ومديرها :

محمد الشاذلي ابن القاضي

المدرس من الطبقة الاولى بجامع الزيتونة

والخطيب الثاني بجامع حمودة باشا

المراسلات :

ترد باسم مدير المجلة بمحل الادارة

الادارة :

نهج الباشا رقم ٣٣ بتونس - تليفون ٤٩-٢٦

الاشتراك

عن سنة بالحاضرة وبلدان المملكة والجزائر والمغرب الاقصى وسوريا فرنكات ٣٠

« في الخارج غير البلاد المذكورة فرنكات ٤٠

يخصم الربع للتلامذة

وصولات الاشتراك لا تعتبر الا اذا كانت ممضاة من امين المال

محمد الهادي ابن القاضي

والمخابرات المالية لا تكون الا معه

الادارة نهج الباشا رقم ٣٣ — تونس

المجلة الزيتونية

مجلة علمية أدبية اخلاقية

تصدرها الهيئة من مدرسي جامع الزيتونة المعمور

المدير : محمد الشاذلي ابن القاضي

عدد ممتاز

خاص بالهجرة الشريفة

لعام ١٣٥٨

٥ فرنكات

المطبعة التونسية

فهرس العدد

المجلة الزيتونية

مجلة علمية أدبية اخلاقية

تصدرها الهيئة من مدرسي جامع الزيتونة المعمور

شهرية وسنتها عشرة اشهر

الجزء الثالث	تونس - في محرم الحرام ١٣٥٨ - مارس ١٩٣٩	المجلد الثالث

رئيس قلم التحرير :

محمد المختار بن محمود

المفتي الحنفي

بالديار التونسية

صاحب المجلة والمدير :

محمد الشاذلي ابن القاضي

المدرس من الطبقة الاولى بجامع الزيتونة

والخطيب الثاني بجامع حمودة باشا

المراسلات :

ترد باسم مدير المجلة بمحل الادارة

الادارة :

نهج الباشا رقم ٣٣ بتونس - تليفون ٤٩-٢٦

المطبعة التونسية - نهج سوق البلاط عدد ٥٧ - تونس

ذكرى الهجرة

لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة

بقلم رئيس التحرير

ان من أهم الحوادث التاريخية التي كان لها أثر عظيم في شان الاسلام وانتشاره في مشارق الارض ومغاربها ؛ وتغلغله في الاقطار قاصيها ودانيها، واشراقه اشراق الشمس التي لا يصدها شيء عن الوصول الى كل مكان، حادث الهجرة ؛ هجرة الرسول الاعظم خاتم الانبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

فقد كان أول ظهور الاسلام في مكة أين مقر البيت الحرام ، ذلك البيت الذي شيده ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وأسس على التقوى من أول يوم ، فكان مثابة للناس وأمنا ؛ تفد اليه الامم من جميع اقطار الارض ، وتتقرب فيه الى الله على حسب اديانها ومباديها ، فكان مقر أديان متناقضة ، وعوائد متباينة ، كما كان مقر عصبيات مختلفة ، وقبائل متنوعة ، تعتز كل واحدة بدينها ، وتتباهى بقوتها وكثرة عددها

فاختار الله تعلى ان يكون مظهر الاسلام في ذلك الموضع الذي تطاحنت فيه الاديان ، وتنوعت فيه المبادي ، وتشتت فيه الاغراض ؛ اذ ظهور الاسلام في مجتمع على هاته الحالة دليل واضح على ما للاسلام من قوة وما له من سلطان بحيث لا يبالي بتلك المظاهر المتنوعة لانه بقوته سيقضي عليها

بعث الرسول صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ، فمكث زمنا يسيرا يهيء الاسباب لاظهار دعوته والاصداع بكلمة الله ، ثم اذن له ، فصدع بالامر ، وجاهر بالدعوة ، فتالب الناس عليه ، واعدوا العدة لمقاومته ، لما علموه من ان هذا الدين الجديد الذي جاء به اليهم سيكون قضاء مبرما على ما الفوه من العقائد الضالة ، وهكذا الشان في كل من يضل عن سبيل الله ، فتأخذه العزة بالاثم ، ولا تجد الهداية الى قلبه من سبيل

ولم يقتصروا في مقاومته على الطرق المعقولة : من المفاهمة والاحتجاج والمحاورة ، بل قاوموه صلى الله عليه وسلم بالفعل ، فترصدوا له في غدوه ورواحه ، واغروا به سفهاءهم والفلتاء منهم ، وءاذوه بانواع من الاذايات لا يتحملها الا امثاله صلى الله عليه وسلم من اولي العزم ، فكان يقاوم ذلك بالحلم والصبر والجلد ، ويستمر على بث الدعوة التي كلفه الله بها ؛ مستخفا باعمالهم ، واثقا من نفسه ، عالما بان النصر سيكون بجانبه ، وهكذا شان المرسلين عليهم الصلاة والسلام ؛ في التجلد وقوة العزيمة ، وتحمل الشدائد واقتحام الاخطار .. (وكاين من نبي قتل معه ربيون كثير فما وهنوا

لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم الا ان قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين)

ثم لما مضت أعوام على هاته الحالة ظهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن بقاءه بمكة والمشركون على ما هم عليه من الكفر والعناد والمقاومة لايمكن معه الوصول الى الغاية التي يسعى لتحقيقها ، فاستاذن من ربه سبحانه وتعالى في أمر الهجرة ، فهاجر الى المدينة ، ومعه اتباعه الذين ءامنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه ، فوجد فيها انصارا اعزوه واعتزوا به ، وأكرموا من هاجر معه فطاب له فيها المقام وتهيأت الاسباب لنشر كلمة الاسلام ، وقرت عينه عليه الصلاة والسلام

وعند ذلك دخل الاسلام في طور جديد ، وتهيأت أسباب الدعوة ، وتفرغ الرسول صلى الله عليه وسلم الى العمل العظيم الذي كلف به ، فتوالت الغزوات ، واستمرت الفتوحات ، ودكت معالم الشرك فارتجت ارتجاجا ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، ونفذت كلمة الله الى سائر الاسماع ، وانتشرت في جميع البقاع ، فذلك هو حادث الهجرة وتلك هي آثارها

ثم استمر الاسلام على النمو والانتشار ، حتى صارت دولة الاسلام أقوى الدول ، وحتى صارت مدنية الاسلام ارقى المدنيات ، وحتى صارت الامة الاسلامية هي مضرب الامثال في عدلها وقوة سلطانها ؛ واستمر الحال على ذلك حينا من الدهر ؛ ثم دالت الدولة ؛ وضعفت الصولة ؛ وطرأ على جسم الامة الاسلامية الاعتلال ؛ حتى كادت تصل الى الاضمحلال ، حيث تغلبت الاغراض ، وتشتت الجمع ، وتفرقت الكلمة ، وسادت الفوضى ، وصارت الامة الاسلامية اضعف الامم ، تساق بالعصى ، وتغزى وهي في عقر دارها ، وتعامل بانواع الخسف والهوان ، وتشج فلا يرثى لها احد ، وتقهر ولا تستفيد من كثرة العدد

فهل يدوم الحال على ذلك ؟ وهل لمعالجة ما عليه المسلمون من سبيل ؟

اما دوام الحال فمن المحال ، واما العلاج فهو سهل بسيط ، ذلك ان الرجل العاقل هو الذي يقارن بين ماضيه وحاضره ، ويبحث عن اسباب عزه عند ما كان عزيزا ، ويبحث عن اسباب ذله عند ما صار ذليلا ، فيدرأ عن نفسه أسباب الخلل ، ويتدرع بالطرق الناجحة من وجوه العمل

وان في حادث الهجرة لعبرة لمن يعتبر ، ولا ينبغي أن يمر به الانسان كحادث يكفيه منه ان يعلمه ؛ بل يجب ان يقلبه ظاهرا وباطنا ، ويستخلص منه ما فيه من اسرار ، ثم يسعى للعمل على ذلك حتى يصل الى الغاية التي يقصدها ، والغرض الذي ينشده

وفي الهجرة عبر كثيرة ؛ ومغاز سامية ؛ لا تكفي مقالة لتعدادها . وانما نقتصر منها على ثلاثة أمور . وهي : ١ ـ الاعتماد على الله ، ٢ ـ والتضحية بالنفس ، ٣ ـ والعزيمة

الاعتماد على الله

فاما الاعتماد على الله . فهو سر النجاح في كل شيء لان الاعتماد على الله يكسب الانسان قوة ويا لها من قوة . فاذا تشبع الانسان به اقدم على العمل بنفس مطمئنة . وايمان ثابت . لا يخاف الا من الله . ولا يرهب الا من سطوته . واثقا من ان البشر لو اجمع انسهم وجنهم على ان ينفعوه بشيء لم يكتبه الله له لم يقدروا عليه . ولو اجمع انسهم وجنهم على ان يضروه بشيء لم يقدره الله له لم يتمكنوا منه . فعند ذلك يزول عنه الجبن والخوف والاستكانة ويصير عزيزا قويا مزدريا بالحوادث والاخطار

فهو اذا توجه توجه الى الله . واذا اعتمد اعتمد على الله . لا يفت شيء في ساعده . ولا يصده صاد عن البلوغ الى مقاصده

التضحية بالنفس

واما التضحية بالنفس . فهي الامر الذي يجب على كل انسان يريد النجاح ان يروض نفسه عليه . لانها كلمة جامعة تشمل ارتكاب الاخطار . ومفارقة الديار . وتحمل الاكدار . وايثار الغير بالمنفعة . وتجنب المطامع السافلة . والتحلي بجميع الكمالات والفضائل .

واذا بلغك عن امة انها تريد النهوض فابحث عن اصحاب الزعامة فيها فان كانوا ممن يضحون بانفسهم في سبيل المصلحة العامة ، فترقب لها النجاح ، وان كانوا من اصحاب المطامع ومن الذين لا يرضون بان يؤذوا ادنى اذاية . فاعلم ان طمعها في النهوض كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا

العزيمة

واما العزيمة فهي الشرط الذي لا بد منه في نجاح كل عمل . لان الانسان اذا اقدم على عمل وكان له عزم صادق في نجاحه يصل بحول الله الى غايته لا محالة . اذ صدق العزيمة هو الذي يذلل به الانسان كل امر صعب يعترضه في طريقه . فلا تؤثر المصاعب في عزيمته . ولا تصده الاخطار عن البلوغ الى غايته .

والعزيمة قوة يبعثها الله في الانسان فيضطلع باعباء الامور بنفس مطمئنة وعقيدة راسخة ، ولعظم أمرها مدح الله رسله عليهم الصلاة والسلام بانهم اصحاب العزم . اذ بدون عزيمة لا تنجح الاعمال . ولا يصل الناس الى ما يقصدونه من الآمال

فاذا أراد المسلمون ان يعتبروا بالهجرة . وان يسترجعوا مجدا اضاعوه . وعزة فقدوها . فليكن اعتمادهم على الله . وليعودوا انفسهم على التضحية . ولتكن لهم عزيمة صادقة ، فعند ذلك يحصل لهم التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم . ويحق لهم ان يطمعوا في النجاح ، ويترقبوا من ليلهم الذي طال امده ان ينجلي بالاصباح .

محمد المختار بن محمود

الاحتفال بعيد الهجرة ❀

باسمك اللهم نبتدىء مقالي ، ومنك نستمد الهداية والتوفيق ، وعليك الاعتماد في الارشاد الى اقوم طريق ، صراطك المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين

يا ايها السادة الاكارم

انكم حضرتم في هـذا الاحتفال البهيج ، البهيج في معناه ومغزاه ، البهيج في سعة مرمـاه ، ولبيتم صوت ضمائركم الطاهرة ، ونفوسكم المفعمة اخلاصا ومحبة لصاحب الرسالة الاعظم صلى الله عليه وسلم ، لتقيموا هذه الذكرى الخالدة ما دامت الارض والسماوات ذكرى هجرة الرسول الامين

وليس الاحتفال بالاعياد والذكريات ، واستيحاء العبر المشرفة ، قضية مستحدثة لا يعلمها المسلمون وانما سرت اليهم كما يزعم ذلك من جهل الاسلام فخفت عليه محاسنه التي اصبحت عنده في زوايا الاهمال ولو علم الناس ما شرعه الرسول من الاحتفال بذكرى نزول القرءان ، وبعبـارة بذكـرى نـزول الدين ، من كل عام في شهر رمضان ، وكيف سنه الله لرسولـه ، فبعث لـه الروح الامين ، يدارسه القرءان في خصوص ذلك الشهر العظيم من كل عام ، لادركوا أن ذلك من أوضاع الاسلام ، من قبل أن تخلق هذه المدنية باكثر من الف عام

أضف الى ذلك جواب عمر بن الخطاب لكعب الاحبار حين أورد عليه الايراد المشهور في آية (اليوم اكملت لكم دينكم) وقال له لو ان هذه الآية نزلت علينا يعني اليهود لاتخذنا ذلك اليوم يوم عيد يعني نحتفل فيه بذكرى يوم كمال الدين ، فاجابه ابن الخطاب بجواب من علم الشريعـة ظاهرهـا وخفيها ، وعلم أسرارها ومميزاتها ، بان ذلك اليوم الذي نزلت فيه تلك الآية الشريفة ، هو يوم عيد وذكرى بوضع آلهي ، وكفاه ذلك تشريفا وتعظيما ، وضروري ان يتخذه المسلمون كما شرع لهم

غاية ما هنالك ان المسلمين لما ضعفوا واقتبس من سواهم محاسنهم ، صار يظن ان ذلك لغيرهم وهم فيه تبع ، ثم بعد ذلك يترددون هل نسير على خطى الغير ام نسير على نحو ما تركنا عليه آباؤنا ، ان هذا لشيء عجاب

اما ذكرى الهجرة فيكفينا تنويها بهذا الحادث الخطير وتعظيما ان اتخذها المسلمون الاولون ، من المهاجرين والانصار بارادة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب مبدأ التاريخ الاسلامي وفي ذلك من الاشارة الى انهـا اخطر الحوادث واشرفها في الاسلام ، ضف الى ذلك ما فيها من تنبيه المسلمين على ممر العصور وتذكيرهم في كل عام بعيد عز الاسلام ،

❀ الخطاب الذي القاه مدير المجلة في الاحتفال العظيم الذي اقامته جمعية الشبان المسلمين بقاعة المحاضرات بقصر الجمعيات مساء يوم الخميس ثالث المحرم ،

الهجرة يا سادة ، عبرة بالغة واثر من آثار حياة الرسول المفعمة بالحوادث الجليلة وآية من الآيات البينات على مبلغ ايمان النبيء الامين ، وايمان اصحابه الغر الميامين

والايمان وحده هو الذي يبلغ الى أقصى حد الكمال البشري

فمتى آمن الانسان وأن السعادة في الخلود الى الشهوة أو الى ما تنعم به النفس من أنواع الترف سعى لها سعيها الذي يوحيه له ايمانه ، وكلما حاول غير ذلك استعصى عليه

وان هو آمن وان السعادة في حياة التقشف والزهد والاعراض عن العالم بما فيه من نعيم أو حجيم اوحى اليه ايمانه العزلة وأراه العالم على صورة لا يتسنى له أن يحي معها حياة التلذذ بنعيم الحياة ، وان أجهد نفسه كل الاجهاد ،

ومتى آمن وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، أوحى اليه ايمانه حياة العزة التي ارتضاها الله لرسوله وللمؤمنين ،

وبهذا الايمان تحلى الرسول ومن هذا الايمان غرف اصحاب الرسول ،

وهل بعد هذا الايمان يلتفت الى وطن او ابن او عشيرة او مال وبالاحرى الى شيء من متاع الحياة اذا كان ملطخا بسمة الهوان ؟

وهل بعد هذا الايمان ينظر الى رفاهية عيش اذا كان ملطخا بسمة الهوان ؟

وهل بعد هذا الايمان ينظر الى زوج او صاحب اذا كان ملطخا بسمة الهوان ؟

كلا ان وحي الايمان يا سادة شيء عظيم ،

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعالج المسلمين ليكون منهم نفوسا مؤمنة الايمان الكامل ، الايمان الصادق ، الايمان بالحق ، الايمان بالعزة ، الايمان بالقوة حتى أصبح المسلمون مثال الحق والعزة والقوة ،

وعلى هذا الصراط السوي نشؤا في الاسلام فلا جرم اذا رأيناهم يسترخصون كل عظيم في اعين غيرهم ويهجرون الاوطان وعز الاوطان ومنعة الأوطان ونعيم الاوطان وما اشتملت عليه الاوطان كما هجروا من قبل ما كان عليه الاولون من دين الاباء والاجداد والاعمام

كل ذلك بالايمان الذي أوحى اليهم الحق كما هو حق والعزة كما هي عزة والقوة كما هي قوة

أجل ان الهجرة يا سادة تذكرنا بعظمة الثبات على المبدا ، تذكرنا بجلال الحق وأنه يعلو على القوة متى وجد نفوسا تؤمن بالحق ولا يصدها أي خطر لاظهار الحق ، تذكرنا تلك المعركة الجبارة بين الهدى والضلال

تذكرنا ببطولة المرأة في الاسلام وبلائها في اعزاز هذا الدين البلاء الحسن (١)

تذكرنا ببطولة الصابرين وصدق عزيمة الرسول (اذ اخرجه الذين كفروا ثاني اثنين

(١) اشارة الى ما قامت به السيدة اسماء ذات النطاقين ابنة الصاحب ابي بكر الصديق رضي الله عنهما من الاعمال الجليلة عند الهجرة وما قام به نساء الصحابة في اعزاز الدين

اذ هما في الغار ، اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فانزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم)

حق يا سادة ان يقال ان الهجرة مبدأ عهد للانسانية جديد ، لمع نبراسه من غار ثور ، وشاع نوره من مسجد المدينة ، وظهر صارمه في بطاح بدر ، ورددت أنشودته الحماسية أصوات الفاتحين يوم فتح مكة وفي وادي اليرموك ويوم القادسية وحين اعتلوا على صور الشام .

فمن هناك انبعث الخير يغمر اقطار المعمورة ، ويحمل للعالم شريعة كلها أمن وعدل وسلام وحرية ، كلها هدى ونور وشفاء لما في الصدور

فلا جرم ان يكون عيد الهجرة من أسمى الاعياد قدرا ، وأنفعها ذكرى ، تفيض على المسلمين في مشارق الارض ومغاربها الغبطة والمرح ، وتامرهم بالسير في ذلك الطريق الذي عبد لهم يوم الهجرة الافخم ، وعلى ضوء شرعهم الوضاح ، الذي ما كسفت شمس هدايته ، بل ضربت على الابصار غشاوة لو تنبه لذلك الغافلون

سادتي ينازعنا في هذه الساعة عاملان عظيمان ، عامل السرور والابتهاج بهذا العيد الاوحد ، وعامل الحسرة والاسى على ما فرطنا في جانب دين الله ، على ما فرطنا من عز الاسلام ، على ما فرطنا من الاستهانة بالمسؤلية الملقات على كل احد من افراد الامة المحمدية ،

سادتي ان امر المسؤلية عظيم ، وما دام المسلمون يلقي كل فرد منهم المسؤلية على عاتق غيره ، كانه لا تبعة عليه كيف يكون العلاج ،

سادتي ان صرح الاسلام اقيم على عواتق الامة بأسرها ، فكيف ترومون اليوم أن ينهض به افراد من الامة ، بل كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، ولا يصلح آخر هذا الامة الا بما صلح به اولها

محمد الشاذلي ابن القاضي

المحاضرات الاسلامية

كانت وزارة الاوقاف المصرية اوكلت الى العالم الواعظ الشيخ محمد بن عبد الرحمن الجديلي مدير شؤون المساجد لوزارة الاوقاف ان يقوم بالقاء محاضرات دينية امام مذياع الحكومة المصرية فالقى فضيلته سلسلة محاضرات دينية اجتماعية تاريخية ادى بها اجل عمل نحو الامة الاسلامية . ومن احسن ممن دعى الى الله وعمل صالحا وانار السبيل . وتعميما للنفع قد جمع حضرته مجموع المحاضرات التي القاها واودعها في سفر واسماه «المحاضرات الاسلامية» وقد قامت جمعية الوعظ والدعوة الاسلامية ومجلة التقوى بمصر بطبعه ونشره

وقد اهدى الينا نسخة منه وبعد تصفحه الفيناه تضمن عشرين محاضرة كلها عيون حدثنا فيه عن اثر العقيدة في اصلاح المجتمع وبماذا نعرف الرجل المؤمن وعن نشوء الدعوة الاسلامية وكيف نهض الاسلام بالمجتمع كما حدثنا فيه عن شيء عظيم من حياة الرسول صلى الله عليه واصحابه الاكرمين الى غير ذلك من الابحاث الرائقة والحكم الجامعة

ونحن نثني على همة الشيخ العلية مؤملين منه مزيد الغور في هذا المضمار ولكتابه القيم ان ينتفع به المسلمون ويقدروه حق قدره

المقصد العظيم من الهجرة

بقلم صاحب الفضيلة الشيخ سيدي محمد
الطاهر ابن عاشور شيخ الاسلام المالكي

ان في كل شأن من شئون رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصها وعامها دلائل على أنه بمحل العناية من ربه تعالى تحقق معنى قوله تعالى « فانك بأعيننا » أي بمحل العناية منا (اذ حقيقة العين يستحيل إثباتها لله تعالى فتعين بحكم استعمال اللغة أن تكون العين في الآية مرادا منها لازم لازم حقيقتها وهو الاعتناء اللازم لمعنى المشايعة والمشايعة من لوازم النظر المراد من العين كما قال النابغة يخاطب النعمان بن المنذر :

رأيتك ترعاني بعين بصيرة وتبعث حراسا علي وناظرا)

ومن أعظم الشئون التي عرضت للرسول عليه السلام في رسالته شأن خروجه من وطنه في ذات الله تعالى وكان في ذلك الشأن من المقاصد الآلهية العظيمة ما لا يحيط به غير علام الغيوب فلا جرم أن نعد منها ما بلغ اليه العلم والهمه الفهم في هذا الوقت القصير . وعسى أن يكون في قليله تنبيه كثير . يفتح فهم الناقد البصير

الهجرة شنشنة من أحوال الرسل فقد هاجر ابراهيم واوط وهود وصالح وموسى ويونس ولكل وجهة وكل على هيئة وتلك الشنشنة هي التي أنبأت ورقة بن نوفل بأن محمدا عليه الصلاة والسلام سيسلك به ربه مسلك رسله « سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا » كان ورقة بن نوفل القرشي المتنصر في الجاهلية قد توسم من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرج أو يخرج من وطنه . ففي صحيح البخاري (ان رسول الله لما ذهب اليه باشارة خديجة رضي الله عنها وقص عليه رؤية الملك ونزول الوحي عليه في غار حراء قال له ورقة « هذا هو الناموس الذي أنزل على موسى يا ليتني اكون حيا اذ يخرجك قومك . قال رسول الله اومخرجي هم . قال ورقة : نعم لم يأت احد بمثل ما جئت به الا عودي وان يدركني يومك انصرك نصرا مؤزرا)

كان خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة نبذا منه لاهل الشرك وسخطا عليهم وتنزيها للدين عن البقاء بين أظهرهم واعلانا لسائر الناس بأن أمر هذا الدين ليس بالامر الهين فان الدعوة بالفعل مع القول أشد نفوذا الى النفوس من مجرد القول بحيث صارت الدعوة الاسلامية حادثا مشاهدا ومتحدثا به بعد أن كانت مسموعة لا غير ولذلك سمي هذا الخروج هجرة مشتقة من الهجر وهو قطع المعاشرة ولقد كانت باذن الله له بذلك حين تهيأت الاسباب التي أرادها الله تعالى كما انبأ به

حديث الهجرة في الصحيح ان رسول الله قال لابي بكر ان الله اذن لي في الهجرة ولم يكن ذلك الخروج فرارا وخشية من المشركين لان الله الذي عصمه منهم ثلاث عشرة سنة وهم يؤذونه بالقول ولا يقدمون على الحاق الضرر به قادر على اكمال عصمته منهم وخاصة بعد أن كثر اتباعه واعتزوا باقويائهم مثل عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب . وقد علم رسول الله أنه اذا خرج من بين قومه يعدون خروجه غلبة معنوية عليهم فيحاولون منعه فلذلك رأى أن كتمان أمره أعون على مراد الله من خروجه ورأى الاختفاء بعد الخروج ثلاث ليال بغار ثور أقطع لطماعية المشركين في اللحاق به وأعجز لهم في طلبه ولذلك كان يسير الليل ويستريح النهار وتلك ايضا عادة العرب في سيرها في وقت الحر وقد كانت الهجرة في زمن الحر

الهجرة مفارقة الوطن على نية عدم الرجوع اليه وأسبابها تارة تكون للطمع في نفع يحصل للمهاجر في الموطن الذي ينتقل اليه وتارة من كراهية الاقامة في الوطن لعداء بين المهاجر وقومه أو لاذى لحقه منهم وتارة لنشر دعوة أو اظهار فضيلة أو استنصار على عدو او غير ذلك فهي أخص من السفر ومن التغرب لان في السفر والتغرب أمل العود الى الوطن .

واياما كانت غايتها ومنفعتها فانها شديدة المضاضة على النفس لان في مفارقة الوطن مفارقة لاعلق البقاع بالقلب مما شب فيه المرء وألفه ومفارقة قرابته وجيرانه وأحبته وقد قال ابو الطيب وأجاد .

لولا مفارقة الاحباب ما وجدت لهى المنايا الى ارواحنا سبلا (١)

وسماها القرآن فتنة في قوله تعلى (والفتنة اشد من القتل) قال المفسرون أراد اخراج المؤمنين من بلادهم مكة ثم ان أسمى غاية يفارق المرء لاجلها وطنه وأقوى سبب يحدث عنه الشقاق بين المرء وذويه هو الذب عن الاعتقاد اذا بلغ عناد المخالفين فيه الى حد تحجير اظهاره والمضايقة فيه ومحاولة الارغام على تركه والتظاهر بما يخالفه وان المرء ليضجر لو أغمضت عيناه أو سدت أذناه وما هما الا بعض مظاهر ادراكه فكيف به اذا سد عليه قلبه وعقله ورأيه وأن أسمى العقائد وأقدس الآراء عقيدة الدين لتعلقها باشرف الموجودات ولتجردها عن الغايات المادية والمنافع العاجلة التي تلائم هناء المرء في عيشه ومسالمة دهماء قومه اياه فالاعتقاد الديني اعتقاد محبوب لاجل كونه حقا بحتا ولاجل كونه يرضي خالق الخلق ، وقد كانت الهجرة في الله للتمكن من تبليغ شرائعه ، وكان الاذى في الله لاجل ذلك سنة من سنن المرسلين فما من رسول الا وقد أوذي في الله وكذلك كثير من اصحاب الرسل أوذوا وهاجروا معهم وبدونهم . ولما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم واتبعه من اتبعه من قريش

(١) لهى اسم جمع لهاة بفتح اللام وهي الحلق والمنايا جمع منية وهي الموت وقد جمعها باعتبار متعلقاتها وهي نفوس الاحياء واثبت للمنايا حلوقا لانه قدر تشبيهها بسباع تبتلع الارواح على طريقة الاستعارة المكنية .

وتكاثروا وحاولوا اظهار دينهم بين مشركي أهل مكة لم يرض المشركون بذلك وكشروا للمسلمين عن أنياب العدوان وأخذوا يؤذون المسلمين بصنوف من الاذى كانت تزداد يوما فيوما بمقدار رسوخ المسلمين في الاستمساك بدينهم وكان المسلمون صابرين على أذى المشركين حتى بلغ الصبر غايته أذن رسول الله في سنة خمس لطائفة من المؤمنين المستضعفين والمقصودين بخاصة الاذى بالخروج من مكة ولم يخرج رسول الله حينئذ لانه في منعة بعمه ابي طالب فقال لاصحابه لو خرجتم الى ارض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه أفخرج من المسلمين يومئذ ثلاثة وثمانون رجلا وتسع عشرة امراة فتلك الهجرة الاولى . ثم لما اسلم الاوس والخزرج أذن الله لرسوله وللمؤمنين كلهم بالهجرة من مكة الى المدينة دار الاسلام . وقد قيل إن ذلك كان باقتراح من عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورجع مهاجرة الحبشة الى المدينة فكان حكم الهجرة من مكة واجبا على كل مسلم قال تعالى (والذين ءامنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) ودام ذلك الحكم الى فتح مكة .

كم من حكمة لله تعلى فيما اشتمل عليه حادث الهجرة من الاحوال وكم من نعمة أسداها لعبده ورسوله في تلك الهجرة دل بها على أنه بمحل عنايته وأنه متمم نوره ولو كره الكافرون قال تعلى وكان فضل الله عليك عظيما

الحكمة الاولى صرفه ألباب قريش وحذقهم عن ان يفكروا في قطع دابر أمر الاسلام قبل أن يكثر أتباعه وينتدب له أنصاره وتشتيته رأيهم في صده عن الخروج حتى مكنه الله منه وفي ذلك اليأس تهيئة لهم نحو الدخول في الاسلام .

الحكمة الثانية أن هيأ له أن تكون هجرته الى يثرب ولم يكن ذلك في باله أول وهلة ففي الصحيح عن أبي موسى الاشعري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (رأيت في المنام أني أهاجر الى أرض بها نخل فذهب وهلي الى أنها اليمامة أو هجر فاذا هي المدينة يثرب) فكان من تيسير الله أن ساق اليه النفر الستة الاولين من الاوس الذين أسلموا من أهل يثرب فان موقع المدينة كان وسطا من أرض العرب فكان بلوغ دعوة الاسلام الى بلاد العرب بانتشار شعاعي وهذا أيسر عموما مما لو كانت دار الهجرة اليمامة أو هجر في الطرف الشرقي الشمالي من بلاد العرب

الحكمة الثالثة أن أهل يثرب كانوا أقرب قبائل العرب لقبول شريعة الاسلام فانهم وان كانوا قبل الاسلام مشركين يعبدون مناة وغيرها الا انهم لشدة مخالطتهم لليهود وهم أهل كتاب كانت ءاذانهم قد اعتادت معالي التوحيد والشرائع فكانت نفوسهم مرتاضة الى ذلك

الحكمة الرابعة أن الله جعل للمسلمين من أهمية موقع المدينة من بلاد العرب سلطانا على اعدائهم

من قريش أهل مكة فان قريشا كانوا تجارا وكانت لهم رحلة في الشتاء الى اليمن للتجارة واخرى في الصيف الى الشام سن لهم ذلك هاشم بن عبد مناف جد النبيء صلى الله عليه وسلم وذلك هو المسمى بالايلاف (١) وكان مرورهم الى الشام على طريق المدينة من بطن عالج فلما صارت المدينة دار سلام وثبتت العداوة بين أهلها وبين قريش صارت قريش ترهب المرور على المدينة فانقطعت تجارتهم الى الشام وهي أهم تجارتهم وفي ذلك المعنى قال حسان بن ثابت مهددا لقريش

دعوا فلجات الشام قد حال دونها ... جلاد كأفواه المخاض الاوارك (٢)
بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم ... وانصاره حقا وأيدي الملائك
اذا سلكت للغور من بطن عالج ... فقولا لها ليس الطريق هنالك

الحكمة الخامسة انتقال الاسلام من طور الى طور أكمل منه هو الذي كان مقدمة كماله المعلن عليه يوم حجة الوداع بقوله تعالى «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي»

مضت مدة إقامة رسول الله بمكة والاسلام حيئنـد في طور كان فيه دينا مقتصرا على إصلاح العقيدة وتهذيب نفوس أتباعه وتطهير أخلاقهم في خويصتهم ومجتمعهم ودعوة المشركين الى الايمان بالله ورسله وما جاءوا به وتشهير فضائع أهل الشرك وضلالهم وسخافة رأيهم وذلك طور ابتدأ الله به الاسلام لينشأ منشأ سائر الكائنات من طفولة الى شباب الى كهولة (كذلك لنثبت به فؤادك) ولتهيئة قلوب المسلمين الى تلقي الشرائع وانتظام الجماعة فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة تطور الاسلام الى طوره الاشد فصار دينا وجامعة وشريعة وحكومة

الحكمة السادسة استقلال الاسلام وأمنه واعلان العبادة فشرع الاذان وأقيمت الجمعة ونحو ذلك

الحكمة السابعة تنظيم الجماعة في الاسلام من أول الهجرة بابتناء المساجد واقامة الائمة والقضاء ومشروعية المواساة بين المسلمين بالزكاة والصدقات وتنظيم قوانين العائلة من شرع تصحيح عقود الزوج وحقوق الزوجين والقرابة والمصاهرة الخ. وبالاستخلاف في تدبير الامور واقامة الاحكام في مغيب الرسول او في البعد عنه. وابتداء التشريع العام في أحكام المعاملات والجنايات ففي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت : انما نزل أول ما نزل من القرءان سورة من المفصل بين ذكر الجنة والنار حتى اذا ثاب إلى الاسلام نزل الحلال والحرام. الحكمة الثامنة تنظيم الدفاع عن الدين والامة بالتهيء لمقاومة المشركين من أهل مكة وأحلافهم اذا نووا ذلك وهم بوشك أن ينووه اذ هم من قبل قد ناووه

الحكمة التاسعة ايجاد مال للمسلمين لاقامة مصالحهم وعدة لنوائبهم مجتمعا من الزكاة والاوقاف ثم من المغانم والانفال. الحكمة العاشرة مخاطبة ملوك الارض ورؤساء الامم بالدعوة الى الدخول في دين الاسلام والاستظلال بالراية الاسلامية.

محمد الطاهر ابن عاشور

---

(١) الايلاف مصدر الف بمعنى الف الشيء وقد أشار اليه قوله تعالى لايلاف قريش وكان ذلك من خصائص قريش قال مساور بن هند العبسي يهجو بني أسد ويكذبهم في دعواهم انهم من نسل أسد بن عبد العزى من قريش

زعمتم أن اخوتكم قريش ... لهم إلف وليس لكم إلاف
أولئك اومنوا جوعا وخوفا ... وقد جاعت بنوا اسد وخافوا

(٢) الاوراك التي تأكل الاراك فيجرح لها افواهها فيسيل منها الدم

هجرة الصحابة الى الحبشة

بقلم العالم الشيخ ابراهيم النيفر المدرس
من الرتبة الاولى بجامع الزيتونة

(آلم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا ءامنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن آلكاذبين) (أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين ءامنوا معه متى نصر الله الا إن نصر الله قريب)

سنة الله في الذين خلوا من الانبياء والمرسلين ، ومن تبعهم من المؤمنين . يدعو الرسل قومهم الى الايمان ، وترك ما هم عليه من عبادة الاوثان ، واطراح ما الفوه من منكرات وفسوق وعصيان ، يأمرونهم بافراد الله بالعبادة ، ويرغبونهم في مكارم الاخلاق وفضائل الشيم . فيعظم ذلك على قومهم ، ويعز عليهم ترك ما ألفوه ووجدوا عليه ءاباءهم ، ويعجزون عن مقارعة الحجة بالحجة والبرهان بمثله فيعمدون الى سلاح العاجز يشتمون ويسبون ، ويضربون ويوذون . ويتطاولون على من قدروا عليه من المؤمنين يعذبونهم تعذيبا في سبيل الله ، فيصبر المؤمنون على ذلك ويرون العذاب عذبا ، ويستطيبون مرارة البلاء ، وهكذا الايمان اذا خالطت بشاشته القلوب وامتزج باللحم والدم وصار عقيدة راسخة في النفس ، لا تزعزعها المحن ولا تؤثر فيها البلايا ، حتى يظهر الله دينه وينصر رسله ويعز المؤمنين . سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا

لم يكن ليخرج سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عن هذه السنة ولا أصحابه الاكرمون . أو ذي صلى الله عليه وسلم فصبر صبر أولي العزم من الرسل ، ونكل قريش بمن ءامن من الصحابة تنكيلا بالضرب والتعذيب والقتل فما زاد ذلك النبيء صلى الله عليه وسلم الا ثباتا ، وما قابل الصحابة هذا الابتلاء الا بجلادة ، واضطروا الى الخروج من ديارهم ، والبعد عن أهلهم وترك أموالهم ، حتى نصرهم الله نصرا مبينا ، وردهم الى دورهم ودخلوا دخول الفاتحين

نزل جبريل الامين بالوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلمه أن الله اختاره واصطفاه ليكون رسولا للناس عامة ، يدعوهم الى خير دين عرفه العالم ، وأن يبدأ بدعوة الناس سرا ، فقام بما أمر به وصار يعرض نفسه على الناس فرادى وبقي كذلك ثلاث سنين ، دخل الناس فيها في الاسلام أرسالا رجالا ونساء حتى فشا ذكر الاسلام بمكة وتحدث به ، ثم أمره الله تعالى بالجهر بالدعوة والصدع بما أمر به حيث نزل عليه قوله تعالى « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » وقوله

تعالى « وأنذر عشيرتك الاقربين ، واخفض جناحك لمن أتبعك من المؤمنين ، فان عصوك فقل إني بريء مما تعملون »

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يصلون في الشعاب يستخفون بصلاتهم من قومهم حتى اطلع عليهم قريش يوما وفي المسلمين سعد بن أبي وقاص وهم يصلون فعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم فضرب سعد رجلا من المشركين بلحي(١) بعير فشجه. فكان أول دم اريق في الاسلام. لكن قريشا لم يبعدوا عن النبيء صلى الله عليه وسلم كثيرا ولم يردوا عليه لانه وإنْ دعا الى التوحيد فلم يذكر ءالهتهم ولم يعبها ، فلما فعل ذلك ونزل عليه من القرآن ما فيه ذم لها وتسفيه لاحلامهم ، عظم ذلك عليهم وأجمعوا على خلافه وعداوته . فحدب (٢) عليه عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه ومضى صلى الله عليه وسلم على أمر ربه لا يرده عنه شيء

فلما رأى ذلك قريش مشى جماعة منهم الى ابي طالب وقالوا له يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب ءالهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا فاما ان تكفه عنا وإما ان تخلي بيننا وبينه فردهم أبو طالب ردا جميلا فانصرفوا عنه ومضى صلى الله عليه وسلم يظهر دين الله ويدعو اليه، ثم شري(٣) الامر بينه وبينهم وأكثر قريش من ذكره صلى الله عليه وسلم فذهبوا الى أبي طالب ثانيا فقالوا له : يا أبا طالب إنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم ءابائنا وتسفيه أحلامنا وعيب ءالهتنا حتى تكفه عنا أو تنازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين. فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم لكن لم يطب نفسا بخذلان النبي صلى الله عليه وسلم فخاطبه في ذلك ، فقال له النبي : يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته ، فقال له أبو طالب : إذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك أبدا. فعرضوا على أبي طالب بعدئذ أن يأخذ عمارة بن الوليد ويسلم لهم النبي صلى الله عليه وسلم فغضب لذلك غضبا عظيما وامتنع فعاداه لذلك قريش وأشتد الامر بينه وبينهم. ووثب قريش على الذين أسلموا يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم. وكان أبو طالب يمنع النبي صلى الله عليه وسلم ودعا بني هاشم وبني عبد المطلب الى معونته على ذلك فاجابوه الاابا لهب. وفي ذلك يقول ابو طالب في قصيدة طويلة منها :

لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعنى بقول الاباطل
فاصبح فينا أحمد في أرومة ... تقصر عنه سورة المتطاول
حدبت بنفسي دونه وحميته ... ودافعت عنه بالذرا والكلاكل
فأيده رب العباد بنصره ... وأظهر دينا حقه غير باطل

ومع ذلك فانه صلى الله عليه وسلم لم يسلم من أذى قريش فقد كانوا يغرون به سفهاءهم.

(١) اللحي : العظم الذي على الخد. (٢) حدب عليه : تعطف. (٣) شري الامر : كثر وزاد

حدث ابن إسحاق بسنده الى عبد الله بن عمرو بن العاص قال : اجتمع يوما قريش في الحجر فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل ، سفه أحلامنا وشتم ءاباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب ءالهتنا . فبينما هم كذلك اذ طلع عليهم النبي صلى الله عليهم وسلم واستلم الركن وطاف بالبيت فغمزوه (١) ببعض القول وتكرر ذلك ثلاث مرات ، جاء من الغد فوثبوا اليه وثبة رجل واحد واحاطوا به يقولون له أنت الذي تقول كذا وكذا . فقال لهم : نعم . فأخذ رجل منهم بمجمع ردائه فقام أبو بكر دونه يقول لهم : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ثم انصرفوا عنه

وقال ابن هشام : أشد مالقي رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش أنه خرج يوما فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وآذاه فرجع عليه السلام الى منزله فتدثر من شدة ما أصابه فـانزل الله : يا أيها المدثر قم فأنذر . (وقيل ان سبب نزول الآية غير هذا)

ولما أسلم حمزة عرف قريش أنه عليه السلام عز وامتنع فكفوا عن بعض ما ينـالون منه وقد أراد أبو جهل أن يقتله يوما وهو ساجد بحجر كبير فرأى ما رأى ، رأى فحلا من الابل كاد أن يلتهمه فولى هاربا .

وكان أول من جهر بقراءة القرءان بمكة بعد النبي صلى الله عليه وسلم عبـد الله بن مسعود ، فقد روي أنه وقف عند المقام فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم . الرحمن علم القرءان الخ فقـاموا اليه يضربون وجهه فرجع للصحابة يقول لهم : ما كان اعداء الله أهون علي منهم الآن . ولما استمر المؤمنون على ثباتهم وثب قريش على ضعفائهم يعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة اذا اشتد الحر فما زادهم ذلك الا تصلبا في دين الله

هذا بلال بن رباح كان مملوكا لامية بن خلـف وكان صادق الاسلام طاهر القلب فكان أمية يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ويـأمر بالصخرة العظيمة توضـع على صدره ليرتد عن دينه وهو مع ذلك صابر يقول : أحد أحد ، حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه

وهذا عمار بن ياسر وأبوه وأمه كان يخرجهم بنو مخزوم يعذبونهم برمضاء مكة فيمر بهم عليه السلام فيقول لهم صبرا ءال ياسر موعدكم الجنة .

ولما رأى عليه السلام ما يصيب أصحابه من الاذى الذي لم ينله منه الا القليل لمكانته من ربه الذي سخر أبا طالب لحمايته ولم يكن صلى الله عليه وسلم يقدر على أن يمنعهم قال لهم : لو خرجتم الى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيـه ، فخرج عندئذ جماعة من المسلمين الى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرارا الى الله بدينهم فكانت أول هجرة

---

(١) غمزوه : ءاذوه

في الاسلام، وكان المهاجرون أحد عشر رجلا وأربع نسوة وفي رواية عشرة رجال وخمس نسوة تسللوا لواذا، منهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم ونزلوا بأرض الحبشة وأقاموا من ملكها أصحمة في خير جوار ثلاثة أشهر استراحوا فيها من أذى قريش وتمكنوا من اقامة دينهم والتجاهر بصلاتهم

وفي غيبة هؤلاء أسلم عمر بن الخطاب ودخل في الاسلام بالحمية التي كان يحاربه بها من قبل وأعلن أسلامه على رؤوس الملا وقاتل قريشا في سبيله وصلى في الكعبة مع المسلمين وبذلك خفف قريش من أذاية المسلمين لمكان عمر بن الخطاب من القوة والصلابة والشجاعة. فلما علم بذلك المهاجرون حنوا الى وطنهم وهم أقلية في دار غربة - وفي القلة وحشة - فرجعوا كلهم أو جلهم الى مكة. ولكن قريشا عادوا الى ايذاء المسلمين والى الامعان في عداوتهم أشد مما عرفوا من قبل. فعاد الى الحبشة منهم من عاد وبقي بمكة من بقي مستخفيا أو في جوار

وممن دخل في جوار : عثمان بن مضعون - دخل في جوار الوليد بن المغيرة لكنه رضي الله عنه لما رأى ما فيه اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاء وهو يغدو ويروح في أمان لجوار الوليد ابن المغيرة قال : والله إن غدوي ورواحي ءامنا بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والاذى في الله لنقص كبير في نفسي، فمشى الى الوليد بن المغيرة فقال له : يا ابا عبد شمس وفت ذمتك، قد رددت إليك جوارك. قال : لم يا ابن أخي لعله ءاذاك أحد من قومي. قال: لا، ولكني أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره. قال الوليد : فانطلق الى المسجد فاردد علي جواري. علانية كما أجرتك علانية. فانطلقا حتى أتيا المسجد فقال الوليد : هذا عثمان قد جاء يرد علي جواري قال : صدق، قد وجدته وفيا كريم الجوار ولكني أحببت ألا أستجير بغير الله فقد رددت عليه جواره. ثم انصرف عثمان ولبيد بن ربيعة في مجلس من قريش ينشدهم فجلس معهم عثمان فقال لبيد:

ألا كل شي ما خلا الله باطل

فقال عثمان صدقت. فقال : وكل نعيم لا محالة زائل

فقال عثمان كذبت نعيم الجنة لا يزول. قال لبيد : يا معشر قريش والله ما كان يؤذى جليسكم متى حدث هذا فيكم. فقال رجل من القوم : إن هذا سفيه في سفهاء معه قد فارقوا ديننا فلا تجدن في نفسك من قوله. فرد عليه عثمان وعظم الامر بينهما فقام اليه الرجل فلطم عينه فأصابها والوليد ابن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان فقال له : أما والله يا ابن أخي إن كانت عينك عما اصابها لغنية لقد كنت في ذمة منيعة. فقال عثمان : والله إن عيني الصحيحة لفقيرة الى مثل ما أصاب أختها في الله واني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس. فعرض عليه الوليد الرجوع الى الجوار فأبى

ولما رأى قريش أن ما ينالون به النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليس بحائل دون إقبال الناس على دين الله تفاوضوا في أمر جديد يصنعونه بهم واتفقوا بعد ذلك على التعاقد فيما بينهم على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب مقاطعة تامة أو يسلموا النبي صلى الله عليه وسلم. وكتبوا كتابا علقوه في الكعبة تسجيلا التزموا فيه أن لا ينكحوهم ولا ينكحوا اليهم ولا يبيعوا ولا يبتاعوا منهم. ظانين أن هذه السياسة الجديدة سياسة التجويع ستكون أبلغ أثرا من الاذاية. فانحاز بسبب ذلك بنو هاشم وبنو عبد المطلب الى شعب ابي طالب مؤمنهم وكافرهم ما عدا أبا لهب. وعندئذ أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ان يهاجروا للحبشة فهاجر منهم عدد كثير يبلغ ثلاثة وثلاثين رجلا وثماني عشرة امرأة منهم جعفر بن أبي طالب وزوجه وعبيد الله بن محجش وزوجه أم حبيبه التي تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم عقب وفاة زوجها الذي مات في مهجره بعث من يخطبها في الحبشة وزوجها النجاشي وبنى بها صلى الله عليه وسلم بعد عودتها بالمدينة. ثم لحق بهم من أسلم من الاشعريين الذين جاءوا من اليمن تحت رئاسة أبي موسى الاشعري

فلما رأى قريش أن المسلمين قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة وأنهم قد أصابوا بها دارا وقرارا ائتمروا بينهم أن يبعثوا رجلين منهم الى النجاشي فيردهم عليهم ليفتنوهم في دينهم ويخرجوهم من دارهم التي اطمأنوا بها وأمنوا فيها فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرا بن العاص وجمعوا لهما هدايا للنجاشي وبطارقته وهم وزراؤه. فلما علم بذلك أبو طالب بعث للنجاشي بابيات يحضه على حسن الجوار والدفع عنهم يقول في اخرها :

تعلم أبيت اللعن أنك ماجد ... كريم فلا يشقى لديك المجانب
تعلم بأن الله زادك بسطة ... وأسباب خير كلها بك لازب
وانك فيض ذو سجال غزيرة ... ينال الاعادي نفعها والاقارب

فلما قدم الرسولان أرض الحبشة سلما الى كل بطريق هديته قبل أن يكلما النجاشي وقالا لكل بطريق إنه قد لجأ الى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم وقد بعثنا الى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم اليهم فاذا كلمنا الملك فيهم فاشيروا عليه بأن يسلمهم الينا ولا يكلمهم فان قومهم أعلم بما عابوا عليهم. فقالوا لهما نعم. ثم قابلا الملك وقدما اليه الهدايا وخاطباه في شأن المسلمين وأن يردهم. فقال له بطارقته : صدقا أيها الملك ، قومهم أعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم اليهما. فغضب النجاشي وقال : لاها الله ، قوم جاوروني في بلادي واختاروني على من سواي لا أسلمهم حتى أدعوهم فأسألهم عما يقولى هذان في أمرهم ، فان كانوا كما يقولان أسلمتهم وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني. ثم أرسل الى المسلمين فلما جاءهم رسوله اجتمعوا وقال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه.

قالوا : نقول والله : ما أمرنا به نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن . فلما حضروا بين يديه وعنده أساقفته قال لهم : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا ديني ولا دين أحد من هذه الملل . فكلمه جعفر بن أبي طالب وقال له : أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الاصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الارحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وءاباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام (١) فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله . الى أن قال : فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الاوثان من عبادة الله وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا ان لا نظلم عندك أيها الملك . فقال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء . فقال له جعفر : نعم . فقرأ عليه سورة مريم من أولها الى قوله تعالى : (فأشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا . قال إني عبد الله ءاتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا . والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكى أساقفته وقال النجاشي : إن هذا والله الذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة . إنطلقا فوالله لا أسلمهم اليكما . فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غدا عنهم بما أستأصل به خضراءهم . فغدا عليه من الغد وقال له : أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما . فأرسل اليهم النجاشي ليسألهم فاجتمعوا وقرروا أن لا يقولوا الا ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم . فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون في عيسى بن مريم . فقال جعفر بن أبي طالب : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته القاها الى مريم العذراء البتول . فضرب النجاشي يده الى الارض فأخذ منها عودا وخط به في الارض وقال وقد بلغت منه المسرة أكبر مبلغ : ليس بين دينكم وديننا أكثر من هذا الخط . ثم قال للمسلمين : اذهبوا فأنتم شيوم (٢) بارضي من سبكم غرم ثلاث مرات . ما أحب أن لي دبرا (٣) من ذهب وأني ءاذيت رجلا منكم . فرجع الرسولان خائبين وأقام المسلمون خير مقام حتى هاجر صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة فأخذوا يرجعون شيئا فشيئا حتى السنة السابعة من الهجرة عند ما بعث النبي صلى الله عليه وسلم عمر ابن امية الضميري بكتاب الى النجاشي يقول فيه :

---

(١) انظر قوله والصيام والزكاة مع أنهما شرعتا بعد الهجرة (٢) شيوم : ءامنون بالحبشة . (٣) دبر - بالفتح والكسر - جبل بالحبشة

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى النجاشي عظيم الحبشة سلام

أما بعد فاني أحمد اليك الله الذي لا إله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده . وإني أدعوك الى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتوقن بالذي جاءني فاني رسول الله وإني أدعوك وجنودك الى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى .

ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث اليه بكتاب ءاخر يطلب اليه رد من بقي من المسلمين الذين أقاموا بالحبشة الى المدينة . فقبل النجاشي الرسول والكتابين بغاية الاحترام وأسلم هو وقال لعمرو إني أعلم والله أن عيسى بشر به ولكن أعواني بالحبشة قليل فانظر حتى أكثر الاعوان وألين القلوب . وجهز للمسلمين سفينتين حملتاهم وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب ومعهم أم حبيبه رملة بنت أبي سفيان بعد أن مات زوجها . وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى عليه صلاة الغائب عند موته . ولما قدم بقية مهاجري الحبشة فرح بهم أخوانهم المؤمنون فرحا شديدا وقام النبي صلى الله عليه وسلم لجعفر وعانقه وقال له : لا أدري بأي شيء أنا أشد فرحا بلقياك أم بالنصر على خيبر . لان ذلك كان عقب فتح خيبر .

ابراهيم النفير

بلاؤه وحلمه

صلى الله عليه وسلم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخفت في الله وما يخاف أحد ، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ، ولقد أتت علي ثلاثون ما بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال .

وقال أنس رضي الله عنه : كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجراني غليظ الحاشية ، فادركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة ، فنظرت الى صفحة عاتق النبي صلى الله عليه وسلم وقد أثرت فيها حاشية الرداء من شدة جبذته ، ثم قال الاعرابي : يا محمد مرلي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه فضحك ، ثم أمر له بعطاء .

ولما رجع من حنين جاءت الاعراب يسالونه حتى اضطروه الى شجرة ، فخطفت رداءه ، فوقف صلى الله عليه وسلم وقال : أعطوني ردائي ، لو كان لي عدد هذه العضاة نعما لقسمتها بينكم ، ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا .

ابتلاء الرسول

صلى الله عليه وسلم سنة الله في المرسلين

يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك • وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس

كان عبد المطلب بن هاشم القرشي العظيم ، والعربي الصميم ، وجد الرسول الكريم ، طيب النفس كريم السجايا بسط اليد وهو مع ذلك سيد قريش وامامها في نسكها وزعيمها عند الخطوب تلك الزعامة التي نالها عن جدارة جده الاعلى قصي وورثها عنه اجداد عبد المطلب وانتهت الى عبد المطلب لم ينازعه منازع ولم يدانه قريب او بعيد وظل عبد المطلب مسموع الكلمة محبوبا في قومه معزز الجانب بما وجدوه فيه من كريم الصفات وبعد النظر والسعي الى الصالح العام الى ان هم بحفر زمزم المباركة تلك البئر التي اظهرها الله لام جده اسماعيل وطمستها جرهم لما احست بالغلبة واضطرت لمفارقة مكة والجلاء عنها فعزم على حفر البئر التي ستسهل عليه القيام بوظيفته التي انتدب اليها وقدكانت له رفادة الحاج وسقايته بعد عمه المطلب فقام بها احسن قيام ولاقى في سقاية الحاج كل مشقة لفقدان الماء بمكة واستعان على الحفر بابنه الحارث الذي لم يكن له في ذلك الحين سواه ولما علمت قريش من شان عبد المطلب ما علمت اقبل شيوخها وشبابها على البيت العتيق فالفوا عبد المطلب ومعه ابنه وبايديهما السيوف والدروع وقطع الذهب التي دفنتها جرهم في زمزم عند مبارحتها لمكة فثارت ثائرة قريش لمن سيكون هذا الكنز الذي ظهر في ارض المسجد والمسجد حرم عام لا يتفوق فيه أحد على أحد

هنالك أحس عبد المطلب بضعف في جانبه ، وأشفق من قلة الولد ودعا ربه أن يرزقه أبناء يشدون أزره ويحمونه في الشدائد فعزم على التزوج ثانيا وتزوج من فاطمة ابنت عمر بن عائد المخزومي واستولدها ابا طالب وعبد الله والزبير وتزوج نتيلة العمرية واستولدها العباس وضرار وتزوج هالة بنت وهب واستولدها حمزة والمقوم وتزوج امة لبني الخزاعية استولدها ابا لهب وتزوج ممنعة واستولدها الغيداق وبذلك تم له عشرة ابناء سوى النسوة اللاتي ولدن له وهن ستة صفية وام حكيم وعاتكة وأميمة وأروى وبرة

اما حمزة فقد اسلم وحسن اسلامه وكان من المهاجرين الاكرمين واستشهد ببدر وحزن عليه رسول الله حزنا شديدا

واما العباس فكان له مع النبي ذلك الموقف المشهود يوم بيعة العقبة . وقد اختلفت الرواية في وقت اسلامه أكان ليلة العقبة ام بعد ذلك (ولم يسلم من أعمام الرسول سواهما وأسلمت من عماته صفية أم الزبير بن العوام)

واما أبو طالب فهو الذي كفل النبي بعد موت عبد المطلب وقدكانت لابي طالب المواقف المشرقة في أعزاز جانب الرسول ومناصرته والحيلولة دونه وقريش وحادث الصحيفة يدلنا على مبلغ عناية أبي طالب رأس الهاشميين بالنبي صلى الله عليه وسلم

وأبلغ ما يعبر عن ذلك قصيدته التي قال فيها

خليلي ما اذني لاول عاذل — بصغواء في حق ولا عند باطل (١)
ولما رايت القوم لاود عندهم — وقد قطعوا كل العرى والوسائل (٢)
وقد صارحونا بالعداوة والاذى — وقد طاوعوا امر العدو المزايل (٣)
صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة — وابيض عضب من تراث المقاول (٤)
اعوذ برب الناس من كل طاعن — علينا بسوء او ملح بباطل

❀ ❀ ❀

كذبتم وبيت الله نبزى « محمدا » — ولما نطاعن دونه ونناضل (٥)
ونسلمه حتى نصرع حوله — ونذهل عن ابنائنا والحلائل (٦)

❀ ❀ ❀

وما ترك قوم لا ابا لك سيدا — يحوط الذمار غير ذرب مواكل (٧)
وابيض يستسقي الغمام بوجهه — ثمال اليتامى عصمة للارامل (٨)
يلوذ به الهلاك من آل هاشم — فهم عنده في رحمة وفواضل (٩)
حليم رشيد عادل غير طائش — يوالي إلها ليس عنه بغافل
لقد علموا ان ابننا لا مكذب — لدينا ولا يعنى بقول الاباطل (١٠)
فأيده رب العباد بنصره — وأظهر دينا حقه غير ناصل (١١)

---

(١) بصغواء اي بمصغية اي لا اميل اذني لاول عاذل في حق ولا باطل (٢) القوم كفار قريش واراد بالعرى العهود مجازا والوسائل جمع وسيلة وهي ما يتقرب به (٣) صارحونا كاشفونا بالعداوة صريحا. والمزايل اسم فاعل من زايله اي فارقه وباينه وذلك اذا صرح بالعداوة (٤) صبرت حبست والسمراء القناة. سمحة اي لينة وابيض عضب اي سيف قاطع والمقاول جمع مقول بكسر الميم وهو الرئيس اراد بهم ءاباءه (٥) نبزى بالبناء للمفعول اي نغلب ونقهر عليه وهو جواب القسم على تقدير لا النافية على حد (تالله تفتؤ) ولما نافية والمطاعنة المراشقة بالرماح والمناضلة التراشق بالسهام (٦) نسلمه اي نخذله عطف على نبزى فيكون شريكه في النفي ونصرع ونذهل بالبناء للمفعول والحلائل جمع حليلة وهي الزوجة . قال عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب لما اصيب يوم بدر انا احق بما قال ابو طالب كذبتم وبيت الله نبزى محمد البيتين (٧) ما استفهامية تعجبية والذمار ما يجب على المرء ان يحميه. ويحوطه يرعاه والذرب البذي اللسان والمواكل اسم فاعل من واكلت فلانا مواكلة اذا اتكلت عليه واتكل عليك (٨) وابيض عطف على سيدا الذي اراد به النبي صلى الله عليه وسلم والمراد به الكريم والثمال العماد والعصمة ما يعتصم به ويتمسك والارامل جمع أرملة وهي التي لا زوج لها وقال ابن السكيت الارامل المساكين رجالا كانوا او نساء (٩) الهلاك الفقراء (١٠) يعنى بالبناء للمفعول من عني بالشيء اهتم به اي لا يهتم بالاباطيل (١١) الناصل الزائل المضمحل ومنه نصل الشعر اي زال عنه الخضاب

فوالله لولا ان اجيء بسبة تجر على اشياخنا في القبائل (١)
لكنا اتبعناه على كل حالة من الدهر جدا غير قول التهازل

❀ ❀ ❀

لعمري لقد كلفت وجدا (باحمد) واخوته دأب المحب المواصل (٢)
فلا زال في الدنيا جمالا لاهلها وزينا لمن ولاه ذب المشاكل (٣)
حدبت بنفسي دونه وحميته ودافعت عنه بالذرى والكلاكل (٤)

واما أبو جهل فهو الرجل الذي انتصب لمقاومة الدعوة التي جاء بها الرسول الامين ومقارعة النبي لا بالحجة والدليل بل بالعنف والاذى قولا وفعلا

وبقدر اخلاص ابي طالب للنبي ومناصرته له كانت مقاومة أبي جهل أو أشد فناصبه العداء من يوم أعلن الرسول فيه الدعوة لدين الله يوم نادى في قريش بكلمة التوحيد جهرا وصدع بما امره الله به ونادى في الناس بشيرا ونذيرا

وظهرت بوادر خبثه في حادثة المقاطعة واعلان الصحيفة وذلك سنة سبع من النبوة - ٦١٧ م. حيث كان ناسج بردتها وناوى قومه وسل نفسه من عشيرته وارتضى ان يكون زعيم المنشقين الضالين . وابتدع لقريش المقاومة السلبية ظنا منه أن ذلك سيحملهم على ترك النبي وشانه . ويتخلى أبو طالب عنه وبذلك يتمكن مما هو عازم عليه من المكر والغدر

ولما فشل في هذه السياسة التي عادت عليه ومن لف لفه بالفشل والخيبة عمد الى التشهير بالكذب على الرسول ورميه بكل نقصية افتراء عليه ليوهن الدعوة ويضل العرب عامة وقريشا على الخصوص . وجعل عيونا يترصدون النبي صلى الله عليه وسلم في غدوه ورواحه وحيثما ارتحل وأين نزل . فيتابعه في أسفاره ويسبقه الى المجتمعات لينشر ترهاته الضالة بين القبائل وفي المجتمعات حتى لا يجد الرسول اذنا صاغية لسماع ما سيتلوه عليهم من الذكر الحكيم لما يعلمه أنهم اذا سمعوا القرءان ءامنوا به فيقوم هو حائلا لا يترك من يجتمع بالرسول ويحذرهم تحذيرا .

واستمروا على طريقتهم في المقاومة السلبية بهذا النوع من التضليل الى ان مات ابو طالب (٥)

---

(١) السبة العار وتجر بفتح الجيم من جر عليهم جريرة اي جنى جناية وفي القبائل اي بين القبائل
(٢) اراد باخوته اولاده جعفر وعقيل وعلي جعلهم إخوته لانه كان متبنيا له (٣) الذب الدفع (٤) حدبت تعطفت والذرى جمع ذروة اعلى الشيء والكلاكل جمع كلكل بمعنى الصدر

(٥) توفى ابو طالب بعد النبوة بعشر سنين وقبل الهجرة بثلاث سنين وقد بلغ من العمر نحو ثمانين سنة. وبعد وفاته بثلاثة أيام توفيت خديجة زوج النبي رضي الله عنها ولها من العمر خمس وستون سنة . وقد عاشرت رسول الله صلى الله عليه وسلم اربعا وعشرين سنة وستة اشهر وايدته في الدعوة بكل ما لها من قوة ومال سيما عند المقاطعة فقد أنفقت هي وابو طالب المال الكثير . فكان لوفاتهما رنة أسى وسمي ذلك العام بعام الحزن

فحسب ابو لهب كما سماه القرءان انه قادر على تنفيذ خطته الاولى فانبرم للنبي ولكن الله عصمه من الناس فانى لابي لهب وأبي جهل وأمثالهما أن ينالوا من رسوله وحبيبه وصفيه ما يريدون

فدبروا المكائد وأجهدوا انفسهم في النيل منه والحاق الاذى به. وتحمل صلى الله عليه وسلم كل ما دبره له بعزم صادق وايمان لا تزعزعه الرواسي الشامخات . وهو في كل يوم يزداد قوة والاسلام يزداد انتشارا رغم أنف أبي جهل وحزبه . وأعيتهم الحيل فلم يجدوا سبيلا لاطفاء نوره والله متمم نوره ولو كره الكافرون

ولكن جرت سنة الله في رسله والمقربين من خواص عباده أن يبتليهم ليزدادوا قوة وايمانا ويكونوا أعظم قدوة لمن يروم السعادة لنفسه وللناس أجمعين

فهذا الامام مسلم يحدثنا في صحيحه من طريق عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس ذات يوم فقال في خطبته الا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا . كل مال نحلته عبدا حلال (١) واني خلقت عبادي حنفاء كلهم (٢) وانهم أتتهم الشياطين فاحتالتهم عن دينهم (٣) وحرمت عليهم ما أحللت لهم وامرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا . وأن الله نظر الى أهل الارض فمقتهم (٤) الا بقايا من أهل الكتاب (٥) وقال إنما بعثتك لابتليك وأبتلي بك . وانزلت عليك كتابا (٦) لا يغسله الماء (٧) تقرؤه نائما ويقظان (٨) الى ان قال : استخرجهم (٩) كما استخرجوك وأغزهم نغزك (١٠) وأنفق فسننفق عليك . وابعث جيشا نبعث خمسة مثله (١١) وقاتل بمن اطاعك من عصاك قال : وأهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط متصدق موفق . ورجل رحيم رفيق القلب لكل ذي قربى ومسلم . وعفيف متعفف . قال وأهل النار خمسة الضعيف الذي لا زبر (١٢) له الذين هم فيكم تبع لا يبتغون أهلا ولا مالا (١٣) والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق الاخانة (١٤) ورجل لا يصبح ولا يمسي الا وهو يخادعك عن أهلك ومالك . وذكر البخل أو الكذب والشنظير (١٦) الفاحش

---

(١) اي ما اعطيته عبدا فهو مال حلال له وهو رد على المشركين فيما احلوه لانفسهم وما حرموه من السائبة والوصيلة والبحيرة والحامي الى غير ذلك . (٢) اي مؤمنين واخذ عليهم العهد بذلك كما يشير اليه قوله تعالى : قال الست بربكم قالوا بلى . اي نعم انت ربنا . (٣) أي استخفوهم عن دينهم وازالوهم عما كانوا عليه وساقوهم معهم الى الباطل . (٤) أي بغضهم بسبب ما غيروا . (٥) أي اهل الاديان السماوية الذين بقوا متمسكين بدينهم الحق من غير تبديل الى بعثة النبي . (٦) أي القرءان . (٧) كناية عن حفظ الله له لا يتطرقه التبديل ولا التغيير على ممر الزمان . (٨) أي في سائر الحالات (٩) أي قريش . (١٠) أي نعينك (١١) أي من الملائكة مسومين . وذلك الامر بعد فرض الجهاد وغزوة بدر الذي نصره الله فيها . (١٢) أي لا عقل له يزبره ويمنعه من الكفر والمحارم (١٣) اي ضعفاء العقول فلا يسعون في تحصيل نفع يرجع الى الدين او الدنيا لا يبالون بما يكونون عليه من كفر أو غيره او حرام أو حلال فهم مع الناس وهم في الواقع كالانعام بل هم أضل سبيلا . (١٤) لا يخفي اي لا يظهر . وهو من الاضداد يستعمل في الستر والظهور (١٥) الفحاش السيء الخلق

فهذا الحديث القدسي بما تضمنه من التعاليم السامية قد تضمن ايضا أن من متممات البعثة الابتلاء، وكذلك شأن الانبياء والمرسلين من قبل

فهذا نوح قد ابتلاه ربه فكان من الصابرين. ونجاه الله وأهله من الكرب العظيم.

وهـذا ابراهيم عليه السلام إبتـلاه ربه بنـار نمروذ بن كنعان التي سلمه الله منها وكانت بردا وسلاما على ابراهيم

وهذا أيوب (إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الرحمين. فاستجبنا لـه فكشفنا ما بـه من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين)

وهذا لوط وصالح وثمود وموسى ويوسف وعيسى كل وقع له الابتلاء فما زادهم الا إيمـانا وتثبيتا لما قاموا به من الدعوة لدين الله وبذلك نالوا المقام الاسمى ووصفهم الله في محكم التنزيل بأنهم أولو العزم

وعلى غرارهم كان الرسول الامين فيما لاقاه من قومه المشركين وفي مقدمتهم أبو جهل فما زالوا يترصدون به صلى الله عليه وسلم الفرص للايقاع به

فهذا ابو جهل فرعون هذه الامة (١) وأصحابه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة ابن ابي معيط وعمارة بن الوليد يتآمرون في بيت الندوة ثم يخرج أبو جهل في رفقـة أصحابـه ويحضرون عند المسجد الحرام يترصدون مقدم النبي صلى الله عليه وسلم فأبصروه مسرعا الى البيت العتيق فتغامزوا يشير بعضهم الى بعض حتى اذا حضر صلى الله عليه وسلم وأخـذ مكانه من الركن وشرع في صـلاته أسر بعضهم الى بعض أيكم يجيء بسلى جـزور بني فـلان الـذي نحروه أمس فيضعه على ظهر محمد إذا سجد. فانبعث عقبة بن ابي معيط مسرعا فجاء به، وتربص حتى اذا سجد النبي صلى الله عليه وسلم وضعه على ظهره المقدس بـين كتفيه الشريفتين . وجعلـوا يضحكون ويستهزئون تشفيا بما أغاضهم. وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ساجدا لا يرفع رأسه حتى أقبلت فاطمة البتول فطرحت عن ظهره صلى الله عليه وسلم ما وضعه ذلك الشقي(٢)

وليس ذلك كل ما لاقى صلى الله عليه وسلم بل نقلت الينا كتب السنة الشيء الكثير وأعظم إذاية في نظر الصحابة لحقت رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش ذلك الموقف الذي وقفه عقبة بن ابي معيط من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي وحضره أبو بكر فألفاه ممسكا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وضع الخبيث ثوبه في عنقه الشريف وقد خنقه به خنقا شديدا فأخذ أبو بكر بمنكب عقبة ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله . اعتبارا بما عزم عليه عقبة من الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم والغدر به وهو في الصلاة (٣)

ولما أعيتهم الحيل وأدركوا ما بلغ اليه أمر الاسلام من المنعة بعد بيعة العقبة عقدوا ذلك الاجتماع الرهيب في دار الندوة الذي أسفر عن مؤامرة تشترك فيها بطون قريش كلها وينفذ الخطة شبابها العتيد كما يزعمون وتقوم الدية مقام القتال لو طالبهم آل هاشم وثارت ثائرتهم إن قتلوا رسول الله

ولكن الله خيب ظنونهم فذهبت ادراج الرياح وأوحى الى نبيه ما بيتوه لـه من المكر وذلك قوله تعالى : وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين. وعصمه الله وذلك قوله تعالى : والله يعصمك من الناس. وأذن له في الهجرة ونصره عليهم وذلك قوله تعالى الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ همـا في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا.

محمد الشاذلي ابن القاضي

---

(١) ذلك الاسم أطلقه عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رآه صريعا في قليب بدر (٢) حديث رواه الشيخان وغيرهما من أصحاب السنن. (٣) الحديث رواه البخاري وغيره

وصف هجرة النبي

صلى الله عليه وسلم الى المدينة

من قلم الامام محمد بن اسماعيل البخاري

حَدَّثَنَا يَحْيَى بنُ بُكَيْرٍ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ قَالَ ابنُ شِهَابٍ فَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ : لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ (أي الاسلام) وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرَفَيِ النَّهَارِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً فَلَمَّا ابْتُلِيَ الْمُسْلِمُونَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا نَحْوَ أَرْضِ الْحَبَشَةِ حَتَّى بَلَغَ بَرْكَ (١) الْغِمَادِ لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ وَهُوَ سَيِّدُ الْقَارَةِ (٢) . فَقَالَ : أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَخْرَجَنِي قَوْمِي فَأُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الْأَرْضِ وَأَعْبُدَ رَبِّي . فَقَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ : فَإِنَّ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ وَلَا يُخْرَجُ إِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ (٣) وَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ (٤) وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ . فَأَنَا لَكَ جَارٌ (٥) ارْجِعْ وَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبَلَدِكَ . فَرَجَعَ وَارْتَحَلَ مَعَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ . فَطَافَ ابْنُ الدَّغِنَةِ عَشِيَّةً فِي أَشْرَافِ قُرَيْشٍ فَقَالَ لَهُمْ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلَا يُخْرَجُ . أَتُخْرِجُونَ رَجُلًا يَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَيَصِلُ الرَّحِمَ وَيَحْمِلُ الْكَلَّ وَيَقْرِي الضَّيْفَ وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ . فَلَمْ تُكَذِّبْ قُرَيْشٌ بِجِوَارِ ابْنِ الدَّغِنَةِ . وَقَالُوا لِابْنِ الدَّغِنَةِ . مُرْ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَلْيُصَلِّ فِيهَا وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ وَلَا يُؤْذِينَا بِذَلِكَ وَلَا يَسْتَعْلِنْ بِهِ فَإِنَّا نَخْشَى أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا . فَقَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدَّغِنَةِ لِأَبِي بَكْرٍ فَلَبِثَ أَبُو بَكْرٍ بِذَلِكَ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ وَلَا يَسْتَعْلِنُ بِصَلَاتِهِ وَلَا يَقْرَأُ فِي غَيْرِ دَارِهِ ثُمَّ بَدَا لِأَبِي بَكْرٍ فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ (٦) دَارِهِ وَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَيَنْقَذِفُ (٧) عَلَيْهِ نِسَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ وَهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْهُ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ـ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَّاءً لَا يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ ـ فَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَرْسَلُوا إِلَى ابْنِ الدَّغِنَةِ فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا إِنَّا كُنَّا أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ بِجِوَارِكَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَقَدْ جَاوَزَ ذَلِكَ فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ فَأَعْلَنَ بِالصَّلَاةِ وَالْقِرَاءَةِ فِيهِ وَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا فَانْهَهُ فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَعَلَ وَإِنْ أَبَى إِلَّا أَنْ يُعْلِنَ بِذَلِكَ فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ . فَإِنَّا قَدْ كَرِهْنَا

(١) هو موضع بارض اليمين . والغماد موضع على خمس ليال من مكة الى جهة اليمن (٢) قبيلة من بني الهون (٣) وفي رواية المعدم (٤) هو ما يثقل حمله من القيام بشؤن العيال ونحوه (٥) اي مجير امنع من يؤذيك . (٦) السعة حول الدار (٧) يتساقطون عليه

أَنْ نخفِرَكَ (١) وَلَسْنَا مُقِرّينَ لأَبِي بَكْرٍ الاسْتِعلان. قالَتْ عائِشَةُ فَأَتَى ابْنُ الدّغِنة إِلَى أَبِي بَكْرٍ فقَالَ: قَدْ عَلِمْتَ الّذِي عَقَدْتُ لَكَ عَلَيْهِ فإمّا أَن تَقتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ وإِمّا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيّ ذِمّتِي فَإِنِّي لا أُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ الْعَرَبُ أَنِّي أُخْفِرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَإِنِّي أَرُدُّ إِلَيْكَ جِوارك وَأَرْضَى بِجِوَارِ اللهِ عَزّ وَجَلّ - وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَوْمَئِذٍ بِمَكّة - فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لِلْمُسْلِمِينَ إِنِّي أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ ذَاتَ نَخْلٍ بيْنَ لابَتَيْنِ وَهُمَا الحَرّتانِ . فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ قِبَلَ الْمَدِينَةِ وَرَجَعَ عَامّةُ مَنْ كانَ هَاجَرَ بِأَرْضِ الحَبَشَةِ إِلَى المدِينَةِ وَتجهّزَ أَبُو بَكْرٍ قِبَلَ الْمَدِينَةِ (٢) فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رِسْلِكَ (٣) فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤذَنَ لِي. فقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَهَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ (٤) قَالَ نَعَمْ فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٥) لِيَصْحَبَهُ وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ - كَانَتَا عِنْدَهُ - وَرَقَ السَّمُرِ (٦) أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ . قَالَ ابْنُ شِهَابٍ قَالَ عُرْوَةُ قَالَتْ عَائِشَةُ فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ (٧) قَالَ قَائِلٌ لأَبِي بَكْرٍ: هَذَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَقَنِّعًا (٨) - فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا - فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي وَاللهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ الا أَمْرٌ. قَالَتْ عَائِشَةُ فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ فَدَخَلَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأَبِي بَكْرٍ أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ . قَالَ : فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : الصَّحَابَةَ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ . قَالَ رَسُولُ اللهِ : نَعَم . قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَخُذْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : بِالثَّمَنِ . قَالَتْ: عَائِشَةُ فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ (٩) الجِهَازِ وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا (١٠) فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الجِرَابِ - فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقِ (١١) قَالَتْ عَائِشَةُ : ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ فَكَمَنَا فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللهِ بنُ أَبِي بَكْرٍ وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌّ ثَقِفٌ (١٢) لَقِنٌ (١٣) فَيُدْلِجُ (١٤) مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ فَلَا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ (١٥) إِلَّا وَعَاهُ حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ . وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً (١٦) مِنْ غَنَمٍ فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ

---

(١) أي نتقض عهدك (٢) أي قاصدا الرحيل اليها (٣) أي مهلك (٤) أي أفديك بابي (٥) أي منعها من الهجرة (٦) شجر الطلح (٧) أي في أول وقت حرارة الشمس (٨) أي مغطيا رأسه (٩) من الحث وهو الاسراع (١٠) هو ازار فيه تكة تلبسه النساء (١١) وفي رواية ذات النطاقين لأنها بعد ان قطعت من نطاقها شقت المقطوع الى قطعتين (١٢) معتدل القامة (١٣) سريع الفهم (١٤) أدلج سار في أول الليل وادلج بتشديد الدال سار من آخره (١٥) أي يطلب المكر بهما (١٦) اي قطعة

فَيَبِيتَانِ فِي رِسْلٍ وَهُوَ لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا (١) حَتَّى يَنْعِقَ (٢) بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ . وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدِّيلِ وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ هَادِيًا خِرِّيتًا - وَالْخِرِّيتُ الْمَاهِرُ بِالْهِدَايَةِ - قَدْ غَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلَاثٍ . وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ وَالدَّلِيلُ فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّاحِلِ * قَالَ ابْنُ شِهَابٍ وَأَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَالِكٍ الْمُدْلِجِيُّ وَهُوَ ابْنُ أَخِي سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ سُرَاقَةَ بْنَ جُعْشُمٍ يَقُولُ جَاءَنَا رُسُولُ كُفَّارِ قُرَيْشٍ يَجْعَلُونَ فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ دِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَنْ قَتَلَهُ أَوْ أَسَرَهُ فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ قَوْمِي بَنِي مُدْلِجٍ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّى قَامَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ جُلُوسٌ فَقَالَ : يَا سُرَاقَةُ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ آنِفًا أَسْوِدَةً (٣) بِالسَّاحِلِ أُرَاهَا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ . قَالَ سُرَاقَةُ فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ هُمْ فَقُلْتُ لَهُ إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِهِمْ وَلَكِنَّكَ رَأَيْتَ فُلَانًا وَفُلَانًا انْطَلَقُوا بِأَعْيُنِنَا يَبْتَغُونَ ضَالَّةً لَهُمْ ثُمَّ لَبِثْتُ فِي الْمَجْلِسِ سَاعَةً ثُمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ فَأَمَرْتُ جَارِيَتِي أَنْ تَخْرُجَ بِفَرَسِي وَهِيَ مِنْ وَرَاءِ أَكَمَةٍ (٤) فَتَحْبِسَهَا عَلَيَّ وَأَخَذْتُ رُمْحِي فَخَرَجْتُ بِهِ مِنْ ظَهْرِ الْبَيْتِ فَحَطَطْتُ (٥) بِزُجِّهِ (٦) الْأَرْضَ وَخَفَضْتُ عَالِيَهُ حَتَّى أَتَيْتُ فَرَسِي فَرَكِبْتُهَا فَرَفَعْتُهَا تُقَرِّبُ بِي حَتَّى دَنَوْتُ مِنْهُمْ فَعَثَرَتْ بِي فَرَسِي فَخَرَرْتُ عَنْهَا (٧) فَقُمْتُ فَأَهْوَيْتُ بِيَدِي إِلَى كِنَانَتِي فَاسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا الْأَزْلَامَ فَاسْتَقْسَمْتُ بِهَا أَضُرُّهُمْ أَمْ لَا فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ فَرَكِبْتُ فَرَسِي وَعَصَيْتُ الْأَزْلَامَ تُقَرِّبُ بِي (٨) حَتَّى إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الْالْتِفَاتَ سَاخَتْ (٩) يَدَا فَرَسِي فِي الْأَرْضِ حَتَّى بَلَغَتَا الرُّكْبَتَيْنِ فَخَرَرْتُ عَنْهَا ثُمَّ زَجَرْتُهَا فَنَهَضَتْ فَلَمْ تَكَدْ تُخْرِجُ يَدَيْهَا فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً إِذَا لِأَثَرِ يَدَيْهَا عُثَانٌ (١٠) سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ مِثْلُ الدُّخَانِ فَاسْتَقْسَمْتُ بِالْأَزْلَامِ فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ فَنَادَيْتُهُمْ بِالْأَمَانِ فَوَقَفُوا فَرَكِبْتُ فَرَسِي حَتَّى جِئْتُهُمْ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي حِينَ لَقِيتُ مَا لَقِيتُ مِنَ الْحَبْسِ عَنْهُمْ أَنْ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ وَأَخْبَرْتُهُمْ أَخْبَارَ مَا يُرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمُ الزَّادَ وَالْمَتَاعَ فَلَمْ يَرْزَآنِي (١١) وَلَمْ يَسْأَلَانِي إِلَّا أَنْ قَالَ أَخْفِ عَنَّا فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِي كِتَابَ أَمْنٍ فَأَمَرَ عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ فَكَتَبَ فِي رُقْعَةٍ مِنْ

(١) هو اللبن الذي جعل فيه الحجارة المحماة لتزول وخامته . وقيل هي الناقة الحلوبة (٢) اي يصيح بها (٣) اي اشخاصا (٤) هي الرابية المرتفعة عن الارض (٥) اي سكنت (٦) هي الحديدة التي في اسفل الرمح (٧) اي سقطت عنها (٨) من التقريب وهو السير دون العدو وفوق العادة (٩) اي غاصت (١٠) هو الدخان من غير نار (١١) اي لم ياخذا مني

أديم (١) ثمّ مضى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . قال ابن شهاب : فأخبرني عروة بن الزبير أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجارًا قافلين من الشام فكسا الزبير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأبا بكر ثياب بياض . وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من مكّة فكانوا يغدون كلّ غداة إلى الحرّة فينتظرونه حتّى يردّهم حرّ الظهيرة فانقلبوا يومًا بعد ما أطالوا انتظارهم فلمّا أووا الى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم (٢) من آطامها لأمر ينظر إليه فبصر برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه مبيّضين يزول بهم السراب فلم يملك اليهوديّ ان قال بأعلى صوته يا معاشر العرب هذا جدّكم الذي تنتظرون فثار المسلمون الى السلاح فتلقّوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بظهر الحرّة فعدل بهم ذات اليمين حتّى نزل بهم في بني عمرو بن عوف . وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأوّل . فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صامتًا فطفق من جاء من الانصار ممّن لم ير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يحيّي أبا بكر حتّى أصابت الشمس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأقبل أبو بكر حتّى ظلّل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عند ذلك فلبث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة وأسّس المسجد الذي أسّس على التقوى . وصلّى فيه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثمّ ركب راحلته فسار يمشي معه الناس حتّى بركت عند مسجد الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالمدينة وهو يصلّي فيه يومئذ (أي يوم الرواية) رجال من المسلمين . وكان (أي عند مقدم النبيّ) مربدًا للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين بركت به راحلته هذا إن شاء الله المنزل ثمّ دعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدًا فقالا بل نهبه لك يا رسول الله فأبى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يقبله منهما هبة حتّى ابتاعه منهما ثمّ بناه مسجدًا وطفق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول وهو ينقل اللبن :

هذا الحمال لا حمال خيبر * هذا أبرّ ربّنا وأطهر

ويقول : اللهمّ إنّ الأجر أجر الآخرة * فارحم الأنصار والمهاجرة

فتمثّل صلّى الله عليه وسلّم بشعر رجل من المسلمين لم يسمّ لي : قال ابن شهاب ولم يبلغنا في الأحاديث أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تمثّل ببيت شعر تامّ غير هذا البيت

(محمد بن اسماعيل البخاري) *

(١) هو الجلد المدبوغ (٢) أي طلع على مكان عال (٣) هو الحصن * في صحيحه

هلال له يمن وفيه مآرب

نثبت هنا القصيدة الفريدة التى تضمنت وصف الهجرة النبوية من نظم العالم الاديب الشيخ محمد الناصر الصدام المدرس من الرتبة الاولى بجامع الزيتونة

بدا مشرقا تنجاب عنه الغياهب ... هلال له يمن وفيه مئارب
الا يا هلالا لاح بالافق طالعا ... ألم يأن للاسلام منك المطالب
وفي هجرة المختار للكون عبرة ... يجدد ذكراها الزمان المناسب
نبيء أتى والكون في غمراته ... وللشرك طغيان وللظلم جانب
وفي العرب العرباء للشعر سطوة ... وفي نبإ الكهان بالغيب راغب
ومن سيء الاخلاق والغي والعدا ... غياهب جهل ضاعفتها غياهب
عتو واعراض ووأد وجرأة ... وادمان غارات لهم فتحارب
فصبحهم من محكم الذكر منزل ... وأعجزهم عن سورة منه حاجب
كتاب به وعظ وعلم وحكمة ... له في تفاصيل الغيوب العجائب
يجيء به الروح الامين منجما ... لتثبيت قلب هيأته المواهب
ولما رأوا من أمره كل خارق ... وضاقت عليهم في الجدال المذاهب
وبان لهم ما فيه تسفيه حلمهم ... وأن رسول الله لا شك غالب
وأن الذي وافى به الصدق والهدى ... وما هو بالساهي وما هو كاذب
أصروا عنادا جاحدين حقائقا ... يؤيدها إحساسهم والتجارب
وقاموا بإيذاء النبيء وصحبه ... فما منهم الا عن الرشد ناكب
رموه رموا بالذل في عقر دارهم ... . وتبت يدا من لم تعنه المكاسب(١)
وجاءوا من التعذيب والهجر والبذى ... أفانين يأباها الحجى والتقارب(٢)

---

(١) فيه تخصيص لابي لهب بعد دخوله في العموم السابق مع الاشارة الى ما نزل في حقه من كتاب الله تعلى ـ (٢) المراد منه القرابة وكفى بها حرمة لكف الاذى ومن الاذاية التى تأباها القرابة ايضا ما كانوا عليه من الركون الى اللغو عند ماكان يأتيهم صلى الله عليه وسلم تاليا لما انزل عليه وذلك قوله سبحانه (وقالوا لا تسمعوا لهذا القرءان والغوا فيه لعلكم تغلبون) ولما للقرابة من الآداب المرعية والحرمات لقنه الله تعلى التذكير بها في قوله تعلى (قل لا أسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى) ـ

فما انتج التعـذيب الا تجلـدا　وتثبيت ايمان بـه الشرك خـائب(٣)
ولكن أبى الهادي اهانـة قومه　وأن يستديم الشر من هو جـالب
فرخص للاصحاب في هجرة بها　أزيل العنا والبؤس واعتـز جانب
ودام عـلى المعـتاد لله داعيـا　بفارغ صـبر لم تـرعه النوائب
وكيف يراع القلب بعد سكـونه　لانس قد ارتاحت اليـه القـوالب
قل الله ثم اترك على الخوض خائضا　وذر لاعبـا يلهيـه مـا هو لاعب(٤)
ثبـات وتـأييد وفـرط تيقن　بأن الـه العـرش للنصـر واهب
الى أن أتـاه الاذن في خير هجرة　بها شعشع الاسلام والكـفر ذاهب
فهب الى الصديق عن غير مـوعد　لاعداد ما تجتـاز معـه السباسب
وكانت قريش قـد أحست بأنـه　عسى أن به يومـا تخف النجائب
وتلك التي تبـدي سفاهـة رأيهم　وتنقض منها في قـريش المصائب
ومن بعد شورى (خيب الله فالها)　وأخذ ورد ترتئيـه الاكـالب
رأوا أيسر الامرين قتـل محمـد　يقوم به من كل شعب الاعـارب
لكي يحفظوا من عـزهم بمماته　ولا يدركـن الثـار من هو طالب
فسار بجوف الليل تلقاء يثرب　وهـم حوله والله واق وحـاجب
ورافقـه الصديق يبتـدر الاذى　الى غـار ثور وهو حيران ناصب
فـناداه لا تحزن(٥) لنا الله ثالث　الا ان حـزب الله بالله غـالب
وسرعان ما باض الحمام وبادرت　لنسج بديع الصنع ثـم العنـاكب
هنا لك بـاء القوم بالخزي والاسى　وشاهت وجوه قد عراها التقاطب
فخفوا لادراك الرسول تطلبـا　وشدت لهم في ذا المهم الركـائب
ولمـا أتـوا للغـار وهـو مظنة　سما لهم يـأس وضاقت مـذاهب
فقالـوا عـلام نقتحمـه ونسجـه　كثيف السدى ما مسه الدهر ناقب

هذا هو المعنى المراد والله أعلم لا كما عليه أغلب التفاسير من ان الآية آمرة باكرام آل بيته صلى الله عليه وسلم حسبما بسطنا ذلك مدللا في كتابتنا على هاته الآية

(٣) نسج هذاالبيت على منوال قوله تعلى (فما زادهم الا ايمانا وتثبيتا) الآية

(٤) فيه تضمين الحديث الوارد في كتب السير ونصه على ما في المواهب اللدنية حيث قال وفي الصحيح عن انس قال ابو بكر يا رسول الله لو ان احدهم نظر الى قدميه لرآنا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ظنك باثنين الله ثالثهما وفي التنزيل (ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقـول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا)

وعادوا الى أم القرى عـود خيبـة ... كما خسىء الشيطان يرميه ثـاقب
فقالوا لمن يأتي بـه خير مغنم ... لـه من كرام النوق حمر نجـائب
وبعد ثلاث من ليال قـد انقضت ... على مكثه بالغار وهو يـراقب
أتيح له الافراج والامن ناجيـا ... وسار بيمن الله يقفـوه صاحب
فمرا على تلك الخزاعية (١) التي ... خوى ضرع عجفاها فما هي حالب
فقال لها هـات أحلبنهـا لعلـني ... أصيب بـإذن الله ما أنـا صائب
فدرت لهم لبنا كفى كل حاضـر ... وعاودهـا در من الضرع شاخب
ولما أتى زوج (٢) الخزاعية انبرى ... يسائلهـا عمـا رأى وهو عـاجب
فقالت لـه ذا در عجفـاك مسهـا ... فتى يده فيها من اليمن جالب
فقال لها هذا الـذي ألحق الاذى ... قريش به والله مـا هو كـاذب
ولـو أنني أبصرتـه لاتبعتـه ... وما أنـا عن رشد بدا بعد ناكب
وقد كان أن المدلجي سراقـة ... أتاه من الانباء مـا هو راغب
فأسرع يعدو خلف أكرم مرسل ... وللخيل انجاد لمن هو راكب
ولمـا أتى الركب السعيد وشاقـه ... منـال وأغراه بـذاك التقـارب
عـرا مهـره داء العثـار فراعـه ... وأنهضه زجـرا وسار يـواظب
الى أن هوت منه اليدان وساختـا ... بصلب أديم طينـه الـدهر لازب
هنالك وافاه من الرأي رشده ... وفي كل ذي لب من الرشد ثائب
وبان له نـور الرسول وصدقـه ... وأنـه سيـف الله والله ضـارب
فناداهم بالامن والنصح مخلصا ... وقـال لهـم إني الى الله تـائب
وعاد الى أم القرى رادعا لمن ... يرى انـه لا شك بالظفـر آيب
ومن بعد ذا اجتاز الرسول وصحبه ... بعبـد رعت اغنامـه وهـو لاذب(٣)
فقال له امنحنا من الـدر شربـة ... فقد أعوزتنا في الطريق المشارب
فقـال يمين الله مـا في التي تـرى ... حلـوب بهـا در فما أنـا حـالب
ولكن هنا عندي (٤) عناق قد انقضى ... على حملها عـام وهـا هي ناضب

---

(١) اسمها عاتكة وكنيتها ام معبد بنت خالد الخزاعية اه مواهب
(٢) لم يذكر اسمه في المواهب واقتصر على كنيته ابي معبد
(٣) اسم فاعل من لذب بالمكان اذا اقام به اه قاموس
(٤) العناق كسحاب الانثى من اولاد العنز اه قاموس

فقـال اطلبنهـا ثم بـاشر حلبهـا ثلاثـا فدرت وارتوى منه شارب
فـأسلم ذا الراعـي وَقـال تيقنـا سوى الواحدالديان لاشيء واجب
ولمـا دنى من نحو طيبة ركْبه (١) وبـانت لهـم آطـامهـا والمسارب
وكان بهـا بعض اليهود قد اعتلى لينظـر في أمـر لـه ويـراقب
تراءى له نـور الرسول وصحبـه وزال سراب دونه الركب حاجب
فنادى بأعلى الصوت اوسا وخزرجا الا سعد لم وافى تقـل النجائب
فخفوا الملقى خير من وطىء الثرا سراعـا وكـل تابع ومصاحب
وحل قبـاء في بـني عوف الاولى حظـوا بمرام انتجته الرغـائب
ودام بهم (٢) بضعا وعشرين ليلـة بأرغـد عيش واستطيبت مشارب
وأسس عن تقوى بها مسجدا (٣) له مزيـة سبق فاقتـفتـه المحـارب
وبارحهم سعيـا لطيبـة مرخيـا زمام قلوص (٤) وهوجذلان راكب
فقام له الانصار حـذو ديـارهم وكلهم داع وفي الخيـر راغب
هلـم رسـول الله تـأو لمنعـة وركن قوي لا يـروم المحارب
فقـال لهم لا تمسكوها فانهـا لقد أمرت والامر هـاد وجاذب
فمرت تـوالي بالطريق التفاتهـا لمبركها الميمون وهي تـواثب
الى أن أتت دار النجار ففـركت وقد جذبتهـا بالعراص الجواذب
فألقت اذا منها الجران (٥) وأرزمت (٦) ليفهم مغزى فعلها من يـراقب
فنازلهـا في ذي المنـازل قـائـلا الا ها هنـا النزل السعيد المنـاسب
وضاءت به أرجـاء طيبة وازدهت وقـد عمهـا بشر وعزز جـانـب
وأشرف ربات الخـدور بمدحـة يرددها عند القدوم الكواعب
الا مرحبا ذا البدر أقبل مشرقـا تحف بـه من كل أوب الكواكب
ونقرن بالدف العزوف ترنما وكل بفرط البشر جـذلان لاعب
فيا لـه من يـوم أغر محجل الى مثله تصبو العلا والمواكب
ففي كل قلب حل أعماقه الهـدى لواعج شوق جمرها الدهر لاهب

---

(١) جمع اطم وهو الحصن
(٢) هو اثنتان وعشرون ليلة اه مواهب
(٣) هذا المسجد هو مسجد قباء وهو اول مسجد بني في الاسلام وهـو المراد في قولـه تعلى (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المطهرين) وقباء هذه بينها وبين المسجد النبوي بالمدينة فرسخ
(٤) القلـوص من الابل الشابة او الباقية علي السير او اول ما يركب من اناثهـا الى ان تثني ثم هي ناقة والناقة الطويلة القوائم خاص بالاناث اه قاموس
(٥) الجران بكسر الجيم وفتح الراء باطن العنق اه مواهب
(٦) أرزمت الناقة اذا صوتت من غير ان تفتح فاها اه مواهب

الهجرة النبويـة

مبدأ التـاريخ الاسلامـي

بقلم صاحب الفضيلة العلامة الشيخ سيدي محمد
الحجوي وزير المعارف بالحكومة المغربية

ان الهجرة اذا وردت على لسان المحدثين وعلماء السير تطلق على هجرتين هجرة المسلمين من مكة الى أرض الحبشة وهجرتهم من مكة الى المدينة المنورة والاولى كانت قبل الثانية بنحو سبع أو ثمان سنين اذا كانت في السنة الخامسة من مبعثه عليه السلام وعند الاطلاق في العرف العامي تنصرف الى الثانية واليها ينسب تاريخ المسلمين العربي القمري في اقصى الشرق والغرب فمبدأ تاريخنا من اليوم الذي هجر فيه النبي صلى الله عليه وسلم ورفيقه ابو بكر الصديق مكة الى المدينة . وهو اليوم ١٦ من شهر يوليه من سنة ٦٢٢ ميلادية اذا قلنا ان الهجرة كانت يوم الجمعة في المحرم ويرجحه جعل عمر والصحابة المجمعين حوله المحرم اول شهور السنة الهجرية ولا مانع يمنعه من جعله ربيع الاول النبوي لو كانت الهجرة فيه كما قيل له وهذا الاخير قول ابن اسحاق وغيره . فاذا قلنا بقول ابن عباس انها كانت يوم الاثنين يكون موافقا لليوم التاسع عشر من يولية

ان لاكثر الامم القديمة في المعمور تواريخ تؤرخ بها حفظا للنظام والحقوق ومعرفة اوقات الوقائع التي لا تتم معرفتها الا ببيان اوقاتها . فللصين تاريخ ولليهود تاريخ وللامم المسيحية تاريخ وللاسلام تاريخ .

وفي كل نفس من طموح ونجدة عوامل عـزم لا تفل القـواضب
رويـدك لا تيأس لطول سباتهم فرب سبات هب منـه المثالـب(١)
ورب منام كان للعقل منتجا جماما فحطت عن علاه الثواقب
أما قد(٢)أتى حين من الدهر لم يكن به المرء مذكورا وها هو صاخب
ومن سنن الاجيال قبل نهوضها رسوب وبعد الطين تصفو المشارب
فهبـوا بني الاسلام للمجد هبة تزول بها أوصابكم والغياهب
وكونوا كما (٣)قال الرسول لهيكل اذا ما اشتكى عضو تداعى المصاحب
وعوا ما انطوى في ضمن أروع هجرة لقـد أفعمتها من علاه المناقب
ففي سوقها الذكرى وفي العمل المنى فيروي حديث الحمد عنها العواقب

(١) المثالب بضم الميم اسم فاعل بمعنى المقاتل قاله في لسان العرب (٢) فيه تضمين لقوله تعلى (هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا) (٣) تضمين لحديث الصحيح المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا الحديث

وكل منها يجعل أهم حوادثه مبدأ لتاريخه فالمسيحيون من ولادة المسيح والمسلمون من يوم الهجرة النبوية .

كان العرب في جاهليتهم يؤرخون بأهم الوقائع من حروب وغيرها فاهل المدينة كانوا يؤرخون بعام حرب بعاث واهل مكة يؤرخون بعام الفيل الذي هجم فيه أبرهة قائد الحبشة على مكة ونجاها الله منه. فقلة الحضارة والمدنية التي أدتهم الى الامية وجهل التاريخ لم يكن لهم تاريخ مدون يحفظون به مجدهم وتجتمع عليه كلمتهم فاذا جاءت واقعة ثانية نسوا الاولى وصاروا يؤرخون بهذه وهكذا دواليك كلما تجددت قضية أنست ما قبلها وكل امة لم يكن لها مجد مدون ولا تاريخ ترجع اليه فهي في عداد الهمل والمهمل .

فلما جاء الاسلام وحضارته والدين القويم ومدنيته فكر سيدنا عمر بن الخطاب فيما يضبط به التاريخ ويكون مرجعا لتوقيت الاوامر والنواهي والكتب والمناشير حين ورد عليه كتاب بعض عماله مؤرخا بشعبان فقال أي شعبان هذا هل الذي في عامنا او الذي قبله بسنة او سنتين . فكر في هذا الامر الهام مثل تفكيره في احداث نظام لعدلية الدولة ونظام ماليتها واصدر بذلك مناشيره التي لم تزل نصوصها محفوظة الى الآن فجمع الصحابة وشاورهم كالعادة عنده في مهام الامور فاتفق الرأي على ان يكون تاريخنا الذي نؤرخ به الى الآن مبتدأ من عام الهجرة النبوية التي هاجر فيها النبي صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة وهي الهجرة الثانية . (١)

لاي شيء اختاروا الهجرة دون الولادة النبوية او الوفاة او غزوة بدر التي اعتز بها الاسلام او فتح مكة مثلا ؟

الجواب — لم يختاروا الولادة النبوية لامور فيما أظن :

١ - ان يبتعدوا عن تقليد النصارى والتشبه بهم . وان يبتكروا لانفسهم ما هو كالعنوان على استقلال الفكر وبعد النظر

٢ - ان يعملوا بمقتضى الاشارة النبوية في الحديث الشريف الصحيح لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم فكان عمر ومن معه يبتعد عن كل ما يؤدي لذلك او يشعر به خوف ان تقع الامة فيما وقع فيه المسيحيون من تأليه المسيح

٣ - أن الولادة النبوية مؤرخة بعام الفيل وفيه اختلاف . ولم تكن الوقائع مضبوطة قبل الاسلام لمكان الجاهلية . وكان عمر يتجنب الجدال وما فيه اختلاف ويحب بناء المهمات على اليقين دون الخيال

اما الوفاة النبوية فقد كان وقتها محققا مضبوطا ولكنهم تجنبوها لامور فيما اظن ايضا

١ - لعلهم رأوا انها رزء عظيم على الاسلام فتكون رمزا للاسى والحزن فتجنبوا ان يجعلوا تاريخهم منها تناسيا للذكريات الفاجعة

---

(١) كان الشيخ اعتبر الهجرة الاولى والثانية الى الحبشة هجرة واحدة لاتحاد المهجر وانما تكررت

٢ - لم يستحسنوا فصل تاريخهم عن حياة النبي كلها بل احبوا ان يكون صدر تاريخ الاسلام حياة زاهرة لنبيه الكريم عليه السلام وتكون هي تاجا وهاجا فوق رأسه

٣ - عملوا فيها ايضا بحديث لا تطروني

واما واقعة بدر وفتح مكة فانهما مع أهميتهما لا تكونان كأهمية الهجرة كما نبينه بل هما امران جزئيان بالنسبة للهجرة النبوية وما ظهرت مزيتهما الا بالهجرة وايضا فيهما ذكريات يتألم بهما من اصيبوا فيهما واسلموا هم أو أولادهم

نعم اختاروا الهجرة مع ما فيها من الذكريات الفاجعة لامور سبعة فيما ظهر لي

١ - قصدوا تثبيت هذه الذكرى الفاجعة في اذهان الامم الاسلامية ليعلموا ما قاساه النبي صلى الله عليه وسلم والسابقون الاولون من اصحابه من شدائد واضطهادات وإهانات تندك لها الجبال الشم ويجف لها اليم ، وهم ثابتون على مبدئهم القويم ودينهم المستقيم

فاننا في مشارق الارض ومغاربها مهما أرخنا بالتاريخ الهجري الا وتذكرنا الهجرة واهوالها وما نتج لنا عن صبرهم على لاوائها من خير وعز وشرف ونعيم فنثبت كثباتهم ونصبر كصبرهم ونعمل كعملهم ثباتا وتحملا

٢ - الهجرة كانت اول فتح في الاسلام باعتبار عاقبتها المحمودة . فان الاسلام لما كان بمكة كان في حضن الباطل وحجره اذ كان سجينا مضغوطا مغلوبا تحت رحمة الشرك في مكة وناهيك ببلاء من يكون تحت رحمة عدو جاهل جائر فالمسلمون كانوا لا يقدرون على الجهر بافكارهم ولا بتوحيد خالقهم وتلقينه لاولادهم ولا يقدرون على قراءة القرءان ذي المبادي والاخلاق العالية . فان ابا بكر الصديق هاجر هجرته الاولى من مكة الى الحبشة فلقى في طريقه ابن الدغنة فرده الى مكة في جواره وقال له مثلك لا يخرج من وطنه فشرط عليه كفار مكة ان لا يعلن الدعوة ولا يجهر بالقرءان لئلا يسمعه النساء والصبيان وان لا يدعو احدا للدخول في الدين فقبل الشرط لكنه لم يصبر على الاستعباد فبنى مسجدا بباب داره واصبح يصلي ويقرأ القرءان جهرا فأرسل اهل مكة لابن الدغنة وتشكوا اليه بان نساءهم وصبيانهم يفتتنون بسماع القرآن فجاء وطلب منه الكف عن ذلك والا فسخ عقد الحماية فاختار ابوبكر فسخ عقد الحماية عن شمم وشرف معتمدا على حماية الله متوكلا عليه صابرا محتسبا فعادوا وشدوا الخناق عليه وبالغوا في اذايته واهانته

ولقد قاطع المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم وحصروه في شعب ابي طالب من شعاب مكة هو وقرابته المسلم منهم والكافر من بني هاشم وبني المطلب الذين ابوا من إسلامه اليهم ليقتلوه ويحبسوه الا ابا لهب عمه ومكروا بهم المكر المبرم وقطعوا عنهم مواد الحياة ان تصل اليهم وكتبوا البراءة والمقاطعة معهم في صحيفة وعلقوها بالكعبة معلنين فيها قطع المعاملة معهم ببيع او ابتياع او إنكاح حتى

جعل الله لهم فرجا وخرجوا من الحصار في حالة ضنك وشدة وكان ذلك سنة سبع او ثمان من المبعث وبقوا في الحصار سنتين او ثلاثا وفي سنة خمس او ست قبلها قد اختفى النبي صلعم بدار الارقم ابن ابي الارقم بالصفا المقابلة للمروة بمكة مدة شهر هو وجميع من كان مسلما معه وكانوا تسعة وثلاثين يعلمهم القرءان والدين فكان الاسلام محصورا في هذه النقطة الضيقة لا يملك من سعة الكرة الارضية غير هذه الدار حتى اسلم عمه حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب عند ذلك تقلدا سيفيهما وخرجا به الى الكعبة قائلين لا اله الا الله محمد رسول الله وظهر بعد الاستخفاء وذلك في السنة السابعة قبل الهجرة وهي السادسة من النبوة ومن هذه النقطة الدقيقة التي كان الاسلام محصورا فيها انتشر النور على الكرة الارضية ثم ان هذا الظهور لم يتم معه الامر وانما كان تخفيفا في الجملة . فلم يزل المكر الشركي محيطا بالمسلمين بل الضغط والاهانة والتعذيب فقد اخذوا بلالا وربطوه على حجارة مكة في ظهيرتها التي لا تقل عن الجحيم وعذبوه ليرجع للكفر فلم يرجع حتى فداه ابوبكر بالمال فاشتراه منهم . واعتقه واخذوا عمار بن ياسر ووالده وامه العجوز الهرمة وعذبوهم باكثر من ذلك وجاء ابو جهل وادخل حربته في فرج هذه العجوز وهي تعذب فاسلمت الروح وكانت اول من استشهد في الاسلام.

وتعدى مكرهم الى نفس النبي صلى الله عليه وسلم بعد موت عمه ابي طالب الذي كان يدافع عنه قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين وكذلك زوجه خديجة التي كانت خير رده له عليه السلام فقد لببه عقبة ابن ابي معيط بثوبه حتى خنقه فجاء ابوبكر ومنعه منه وهو يقول اتقتلون رجلا ان يقول ربي الله وجاء ابو جهل وطرح النبي صلى الله عليه وسلم على الارض ووطىء برجله على عاتقه

ولما بلغ الاذى بالنبي صلى الله عليه وسلم هذا المبلغ واكثر منه خرج الى الطائف يعرض نفسه على قبيلة ثقيف ليحموه فينال حريته في نشر دينه ويبلغ رسالة ربه فردوه اقبح رد وسلطوا عليه صبيانهم وعبيدهم يضربونه بالحجارة حتى ادموا عراقيبه ورجع الى مكة في جوار المطعم بن عدي وذلك سنة عشر من المبعث ثم صار يعرض نفسه على القبائل العربية ايام موسم الحج في الاشهر الحرم التي يكون فيها السلم ولا يقدرون على الوصول اليه

عند ذلك هيأ الله له الانصار الاوس والخزرج من اهل المدينة فوعدوه النصر في العقبة الاولى عقبة منى وكان ذلك بعد نحو عشر سنين من المبعث ثم وقعت منهم بيعة العقبة الثانية في السنة التي تليها ثم بيعة العقبة الثالثة في السنة بعدها .

ولما رأى قريش ظهور علامات نهوض الدين الاسلامي زادوا في التضييق على الرسول ومن معه وائتمروا على قتله فاعلمه الله بذلك وأمره بالهجرة فهاجر مختفيا من مكة الى المدينة هو وصاحبه ابوبكر الصديق في قصة معلومة في السير بعد ما قاسى ثلاث عشرة سنة او خمس عشرة سنة من الشدائد اهوالا هو ومن اسلم معه تشيب الصبي وتهرمه

ولما ان هاجر هيأ الله له الانصار لنصرة الدين ومن لحق به من المهاجرين من امكنه اللحوق وأفلت من حبس المشركين وضغطهم فعند ذلك تمكن من نشر الدين وتبليغ الرسالة وظهور المبادي العالية للعالم فلهذا قلت ان الهجرة كانت فتحا للاسلام فهي احق ما يؤرخ به ويؤيد رأينا هذا القرآن قال تعالى الا تنصروه فقد نصره الله اذا أخرجه الذين كفروا الآية فصدر الآية وعجزها يدلان ان الهجرة كانت نصرا وتأييدا واعلاء لكلمة الله وحطا لكلمة الكفر وذلك مما لا يمتري فيه مسلم

٣ ـ الاسلام له اطوار الطور الاول كونه جنينا في بطن مكة الثاني خروجه للحياة العامة وانتقاله لطور الظهور للملا وهذا الطور بلغه بالهجرة وبسببها انتشر في العالم

٤ ـ الهجرة بها تدرب المسلمون على التضحية بالمال والاولاد والنفس حيث هجروا ديارهم واموالهم واهلهم حبا في مباديهم والامم لا تتحرر الا بالتضحية قال الله تعلى : قل ان كان ءاباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله الآية .

٥ ـ بالهجرة استيقن الرسول من رسوخ ايمان اصحابه وانهم صادقون في وعودهم حيث امتثلوا الامر وهاجروا معه وتركوا كل شيء لهم في مكة وصاروا فقراء كما وصفهم الله بقوله لله تعالى للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله اولآئك هم الصادقون . ولا يمكن للرسول ان ينظم امر الدعوة ويظهر نظام الشرع الاسلامي ما لم يستيقن ايمان الاعوان والاصحاب الذين يقومون بما عهد اليهم اتم قيام عن اخلاص وانقطاع . والنظام حياة الامم

٦ ـ الهجرة فرقت بين الحق والباطل كما قال عمر اذ بها صار للاسلام صولة وامكنه حمل السلاح على اعدائه وصار مسلحا بعد ما كان أعزل وصار قوة بعد ما كان ضعفا

٧ ـ بالهجرة أصبح الاسلام له شريعة ذات احكام عملية فرعية يعدل بها في الاحكام اذ كثر بعدها نزول الاحكام من حرام وحلال وما نزل قبلها فغالبه في العقائد . والشريعة هي نظام المجتمع الاسلامي النظام العسكري والمالي والعدلي والعائلي وكل الانظمة الاجتماعية والدينية وانظمة مظاهر الحياة كلها وهي الرابطة التي حققت وحدة الاسلام وبينت الحقوق وصانت العدل من الحيف والتلاشي ولا حقيقة لحياة امة دون العدل والنظام

الرباط في ٣ محرم سنة ١٣٥٨

محمد الحجوي الثعالبي الجعفري

تنبيـه

قد برز مع الجزء الثاني من هذا المجلد الفهرس العام للمجلد الثاني وقد غفل عنه كثير من القراء فلذا وجب التنبيه وقد اتصل به جميع المشتركين صحبة الجزء . فالمراد ضمه للمجلد المختص به

التاريخ بالهجرة الشريفة

وموسم رأس العام

بقلم العالم المؤرخ أمين الامراء
سيدي محمد بن الخوجه

عند انبلاج صبح اليوم الاول من محرم الجاري استقبل المسلمون في مشارق الارض ومغاربها عاما هجريا جديدا وهو عام ثمانية وخمسين وثلثمائة والف عرّف الله خيره فذلك اليوم المبارك جدير بأن يلفت بذكراه أنظار عامة المتلفظين بكلمة التوحيد نحو صاحب الهجرة الشريفة الا وهو سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم الذي بعثه الله الى الخلق بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا.

أما المقصود من هذا التحرير فهو الالمام بحديث الهجرة النبوية من حيث اتخاذها مبدأ للتاريخ بالنسبة لعامة المسلمين. ذلك أن الامم كانت في الزمن المتقدم على البعثة المحمدية تؤرخ بحوادث الازمان وأولها بدء الخليقة بعد هبوط ءادم عليه السلام وهذا التاريخ مستفاد في زعمهم من التوراة المكتوبة باليونانية وقد قدروه بستة ءالاف سنة ومائتين وست عشرة سنة قبل الهجرة وهو قول المؤرخين وخالفهم فيه الفلكيون حيث قالوا ان بين هبوط ءادم والهجرة خمسة ءالاف وسبعمائة وتسعا وستين سنة والقولان مخالفان لما جاء في نسخة التوراة السريانية وهذه بدورها مخالفة لنسخة التوراة العبرانية فالتاريخ بمبدإ الخليقة ضرب من الرجم بالغيب لا سيما وان علم طبقات الارض وهو من العلوم الحديثة التي حفت من أجلها الاقلام وجف مداد المحابر قضى على مثل هاتيك المزاعم بالدليل والحجة. والمقام لا يقتضي الاطناب لانه يبعدنا عن المقصود انما تعرضت له بطريق الاشارة المجردة توطئة لتسجيل بعض التواريخ المشهورة في أقدم العهود كالتاريخ بطوفان نوح عليه السلام وبينه وبين الهجرة ثلاثة ءالاف وتسعمائة واربع وتسعون سنة على اختيار المؤرخين ودونه بنحو مائتين وسبعين سنة على اختيار الفلكيين وهم المنجمون في اصطلاح الاقدمين. قال في عيون المعارف: انهم بعد الطوفان أرخوا بنار ابراهيم عليه السلام ولما تفرق بنوه من بعده أرخ بنو اسحق بنار ابراهيم الى زمن يوسف ومن يوسف الى مبعث موسى ومن موسى الى ملك سليمان عليهم السلام ثم أرخوا بما كان من الكوائن ثم بخروج اليهود الى التيه (بكسر التاء المشددة وبفتحها مع سكون الياء. معناه الكبرياء) ثم أرخوا بخراب بيت المقدس. واما بنو اسماعيل عليه السلام فأرخوا ببناء الكعبة المشرفة وداموا كذلك الى أن تفرقوا فأرخوا بعد ذلك بما اشتهر بينهم من الوقائع الهامة كيوم الفجار وحرب البسوس وسيل العرم وعام الفيل وفيه ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم في العشرين من نيسان ٥٧١ للميلاد

وأما النصارى فقد كانوا يؤرخون أيضا بحوادث أزمانهم وهي كثيرة من أشهرها غلبة الاسكندر على الفرس واستقر تاريخهم في ميلاد عيسى عليه السلام. والفرس وهم أرقى الامم في الزمن القديم

كانوا يؤرخون بملوكهم وءاخر تاريخ لهم هلاكة (يزدجرد) وقس على ذلك ما حفظه التاريخ من أسماء بقية الشعوب والامم البائدة والباقية فكل أمة كان لها تاريخ تؤرخ به كالاشوريين والكلدان والاقباط والانباط وغير ذلك مما لا يدخل تحت حصر . وهذا يغنينا عن الاشارة لكون أهل الصين والهنود من اصقاع الشرق الاقصى يدعون انقضاء عشرات الالوف من السنين على تاريخهم ومن اراد زيادة البسط فعليه بالرجوع لخطط المقريزي . ولنضرب صفحا عن كل ذلك لنقول أن التاريخين القديمين اللذين لهما علاقة في هذا الزمان باهل تونس هما التاريخ المسيحي ونحن في عامه التاسع والثلاثين بعد تسعمائة والف وتاريخ اليهود وهم في عامه التاسع والتسعين وستمائة وخمسة ءالاف . هذا وقد اختلف المؤرخون والفلكيون في مدة الزمان الواقع بين تاريخ الميلاد وبين الهجرة الشريفة ولكلا الشقين أقوال وانقال والشيء الذي إعتمده كتاب التاريخ ودرجوا عليه في هذا الزمان هو أن الهجرة النبوية كانت في اليوم الموافق لسادس عشر تموز وهو اسم شهر يوليه في السريانية من سنة اثنتين وعشرين وستمائة للميلاد وهذا اليوم يوافقه الجمعة في حساب الايام قال بعض العلماء أن الهجرة كانت بالجمعة ولكنه قول شاذ وفي قول ابن عباس رضي الله عنهما إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج مهاجرا يوم الاثنين وقيل كان خروجه من مكة المكرمة يوم الخميس وقال في المثل الكامل : ان النبي صلى الله عليه وسلم دخل الى المدينة المنورة بعد أن صلى الجمعة بمسجد قبا - وقبا من احواز دار الهجرة - وكان الانصار محيطين به وهم متقلدون سيوفهم فسر أهل المدينة أيما سرور وقد خرج لملاقاته فيمن خرج النساء والصبيان والولائد ينشدن :

أشرق البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
ايها المبعوث فينا جئت بالامر المطاع

وللابيات بقية لم يذكرها صاحب المثل الكامل ننقلها هنا ترحيبا بدخوله للمدينة عليه السلام :

صل يا رب عليه ما دعا لله داعي
اقبل البدر علينا واختفت منه البدور
مثل وجهك ما رأينا قط يا وجه السرور
انت شمس أنت بدر أنت نور فوق نور
انت والله يا محمد أنت مفتاح الصدور
وأتانا بك غيث حل في كل البقاع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داعي
يا إمام المرسلين يا شفيع المذنبين

أرسلك مولى الموالي رحمة للعالمين
قال رب فادخلوها بسلام ءامنين
مرحبا أهلا وسهلا بك يا بدر تجلى
أشرقت شمس المعاني قد بدا وجهك يجلى
وانجلى بك الظلام من سنى حرمك وولى
يا إلاهي بالمشفع صاحب القدر المرفع
لا تخيب يا إلاهي كل من حضر ويسمع (١)

قلت هذا الكلام الموزون ينسبونه للطيبات الصالحات بنات النجار رضي الله عنهن وبنو النجار هم اخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة أبيه يعني أخوال عبد الله بن عبد المطلب

واختلف العلماء فيمن وضع التاريخ الهجري فبعض المحدثين روى بسنده الى ابن شهاب ان النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة في شهر ربيع الاول أمر بالتاريخ وعلى هذا القول يكون ابتداء التاريخ الهجري في عام الهجرة ولكن هذه الرواية يخالفها المشهور بين جمهور العلماء وهو أن ابتداء التاريخ بالهجرة كان في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال الحافظ الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي من اعلام المائة السادسة : دفع الى عمر صك محله شعبان قال عمر شعبان هذا الذي مضى أو الذي هو ءات أو الذي نحن فيه ثم جمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم ضعوا للناس شيئا يعرفونه فقال قائل اكتبوا تاريخ الفرس كلما قام ملك طرح ما كان قبله فاجتمع رايهم على أن ينظروا كم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدوه أقام بالمدينة عشر سنين فكتب التاريخ على هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال سعيد بن المسيب : أول من كتب التاريخ عمر رضوان الله عليه لسنتين ونصف من خلافته فكتب لست عشرة من المحرم بمشورة علي بن ابي طالب رضوان الله عليه وقال غيره من الرواة : أن عمر كتب التاريخ في شهر ربيع الاول سنة ست عشرة فكتبه من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة . وقال القلقشندي في صبح الاعشى بالنقل عن ذخيرة الكتاب : لما أراد عمر التاريخ جمع الناس للمشورة فقال بعضهم نؤرخ بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم وقال بعضهم بل بوفاته وقال بعضهم بل بهجرته من مكة الى المدينة لانها أول ظهور الاسلام وقوته فصوبه عمر واجتمع رأيه عليه . ثم قال وكان وقوع ذلك في اليوم الثاني عشر من شباط (اي فراير) سنة ثمانمائة واثنتين وثمانين لذي القرنين . ونقطة الاتفاق بين أصحاب تلك الاقوال المختلفة التي ذكرناها هي ان قائليها وغيرهم ممن لم نذكره أجمعوا على أن عمر رضي الله عنه لما وضع التاريخ الهجري رده لليوم الاول من محرم بمعنى أنه ابتدا حساب التاريخ لا من يوم استقر قراره على وضعه بل من مستهل المحرم الواقع في عام الوضع مع اعتبار المدة التي مضت قبل ذلك من يوم

(١) يظهر للقاري أن بقية الابيات فاقدة للروح العربية فلعلها من نظم بعض المتاخرين ذيل بها الاصل (المجلة)

الهجرة الشريفة الى غرة محرم عام الوضع وعلى مقتضى تلك النتيجة الثابتة الصحيحة جرى عمل المسلمين من عهد عمر بن الخطاب الى هذا الزمان وسيبقى ان شاء الله كذلك ما بقي الدهر.

واذا كان وضع التاريخ الهجري وقع سنة ست عشرة بعد الهجرة فلتعلم أن وضع التاريخ المسيحي لم يقع الا بعد الميلاد بنحو اربعة قرون وقد رأيت فيما تقدم الاضطراب الذي تناول تاريخ اليهود قبل استقراره فيما هو عليه اليوم

هذه خلاصة القول في وضع التاريخ الهجري بالنقل عن المسانيد الصحيحة وبقي لنا الكلام على يوم راس العام أهو موسم أم لا ؟ وسرعان ما نقول إنه ليس بموسم شرعي والمواسم الشرعية معروفة وهي عاشوراء وليلة القدر واتفق جمهور العلماء على انها ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان. ولفظ رمضان اذا قصد به شهر الصيام لا بد من تقديم لفظ شهر قبله ومثله الربيعان الاول والآخر ولا يقال ربيع الثاني لانه ليس لهما ثالث وكذلك الجماديان الاولى والآخرة وهذا الخروج عن الموضوع جاءت به القافية. فلنعد لما كنا بصدده لنقول ان بقية المواسم الشرعية هي يوم عرفه. والجبل عرفات. ويوما الفطر والاضحى ولك ان تقول النحر. واختلفوا في ليلة المعراج من رجب وفي ليلة نصف شعبان هل هما موسمان شرعيان ام لا ولا خلاف في أن موسم المولد الشريف ليس بموسم شرعي اتفاقا لانه حدث في اوائل المائة السابعة وانما تلبست به صبغة المواسم في هذه الديار وفي غيرها من بلاد الاسلام من اجل العادات والسنن المباركة التي قضت بالحاقه بالمواسم العظمى تنويها بقدر واشهار الذكره

اما يوم راس العام الهجري وان هو ليس بموسم في أصله فقد تقرر اعتباره في البلاط الحسيني منذ نحو مائة سنة كموسم رسمي صاروا يحتفلون به ويقيمون له موكبا خاصا بدار الامارة ولكنه دون موكب المولد والعيدين . وهذه المواسم الثلاثة صار اعتبارها مع موسم عاشوراء اعيادا قانونية بتونس يتمتع بعطلتها كل المتوظفين والمستخدمين بالمصالح العمومية حتى الذين لا يدينون بدين الاسلام واعلم ان موسم راس العام بتونس بدأ ضئيلا ثم تدرج في مدارج الفخامة والظهور الى أن بلغ للحد الذي هو عليه الآن وحديثه هو ما نقصه عليك : ففي الدولة المرادية وما قبلها كانت المواسم بهذه الديار هي المواسم الشرعية والمولد النبوي وكان لهم مع ذلك موسم ربيعي نسبة لربيع الزمان لا لربيع الشهور يقيمونه في شهرماية وصفه المؤرخ ابن ابي دينار وصفا حسنا وهذا الموسم بقي له اثر بتونس الى الازمان المتأخرة ولعله انقرض تماما في هذا العهد. وكان عامة السكان من أهل المدن يستقبلون العام الجديد في افتتاحه باكل بعض الحلويات واشهرها عندهم المقروض لا يبغون بغيره عنه بديلا فقد حكى في المؤنس باسناده لغيره قوله : عجبت لمن في بيته المقروض كيف ينام الليل . وكان الطعام الذي لا يتخلفون عن اكله يوم رأس العام هو الملوخية يفعلون ذلك تفاؤلا بالخير لما في خضرتها من الرجاء وحسن الامل وهي لم تكن معروفة عند العرب قبل المائة الرابعة. قالوا ان الاطباء وصفوها للمعز لدين الله عند

نزوله بمصر حيث لم يوافقه طقسها فدبروا له قانونا من العلاج في جملته ورق الملوخية وكان اسمها يومئذ الملوكية فوجد لها نفعا في التبريد والترطيب وعوفي من الامساك الذي كان به فتبرك بها وسار من ذلك الحين ذكرها وانتشرت في البلاد . هذا حديثها والعهدة فيه على غيري لاني ناقل لا مبتكر بيد أن هذا التعريف يدعوني للاشارة لقول من يقول ان لفظ ملوخية ربما كان مقتبسا من الملنخوليا في اليونانية وهي الموافقة لكلمة ميلانكلي في الفرنساوية ومعناها قريب من السوداء، ولم يتعرض لها الشيخ داود في التذكرة بأكثر من قوله : ملوخيا ويقال ملوكيا من الخبازى . ومهما كان الحال فعادة أكل الملوخية بالديار التونسية يوم رأس العام مضت عليه القرون بحيث انك لا تجد بيتا أهليا بشهيرات المدن التونسية غنيا عنها في مستهل كل عام جديد وما زالت الامهات عالقات بها وحريصات على عدم اغفالها والعادة طبيعة خامسة في الانسان، هذا ومن المقرر المعلوم أن البيوت التونسية وعلى رأسها البيت الحسيني الرفيع العماد وءاله هم السادة القادة لاهل البلاد ومن أشهرهم ذكرا واوفرهم فخرا المشير الاول أحمد باي فهذا الامير هو الذي سن موسما لرأس العام بالتوسيع فيه على حاشيته وأهل قرابته حيث افترض بميزانية دولته ترسيم اعتماد مالي خاص بذلك اليوم وكان هذا المال في البداية قدره خمسمائة ريال من مضروب سكة الفضة وكان صرف الريال الفضي في ذلك الزمان خمسة ريالات الا انه لم يشترط في ذلك المال أن يكون بضرب العام الجديد بل كان يكتفي بتوزيع قطع جديدة من ضرب أي عام كان حتى اذا استقرت تلك العادة ورسخت بين أهل السراية الملكية فكرة الفرح والازدهاء والاحتفال برأس العام توسعوا في ذلك بطبيعة الحال - وكل حي نام - الى أن تلبس ذلك اليوم بالصبغة الموسمية بين أهل الدولة بوجه عام، ولما استوى المشير الثاني محمد باي على العرش الحسيني ابتدأ من حيث انتهى سلفه فقرر سنة توزيع المسكوك ذهبا وفضة من ضرب العام الجديد ورتب لذلك موكبا رسميا ينتصب فيه لقبول التهاني من ءال بيته ورجال دولته ، وعلى قياس صنيع هذا الباي جرى عمل اخيه المشير الثالث محمد الصادق باي بزيادة عناية وتفخيم في مظهر الموكب المنعقد يوم رأس العام حيث كان ينتصب له بقصر باردو واتفق له ذات مرة حضور هذا الموكب السنوي بكسوة الانكشارية التي اتخذها عام ١٢٨١ فكان رأسه متوجا بعمامة من الحرير المقصب زادته مهابة وجلالا ومثله كان لباس وزرائه وأهل دولته، سمعت من الوزير المرحوم السيد الطاهر خير الدين انه كان لديه رسم ذات والدء بالزي المتحدث عنه.

ولما تولى المقدس المبرور المولى علي باي الثالث أريكة الملك الحسيني نسج على منوال أسلافه الاكرمين فعقد لعهده أول موكب لرأس العام في غرة المحرم سنة ١٣٠٠ بقصر المرسى المعمور وممن حضر هذا الموكب يومئذ حسب ما وقفت عليه بالرائد التونسي العلامة الشيخ أحمد بن الخوجة شيخ الاسلام فأجلسه سمو المولى الامير ليمينه وسمع منه في ذلك الموكب المشهود قصيدته التي يقول في مطلعها :

تهلل وجه الملك بالطلعة الغرا ودار السرور الصرف في الاكؤس البشرا

ولم يزل المولى علي باي متحفظا باجراء هذا الموكب في اوقاته الى ءاخر ساعاته غير أنه لما أدركه الهرم في السنوات الاخيرة من عمره كان لا يحضر هذا الموكب الا الوزراء وكبار أهل الدائرة الملكية وفي مدة أخلافه المقدسين المولى محمد الهادي باي والمولى محمد الناصر باي والمولى محمد الحبيب باي كان الاحتفال ليوم رأس العام من أفخر مواكبهم سوى أنهم لا يلبسون فيه كسوة التشريفة الكبرى قياسا على أسلافهم في الزمن الماضي . ويكون انعقاد هذا الموكب بالسراية التي يسكنها الامير حسب فصول العام يعني اما بقصر الشتاء واما بقصر الصيف حسب الظروف والاحوال

اما سلوك حضرة ولي النعم سيدنا ومولانا أحمد باشا باي نضر الله وجهه فقد جاء معززا ومؤيدا لسلوك اسلافه المقدسين بزيادة التوسع منه أطال الله عمره في الانعام والاحسان لمن حول سدته من أهل الرفعة والشان ومن تلكم الملاطفات والتوجهات ان سموه الملوكي يتحف بمناسبة يوم رأس العام جناب وزيره الاكبر بهدية سنية زيادة على مسكوك الذهب والفضة وهي عادة سنها البايات السابقون وعادات الملوك ملوك العادات . ومن العادة أيضا أن صاحب العرش الحسيني بعد أن يتلقى فروض الولاء والطاعة والتهاني يوم العام الجديد من ءال بيته ورجال دولته وأهل دائرته وحاشيته يزوره بعد ذلك في وقت خاص ممثل الدولة الحامية بتونس لتهنئة حضرته العلية أصالة عن نفسه ونيابة عن فخامة رئيس الجمهورية . ومن البديهي أن ألسن الشعراء تتسابق يوم هذا الموسم المبارك نحو ساحة المولى الامير لالقاء غرر البديع من قصائد المديح على شريف أسماعه ويكون افتتاح هذا المهرجان بترتيل بعض ءايات الذكر الحكيم بالصوت الرخيم وسموه يشمل الجميع بواسع عطائه وفضله .

وقد جرت عادة الملوك الحسينيين ان يفتتحوا العام الجديد بمظاهر البشر والتفاؤل بالخير فيجعلون احكامهم واوامرهم ونواهيهم قاصرة يوم رأس العام على ما فيه البشرى والسرور كالولايات الدينية والتوقيع بالعفو والصفح الجميل عن المجرمين وفيه يتولى صاحب العرش الحسيني امضاء حسابات وكيل الدار الكريمة ويشرف بذاته على توزيع ريعها على مستحقيه من ءال بيته الكريم في موكب مهيب يحضره الوزراء وامراء الامراء ومدير الشئون وهذه الاحباس انجرت لهم من اسلافهم الاكرمين وكان تناولها التلاشي في مدة وزارة مصطفى بن اسماعيل فجمع شتاتها في اوائل هذا القرن المولى علي باي الثالث قدس سره ورتب نظامها على اسلوب حكيم . ومن مجموع ما تقدم يتضح جليا رسوخ موسم رأس العام الذي يذكرنا يوم الهجرة الشريفة فيا لها من منقبة منيفة كتبتها يد الاقدار بمداد الذهب في صحيفة حسنات البيت الحسيني لان الملوك الحسينيين هم الذين سنوها بين أهل هذه الديار وأحكموا تنظيمها وانتظامها حول الاعصار بما سيبقي لهم جميل الذكر الى ءاخر الادهار

ونختم هذه النبذة بطرفتين احداهما لا تخلو من فائدة . والاخرى جاءت على حد قولهم : ما

بعد إذا زائدة. فالاولى هو انك اذا أردت الموافقة بين السنين الهجرية والمسيحية طردا وعكسا فعليك ان كان المقصود تحويل عام هجري لما يقابله في التاريخ المسيحي أن تطرح من ذلك العام الهجري الجزء الثالث والثلاثين منه وان تضيف للبقية عدد ٦٢٢ تكون الجملة هي السنة الميلادية المطلوبة وان كان العكس فابدأ بطرح عدد ٦٢٢ من السنة المسيحية ثم اضف للبقية الجزء الثاني والثلاثين منها تكون الجملة هي السنة الهجرية المطلوبة وهذه القاعدة لا تتخلف ما دام واحد نصف الاثنين واما الطرقة الثانية فانها نتيجة احصائية تكلفتها لضبط مبتدأ قرن هجري كامل ووقع اختياري على القرن الثالث عشر فكانت تلك النتيجة بالضبط الصحيح ما نذكره : وافق كل من أيام الاحد والثلاثاء والخميس مدخل خمس عشرة عاما ووافق كل من ايام السبت والاثنين والاربعاء مدخل أربع عشرة عاما ووافق يوم الجمعة مدخل ثلاث عشرة عاما فقط والجملة مائة.

وعلى ذكر ايام الاسبوع نلحق بتينك الطرفتين طرفة ثالثة وهذه فيها فائدة لمن لا يعرف جموع هاتيك الايام :

فالسبت يجمع على اسبت وسبوت — والاحد يجمع على ءاحاد وأحدان — والاثنين لا جمع له لانه مثنى فاذا تكلفنا ايجاد جمع له قلنا الاثانين — والثلاثاء بالمد ويقال الثلاثاء بالضم ايضا يجمع على ثلاثاوات قاله في مختار الصحاح — والاربعاء بالمد ويقال ايضا الاربعاء بفتح الباء يجمع على اربعاوات قاله في مختار الصحاح وقال في القاموس المحيط الاربعاء مثلث الباء وهما اربعاءان والجمع اربعاءات — والخميس يجمع على اخمساء واخمسة والخميس ايضا الجيش — والجمعة بالضم ومثلها الجمعة بسكون الميم وهما جمعتان والجمع جمع وجمعات وما مضى فات وكل ما هو ءات ءات

محمد بن الخوجه

تنبيه

بناء على تواني بعض الوكلاء للمجلة في تقديم حساباتهم سواء في القطر التونسي أو في الجزائر والمغرب فقد قررت ادارة المجلة قطع ارسال المجلة اليهم

وعليه فالادارة تطلب من الجهات التي لا تصل اليها المجلة وكلاء امناء ليمكنها ان تعتمد عليهم في المستقبل

وتتعذر لاهل تلك الجهات عن قطع ارسال المجلة لذلك السبب

ذكرى الهجرة النبوية

على صاحبها افضل الصلاة وازكى التسليم

من القلائد الغالية والدرر العالية للشاعر الكبير
الشيخ علي النيفر المدرس بجامع الزيتونة العامر

من افق مكة نور الحق قد وضحا ... ثم انتحى يثربا فجرا فعاد ضحى
دين به نزل الروح الامين على ... طه فجلى اباطيل الورى ومحا
لما بدا كعمود الصبح منبلجا ... يروق منظره الوضاح من لمحا
وانبث في جنبات الكون كر على ... ليل الاباطيل ذي الاغساق فافتضحا
كان الانام على عوجاء مدرجهم ... حدا بهم للردى حادي الهوى ونحا
حادوا عن الرشد في قول وفي عمل ... نالوا الشقاء به والتعس والترحا
حتى اذا المنقذ الهادي اطل دنا ... نهج الرشاد لمن يقفوه وا فسحا
وحط إصر واغلال بعثته ... عن الورى طالما من ثقلها رزحا
محمد خاتم الارسال جاء بها ... شريعة كسنا الاصباح حين ضحا
دعا اليه الهدى ام القرى فئة ... كم قد بغت وعصت من عيها النصحا
جارت قريش عن القصد السوي وقد ... شامت هنالك باب الرشد منفتحا
دعاهم للتي فيها سعادتهم ... دينا ودنيا بقول افحم الفصحا
فما استجابوا له الا بمعصية ... وغادروا نصحه نسيا ومطرحا
وكافؤه عن الحسنى بكل اذى ... وكل ذي عمل رهن بما اجترحا
والخير او ضده منب بصاحبه ... كما الاناء بما يحويه قد رشحا
جفوه جهلا وصدوا كل مقتبس ... منه وكادوا واذوا من به انتصحا
ثم استجاب له من يثرب اسد ... غر ميامين كل للهدى كدحا
وبايعوه على أن ينصروه ويئو ... وه ومن عن سبيل الغي قد جمحا
فهاجر الغر صحب المصطفى زمرا ... إلى المدينة حيث الدين قد صرحا
قوم إلى الله قد باعوا نفوسهم ... بحسب ذي الود ان يهدي لهم مدحا
ساروا تباعا فلاقوا كل تكرمة ... من معشر لا يفيهم مدح من مدح
هناك اوجس اهل الشرك خيفة أن ... يدال للدين منهم واصطلوا برحا
فاجمعوا امرهم كي يطفئوا حسدا ... نور الاله قلاهم ربهم ولحا

فأظهر الله ما قد اضمروه فما ... لمتجر جهدوا فيه بما ربحا
اوحى الاله بما قد بيتوه الى ... رسوله وبما كادوا فما نجحا
وآذن الله خير الخلق ان له ... في كسبه ما يهز المهتدى فرحا
وانه سوف تغدو دار هجرته ... فليرتحل حيث امر القوم قد برحا
فسار عن مكة مغناه مبتئسا ... وفارقه المال والاهلين واطرحا
يؤم طيبة فاهتزت له طربا ... وافتر للدين ثغر بعد ما كلحا
فياله سفرا فيه العناية من ... ذي العرش بانت وعرف اللطف قد نفحا
فكم بدا خارق اثناءه بهر الـ ... ـعقول اعجازه حقا وكم سنحا
سل عن نباه حمى البطحاء اذ حشرت ... له العدا معشرا للسلم ما جنحا
حفوا ببيت رسول الله وهو به ... وكأس مكرهم بالغدر قد طفحا
فسار عنهم بمرأى منهم ومضى ... من بعد ما الترب في هاماتهم طرحا
وما أحسوا به الا وقد بعدت ... منه الخطا فاشنوا عن بيته طلحا (١)
وسائلن غار ثور حين لاذ به ... وأتبعوه وكل حقده لفحا
فلم يروه وهم منه على كثب ... غادين للبحث عنه فيه او روحا (٢)
رأوا ببابه نسج العنكبوت وور ... قاء رؤما فظنوا انه نزحا
واسأل سراقة حين اشتد خاف رسو ... ل الله يعدو فلم يبلغ لما طمحا
يعلو جوادا به ساخت قوائمه ... غداة هم به جرما لقد قبحا
وما نجا منه الا بعد توبته ... وبعد ما صدره نحو الهدى انشرحا
الى سوى تلك مما ذاع مخبره ... وصح بين رواة القوم واتضحا
وحين وافى رسول الله طيبة واحـ ... ـتف الصحاب به تاهت به مرحا
الفاهم في ارتقاب نحو طلعته ... كل تقلد رسم الحرب واتشحا
فيا لها ساعة ما كان اسعدها ... بمثلها الدهر يوما قلما سمحا
ويا لطيبة دار اليمن ان بها الـ ... ـاسلام قد نال مما رام مقترحا
بها قد انتشرت في الكون دعوته ... فشاهد الحق منها من قد التمحا(٣)
وأقبل الناس افواجا تدين له ... سيان من قد تدانى او قد انتزحا
ودالت الدولة الميمون طالعها ... على قريش ا ه لكنه صفحا
وسارت الريح شهرا عرفها عبق ... بنصره وهزار السعد قد صدحا
فيا لها هجرة ما كان ايمنها ... ويا لها محنا قد اعقبت منحا

علي النيفر

(١) جمع طليح وهو المصاب بالاعياء

(٢) جمع رائح (٣) اي ذهب ببصره على حد قول ابي الطيب انا الذي نظر الاعمى الى ادبي

الآيــات الالــهيــة

في الهجرة المحمدية

بقلم الاستاذ النحرير الشيخ محمد البشير النيفر
احد الاساتذة الاعلام بجامع الزيتونة الاعظم

وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين الآية (٣٠) من سورة الانفال

الا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وايده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم الآية (٤) من سورة التوبة

جلت عناية الله بعبده سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم اصطفاه لرسالاته . وأيده بآيــاته ، وأعلى على الكلم كلماته ، وذلك فضل الله يختص به من يشاء من عباده ، على وفق حكمته ومراده .

مكر الذين كفروا بالرسول صلى الله عليه وسلم فمكر الله والله خير الماكرين ، ونصره على قلة الاولياء وكثرة الاعداء « إذ اخرجوه والله خير الناصرين ، فتبارك الذي صدق وعــده ، ونصر عبده ، وله الحمد والشكر وحده .

إن المؤمن لتنزل السكينة على قلبه ، ويزداد إيمانا بربه ، كلما تلا آيات الله وذكر نعمه السابغة ، في تأييد رسول الله وخاتم النبئين ، وإظهار دينه على كل دين ، وفي هجرته صلى الله عليه وسلــم من مكة المكرمة ، إلى المدينة المنورة ، لمظهر عظيم ، من مظاهر التأييد الالهي الحكيم

« عنــاية الله بالرسول صلى الله عليه وسلم إذ مكر الذين كفروا والآيــات التي تقدمت الهجرة »

ذكرت آيات الانفال الثلاثون الرسول عليه الصلاة والسلام بنعمـة الله عليه إذ مكــر به الذين كفروا ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه

والاثبات الشد بالوثاق والارهاق بالقيد . والحبس المانع من القاء الناس . والقتل معروف . وقد دبروا له تدبيرا ، لا يكون ضرره فيهم كبيرا ، والاخراج النفي من الوطن

ويروي كثير من أهل التفسير بالمأثور أن أبا طالب قال لرسول الله صلى الله عليه وسلــم : ما يأتمر بك قومك ؟ قال يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني . فقال من أخبرك بهذا ؟ قال ربي . قال نعم الرب ربك فاستوص به خيرا . قال أنا أستوصي به ؟ بل هو يستوصي بي فنزلت : وإذ يمكر بك الذين كفروا الآية

ولكن قفى الحافظ ابن كثير على أثر هذه الرواية بقوله : وذكر ابي طالب في هذا غريب جدا بل منكر لان هذه الآية مدنية ، ثم إن هذه القصة واجتماع قريش على هذا الائتمار والمشاورة على الاثبات أو القتل او النفي إنما كان ليلة الهجرة سواء وكان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين لما تمكنوا منه واجترؤا عليه بسبب موت عمه أبي طالب الذي كان يحوطه وينصره ويقوم باعبائه اه كلامه

وتكلف بعض حذاق المفسرين بتصحيح هذه الرواية ودفع ما فيها من غرابة وإنكار لذكر أبي طالب قال : ويجوز أن يكونوا قد تحدثوا به قبل إجماعه وإرادة الشروع فيه الذي وقع بعد موت أبي طالب فبلغه فسأل النبيء صلى الله عليه وسلم عنه اه وفي النفس منه شيء

قال الحافظ ابن كثير : وقد روى ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن عثمان بن جثيم بن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال دخلت فاطمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تبكي فقال ما يبكيك يا بنية ؟ فقالت يا أبت ومالي لا أبكي وهؤلاء الملأ من قريش في الحجر يتعاهدون باللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى لو قد رأوك لقاموا فيقتلونك وليس منهم إلا من قد عزف نصيبه من دمك فقال يا بنية ائتني بوضوء فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج إلى المسجد فلما رأوه قالوا ها هو ذا فطأطئوا رؤسهم وسقطت رقابهم بين أيديهم فلم يرفعوا أبصارهم فتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من تراب فحصبهم بها وقال شاهت الوجوه فما أصاب رجلا منهم حصاة من حصياته إلا قتل يوم بدر كافراً ثم قال الحاكم صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ولا أعرف له علة اه

وفي هذا من الآيات الالهية طأطأة رءوسهم وسقوط رقابهم بين ايديهم لما رأوا الرسول صلى الله عليه وسلم وما كان من موت من وقعت عليهم الحصيات يوم بدر كفاراً وكل هذا مما تقدم خروج الرسول صلى الله عليه وسلم

وقريب من هذه الرواية ما روي عن ابن إسحاق من طريق يونس بن بكير أن الرسول صلى الله عليه وسلم أقام ينتظر أمر الله حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت به وأرادوا به ما أرادوا أتاه جبريل عليه السلام فامره أن لا يبيت في مكانه الذي كان يبيت فيه فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب فأمره أن يبيت على فراشه ويتسجى ببرد له أخضر ففعل ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على القوم وهم على بابه وخرج معه بحفنة من تراب فجعل يذرها على رءوسهم وأخذ الله بابصارهم عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ يس والقرآن الحكيم إلى قوله فاغشيناهم فهم لا يبصرون ، وقال الحافظ ابو بكر البيهقي روي عن عكرمة ما يؤيد هذا

وفي هذا من الآيات إطلاع الله رسوله صلى الله عليه وسلم على ما أريد به وأخذ الله بأبصار المشركين

« الآيات الالهيـة عند الهجرة »

نطقت الآية ٤٠ من سورة التوبة ان الله نصر رسوله صلى الله عليه وسلم اذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين وأنزل السكينة عليه او على ابي بكر على اختلاف المفسرين وأيده بجنود لم تر

وفي كتب الحديث والسيرة من الآيات الخوارج ما يتجلى به النصر والتأييد اللذان نطقت فيهما الآية الكريمة

١ - ففي قصة سراقة لما خرج في طلب النبيء صلى الله عليه وسلم وهي عند البخاري في حديث الهجرة المطول : حتى اذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت وأبوبكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسي في الارض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة اذا لاثر يديها عثان ساطع في السماء مثل الدخان فأستقسمت بالازلام فخرج الذي أكره فناديتهم بالامان فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم ان سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الخ وفي حديث أنس وهوالثامن عشر من أحاديث باب الهجرة في صحيح البخاري ايضا : فالتفت النبيء صلى الله عليه وسلم فقال اللهم اصرعه فصرعه فرسه

٢ - وفي حديث أسماء بنت ابي بكر عند الطبراني : وخرجت قريش حين فقدوهما في ابتغائهما وجعلوا في النبيء صلى الله عليه وسلم مائة ناقـة وطافوا في جبال مكة حتى انتهوا الى الجبل الذي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابوبكر يا رسول الله ان هذا الرجل ليرانا وكان مواجهه فقال كلا ان ملائكة تسترنا بأجنحتها فجلس ذلك الرجل يبول مواجهة الغـار فقال النبيء صلى الله عليـه وسلم لو كان يرانا ما فعل هذا

وما في هذه الرواية يفسر ما جاء في الآية الكريمة : وأيده بجنود لم تروهـا فقد ذهب جماعـة من المفسرين أنهم الملائكة ومنهم الامام الجليل محيي السنة البغوي قال في تفسير هـذه الآيـة : وهم الملائكة نزلوا يصرفون وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته وقيل القوا الرعب في قلوب الكفار حتى رجعوا اهـ وأقول لا مانـع من الجمع بينهما ويؤيـد ما في حديث أسماء عند الطبراني من صرف الله الابصار عن الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه رضي الله عنه حديث الصحيحين أن أبا بكر قـال قلت للنبيء صلى الله عليه وسلم ونحن في الغـار : لو أن أحـدهم نظر الى قدميه لابصرنا تحت قدميه قال فقال يا أبا بكر : ما ظنك باثنين الله ثالثهما

والحديث يفسر ما في الآية الشريفـة : اذ يقول لصاحبه لا تحزن أن الله معنا ويتصل بها قوله تعالى : فأنزل الله سكينته عليه وقد أخرج ابن أبي حاتم وابو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في دلائل النبوة وابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله فأنزل الله سكينته عليه قال على ابي بكر لان النبيء صلى الله عليه وسلم لم تزل السكينة معه

وأخرج نحوه الخطيب في تاريخه عن حبيب بن ابي ثلفة

وذهب جماعة الى ان الذي أنزل الله عليه السكينة رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى كلتا الطريقتين فانزال الله السكينة من آياته البالغة

٣ - وفي حديث ابن عباس باسناد حسن عند احمد : فلما اصبحوا ورأوا عليا رد الله مكرهم فقالوا اين صاحبك هذا ؟ قال لا ادري فاقتصوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه

وروى البزار مسندا وغيره أن الله أمر العنكبوت فنسجت على فم الغار وأرسل حمامتين وحشيتين فوقعتا على وجه فصد به المشركين عنه ويروى أنه نبت في فمه شجرة صغيرة تسمى شجرة الرا وهي شجرة مقدار القامة

« تشكك محمد حسين هيكل في الآيات الثلاث : نسيج العنكبوت والحمامتين والشجرة » جاء في الفصل العاشر من كتابه : حياة محمد « صلى الله عليه وسلم » ص ٢٠٨ ما نصه : نسيج العنكبوت والحمامتان والشجرة تلك هي المعجزة التي تقص كتب السيرة في أمر الاختفاء بغار ثور ووجه المعجزة فيها ان هذه الاشياء لم تكن موجودة حتى اذا لجأ النبيء وصاحبه الى الغار أسرعت العنكبوت الى نسيج بيتها تستر به من في الغار عن الاعين وجاءت الحمامتان فباضتا عند بابه ونمت الشجرة ولم تكن نامية وفي هذه المعجزة يقول المستشرق درمنجم :

هذه الامور الثلاثة هي وحدها المعجزة التي يقص التاريخ الاسلامي الجد : نسيج عنكبوت وهوي حمامة ونبات شجرة وهي أعاجيب ثلاث لها كل يوم في ارض الله نظائر « على ان هذه المعجزة لم ترد في سيرة ابن هشام اهـ كلام هيكل بنصه

« نقد كلامه »

ان في كلام هذا المؤلف لمجالا للنقد من وجوه

(١) قوله نسيج العنكبوت والحمامتان والشجرة تلك هي المعجزة التي تقص كتب السيرة في أمر الاختفاء بغار ثور الخ والحق ان ثم غيرها

(٢) اقراره قول در منجم في الآيات الثلاث : هي أعاجيب ثلاث لها كل يوم في ارض الله نظائر » وما هي بالتي لها نظير فان اجتماعها لم نسمع بنبئه الا في قصة الهجرة ولانه قد جاء في نسيج العنكبوت ان أمية قال فيه وقد قال المشركون ندخل الغار : ما أربكم فيه « أي الغار » وعليه من نسج العنكبوت ما أرى أنه من قبل ان يولد محمد أي لان مثله لا يكون الا مدة طويلة وروي في الشجرة أنها كانت مقدار القامة لها زهر « وهل ان المألوف ان تطول الشجرة بمقدار قامة ويكون لها زهر » في زمن قصير وليس من المألوف ان يقع الحمام على فم الغار وهو مأهول ولذا قالت قريش: لو كان فيه أحد لما كان هناك الحمام

عمارة البيت الحرام

بقلم العالم المؤرخ امير الامراء
سيدي محمد بن الخوجه

وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل
ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم

افتتاح الكلام بهذه الآية الشريفة يغنينا عن البحث والنظر في مختلف الروايات المتعلقة بالبيت الحرام قبل زمن ابراهيم عليه السلام فالبيت الحرام وان شئت قلت الكعبة المشرفة التي يقصدها المسلمون من كل فج عميق قياما بالحج الذي هو احد اركان دين الاسلام بناها سيدنا ابراهيم الخليل صلوات الله عليه كما هو صريح الآية المتقدمة وكان المساعد له على بنائها ابنه سيدنا اسماعيل عليه السلام واسماعيل هو جد الجنس العربي وهو كابيه ابراهيم من ذرية سام بن نوح . قال المحققون من ايمة الدين واقطاب الملة لما امر الله ابراهيم ببناء البيت الحرام قال ابراهيم لابنه : يا اسماعيل ان الله امرني بامر . قال فاصنع ما امر ربك . قال : وتعينني ؟ قال : واعينك . قال فان الله امرني ان ابني هنا بيتا . واشار الى اكمة مرتفعة بارض حمراء واقعة هنالك . وعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل اسماعيل يجيء بالحجارة وابراهيم يبنى حتى ارتفع البناء ووضع ابراهيم الحجر الاسود بمكانه من جدار البيت وسياتي الكلام على خبر هذا الحجر الاسعد حول القرون التالية ولما تمت هذه العمارة الاولى للبيت المحرم جعل له ابراهيم بابين ملاصقين للارض احدهما يفتح للشرق والآخر في سمته يفتح للغرب وسنعود للكلام على هذا الباب الغربي الذي لا وجود له في هذا الزمان ولم يجعل ابراهيم للبيت سقفا كما لم يجعل لبابيه ابوابا تفتح وتغلق وكان هذا البيت المبارك اول بيت وضع للعبادة كما قصه علينا القرءان في ءاية : إن أول بيت وضع للناس للذي بمكة مباركا وهدى للعلمين . وقد بناه ابراهيم بشكل مربع

ودر منجام هذا يلقي بذور الشك في آيات الرسول صلى الله عليه وسلم تذرعا به الى التشكيك في رسالته وله كلام كثير في نبينا لو أخذ به المؤمن لبطل إيمانه وفي كتاب الوحي المحمدي جملة منه فراجعه

(٣) ان عدم ورود هؤلاء الآيات الثلاث في سيرة ابن هشام لا يوهن أمرها وقد أثبتها غيره من رجال السير

والطريقة المرتضاة في النقد في مثل هذا تتبع الروايات من جهة أسانيدها والتعديل على ما لا علة فيه والتوقف فيما دخلته العامة لاوزنها بميزان دو منجام وردها اذ لم يروها ابن هشام في سيرته والسلام على من استمسك بعروة الاسلام وقدر قدر الرسول عليه الصلاة والسلام

محمد البشير النيفر

جعل زواياه متجهة نحو الجهات الاربع لمقاومة الرياح وهي هندسة عصرية توفق لها ابراهيم قبل زماننا هذا بنحو اربعة ءالاف عام. وليس في الاستطاعة ضبط ذلك بالتدقيق لان المؤرخين والحساب على خلاف فيه كخلافهم بالنسبة لزمن نزول الوحي على ابراهيم ومنهم من اعتمد في تقوله على ما ورد في التوراة ومنها استفادوا ان الوحي نزل على ابراهيم عند دخوله لارض كنعان في حدود سنة ٢٠٥٥ قبل الميلاد وباضافة هذا العدد لما بعد الميلاد من السنين تكون الجملة ٣٩٤٤ عاما بالحساب الشمسي ولك ان تقول ٤٠٦٢ سنة بالحساب القمري فالمدة الفاصلة بيننا وبين ابينا ابراهيم باني كعبة الاسلام وهو لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما نقدرها على وجه التقريب باربعة ءالاف عام - وقد ذكرنا فيما تقدم ان اسماعيل عليه السلام هو الذي اعان اباه على بناء البيت الحرام واسماعيل هذا هو الذي نبع تحت قدمه ماء زمزم كما في القصة المعروفة المتفق عليها بين جمهور علماء الاسلام فمن الواجب علينا ان نعتقد بصحتها كاعتقادنا بصحة وجود بئر زمزم وما والاها من الصفا والمروة حيث كانت هاجرام اسماعيل تهرول في طلب الماء لابنها العطشان حتى اذا يئست منه وعادت لاسماعيل وجدته يلم بيديه الماء المتنبع من الارض - وماء زمزم لما شرب له -

هذا البيت الحرام بناه ابراهيم في زمن كان الشرك فيه باسطا جناحه على امة الكلدان منهم من كان يعبد الاوثان التي كان يصنعها لهم ءازر ابو ابراهيم كما في ءاية : وإذ قال ابراهيم لابيه ءازر اتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ظلال مبين، ومنهم من كان يعبد النجوم وهم اهل مذهب الصابئه قال تعلى حكاية عن ابراهيم : فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي الى ءاخر الآيات الثلاث قال المقريزي ان من الصابئة من كان يزعم ان الشمس إله كل إله وقال المسعودي في مروج الذهب ان من الصابئة من كان يعتقد ان الكعبة بيت لمعبودهم زحل وانها باقية ببقائه على مرور الدهور وكرور العصور وعن الصابئة اخذ العرب علم النجوم ونبغوا فيه لحد استنباط علم الانوء الذي يفتخر به الاروباويون ويعدونه من العلوم العصرية واسمه عندهم علم المتيورلجيا فهو علم قديم عرفه العرب قبل اروبا بازمان، وكان الصابئة يحترمون هيكل الكعبة ويقدسونه كاحترامه وتقديسه من اهل الاديان الاخرى في ذلك الزمان وفعلا فقد اثبت التاريخ ان الكعبة كانت العرب وغيرهم من الامم يحجونها من قبل ظهور الاسلام بنحو سبعة وعشرين قرنا لا فرق في ذلك بين وثنيهم ويهودهم ونصاراهم يدلك عليه تكريمها في زعمهم بالاصنام والصور منها صورة مريم وابنها المسيح عليه السلام فلما جاء الاسلام امر النبي صلى الله عليه وسلم بازالة ذلك كله عند فتح مكة المشرفة في السنة الثامنة للهجرة

وما زالت الكعبة على بناء ابراهيم واسماعيل الى ان جدد بناءها العماليق ثم جرهم على ارجح الاقوال وجرهم هم اخوال بني اسماعيل ولكن ابن خلدون قال ان عمارة الكعبة على يد العماليق متأخرة عن عمارة جرهم اياها ثم قال : واستمر الحال على ذلك والناس يهرعون اليها من كل أفق من

جميع اهل الخليقة لا من بني اسماعيل ولا من غيرهم ممن دنا او نأى فقد نقل ان التابعة كانت تحج البيت وتعظمه وان تبعا كساها الملا والوصايل وامر بتطهيرها وجعل لها مفتاحا (ومنه يستفاد جعل مصاريع لابوابها في هذه العمارة) ونقل ايضا ان الفرس كانت تحج البيت العتيق وتقرب اليه وان غزالي الذهب اللذين وجدهما عبد المطلب حين احتفر زمزم (اي جددها وهذبها والا فهي موجودة من قبل) كانا من قرابينهم اه

قلت ان ذكر هذين الغزالين يدعوني للاشارة لكنوز الكعبة المشرفة فقد كان العرب وغيرهم يتقربون اليها بالنذور والهدايا الثمينة من ذهب وحجارة كريمة قال في كتاب العبر : وقد وجد النبي صلى الله عليه وسلم حين افتتح مكة في الجب الذي كان بجوف الكعبة سبعين الف أوقية من الذهب مما كان الملوك يهدون للبيت فيها الف الف دينار مكررة مرتين بمائتي قنطار وزنا الى ان قال واقام ذلك المال هنالك الى ان كانت فتنة الافطس وهو الحسن بن الحسين بن علي بن علي زين العابدين سنة تسعة وتسعين ومائة فاخذ ما في خزائنها وقال ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعا فيها لا ينتفع به نحن احق به نستعين به على حربنا واخرجه وتصرف فيه وبطلت الذخيرة من الكعبة من يومئذ اه كلام ابن خلدون

والعمارة الرابعة للكعبة المشرفة وقعت في القرن الثاني قبل الهجرة على يد قصي بن كلاب الجد الخامس للنبي صلى الله عليه وسلم قال في كتاب منزل الوحي : ولم تذكر المراجع المختلفة ان احدا تولى تشييد الكعبة بعد قصي وقبل ان تبنيها قريش قبيل البعثة النبوية الا ما رواه تقي الدين الفاسي في كتاب شفاء الغرام ان عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم بناها ولكنه شك في صحة هذه الرواية لما اصاب جدران الكعبة من الوهن بعد موت عبد المطلب بعشرين سنة او نحوها وعبد المطلب هذا هو القائل لتلك الكلمة الخالدة « انا رب الابل وللبيت رب يحميه » في حديثه مع ابراهة (١) الاشرم الذي جاء لهدم الكعبة عام الفيل وفيه ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم عشرين من نيسان سنة ٥٧١ للميلاد. قالوا ان هذا الفيل كان اسمه محمودا (٢) وانه كلما حاولوه للتقدم نحو الكعبة للاجهاز على جدارها بنابه القوي المتين تعاصى عن ذلك وبرك في الارض واذا ساقوه نحو الجهة المعاكسة للكعبة سعى اليها مهرولا الى ان ضجر ابرهة وحزبه وعادوا من حيث أتوا وكان مصيرهم ما قصه علينا القرءان في سورة ابابيل

---

(١) لفظ ابرهة في اللغة الحبشية يقابله لفظ ابراهيم في العربية

(٢) كان بقارة ءاسيا في الزمن القديم البعيد نوع من الفيل اسمه ممموت (Mammouth) انقرض جنسه ولكنه بقي له ذكر في كتب حياة الحيوان فلعل لفظ محمود الذي سمى العرب به فيل أبرهة محرف عن لفظ ممموت الذي اشرنا اليه

والعمارة الخامسة للبيت الحرام قام بها قريش وشارك فيها النبي صلى الله عليه وسلم قبل ان يبعثه الله نورا وهدى للعالمين . قال في كتاب الجامع اللطيف للشيخ المخزومي من علماء مكة في القرن الحادي عشر : وسبب بناء قريش للبيت هو ان امراة ذهبت تجمر الكعبة فطارت شرارات من مجمرتها (١) فاحترقت كسوتها وكانت ركاما بعضها فوق بعض (٢) فحصل في الاحجار تصدع ووهن ثم توالت السيول بعد ذلك فجاء سيل عظيم فدخل البيت فازداد تصدع الجدران ففزعت لذلك قريش فزعا شديدا وهابوا هدمها وخافوا ان مسوها ينزل عليهم العذاب فبينما هم على تلك الحال يتشاورون اذ اقبلت سفينة من الروم حتى اذا كانت بمحل يقال له الشعيبة وهو يومئذ ساحل مكة قبل جدة إنكسرت ثم قال وبلغ ذلك قريشا فقصدوها واشتروا خشبها واذنوا لاهلها ان يدخلوا مكة فيبيعوا ما معهم من المتاع حتى ان لا يعشروهم(٣) وكانوا قبل ذلك يعشرون من دخلها من تجار الروم وكان الروم ايضا تعشر قريشا اذا دخلوا بلادهم وكان في السفينة نجار بناء (Architecte) اسمه باقوم وهو الذي بنا الكعبة لقريش كما روي عن سفيان بن عيينه اهـ. كلام المخزومي. وقال ياقوت في معجم البلدان : وكان بمكة رجل قبطي نجار فسوى لهم ذلك وبنوها. وفي ابن خلدون ما يؤيد حكاية انكسار السفينة بجده حيث قال : وانكسرت سفينة بساحل جده فاشتروا خشبها للسقف وكانت جدرانه فوق القامة فجعلوها ثمانية عشر ذراعا وكان الباب لاصقا بالارض فجعلوه فوق القامة لئلا تدخله السيول وقصرت بهم النفقة فقصروا عن قواعده وتركوا منه ستة اذرع وشبرا اداروها بجدار قصير يطاف من ورائه وهو الحجر وبقي البيت على هذا البناء الى ان تحصن ابن الزبير بمكة حين دعا لنفسه وزحفت اليه جيوش يزيد بن معاوية اهـ. كلام ابن خلدون

واتفق المؤرخون على كون قريش لما انتهوا الوضع الحجر الاسود اختصموا واراد كل قوم منهم ان يمتاز على البقية بمفخرة وضعه في محله وتفاقم الامر بينهم حتى تواعدوا للقتال ثم تحاجزوا وتناصفوا على ان يجعلوا اول طالع يطلع من باب المسجد حكما يقضي بينهم فكان هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحتكموا اليه فقال : هلموا ثوبا فاوتي به فوضع الحجر فيه ثم قال لتاخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ليرفعوا حتى اذا رفعوه الى موضعه اخذ النبي صلى الله عليه وسلم الحجر بيده

---

(١) المجمرة هي التي تسمى مبخرة في اصطلاح اهل تونس وتستعمل لاحراق طوابع العنبر والعود القماري ولفظ قماري نسبة لجزر القمر بالمحيط الهندي

(٢) قوله ركاما يفهم منه انهم كانوا يضعون الاكسية الجديدة فوق الاكسية القديمة خلافا لما جرى به عمل هذا الزمان من نزع ستور الكعبة القديمة في وقفة كل عام وتوزيع بعض قطع منها على وجه الهدية وبيع البقية لفائدة سدنة البيت

(٣) اعرف مصداق قولهم شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ

الكريمة فوضعه بالركن الذي كان فيه وبسبب هذا التدبير السديد والسياسة الرشيدة كفاهم رسول الله شر فتنة وقتال

ثم جاء الاسلام وبعث الله محمدا للخلق بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا فحج بالناس وطاف بالبيت العتيق بعد ان رد مفاتيح الكعبة لسدنتها من ءال شيبة حيث دفعها لعثمان بن طلحة عند نزول الآية : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى اهلها » (١) والتحق صلى الله عليه وسلم بالرفيق الاعلى وبقيت مفاتيح الكعبة بيد سدنتها الشيبيين حتى هذا الزمان يتوارثونها خلفا عن سلف

وكانت العمارة السادسة للبيت الحرام عند ولاية عبد الله بن الزبير اميرا لمكة فسير اليزيد بن معاوية عساكره بقيادة الحصين بن نمير لقتال ابن الزبير بمكة فالتجأ ابن الزبير الى المسجد الحرام فرماه الحصين بالمنجنيقات فاصابت بعض مقذوفاتها الكعبة المشرفة فهدمتها واحرقت كسوتها مع بعض اخشابها ثم هلك اليزيد فراى عبد الله بن الزبير تجديد عمارة الكعبة على قواعد ابراهيم يعني بضم حجر اسماعيل لبناء البيت كما كان في زمن ابراهيم مستندا في ذلك لقوله صلى الله عليه وسلم لعائشة : لولا ان قومك حديثو عهد بكفر لرددت البيت على قواعد ابراهيم ولجعلت له بابين شرقا وغربا. قال ولي الدين بن خلدون : فكشف ابن الزبير عن اساس ابراهيم عليه السلام وجمع الوجوه والاكابر حتى عاينوه ثم سال عن مقطع الحجارة الاول فجمع منها ما احتاج اليه ثم شرع في البناء على اساس ابراهيم - اي بادخال حجر اسماعيل في البيت - ورفع جدران الكعبة سبعا وعشرين ذراعا وجعل لها بابين لاصقين بالارض كما ورد في الصحيح وفرشها وازرها بالرخام وصاغ لها المفاتيح وصفائح الابواب من الذهب ثم طيبها بالمسك والعنبر داخلا وخارجا وكساها بالديباج وكان انتهاؤه من هذه العمارة في رجب سنة ٦٤ للهجرة. فلما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان سير الحجاج بن يوسف الثقفي لقتال ابن الزبير امير مكة فحاصره بها ورماه بالمنجنيق الى ان استشهد رضي الله عنه في سنة ٧٣ ودخل الحجاج مكة فولاه عليها عبد الملك وامره ان يعيد بناء الكعبة كما بنتها قريش - اي كما كانت عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم - فهدم الحجاج ما اضافه ابن الزبير من حجر اسماعيل للكعبة وقدره ستة اذرع وشبر وسد بابها الغربي ورفع الباب الشرقي يصعد اليه بدرج - كما في هذا الزمان - ولم يغير من باقيها شيئا ثم كبس ارضها بالحجارة التي فصلت عنها اهـ.

---

(١) لما دفع رسول الله مفاتيح الكعبة لعثمان بن طلحة قال له : خذها خالدة تالدة لا ينزعها منكم الا ظالم. يا عثمان ان الله أستأمنكم على بيته فكلوا مما يصل اليكم من هذا البيت بالمعروف اهـ. قال الشيخ محمد قويسم : علم رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الناس تهادي بني شيبة لذلك قال لهم كلوا وعلى قياسه الفتوحات لصاحب الزاوية فانه ياكل منها اذا كان بالمعروف اهـ. من سمط اللال

المجلة : هذا قياس مع عدم وجود العلة في الفرع فهو قياس مع وجد الفارق كالفرق بين المسجد والزاوية .

فهذه العمارة السابعة لم تتناول البيت الحرام كله بل جداره الشمالي الواقع بحجر اسماعيل وبه قبره وقبر امه هاجر على اشهر الاقوال ـ وقد اختلف المسلمون من بعد : افيتركون الكعبة كما بناها الحجاج ام يعيدونها الى بناء ابن الزبير استنادا الى حديث عائشة ام المؤمنين حتى اذا تولى الخلافة هارون الرشيد سال مالكا في هدم الكعبة وردها الى قواعد ابراهيم فقال مالك : يا امير المؤمنين لا تجعل كعبة الله ملعبة للملوك لا يشاء احد ان يهدمها الا هدمها فتركها الرشيد كما هي عليه وبقيت هكذا محاطة بالاجلال والتعظيم من عامة المسلمين الى ان ابتلى الله الحرم الامين بعادية ابي طاهر القرمطي في وقفة عام ٣١٧ حيث اقتلع بضلاله وطغيانه الحجر الاسود من موقعه واخذه عنده طمعا في تحويل وجهة الناس عن الكعبة الى بلده الذي سماه دار البحر . وعمل سيفه في رقاب الحجيج الى ان هلك نحو ثلاثين الفا من الطائفين والعاكفين والركع السجود . ثم اعيد الحجر لمكانه بعد عشرين سنة ولكنه كان مهشما بسبب ما ناله من ضرب الدبوس حين القلع فمتنوة بسيور من الفضة ما زالت محدقة به لهذا اليوم واتفق في سنة ٤١٤ لرجل زنديق ان تقدم يوم النفير الاول نحو الحجر الاسود كانه يريد تقبيله فلما بلغه ضربه بدبوس ضربا عنيفا وقال الى متى يعبد هذا الحجر الاسود فهجم عليه العامة وقتلوه جزاء وفاقا ـ ودام البيت الحرام بعد هذه الحادثة على حالة كماله واستقامة شؤنه واحواله لا يزيد المسلمون على ان يشدوا من بنائه غير ما يعتريه الوهن كما وقع في المائة السابعة ثم في زمن السلطان سليمان خان الاول حيث جدد سقف البيت لتداعيه بفتوى من شيخ الاسلام ابي السعود في سنة ٩٥٩ ثم اعيد تجديد بعضه مرة اخرى في سنة ١٠٢١ على عهد السلطان احمد خان الاول ولما كانت سنة ١٠٤٠ هطل بمكة مطر عظيم دام يومين كاملين ودخل السيل للكعبة فوهن بناؤها الذي انقضت عليه نحو العشرة قرون وسقط بعض جدرانها هنالك انزعج الناس وزلزلوا زلزالا شديدا وتشاوروا في امر الكعبة وما يصنعون بها وانعقد الاجماع على المبادرة بعمارتها وترامى نبأ الكعبة وما اصابها الى ءافاق الاسلام فشدوا اليها الرحال وكان في مقدمة الساعين لعمارتها الامير محمد باشا الالباني والي مصر فاوفد اليها المهندسين والمعلمين وباشر الجميع تجديد عمارتها على الوجه الاتم الاشمل فكانت هذه العمارة هي الثامنة والاخيرة وما حدث بعدها كان من قبيل الاصلاح المجرد كالذي اجرته والدة السلطان مصطفى خان الثاني سنة ١١٠٩ كما يستفاد ذلك من عبارة ابيات منقوشة على باب التوبة بالحرم الامين وهذا ءاخر اصلاح حفظ ذكره التاريخ

ومن توابع البيت الحرام ميزاب الرحمة وهو من عمل الحجاج جعله من نحاس فعوضه السلطان سليمان خان بآخر من الفضة الموشاة بالمينا الزرقاء تتخللها نقوش ذهبية وفي سنة ١٢٧٣ ارسل السلطان عبد المجيد خان للكعبة المشرفة ميزابا من الذهب وهو الموجود بها الآن واخذ الميزاب القديم لحفظه بدار الآثار المباركة بالاستانة

بقي علي الالمام بحديث كسوة الكعبه فقد اثبت التاريخ انها كانت مكسوة قبل الاسلام وقد تقدمت الاشارة لذلك فيما اسلفنا كما ثبت في الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم كساها الثياب اليمانية وبه اقتدى الخلفاء الراشدون فكسوها بالقباطي وعلى قياسهم جرى عمل بني امية حتى اذا ءالت الخلافة لعبد الله المامون كساها الديباج الاحمر يوم التروية والقباطي يوم هلال رجب والديباج الابيض في السابع والعشرين من رمضان والمامون هو الذي جعل كسوها فرضا كل عام اللهم اجزل ثوابه . ولما كان زمن الناصر العباسي كساها السواد من الحرير وظلت كذلك الى هذا اليوم بيد ان الملك الصالح اسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون وقف على كسوة الكعبة ثلاث قرى بالقليوبية من اعمال مصر وهذه الاوقاف عززها السلطان سليمان خان بمثلها في مديرية الشرقية بمصر ولا تزال هذه الكسوة المباركة تصنع في مصر حتى اليوم وترسل الى مكة المشرفة في المحمل المعروف ولم تتخلف هذه العادة المحمودة الا بضعة سنين في الازمنه القريبة لدواعي استثنائية اثارها خلاف سياسي بين حكومتي مصر والحجاز وبفضل الله وبركة نبيه المختار وحرمة البيت الحرام حصل التفاهم والتقارب بين الجانبين بعد ذلك فعادت المياه لمجاريها في سنة ١٣٥٥ ولقد نشرت الجرائد في السنة بعدها صورة ميزانية الحكومة المصرية فاذا بها مبلغ ست ءالاف جنيه مصرية لصنع كسوة الكعبة المشرفة وهذا المبلغ يتجاوز المليون ونصف مليون بحساب عملة الفرنك التونسيه . والكسوة المتحدث عنها عبارة عن ثمانية استار سود من نسيج الابريسم المختلط بالحرير موشاة بكلمة التوحيد مع حزام موشى بالذهب يجعلونه فوقها محيطا بالبيت وستار خاص بباب الكعبة وءاخر خاص بمقام ابراهيم ومن دخله كان ءامنا ونختم هذه النبذة التاريخية بكلمة عبد المطلب : ان للبيت ربا يحميه .

محمد بن الخوجة

التاريخ المدرسي

اتصلنا من الالمعي النجيب الشيخ محمد الصادق عمار المحرز على شهادة الاهلية بجامع الزيتونة بكتابه (التاريخ المدرسي) الذي الفه لتلامذة المدارس فالفيناه جزءا قد اشتمل على تاريخ صدر الاسلام افتتحه بمقدمات تضمنت الكلام على خلاصة من تاريخ العرب القديم . وسلك فيه طريقة حسنة في تلخيص الحوادث مع التمرينات المفيدة للتلامذة وخلاصات حسنة الجمع . وقد حلاه بامثلة متعددة تعين على الضبط . باسلوب سهل التناول يستفيد منه المطالع ايما فائدة مع الاختصار المحمود ونحن نثني على همة مؤلفه الذي علمنا منه الطموح للمعالي ونعلم انه سيلاقي تالفيه هذا كل تشجيع وتقدير

تهلل بالبشرى جبين هلاله

من نظم الشاعر الكبير شيخ
الادباء الشيخ العربي الكبادي

هو العام لاحت للعيون بشائره وطابت مجانيه وفاحت أزاهره
تهلل بالبشرى جبين هلاله فما أحد الا تملاه ناظره
أتى وغواني الانس حول ركابه فيا حبذا أسماؤه وتماضره
يقول لسان الحال منه لخائف تقلص ظل كنت قبل تحاذره
ولست كعام قد مضى في سبيله وبانت لاهل الخافقين مناكره
ولكنني وافيتكم أحمل الهنا وعيشا سعيدا يشكر الله شاكره
وأمنا على الارواح من كل حادث به الطرف رعبا تستهل محاجره
بفضل تدابير الذين عليهم لقد عقدت من ذا الزمان خناصره
فقد أبعدوا ما افزع الناس نزله برأي حصيف يبقر الشر باقره
فنب يا أخا الادراك للانس وامتدح مليكا تجلت في الزمان مفاخره
علا قدره فوق النجوم شهامة وقد أدهشت لب اللبيب مئاثره
فلا شر إلا وهو طاويه رأفة ولا خير إلا وهو للناس ناشره
وكم من بيوت للصلاة تشيدت بتشييده والدين أثلج خاطره
وكل كسير قد أهيض جناحه فإحسانه عند الشدائد جابره
يرى واجب الاملاك أن يحرسوا الحمى لذلك يقضي ليله وهو ساهره
يدبر أمر الملك حتى إذا بدا له صالح يرضاه قام يبادره
مخافة فوت او لتعجيل نعمة ترقبها ذو حاجة لا تغادره
فيا من به تاهت أريكة تونس وقد بادرتها بالجميل بوادره
أعدت بأعوام حكمت بحكمة إلى أهل هذا القطر ما الصدق ذاكره
فمرت كأيام ولم يشعروا بها كطيف خيال مر بالطرف عابره
وإن زمانا أنت بحر سماحه موارده محمودة ومصادره

القت هذه القصيدة الغراء على مسامع الحضرة العلية دام عزها وعلاها في موكب راس العام الهجري المنعقد بقصر حمام الانف العامر يوم الثلاثاء غرة المحرم سنة ١٣٥٨ جعله الله عام يمن واسعاد على الجالس على العرش الحسيني الرفيع العماد . وعلى كافة المسلمين

فعشرة أعـوام لتتويجك انقضت بهـا وصلت من كل مجد أواصره
لذا طلب الاقوام أضعاف ضعفهـا إلى ملك جلت وطابت سرائـره
تسابق أهل الشعر للمدح والدعا وما قصرت في ذا السبيل شواعره
وقديمموا المذياع كي يبلغ الصدى إلى كل صقع يطلب الخبر ساهـره
ولست أبـالي أن أقـول بـأنهم يـودون من قلب لكم سار سائره
بأنـك ملك آمـر في ديـارهم تقـودهم نحو الهدى وتنـاصره
فأنت الذي صورت للناس صورة من المجد أحيتـه لمن هو بـاصره
وأنت الذي أحييت للقطر مجده فلم يبق في الاقطار قطر يفـاخره
تجلت به تلك الشمائل فـانجلت فضائلـه الغـرا وراقت منـاظره
ومن عدلكم بين الرعية في القضا بواطنه طـابت وطـابت ظـواهره
فزارته من كل الطوائف زمرة ومن زين بالعرفان يكثر زائره
ليقتبسوا من نوره الساطع الضيـا معارف جاءت للزمان تسايره
فمن شكروا كان الثناء جزاءهم ومن كفروا فالفضل ينميه كافره
ففي الغرب قوم يلهجون بذكره وفي الشرق بالاعظام قد طار طائره
وما ذاك إلا من سمـاح مملـك تعالت معـاليه وطابت عنـاصره
فلا قـول إلا ما به فـاه ناطقـا ولا شعـر إلا ما به فـاه شاعـره
أأحمد هذا العـام وافـاك مقبـلا تـزف لكم بـالطيبات بشائره
فقد نلت ما لا يدرك العقل كنهه وسيقت لكم من كل خير نـوادره
ولو كانت الاشجار أقلام كاتب وكانت بحار الارض طـرا محابره
وما أنبتت هـذي البسيطة كلها مهـارقه مصفوفـة ودفـاتره
وحاول إحصاء الذي قد وهبتـه من الله اعيـاه من الفضـل بـاهره
تجاوزت قدر المدح فخرا وسؤددا ولو أنـه عـذب المقـال وزاخره
رزقنا بفضل الحب فيكم سعادة فكيف بمن تختاره وتعـاشره
أقر لكم بـالفضل كل موفـق وأكبر كم من باهر المجد كابره
فدمتم لعـرش الملك بدرا بـأفقه ومن رامه بالكيد جدك قـاهره
ويهنيـك عـام سوف تطويه سالمـا ومستقبـلا من مثلـه ما يـؤازره
إلى غاية الازمان في حلة العلا تصاحبكم من كل لطف عشائره
فقد أخبـر الاسعـاد عنـه بـأنه أوائلـه محمـودة وأواخـره

المدينة دار الهجرة

المدينة المنورة احدى ولايات الحجاز من العصر القديم وعاصمة المملكة الاسلامية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعصر أبي بكر وعمر واول خلافة علي رضي الله عنهم وهي في شمالي مكة تبعد عنها بنحو ٥٠٠ ميلا

ولها اسماء متعددة بلغت حد الكثرة اوصلها بعضهم الى نيف وتسعين اسما اشهرها قبل الهجرة يثرب كما حكاه القرءان عنهم في آية ! واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا

وأشهرها بعد الهجرة الشريفة ـ المدينة . وبذلك جاء في قوله تعالى : يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل

وقال الامام النووي لا يعرف في البلاد أكثر اسما منها ومن مكة . عمرها العرب من العهد القديم وربما لا نكون مصيبين اذا حاولنا ان نثبت تاريخ عمارتها بالضبط . وغاية ما يمكن البحث فيه هو معرفة القبائل التي أقامت فيها وتداولت عليها في مختلف العصور القديمة والحوادث التي حدثت فيها ومنه يمكن لنا ان ندرك على ضوء تلك الحوادث بعض الشيء عن تاريخها

يذكر النسابون من العرب أن نسب العرب عموما ينتهي الى سام وهو أحد أولاد نوح عليه السلام الذين نجوا معه من الطوفان . ومنه انحدروا الى أجيال وطبقات . ومن الجيل الاول بعد الطوفان عاد وثمود وطسم وجديث . وهذا الجيل انطمست آثاره وعميت اخباره الا النزر القليل الذي لا نتمكن به للوصول الى حقيقة تاريخية صحيحة عن حياة تلك الشعوب البائدة سوى ما قصه علينا القرءان من أمرها مما قصده القرءان من القصص مما دلنا على انهم قد كانت لهم حضارة ومدنية فعمروا المدن وسكنوا القصور واسسوا المصانع . وعاشوا عيشة الترف مما اشار اليه القرءان في آية إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد . وآية : أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين ونحو ذلك من الآيات .

وأما ما يذكره اصحاب التواريخ فللبحث فيه مجال وهو مع ذلك محاط بالغموض والاضطراب ولسنا الآن في مقام نقده وتمحيص الصحيح منه .

وأما الجيل الثاني فيشمل من أتى بعدهم ممن قرب من نسبهم كحمير وكهلان وأشعر وعمرو وعاملة وجرهم والعمالقة

ومن هذا الجيل تنفتح لنا صحيفة من تاريخ العرب القدماء وان كانت لا تشفي غليلا لكنها تمكننا من الوصول الى بعض حقائق فيما نروم الوصول اليه من تاريخ المدينة

فالمؤرخون كادوا يتفقون على أن جرهم والعمالقة من السلالات العربية كانت منازلهم بأرض الحجاز .(١) واتصلت جرهم بأم إسماعيل عليه السلام وأقامت حولها منازلها لما تفجرت زمزم ثم استحكم الاتصال بعد المصاهرة وتزوج اسماعيل امرأة من جرهم (٢) ثم بالتالي بناء إبراهيم الكعبة وأذانه في الناس بالحج اليها . فأصبح الحرم وجواره منازل اسماعيل وأصهار اسماعيل وكانوا يقيمون بأعلى مكة . وقد جاورهم العمالقة من بعد وأقاموا منازلهم بأسفلها . وكانت ولاية مكة بيد جرهم لمصاهرتهم وقرابتهم من مؤسس الحرم

وقد حدثت بين جرهم والعمالقة حوادث وحروب انتهت بانجلاء العمالقة وخروجهم من الحرم فذهب قوم نحو أرض الشام ومنها الى مصر . ونزل قوم بمكان مدينة يثرب فاقاموا هنالك منازلهم . وقد ذكر ابن خلدون وغيره ان مؤسس المدينة . (يثرب بن مهلائل) من العمالقة ثم غزاهم بنوا اسرائيل وانتزعوا ماكان تحت يد العمالقة من البلاد كيثرب وخيبر واختلطت انسابهم ببقايا العماليق ومن يومئذ دخلت اليهودية الحجاز ومن أعقابهم بنو النضير وبنو قينقاع

وقد زاحمهم في ارض يثرب قوم من الازد القحطانيين نزحوا من أرض اليمن مع من خرج منها ومنهم تفرعت قبيلتا الاوس والخزرج فهما من أصل قحطاني يمني . ولم يتجاسروا في أول امرهم على الاقامة داخل المدينة . ولما اشتد ساعدهم وطاب لهم المقام أنفوا حياة المزارع كما سئموا من طغيان السكان الاصليين عليهم فحدثت بينهم حروب كانت بيهم سجالا واضطروهم لان يفسحوا لهم المجال ليسكنوا معهم كما اضطر اليهود العماليق من قبل ان ينزلوا في ديارهم . والملك دائما لذي الشوكة منهما حتى سادت الاوس والخزرج عليهم .

وهذا الرواية التي جمعناها تشير الى ان تأسيس المدينة كان من الجيل الثاني من العماليق على الخصوص . وهنالك رواية تشير الى أن العماليق حافظوا على اتصالهم بالجيل الاول وأن شاعرهم يتغنى بمجد يثرب وأنها من أقدم بلاد العرب عمارة بل هم نزلوا بها قبل تاريخ عاد وتبع . وينقل الروايات عنه قوله

فلو نطقت يوما قباء لخبرت بانا نزلنا قبل عاد وتبع
وآطا منا عالية مشمخرة تلوح فتنعي من يعادي ويمنع

والذي نستخلصه بعد أن أهل المدينة عندالهجرة لم يكونوا من ولد اسماعيل وانما هم يرجعون

---

(١) وقد قطن العمالقة أولا بتهامة ثم تفرقوا ونزل حي منهم بأرض الحجاز

(٢) يذكر غير واحد من المؤرخين أن اسماعيل تزوج من دعلة بنت مضاض سيد جرهم

الى أصلين أحدهما عربي قح من أصل قحطاني وهم الاوس والخزرج (١) كانوا في جاهلية وكان نزوحهم من اليمن والاصل الآخر اختلطت فيه الانساب من العرب والاسرائيليين فتولد عنه فرع عربي يدين باليهودية، ثم يبقى لنا التحير بعد ذلك من جراء اختلاف الروايات المتقدمة فلو صحت رواية البيتين تكون المدينة قد خطت قبل مكة، فهي صريحة بان عمارتها كانت قبل نزول عاد (٢)

واما الرواية الاولى فانها تقول ان العمالقة (٣) عمروا يثرب بعد اجلائهم من أرض مكة التي كانوا يقيمون بها، ومن هنا جاء التعارض وتعسر التوفيق.

يبقى النظر في تاريخ نزوح الاوس والخزرج اليها ذكر ابن هشام في السيرة أن عمرو بن عامر جد الاوس والخزرج - خرج من اليمن قبل سيل العرم، فيحدث عن أبي زيد الانصاري أن عمرا رأى جرذا يحفر في سد مأرب، فأدرك أنه لا بقاء للسد فتشاءم شرا واعتزم على النقلة عن اليمن فكاد قومه فأمر أصغر ولده إذا أغلظ عليه ولطمه ان يقوم اليه ابنه فيلطمه ففعل ابنه ما أمره به أبوه فقال عمرو : لا أقيم ببلد لطم وجهي فيه أصغر ولدي، وعرض أمواله - أي للبيع - فقال أشراف من اشراف اليمن اغتنموا غضبة عمرو فاشتروا منه أمواله، وانتقل في ولده وولد ولده، الى ان قال ابن هشام في روايته ونزلت الاوس والخزرج يثرب

ثم أرسل الله تعالى على السد السيل فهدمه ففيه أنزل الله تبارك وتعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم : لقد كان لكم في سبإ في مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم - والعرم السد وواحدته عرمة - وانشدوا لاعشى ميمون من قصيدة قال فيها :

وفي ذلك للمؤتسي أسوة ومأرب عفى عليها العرم
رخام بنته لهم حمير إذا جاء مواره لم يرم
فأروى الزروع وأعنابها على سعة ماؤهم اذ قسم
فصاروا أيادي ما يقدرو ن منه على شرب طفل فطم

فهذه القصة تفيدنا أن أصل الاوس والخزرج نزحوا من اليمن قبل سيل العرم غير أنها لا تثبت لنا انهم نزلوا يثرب قبل سيل العرم لان عمرا وبنيه قصدوا بلد (عك) ونزلوا بها وجرت

---

(١) قبيلتان سميتا باسمي جديهما الاوس والخزرج ابني حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ابن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن عبد الله بن الازد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد ابن كهلان بن سباء، اه من المعارف لابن قتيبة، وامهما قيلة (٢) وهم من الجيل الاول (٣) وهم من الجيل الثاني

حروب ثم ارتحلوا عنها ونزلوا بالمدينة . ومنها جاء الغموض في تاريخ نزول الاوس والخزرج المدينة ايضا .

هذا وأن الاوس والخزرج لما ستقر بايديهم أمر المدينة وما حولها دخل بينهم التنافس وحدثت بينهم حروب اشهرها حرب بغاث التي دامت ردحا من الزمن زادت في تشتت كلمتهم الى أن ظهر رسول الله بمكة ودعى للاسلام نفرا منهم وفدوا للحج سنة ثلاث قبل الهجرة وتمت بيعة العقبة الاولى ووعدوه خيرا قائلين لعل الله يجمع بك كلمتهم وقد تم ذلك وعقبتها الثانية في السنة التي تليها والثالثة قبل الهجرة بشهر وبضعة ايام وهي البيعة الكبرى التي عقبها الاذن للرسول صلى الله عليه وسلم بالهجرة فهاجر اليها باليمن والبركة

ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أرض المدينة واستقبله أهلها عرج بهم الى قباء ونزل في بني عمرو بن عوف وأسس مسجد قباء وصلى فيه الجمعة . وقد أختلفت اراء العلماء في مشروعية الجمعة أ كانت قبل الهجرة أم بعدها واستدل من يقول بالثاني بانه لم ينقل أن النبي صلاها في مكة ولا ان المهاجرين من أصحابه الى الحبشة صلوها هناك مع توفر الدواعي على النقل وقد نقلوا لنا صلاته بقباء واستدل من يقول بالاول ان آيتها مكية . ومسجد قباء هو أول مسجد أسسه الرسول صلى الله عليه وسلم وليس هو أول مسجد أسس في الاسلام على الاطلاق بل سبقه المسجد الذي أقامه ابو بكر في فناء داره لما منعته قريش من الجهر بصلاته في الكعبة ودخل في جوار ابن الدغنة

ثم بعث صلى الله عليه وسلم الى أخواله من بني النجار فحضروا عنده بقباء واعلمهم بدخوله الى المدينة وسار على ناقته وأبو بكر ردفه وبنو النجار حوله متقلدين سيوفهم يترنمون بالاناشيد حتى دخل المدينة فلقيه أهلها بكل فرح وابتهاج وكلما مر على حي من أحياء المدينة عرض عليه أهل الحي أن ينزل عندهم ويلحون في الطلب ويمسكون زمام الناقة فيخاطبهم صلى الله عليه وسلم في رفق (دعوها فانها مأذونة) حتى بلغ الى حي بني النجار فبركت في مربد (١) تمر تجاه دار أبي أيوب الانصاري رضي الله عنه فقال رسول الله (هذا ان شاء الله المنزل . اللهم انزلنا منزلا مباركا وانت خير المنزلين) ودخل دار ابي أيوب وطاب له المقام . وتجلت مظاهر رأفته صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين حين عرض عليه أبو أيوب أن يصعد الطاق العلوي ويتخذه منزلا له فاعتذر بحصول المشقة على اشياخ المسلمين الذين يفدون لزيارته . وذلك مصداق قوله تعالى : بالمؤمنين رؤوف رحيم .

ثم سأل صلى الله عليه وسلم عن مبرك الناقة ولمن هو فأعلموه انه لسهل وسهيل اليتيمين من ذوي قرابته فارسل في طلبهما وساومهما فيه فقال الغلامان بل نهبه لك يا رسول الله فأصر صلى الله عليه وسلم على رأيه الاول حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير ـ كما جاء في بعض الروايات ـ ثم أعلم صلى الله عليه وسلم اصحابه بعزمه على بنائه المسجد النبوي

(١) المربد المكان الذي يجفف فيه التمر

المسجد النبوي

أسرع المهاجرون والانصار لنداء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذوا وابنقلون الحجارة واللبن وساهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في نقل الحجارة واللبن معهم . وذلك شانه صلى الله عليه وسلم يتقدمهم في كل أمر فيه إقامة صرح الاسلام

وأقاموا أساسه من الحجارة وبنوا جدرانه باللبن وجعلت عمده من جذوع النخل وسقفه من الجريد واتخذوا له ثلاثة أبـواب ورحبة فسيحة ولم يتخذ له محراب وانما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلته اولا الى بيت المقدس وصلى الى هذه القبلة سبعة عشر شهرا، ثم تحول مستقبلا المسجد الحرام لما نزل عليه قوله تعالى : قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام. وكان مفتح أحد أبوابه الى الجهة الجنوبية، وقد سد بعد تحويل القبلة وفتح بدله باب يقابله في الجهة الشمالية وبقي حائط القبلة الاولى مكانا لاهل الصفة.

مساحة الحرم في عهد النبي

يروى لنا ابن فضـل الله العمري في مسالك الابصار عن خارجة بن زياد احد فقهـاء المدينة السبعة انه قـال . بنى رسول الله صلى الله عليـه وسلم مسجده سبعين ذراعـا في ستين ذراعـا او أزيد . فلما كان عثمان زاد فيه . جعل طوله مائة وستين ذراعا وعرضه مائة وخمسين . وجعل ابوابه ستة كما كانت في زمن عمر . وامتدت الزيادة الى ان دخلت بيوت امهات المؤمنين فيه . ومنها حجرة عـائشة وهي التي دفن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه رضي الله عنهما فبنـوا على القبر حيطانا مرتفعة مستديرة حوله لئلا يظهر في المسجد فيصلي اليه العوام. ويؤدي الى المحذور الذي نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم من اتخاذ المساجد على القبور ثم بنـوا جدارين من ركـني القبر الشماليين . حرفوهما حتى التقيا . كل ذلك حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبر الشريف . ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها « ولولا ذلك أبرز قبره غير أنه خشي ان يتخذ مسجدا » . اه

ولم تكن بالمسجد في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم مئذنة ولا في عهد الخلفاء بعده وانما كان يؤذن على اسطوانة بدار عبد الله بن عمر . وكان بلال رضي الله عنه يرتقي اليها على سبعة اقتاب (١)

تجديد عمارة المسجد وما دخله من الزيادات

أول ما احدث في المسجد الزيادة التي زادها الرسول صلى الله عليه وسلم بعد رجوعه من فتح خيبر وذلك في مفتتح سنة سبع من الهجرة وكانت الزيادة من الجهات الثلاث الشرق والغرب والشمال فاصبح مربعا طول ضلعه مائة ذراع بعد ان كان مستطيلا طوله سبعون ذراعا وعرضه ستون

(١) القتب الاكف على قدر سنام بعير

وثاني عمارة حدثت في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فزاد فيه من الجهة الجنوبية نحو عشرة أذرع ومن الجهة الغربية عشرين ذراعا ومن الشمالية عشرة أذرع . ودخلت في هذه الزيادة دار العباس بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم

وزاد في ابوابه فصارت ستة بعد أن كانت ثلاثة بابين في الجهة الشرقية ومثلهما في الجهة الغربية ومثل ذلك من الجهة الشمالية . وكانت هذه العمارة من نحو سابقتها في البناء والسقوف والعمد

وثالث عمارة كانت في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه فزاد فيه من الجهات الاربع فشملت هذه الزيادة الجهة القبلية وتغير بذلك جدار القبلة

واستقر الامر على هذه الزيادة التي من جهة القبلة فلم يطرأ عليها تغيير بعد ذلك وجعل عمده من الحجارة التي ادخل فيها عمدا من الحديد المسلح بالرصاص وجعل سقفه من ساج . وجعل ابوابه ستة كما هي بعد عمارة عمر .

واتخذ عثمان مقصورة صغيرة على مصلاه في المسجد من لبن وفي حائطها كوة ينظر الناس منها الى الامام وجعل ارضها مرتفعة عن سطح المسجد نحو ذراعين

روي البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال ان المسجد كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مبنيا باللبن ، وسقفه الجريد ، وعمده خشب النخل فلم يزد فيه ابوبكر شيئا . وزاد فيه عمر وبناه على بنيانه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم باللبن والجريد . واعاد عمده خشبا . ثم غيره عثمان . فزاد فيه زيادة كبيرة وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والفصة وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج .

ورابع عمارة كانت في عهد الوليد بن عبد الملك الخليفة الرابع الاموي أشرف عليها عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز ودامت عمارة المسجد من سنة ٨٨ هـ . الى سنة ٩١ هـ . فزاد من جهاته الثلاث الشمالية والشرقية والغربية وأدخل في المسجد حجر أمهات المؤمنين التي كانت في جنوبي المسجد وشماليه واقتطع جزءا من حجرة عائشة رضي الله عنها أدخل في المسجد ايضا من جهة الروضة الشريفة

وأقام بناء على الحجرة الشريفة وجعل بناءه مخمسا ليغاير شكل الكعبة الشريفة .

وأقام جدرانه بالحجارة واتخذ لـه أعمدة من الحجارة المسلحة بالحديد والرصاص . وزخرف حيطانه بالفسيفساء والمرمر واتخذ سقفه من لوح الساج وحلاه بالذهب الوهاج كما نقشت اطراف أساطينه المشدود عليها السقف بالذهب أيضا . وأحدث له أربعة مآذن في زواياه الاربعة ثم هدمت احداها وبقي ثلاثة فجاءت هذه العمارة آية في الفن المعماري . بيد أنها أخرجت المسجد عن بساطته التي كان عليها من عهد تاسيسه . وذلك تابع للعصر الذي عليه الناس في حياتهم فتلك مظاهرهم التي ما كانوا يعنون بها مثل عنايتهم باقامة هيكل الاسلام وهذه مظاهر تمت بعد أن تفتحت أمام المسلمين زخارف

الحياة الدنيا . واذا كان المرء يرى في حياته الخاصة ومنزله وسائر عمارات بلده انها بلغت شأوا عظيما في الزخرف والتنميق يعيب على نفسه اذا كان معبده الذي هو أعز شيء عنده لم تشمله يد العناية وهذه قضية عامة في سائر العصور وعلى اختلاف الامم وسنة متبعة لا يأتيها التبديل ما دام الانسان انسانا وقد أصبح أهل الآثار يستدلون على حضارة الامة برسوم عماراتها فنظر الناس الى الحياة يختلف وبحسب هذا الاختلاف في الانظار يأتي الاختلاف في النظريات . ومن هنا نعلم كيف سكت عمر بعد أن أنكر على معاوية ما ألفاه عليه من العظمة الملكية لما أجابه معاوية بذلك الجواب الذي لا يصدر الا من مثل معاوية القائد العظيم والسياسي المحنك : إننا في أرض عهد فيها الناس مثل هذه الحياة . ولا تستقيم دولة اذا لم تكن لها مثل هذه المظاهر . فأدرك الخليفة ما يشير اليه معاوية . وتحرى رضي الله عنه كعادته في جوابه قائلا : لا آمرك ولا أنهاك . ومن هنا نعلم كيف فهم الخليفة وعامله الاسلام . وبعد انظارهم في الحياة العامة والى أي مدى يلزم أن يرمي المسلمون في تكوين حياتهم الخاصة والعامة

أما من لا يمعن النظر فيذكر قصة ابان بن عثمان مع خليفة المسلمين الوليد الاموي . لما حضر الى المدينة عام تمام عمارة المسجد فدخل المسجد وأعجب به وأخذ ينظر الى جدرانه وسقفه ونقوشه وجميل شكله حتى اذا ما أتم النظر التفت الى ابان بن عثمان وقال : أين بناؤنا من بنائكم ؟

فقال إبان : بنيناه بناء المساجد . وبنيتموه بناء الكنائس .

فهذا الجواب نتناوله من أوجه متعددة . أولا هو جواب واعظ علم من حال مخاطبه أن نفسه ربما دخلها شيء يلزم أن تذكر حتى تتطهر منه

ثانيا أن هذا التطاول أمر لا يقره الاسلام فجاء الجواب على أبلغ اسلوب في الرد

ثالثا ان المقام المحمود الذي يغبط عليه المرء اذا كان عمله منزها من الرياء والتفاخر والا أصبح المباح محذورا في حقه ولذا كان الجواب فيه رمز الى سوء المصير

رابعا ان إبان قايس بين النظر الذي نظره الخليفة عثمان عند ما عزم على العمارة والنظر الذي نظره هذا الخليفة . ذلك كان الباعث له على العمارة مصلحة المسلمين لما رأي ان المسجد لم يبق يسع أهل المدينة فعمره وأدخل عليه من التحسينات ما لم يكن موجودا فيه في أيامه الاولى لكن ذلك لم يغير من مقصده العظيم . وهذا كان الباعث له فيما ظهر لإبان هو التنميق والاتيان بشيء لم يأت به اصحاب الرسول . فقبح إبان صنيعه وأنه لم يبلغ مدى أحدهم او نصيفه

خامسا ان ابان ربما أنكر على الوليد مبالغته في التنميق بالذهب الذي ما جعل في رأيه ليصرف في مثل ذلك . وانه سن سنة لو اتبعت ربما تؤدي لضعف الدولة اذا لم تقدر الامور حق قدرها . وبالفعل قد وقع ذلك وبذل الذهب الوهاج في تزويق القصور عوض اقامة الحصون

أما اتقان العمارة بالاوجه التي تبلغ اليها الامة من الحضارة فلا احسب انه مما يستحق الجدال .

وان كثر فيه النزاع . ويكفي في الحجة على صحته ما قام به الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ولم يعبأ بمن رأى خلاف رأيه بعد ما استوثق من أهل الشورى فيما اقدم عليه

زيادات العباسيين

وخامس عمارة كانت في عهد الخليفة العباسي المهدي بدأ البناء سنة ١٦١ هـ. وكان الفراغ منه سنة ١٦٥ هـ. فزاد فيه من الجهة الشمالية فقط وجدد المقصورة من ساج ونزل بارضها حتى استوت مع سطح أرض المسجد

سادس عمارة كانت بأمر الخليفة المامون سنة ٢٠٢ هـ واتقن بناءه ونقش على رخامة جعلت على احد جدرانه (وهذا ما امر به عبد الله المامون) في كلام كثير يطول بنا اثباته. وفي سنة ٥٧٦ احدث الناصر لدين الله بصحن المسجد غرفة اقام عليها قبة لتحفظ بها الذخائر والآثار التي بالمسجد

وفي ليلة الجمعة اول رمضان من سنة ٦٥٤ هـ. ترك احد السدنة مصباحا بالمسجد موقودا فسقطت منه جذوة نار التهمت ما وقعت عليه وامتدت النار الى جميع المسجد. وقد حاول اهل المدينة اطفاء الحريق فطغى عليهم . وكان ذلك في خلافة المستعصم بالله. فامر الخليفة بترميم ما تصدع من بنيان المسجد وارسل من بغداد العمال وهي سابع عمار وقد شارك فيها الملك المظفر صاحب اليمن

عمارات المسجد في عهد ملوك مصر

ولما صار أمر الحرمين باشارة ملوك مصر كانت عمارة المسجد تابعة للدولة المصرية وفي سنة ٧٠٥ أمر الملك الناصر بن قلاوون بتجديد سقف رحبة المسجد من الجهة الشرقية والغربية ولم يمس المسجد وأحدثت له مأذنة رابعة. وفي سنة ٧٢٩ هـ. زاد هذا الملك رواقين وضمهما للرواق القبلي مما يلي صحن المسجد. وأصلح ما لحقهما من الخلل في عهد الاشرف سنة ٨٣١ وجدد في سنة ٨٥٣ سقف الروضة وبعض سقف أخرى تداعت للسقوط

وهذه الإصلاحات كلها لم تحدث تغييرا في المسجد ولذا جمعناها ولم نعدها عمارة مستقلة

وثامن عمارة كانت في سنة ٨٧٩ شملت قسما عظيما من جدر المسجد وعمده وسقفه ومآذنه وذلك باشارة ملك مصر قايتباي

وتاسع عمارة كانت سنة ٨٨٦ بأمر ملك مصر الاشرف قايتباي وشمل هذا الترميم غالب المسجد وأحدث قبة على سطح الحجرة النبوية. وزاد مأذنة خامسة وجاءت عمارته في هذه المرة على ابدع صورة في الاتقان والزخرفة

عمارات المسجد في عهد السلاطين من آل عثمان

ولما آلت الخلافة الى آل عثمان شملت عناية سلاطينهم الميامين الحرمين الشريفين فكانت عاشر عمارة هي التي قام بها السلطان سليم في سنة ٩٨٠ وأحدث قبة غربي المنبر النبوي ـ

وحادي عشر عمارة قام بها السلطان محمود في سنة ١٢٣٣ أقام فيها القبة الشريفة

وثاني عشر عمارة قام بها السلطان عبد المجيد بدئت في سنة ١٢٦٥ هـ ، وانتهت في سنة ١٢٧٧ وقد شملت غالب المسجد وأدخلوا عليه من الزخرف الشيء الكثير حتى عدت هذه العمارة افخر عمارة في تاريخ المسجد النبوي الشريف . وكتب على جدرانه آيات من سورة الفتح واسماء الله الحسنى واسماء النبي وابيات من قصيدة البردة كانت غاية في الفن والجمال .

وبقي المسجد على هذه العمارة الى اليوم سوى بعض اصلاحات شملت المحراب الاصلي والمحرام الذي اقامه السلطان سليمان فرمما في عام ١٣٣٦ هـ كما رممت ارض المسجد في عهد الحكومة السعودية القائمة الآن بشؤون الحرمين الشريفين وذلك عام ١٣٤٧ . وفي هذه السنوات الاخيرة علمنا ان الحكومة المصرية جادة في احداث اصلاحات في هذا العهد الاخير . وقد اجملت الكلام على عمارات المسجد النبوي لان استقصاء جميع ما حدث واستحدث فيه لا يسعه مقال

افضيلة مسجد الرسول

اخرج البخاري وغيره من اصحاب السنن عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : صلاة في مسجدي هذا افضل من الف صلاة فيما سواه الا المسجد الحرام قال الامام النووي وبمقتضى هذا الحديث ينبغي للمصلي ان يعتني بالمحافظة على الصلاة فيما كان في زمانه صلى الله عليه وسلم فان الحديث انما يتناول ما كان في زمانه . لانه هو الذي حصلت الاشارة اليه وقال الامام العيني لا شك ان جميع المسجد الموجود الآن يسمى مسجده صلى الله عليه وسلم وقد اتفقت الاشارة على شيء واحد فلم تلغ التسمية فتحصل المضاعفة المذكورة في الحديث فيما زيد فيه

فانت ترى ان النووي عمل بالاشارة والعيني عمل بالتسمية كأن وجه ما ذكره النووي انه جعل الاشارة لخصوص البقعة الموجودة يومئذ فلم تدخل فيها الزيادة ولا بد في دخولها من دليل . وقد يجاب بان ذكر الاشارة ليس لتخصيص البقعة بل لدفع ان يتوهم غير المسجد المدني من بقية المساجد التي تنسب اليه صلى الله عليه وسلم والله اعلم

المنبر النبوي

اول ما خطب صلى الله عليه وسلم في المسجد لم يستند على شيء . ثم أتخذ جذعا يعتمد عليه اذا طال به المقام . ثم أتخذ له منبر من الطرفاء له درجات ثلاث فخطب عليه صلى الله عليه وسلم . وقد جاءت الروايات في كتب الصحيح ان الجذع حن الى رسول الله لما تنحى عنه حتى وضع صلى الله عليه وسلم يده الشريفة فسكن وقد روي انه دفن بالمسجد بين المصلى والمنبر

وخطب على منبر الرسول أبو بكر وعمر وعثمان وكساه عثمان بالثياب ثم خطب عليه علي . وفي خلافة معاوية زاد فيه مروان عامله على المدينة ست درجات من اسفله . وكان الخطباء يقفون على السابعة وهي

اولى درجات المنبر النبوي وجدده المظفر ملك اليمن لما اشتعلت النار في المسجد عام ٦٥٤ . ثم غير بمنبر ارسله الظاهر بيبرس ملك مصر عام ٦٥٦ . ثم استبدل بمنبر ارسله الظاهر بن قوق سنة ٧٩٧ ثم استبدل بمنبر ارسله المؤيد عام ٨٢٠ واحترق هذا في عام ٨٨٦ فاقام أهل المدينة منبرا مكانه من الآجر . ثم غير هذا بمنبر من الرخام بعث به قايتباي عام ٨٨٨

ولما ءالت الخلافة الى ءال عثمان أرسل السلطان مراد منبرا من الرخام عام ٩٩٨ وأمر بالاول فنقل الى مسجد قباء . ولهذا المنبر باب واثنتا عشرة درجة ثلاث منها خارج بابه وتسع داخله . وقد جاء ءاية في الابداع ليس له نظير حتى عد من اعاجيب الفن المعماري

المساحة التي كانت بين مصلى الرسول والمنبر والقبر

واذا علمنا ان مسجد الرسول لم يكن فيه محراب في عهد الرسول وانما اتخذ صلى الله عليه وسلم امام الحائط الذي من جهة القبلة مصلى له يقف فيه عند ما يؤم المسلمين . وكان في أول تاسيس المسجد جعل جذعا من النخل يعتلي عليه عند الخطبة . ثم اتخذ له منبر . وجعل المنبر في موضع يبعد على مصلاه باربعة عشر ذراعا وشبرا . ثم لما انتقل صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الاعلى ودفن بحجرة عائشة رضي الله عنها . صار ما بين المنبر والقبر ثلاثة وخمسين ذراعا وشبرا وهي الروضة

مساجد المدينة في صدر الاسلام

روى ابو داود والدارقطني من طريق بكير : ان مساجد المدينة تسعة سوى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم . كلهم يصلون بأذان بلال وبهذا نعلم ان مساجد المدينة تعددت من عهده صلى الله عليه وسلم . غير انهم يجتمعون في مسجد الرسول لصلاة الجمعة . ولا تقام في غيره

بيوت النبي في المدينة

قال في مسالك الابصار عن السهيلي : كانت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة تسعة بعضها من حجارة مرضومة بعضها على بعض . وبعضها من جريد مطين بالطين وسقف جميعها من الجريد اه

وروى الحافظ الذهبي ان اول بيت اتخذه (صلى الله عليه وسلم) في المدينة لزوجه سودة . ولما بنى بعائشة رضي الله عنها في شوال سنة اثنتين للهجرة اتخذ لها حجرة . واحسب ان بقية الحجرات بناها في اوقات مختلفة والله اعلم اه .

وروى ان بيتا سودة وعائشة كا تا بجانب المسجد من الجهة الشرقية . واما بيوت بقية امهات المؤمنين فانها أقيمت في جانبي المسجد مفصولة عنه بطريق

وروى البخاري في تاريخه ان باب بيته صلى الله عليه وسلم كان يقرع بالاظافير يعني انه لم يتخذ له حلق .

ولاية عهد المملكة

لما اجاب داعي ربه المنعم المبرور رفيع الشان سيدي محمود العادل باي ولي عهد المملكة التونسية قدس الله روحه اسندت ولاية العهد الجليلة الى سمو المرفع شانه الراسخ على دعائم العز بنيانه الامير سيدي محمد الطاهر باي في موكب عظيم حضره رفعاء الشان الامراء الكرام والوزراء الفخام ورجال البلاط الملوكي حسب التقاليد الموروثة في البيت الحسيني الرفيع العماد. فتقلد الخطة الجليلة من يد سيدنا ومولانا الامير الجليل ابقاه الله كما انعم عليه برتبة امير الامراء ووشح صدره الكريم بشريط عهد الامان والمجلة ترفع على كاهل الاحترام تهانيها الى سمو ولي عهد المملكة الجليل وتدعو له بدوام العز والهناء في كنف ورعاية الحضرة العلية الشامخه دام لها العز والتاييد

ثم دخلت هذه الحجر التي كرمها الله وشرفها برسوله ونزول الوحي في عموم المسجد في زيادة الوليد فكتب لها الفضل أولا وآخرا .

فصل المدينة

ان الله تعالى لما اذن لرسوله بالهجرة من مكة استبدله حرما آمنا مكنه فيه من ارسال نور النبوية الى العالم . وقد منح سبحانه من الفضائل والمزايا مدينة الرسول بمثل ما منح جده ابراهيم في مكة فكما جعل من عهد ابراهيم مكة حرما آمنا كذلك جعل المدينة حرما آمنا اخرج البخاري في صحيحه من طرق متعدده عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : المدينة حرم من كذا الى كذا

لا يقطع شجرها ولا يحدث فيها حدث . من أحدث فيها حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين وفي رواية ابي هريرة قال : حرم ما بين لابتي المدينة على لساني

والاحاديث الدالة على فضل المدينة لا يسعنا الآن ذكرها فنقتصر على ما اوردنا . ونختم كلماتنا بما قال القاضي عياض في مدينة الرسول : وجدير بمواطن عمرت بالوحي والتنزيل . وتردد بها جبريل وميكائيل ، وعرجت منها الملائكة والروح ، وضجت عرصاتها بالتقديس والتسبيح ، واشتملت تربتها على جسد سيد البشر ، وانتشر عنها من دين الله وسنة رسوله ما انتشر . مدارس آيات ومساجد جماعات وصلوات . ومشاعر المسلمين . ومواقف سيد المرسلين . ومتبوأ خاتم النبيئين ، حيث انفجر لـه النبوة . واين فاض عبابها . ومواطن مهبط الرسالة ، واول أرض مس جلد المصطفى ترابها ـ ان تعظم عرصاتها ، وتتنسم نفحاتها . وتقبل ربوعها وجدرانها

محمد الشاذلي ابن القاضي

خطبة منبريـة

الهجـرة

بقلم الواعظ الشيخ الجيلاني حمزة الخطيب
بجامع مصطفى حمزة بالمهدية

الحمد لله الذي اذن لرسوله بالهجرة من مكة المكرمة الى المدينـة المنورة دار الامن والسلام واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له اذن بالهجرة انتصارا لدينه واحتفاظا بالحق ان يضيع بين اعداء الدين اللئام. واشهد ان سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله استجاب لامر ربه فبشر وانـذر وقام بماموريته احسن قيام. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى ءاله واصحابه السادة الاعلام وسلم تسليما كثيرا. ايها الاخوان يحتفل المسلمون في هذا الشهر المبارك بالهجرة المحمدية. في جميع الاقطار الاسلامية. فلا يكاد يظهر شهر الله المحرم حتى ترى الامة الاسلامية تحركت لاحياء لياليه بصنوف العبادات وعمران المساجد بالاذكار والصلوات. واكرام الفقراء واغاثة المعوزين وبذل الصدقات كل ذلك لادخال السرور على نفوس المسلمين بطاعة هذا الرسول الامين. الذي انقـذ العالم من الشرك والجور والظلم والعدوان المبين. وسلك باهله مسلك السعـادة فكان النصر حليفه وحليف المؤمنين (هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) جادلوه بالباطل فاقنعهم بقوة الحق. رغبوه في زينة الحياة من ملك ومال وجمال فاعرض عن غيهم ولم يركن الى قولهم. فلما يئسوا منه عمدوا الى ايذائه ومقاطعته وقتله وكادوا يفعلون لولا ان عين الله ترمق ما يكيدون. والله يكتب ما يبيتون. (واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) ماكان الله ليدع نبيه صلى الله عليه وسلم فريسة لمن طغى وظلم وجار واعتدى فاوحى اليه بان يعد العدة للهجرة من مكة الى المدينة. ولا يخفاكم يا عباد الله ان هجرة النبيء صلى الله عليه وسلم وصحبه لم تكن هينة عليهم ولم يلجئهم اليها الا المحافظة على العقيدة والدين. ولولا ذلك ماكانوا من مكة مهاجرين. ولا عنها راحلين. ولغيرها متحولين. وهل من السهل على النفس يا عباد الله هجرة مسقط الرأس والرحيل عن البلد الذي درج المرء فيه ايام صغره وطابت له الحياة فيه ايام كبره الى بلد ليس له بوطن. وليس له فيه اهل ولا ختن. وهناك في طيبة غرس نور الايمان. فاثمر غرسه وتم نور الله في جميع الاكوان. وفي ليلة الهجرة نام علي في فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ابوبكر الصديق رضي الله عنه وله من العمر ثلاث وخمسون سنة فسارا قاصدين غار ثور وهو على خمسة اميال من مكة ولكن شبان قريش كانوا في تلك الليلة عازمين على قتل النبيء صلى الله عليه وسلم حتى انهم تسلقوا الجدار ليهبطوا الى الدار ولكن منعهم من ذلك صراخ النساء فرجعوا وتربصوا ومـا كان اشد دهشتهم حين رأوا علي بن ابي طالب يخرج من البيت واذا بـه هو النائم فسألوه اين محمد اين محمد فاجابهم بلا ادري ! فكان الجواب كالصاعقة عليهم. فتناجوا ماذا يعملون وقالوا من يأت برأس محمد فله مائة من الابل. فتفرق غالبهم يبحثون عنه نحو يومين. ثم رجعوا بخفي حنين. وقد ورد ان الله القدير سخر العنكبوت فكانت تنسج على باب الغار. الذي فيه النبيء صلى الله عليه وسلم وصاحبه ابوبكر الصديق ذلك البطل المغوار. والفارس الكرار. حتى انهم لما مروا على الغار يفتشون عنه قال بعضهم لبعض هذا الغار اقدم من ميلاد عيسى عليه السلام وفي ذلك يقول بعض الشعراء مفضلا العنكبوت على دود الحرير

ودود القزان نسجت حريـرا ويجمل لبسه في كل شـيء

فان العنكبوت اجل منها بمـا نسجت على غـار النبـيء

وبعد ثلاثة ايام خرجا من الغـار ووليا وجهتهما نحو المدينة المنورة وبينما هما في الطريق ظهر فارس خلفهم . ذلك الفارس هو سراقة بن مالك فخاف ابوبكر فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم بصره الى السماء يدعو ربه ليحفظهما من الذي اتى . فساخت اقدام الفرس وكادت الارض تبتلع سراقة وفرسه فاستغاث برسول الله صلى الله عليه وسلم . فرحمه النبيء وهو الرؤف الرحيم . وعاهده ان يعود الى مكة ويضلل المشركين . فدعا له النبيء صلى الله عليه وسلم وبشره بانه سيكون من المسلمين

وقد حقق الله خبر النبي صلى الله عليه وسلم فاسلم سراقة وحسن اسلامه وكان له شان يـذكر في عهد عمر بن الخطاب امير المؤمنين وبعد مضي اثني عشر يوما ظهر نور المصطفى وبان وانتشر الخبر في كل مكان وقد وصلا الى المدينة المنورة بفضل الله ءامنين سالمين تلحظهما العناية الالهية ويتمتعان بالكرامة الربانية فخرج الرجال والنساء والاطفال لرؤية الحبيب وللدلالة على التكريم والترحيب فعم الفرح المدينة كلها وغمرها النور وحسدها جميع البلدان لانه شرف ارضها سيدنا محمد سيـد الاكوان وكان النساء يرددن النشيد الذي بلغ عنان السماء

طلـع البـدر علينـا من ثنيـات الـوداع
وجب الشكر علينا مـا دعـا لله داع
ايها المبعوث فينـا جئت بـالامر المطاع

واستقر رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار هجرته عشر سنوات كلها حافلة بجلائل الاعمال مزدهرة بفعل الاصحاب الابطال ثم بعد ذلك شرع في الغزوات ولم يمض الا ثمان سنين حتى فتحت مكة وطهرت من الشرك والضلال المبين وفي السنة العاشرة من الهجرة حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ومعه مائة الف من اصحابه الذين ورثوا الملك من بعده بالايمان والثبات على المبـدأ واليقين لا بالمسكنة والتكالب على لذات الحياة وهدم شعائر الدين (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون ان في هذا لبلاغا لقوم عابدين وما ارسلناك الا رحمة للعالمين)

عباد الله ان كنتم تريدون عزا في بلادكم وهنـاء في عيشكم وسعادة في الحياتين فعليكم بالمحافظة على دينكم فقد تجلى لكم في هذه الخطبة ما قاساه النبى صلى الله عليه وسلم واصحابه من اذى المشركين حتى اضطر ان يخرج من بلده وبلد ءابائه واجداده منذ العهد القديم كل ذلك ليحافظ على دين الله القويم فهنيئا لمن حفظ نفسه من الحرام ووصل رحمه وواسى الفقراء والايتام واعان المنكوبين واغاث الملهوفين .

فأد يابن ءادم ما يجب عليك لربك واهلك وامتك تنل اجر العاملين وكن ممن يغسل ذنبـه بدمعه ولا تكن من الغافلين وفكر فيما رواه البخاري انـ رجلا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال دلني يا رسول الله على عمل اعمله يدنيني من الجنة ويباعدني من النـار فقال تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل ذا رحمك فلما ادبر الرجل قال صلى الله عليـه وسلم ان تمسك بما امر به دخل الجنة .

وفقنا الله جميعا لطاعته وشملنا بلطفه وعفوه وهدانا لما فيه رشدنا وجعل هذه السنة فاتحة خير لجميع المسلمين انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير الا ان احسن ما تتشنف به ءاذان المؤمنين كلام مولانا رب العالمين (اعوذ بالله من الشيطان الرجيم) الا تنصروه فقد نصره الله اذ اخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فانزل الله سكينته عليـه وايده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم (سورة التوبة)

النبـوغ التـونسي

اهدى الينا الحكيم العبقري السيد الصادق الملولي اطروحته التي قدمها للمجمع الطبي باريز ونال عليها الاستحسان التام والاجازة في مباشرة هاته المهنة الشريفة وبعد الاطلاع على ترجمتها وجدنا الحكيم تناول البحث في اطروحته عن انتشار مرض الزهري بالبلاد التونسية وقد اشتملت على جزءين مهمين . اما الجزء الاول فقد تكلم فيه على هذا المرض من الوجهة الطبية فذكر تاريخ هذا المرض المخيف وكيفية انتشاره بالبلاد التونسية ثم بين طرق مقاومة هذا المرض وما اعدته الحكومة لتخفيف وطأته وختم كلامه في هذا القسم بوجوب تكثير المستشفيات وتنظيم مصحات عديدة داخل المملكة حتى لا يفتك هذا الداء العضال بسكان المملكة . واما الجزء الثاني فتكلم فيه الحكيم على هذا المرض من الوجهة الاجتماعية مبينا ان اسباب تفشي هذا المرض الشقاء والتعاسة المخيمان على بعض الطبقات بسبب الفقر المحيط بها اذ الغالب في غذاء الفقير ولباسه ومسكنه لا تراعى فيها الوسائل الصحية وكل هذا مدعاة لانتشار هذا المرض المخيف . ثم تفشي الجهل بين غالب الطبقات الذي من نتائجه عدم معرفة اوجه التوقي من الامراض ثم ختم اطروحته بذكر الوسائل التي يجب اتخاذها لوقاية الامة التونسية من هذا الداء الفتاك فابدى نظريات قيمة وآراء صائبة مما دل على غزير علمه وكمال عقله ورقي فكره وفي حياته العلمية ما يجعل الآمال في نفع بلاده تعلق عليه

والحكيم الملولي من بيت ماجد عرف والده الشيخ محمد الملولي في الاوساط الزيتونية بالعفة والاخلاص للعلم كما عرف في الاوساط التجارية بمساهمته في الحركة الاقتصادية باوفر نصيف وقد نشأ الحكيم في احضان العفة والمروءة وبعد ما أتم تعليمه الابتداءي بمسقط رأسه سافر للديار الفرنسوية وانخرط في مدارسها الثانوية حتى حصل على شهادة البكلوريا ثم انضم للكلية الطبية باريز فدرس فن الطب بهمة لا تعرف الملل وعزم ثابت لم يعتره كلل فكان محل اعجاب اساتذته وأقرانه ثم شارك في مناظرة تخوله مباشرة المرضى بالمستشفيات وتسمى (بالاكسترنا) وهي تستدعي مجهودا خاصا ومعلومات زائدة فحاز قصب السبق فيها واهلته للدخول الى غالب مستشفيات باريز فكرع من حياضها ورجع الى وطنه مملوء الوطاب بعد ما نال لقب حكيم . والمجلة تهنىء الحكيم وعائلته الماجدة بهذا النجاح الباهر وتتمنى له التوفيق والسداد في اعماله حتى يعم نفعه جميع بني وطنه فيستفيدون من مواهب هذا الحكيم النطاسي البارع كما تتمنى لشبابنا التونسي المتحفز للكمال النسج على منواله في سائر ابواب المعرفة لترفع تونس رأسها بين الامم مفاخرة بابنائها النابغين ورجالها العاملين

جدول الخطأ والصواب

صحيفة	سطر	خطـأ	صـواب
٨٨	١٣	تشتت	تشتتت
٨٨	١٦	فصدء	فصدع
٨٩	٢٤	ظامرا	ظاهرًا
٩١	٢٣	وفي ذلك من الاشادة	وفي ذلك اشارة
٩٣	٢	حجيم	جحيم
٩٣	١٨	بهما	بما
٩٦	٣	حتى بلغ	حتى اذا بلغ
٩٦	٦	أفخرج	فخرج
٩٧		الهىرة	الهجرة
٩٧	٣	سلام	اسلام
٩٧	١٧	الحمعه	الجمعة
٩٧	٢٠	الزوج	الزواج
١٠٤	١٤	النفير	النيفر
١٠٥	٢٧	بمد	بعد
١٠٥	٢١	امة لبني	لبني
١٠٥	٢٤	ببدر	بأحد
١٠٦	٢٧	يعني	يعني
١٠٧	١٦	نقصية	نقيصة
١٠٨	٤	دبرة	دبروة
١١٦	٩	جالب	جانب
١١٧	٣	دنى	دنا
١١٨	٧	اذا	إذ
١١٨	١٢	لـه	بـه
١٣٠	١٤	عيها	غيها
١٣٠	٢٠	واذوا	وآذوا
١٣٠	٢٥	مدح	مدحا
١٣٦	٢٤	التعديل	التعويل
١٤٣	٢٥	القت	ألقيت
١٤٧	٢٧	ابن	بن
١٤٣	١٨	ذلك	ذاك
١٤٨	٣	ستقر	استقر
١٥٥	١٢	النبوئة	النبوة
١٥٥	٢٣	لـ	
١٥٥	١١	فصل	فضل

الاشتراك عن سنة ٣٠ فرنكا — امين المال محمد الهادي ابن القاضي

المجلة الزيتونية

مجلة علمية أدبية اخلاقية

تصدرها الهيئة من مدرسي جامع الزيتونة المعمور

شهرية وسنتها عشرة اشهر

الجزء الرابع	تونس - في صفر الخير ١٣٥٨ - افريل ١٩٣٩	المجلد الثالث

رئيس قلم التحرير .

محمد المختار بن محمود

المفتي الحنفي

بالديار التونسية

صاحب المجلة والمدير :

محمد الشاذلي ابن القاضي

المدرس من الطبقة الاولى بجامع الزيتونة

والخطيب الثاني بجامع حموده باشا

المراسلات :

ترد باسم مدير المجلة بمحل الادارة

الادارة :

نهج الباشا رقم ٣٣ بتونس - تليفون ٤٩-٢٦

حساب جاري بادارة البريد رقم ٣٤٢٢

المطبعة التونسية نهج سوق البلاط عدد ٥٧

فهرس العدد

المجلد الثالث — الجزء الرابع

الاشتراك

الادارة نهج الباشا رقم ٣٣ — تونس

عن سنة بالحاضرة وبلدان المملكة والجزائر والمغرب الاقصى وسوريا فرنكات ٣٠

« في الخارج غير البلاد المذكورة فرنكات ٤٠

يخصم الربع للتلامذة

وصولات الاشتراك لا تعتبر الا اذا كانت ممضاة من امين المال

محمد الهادي بن القاضي

والمخابرات المالية لا تكون الا معه

المجلة الزيتونية

مجلة علمية أدبية اخلاقية

تصدرها هيئة من مدرسي جامع الزيتونة المعمور

شهرية وسنتها عشرة اشهر

المجلد الثالث	تونس – في صفر الخير ١٣٥٨ – افريل ١٩٣٩	الجزء الرابع

رئيس قلم التحرير :

محمد المختار بن محمود

المفتي الحنفي

بالديار التونسية

صاحب المجلة والمدير :

محمد الشاذلي ابن القاضي

المدرس من الطبقة الاولى بجامع الزيتونة

والخطيب الثاني بجامع حمودة باشا

المراسلات :

ترد باسم مدير المجلة بمحل الادارة

الادارة :

نهج الباشا رقم ٣٣ بتونس - تليفون ٢٦-٤٩

المطبعة التونسية نهج سوق البلاط عدد ٥٧

القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

من تفسير العلامة الهمام الشيخ سيدي محمد الطاهر ابن عاشور شيخ الاسلام المالكي

أولئك على هدى من ربهم - الاشارة الى المتقين الذين اجرى عليهم من الصفات ما تقدم والاصل في الاشارة ان تعود الى ذات مشاهدة معينة الا ان العرب قد يخرجون بها عن الاصل فتعود الى ذات مستحضرة من الكلام بعد ان يجري من صفاتها واحوالها ما ينزلها منزلة الحاضر في ذهن المتكلم والسامع فان السامع اذا وعى تلك الصفات وكانت مهمة في بابها او غريبة في خير او ضده تاقت نفسه الى مشاهدة الموصوفين بها فيلوح المتكلم الى انه علم توقان نفس السامع لمشاهدة المتحدث عنه فيحاول احضاره له ويتخيل انه احضره حتى انه يشير اليه فيومىء بتلك الاشارة الى انه لا اوضح في تشخصه ولا اغنى في مشاهدته من تعرف تلك الصفات فتكفي الاشارة اليها ونظيره في غير باب الاشارة قول الشاعر : (واني من القوم الذين هم هم)

اي الذين يخبر عنهم بنفس اسمهم المخبر عنه هذا اصل الاستعمال في ايراد الاشارة بعد ذكر صفات مع عدم حضور المشار اليه ثم انهم قد يتبعون اسم الاشارة الوارد بعد تلك الاوصاف بأحكام فيدل ذلك على ان منشأ تلك الاحكام هو تلك الصفات المتقدمة على اسم الاشارة لانها لما كانت هي طريق الاستحضار بالاشارة لاهل تلك الصفات قامت الصفات مقام الذوات المشار اليها فكما ان الاحكام الواردة بعد اسماء الذوات تفيد انها ثابتة للمسميات فكذلك الاحكام الواردة بعد ما هو للصفات تفيد انها ثبتت للصفات فقوله اولئك على هدى من ربهم بمنزلة ان تقول ان تلك الاوصاف هي سبب تمكنهم من هدي ربهم اياهم ونظيره قول حاتم الطاءي

ولله صعلوك يساور همه ويمضي على الاحداث والدهر مقدما

فتى طلبات لا يرى الخمص ترحة ولا شبعة ان نالها عد مغنما

الى ان قال :

فذلك ان يهلك فحسنى ثناؤه وان عاش لم يقعد ضعيفا مذمما (١)

فقوله اولئك على هدى. جملة مستأنفة وهذا التقدير اظهر معنى وانسب بلاغة واسعد باستعمال اسم الاشارة في مثل هاته المواضع لانه اظهر في كون الاشارة لقصد التنويه بتلك الصفات المشار اليها ولما يرد بعد اسم الاشارة من الحكم الناشيء عنها وهذا لا يحصل الا بجعل اسم الاشارة مبتدأ اول في صدر جملة استئناف .

وقوله على هدى من ربهم. تمثيل لحالهم بأن شبهت هيئة تمكنهم من الهدى وثباتهم عليه والسير في طريق الخيرات بهيئة الراكب في الاعتلاء على المركوب والتمكن من تصريفه والقدرة على اراضته فشبهت حالتهم المنتزعة من متعدد بتلك الحالة المنتزعة من متعدد تشبيها ضمنيا دلت عليه كلمة على المفيدة للاستعلاء لان الاستعلاء اقوى انواع تمكن شيء من شيء ووجه دلالتها على ان المستعلى عليه مركوب دون ان يكون كرسيا او مسطبة مثلا لان ذلك هو الذي تسبق اليه افهامهم عند سماع ما يدل على الاستعلاء اذ الركوب هو اكثر انواع استعلائهم فهو الحاضر في اذهانهم ولذلك نراهم حين يصرحون بالمشبه به او يرمزون اليه ما يذكرون الا المركوب وعلائقه فيقولون جعل الغواية مركبا وامتطى الجمل وفي المقامات وربما اقتعد غارب الاغتراب وركب متن عمياء ويخبط خبط عشواء قال النابغة يهجو عامر ابن الطفيل الغنوي

فان يك عامر قد قال جهلا فان مطية الجهل الشباب

فتكون كلمة « على » هنا بعض المركب الدال على الهيئة المشبه بها على وجه الايجاز والتقدير أولئك على مطية الهدى فهي تمثيلية تصريحية الا ان المصرح به بعض المركب الدال لا جميعه وانما نكر هدى ولم يعرف باللام لمساواة التعريف التنكير هنا اذ لو عرف لكان التعريف تعريف الجنس فرجح التنكير تمهيدا لوصفه بانه من عند ربهم ولان التنكير يفيد بالقرينة في مقام المدح انه ما يراد منه الافراد ولا النوعية فتعين قصد التعظيم على حد قول ابن خراش الهذلي(٢)

---

(١) الصعلوك بضم الصاد اصله الفقير ويطلق على المتلصص لان الفقر يدعوه الى التلصص لانهم ما كانوا يرضون باكتساب ينافي الشجاعة ويكسب المذلة كالسرقة والسؤال فحاتم يمدح الصعلوك الذي لا يقتصر على التلصص بل يكون بشجاعته عدة لقومه عند الحاجة

(٢) ابو خراش بكسر الخاء اسمه خويلد بن مرة الهذلي والخراش سمة تجعل للبعير فهو مخروش كان هذا الشاعر فارسا عداء يعدو على قدميه فيسبق الخيل. ادرك الجاهلية واسلم وله صحبة وتوفي في زمن عمر رضي الله عنه . والبيت من ابيات رثى بها خالد بن زهير الهذلي من سادة هذيل . وقوله فلا . قسم وهو تاكيد كانه يقول لا اقسم ثم يقسم ايذانا بعظم شان المقسم به وان الحالف به يخشى

فلا وابي الطير المربة في الضحى على خالد لقد وقعت على لحم

اي على لحم عظيم بقرينة المدح

واولئك هم المفلحون - مرجع الاشارة الثانية عين مرجع الاولى ووجه تكرير اسم الاشارة التنبيه على ان كلتا الاثرتين جديرة بالاعتناء والتنويه فلا تذكر احداهما تبعا للاخرى بل تخص بجملة واشارة خاصة ليكون اشتهارهم بذلك اشتهارا بكلتا الجملتين وانهم ممن يقال فيه كلا القولين

وقوله هم المفلحون - الضمير للفصل والتعريف في المفلحون للجنس وهو الاظهر اذ لا معهود هنا بحسب ظاهر الحال بل المقصود افادة ان هؤلاء مفلحون وتعريف المسند بلام الجنس اذا حمل على مسند اليه معرف افاد الاختصاص فيكون ضمير الفصل لمجرد تأكيد النسبة اي تاكيد الاختصاص والفلاح الفوز وصلاح الحال فيكون في احوال الدنيا واحوال الآخرة والمراد به في اصطلاح الدين الفوز بالنجاة من العذاب في الآخرة والفعل منه افلح اي صار ذا فلاح وانما اشتق منه الفعل بواسطة الهمزة الدالة على الصيرورة لانه لا يقع حدثا قائما بالذات بل هو جنس تحف افراده بمن قدرت له - قال في الكشاف انظر كيف كرر الله عز وجل التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله احد على طرق شتى وهي ذكر اسم الاشارة وتكريره وتعريف المفلحين وتوسيط ضمير الفصل بينه وبين اولئك ليبصرك مراتبهم ويرغبك في طلب ما طلبوا وينشطك لتقديم ما قدموا

(ان الذين كفروا سواء عليهم أ أنذرتهم أم لم تنذرهم) هذا انتقال من الثناء على هذا الكتاب ووصف هديه واثر ذلك الهدي في الذين اهتدوا به والثناء عليهم الراجع الى الثناء على الكتاب لان كمال الثناء انما يظهر اذا تحققت آثار الصفة التي استحق بها الثناء ولما كان الضد بالضد يقدر انتقل الكلام على حال الذين لم يحصل لهم الاهتداء فنعى عليهم حالهم وسجل ان حرمانهم من الاهتداء بهديه انما كان من تلقاء انفسهم اذ نبوا بها عن ذلك فما كانوا من الذين يفكرون في عاقبة امورهم ويحذرون

الحنث فيهم بان لا يحلف . ولفظ الاب هنا مقحم على عادتهم في تعظيم المحلوف به ان يقولوا بابيك لانه حلف به وبابيه في المعنى . والمربة المقيمة من لرب بالمكان اقام . وقوله وقعت خطاب للطير وهو التفات وفي البيت تنويه بالميت اذ حلف بالطير الذي اكلت لحمه لان ذلك اكسبها عظمة وشرفا ودليل على عظم شانه انه تردد في الحلف بطيره ثم حلف بابيها وهذه الرواية في البيت في غاية البلاغة ونقل عن الزمخشري انه كان اذا انشده يقول ما افصحك يابيت المربة . وذكر التفتزاني في شرح الكشاف ان الموجود في ديوان الهذليين برواية اخرى وهي

لعمر ابي الطير المربة بالضحى على خالد لقد عكفن على لحم

على ان لعمر ابي قسم الشاعر بابيه والطير مرفوع مبتدأ وخبره قوله عكفن الخ وهو من العكوف وهو الملازمة ولا يخفى ان هاته الرواية تفيت معنى كمال التعظيم الثابت للمرثي بمدح الطير الآكلة للحمه على ان في هاته الرواية تكرير غير حسن وهو الجمع بين المربة وعكفن وبعضهم يذكر في لفظ الآية هنا وجوها فاسدة .

سوء العواقب فلم يكونوا من المتقين وكان سواء عندهم الانذار وعدمه فلم يتلقوا الانذار بالتأمل بل كان سواء والعدم عندهم وقد قرن في هذه الآيات فريقان فريق صمم على الكفر والعناد والمراد بهم هنا المشركون كما هو غالب اصطلاح القرءان في لفظ الذين كفروا وفريق اظهر الايمان خداعا وهم المنافقون المشار اليهم بقوله تعلى ومن الناس من يقول ءامنا بالله . وانما قطعت هاته الجملة عن التي قبلها لان بينهما كمال الانقطاع اذ الجمل السابقة لذكر الهدى والمهتدين وهذه لذكر الضالين فبينهما كمال الانقطاع لاجل التضاد وصدرت الجملة بان التي من شأنها التأكيد ورد الشك اما لمجرد الاهتمام بالخبر من غير قصد الى دفع شك لان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللامة وهو خطاب انف بحيث لم يسبق شك في وقوعه . ومجيء ان للاهتمام كثير في الكلام وهو في القرءان كثير وقد تكون ان هنا لرد الشك على اصلها بتخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر لان حرص النبي على هداية الكافرين تجعله يطمع في نفع الانذار لهم وحاله كحال من شك في نفع الانذار او لان السامعين من المسلمين لما اجري على الكتاب الثناء ببلوغ الدرجة القصوى في الهداية يطمعون ان تؤثر هدايته في الكافرين المعرضين فجعلوا كالذين يشكون في ان يكون الانذار وعدمه سواء فاخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ونزل غير الشاك منزلة الشاك . والكفر بالضم اخفاء النعمة وبالفتح الستر مطلقا وهو مشتق من كفر اذا ستر ولما كان انكار الخالق وانكار كماله وانكار ما جاءت به رسله ضربا من كفران نعمته اطلق عليه اسم الكفر وغلب استعماله في هذا المعنى والموصول ياتي لما تاتي له اللام فاما ان يكون هنا لتعريف العهد مرادا منه قوم معهودون كابي جهل والوليد بن المغيرة وهذا بعيد لعدم انحصارهم واما ان يكون لتعريف الجنس اي جنس من ثبت له الكفر على ان المراد من الكفر ابلغ انواعه بقرينة مقابلته بالذين يؤمنون بالغيب والذين يؤمنون بما انزل فالمراد كافرون عرفوا بالمكابرة في الكفر والدوام عليه حتي صار الكفر هو حالتهم التي لا يعرفون الا بها فجعل صلة للموصول للتعريف بهم فيكون الفعل قد افاد قوة الكفر ولا بدع في ذلك اذ الفعل لما كان مدلوله نكرة كان صالحا لان يراد به ما يراد بالتنكير والحاصل انه ليس المراد من قوله الذين كفروا هنا ما اريد منه في نحو قوله تعلى قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ونحو قوله تعلى وقال الذين كفروا للذين ءامنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه . لان من اولئك من انتقل من الكفر الى الاسلام بعد ان كان اشد الناس على المسلمين مثل ابي سفيان . وقوله سواء عليهم آنذرتهم ام لم تنذرهم . سواء فيه اسم بمعنى الاستواء فهو اسم مصدر دل على ذلك لزوم افراده وتذكيره مع اختلاف موصوفاته ومخبراته فاذا اخبر به او وصف كان ذلك كالمصدر في ان المراد به معنى اسم الفاعل لقصد المبالغة . وقد قيل ان سواء اسم بمعنى المثل فيكون التزام افراده وتذكيره لان المثلية لا تتعدد وان تعدد موصوفها تقول هم رجال سواء لزيد بمعنى مثل لزيد . وانما ع‍ـدي سواء بعلى هنا وفي غير موضع ولم يعلق بعند ونحوها للاشارة الى تمكن الاستواء عند المتكلم وانه لا مصرف له عنه ولا تردد له فيه (لايؤمنون) الاظهر ان هذه الجملة مسوقة لتقرير معنى الجملة التي قبلها وهي سواء عليهم آنذرتهم الخ مستانفة ولذلك فصلت وليست تأكيدا للجملة الاولى ولا بيانا ولا بدلا ولا حالا من ضمير عليهم ولا خبرإن وان قيل بجميع ذلك .

الحديث الشريف

« باب » ما ينهى عن التحاسد والتدابر

وقوله تعلى : ومن شر حاسد اذا حسد (من صحيح البخاري)

حدثنا ابو اليمان اخبرنا سعيد عن الزهري قال حدثني انس ابن مالك رضي الله عنه ان رسول صلى الله عليه وسلم قال : لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام ※

قد تقرر في الشريعة المطهرة حث الشارع على جلب المودة بين المسلمين وتالف أرواحهم وقلوبهم على الوجه المتين كما اشار الى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . وقد بين الشارع ما يحفظ هذا البنيان وما يفضي به الى التداعي والامتهان ومن أعظم الاصول المتكفلة بهذا الغرض هذا الحديث وهو قوله صلى الله عليه وسلم : لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا - الحديث . والتباغض تفاعل من البغض وهو خلاف المحبة وأصل التفاعل أن يكون بين اثنين وقد يكون من واحد كما تقرر في العربية وهو المراد هنا في الافعال الثلاثة . والتدابر كما في شرح مسلم للنووي المعاداة وقيل المقاطعة كما في العمدة وقال إمام دار الهجرة : لا أحسب التدابر الا الاعراض عن السلام يدبر عنه بوجهه . والتحاسد من الحسد وهو كما فسره الغزالي في الاحياء كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه اه . قال شهاب الدين القرافي في الفرق الثامن والخمسين بعد المائتين : والحسد حسدان احدهما تمني زوال النعمة وتحولها للحاسد . ثانيهما تمني زوال النعمة من غير طلب حصولها للحاسد وهو شر الحسدين لانه طلب المفسدة الصرفة من غير معارض عادي ولا طبيعي . وهو حرام بالكتاب والسنة والاجماع . فاما الكتاب فقوله سبحانه وتعالى : أم يحسدون الناس على ما آتهم الله من فضله . وقوله سبحانه وتعالى : ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض . أي لا تتمنوا زواله لان قرينة النهي دلت على حذف المضاف . وأما السنة فحديث الباب وغيره . وأما الاجماع فقد أجمعت الايمة على تحريمه اه . ومن أدلة تحريمه في التنزيل قوله جلت عظمته : ومن شر حاسد اذا حسد . قال القاضي

※ هذا درس من دروس ختم الحديث الشريف التي كان قام بها العلامة المقدس الشيخ الشاذلي ابن القاضي بجامع حمودة باشا المرادي

البيضاوي وتبعه مفتي السلطنة أبو السعود في التفسير معنى قوله سبحانه وتعالى : اذا حسد، إذا أظهر ما في نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه بترتيب مقدمات الشر ومبادي الاضرار بالمحسود قولا أو فعلا اه. قال الشهاب القنوي في حواشيه، أوله بما ذكر ليندفع اشكال في الآية وهو ان قوله سبحانه وتعالى اذا حسد، مع قوله ومن شر حاسد، خال عن الفائدة بحسب الظاهر وحاصل الدفع ان فائدة التقييد بههي ان ضرر الحسد قبل اظهار الحاسد إياه إنما يحيق بالحاسد لان الحاسد يحصل له الغم في الدنيا بسرور المحسود اه، وهل يأثم بذلك حتى يستحق العقاب ؟ قال الغزالي في الاحياء هو محل اجتهاد فقد ذهب ذاهبون الى أنه لا يأثم بمجرد محبة زوال النعمة عن المحسود اذا لم يظهر الحسد على جوارحه قال والاظهر انه اذا لم يظهر الحسد على جوارحه فأما مع فعل للقلب هو ميله عن تلك المحبة ومقت نفسه عليها بمحض العقل حتى يود أنه تكون له حيلة في إزالة تلك المحبة أولا فان كان الاول فهو معفو عنه قطعا لانه لا يدخل تحت الاختيار أكثر من ذلك وإن كان الثاني فالظاهر أنه لا يخلو عن إثم بقدر قوة تلك المحبة وضعفها، نعم هذا النوع ليس مظلمة يجب الاستحلال منها بل معصية بينه وبين الله سبحانه وتعالى، والدليل على هذا ظواهر الآيات والاخبار قال سبحانه وتعالى : ان تمسسكم حسنة تسؤهم، وقال سبحانه وتعالى : ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء، ومن الاخبار حديث الباب وغيره فانها تدل بظواهرها على أن كل حاسد آثم ويبعد من حيث المعنى أن يعفى عن العبد في إرادته مساءة مسلم واشتمال قلبه على ذلك من غير ميل قلبه عن تلك الارادة وكراهته لها اه، قلت لعل ما ذهب اليه القوم مبني على ما هو المقرر في الاصول والكلام من أنه لا تكليف إلا بفعل ومجرد المحبة المذكورة من غير انضمام شيء آخر اليها من الافعال ليس بفعل المكلف لانها من الامور الباطنية الراجعة الى الكيفيات النفسانية ولا تكليف بها من حيث هي وما ذهب اليه الغزالي مبني على ذلك أيضا الا ان الاثم المترتب ليس على مجرد تلك المحبة المذكورة بل على ترك فعل النفس وهو ميل قلبه عن تلك المحبة وهو فعل من أفعال النفس ولما لم يفعل ذلك فقد ترك ما هو مطلوب منه وبتركه ذلك كان آثما، وسياتي لهذا زيادة تحرير إن شاء الله تعالى، وعلى هذا فيحصل التوفيق ويكون الخلاف لفظيا فان قلت معنى قوله جل جلاله ومن شر حاسد إذا حسد مستفاد من قوله سبحانه وتعالى أول السورة من شر ما خلق فانه عام في كل ما يستعاذ منه فما فائدة الاستعاذة بعده من الحسد ؟ قلت الفائدة كما ذكره الرازي في التفسير هي التنبيه على أن الحسد من أعظم أنواع الشرور اه، ويؤيده ما نقله صاحب روح البيان عن الحسين بن الفضل رحمه الله تعالى أن الله سبحانه وتعالى ذكر الشرور في هذه السورة ثم ختمها بالحسد ليظهر أنه أخبث الطبائع كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما اه، ولاجل خبثه قال الغزالي هو من الامراض القلبية ولا دواء لها الا العلم والعمل فاما العلم النافع في ذلك فهو أن يعرف الحاسد أن الحسد ضرر عليه في الدين والدنيا وانه لا ضرر على المحسود في الدين والدنيا بل ينتفع به فيهما

ومهما عرف الحاسد ذلك فارق الحسد. أما كونه ضررا عليه في الدين فان فيه كراهة نعمة الله التي قسمها بين عباده وعدم نصيحتهلهم وقد قال صلى الله عليه وسلم كما في البخاري: الدين النصيحة لله ولرسوله ولايمة المسلمين وعامتهم. واما كونه ضررا عليه في الدنيا فان الحاسد يتالم بحسده ويتعذب به. واما انه لا ضرر على المحسود في الدين والدنيا فواضح لان النعمة لا تزول عنه بحسد الحاسد بل ما قدره الله سبحانه وتعالى فلا بد وان يدوم الى اجل معلوم. واما انه ينتفع به فيهما فواضح ايضا. اما منفعته في الدين فهو انه مظلوم من جهة الحاسد. واما منفعته في الدنيا فهو ان اهم غرضه ان يرى حاسده معذبا بعذاب الحسد اذ لا عذاب اعظم من عذابه. واما العمل فهو ان يحكم الحسد فكل ما يتقاضاه الحسد من قول او فعل فينبغي ان يكلف نفسه نقيضه فان بعثه الحسد على القدح في المحسود كلف لسانه المدح له والثناء عليه وان بعثه على كف الانعام عليه كلف نفسه الزيادة في الانعام عليه وهكذا ثم ان الحسد يقابله الغبطة قال شهاب الدين القرافي في الفرق الثامن والخمسين بعد المائتين الغبطة تمني حصول مثل نعمة الغير من غير تعرض لطلب زوالها عن صاحبها وهي مباحة لعدم تعلقها بمفسدة البتة وقد يعبر عنها بلفظ الحسد قال صلى الله عليه وسلم لا حسد الا في اثنتين رجل اتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار ورجل اتاه الله مالا فهو ينفق منه آناء الليل والنهار. أي لا غبطة الا في هاتين اه فان قلت ما قرره الشهاب القرافي من ان الغبطة مباحة فقط حيث اقتصر عليه مع ان المقام للبيان ينافيه ما قرره الغزالي في الاحياء من انها تكون واجبة ومندوبة ومباحة فاما الواجبة ففيما اذا كانت نعمة الغير دينية واجبة كالصلاة والزكاة ونحوهما فانه يجب عليه ان يتمنى مثلها لنفسه حتى يكون مثل ذلك الغير لانه اذا لم يحب ذلك يكون راضيا بالمعصية وذلك حرام. واما المندوبة ففيما اذا كانت نعمة الغير دينية غير واجبة كفضائل الاعمال من انفاق المال في المكارم والصدقات واما المباحة ففيما اذا كانت نعمة الغير نعمة يتنعم بها على وجه مباح وكل ذلك يرجع الى ارادة مساواته له واللحوق به في النعمة وليس فيه كراهة تلك النعمة اه قلت لا تنافي بينهما لان الشهاب القرافي لم يرد بالاباحة التخيير بين الفعل والترك الذي هو احد معنيين للاباحة بل اراد بالاباحة الاذن وعدم الحرج في الفعل وهو المعنى الثاني لها كما قرره هو بنفسه في شرح المحصول قال: وهو شامل للواجب والمندوب والمباح بالمعنى الاول والمكروه. قرره ابو اسحاق الشاطبي في الموافقات حيث قال: المباح يطلق باطلاقين من حيث هو مخير فيه بين الفعل والترك ومن حيث يقال لا حرج فيه اه. وقوله صلى الله عليه وسلم لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا. نهي عن التباغض والتحاسد والتدابر وليس المراد خصوص التفاعل كما تقدم وقد تقرر في الاصول ان النهي عن الشيء يقتضي عدم حسنه بمعنى ان المنهي عنه متعلق الذم عاجلا والعقاب آجلا بحكم الشارع وعدم الحسن على قسمين اما لذاته وضعا كالظلم وهو التعدي على الغير من غير وجه شرعي ومن هذا القسم المنهي عنه في التباغض

والتدابر والتحاسد فان المنهي عنه في التباغض والتدابر ما يسبقهما من الاهواء المضلة الموجهة لهما والمنهي عنه في التحاسد ما يترتب عليه من البغي والظلم بالجوارح كما ياتي تحريره او شرعا كبيع الحر فان الشرع جعل محل البيع المال المتقوم حال العقد لتحصل الفائدة والحر ليس بمال وحكم هذا القسم بفرديه عدم المشروعية مطلقا لا بأصله ولا بوصفه وهو البطلان كما تقرر في الاصول . واما لغيره بمعنى ان عدم حسنه لامر خارج عنه وهذا الامر الخارج اما وصف لازم كالبيع بالشرط الذي لا يقتضيه العقد فان النهي عنه لامر خارج وهو ما فارق العقد من الشرط وهو وصف لازم له لا ينفك عنه ومن هذا النوع النهي عن جميع الافعال الشرعية الخالي عن القرينة الدالة على ان النهي عنه لعدم الحسن لذاته او لغيره والمقرون بالقرينة الدالة على ان النهي عنه لعدم الحسن لغيره وحكمه عدم المشروعية بوصفه والمشروعية باصله وهو الفساد عندنا . واما مجاور كالصلاة في الارض المغصوبة فان النهي عنها لامر خارج مجاور لها وهو شغل المكان من حيث انه تعد على ملك المغصوب منه وهو ليس بوصف لازم بل يمكن انفكاكه بان ياذن مالكه له في الحال او ينتقل اليه ملك الارض في الحال بهبة ونحوها وحكم هذا النوع الكراهة التحريمية اجماعا بيننا وبين الشافعية كما صرح به صدر الشريعة في التوضيح . وخالفونا فيما قبله فقالوا ان النهي عن الافعال الشرعية يقتضي عدم الحسن لذاته وحكمه عدم المشروعية مطلقا لا باصله ولا بوصفه وهو البطلان . وخالفت الحنابلة في الجميع فقالوا ان النهي عن الشرعيات للوصف او للمجاور يقتضي عدم الحسن لذاته وحكمه عدم المشروعية مطلقا لا باصله ولا بوصفه وهو البطلان وبناء على ما تقرر فنحن قلنا بصحة اصل العقد الذي فيه شرط لا يقتضيه العقد دون وصفه ويترتب عليه انه اذا قبض المشتري المعقود عليه ملكه لصحة اصل العقد لتوفر اركانه من العاقدين والمعقود عليه وشروط انعقاده من الاهلية ونحوها فكان اصل العقد سالما لا فساد فيه الا ان ملكه له ليس مباحا شرعا حتى انه يلزم كل واحد من متعاقديه فسخه ما دام لم يتعذر الفسخ وللقاضي اذا اطلع عليه فسخه ما لم يتعذر أيضا أما إذا تعذر بأن وقفه وقفا صحيحا أو وهبه وسلمه للموهوب له فإنه يلزم العقد ويتقرر الملك الاصلي ويلزمه التوبة لارتكابه عدم المباح . وقالت الشافعية والحنابلة بفساد أصل العقد ووصفه حتى إن المشتري إذا قبضه لم يملكه أصلا ضرورة أن ملكه له إنما هو بالعقد ولا عقد أصلا فلا يترتب عليه الملك فلا ينفذ شيء من تصرفات المشتري فيه . ولما خالفت الحنابلة في مسئلة المجاور أيضا قالوا ببطلان الصلاة في الارض المغصوبة وبطلان الوضوء بالماء المغصوب على ما نقله شهاب الدين القرافي في الفرق السبعين بناء على ان النهي عندهم يعتمد المفاسد في أصل الماهية فمهما ورد نهي من الشارع أبطلوا ذلك التصرف سواء كان من العبادات أو المعاملات لفساد نفس الماهية المنهي عنها فكانت معدومة شرعا فلا تترتب آثارها . استدلت الحنفية بدليلين كما في مختصر ابن الحاجب الاصولي أحدهما

ان النهي لو لم يدل على الصحة لكان المنهي عنه غير الشرعي. قال العضد في بيانه واللازم باطل أما الملازمة فلان المنهي عنه إذا لم يكن صحيحا لم يكن شرعيا معتبرا لان الشرعي المعتبر هو الصحيح وأما بطلان اللازم أعني كون المنهي عنه غير الشرعي فلانا نعلم ان المنهي عنه في صوم يوم النحر والصلاة في الاوقات المكروهة انما هو الصوم والصلاة الشرعيين لا الامساك والدعاء وأجاب عنه ابن الحاجب في المختصر بمنع ان الشرعي هو المعتبر شرعا. قال العضد بل الشرعي هو ما يسميه الشارع بذلك الاسم وهو الصورة المعينة سواء كانت صحيحة أو لا كما يقال صلاة صحيحة وصلاة فاسدة والدليل عليه قوله صلى الله عليه وسلم دعي الصلاة أيام اقرائك. وصلاة الحائض لا تصح أصلا لا بأصلها ولا بوصفها اتفاقا اه قال الفاضل الابهري في حواشي العضد وحاصل الجواب ان الحنفية ان أرادوا بالشرعي المعتبر شرعا كما وقع التقييد به في الاستدلال فالملازمة صحيحة وقولهم اللازم باطل ممنوع فانا نلتزم ان المنهي عنه غير المعتبر شرعا وإنما هو ما يسميه الشارع بذلك الاسم سواء كان معتبرا أم لا وإن أرادوا بالشرعي ما يسميه الشارع بذلك الاسم سواء كان صحيحا أو لا فالملازمة ممنوعة لانه لا يلزم من كون النهي لا يدل على صحة أصل المنهي عنه أن يكون المنهي عنه غير الذي يسميه الشارع بالاسم المعين اه وأجاب عن المنع المذكور المحقق الفنري في فصول البدائع بأن المراد بالشرعي هو المعتبر شرعا ولا يصح إرادة المعنى الآخر حتى يقع منع بطلان اللازم والدليل عليه انه لو كان المراد بالشرعي ما يسميه الشارع بالاسم المعين سواء كان صحيحا أو لا لكان المنهي عنه هو مجرد الصورة مطلقا فيكون مجرد الصورة هو المعتبر في الثواب بقصد اجتنابه والعقاب بارتكابه وليس كذلك قطعا لان الصورة بدون شرائطها كصورة الصلاة بدون النية واستقبال القبلة وغيرهما وكصورة البيع بدون شرائط انعقاده من أهلية المتعاقدين ونحوه عبث لا يترتب عليه ثواب ذلك الفعل المعد له شرعا ولا عقابه لان مفسدة النهي انما هي في الاتيان بالمقيد بقيوده المعتبرة فيه لا بمجرد صورته وإلا لزم أن يكون كل أحد مثابا بترك صور المناهي وإن لم تنعقد أسبابها وشرائط انعقادها وليس كذلك أجماعا فتعين أن المنهي عنه في الافعال الشرعية هو الشرعي المعتبر لا ما يسمى به مطلقا. وما استند اليه العضد من الحديث حيث دل على أن المنهي عنه فيه ليس بصحيح لا بأصله ولا بوصفه اجماعا لا يدل له لان النهي هنا مجاز عن النفي اه قال السيد الشريف في حواشي التلويح للدليل الذي دل على ذلك وهو اشتراط الطهارة عن الحيض وغيره في الصلاة الثابت بالنص على وفق القياس والكلام في النهي إذا كان على حقيقته فلم يكن عدم صحة الاصل والوصف من حيث كونه نهيا عن امر شرعي بل من حيث كونه نفيا له وهو معنى النسخ ومثله قوله تعلى ولا تنكحوا ما نكح ءاباؤكم من النساء والنهي عن بيع المضامين والملاقيح وما كان نحو ذلك

ثانيهما ان المنهي عنه لو لم يكن صحيحا لكان ممتنعا فلا يمنع عنه لان المنع عن الممتنع عبث وهو

محال قال سعد الدين التفتازاني في التلويح وتحقيقه ان المنهي عنه يجب ان يكون ممكن الوجود متصورة بحيث لو اقدم عليه يوجد حتى يكون العبد مبتلى بين ان يقدم على الفعل فيعاقب وبين أن يكف عنه قصدا فيثاب فيكون كل من الاتيان والترك مضافا الى اختياره ولو لم يكن ممكنا لكان عدم وقوع المنهي عنه لعدم امكانه وامتناعه في نفسه لا لامتناع العبد عنه باختياره فلا يثاب عليه لان النهي حينئذ يصير نسخا وهو غير النسخ فان النسخ لبيان ان الفعل لم يبق متصور الوجود شرعا كالتوجه الى بيت المقدس ونحوه واذا قلنا انه ممتنع شرعا فورود النهي عنه مع كونه ممتنعا شرعا عبث وهو محال. واجاب عنه ابن الحاجب في المختصر بمنع كونه عبثا وتفصيله كما في العضد ان النهي لا يكون عبثا مع القول بانه ممتنع الوقوع الا لو كان امتناعه بغير النهي كما قالوا في تحصيل الحاصل انه اذا كان حاصلا بهذا التحصيل لم يكن عبثا كذلك هنا نقول ان امتناعه بهذا المنع فلا يكون عبثا. واجاب عن المنع المذكور السيد الشريف في حواشي التلويح بان القول بذلك ينفي الاختيار ويعدم الابتلاء لانه اذا كان ممتنعا فهذا النهي لا يكون وجوده في المستقبل متصورا شرعا اذ تصوره الشرعي لا يكون الا بمشروعيته واذا فاتت مشروعيته امتنع وجوده الشرعي لا محالة فبطل الاختيار وسقط الابتلاء فعاد على موضوعه بالنقض لان النهي ابتلاء واختبار كالامر. واجاب عن الاستدلال المذكور الامام الغزالي في المستصفى بتسليم انه لا بد من امكان المنهي عنه بعد النهي لكن نمنع انه لا بد من الامكان الشرعي بل الامكان اللغوي كاف . وكون المامورات مثل الصلاة والصوم والبيع مستعملة فى معانيها الشرعية والمنهيات في المعاني اللغوية فانما ذلك للعرف الطاري بين اهل الشرع في المامورات وما وجدنا ذلك العرف في المنهيات فبقيت على معانيها اللغوية اه واجاب عنه صدر الشريعة في التوضيح بان امكان المعنى اللغوي لا يكفي بل لا بد من امكان المعنى الشرعي لان المعنى اللغوي الذي هو مجرد القول مثلا في البيع وهو بعت واشتريت من غير اعتبار الربط الشرعي بينهما المحصل لمعنى شرعي وهو البيع الذي يترتب عليه اثره من الملك ونحوه لا يوجب المفسدة التي نهي عن الفعل لاجلها فان المعنى اللغوي لا فساد فيه حتى ينهى عنه. قال في التلويح ونحن نقطع بان الحائض انما نهيت عما سماه الشارع صوما وصلاة لا عن نفس الامساك والدعاء اه

وقال المحقق منلا خسرو في مرءات الاصول : والمتعارف ان كل فعل نهي عنه فانما يعتبر امكانه بالنظر الى ما ينسب اليه من الحس والعقل والشرع فاذا كان الناهي الشارع وجب ان يكون المنهي عنه شرعيا فوجب امكانه شرعا حتى لا يعد عبثا اه

واستدلت الشافعية رضي الله عنهم بدليلين احدهما ان المنهي عنه لو كان صحيحا لكان مشروعا واللازم باطل لان اقل درجات المشروعية الاباحة وهي منتفية اجماعا بيننا وبينكم لعدم صحة اجتماعها مع النهي ضرورة ان المنهي عنه حرام فلا يكون مباحا فلا يكون مشروعا فالقول بانه صحيح غير مشروع جمع بين متنافيين. واجاب عنه اصحابنا كصدر الشريعة وغيره بانهم ان ارادوا انه يلزم من

القول بصحة اصل المنهي عنه القول بمشروعية الاصل والوصف فالملازمة ممنوعة لانه لا يلزم من كون اصل الماهية صحيحا ان يكون هو ووصفه مشروعين وان ارادوا انه يلزم من صحة الاصل مشروعيته فقط لا مشروعيته ووصفه فالملازمة مسلمة وبطلان اللازم ممنوع لان الذي قلنا بصحته اصله والذي قلنا بعدم مشروعيته وعدم اباحته وصفه فلا تنافي بين القول بالصحة والقول بعدم المشروعية لعدم توار دهما على محل واحد. وقال صدر الشريعة فنحن نقول بصحته لا باباحته والاثر من الملك ونحوه مترتب على الصحة اه قال المحقق منلا خسرو في مرءات الاصول : والمشروعات تحتمل هذا المعنى كالاحرام فان المحرم اذا أفسد حجه قبل الوقوف بعرفة يفسد احرامه ويجب عليه المضي في اعمال الحج حتى لو ارتكب بعد ذلك محظورا يجب عليه الجزاء وهو دليل بقاء المشروعية والا لما وجب عليه الجزاء ويجب عليه القضاء من قابل وهو دليل الفساد والا لما وجب عليه القضاء فالمشروعية وعدم الاباحة من جهتين مختلفتين فالمشروعية بالنظر للاصل وعدم الاباحة بالنظر للوصف اه

ثانيهما ان النهي حقيقة في اقتضاء عدم الحسن لذاته كالامر في كونه حقيقة في اقتضاء الحسن لذاته فكما ان المامور به يكون حسنا لذاته الا لدليل يدل على خلافه كذلك المنهي عنه يكون غير حسن لذاته الا لدليل يدل على خلافه بناء على ان المطلق يتناول الكامل

وحاصله ان مقتضى النهي حقيقة هو عدم الحسن الكامل وهو ما كان عدم حسنه لذاته وعدم الحسن لغيره قاصر وليس هو المقتضى حقيقة والعدول عن المقتضى الحقيقي الى المقتضى المجازي بلا موجب لا وجه له . واجاب عنه صدر الشريعة في التوضيح بان كمال المقتضى الذي هو عدم الحسن لذاته غير ممكن اعتباره هنا لانه لو اعتبر كاملا لبطل مقتضيه وهو النهي حيث لا يبقى على حاله فانه يكون حينئذ نسخا لمعنى النهي ولا يجوز اخراج الشيء عن معناه الحقيقي الا لدليل فاعتبار المقتضى المجازي مع بقاء اصل معنى النهي على حقيقته هو الواجب وما ذكروا من مسئلة الامر فهو كما قالوا لان الكمال هناك يحقق معنى الامر ويقرره اه

وحاصله كما في التلويح ان النهي يقتضي عدم الحسن والمنهي عنه يقتضي الامكان ولا بد من رعاية الامرين وذلك بان يحمل عدم الحسن الذي هو مقتضى النهي على عدم الحسن لغيره وهو لا ينافي الصحة والامكان فيكون في ذلك محافظة على مقتضى النهي وهو عدم الحسن وعلى المقتضي وهو النهي بان لا يكون نهيا عن غير الممكن وهو المستحيل بخلاف ما اذا حمل عدم الحسن الذي هو مقتضى النهي على عدم الحسن لذاته وحكم ببطلان المنهي عنه فانه يلزم اسقاط النهي واخراجه عن معناه الذي وضع له من الاختبار والابتلاء وجعله لغوا عبثا ولا يخفى ان ذلك امر محال

وقوله صلى الله عليه وسلم وكونوا عباد الله اخوانا امر بان يكونوا اخوانا لانهم مستوون في كونهم عباد الله وملتهم ملة واحدة فوجب عليهم ان يكونوا اخوانا . فان قلت الامر بان يكونوا

اخوانا كالنهي السابق عن التباغض والتحاسد والتدابر امر بما لا يطاق ونهي عما لايطاق وذلك لان هذه صفات قلبية لا دخل لقدرة العبد فيها اما كون الشخص يكون اخا لغيره فهذا من حيث ذاته لا قدرة له عليه لانه ليس بفعل له لا جارحي ولا قلبي وكل ما ليس بفعل له لا قدرة له عليه فلا يصح التكليف به فهو نظير قوله صلى الله عليه وسلم كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل . واما البغض والحسد والتدابر فهي من الصفات القلبية كما صرح به الغزالي في الاحياء وقد تقرر ان صفات القلوب لا قدرة للانسان على اثباتها ولا على نفيها . ففي الحديث جبلت القلوب على حب من احسن اليها وبغض من اساء اليها . وحيث كان امر الصفات القلبية التي لا قدرة للانسان على دفعها بالتكليف لدفعها او اثباتها تكليف بما لا يطاق وهو وان جاز عقلا كما تقرر في الوصول الا انه لم يجز شرعا كما صرح به ابو اسحاق الشاطبي في الموافقات فما معنى التكليف بهذه الاشياء امرا ونهيا حتى يترتب على ذلك الثواب والعقاب ؟

قلت قرر ابو اسحاق الشاطبي في الموافقات انه اذا ظهر من الشارع في بادىء الرأي القصد الى التكليف بما لا يدخل تحت قدرة العبد فذلك راجع في التحقيق الى سوابقه او لواحقه او قرائنه . فقوله سبحانه وتعلى « فلا تموتن الا وانتم مسلمون » وقوله صلى الله عليه وسلم كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل . وقوله صلى الله عليه وسلم لا تمت وانت ظالم . ليس المطلوب منها الا ما يدخل تحت القدرة وهو الاسلام والكف عن القتل وترك الظلم . فان الاوصاف التي طبع عليها الانسان كالشهوة الى الطعام والشراب لا يطلب برفعها ولا ما غرز في الجبلة منها فانه من تكليف ما لا يطاق ومثله لا يقصد الشارع طلبا له ولا نهيا عنه ولكن يطلب قهر النفس على الجنوح والميل الى ما لا يحل وارسالها بقدر الاعتدال في ما يحل فيكون التكليف بها راجعا الى ما ينشأ من الافعال من جهة تلك الاوصاف وهو داخل تحت كسب المكلف اه وبناء على هذا فكون المخاطبين مأمورين بان يكونوا اخوانا ومنهيين عن البغض والتدابر والحسد فانما هو باعتبار ما يسبق ذلك او يلحقه فان الامر بما ذكر انما هو امر بالمعاملة والمعاشرة التي تكون على وجه معاملة الاخوان ومعاشرتهم في المودة والرفق والشفقة والملاطفة والتعاون في الخير مع صفاء القلوب والنصيحة بكل حال كما قرره النووي في شرح مسلم والنهي عن البغض انما هو نهي عن الاهواء المضلة الموجبة له . قال الغزالي في الاحياء : وذلك مثل المارات والمضادة في المقاصد والغدر والهزل بالغير والتعيير وغير ذلك . والنهي عن الحسد نهي عما يلحقه من البغي والظلم بالجوارح من اللسان وغيره ولذا قال صلى الله عليه وسلم اذا حسدت فلا تبغ الحديث . ثم قال ابو اسحاق الشاطبي : ان الصفات القلبية على قسمين منها ما كان نتيجة عمل كالعلم والحب فان تحصيل العلم بالنظر المتقدم عليه وتحصيل الحب بالنظر في نعم المنعم وكثرة احسانه للمنعم عليه ومثل هذه الصفات يتعلق بها الثواب والعقاب من حيث انها مسببات عن اسباب مكتسبة . ولا

يقال كيف يثاب او يعاقب على ما لم يفعل . لانا نقول ان الثواب والعقاب انما ترتب في الحقيقة على ما فعله وتعاطاه لا على ما لم يفعله لكن الفعل يعتبر شرعا بما يكون ناشئا عنه من المصالح او المفاسد ومنها ما كان فطريا أي جبليا طبع عليه الانسان وذلك مثل الشجاعة والجبن والاناة والعجلة ومثل هذه الصفات يتبعها بلابد افعال اكتسابية فالتكليف بها تكليف بالافعال الناشئة عنها لا بما نشأت عنه تلك الافعال من تلك الصفات فالثواب والعقاب على تلك الصفات من حيث تلك الافعال لا من حيث ذاتها لان الثواب والعقاب لا يتعلقان بما هو غير مقدور المكلف . وما ورد في الشريعة من تعلق الحب والبغض بها كقوله صلى الله عليه وسلم : ان الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية . وقوله صلى الله عليه وسلم : ان الله يحب معالي الاخلاق ويكره سفاسفها ونحو ذلك فذلك من حيث متعلقاتها من الافعال فان الحب والبغض اما راجعان الى صفات الافعال على رأي قوم ومعناهما الانعام والانتقام . واما راجعان الى صفات الذات كارادة الانعام والانتقام على رأي آخرين . وعلى كلا الوجهين فهما راجعان للانعام والانتقام . وهما عين الثواب والعقاب . فيكون تعلقهما بهذه الاوصاف من حيث متعلقاتها التي هي افعال اكتسابية

والعطف في قوله : وكونوا عباد الله اخوانا من باب عطف اللازم . لانه يلزم من نهيهم عن الامور المذكورة امرهم باضدادها . ويجمع ذلك قوله : وكونوا عباد الله اخوانا . وصرح به لزيادة الاهتمام بعقد المودة بين المسلمين

وقوله صلى الله عليه وسلم : ولا يحل لمسلم ان يهجر اخاه فوق ثلاثة أيام : قال النووي : في شرح مسلم قال العلماء في هذا الحديث تحريم الهجر بين المسلمين اكثر من ثلاثة ايام واباحتها في الثلاثة . والاول بنص الحديث والثاني بمفهومه على مذهب من يحتج بالمفهوم . قالوا وانما عفى عن الهجر في الثلاثة ليذهب ذلك العارض . قال في الارشاد وذلك لان الغالب ان ما جبل عليه الانسان من الغضب ونحوه يزول عن المؤمن او يقل بعد الثلاثة بخلافه فيها

واما على مذهب من لا يحتج بذلك فليس في الحديث دلالة على اباحة الهجر في الثلاثة

قال الابي في شرح مسلم : فيكون حكم الهجر في الثلاثة مسكوتا عنه فيطلب في الشرع اه

قلت لم أر من نقل من شراح الحديث ولا من اصحابنا في كتبهم نصا في اباحة الهجر في الثلاثة وحينئذ فنرجع الى قاعدة هل الاصل في الاشياء الاباحة او التحريم او التوقف ؟ قال في الاشباه : ذهب الشافعي الى ان الاصل في الاشياء الاباحة حتى يدل الدليل على عدم الاباحة . قال الامام النسفي في شرحه للمنار : وهو مذهب بعض الحنيفة ومنهم الكرخي . وذهب بعض اصحاب الحديث الى ان الاصل فيها الحظر ونسب هذا القول الى ابي حنيفة . وذهب اصحابنا الى ان الاصل فيها التوقف بمعنى

الفتاوي والاحكام

الوقف في الاسلام

بقلم الاستاذ العلامة الهمام سيدي محمد
ابن يوسف شيخ الاسلام الحنفي

أصل الوقف بنوعيه الخيري والاهلي صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم روى الامام الخصاف بسنده الى سعد بن معاذ ان اول حبس في الاسلام صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبسنده الى المسور بن رفاعة عن ابن كعب انه قال اول صدقة كانت في الاسلام وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لابن كعب الناس يقولون صدقة عمر اول . فقال قتل مخيريق باحد على راس اثنين وثلاثين شهرا من مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) واوصى ان أصبت فاموالي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقبضها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتصدق بها . وهذا قبل ما تصدق به عمر وانما تصدق عمر بثمغ (٢) حين رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر سنة سبع من الهجرة .

وبروايته عن محمد بن بشر بن حميد عن أبيه قال سمعت عمر بن عبد العزيز في خلافته يقول سمعت بالمدينة

أنه لابد من حكم لكنا لم نقف عليه بالعقل .

وقال صاحب الهداية في فصل الحداد : ان الاباحة اصل . ويظهر اثر الخلاف في المسكوت عنه اه وحيث لا نص في المسالة تجري على هذا الخلاف كما لا يخفى

ثم انه اختلف فيما تنقطع به الهجرة . فقال اكثر العلماء ان الهجرة تزول بمجرد السلام ورده . وبه قال مالك في رواية عنه ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم المروي في صحيح البخاري وغيره : لا يحل لرجل ان يهجر اخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام . وقال أحمد بن حنبل وابن قاسم لا يبرأ من الهجرة الا بعوده الى الحال التي كان عليها اولا وفي قوله اخاه اشعار بالعلية ومفهومه أنه ان خالف هذه الشريطة وقطع هذه الرابطة جاز هجرانه فوق ثلاثة . فان هجرة اهل الاهواء والبدع دائمة على مر الاوقات مالم تظهر التوبة والرجوع الى الحق . وصرح الطبري بجواز هجرة اهل المعاصي وهم الفساق

والتقييد بالمسلم في الخطاب لانه هو الذي يقبل الخطاب وينتفع به بخلاف الكافر فانه لا ينتفع به اصلا ما دام على الكفر . وهذا شامل لكل خطاب فيشمل خطاب الدعاء المأمور به في قوله سبحانه وتعالى : ادعوني أستجب لكم . اه

---

(١) في السنة الثالثة (٢) الارض التي اصابها من خيبر كما ياتي عن صحيح البخاري

والناس بها يومئذ كثير من مشيخة المهاجرين والانصار ان حوايط رسول الله صلى الله عليه وسلم السبعة التي وقف (١) من اموال مخيريق ثم دعا بتمر منها وقال كتب الي ابوبكر بن حزم ان هذا التمر من العذق (٢) الذي كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل منه وبسنده الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث صفايا وكانت بنو النضير حبسا لنوائبه وكانت فدك لابن السبيل وكانت خيبر قد جزأها ثلاثة اجزاء جزء للمسلمين وجزء كان ينفق منه على اهله فان فضل منه رده على فقراء المهاجرين(٣) اهـ.

وفي هذه الاخبار وامثالها ملامح من النظر ومواهب الاجتهاد منها عدم اشتراط الحوز وجواز الوقف على النفس وجواز ولاية الواقف كما هو قول ابي يوسف في المسائل الثلاث

اما وقف سيدنا عمر رضي الله عنه ففي صحيح البخاري من كتاب الشروط بسنده الى ابن عمر رضي الله عنهما ان عمر بن الخطاب اصاب ارضا بخيبر (٤) فأتى النبيء صلى الله عليه وسلم ليستامره فيها فقال يا رسول الله : اني اصبت ارضا بخيبر لم اصب مالا قط انفس عندي منه بما تأمرني به. قال ان شئت حبست اصلها وتصدقت بها. قال فتصدق بها عمر لا تباع ولا توهب ولا تورث وتصدق بها في الفقراء والقربى وفي الرقاب وفي سبيل الله وابن السبيل والضيف لا جناح عمن وليها ان يا كل منها بالمعروف ويطعم غير متأثل . وفي رواية ويطعم صديقا. ورواه ايضا في كتاب الوصايا بعدة اسانيد في بعضها فقال عليه الصلاة والسلام تصدق باصله لا يباع ولا يوهب ولا يورث ولكن تنفق ثمرته

وفي هذا الحديث دليل لابي يوسف على عدم اشتراط الحوز وروى الخصاف بسنده الى سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن عمر انه كان ياكل من صدقته بثمغ وفيه دليل لابي يوسف في الوقف على النفس

وقد كتب عمر رضي الله عنه في خلافته كتاب صدقته كما رواه ابو داود من طريق يحيى بن سعيد ورواه الخصاف بسنده الى جابر بن عبد الله قال لما كتب عمر ابن الخطاب صدقته دعا نفرا من المهاجرين والانصار فاحضرهم ذلك واشهدهم عليه فانتشر خبرها قال جابر فما اعلم احدا كان له مال من المهاجرين والانصار الا حبس مالا من ماله صدقة مؤبدة لا تشترى ابدا

وقد جاءت الآثار تترى في اوقاف الصحابة رضي الله عنهم من ذلك صدقة ابي بكر الصديق رضي الله عنه فانه حبس رباعا كانت بمكة لا يعلم انها ورثت عنه وكان يسكنها من حضر من ولده وولد ولده ونسله، وعثمان بن عفان رضي الله عنه وقف ماله بخيبر على ابنه إبان. وعلي ابن ابي طالب رضي الله عنه تصدق بينبع. وكان علي بن الحسين يا كل من ثمرها. والزبير بن العوام رضي الله عنه حبس داره على بنيه. وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حبست دارا السكنى فلان وكذا حبست من امهات

(١) اي وقفها بحذف المفعول (٢) بالفتح النخله (٣) وهو الجزء الثالث (٤) وهي ثمغ

المؤمنين حفصه وأم حبيبه وصفيه رضي الله عنهن . وحبس معاذ بن جبل رضي الله عنـه الدار التي تعرف بدار الانصار . وزيد بن ثابت وخالد بن الوليد وسعد بن عبادة وغيرهم من المهاجرين والانصار رضي الله عنهم اجمعين

أما ما روي عن الزهري ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لولا أني ذكرت صدقتي لرسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعت فيها فانه إنما يدل على أن الوقف عنده جائز غير لازم لا على انه غير جائز أصلا لان قوله لولا اني ذكرت صدقتي لرسول الله صلى الله عليه وسلم صريح في أن المانع من الرجوع هو محبة الاستمرار على ما ذكره للنبيء صلى الله عليه وسلم ولو كان غير جائز لم يمتنع من الرجوع

وبالجملة فان اصل الوقف ثابت بالسنة قولا وفعلا وعليه عمل جم غفير من الصحابة وناهيك بالخلفاء الراشدين رضي الله عنهم على عهد النبيء صلى الله عليه وسلم وبعده . ومن ثم لم يختلف أيمة الدين وعلماء الشريعة ولم يـرد عن واحد منهم في روايـة صحيحة وعبارة صريحة أنه ليس بجائز وانما اختلفـوا فيما وراء الجـواز على حسب مـا ترجح عند كل مجتهد من المعاني المستفادة من الاحاديث والآثار

فقال ابو حنيفـه الوقف جائز غير لازم ولا يزول به ملك الواقف فيبـاع ويوهب ويورث واستدل على ذلك بأمور أحدها حديث لا حبس عن فرائض الله بناء على أنه لبيان أن الحبس لا يمنع الفرائض لانه غير لازم ولا يزول به ملك الواقف فيورث بعد موت الواقـف على حسب الفريضة الشرعية . ثانيها قول القاضي شريح وهو من كبار التابعين جاء محمد (صلى الله عليه وسلم) ببيع الحبيس . الدال صريحا على عدم اللزوم بنـاء على أن مقصود شريح الاشارة الى ان شريعـة من قبلنـا جاءت بلزوم الحبس وشريعتنا جاءت بعدم اللزوم كما يشعر بذلك التعبير بالمجيء . ثالثها أن أوقاف الصحابة لا دلالة فيها على اللزوم لانها انما لم تورث ولم ينقـل بيعها لان ما كان منها في زمان النـبيء عليـه السلام احتمل أنه وقـع قبل نزول ءاية الفـرائض وما كان بعده احتمل ان ورثتهم أمضوهـا بالاجازة

ومما يستدل به للامام أيضا ما رواه الزهري من ارادة سيدنا عمر رضي الله عنـه الرجوع في صدقته لولا أنه ذكرها للنبيء صلى الله عليه وسلم كما قدمناه ءانفا

نعم استثنى أبو حنيفة من عدم اللزوم صورتين صورة صدور الحكم بـاللزوم ممن يرى ذلك لان الحكم رافع للخلاف . وصورة ما إذا أخرجه مخرج الوصية كأن يقول إذا فقدت وقفت داري على كذا مثلا لانه في الحقيقة وصية فينفذ نفوذها بالموت هذه خلاصة مذهب أبي حنيفة ومجموع أدلته

وقال جمهور الايمة ومنهم ابو يوسف ومحمد الوقف بنوعيه جائز ولازم يزول به ملك الواقف بمجرد الصيغـة عند أبي يوسف وبتسليمـه للمتولي عند محمد فلا يبـاع ولا يوهب ولا يـورث

واستدل الامامان أبو يوسف ومحمد بامور احدها قول النبيء صلى الله عليه وسلم لعمر كما في بعض طرق البخاري تصدق بأصله لا يباع ولا يوهب ولا يورث كما تقدم. ثانيها اشتراط الصحابة في أوقافهم عدم البيع والارث كما سلف نقله ولم ينقل رجوعهم عنها ولا ارثها وذلك دليل اللزوم. واحتمال التقدم أو إجازة الورثة الذي تمسك به أبو حنيفة لا دليل عليه . ثالثها ان حديث لا حبس عن فرائض الله لا ينافي لزوم الوقف لانه لبيان مخالفة ما كانت عليه الجاهلية من السائبة والوصيلة ونحوهما لا لبيان أن الوقف لا يمنع الفرائض وأنه يورث ولو كان كذلك لكانت الصدقة بل الهبة بل الوصية مثله فان الجميع حبس عن الفرائض عائقة عن الميراث . وكذلك قول شريح بيان لمخالفة الجاهلية لا لعدم اللزوم على أن الحديث رواه الشعبي موقوفا عن علي رضي الله عنه. ورواه الدارقطني بسند فيه عبد الله ابن لهيعة عن اخيه وهما ضعيفان وأيضا فان ءاية الفرائض كما قال الحافظ ابن حجر متقدمة على أمر النبيء صلى الله عليه وسلم لعمر بالوقف لان الامر كان بعد خيبر سنة سبع

وها هنا نقف بالباحث عن مثارات الخلاف بين المجتهدين ليتأمل ساعة في منزع كل من الفريقين في حديث لا حبس عن فرائض الله وفي قول شريح جاء محمد ببيع الحبيس وكل منهما بجوهره واحد فترجح عند أبي حنيفة احتمال الدلالة على نفي اللزوم وصحة الحديث وترجح عند الامامين احتمال الدلالة على مخالفة ما كانت عليه الجاهلية من السائبة والوصيلة ونفي ذلك في الاسلام وضعف الحديث وهذه نقطة من يم واسع الاطراف في مدارك الخلاف . والمرجح هو قول الجمهور لان الاحاديث والآثار متظافرة عليه قولا وفعلا من صاحب الشريعة صلوات الله عليه وعملا من أصحابه رضوان الله عليهم وبه العمل في سائر الامصار وإنما أختلف المجتهدون في بعض شروط الوقف شرعا ومدلولات نصوص الواقفين بحسب ما ترجح عند كل واحد من المعاني المستفادة من الاحاديث ومن النصوص مما يسعه اللفظ وطريق الاجتهاد. والسلام.

(سؤال)

الى فضيلة الامام شيخ الاسلام المالكي ينشر على صفحات مجلتنا الفيحاء ادام الله النفع بها ليجيبنا عنه فضيلته :

يروي بعض الرواة ان اول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها (آدم) عليه السلام قبل موته بثلاثمائة سنة ، كتبها في طين وطبخه ، فلما اصاب الارض الغرق وجد كل قوم كتابا فكتبوه فاصاب (اسماعيل) عليه السلام الكتاب العربي

وروي ان (ابن عباس) رضي الله عنه يقول : اول من وضع الكتاب العربي (اسماعيل) عليه السلام ، وضعه على لفظه ومنطقه

ويذكر بعض المؤرخين ان اهل اليمن كان لسانهم حميريا واليه تنسب لغتهم فيقال لغة حمير وقد كثر اللجاج في هذه العصور المتأخرة بعد الاكتشافات الاثرية فمن الناس من يقول ان اللسان الحميري هو من اللهجات العربية ، ومنهم من يقول انه اخو العربية تفرع من السامية اصالة. والرجاء اماطة اللثام عن صبح الحقيقة ليعلم الناس الغث من السمين ، وانتم المرجع الذي يلتجا اليه ، وبيان يشفي ما في الصدور ، ويزيل الالتباس (.....)

التعاضد المتين

بين العقل والعلم والدين

بقلم العلامة الحجة الشيخ سيدي محمد
الحجوي وزير المعارف بالسلطنة المغربية

ما اختلفت فيه طوائف الاسلام كيف يعتقل

غير خفي ان أكثر الخلاف بين الطوائف الاسلامية منشؤه أن زعيما يرى رأيا فلسفيا ينتحل له دليلا شرعيا متمسكا بما فيه من عموم أو إطلاق أو إجمال يعتقده اتباعه فيصير لهم يقينا يقاتلون عليه وعقيدة يحملون رايتها ويصير لدى متأخريهم كانه ديانة بشريعة ورسول غير انهم يتجنبون ادعاء الاستقلال واسم ديانة واسم الرسول تقية من سيف الاسلام وهكذا يرى ضد ذلك مخالفوه كما وقع بين المعتزلة والجبرية وبين الرافضة والخوارج في مسائل خلق الافعال وصفات المعاني وغير ذلك

وما كان سبيله هذا فنحن في حل من وجوب اعتقاده والعقائد لا تكون تقليدا للزعماء الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا والذي يجب على المسلمين اعتقاده هو ما صرح به الكتاب أو السنة القطعيان أو وقع عليه اجماع صريح كما اننا لا نكفر من اعتقد منهم شيئا من ذلك اذ هم من الكفر فروا ولنا ملء الحرية في النظر والبحث عن الدليل الصحيح . لذلك اقول انني لا اجرأ ان اصف الله الا بوصف وصف به نفسه في كتاب او سنة متواترة مع الصراحة فيها او اجمع عليه المسلمون اجماعا صريحا قوليا لا ادعائيا . كما انني لا انفي عن الله من الصفات على سبيل التعيين الا ما كان ذلك سبيله وكل ما لم يثبت او ينف بهذه الطريق فنكل أمره الى الله سبحانه مفوضين . فاوصاف الله (١)

---

(١) كذلك صفات النبيء توقيفية ما سمع منها بطريق يقيني يقال وما لا فلا لان صفات الرسل من جملة المعتقدات وسبيل المعتقدات هو اليقين حكى الاجماع على ذلك الغزالي ونقله ابن القيم والزرقاني في شرح الموطا فليس لكل من ظهر له وصف ظنه كمالا للنبي وصفه به وان لم يرد معتمدا قول البوصيري

دع ما ادعته النصارى في نبيهم ❁ واحكم بما شئت فيه مدحا واحتكم

فليست البردة كتابا منزلا وانما جرت على قاعدة الشعراء في المدح فليس لنا ان نتخذها برهانا قطعيا بل علينا البحث عن دليلها . فمن يصف النبي صلى الله عليه وسلم بان العوالم في طي قبضته وان الله فوض له التصرف في مملكته ـ وهو قول طائفة ضالة تسمى المفوضية كما في كتاب مقالات الاسلاميين للاشعري ـ فذلك في عهدته ومطالب بدليل قطعي كمن نسب اليه العلم الاحاطي كعلم الله تعلى مع ان القرآن ناطق بخلافه والسنة طافحة بضده فالواجب على اهل العلم ان يعلموا ان صفات النبيئين من جملة المعتقدات التي لا تثبت الا بدليل سمعي يقيني وما سوى ذلك منبوذ . وقد اشبعت القول في ذلك في كتابي (برهان الحق في الفرق بين الخالق والخلق) واشبعت القول في المسالة الاخيرة في تاليف في الرد على التجموعتي الذي نسب للنبي صلى الله عليه وسلم علما احاطيا كعلم الله

تعلى توقيفية على القرءان او السنة المتواترة لا يستقل العقل بها ثم ان كل ما كان بهذه الطريق اثباتا او نفيا لا تجده قط متعارضا مع ما دلت عليه العقول دلالة قطع ويقين بحال .

فلسنا نستطلع الغيب ولا نصف الله بما توهمه الفلاسفة وصفا له زاعمين قيام ادلة عقلية على ذلك اثباتا ولا نفيا . نعم اثبات وجوده تعلى والوهيته ووحدانيته وحكمته دلت الشواهد العقلية والحسية التي هي مصنوعاته على ذلك دلالة مشاهدة وايدها القرآن والسنة والاجماع .

فليس الحق سبحانه شرعة لكل وارد : يكيفه الخاطر والوارد ولا مما تصل اليه أوهامهم أو تكيفه عقولهم . فالفلسفي الذي يصور إلاها بعقله كالوثني الذي يصور وثنا بيده ، وانما تفقه الفلاسفة قياس للغائب على الشاهد الحادث . ورجم بالغيب . لكن المقام اعلى . والجناب أسمى . والحق أبلج . ولسان القاصر لجلج . فقد وصف نفسه في كتابه بالجبار المتكبر . وقال يضل من يشاء . وقال يخادعون الله وهو خادعهم . وذلك في المخلوقين ليس بكمال . قال تعلى كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار . فنحن برآء اليه ان نصفه على سبيل التعيين الا بما وصف به نفسه . نعم نصفه بوصف عام وهو كل كمال يليق بجلال الآله الحق . وننزهه عن كل نقص . ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

فمن اثبت له الالتذاذ او الذوق او الشم قياسا على الخلق لكونه كمالا فيهم . او نفى عنه صفات المعاني كالعلم والكلام والسمع والبصر زاعما قيام الدليل القاطع العقلي على الاثبات والنفي فليس بشيء وادلتهم واهية وفكرتهم واهمة وهي تقليد للفلاسفة فقط وفي نظري ان فلسفة الآلهيات عند اليونان او غيرهم انما هي احتمالات أوجبها جهلهم بالنبوات فاصبحوا يستوحون عقولهم التي ليست لها طائرات تحلق حول ما ليس من عالمهم فضلوا وضل تبعا لهم معتزلة الاسلام ومن نحى نحوهم . والله يقول: أنزله بعلمه . كما نبرأ من تمحل بعض المحدثين وجمودهم حيث قالوا : انه متكلم اذا شاء بكلام ذي حروف واصوات . ومقام ذي العزة والجبروت اجل واكمل عن ان تصل اليه العقول المقفصة في عالم ضيق . عقول محتاجة الى كثير من النضوج لا يتم الا في ملايين من السنين

أنى للسمك في قعر البحر والجنين في بطن الام والنطفة في الصلب ان تحقق العلوم الفلكية وتدقق المسائل الطبيعية فضلا عن الاستبداد بمعرفة الصفات الآلهية والتهجم على استنباطها قياسا على المخلوقين ❁

عجبا كيف غفل الفلاسفة عن عجزهم عن الوصول لحقائق الكون البسيطة وهم منه وهو مخلوق مثلهم حتى اختلفوا في علم الهيأة وتبين جهلهم في كثير من الفروض والتقديرات التي قدروها . وهو علم تدرك اصوله بالبصر وبالحساب المدقق . عجزوا عن الاتفاق فيه واختلفوا فيه اختلافا منتشرا واصبح متأخرهم يضحك من متقدمهم بل تبين في بعض مسائله اصابة المتقدم وخطأ المتأخرين

وان تعجب فعجب من كون كل طائفة تدعي ان مذهبها يقين قامت عليه البراهين ثم يتبين

الخطا الصراح. هذا في علم هو اوثق معلومات الفلاسفة. فيالله ويالرجال من ضعف عقول لم تحسن تصور ما تراه ويعينها البصر والآلات على تصوره. فكيف يمكننا ان نقلدهم في دعواهم الوصول الى كنه من يزعمون هم انفسم انه لا تمكن رؤيته .

كلا ان الانسان مجبول على الانانية وعلى الدعوى العريضة انه ذو حول وطول ومعرفة كاملة توصله الى فهم كل شيء وهو في بحر الجهالة تائه . لقد ضيعوا وقتا نفيسا طويلا في علم الالهيات فجلبوا مقتهم بأنانيتهم واوقعوا العالم معهم في ارتباك وجدال .

كل الطوائف الاسلامية من معتزلة ورافضة وغيرهم ياتى زعيمها بفكرة عقلية يتلقفها عن الفلاسفة او عن عقله وينتحل لها دليلا شرعيا كما سبق فياتى اتباعه فينمونها بخلابة البيان خطابيات وشعريات يصيرونها براهين. ويدعون ان مذهبهم الحق الواضح. والنور الفاضح. والقطعي الذي ليس بعده يقين يناهضه. وكل طائفة تدعي صراحة النصوص لجانبها والاجماع الصريح والتواتر الذي لا امتراء فيه . ثم اذا نقد الناقد البصير الغير المتحيز وعرضها على محك النظر وجدها كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء وليس هو شيئا .

لقد احتدم الجدال في خلق الافعال وتماثل الاجسام وبقاء الاعراض وانتقالها وهل هناك خلاء ؟ وفي وجود الجوهر الفرد. وكون الموجود منحصرا في الجسم والعرض او هناك ما يسمى بالمجردات الى غير ذلك ولم يحصلوا على طائل. ولو انهم اتخذوا هذه المسائل وسائل لما وضعت له من كشف حقائق الكون لخدموا العلم خدمة جلى. ولكنهم اغفلوا ذلك وراموا التوصل بها الى المكون فابعدوا النجعة ووقعوا في متائه ومجاهل حارت فيها افكار المتقدمين وجرف سيلهم المتاخرين.

ضيعوا اوقاتا نفيسة في جدالات عقدوا لها مجالس ومؤتمرات لو صرفوها في تحسين حال العلم والمجتمع لكان انفع . وذلك بترقية المدارك والاكتشاف والاختراع في العلوم الطبية والكيماوية والميكانيك والفلاحة والصناعة وكل نافع نفعا حقيقيا بل وفي العلوم الادارية لادارة الممالك الاسلامية الواسعة والمنتشرة من المشرق الى المغرب والتي اختلت باختلال ادارتها واضاعة روابطها التي كانت أمتن رابطة بالعدل والعلم والتهذيب والشورى ضد الاستبداد والتي يدفع بها عادية الظلم والاختلال الذي انهك دول الاسلام وجعلها في ءاخر صف بعد ما كانت في أوله بسبب اضاعتهم لوصايا القرءان الذي يحضهم على النظر في احوال الملكوت والممالك الارضية ولكنها السياسة كانت ورآءهم تحركهم وتحرضهم وتجعل اتجاههم نحو الافكار العقيمة تشغلهم بها وبشخصياتهم عن المصالح العامة قبل ان يشتغلوا بها فيغلوا ايديها الباطشة الغاشمة الاثيمة . ولعل هذا سبب قلة الاختراع والاكتشاف في الاسلام . ثم نزيد تاكيدا لما قررناه قبل . وان كل ما اختلفت فيه الطوائف الاسلامية واصبح بعضهم يكفر بعضا ويدعى ان مذهبه هو البرهان العقلي اليقيني وغيره لا يسلم بذلك فنحن في حل من وجوب اعتقاده ولنا ملء الحرية في البحث عن الدليل من الكتاب والسنة اذ ليس علينا الا اعتقاد ما وصف الله به نفسه في قرءان او سنة متواترة على ظاهره مع كمال التنزيه.

(البقية بصحيفة ٣٥)

التاريخ

القضاء الشرعي

بقلم العالم المؤرخ أمير الامراء سيدي
محمد بن الخوجه مستشار الحكومة

اعلم أن راس الخطط الشرعية في الاسلام هي القضاء وأول من باشره معاذ بن جبل الذي كان بلسان النبوة أعلم الناس بالحلال والحرام فقد ثبت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه قاضيا الى الجند باليمن يعلم الناس القرآن ويقضي بينهم بالحق وكان ذلك عام فتح مكة المكرمة سنة ثمان للهجرة وجاء في كتاب التخريج والاستيعاب لابن عبد البر أن الخليفة الاول سيدنا ابا بكر الصديق عهد بالقضاء سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وقال له : اقض بين الناس فاني في شغل، يعني في شغل بالنظر في مصالح المسلمين، والرواية التى اجمع عليها المؤرخون هو ان اول قاض في الاسلام اولاه الخليفة الثاني سيدنا الفاروق، قال ابن خلدون في المقدمة : وكان الخلفاء في صدر الاسلام يباشرونه « اي القضاء » بانفسهم ولا يجعلون القضاء الى من سواهم وأول من دفعه الى غيره وفوضه فيه عمر رضي الله عنه فولى ابا الدرداء معه بالمدينة وولى شريحا بالبصرة وولى ابا موسى الاشعري بالكوفة وكتب له في ذلك كتابه المشهور (١) الذي يدور عليه أحكام القضاة وهي مستوفاة فيه يقول : اما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا ادي اليك فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، وآس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك ، البينة على من ادعى واليمين على من انكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا ، ولا يمنعك قضاء قضية أمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ،ثم اعرف الامثال والاشباه وقس الامور بنظائرها ،واجعل لمن ادعى حقا غائبا او بينة امدا ينتهي

(١) اتفق لي ترجمة هذا الكتاب للسان الفرنساوي في مدة الوزير المقيم الاسبق مسيو ريني ملي فلما اطلع عليه هذا الوزير وكان من المجاهرين بحب الاسلام واهله اعجب به ايما اعجاب وضمه لمجموعة النصوص الفقهية والوثائق التاريخية والتراتيب الادارية التي نشرها في كتاب جامع اشتمل على سائر النظم التونسية في عصر الحماية الفرانساوية

اليه فان أحضر بينته أخذت له بحقه والا استحللت القضية عليه فان ذلك انفى للشك واجلى للعماء ، المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلودا في حد او مجربا عليه شهادة زور او ظنينا في نسب او ولآء فان الله سبحانه عفا عن الايمان ودرأ بالبينات ، وإياك والقلق والضجر والتافف بالخصوم فان استقرار الحق في مواطن الحق يعظم الله به الاجر ويحسن به الذكر والسلام اه

ومما تقدم يتضح ان ثاني الخلفاء الراشدين ولى معه قاضيا بالمدينة للنظر في احوال المسلمين كما وجه بقاضيين لاطراف المملكة الاسلامية اسوة بالنبي صلى الله عليه وسلم. ويستفاد مما ذكرنا قاعدة شرعية أصلية وهو جواز انتصاب قاض للحكم بين الناس في نفس البلد الذي فيه الامير وقد جوزوا ذلك لا ترفعا منهم عن مباشرة عامة الناس بل لاشتغالهم بامور السياسة العامة وما يلتحق بها من جهاد وفتوحات وسد الثغور وحماية البيضه على ان انابة الخليفة للقاضي كانت في بداية امرها قاصرة على النظر في بعض الاحوال دون سواها حتى إنه وجد في الدولة العباسية قضاة يحكمون فيما دون المائتي درهم بما يشابه خطة قاضي الصلح الفرنساوي وحاكم الناحية التونسي لهذا الزمان من بعض الوجوه وانما وقع التوسع في خطة القاضي بعد ذلك على التدريج بحسب اشتغال الامراء والملوك بالمهام الكبرى الى أن استقر القضاء اخر الامر على الجمع بين السلطة الشرعية القضائية من فصل وحكم ونظر في اموال المحجور عليهم من مجانين ومفلسين ويتامى وسفهاء وفي وصايا المسلمين واوقافهم وتزويج الايامى عند فقدان الاولياء والنظر في مصالح الطرقات العامة والابنية وتصفح الشهود والامناء والنواب وبين النظر في المظالم التي هي وظيفة مستمدة من سلطة الامير. على ان خطة القضاء لحقت شأوا اسمى وابعد من ذلك على عهد الدولة الاموية بالاندلس والدولة العبيدية بافريقية فقد أوكلوا لامانة قضاتهم النظر في شؤون الحسبة العامة وهي وظيفة دينية من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بامور المسلمين فيتخذ اعوانا على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل منع المضايقة في الطرقات ومنع الجمالين واهل السفن من الاجحاف في الحمل والحكم على المباني المتداعية للسقوط بهدمها وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة والضرب على يد المعلمين في المكاتب ومعامل الصنائع في ضرب الصبيان فوق التربية المشروعة التي يحصل بها تأديبهم وحماية الحيوانات الاهلية وزجر ارباب الدواب عن تحميلها فوق طاقتها أو ضربها فوق اللازم وبيعها عليهم قسرا اذا لم يتقوا الحيوانية فيها فجمعوا بذلك للقاضي القسم الثاني من مقصد الشريعة الذي هو حفظ الاداب زيادة على القسم الاول الذي هو حماية الحقوق

وكان العصر الحفصي بتونس أكثر العصور احتراما واعتبارا للسلطة الشرعية حتى إنهم أضافوا لخطة القاضي مهمة النظر في شئون السكة واستخلاص عيار الذهب والفضة فكان لقضاتهم طوابع يضعونها على المصوغات علامة على سلامة ذوقها من الغش وتقرير الغاية التي وقف عندها السبك مثلها

يفعل اليوم اهل البـلاد المتمدنة - وهذا زيادة على ماكان للقاضي من حق النظر على الشهود وتتبع سيرتهم وتوقيفهم عنـد حد خطة العدالة وتعزيرهم بالتوقيف عن المباشرة موقتا او نهائيا وطلب معاقبتهم من السلطان عند ارتكابهم للتدليس والزور - وقد قال سيدنا عمر ان الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرءان - ولم يستثن على القضاة في كل الدول الاسلامية الا مسائل القصاص والقود وما اشبه فيحكمون فيها ويتوقف تنفيذ حكمهم على الامير وتلك سنة عمرية تحفظا على الدماء .

وكانت علاقة القاضي بالدولة شديدة كعلاقة الوزير حتى إن الملوك كانوا يتخيرون قضاتهم اثر قبولهم للبيعة ليكـون القاضي علقا بالامير ومن اهل سياسته . وقد اولى المامون القاضي احمد بن داود الذي كان على رأيه في مسالة القول بخلق القرءان . وفي بعض الاحايين كان الملوك يجمعون لقضاتهم بين خطة الوزارة وبين خطة القضاء بل وبينه وبين قيادة الجيش فقد كان اسد بن الفرات من أيمة المذهب الحنفي قائدا للجيش الفاتح لصقلية حيث جاهـد ومات سنة ٢١٣ وكان ابن عاصم من فقهاء المذهب المالكي قاضيا ووزيرا بغرناطة . على ان الملوك كانوا في الكثير يجدون في انفسهم على القضاة فيسرون لهم العـداوة ويتربصون بهم الدائرة للايقـاع بهم وربما استعانوا عليهم بالقوة والمال لاسقاط منزلتهم واعتبارهم في عيون الامة فيشيعون عليهم اخذ الرشوة ليهيج غضب العامة عليهم فيتخذونها فرصة للانتقام منهم وهكذا فعل اسد الدولة ابن مرداس سنة ٤١٥ ولنا في حديث شيخ الاسلام احمد بن تيميه وامتهانه على يد الوزير الجديد وفيما ارتكبه السلطان الحفصي محمد المستنصر بن ابي زكريا مع العالم المحدث ابي عبد الله محمد بن الابار القضاعي حيث سجنه وعذبه ثم امر بقتله قطعا قطعا وحرق جثمانه مع تآليفه وكتبه ما يغني عن ذكر امثلة اخرى في مقام انتقام الامراء من العلماء .

اما القضاة بافريقية اي بالديار التونسية فقد قال في معالم الايمـان ان اول قاض بافريقيـة هو ابو الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخي من فضلاء التابعين ولاه موسى بن نصير قضاء القيروان سنة ٨٠ للهجرة وهو احد العشرة من التابعـين الذين اوفدهم الخليفة عمر بن عبد العزيز لتفقيه اهل الآفاق بافريقيـة ومنه تسلسل القضاء بالقيروان الى ان تولاه الامام سحنون صاحب المدونة وسحنون هو الـذي احدث مقصورة خاصة بجلوس القاضي حال انتصابه للحكم وهو اول من اتخذ اعوانا وجعل جرايتهم من بيت مال المسلمين وكان يستدعي المطلوب ببطاقة ولا يرسل له عونا واتخذ كتابا في مجلس الحكم وضبط اساليب المرافعة بما عليه عمل قضاة تونس في هـذا الزمان ومن سحنون انتقل القضاء لايمـة ءاخرين من فقهـاء القيروان فالمهدية فتونس فكان قاضي الجماعة مقره حاضرة تونس في اوائل المائة السابعة لاستقرار الدولة الحفصية بها وكان القضاة بتونس قبل ذلك يرجع امرهم لقاضي القضاة بالقيروان اولا ثم بالمهدية بعدها . ولما بويع بالخلافة للسلطان محمد المستنصر بالله الحفصي في سنة ٦٥٧ اعتنى بخطة القضاء اعتناء لم يعرف قبله فجعل اربعـة من القضاة بتونس : قاضي الاهلة

وقاضي الانكحة وقاضي المعاملات وقاضي الجماعة وهو المسمى بقاضي القضاة وزاد بعد ذلك قاض ءاخر يلقب بقاضي الفريضة وهذه الخطط الشرعية التي عفت رسوم معظمها كان انقراضها في ازمان مختلفة فقاضي الاهلة كان موجودا في زمن الباي حمودة باشا الحسيني وقاضيا الانكحة والمعاملات اندمجا ضمن خطة قاضي الجماعة وقاضي الفريضة الغيت خطته في اوائل هذا القرن وءاخر من تولاها الشيخ الطاهر القصار المتوفى سنة ١٣١٤

واول من تلقب بقاضي القضاة في الاسلام هو الامام ابو يوسف صاحب الامام الاعظم ابي حنيفة النعمان قاله ابن الاثير في كتاب الانساب .

ويستفاد من التواريخ التونسية ان الدولة الحفصية كما اسلفنا كان لها قدم سبق في الاهتمام بالقضاء والى سلاطينها ترجع مزية تعزيز خطة القاضي بالمفتي للمسترشدين فنصبوا من اهل العلم بالمسجد الجامع من يفتي الناس ويفقههم في الدين فكان الامام محمد بن عرفه الورغي مفتيا بجامع الزيتونة في(١) المائة الثامنة وكانت الفتوى في الصدر الاول يقوم بها كل من ءانس من نفسه علما وتقوى وغلق هذا الباب سدا للذريعة في المائة الرابعة وصار الانتصاب للفتوى بين الناس يتوقف على تفويض من الامير وكان جلوس المفتي للافتاء بالمسجد الجامع كما اسلفنا ولم تنفصل الفتيا عن الجامع الا في اواخر المائة الثامنة فكان حال العلم في المائة التاسعة في ادبار والدولة في تراجع وشباب الحفصيين أفل نجمه والهرم استحكم فيهم بتاصل الفتنة في ربوعهم وتوالي فتوحات العدو من الاسبانيول فيهم وما اشرف القرن التاسع على اعقابه حتى كاد ان ينقطع العلم من تونس لولا ان تداركها الله بالفتح الاسلامي على يد الوزير سنان باشا في سنة ٩٨١ وكان المذهب المالكي يومئذ هو المذهب السائد بافريقية من عهد المعز ابن باديس الذي حمل الناس على التمذهب به وترك ما سواه من المذاهب اتقاء شر البدعة بظهور مذهب الشيعة في المائة الخامسة وكان المذهب الحنفي قبل ذلك هو اظهر المذاهب بافريقية فيما حكاه القاضي ابن خلكان وغيره من المؤرخين . فلما انتصبت الدولة العثمانية بتونس في اواخر المائة العاشرة اقام الترك بمنصب الاحكام الشرعية قاضيا حنفيا ياتون به من بلادهم ثم يبدلونه بعد ثلاث سنين بقاض جديد من الاتراك - وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يبدل قضاته بعد اجل معلوم كعامين او نحو ذلك - وقال في بعض التواريخ التونسية ان متولي القضاء في مدة السلطان الحفصي ابي عمرو عثمان بن محمد ابن ابي فارس عبد العزيز كان لا يبقى في خطة القضاء بجهة اكثر من ثلاث سنين ثم ينتقل بجهة اخرى الى ان يتصدى لقضاء الحاضرة ثم يتصدر للفتوى والشورى بين الناس . وعبارة الشورى في استعمالهم اذاك تدلنا على وجه تسمية المفتي الاول المالكي بكبير اهل الشورى الى عهود متاخرة . الى هنا انتهى بنا الكلام في هذا الدور الاول من تاريخ القضاء الشرعي بتونس وسنتحدث في الاعداد القابلة ان شاء الله على التطورات التي تناولته بعد ازدواج السلطة الشرعية ابتداء من تاريخ قيام المذهب الحنفي الى هذا الزمان وكل ءات قريب .

محمد بن الخوجه

(١) يسر الله لي في هذه الايام اتمام تاليف اسميته تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد تضمن شتى الاخبار في موضوع الكلام على اهل الفتوى بجوامع تونس على عهد الدولة الحفصية وهو الآن تحت الطبع وسيظهر قريبا ان شاء الله

صفحة من تاريخ تونس — صلة تونس بالدولة العلية

بعثة خير الدين للاستانة

في سنتي ١٢٨١ - ١٢٨٨ (*)

للعالم (الدكتور) في الحقوق امير
الامراء سيدي محمد صالح مزالي عامل بنزرت

في الثاني عشر من ماي سنة ١٨٨١ الموافق للثالث عشر من جمادى الثانية سنة ١٢٩٨ تمت معاهدة القصر السعيد بامضاء المولى المشير الثالث محمد الصادق باي والجنرال بريار مفوض الجمهورية الفرنساوية وبمقتضاها انتصبت حماية فرنسا على المملكة التونسية — فمما اشتملت عليه من الشروط ما جاء في الفصل السادس منها ان نواب فرانسا في الاقطار الاجنبية من سفراء وقناصل مكلفون بحماية المصالح التونسية والاشخاص التابعين للايالة — بحيث إن ممثلي الدولة الحامية المستقرين في مختلف الامصار يصح اعتبارهم في آن واحد بصفة نواب دائمين لدولة سمو الباي دام له العز والبقاء

اما قبل الحماية فلم يعتمد ملوك تونس ايفاد من يمثلهم بصفة مستمرة لدى الدول الاجنبية بل كانوا يقتصرون على تشكيل بعثات إستثنائية كلما دعت الحاجة لذلك منتخبين أفرادها من رجال البلاط تارة وأخرى من علماء الدين مثل الشيخ المحقق سيدي ابراهيم الرياحي الذي أوفده حمودة باشا للمغرب الاقصى ثم المولى احمد باي الى الاستانة

وممن زان البعثات التونسية في القرن الاخير الوزير خير الدين الناصح الامين — توجه اولا للديار الباريزية سنة ١٢٠٧ للدفاع عن مصالح تونس لدى اللجنة المكلفة من طرف الحكم نابليون الثالث بالنظر في الخلافات الواقعة بين الايالة ومحمود بن عياد — فأظهر من الحزم والاجتهاد ما قمع به المساعي الاثيمة التي كانت ترمي إلى استلاب الاموال التونسية وبالرغم عن تمسك محمود بن عياد بالجنسية الفرنساوية ومحاولته على تجنيس الوزير مصطفى خزندار نفسه تمكن نائب سمو الباي من استصدار حكم بخفض خمسة وخمسين مليونا « ريالات » يدعي ابن عياد انه سبقه على حساب الدولة التونسية وجبره أيضا على أداء أربعة وثلاثين مليونا للصندوق التونسي

(*) هذا الموضوع طالما تشوفت له النفوس متطلعة عما ادته سفارة الوزير خير الدين لدى الباب العالي والمهمات التي قام بها بين حكومة الباي والباب العالي سيما وقد ضعفت الصلة التي تربط تونس بالدولة العلية على عهد المشير احمد باشا الاول وهل كانت سفارات خير الدين القصد منها اعتراف الحضرة العلية بالسيادة العثمانية على الديار التونسية ؟ ذلك ما ستحدثنا عنه هذه الوثائق التاريخية الثمينة

ثم تكرر توجيه هذا الوزير الخطير من طرف الحكومة التونسية في مناسبات مختلفة لدى ممالك ـ المانيا وفرنسا وانقلتيرا وايطاليا والنمسا والسويد وهلاند او الدنمرك وبلجيكا ولا شك ان ما شاهده في سفراته العديدة وما اكتسبه اثناءها من التحنك والخبرة هو الذي أهله لتأليف كتابه المشهور « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك »

ومن أهم ما أنيط بعهدة خير الدين من المأموريات السياسية التفاهم مع رجال الدولة العلية العثمانية في شأن ضبط العلائق بينها وبين الدولة التونسية وتقرير ما حصل عليه آل البيت الحسيني المعمور من الاستقلال النسبي مع اثبات ما لهم على العرش التونسي من حق الوراثة خلد الله ملكهم مدا العصور وأسعد البلاد بعزهم ــ فتوجه الوزير خير الدين للاستانة مرتين في هذا الغرض الاولى سنة ١٢٨١ والثانية سنة ١٢٨٨ ولما رجع ظافرا غانما اقتبله المولى الصادق باي بكل حفاوة وأجزل عطاءه ومما تفضلل به عليه جراية عمريــة قدرها خمسون الف ريال وهنشير « النفيضة » المشهور زيـادة عما قلده من الاوسمة المرصعة . واليكم بعض الوثائق المتعلقة بهاتين البعثتين :

« ١ »

تعيين خير الدين للبعثة الاولى

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى ءاله وصحبه وسلم

(الطابع السعيد)

من عبد الله سبحانه المتوكل عليه المفوض جميع الامور اليه المشير محمد الصادق باشا باي سدد الله تعلى أعماله وبلغه ءاماله الى الهمام المفخم امير الامراء الوزير ابننا خير الدين ادام الله تعلى حفظه وأجزل من السعادة حظه اما بعد فاننا بمقتضى ما نتحققه من صدقك وامانتك وكفاءتك وجهنا للابواب العلية السلطانية العثمانية اعز الله تعلى نصرها وادام فخرها للكلام فيما يؤكد اصول عاداتنا المالوفة المعروفة الآن وما تنفصل به مع الدولة العلية في ذلك بالكتابة فهو ماض في حقنا فوضنا لك في ذلك التفويض التام بحيث لم نستثن عليك في ذلك فصلا من فصول التفويض ولا معنى من معانيه واقمناك فيما ذكر مقام انفسنا تفويضا تاما عرفنا قدره والتزمنا به والله اسأل لكم التوفيق والامداد وبلوغ الامل والاسعاد وكتب اواسط ١٦ جمادى الثانية من سنة ١٢٨١ احدى وثمانين ومائتين والف

(وباسفله بخطه الشريف) صح من المشير محمد الصادق باشا باي

« ٢ »

التعريف بالوزير لدى الباب العالي

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى ءاله وصحبه وسلم

الوزارة العظمي الصائبة المرمى والرتبة الشامخة الشما وزارة الركن المنيع الاحمى فؤاد الدولة

وقطب مدارها والمجلي بميادين فخارها والحافظ لصولتها وءاثارها في سائر اوطارها ونازح اقطارها الصدر الاعظم المشير السيد محمد فؤاد باشا جمع الله تعلى بآرائه شمل اهل التوحيد حتى يستوي في حمى الخلافة منهم القريب والبعيد. اما بعد السلام المؤدي لحق المقام فقد كنا انهينا لجنابكم الرفيع ورود كتابكم العظيم الوفادة الكثير الافادة الموضح لطرق الخير واسباب السعادة ومعه من المواهب السلطانية والفواضل الخاقانية ما قابلناه بما استطعنا من واجب الشكر كامثالها التي لا ينسى لها ذكر واجتمعنا مرارا بنخبة اقرانه لنباهة شأنه الدال على حسن اختياركم وسديد انظاركم المؤتمن على اسراركم السيد حيدر افندي وبلغ لنا عن وزارتكم السامية ما رعيناه وبعين البصيرة لحظناه ولقد احسن التقرير واوضح التفسير فيما كلفتموه بتبليغه الينا وشرح لنا مقصودكم من المصلحة التي افصح لنا عن رغبتكم فيها. والذي نقرره لوزارتكم التي تلين الصعاب وتدنيها وتغرس اصول السياسة وتجنيها لتنال الملة من ثمراتها اقصى امانيها. ان للعبد الفقير بفضل السلطنة العلية وعوائدها المرعية خدمة يرثها الخلف عن السلف على عادات معتبرة واصول مشهورة مقررة اقتضاها حال وضع هذه الايالة المخصوص التي لا تشابهها غيرها لاسباب يغني ظهورها عن الشرح وجرى عمل السلاطين العظماء على تقريرها وصانوا فضلهم عن تغييرها واشتهر علم ذلك في الجهات جيلا بعد جيل وعلى ذلك التقرير اعتمادنا ونحن بهذه النعمة قانعون حامدون شاكرون وعلى طاعة الخلافة مثابرون وقد اقتضى الحال الذي بلغ علمه للدولة العلية والسلطنية الخاقانية تاكيد هذه العادة المقررة من السلاطين السادة القادة وكرم الخلافة يقتضي الزيادة لا النقصان على كل حال وفي كل ءان تقوية للعصابة الاسلامية وان كانت على كل حال معتصمة بالسلطنة العلية محمية. بيدها العالية القوية وحقوقها المعتبرة المرعية ولما كان المكتوب لا يتحمل استقصاء الفروع اوفدنا الى بابكم وعلى جنابكم مقام ابني الهمام المفخم الوزير امير الامراء خير الدين واودعنا لصدقه وامانته ما رجونا تشريفه بالاصغاء اليه فيما يبلغه لجنابكم عنا والله اسأل التوفيق والاسعاد ببلوغ المراد وهو حفظ الملة الاسلامية بكل قطر وبلاد ببقاء سلطان السلاطين واعانة وزيره المنزل من الدولة منزلة الفؤاد والسلام من معظم قدركم الفقير الى ربه تعلى المشير عبده محمد الصادق باشا باي وفقه الله تعلى وكتب اواسط ١٦ جمادى الثانية من سنة ١٢٨١ احدى وثمانين ومائتين والف (وباسفله الطابع السعيد)

« ٣ »

مكتوب موجه من الوزير الاكبر مصطفى خزندار الى الوزير خير الدين بتاريخ يوم الاحد الثاني عشر من رجب سنة ١٢٨١

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى ءاله وصحبه وسلم

الهمام المفخم امير الامراء الوزير السيد خير الدين حرسه الله تعلى السلام عليكم وبعد فانه

بلغنا مع الفابور الانقليزي كتابكم المؤرخ بيوم الجمعة ٢٧ من الشهر المنصرم وكتابكم المؤرخ بموفاه وقبل ذلك بلغنا التلغراف الذي وجهتموه على طريق كاليري وعلمنا ما ذكرتموه كله وشكرنا الله تعلى على عافيتكم وبلوغكم لاسلامبول على خير وعرضنا ذلك على الحضرة العلية وسر مولانا دام عزه وعلاه بما شرحتموه من عافيتكم وعلم ايده الله تعلى اعتناء الدولة بقدومكم وثناء الوزيرين عن السيرة واستغرابهما لما وقع حين سفركم وقبل هذا وجهنا لمالطة مكتوبا اولا مع فابور انقليز لتعذر سفر الباجي بسبب احتياجه للاصلاح ومكتوبا ثانيا لها مع الفابور الباجي وكلاهما يصلانكم على يد الوكيل كما عرفتمونا واعلمناكم فيهما بما عندنا من الاخبار والاحوال من حين سفركم لتاريخهما ونرجو انهما وصلا اليكم الآن الخ (١)

« ٤ »

تعريب مكتوب باللغة التركية من الصدر الاعظم للمولى الصادق باي
مؤرخ « في ١٠ كانون اول » الموافق للثالث والعشرين من رجب سنة ١٢٨١

الحمد لله — المبعوث في هذه الوجهة صحبة سعادة خير الدين باشا من المكتوب المشيري شاكر الآثار والالتفاتات السلطانية في خصوص الوقائع المكدرة الاخيرة التي وقعت في ايالة تونس المحمية (٢) ومؤيدا لعبوديتكم وخصوصيتكم البهية مع مكتوبكم المرسل الى هذا المخلص المثني على ذاتكم العلية قد قدمناهما للعتبة السنية الخاقانية وصارا معلومين عند حضرته الملوكية خلده الله على سرير شوكته وجعله زينة لاريكة عدالته وخلافته التي هي مرجع الانام وملجا الاسلام بحرمة حبيبه الاكرم عليه السلام مدى الدهور والاعوام فانه متخلق بفضل الله بالسجايا التي تستجلب وتستدعى دائما رفاهية حال البرية من تبعة دولته العلية فلذلك يريد ويؤمل سعادة الحال واستراحة البال على الدوام والاستمرار لذاتكم وللمنتسبين الى سلسلتكم العلية وللعباد الذين حسن ادارتهم مودوع بيد حضرتكم السامية وانه ايده الله بعد تأثر وتأسف من ظهور ذلك الاختلال قد صار مسرورا من زواله ولله الحمد على وجه السهولة في المدة الاخيرة كما انسر من تعظيمكم قدر قيمة همته العلية ومساعيه المصروفة السنية في اندفاع هذه الحادثة الفجيعة. ثم ان السلطنة السنية مرادها الحقيقي ومقصودها القطعي على الوجه المحرر عبارة عما يستوجب بقاء الاستراحة في تونس وارتقاء عمرانها وتأسيس بناء الراحة والامن بها يوما

(١) بقية المكتوب وهو طويل الذيل تعرض لمواضيع شتى لا فائدة في نقلها هنا - كما ان المكتوب الموجه لمالطة موجود لدينا مع غيره من صادرات الوزير الاكبر الا ان الاستغناء عن نشره لا يخل بتفهم المسالة المبسوطة هنا

(٢) هذه اشارة الى ثورة ابن غذاهم والى قدوم حيدر أفندي مبعوث السلطان إذ أتى باعانة مالية قدرها مليون فرنك وكان قدومه مع قطعة من الاسطول التركي الذي التقى هنا بعدة اساطيل اروباوية

فيوما لاهاليها وتبعتها ولاجل تمام حصول هذا الغرض الذي هو راجع وعائد اليها لا تنقطع عنها الهمة والاعانة في وقت من الاوقات والدليل الجديد العلني على صدق هذا المدعى رافعا ودافعا لما عسى ان يتوهم تقوية الامتيازات القديمة على وجه التجديد رسما وهي الخطبة والسكة يكون كل منهما باسم السلطان كما كانا في القديم لكونهما علامة علنية لارتباط ايالة تونس التي هي من الاجزاء المتممة للممالك العثمانية ارتباطا شرعيا بمقام الخلافة الاسلامية. والصنجق شكله ولونه المخصوص به الآن باقيا على حاله والمعاملات الارتباطية الجارية مع طرف الدولة العلية الى هذا الوقت تكون مرعية وجارية كما كانت وعلى بقاء هذه الامور ودوامها يكون امر الولاية على طريق الوراثة مخصوصا بسلسلتكم العالية كما كان وتكون انتم مستقلا بالتصرف في الولايات الشرعية والسياسية والعسكرية وفي العزل بمقتضى القوانين الموافقة للعدل وفي الادارة الداخلية لتلك الايالة موافقة للشرع العزيز ومطابقة للقوانين العدلية التي هي كافية لتامين الانفس والاموال والاعراض وموافقة لمقتضيات الوقت والزمان ومرخصا في المعاملات المعلومة مع الدول المتحابة كما كان ولذلك للمتولي ان يبعث ويطلب الفرمان العالي ويعطى له على العادة . هذا ومهما وقع الاستدعاء والطلب من جنابكم السامي لصدور الامر العالي والفرمان الخاقاني فيما ذكر من الامور كلها المقررة اعلاه يصدر لكم حسبما صدر الاذن العالي بذلك وبحسب المامورية تسارعنا لبيان هذا الحال لجنابكم بكل سرور يكون معلومكم ذلك وباطلاعكم على هذا المكتوب الدال على الخصوصية وبما يقرره لجنابكم خير الدين باشا شفاها يتبين لكم ان نية السلطنة العلية منحصرة في الاصلاح والتاييد لايالة تونس ولذاتكم السامية ومقصورة على تخليص الرابطة القديمة والتابعية الممتازة بمقر الخلافة العلية ومنع ما يوجب دخول الخلل والتنافر ويحصل لكم الجزم واليقين بها ولا اشتباه في انكم تستجلبون دائما محاسن انظار حضرة سلطان الاسلام التي توجب سلامة الدارين وتستوجب ذكر الخير لحضرتكم مدى الاعوام فلذلك اكتفينا بتحرير هذا القدر ورفعنا دعاءكم الى محل الاستجابة فليكن ما كتبناه رهين علمكم العالي والامر كله لمن له الامر

ادخال اللغة الايرانية في المعاهد العلمية الدينية بالازهر الشريف

قررت مشيخة الازهر ادخال اللغة الايرانية في برامج التعليم كلغة شرقية تقع دراستها في معاهد التعليم الثانوية في جملة اللغات التي تدرس بجامعات الازهر والقراء على علم ان قانون اصلاح التعليم بالازهر من جملة فصوله فصل يتعلق بدراسة اللغات الحية وآخر يتعلق بدراسة بعض اللغات الشرقية وعلى الاخص ما يتصل منها باللغة العربية وبالفعل تدرس الآن عدة لغات شرقية وغربية وها قد زيد على المقرر منها اللغة الايرانية. وللمصاهرة بين العائلتين المالكتين العلوية والبهلاوية تاثير على القرار الذي اتخذ اخير فان هذه المصاهرة احدثت تاثيرا عظيما في حياة المملكتين الاجتماعية والسياسية وحتى العلمية وبمثل ذلك تستحكم العلاقات ويجتنى النفع العميم

الخيـال

في الأدب العربي

ـ ٢ ـ

بقلم الاديب الفاضل الشيخ احمد بن المختار الوزير المتطوع
بجامع الزيتونة والمدرس بمدرسة ترشيح المعلمين

الشاعـر

والشاعر المصور بقصائد شعره خلجات القلوب في الفرح والترح . والـذي يمتد حسه وشعوره الى من باتوا يتقلبون في اعطاف النعيم . ويمرحون في ظلال الحظوظ المقبلة بالخيرات والبركات . والى من باتوا هالكة اجسادهم . فانية ارواحهم . كسيرة اجنحتهم . من اولئكم الفقـراء الذين تكشفت لهم دنيا ايامهم عن وجه كالح عابس . واظفار تقطر من دمائهم . وانياب تنهش قلوبهم وكبودهم . في غير ما شفقة او رفق . والى من باتوا في لهب الاحقاد . ونقم الضغائن . يتوثبون للفتك . متعطش ظمؤهم اللهيف الى الدماء المسفوكة . فما يزالون من شر تناكرهم . ولجاجة خصامهم وتناحرهم في نكادة عيش وهم واصب . والى من باتوا في وادي الحب الامين وقد تآلفت ارواحهم وتعانقت . وطفحت بخمرة منعشة من لذة الفرح قلوبهم . فرفرفت وحلقت

يمتد حس الشاعر وشعوره الى هذا والى غيره من حوادث الحياة المستجدة مع الليالي والايام . ويستنطقها مستلهما . فينطق امامه . ما ظهر منها وما استتر . وما غاب في طي الزمـان وما حضر . باوضح عبرة بالغة . واجل لحظة صادقة . يعيها حسه وشعوره . ويحيط بها ويحافظ عليها . ثم ما يزال ينظر اليها نظرات فاحصة ملؤها السكينة . والهدوء . ويتفرس جوانبها تفرس الممعن اليقظ . حتى لكأنها من ذخر تجاربه في حياته الخاصة التي كان يتلقاها . ويسير في محافل دروبها مع غيره من سائر الاحياء . وكذلكم يصف « روسكن » المصور والشاعر . فيدلنا بوصفه الدقيق . على انهما من خلق اليف الشبه مثيل الفطرة قريب الموهبة . اذ يقول (ان كلا من الشاعر والمصور . يلتقط في ذاكرته كل ما رأى او سمع طول حياته . ويحفظه بالدقة التامة . كما تحفظ الاشياء في المخازن . فالشاعر لا ينسى أتفه الانغـام التي كان ينصت اليها في باكورة عمره . والمصور لا ينسى ارق طيات الثوب . واشكال الالوان والاحجار . وفي هذه المعارف المنوعة . التي هي غير محدودة يهيم ـ الخيال ـ فيستخرج منها في اي وقت شاء مجموعات من

الاراء والاغراض . والصور المتناسبة . المنسقة . الدقيقة . واخيرا هذا البيان الفني العجيب) وايسر ما نستطيع استخلاصه من كل ما تقدم لنا من قول هو ان نعتبر الخيال اصلا يقوم عليه الفن في جملته

فالجهة الاولى للفن هي ان يكون هذا القلب الموهوب راغبا . تائق النزعات . متوثب الطموح . مجدا كل الجد في طلب الحقائق . وتحصيلها . والمحافظة عليها . واستبقائها حية مجسدة . في ذخر الذاكرة . ومسارح الخيال

والجهة الاخرى هي محاولة اظهار تلكم الحقائق في نسق بديع مبتكر طريف . فيه من الجمال والفائدة . والتأثير . ما يكفي لجعل الطبيعة . ولا شيء يفوقها في بهجتها وجمالها وسحرها وخلابتها . غير الفن . يقول ـ افلاطون ـ (اذا قارنت بين رجل هو كما صيرته الطبيعة وآخر صار كما صيره الفن . ظهر لك صنع الطبيعة . أقل جمالا . وانقص كمالا . وذلك لان الفن اكثر اتقانا واحكاما) واقول ولان آثار الفن مصطبغة بلون خيالي نلمح في شعاعه الزاهر نزعة النفس البشرية الراغبة في الكمال . الطامحة الى السمو . وهذا دون شك يجعل الفن في مقام فوق مقام الطبيعة . وما فيها من الكائنات .

فنفوس اولئكم النوابغ الذين ولدوا على فطرة الفن الراسخة . والذين زودهم القدر باقدس المواهب . هي اشبه شيء بالاناء فيه مادة ملونة . تحل فيه الاشياء فتصطبغ بذلكم . فاذا ما برزت للوجود ثانية . برزت على اصلها الاصيل . وعلى هذا اللون الخاطف الجديد .

وهكذا يرى الاديب الشاعر . ويسمع ما في الحياة . والوجود . وما في الطبيعة من الصور والمظاهر . فلا يقنع بما يكنزه في ذاكرته الواعية الحافظة . بل تراه . وكانك به في سكينة ذهوله . واحلام يقظته . يغوص الى قرار سحيق الاغوار من اعماق تلكم الاسرار . ليستخرج من اصدافها المغلقة . ما شاء من معاني الجمال . والعبرة . وليصور منها ما شاء بعد ذلك من الهياكل التي يغمرها ما يعج في جنبات ارجائها من زكي النفحات الحالمة . والاعطار الفائحة .

كذلكم يتصور الشاعر ما يصور من المشاهد والمناظر . فلا يتناول المادة في جمودها وخرسها . بل تجد لتلك العبقرية الفنية روحا تبعث في اصلاب الجامد الاخرس . والساكن الصامت . من كل شيء فاذا هو ينسلخ من صفة الجمود . ويخرج عن طور الخرس والصمت . الى الحركة . والعمل . والقول . والافصاح .

واذا شئتم فاستمعوا لابن الرومي يصف الروضة الاريضة . وقد تهيأت لتوديع الشمس الغاربة . يقول . من قصيدة الباسق .

اذا رنقت شمس الاصيل ونفضت — على الافق الغربي ورسا مذعذعا
وودعت الدنيا لتقضي نحبها — وشول باقي عمرها فتشعشعا
ولاحظت النوار وهي مريضة — وقد وضعت خدا الى الارض اضرعا

كما لاحظت عـوّاده عين مدنف توجع من اوصابـه مـا توجعا
وظلت عيـون النور تخضل بالندى كما اغـرورقت عـين الشجي لتدمعا
يداعينهـا صـورا اليهـا روانيـا ويلحظن الحاظا من الشجو خشعا
وبين اغضاء الفـراق عليهمـا كـانهما خـلا صفـاء تـودعـا
وقد ضربت في خضرة الارض صفرة من الشمس فاخضر اخضرارا مشعشعا
واذكي نسيم الارض ريعان ظله وغنى مغني الطيـر فيـه مسجعا

ألسنا في الفردوس ؟ ألسنا نشعر ونحس بحركة ونشاط. وبيان وافصاح ؟ ألسنا نرى في ظلال هذا الوصف روحاحية. تعرف الطرب والقصف. والضحك. والبكاء. والحزن الكئيب. والفرح العاثر النشوة ؟ ألسنا نرى خشوع الجلال ويأس القنوط ووحشة البين وهول التوديع ؟ ألسنا نرى كل هذا في هذه الدموع الحائرة المتعلقة باهداب الزهـور والنوار. وفي هـذه الشمس الغاربة. تعاني المرض الهالك. اذ تداعت الى السقوط. واحنت في ضراعة الانكسار. وذهول الاغضاء لتضع خدها على الارض. وفي هذه النظرات العاطفة. التي تمتد قصيرة اللمح لتشهد وفـاء الروضة يتجلى في اروع معانيـه واتم صوره ؟

ثم أليس من الحق ان نقول بعد هذا كلـه. اذا كان المصور قـد استطاع ان يتسامى في عرض مناحي الجمال. وان يبدع كل الابداع في تأليف الوانه وتنسيقها. وان يفتن في تجويد هذا العرض الى حد بعيد. وبذلكم تمكن من اثارة الاحاسيس. والعواطف في نفوس النظار. فان الاديب قد تمكن ايضا من ذلكم معتمدا نفس الوسيلة المرهفة النافذة ؟ وهل غير الخيال. جعل هذا الوصف قويـا في جدته وطرافته. آخذا بجماله وسحره ؟

الخيال

فالخيال عنصر له خطره واهميته في حياة الفن. ولا اتردد اذا ما قلت له اعظم خطر في حيـاة البشر. فهو نبع السلوان. وفيض المسرات. وهو مسرح الآمال وهو النور الـذي بلعلعة إشراقـه. ووضاءة سنائه. ترى الانظار الطامحة قدسية المثل العالية. هو الذي اوجد الحضارة وخطر بها على معبر العصور من القديم الغابر الى الجديد الحاضر - لولاه ما افتن كاتب ولا ترنم شاعر - ولولاه مـا صدح الوتر بمستعذب النغمات والالحان. ولا استحلت صور الهياكل. وبهيج المناظر عينان. يقول الاستاذ « ولتون » من مشاهير علمـاء النفس الانجليز في حديثه عن منزلة الخيال في رقي النوع الانساني. (ان رقي النوع الانساني من الفه الى يائه يرجع الى شيئين هما : تخيل امور خير من تلك التي في محيط بيئتنا. وبذل الجهود في سبيل ابرازها الى عالم الحقيقة. وما الكنوز التي ورثناهـا عن الماضي

الأ صور مجسمة للخيال سواء في ذلك العلوم . والفنون . والآداب . والموسيقى . والقانون . والانظمة الاجتماعية . والاخلاق . والعقائد الدينية . اذ من المستحيل ان يتصور الانسان ما هو اعلى منه منزلة بدون خيال)

الى هنا وقد اوضحنا وجه الصلة الوثيقة بين هذا العنصر النفسي الذي بوحي الهامه وشعلة ضيائه بخلقه وابتكاره . بحدته وطرافته . قوي الانسان على حل الكثير من هذه الاسرار المبهمة في مظاهر الكون . ومشاهد الطبيعة . وتعابير الحياة . وبهذا العنصر النفسي العجيب استطاع الانسان أن يقف وقفة العابد الناسك في محراب الجمال قريبا من عرش الجلالة . من قدس الرب . من الله الذي لا أول له ولا آخر له . (وإننا في حبنا للجمال لمحبون عابدون لذلكم الوجود الكامل المطلق الذي لا حد له ولا نهاية .

ولعلى بهذه المقدمات أوشكت أن أثبت في نفوسكم شيئا . وأن أزيل من نفوسكم شيئا آخر . أوشكت أن أثبت في نفوسكم صدق النظرية التي يذكر علم النفس في بيان الوسيلة التي يعتمدها الفن والادب في إثارة ما ينبعث في النفوس من تيارات العواطف وهزات الشعور . واوشكت أن أزيل من نفوسكم ما كنا نفهمه في القديم من كلمة الخيال . فالكثير من الناس على انه ضرب من اللهو العابث . والزخرف الذي لاشي وراء لعلعته وبريقه من الحقيقة والصدق . واكثر من هؤلاء من كانوا يفهمون من كلمة الخيال الشعري بوجه الخصوص . ذلكم التكلف والاعتساف في صيد الخواطر النابية . ونظم الاستعارات . والتشبيهات القلقة الضاربة الى ابعد حد في الغرابة . والشذوذ . وتقييدها بخيوط النظم . ولفها . ونشرها على اوضاع مختلفة متعاظلة .

فكأن الخيال في نظر هؤلاء أن يمعن الشاعر في طلب ما يستحيل حضوره في الذهن الا من طريق الوهم الباطل . والبهرج الذي لا ينم عن أصل ولا ينسب إلى أصل . وما كان يفيدنا الخيال . لو كان حقا ما يفهمه هؤلاء المبطلون ؟

ومهما يكن من شيء فالذي يتحصل لنا من كل ما تقدم . ان الادب كالفن يقوم على اصلين لابد منهما . أولهما قدرة الاديب على تعرف الاشياء كما هي . واكتناهها والتقصي في فهمها . وثانيهما عرضها عرضا قويا طريفا . يستفز كوامن النفس بما فيه من بداعة وجدة مغرية . يقول الاستاذ — فكتور كوزن — (الخيالي يعوزه الحقيقي ليكون حيا . والحقيقي يعوزه الخيالي ليكون جميلا . فالاثنان لايفترقان اذ كل منهما تتمة للآخر . والجمال فكرة مستقلة بذاتها وان تكن لا ترى فانها تحس ويشعر بها) اجل الجمال فكرة مستقلة . وهذه الفكرة المستقلة انما يكملها ويجليها الخيال . واذن فالخيال هو العنصر النفسي القوي اللازم لتكميل الفن وابرازه في اشكاله والوانه . ونسوق مثالا لهذا الفن الكامل في حديثنا المقبل

احمد المختار الوزير

التعاضد المتين « ٩ »

(تابع لصحيفة ٢١)

ثم لسنا ممن يجرأ على نصوص الشريعة بالتاويل والحال انه لا قاطع يوجب التاويل ولو كان قاطع ما اختلفوا فيه فالتجرؤ على التاويل لغير دليل قطعي هو ما نعاه القرءان على من نزلت بهم المثلات . وحيرة تلك الطوائف فى اختلافها مع ان كل طائفة ما كانت تقصد الا الوصول الى الحق تجعلنا نحجم عن تاويل النصوص خوف افسادها وان الاولى بنا هو الوقف . ثم عدم الجزم بالتاويل اذا استند لدليل ظني . وهكذا نقول الآن عند ما ظهرت مخترعات ومكتشفات فإنا نحجم عن الجرأة على تاويل النصوص بما يطابقها الا اذا ظهر بالتجربة العلمية القطيعة والامتحان الفني اليقيني انها ليست فكرة قابلة للتغير مع تغير الزمان والكشف عن مخترعات اخرى .

اما اذا كان هناك ادنى احتمال لتغير الانظار وتحول الافكار مرة اخرى وكان الامتحان ليس يقينيا حسيا . فالواجب هو ترك النصوص على ظاهرها تهيبا لحرمة الشريعة نعم يمكننا ان نقول ان هذه النظرية يمكن ان ينطبق النص عليها من غير ان نجزم بانها مراد الله خوف ان نقع في الكذب على الله - ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون - ثم اذا لم تثبت تلك النظرية وظهر فسادها نجونا من الجناية على القرءان بحمله على معنى لا يصح . كما جنى من طبق عليه انبساط الارض وكون الشمس تدور حولها وان الارض هي مركز الافلاك وانها ثابتة لا تتحرك الى امثال هذا من كون الارض فوق قرن ثور وان الثور على الماء والماء على الهواء ونحو هذا من افكار اسراءيلية لا ثبات لها في كتاب صريح ولا حديث صحيح بل خرافات خيالية وكل من طبق القرءان على امثال هذا وشرحه به فقد جنى جناية كبرى اوقعته في ضلال مبين .

فالقرءان شريعة عامة وأبدية فيجب على المفسر ان يكون دائما يستحضر هذا المبدأ وان لا يفسر القرءان الا بما هو ظاهره الا اذا قام دليل قاطع على التاويل . ومن هذا الباب من يفسره بالاشارة ويحمله من انواع المعاني الخيالية ما هو بعيد منه فكل ذلك خطر في الدين والى الضلال اقرب الا اذا قامت قرينة على ذلك

قال سعد الدين : النصوص على ظاهرها والعدول عنها الى معان يدعيها الباطنية او غيرهم الحاد . كما يجب على المفسر ان يكون مستحضرا لعظمة القرءان وانه منزل من حضرة القدس لهداية الخلق فكم من رأي كان قطعيا يقينيا عند من يراه فتبين انه محض خيال وكم من فكرة كانوا يعدونها وهما وشاذة فاصبحت كلمة اجماع . فالمسلم الخالص المخلص بيده برنامج عظيم للحياتين هو القرءان الكريم

معارضات

قصيدة عامر ابن هشام

وصف الاديب الكاتب الناظم الناثر امام البلاغة الشيخ محمد الورغي شاعر الامير علي باشا الاول لمنازل تونس مجاريا لقصيدة عامر بن هشام في وصف منازه قرطبه التي مطلعها :

يا هبة بكرت من نحو دارين   وافت الي على بعد تحييني

وعلى منوال قصيدة الورغي نسج ادباء تونس من المتاخرين كالوزير احمد بن ابي الضياف والشيخ الباجي المسعودي وقد اثبتنا الجميع هنا تخليدا لادب تونس في القرن الماضي (معارضة الشيخ الورغي)

باشر سعودك ليس الوقت بالدون   واجعل صبوحك عند (باب سعدون)
واصحب الى الانس جذلان الفؤاد اذا   طغت حمياك قاد الصعب باللين
ماذا التوقف عن عيش تسر به   وقطع ءانك في حدس وتخمين
فاخلع عذار التوقي من عواقبه   ما الحزم تركك قطعيا لمظنون
اما ترى الروض قد القى السحاب به   على طريق الغوادي اي بزيون
قد وشحته فنون النور وانبسطت   على خمائله ظل الافانين
كانما قزح لما تقوس في   ارجائه رشه من كل تلوين
وقف هنا (بابي فهر) المجيد فقد   مضت به دولة الشم العرانين
ترى (الحنايا) كسطر النخل مد به   بعض لبعض بمجني العراجين
او خرد نهضت للرقص فاعتنقت   كي لا تجيء برقص غير موزون

والسنة الصحيحة . فيجب عليه ان يلحظهما بملاحظ العظمة والجلال لينتفع بهما في الحال والمئال . ان القرءان هو الذي كون انسانا كاملا ومثلا اعلى من مثل الامم . والقرءان هو الذي حفظ لنا الامة وجللها بجلال الحرمة وهذبها ونماها مع الاجيال في ماضي الاحقاب وهو المخلص لنا من اوحال الحياتين عند ذي العزة والكمال .

وهو شرع تام اكمل وأرقى شرع عرفه البشر موافق لمواهب العقل ومكتشفات العلم الحقيقي يحدو بنا للكمالين . ويبوؤنا متبوأ النعيمين ولا يحجزنا عن البلوغ لاي مرتبة من مراتب المجد بل يعيننا ويرشدنا الى بلوغ غاية الغايات ويهذبنا تهذيبا يهيئنا للسمو الذي ليس بعده سمو . فما دمنا متمسكين به ونحن مفلحون .

يتبع

ولست صاحب ظرف ان مررت على (مرسى) الظريف ولم تنزل الى حين
(والعبدليات) تحكي في تصنعها ضرائرا جئن في غنج وتزيين
وما مقيم لدى الافياب بـ (سكرة) على القلالية الغرا بمغبون
ولو وقفت (بقمرت) التي جمعت شطوطها بين مرعى الضب والنون
ومل (لمنوبة) وقت العشي اذا ماج الاصيل بها بين البساتين
وانظر الى (القصر) والاخرى تناظره مثل البيادق طافت بالفرازين
والطير تصدح في حافاتها زمرا جموع عجم اتت بعض الدواوين
ورح لـ (رادس) العليا وقبتها بين الفرادس تبدو مثل شاهين
حتى اذا ما قضيت البعض من وطر ورمت ايقاع فرض بعد مسنون
فاركض الى ضحوة (المركاض) وانس بـ ـها ما كان عندك من وحي الشياطين
واحضر عشية باب البحر مغتبطا فربما نفست عن كرب محزون
اما ترنجة) فهي البرء لو سلمت ساحاتها الفسح من لسع الثعابين
وارجع الى البيت من (باب المنارة) او (باب الجديد) الى سوق الرياحين
وطف من (البركة) المعمور (جامعها) الى (الرباع) الى ركن (القرسطون)
واخش الجمار لدى (بير الحجار) اذا سعيت منها الى (حمام زرقون)
وان خرجت الى (روض السعود) فقف كما عرفت وبت في (درب زيتون)
تلك المنازل لا (الزهرا) (وقرطبة) كلا لعمري ولا غيطون (جيرون)
فعد سوائحها ان امكنتك وان تعسرت فاستعن من مثل بركون
ولا تصد غير ساجي الطرف ذا حور فانت في غير هذا غير ماذون
واستمنح السعد من عند الجواد به واستغن ان نلته عن مال (قارون)
ولا تقل كيف يدنو ما أأمله فان مغزاك بين الكاف والنون

وللشيخ الوزير الكاتب ابي العباس احمد ابن ابي الضياف
حين كان في اسطامبول متشوقا الى تونس سنة ١٢٥٨

نسيم تونس حياني ويحييني والطيب منه اذا ما تهت يهديني
لا غرو ان تاه قلبي في محبتها فأصل نشأته من ذلك الطين
اذ وجهتني لارض لا تلائمني وحبذا امرها يزكوا ويرضيني
قاسى فؤادي اهوالا يذوب بها اعوذ بالله من همز الشياطين
بالله يا نسمة ان جئت تونس قف وانشر سلاما لها من قلب محزون

واستفتح النور من (طود المنارة) اذ ... يبدو لمنظرك (الباجي) على حين
ترى مراسي حلق الواد زينتها ... شوامخ السفن كالطير الميامين
فانظر مدافعه واعرف عساكره ... في البر والبحر حازوا خير تمكين
ونزه العين في تلك البقاع وطف ... على الحصون ومأوى عسكر الدين
واسرع الى قشلة القنديل ان بها ... سمط المدافع في زي الثعابين
طوابر الاسد في آجامها ربضوا ... ان فاه آمرهم لبوه في الحين
زادوا لاقدامهم ترتيب حربهم ... واتقنوا نظمه من غير تخمين
ان الحنايا كنوع من وقوفهم ... لا مثل نخل لمجني العراجين
قادوا الصواعق في سهل وفي جبل ... طاروا باثقالها مثل الشواهين
واستنطقوها اذا حنوا لنغمتها ... اصواتها عندهم رجع التلاحين
وسرح الطرف في قصر الامارة من ... ارجائها اذ بدا في كل تلوين
مرصع بنظام فاق نظمهم ... سلك الجواهر في تلك الاساطين
غيل الملوك ومأوى كل ذي شرف ... بقاعة شرفت اهل الدواوين
ديوان كتابها ديوان حسابها ... ديوان قوادها اهل القوانين
وغيرهم من جموع طاب نشرهم ... طيب الرياض بانواع الرياحين
قاموا بخدمة مولاهم وطاعته ... فلن ترى خطوة في غير ماذون
مدار عصبتهم مأمور سيدهم ... فيما يصرف من صعب ومن لين
واعطف على قشلة الفرسان تبصرها ... تلافت وتردت بالبساتين
عقبانها من ظهور الخيل قد نبتوا ... مثل الجذور تنقت من افانين
تطير للبأس في الهيجا جيادهم ... فاعجب من الجرد تجري بالموازين
واستحضر العيش بالخضرا وساكنها ... واسعد باتيانها من باب سعدون
اصل العلوم ومأوى الصالحين بها ... ومركز الدين من فرض ومسنون
أنس الغريب بها ينسى مواطنه ... وموضع اليسر من عيش المساكين
ومتع النفس من مرأى محاسنها ... وانظر مثائر من شم عرانين
واعبر الى القشلة الكبرى بعسكرها ... وانظم من الدر في نسق الاساطين
غاضوا محاربهم عزوا محاربهم ... زانوا بصولتهم كل الميامين
وادخل مساجدها واذكر محامدها ... وصف معاهدها وصف المجانين
والجامع الاعظم اجمع من فرائده ... ما يقتني لنحور الخرد العين

قد زانـه احمد ذاك المشيـر ومن ... به الايـالة في عـز وتمكـين
كتائب الكتب اهداها وقد عجزت ... عنهـا الملـوك ولا همـوا بتخمين
قوى بتسييرهـا تـايد عسكـره ... اذ مرجع الكل في التحقيق للدين
يا حسنهـا وهي بحر في خزائنها ... يغنيك جوهرها عن جوهر الصين
وكـم له من فعال لا عـداد لها ... تبقـى مع الدهر شجـوا للملاعين
لا زال يـلبس والتـاييد يصحبـه ... ملابس العز مع تـاج السلاطـين
ما قال صب من الاشواق في قلق ... نسيـم تـونس حيـاني ويحييـني

وللشيخ الاديب الكاتب الرئيس ابي عبـد الله محمد الباجي المسعـودي مسايرا للشيخ الـوزير الكاتب ابي العباس احمد ابن ابي الضياف تغمدهما الله بواسع رحمته

حـي نسيمـك حتى كاد يحييني ... يا تونس الانس والسلام والـدين
سـرى عليـلا وأومى بالسلام الى ... مضنى بحبك ناءي الـدار مغبون
فجد بي الشوق واستولى على جلـدي ... وصـرت اخفيـه حتى كاد يخفيني
وبت في حـرق والطرف في ارق ... والنـوم اعصيـه احيـانا ويعصيني
سقى ربى تونس الخضرا وساكنها ... سحب من الغيـث ترضيهـم وترضيني
ولا أذاقـني الـرحمن فرقتهـا ... فانـه موجـب ضعـفي وتوهيـني
ربع الامـاني ومـأوى كل ذي ادب ... ومكـنس للمهـى والخـرد العين
منشى شبـابي واتـرابي ومرضعـتي ... ثدي السرور الـذي مـا زال يرويني
قم يا نديـم نباكـر روضها سحرا ... فالسعد قـابلنا من باب سعدون
اهـدى الربيـع لنا ظرفا وتكـرمة ... نسيم انفـاسه ضمن الرياحين
امـا ترى اعين الازهار غامزة ... للهـو والقصب للافـراح تدعـوني
ساعـد اخاك الى (اريـانـة) فبهـا ... روض تـوشى بوردي ونسرين
واغنـم بهـا نفس الاسحار مصطبحا ... من خمرة عتقت في دير عبـدون
ومل لـ (شطرانة) عند الغبوق وقف ... واطلب بها ما تشا يأتيـك في الحين
و (جعفر) لاذوت اغصانـه وسقت ... ثغـور ازهـاره بنت الزراحين
ظـل ظليـل ومـاء كالسلاف على ... رجع النـواعر ربـات التلاحين
وارتـد لنفسك في (رواد) منـزلـة ... واخلع عـذارك فيها خلـع مامون
واحمـل الى شاطىء المرسى (وقبتها) ... خمرا مشعشعة من خمـر برزين
وواصـل الانـس وارفـل في ملابسه ... وانزع بـه الكاس واشربهـا وسقيني

وسرح الطرف مرتاحا ومبتهجا … في خضرة البحر حينا والبساتين
والغيد تمرح والغزلان تسبح ما … في البرضب ولا في البحر من نون
تلف العذول عذيرا في خلاعتها … اذ حسنها ناب عن نصب البراهين
واسلك الى (شامخ الباجي) وتربته … واسأل هناك عطاء غير ممنون
حتى اذا ما بلغت الحد من طرب … وأبت للجد بعد اللهو واللين
فاسرع الى (حلق واديها) وشمه ترى … ما خلدته يد الشم العرانين
ترى به الفلك بالابراج محدقة … مثل البيادق طافت بالفرازين
تزينت بصفوف من مدافعها … سود فواغر امثال الثعابين
وسل (ابا لحية) ذاك المجاهد عن … فعاله في اعاديه الملاعين
وادخل الى القشلة الكبرى فان بها … جندا مفاخرهم بالمجد تغريني
اسد العساكر في أجم السلاح جثوا … لنصر سلطانهم والقطر والدين
في سورة الصف من احوالهم مثل … لا زال سعدهم في حرز ياسين
واركض إلى قشلة الفرسان تلف بها … قوما كراما على غر ميامين
تحكي قواضبهم لمع البروق دجى … من كل عضب بماء النصر مسنون
وفي فنى قشلة القنديل اسد شرا … قد تاجروا الله تجرا غير مغبون
الحزم والصبر والاذعان دأبهم … في حسن سمت بوعد النصر مقرون
وان وصلت إلى (قصر الخلافة) قل … حييت حييت . يا مأوى السلاطين
يا قبة العدل يا دار الامارة يا … ملجا لكل غريب الدار مسكين
لا زلت تخلد في عز وتكرمة … لسادة العصر ارباب الدواوين
فيا منازل ذي فتك وذي نسك … ويا معالم تلحين وتأذين
انت المنازل حقا لا منازل من … يقول ياهبة من نحو دارين
ما شاد ذكرك قبلي من يقول بها … باشر سعودك ليس الوقت بالدون
حذوت . حذو أبي العباس احمد في … نسيم تونس حياني ويحييني
فخري وذخري واستاذي الشهير ومن … وجدي به في تجاويف الشرايين
مثنى الوزارة من سيف ومن قلم … ومنصب غير محتاج لتبيين
يدوم في العز فذا لابسا أبدا … سعادة من الاه الكاف والنون



الخطوط الكوفية

وتاريخ ادوارها بالقيروان

بقلم الفاضل المؤرخ الشيخ محمد طراد

كان الخط الكوفي اولا مهملة جميع حروفه لا اعجام فيها أي لا نقط وهذا في دور النبوءة والخلفاء الراشدين وما قبله . ومنه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم للمقوقس الذي عثر عليه أخيرا بدير بعض الاقباط بمصر وأخذت صورته بالفوتوغرافيا . ثم لما اتسعت الفتوحات الاسلامية واختلطت عناصر الاسلام ووقع اللحن والتحريف وحل محل الاعراب الذي كان سليقيا عند جميع العرب وخيف تسربه للقرآن العظيم وقراءة المصحف الشريف ووقع ما هو مقرر في سبب وضع علم النحو . جعلت علامات الاعراب نقطا حمرا توضع على الحرف الاخير موضع الاشكال التي توضع على الحروف اليوم . فالضم نقطة حمراء توضع في السطر حذو اخر حرف من الكلمة مثاله قبل . بعد . واذا كان تنوينا أي ضمتين توضع نقطة اخرى ثانية فوق الاولى مثل قتال : من قوله تعلى قتال : فيه وكفر : والنصب نقطة حمراء أيضا فوق الحرف كقوله عندَ الله والخفض نقطة حمراء أيضا أسفل الحرف كلفظ الجلالة في قولك عندَ الله وهذا يوجد في كثير من بقايا أوراق بعض المصاحف العتيقة المحفوظة بمكتبة الجامع الاعظم بالقيروان. والاغرب أن العبدري ذكر في رحلته أنه اطلع على مصحف بهاته المكتبة قيل له إنه المصحف الذي بعثه سيدنا عثمان لاهل افريقية . وبينه بقوله في ورقاته : طوله شبران وعرضه ثلاثة أشبار . واليوم توجد أوراق بالمكتبة بهاته الكيفية وهاته المساحة وعلى هذا النمط فلا يبعد أن تكون هاته الاوراق من هذا المصحف بعينه . ثم استعمل إعجام الحروف التي كانت سابقا مهملة لكنها استعملت في صورة أشكال صغيرة فوق الحرف وباسفله . وجعل للقاف شكلتان وللفاء شكلة واحدة فوقهما . وفي هذه الاونة الذي هو الدور الصنهاجي توجد أيضا هاته الاشكال بصفة اعراب ويبقون الحروف كلها مهملة لا نقط بها . وهذا يطبقه الراءي في مصحف فاطمة حاضنة باديس الموجود بقايا من أوراقه بهاته المكتبة . هذا ما يتعلق بكتابة المصاحف بهذا الخط الكوفي أما الخطوط التي تنسخ بها الكتب العلمية وأوراق دواوين الحكومة وسائر الكتابات العمومية . فكلها مهملة لا إعجام فيها ولا اشكال . ودام ذلك على هاته الحالة حتى الدور العبيدي والصنهاجي . أما الكتابة بالنقش على الصخور بالخط الكوفي فهي من أول الامر إلى أن انقطع استعمال الخط الكوفي حروفه كلها مهملة . لكن في الدور الاغلبي كان بحفر الحروف في الصخر ودام حتى لاواخر الدور الاغلبي أي لما قبل المائتين والخمسين من الهجرة وما يقرب من ذلك . ثم في أواخر الدور الاغلبي إلى انقراض استعمال الخط الكوفي كانت الاحرف كلها بارزة ولا يوجد حرف بصفة حفر ثم صار يتأنق في جمالها حيث كان لها سوق خاص وهو سوق النقاطين اليوم الموجود بالنهج الكبير بالقيروان وفي الدور الصنهاجي أدخلوا عليه تحسينا ياخذ بمجامع القلوب وهو جعله في وسط أغصان ازاهر كالكتابة الموجودة إلى اليوم في الالواح التي على بيت المعز ابن باديس بجامع القيروان . وعلى كثير من مشاهد قبور الجناح الاخضر لمشاهير الرجال والعلماء .

بحوث تونسية

تعليم الاهليين

أبرز موظف عال فرنسي ممتاز بالذكاء وجودة القريحة رسالة تحت هذا العنوان جمع فيها ما كان كتبه في فصول متفرقة بمجلة « لجنة افريقيا الفرنساوية » في عامي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ فتعرض في هذه الرسالة للادارة المركزية ولرجال السلطة الاهلية ولكيفية سير الرقابة الفرنسوية التي اقتضتها الحماية وللحريات العمومية ولتعليم الاهليين ولتطور النظام العقاري البري وللاصلاحات الادارية التي أنجزت في سنة ١٩٣٨ على عهد المقيم السالف م. أرمان قيون

ونحن نحب في هذه العجالة أن نترجم بعض فقرات من القسم الذي عنوانه « تعليم الاهليين » حتى يتبين منها قراؤنا الكرام فكر المؤلف في هذا الموضوع الهام

فمن جملة ما قاله : إن برنامج الصادقية الشبيه ببرنامج المدارس الاسلامية بالمغرب يرفع التلامذة لمستوى من الثقافة الفرنساوية قريب من مستوى البا كالوريا ويهبهم ثقافة عربية تضارع ثقافة جامع الزيتونة

بيد أن هناك فرقا بين تثقف خريجي الليسي وبين الصادقيين فالاولون يميلون في الغالب الى التحرز من كل القيود بينما الثانون يبقون متمسكين أكثر من الآخرين بعقيدتهم

أما الذي يتفق فيه الطرفان فهو ان تعليمنا ينمي فيهما إحساسا مليا حادا للغاية ويمكننا أن نشاهد بأن قادة الحركة الدستورية قد كونهم تعليمنا الثانوي وإذا فكرنا بأننا اليوم نعطي هذا التعليم لالف وستمائة أهلي « في جملة ٦٥٠٠ تلميذ بالمعاهد الثانوية » جاز لنا أن نخشى إنقلاب أركان الدستور في يوم قريب جيشا عرمرما

ثم قال : ينتقد الفكر الاسلامي العام علينا جعل الثقافة العربية ذات قسمة ضيزى في التعليم الابتدائي وعدم جعل اللغة العربية من جملة المواد الجبرية في امتحان الشهادة الابتدائية

وإذا شئنا أن نبحث عن أحد أسباب نمو المدارس القرآنية العصرية بسرعة التي تخصص للتعليم العربي والاسلامي المقام الاول وللتعليم الفرنسي المقام الثاني وجدناه في ضعف المواد العربية في تعليمنا الابتدائي وفي لائكته

وفيما يخص عدم انتشار التعليم كما يجب قال: «على الرغم من المجهود الذي بذلناه لتوسيع نطاق التعليم بالايالة التونسية لا يزال الجانب الاوفر من الشعب غارقا في لجة الجهالة فمن ٣٠٠٠٠٠ من التونسيين الذين هم في سن الدراسة لا يزاول التعليم في مدارسنا الابتدائية إلا ٤٢٠٠٠ طفل من أطفال الاهليين ولا يغشى المدارس القرآنية العصرية إلا بضعة آلاف فقط

على ان الصحافة الاهلية لم تنفك تنتقد علينا ترك خمسة أسداس السكان في خضم الجهالة والامية وبذلك تتبدى نحونا في ثوب المنكر للجميل . فهل هي تجهل ان مصر وهي البلاد التي تستسقي منها تلك الصحافة مثولها وأقيستها لم تستطع أن تنشر التعليم أكثر مما استطاعته هذه البلاد وان الامية فيها متفشية أكثر مما هي متفشية في تونس

وقال في خصوص المدارس القرءانية : « إن هذه المدارس هي مدارس حرة انشئت بسعي من بعض المحسنين لكنها لاتقوم اليوم في الواقع ونفس الامر إلا بفضل الاعانات التي تمنحها اياها الحكومة وهي إعانات نمت مقاديرها بسخاء تام استجابة لضغط القسم الاهلي من المجلس الكبير

وهذه الاعانات قد اغرت بدون شك ارباب الشهادات العلمية الذين يريدون تكوين مرتزق لهم باحداث مدارس من ذلك النوع . وذلك هو احد اسباب تكاثر ذلك الضرب من المدارس ومن اسباب انتشارها ايضا هو انها لما كانت غير خاضعة الا لرقابة خفيفة فانها يمكن ان تتالف منها وسيلة طيبة للغاية لنشر المبادي الملية من اجل ذلك نرى ان نشر المدارس القرءانية هو من دواعي الاهتمام المستمرة للدستوريين . .

واذا كان التعليم القرءاني العصري يحظى بعطف المليين التونسيين فانه يلاقي معارضة عنيفة في الاوساط البيداغوجية والماصونية التي ترى فيه – ولها الف حق في ذلك – حائلا دون صبغ الايالة التونسية بالصبغة اللائكية وهذه اللائكية هي التي يؤمل منها مثلما كان يؤمل فيما سبق بواسطة التنصير التوصل لمزج العنصرين او على الاقل تقريب مسافة الخلف بينهما .

ولقد لاحظ الماسوف عليه الكولونيل مارتي اثناء مسامرة قام بها ان الشرق العربي يتقرب الى النظم العصرية بدون جنوح للائكية بخلاف تركيا فان اساس نظمها العصرية هو اللائكية . وليست مهمة المدارس القرآنية العصرية في الواقع الا حفظ العقيدة الاسلامية مع التوفيق بينها وبين العلوم الحديثة . ولن تؤول في آخر الامر الا لتوسيع الشقة التي تفصل بين العالم اللاتيني وبين العالم العربي .

وقال المؤلف في خصوص الجامع الاعظم ما مفاده ان حركة النهضة العربية قد شملت ايضا ذلك المعهد الديني وتناولتها مثل جامعتنا العلمية في القرون الوسطى المعارك بين القدماء والمحدثين ثم قال ينبغي قطع دابر النزعة التي ترمي تدريجيا لادخال جامع الزيتونة ضمن المؤسسات الدولية وذلك لسببين اولهما اجتناب النفقة الباهظة التي تترتب على ذلك بالميزان وثانيا لحفظ سمعة ذلك المعهد الديني . ضرورة ان العلماء الذين اعمتهم الارباح المادية التي قد يجنونها من صيرورتهم موظفين قد غاب عنهم ما يحيق بهم من نقصان في نفوذهم حين يخضعون لادارة هي لائكية بطبيعة الاحوال وتسير تحت رقابة فرانسا .

وليس بممتنع تمكين اساتذة الزيتونة في آن واحد من استقلالهم الفكري ومن عيشة يسر وذلك بتنظيم تلك الجامعة على مثال مؤسسة ذات فائدة عامة تنجر لها اعانات من الاوقاف ومن الدولة

وتباشر التصرف في مداخيلها وادارة شئون مستخدميها بنفسها وهـذا هو نفس النظام الجاري به العمل في الجامع الازهر ...

واردف ذلك بقوله « لو يتم لاساتذة الجامع الاعظم مرادهم من نيل مرتباتهم من مخصصات ميزان التعليم الدولي اذن لن يبق لهم الا المطالبة باعتبار التعليم الذي يمنحونه هو التعليم الوحيد القانوني في مملكة اسلامية تاركين لفرانسا مهمة القيام بمدارسها اللائكية والفرنسوية على نفقة ميزانها الامبراطوري ... »

« لقد كان التعليم بتونس قبل انتصاب الحماية ضليل الانتشار ضعيفه ، وكانت اساليبه بالية عتيقة تهتدي بالتعاليم القرآنية خاصة وبفضل فرانسا قد اقيمت مدارس عصرية ذات ثقافة لاتينية ازاء الكتاتيب والمعهد الزيتوني وقد اقبل الاهالي على هاته المدارس زرافات ، لكن رغم كون الاساليب التي يتلقاها الاهالي بمدارسنا ممتازة عن اساليب التعليم القرآني فانها لم تتمكن من القضاء على هذا التعليم قضاء نهائيا ، بل الامر بعكس ذلك ضرورة ان هذا التعليم بدافع مزاحمة التعليم الغربي اياه قد اخذ يسعى جهد المستطاع في التعود باساليب الحياة العصرية فهل يدرك هاته الغاية ؟

لا نظن ذلك رغم المجهود العظيم الذي بذلته الامم الشرقية للابقاء على مدنيتها بارجاعها لعنفوان شبابها وادخال عناصر جديدة عليها ورغم المجهود العظيم الذي بذلته ايضا هاته الامم لانشاء مصطلحات علمية والفاظ جديدة قد ابقى الاسلام باب الاجتهاد موصدا طيلة قرون عديدة فكيف يمكن ان ينفتح بدافع قوة الناشئات المسلمة التي يدفعها للقيام برد الفعل شعورها بالانحطاط اكثر مما يدفعها لذلك ما يخالجها من مباد نزاعة الى التكوين والانشاء .

ان الثقافة العربية اذا ما وقع تجديدها فانها لا تستطيع ان تستقي قواعدها العلمية الا من المصادر الغربية وبذلك لا يسعها الا ان تكون مدينة بالفضل للثقافة اللاتينية

ويلوح لنا ان حركة تجديد الثقافة الاسلامية ليست الا عاملا من عوامل الدفاع وحفظ الذات وهي ضرب من ضروب المقاومة الروحية التي لا تستطيع الا تاخير الاجل الذي تجرف فيه الشعوب العربية حتما في تيار المادة والمبادي الواقعية الغربية ، على ان الثقافة المقتبسة من تعاليم ديكارت الباعثة للفكرة النقدية هي التي تستطيع وحدها ان تحقق لتلكم الشعوب مستقبلا في العالم العصري

بقي لنا ان نعرف هل من مصلحة فرانسا تعجيل هذا الانبعاث ام من مصلحتها بعكس ذلك تنشيط انكماش المحتمين بها في الاثواب الحريرية للفلسفة الشرقية

ان استبقاء الثقافة القرآنية العتيقة التي تمتزج فيها الروحيات بالزمنيات ولو كانت مصطبغة بالصبغة العصرية من شانها ان تبقي بين الفرنسي وبين البربري المستعرب بالشمال الافريقي حاجز الاسلام ، غير ان اختلاف اساليب التفكير لا يكون حتما من العوائق دون ارتباط اواصر المودة ، بل انه قد يسهل اسباب العلائق الحسنة اذا كانت الطباع متممة لبعضها بعضا مثلما هو الشان هنا ، لان ميل الافريقي للخيال لا يمكنه ان يستغني عن نشاطنا الواقعي

ان الخطر هو ان يكون من نتيجة ادخال الاساليب العصرية على الثقافة الاسلامية فض ذلك الرباط من المصلحة بايهام المحتمين بنا انهم بلغوا درجة النضوج العلمي ، واذا كان المليون المسلمون

هم اشد الناس تنشيطا لحركة التجديد الموما اليها فهل ليس ذلك الا لكونهم يؤملون من ذلك فائدة مزدوجة : فالمتعلم العصري سيكون اداة لمبادي التحرير السياسي بينما التعليم القرآني الذي سيمتزج به من شانه ان يبقي الافكار في جو من التعصب الديني وجنوح لاخذ ثار الحروب الصليبية

لذلك فاننا نتساءل عند ما نتصور في آن واحد ماضي امة الشمال الافريقي التي تلقت ثقافة لاتينية وكذلك افاق مستقبلها البعيد هل ليس من اللائق لخلود امبراطوريتنا ان نعطل بل نعرقل حركة الرجوع الى الموارد الاسلامية المجددة بتوسيع نطاق تعليمنا اللائكي واللاتيني شيئا فشيئا الم يكن الامل الوحيد في جعل ابناء هذه الملة متعلقين بنا تعلقا عميقا محصورا في تكوين صلة تعاطف حقيقي بيننا وبينهم من الوجهتين الفكرية والمعنوية ؛ لكن سياسة التعليم اللاتيني والاندماج الثقافي تستدعي ايجاد موارد ارتزاق للمحرزين على الشهادات العليا الذين تكونوا بمدارسنا واغترفوا من مناهلنا والا فانهم سيصبحون نواة حنق الامة التونسية على فرانسا الكريمة المحسنة سيما وان هؤلاء الشبان يعتبرون شهائدهم كاداة تكسبهم حقا صريحا .

واننا نرى اننا اتينا في مشروعنا الاستعماري الماضي هفوة كبيرة لكوننا ساعدنا على تطور الشعوب الاهلية ونمو ما اوتوه من مواهب خارج دائرة تقاليدها بدون ان نتحقق من كونهم سيجدون شغلا بمجرد ما يتم تكوينهم الثقافي . وقد وهبناهم الحريات العامة بدون ان ننظر هل من الممكن تمكينهم ايضا من البرلمان الذي هو من مستلزمات هاته الحريات واننا نسرف اسرافا في نشر التعليم بدون التفات الى عدد المناصب المحدودة المفتوحة في وجه تلاميذنا الاهليين

وفوق ذلك اذا رات فرانسا لزاما عليها ان ترمي لتكوين اندماج ينمو شيئا فشيئا نحو تقريب عناصر امبراطوريتها من بعضها بعضا فلا يظهر من المتعذر ايجاد مجال للعمل لارباب الشهادات العليا من التونسيين الممتازين خارج بلدانهم في الاقطار الافريقية المتاخرة بالنسبة لغيرها او بام الوطن . اذ بواسطة مزج العناصر الجديدة المتكونة منها الامبراطورية الفرنسوية بعائلتنا الفرنسية العتيقة تكون « وطنية امبراطورية » على انه لا يكفي تعليم الاهليين بممتلكاتنا باللغة الفرنسية بل ينبغي ان نكون فيهم قلبا فرنسيا . وهذا ليس بالصعب اذا أردنا ان نتجشم ما ينتج عن ذلك من المشاق . ولهذه الغاية يجب الا يتمادى طلبة شمال افريقيا بكلياتنا على العيش كجالية اجنبية منقطعين عن العائلة الفرنسية اوحانقين مع بعضهم بعضا . ينبغي ان نعدد بتونس وباريس الاتصال بين هذه الشبيبة وشبيبتنا ونفتح لها ابواب بيوتنا ونحدث لها نواحيا للدعاية والتهذيب . ان الحوادث الاخيرة التي شجرت بتونس مثل التي وقعت بالمغرب او بمصر او بسوريا قد كشفت النقاب عن الدور المهم الذي تقوم به الشبيبة في الحركات السياسية بتلكم الشعوب التي هي بصدد اجتياز ازمة تطور . ومن المحقق ان الزجر يستطيع ان يهدىء موقتا الهيجان الشعبي لكن لنكن متحققين ان النار لا تزال كامنة في ادمغة الطلبة . فعلينا ان نبذل كل جهودنا لنجلب الينا تلك الشبيبة ولنستحوذ على عطفها ثم ياتي اخلاصها الينا فيما بعد من تلقاء نفسها .

ولا ننسى ان رجال الزعامة العريقة من ذوي البيوتات القديمة يتقلص ظلهم بسرعة يوما فيوما امام النخب المثقفة . فالطلبة اليوم هم رؤساء الغد . فاما ان يكونوا خصوما لنا او معاضدين لمشروعنا

« عن النهضة الغراء »

حول البحوث التونسية

لقد عودتنا حوادث هذه الشهور ان تبغتنا شركات الاخبار وءالات الاذاعة بحوادث عالمية ومفاجئات غريبة لا تخطر على بال عظماء السياسة وأصحاب الافكار والاراء، حتى توطدت نفوسنا على تلقي ما يجد من الحوادث والفت أسماعنا العجائب والغرائب، نترقب ظهور الجرائد اليومية الصباحية والمسائية مطمئنين انا سنجد فيها ما لم نكن نتوقعه ولا يدخل تحت حساب

ولقد طلعت علينا النهضة الغراء في يومي (١٤) و (١٥) من شهر افريل بمقالين افتتاحيين تحت عنوان « بحوث تونسية » ترجمتهما عن مجلة افرنسية قالت انهما لموظف عال افرنسي ولقد لفت نظرنا هذا العنوان لتعلقه ببلادنا العزيزة التي هي إحدى مشاكل اليوم المتعقدة وظننا اولا ان هذا الموظف العالي يعالج مسألة سياسية ومشكلة من المشاكل العامة الدولية لكن ما اتينا على المقالين حتى علمنا ان الرجل انما يعالج مسألة فنية وهي مسألة التعليم. وبما ان هذا الموضوع يهمنا بصفة خاصة لا سيما وفيه الحديث عن جامع الزيتونة قرأنا الفصلين باهتمام شديد. وما انتهينا منهما حتى تملكنا العجب واستولت علينا الدهشة، وقلنا :

كل يوم تبدي صروف الليالي خلقا من أبي سعيد غريبا

موظف عال افرنسي ممتاز بالذكاء وجودة القريحة يطعن المسلمين طعنة نجلاء في قلوبهم يحتقر تعليمهم ويزدري كتابهم ويحط من قيمة علمائهم ويظهر ما يكنه ضميره من البغض لهم في قالب نصيحة ويجهر بدعوة الحكومة الى محق اللغة العربية والدين الاسلامي والسعي في ادماج المسلمين في العائلة الفرنسوية وإدخالهم في بودقتها وطبعهم بطابعها قلبا وقالبا

يجهر بكل ذلك موظف فرنساوي في تونس المسلمة التي على رأسها امير مسلم شديد التمسك بدينه ولغته وله وزراء مسلمون لهم مثل ذلك الاحساس وحكومة الحماية تعترف لها بذاتيتها وتلتزم باحترام لغتها ودينها بل وعوائدها. ولكن هي السياسة ما دخلت في شيء الا افسدته، تدخل في التعليم فتفسده، وتدخل في اللغة فتفسدها، وتدخل في الدين فتفسده، فأعوذ بالله من السياسة وما تصرف منها،

تكلم هذا الموظف العالي اولا على التعليم بالصادقية والليسي وقارن بينهما وفضل الثاني على الاول بطرف خفي لانه تعليم لائكي بخلاف التعليم الصادقي لانه يبقي خريجيه على معتقدهم، ثم ذكر ان الذين يتلقون التعليم الثانوي من المسلمين الف وستمائة ضمن (٦٥٠٠) وقد استعظم هذا العدد على قلته وخشي ان يصير جيشا عرمرما . ولولا ان السياسة أثرت على هذا الموظف الكبير لما خشي من انتشار العلم بين التونسيين. وما عهدنا قط ان العلم يكون خطرا على أحد، وانما الجهل وحده هو الذي يكون سبب الشر والبلاء،

ثم ذكر هذا الموظف ان الفكر العام الاسلامي ينتقد القسمة الضيزى بين اللغة العربية والفرنسوية وعدم اعطاء الاولى ما تستحقه من العناية. ولكنه لم يجب عن هذا الانتقاد. ولربما كان لسان الحال أفصح من لسان المقال.

ثم أعترف بقلة عدد المتعلمين وانتشار الجهل والامية في خمسة اسداس الاطفال (وهو الخطر الحقيقي) ولكنه اعتذر عن ذلك بأن مصر رغم انتشار العلوم بها وصيرورتها مركز الثقافة العربية لم تزل الامية فيها متفشية اكثر مما هي متفشية في تونس.

ونحن نجيبه عن ذلك بانه اخطأ خطأ مبينا فان التعليم الابتدائي بمصر قد انتشر انتشارا عظيما حتى صار اجباريا او كاد. وتلامذة المعاهد الثانوية ذكورا واناثا يعدون بعشرات الالوف او ازيد والمعاهد العليا والكليات منبثة في البلاد تدرس فيها جميع العلوم والفنون. وليس اليوم الذي تزول فيه الامية عن بلاد الكنانة ويغيب شبح الجهل عنها ببعيد. ولعل هذا الموظف السامي لا يعرف شيئا من احوال البلاد المصرية ولا يقرأ جرائدها ولم يطلع على احصائيتها ولم يشعر بانها خطت خطوات فسيحة سريعة في مضمار العرفان.

ولقد اعترف جنابه بتفاهة التعليم الدولي المعطى للتونسيين واستشهد بالارقام. فمن بين (٣٠٠٠٠٠) مسلم في سن التعليم لا يوجد به الا (٤٢٠٠٠) فقط والبقية غارقون في لجة الجهالة. ولكنه مع ذلك عظم عليه ان يرى المدارس القرآنية مفتحة الابواب بها بضعة ءالاف من الاطفال يتعلمون اللغتين الا ان اللغة العربية لها النصيب الاوفر. فهو يرى ان بقاء هؤلاء في لجة الجهالة خير من تعلمهم على طريقة يرى انها خطر على السياسة. واستدل على خطر هذا النوع من التعليم الذي يلاقي معارضة عنيفة في الاوساط البيداغوجية والماصونية لانه حائل دون صبغ الايالة بالصبغة اللائكية بان الدستوريين مهتمون دائما بهذا النوع من التعليم لانه وسيلة طيبة لنشر المبادي الملية.

انا لنعجب والله ان يصدر مثل هذا من موظف عال. وانا لشارحون له سبب تعلق الامة بهذا النوع من التعليم. ان عموم التونسيين يطلبون فتح المدارس القرآنية العصرية لسببين فقط.

احدهما ضيق المدارس الدولية عن ايواء ابنائنا وبقاء الاكثرية الساحقة منهم يجوبون الطرقات يتلقون فيها أسوأ الاخلاق ويتعلمون المنكرات حتى اذا ما شبوا كانوا بلية هذه الامة ومصيبتها العظمى يعمرون السجون ويكونون قذى في عين هذا الشعب المسكين.

ثانيهما ما للغة آبائنا وديننا من الحظ المنقوص في المدارس الابتدائية الدولية ومعاملتها بالدون وما نابها في القسمة الضيزى.

وماكانت المدارس القرآنية العصرية في وقت من الاوقات وسيلة طيبة لنشر المبادي الملية. او ليست المدارس المذكورة خاضعة لادارة المعارف داخلة تحت مراقبتها ممتثلة لاوامرها. ولم يكن

زعماء الدستور اليوم من خريجيها . فما تخرجوا الا من مدارس الدولة بتونس ومدارس فرنسا فهي التي كونتهم وطورتهم ونفخت فيهم من روحها .

ولقد صرح اخيرا (وانا لنشكره على هذه الصراحة) بان الخوف الاعظم من تضاءل اللائكية ورسوخ العقيدة الاسلامية في قلوب التونسيين بسبب هذه المدارس وذلك سبب بعد الشقة بين العالمين اللاتيني والعربي . ولكنا نقول له: ان الشعب التونسي شعب مسلم منذ ثلاثة عشر قرنا ولغته هي العربية وانه رغم اختلاف عناصره التي تكون منها فانه لا يشعر الا بانه عضو من العالم العربي الاسلامي المنتشر في جميع اقطار الارض وهو لا يريد ان يتحول عن ذلك في مستقبل الزمان الى ان يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين . وتمسكه بأهداب دينه ولغته وقوميته لا يكون حائلا بينه وبين التطلع نحو الرقي والسير نحو المدنية الحقيقية والحضارة . وتاريخنا المجيد على ذلك اعظم شاهد . فلا يكن في صدره حرج من ذلك ولا يحزن علينا . وليعلم أن للعلم رحما أقوى وأمتن من رحم القرابة وان انتشار المعارف لا يزيد الامم الا قربا من بعضها . ولا يوسع شقة الخلاف الفاصلة بين الاديان المختلفة الا الجهل . ثم انتقل الموظف العالي الى الحديث عن جامع الزيتونة وأساتذته فاظهر الدفاع عن سمعتهم والحرص على المحافظة على كرامتهم واحترام الشعب لهم . ولذلك فهو لا يرضى لهم ان يلتحقوا بموظفي الحكومة وأن ينالوا ما ينالونه من المنح والغرامات والامتيازات وان ذلك ينقص من تعظيم الامة لهم لانهم اذا صاروا موظفين التحقوا حتما بالادارة اللائكية المنافية لصفتهم الدينية وخشي ان وقع ذلك ان يصير جامع الزيتونة يوما ما المدرسة الوحيدة العربية . وذكر ان حب المادة أعمى بصائر المدرسين وصيرهم يركضون وراءها .

ونحن نقول له : ان المدرسين لم تعم بصائرهم المادة ولا طمست على قلوبهم ولكنهم يا جناب الموظف الكبير قوم كسائر البشر ياكلون الطعام ويمشون في الاسواق وليسوا من نوع الملائكة الذين هم ارواح مجردة لا ياكلون ولا يشربون ولا يلبسون ولم يكونوا يوما من الرهبان المنقطعين عن هذا العالم ومدنيته ولا من غلاة المتصوفة الذين زهدوا في الدنيا وزينتها . وهم في ذلك عاملون بسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم ومتأثرون بتعاليم الكتاب المقدس القرآن . فنبيهم عليه السلام قد اخذ شيئا من عرض هذه الدنيا ولم ينقص ذلك من عالي مرتبته وكان من اكثر دعائه عليه السلام : ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة وقنا عذاب النار . واذا كان الله قد خلق لبني آدم ما في الارض جميعا . وقال : قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق فما لنا لا نأكل الرقاق ونلبس الرقيق وهل يريد الناس منا ان نتنازل لهم عن دنياهم ويتنازلوا لنا عن آخرتنا . لا بل اننا نريد ان نقاسمهم دنياهم ويقاسمونا آخرتنا . واذا كان غلاة الصوفية ينفرون الناس من الدنيا فليس ذلك هو التصوف الحقيقي . ومن اطلع على التاريخ علم ان العلماء قديما وحديثا كانوا يأخذون من الحكومات ارزاقا تكفيهم القيام باود حياتهم . فهذا نظام الملك وزير السلطان ألب

ارسلان المتوفى سنة ٤٨٥ الذي أنشا المدارس الكثيرة في بغداد واصبهان ونيسابور والشام وخراسان والعراقين كان ينفق عليها كل سنة ستمائة الف دينار أغلبها لاساتذتها وهم من كبار العلماء الاتقياء بل من الصوفية ومن أشهرهم ابو القاسم الدبوسي وابو حامد الغزالي والشاشي والسهروردي وابو اسحاق الشيرازي وغيرهم ممن لا نحصي لهم عدا. وكانوا يتناولون المرتبات الطائلة من يد الحكومة وما علمنا ان ذلك نقص من مقدارهم أو حط من قيمتهم ومالنا نذهب بعيدا فهؤلاء الحكام الشرعيون بتونس يأخذون ما يأخذه الموظفون من منح وغرامات حتى الاعانة العائلية ومنحة السكنى وما سمعنا ان الناس ازدروا بهم لذلك

وأما قوله إنهم اذا صاروا موظفين دخلوا تحت النفوذ اللائكي وذلك لا يليق بهم فنجيبه عنه بأن المدرسين اذا صاروا موظفين لا يكونون تحت النفوذ اللائكي بل يكونون موظفين كسائر الموظفين التونسيين المسلمين الخاضعين للحكومة ورئيسها الامير المسلم الذي دين حكومته الرسمي الاسلام ولسانه العربي أحد اللسانين الرسميين. وما علمنا قبل اليوم أن تونس تعيش تحت نظام لائكي لا يعترف بالاديان ولا يخضع للتعاليم الروحية

ثم إن أسماعنا قد ملت والله من القول بأن التعليم بجامع الزيتونة تعليم ديني بحت ليس للحكومة أن تقوم به ولا أن تعترف به رسميا ولا تعترف بحق القائمين به فهذا خيال شعري لا يؤيده الواقع ولا تقره فلسفة ديكارت. فلقد قلنا وأعدنا القول المرة بعد المرة ان العلوم التي تدرس بالزيتونة نيف وثلاثون علما منها ما هو ديني بحت ومنها علوم دنيوية لغوية وادبية ورياضية وغير ذلك. فعسى ان لا نسمع بعد هذا ما مجته طباعنا ونبت عنه أسماعنا من كلام فارغ يراد به تخدير أعصابنا وإيأسنا من تحقيق مطالبنا

إن مطالبنا يا جناب الموظف الكبير لهي مطالب مشروعة لا بد أن يأتي عليها يوم تحل فيه محل التنفيذ وقد أعترف بصحتها أهل العقد والحل فاننا لا نطلب مستحيلا ولا نقول الا حقا

ما ذا نطلب ؟

إننا نطلب أن تكون مرتباتنا كمرتبات زملائنا في معاهد التعليم المماثلة لمعهدنا العظيم فإن من العار ان يكون مرتب النساخ في الادارات اكثر من مرتب مدرس من الطبقة الاولى بالزيتونة. ونطلب منحنا غرامة غلاء المعاش التي ياخذها حتى شواش الادارات والوقتيون نظرا لارتفاع اسعار المعاش على جميع الناس فكيف يعقل ان نبقى محرومين منها مع ان المعاش قد ارتفع ارتفاعا فاحشا ونحن نعيش كما يعيش الناس. ونطلب منحنا غرامة السكنى التي يأخذها جميع الموظفين ايضا حتى الوقتيون ونحن نسكن كما يسكنون واسعار الكراء مرتفعة جدا لا تتحملها مرتباتنا

ونطلب الاعانة العائلية التي نالها جميع الموظفين وهي اعانة على التكاليف العائلية لمن له اولاد أو ليس لنا اولاد كبقية الموظفين يطالبوننا بالمأكل والملبس

فهل هذه مطالب مشطة ؟ كلا والله. ما طلبنا إلا ما أخذه غيرنا من أمثالنا ومن هم دوننا رتبة فما هذا الاجحاف بحقوق أهل جامع الزيتونة وما هذه المعاملة الشاذة ؟

ثم تأسف الموظف العالي من عدم القضاء على التعليم القرآني الذي أخذ يتسامى نحو مسايرة الحياة العصرية ويبذل جهد المستطاع في سبيل مزاحمة التعليم الافرنجي. وتساءل بعد ذلك هل يدرك هذا التعليم القرآني غايته من المزاحمة والحياة ؟ وأجاب بانه لا يظن ذلك رغم المجهود العظيم الذي تبذله الامم الشرقية للابقاء على مدنيتها بارجاعها لعنفوان شبابها وادخال عناصر جديدة عليها بانشاء مصطلحات علمية والفاظ حديثة. وعلل ذلك ببقاء الاجتهاد موصد الابواب وأنه يصعب حله بقوة الناشئة الاسلامية

ونحن نقول له : إننا نجيبك عن هذا السؤال ونحقق لك أن التعليم القرآني الديني وإن تضاءل في اول الامر بسبب الصدمة قد أخذ في استجماع قوته ونشاطه واستعاد ما كان له من فتوة وأخذ يتطور مع الزمان ويزاحم غيره دفاعا عن حياته عملا بقاعدة تنازع البقاء. وهذه المدارس القرآنية العصرية لا تزال كل عام في ازدياد والمسلمون مقبلون عليها إقبالا عظيما مع أنها ليست مجانية وتلامذة جامع الزيتونة قد تضاعفوا في بحر عشرين سنة خمس مرات حتى فتحت له فروع جديدة رغم المعاكسات التي يلاقيها خريجوه. وقد تطورت أساليب التعليم به وستزيد تطورا وتقدما

فهل هذه يا جناب الموظف السامي علامات موت ؟ كلا والله بل هي حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة

وليس لفلسفة ديكارت ولا غيره قدرة على زعزعة تعاليم القرآن والسنة النبوية وإن القرآن لا يزيد مع العلم الا رسوخا وثباتا في قلوب اهله. سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم. والاسلام خالد خلود الجبال

وأما نصيحته لفرنسا بأن من مصلحتها القضاء على التعاليم القرآنية لتقريب الشقة بين الفرنسويين والبرابرة زاعما ان بقاءها من شأنه أن يبقي الافكار في جو من التعصب الديني وجنوح لاخذ ثار الحروب الصليبية.

ولكننا نقول له إنه قد غش دولته في هذه النصيحة ونحمد الله تعالى ان كبار الفرنسويين من اهل الحل والعقد بهذه البلاد لا يرون رأيه. وليعلم ان التعليم القرآني لا يوسع الشقة بين الشعبين. فالقرآن لا يأمر ببغض المخالفين وعدم معاملتهم بالحسنى وعدم القسط اليهم بل يأمر ببر غير المسلمين ومجادلتهم بالتي هي أحسن واحترام دمائهم واموالهم واعراضهم. ونقول له مع ذلك إنه هو وأمثاله ممن ينشرون على الصحف السيارة امثال هذه المقالات هم الذين يوسعون الشقة بين الفريقين ويؤثرون بأقوالهم هذه أثرا سيئا جدا في نفوس المسلمين. ولولا أنهم يعلمون ان هذا الموظف إنما يعبر عن رأيه لا عن رأي الحكومة لهالهم الامر. ولكن لهم ثقة تامة باصحاب المناصب العالية الذين لا تخفى على مداركم سخافة هذه الاراء. وإذا كنا نعتقد صحة قول الله تعالى : إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون. ونعلم أن جناب سمو أميرنا المعظم ابقاه الله لا يرضى بشيء من ذلك لقوة ايمانه وصلابته في الحق فلا نخاف من هذه الدسائس المصورة بصورة نصائح

يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا ان يتم نوره.   (مدرس)

جـدول الاصلاح والخطـأ

صحيفة	سطر	خطا	صواب
١٦١	١٢	مسطيه	ممطبه
١٩٣	١٠	تجعله	يجعله
١٦٤	١١	رسول صلى الله	رسول الله صلى الله
١٦٩	٢٢	مرءات	مرءآة
١٧١	٨	تكليف	تكليفا
١٧١	١٣	فلا تموتن	ولا تموتن
١٨٠	٩	سيدنا	لسيدنا
١٨٠	٢٠	قضية	قضيته
١٨٢	٧	ابن داود	ابن دواد
١٨٣	١	قاض	قاضيا
١٨٣	١٠	الورغي	الورغمي
١٩٣	٨	القطيعة	القطعية
١٩٥	٣	الابياب	الابيا
١٩٥	٨	الفرادس	الفراديس
١٩٥	١٠	وانس بـ ها	وانس بها ❋
١٩٥	١٦	العود فقف	المعود فقف ❋
١٩٧	١٠	والسلام	والاسلام
٢٠٠	٢٢	لائكته	لائكيته
٢٠٣	٢٥	نواحيا	نواحي
٢٠٧	١٨	وإيأسنا	واياسنا

اصلاح خطأ بالعـدد الثالث

١٠٩	٨	وصالح وثمود	وصالح اخو ثمود

تـنـبـيـه

اتصلنا من الحجة الامام الشيخ عبد الحي الكتاني مقال في نشاة الجمعيات الخيرية والملاجيء في الاسلام ضاق نطاق هذا العدد عن نشره ونشر غيره من التحارير والاجوبة عن الاسئلة التي وجهت الى المجلة فنعتذر لاصحابها الافاضل وموعدنا عددنا المقبل ان شاء الله

المجلة الزيتونية

مجلة علمية أدبية اخلاقية

تصدرها الهيئة من مدرسي جامع الزيتونة المعمور

شهرية وسنتها عشرة اشهر

الجزء الخامس	تونس - في ربيع الاول ١٣٥٨ - ماي ١٩٣٩	المجلد الثالث

رئيس قلم التحرير .

محمد المختار بن محمود

المفتي الحنفي

بالديار التونسية

صاحب المجلة والمدير :

محمد الشاذلي ابن القاضي

المدرس من الطبقة الاولى بجامع الزيتونة

والخطيب الثاني بجامع حموده باشا

المراسلات :

ترد باسم مدير المجلة بمحل الادارة

الادارة :

نهج الباشا رقم ٣٣ بتونس - تليفون ٤٩-٢٦

حساب جاري بادارة البريد رقم ٣٤٢٢

ثمن العدد ٣ فرنكات

المطبعة التونسية نهج سوق البلاط عدد ٥٧

١٥ ـ ٣

فهرس العدد

المجلد الثالث — الجزء الخامس

الاشتراك

الادارة نهج الباشا رقم ٣٣ — تونس

عن سنة بالحاضرة وبلدان المملكة والجزائر والمغرب الاقصى وسوريا فرنكات ٣٠

« في الخارج غير البلاد المذكورة فرنكات ٤٠

يخصم الربع للتلامذة

وصولات الاشتراك لا تعتبر الا اذا كانت ممضاة من امين المال

محمد الهادي بن القاضي

والمخابرات المالية لا تكون الا معه

المجلة الزيتونية

مجلة علمية أدبية اخلاقية

تصدرها الهيئة من مدرسي جامع الزيتونة المعمور

شهرية وسنتها عشرة اشهر

الجزء الخامس	تونس – في ربيع الاول ١٣٥٨ – ماي ١٩٣٩	المجلد الثالث

رئيس قلم التحرير :

محمد المختار بن محمود

المفتي الحنفي

بالديار التونسية

صاحب المجلة والمدير :

محمد الشاذلي ابن القاضي

المدرس من الطبقة الاولى بجامع الزيتونة

والخطيب الثاني بجامع حمودة باشا

المراسلات :

ترد باسم مدير المجلة بمحل الادارة

الادارة :

نهج الباشا رقم ٣٣ بتونس . تليفون ٤٩-٢٦

حساب جاري بادارة البريد رقم ٣٤٢٢

المطبعة التونسية نهج سوق البلاط عدد ٥٧



لقد جاءكم رسول

من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم

في مثل هذه الشهر المبارك منذ اربعة عشر قرنا ونيف سطع نور قدسي في افق الرحمة الربانية بين يدي هلال وضاء لا عهد للانسانية بنوره المبين . بيد أنه نور معنوي لا تدركه الابصار وطلع هلاله في سماء أشرف بقعة من بقاع الارض حيث الكعبة بيت الله الحرام . ونادى داعي البشارة في عالم الملكوت مخاطبا اهل السماوات والارض لقد جاءكم من الله نور الهداية ونبراس المعرفة والحجة الدامغة والمرشد المعين . هاهي ذا الاقدار تضع منار الحق في مفترق الطرق لهداية السالكين . هاهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف أرملة عبد الله بن عبد المطلب زعيم قريش وسيدهم . قد ولدت سيد العالمين . ذلك الذي ستدين لعظمته العروش . وتعنوا له الصوالج والتيجان . ويفك عن البشر اصرهم والاغلال التي كانت في أعناقهم . ويقيم للانسانية معقل النجاة

وارتفع صوت في الارجاء مناديا :

أي بني الانسان ما لقافلة البشر مخطئة الطريق عادمة الدليل سيطرت عليها الوثنية فأعدمتها الرشاد . ؟

ما لهذا الجهل السائد يقيد العقول بعقال من فولاذ . ويجعل الدهماء مستعبدين وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟

ما لهذه الدولة البيزانطية يطغى جبابرتها ويستعلون اثما وعدوانا . ويقيدون العقول ويتحكمون في القلوب ويغفرون من دون الله ؟

ما لهؤلاء الاكاسرة يحكمون الشهوة . ويعيثون في الارض فسادا . لا يمنعهم قانون . ولا يكبح جماح نفوسهم المتمردة وازع ؟

ما لاولئك الهنود وهذا الوباء الاخلاقي الذي عصف بالفضيلة فنسفها نسفا . وهذه الاباحية الساحقة الخسيسة ؟

ما لاولئك الصينين يحكمون المادة فتقذف بهم في هاوية الضلال والعار ؟

الخطاب الذي القاه صاحب المجلة في الاحتفال الذي اقامته جمعية الشبان المسلمين بذكرى المولد الشريف

ما لاولئك الا فارقة وهذه البربرية التي طغت عليهم فأفقدتهم العز والسلطان والجاه ؟

مالهؤلاء الاحباش وقد تشجعت نفوسهم واستأسدت فلم تقنع بالحيوان حتى مدوا أيديهم الضارية لبني الانسان

ما لابناء الفراعنة يعتلون في الارض ويطغون طغيانا عظيما ؟

ما لهذه الجزيرة العربية المباركة تفقد دينها القويم، الذي وصاها به ابراهيم، ومن خلف إبراهيم من النبيئين ؟

ما لاولئك الاوزاع والهمج من مختلف الشعوب تطغى عليهم الحيوانية، فلا يفهمون الحق، ولا تسموا لهم نفوس ؟ رباه . رحمتك وسعت كل شيء فارحم اهل الارض وابعث في الناس رسولا يهديهم صرطك المستقيم، فقد ضلوا ضلالا عظيما يعلمهم الحكمة، ويروض نفوسهم على العدل والحق الذي ترضاه للخلق أجمعين لا جرم اذا اجاب الرحمن الرحيم صوت الانسانية المسترحم

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمين رؤوف رحيم)

ذلك بعض ماكان عليه المجتمع الانساني ايها السادة

يئن من وجع امراضه الفتاكة، وتتصاعد من نفسه زفرات تتصاعد الى السماء بذالك الصدا المفزع، ويتوسد جثمانه المخاطر ويضطجع على اديم اشتعلت في ارجائه نيران الفتن المضنية ويرتدي بلحاف الخزي والعار فلا ايمان ولا عدل ولا حق ، ولا طهر ولا عفاف ، ولا أمن ولا سلام فكانت البشرية في أشد الحاجة الى رسول امين ، ومصلح عظيم ومجدد أقوم يأتي على فترة من الرسل لانقاذ العالم .

رسول من انفسكم تعرفونه وتتحققون مكانته فيكم فلقد جرت سنة الله في المرسلين ان يكونوا في شرف من قومهم . وكذلك كان سيدنا محمد بن عبد الله في شرف من قومه بل من الناس كافة . يتصل نسبه الشريف باعرق قبيلة في قبائل العرب وأزكى الناس سؤددا ومجدا . كما نطق بذلك حديث الترمذي قال سول الله صلى الله عليه وسلم . ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل . واصطفى من ولد اسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم، فهو صلى الله عليه وسلم خيار من خيار من خيار من خيار من خيار . هيأ تعالى له شرف النسب حتى برز خلاصة كاملة، من أصول أمجاد، وعشيرة رجالها صناديد ءاساد وطهره من سفاح الجاهلية، وعوائدها المنكرة . فانحدر من اصلاب اطهار، وبرز نوره من (آمنة) في احسن تكوين بعد اقتران صحيح، وكذلك سلسلة النسب الشريف . فهذا ابن الكلبي النسابة الخبير . يكتب للنبيء صلى عليه وسلم خمسمائة ام فلا نجد فيها سفاحا ولا شيئا مما كانت عليه الجاهلية غير النكاح .

وينشأ صلى الله عليه وسلم نشأة سؤدد وشرف يحتضنه العفاف، ويرتضع من لبان المروءة والصلاح ويؤدبه ربه تأديب ملك كريم، فيظهر عليه كل خلق عظيم، ويخلقه بأخلاق المرسلين، حتى يكون قدوة للناس أجمعين، ويتقبلوا منه رسالة ربه ويصدقوه تصديق الاكرمين .

ويؤهله لرعاية البشر كافة بما ميزه من العاطفة السامية فيعز عليه أن يرى الناس في شقاء اويقعوا في عنت . أو تصيبهم مشقة . أو ضيق . وتتطلع الانفس لسير هذه العظمة المكنون . فلا تهتدي لذلك . وانى لهم ان يعلموا انه الرسول الذي سيصدع بالحق . ويكشف عن ظلمة الاباطيل المخيمة على الانسانية . فلما كمل من عمره اربعون سنة بعثه الله بشيرا ونذيرا وانزل عليه القرآن الكريم . فخاطب به الناس كافة وأحاطهم بسياج الشريعة السمحة . التي تكلفت للبشر بالسعادة . وكشفت لهم عن الحق الذي لا مراء فيه . وجاءهم بالدين القويم . والتعاليم السامية . التي كتب الله لها الخلود على مر الايام والعصور

فقام بأعباء الرسالة أحسن قيام . وسمت تعاليم رسالته في أفق الحياة الاجتماعية . وسطع نور العقيدة نبراسا وضاء اهتدي به الى الصراط الحميد

فهو الرسول الذي علم العقيدة المثلى

وهو الذي علم البشر الحق كما هو حق وعلمهم قاعدة المساواة في الحقوق .

وهو الذي أعطى الرجل حقه والمرأة حقها

وهو الذي قعد أصول التشريع العامة

وهو الذي كون الدولة التي تحفظ للشعوب مصالحهم في الحياة وبعد الحياة وأسس قواعدها المحكمة الترصيع . وهو الذي حول أنظار العالم الى أنواع من الحياة لم يكن لهم بها عهد من قبل

وهو الذي كون من نفوس المسلمين مادة هي اكسير الحياة لمن يتطلب حياة السعادة وهو التضحية

هو الذي أقام من نفوس المسلمين التي كانت متمردة أقام منها هيكلا عظيما يتحرك بارادة رجل واحد . وجعل قلوبهم على قلب رجل واحد

وهو الذي صان الفرد من عادية الفرد . وصان العائلة من ظلم رئيسها . والامة من طغيان راعيها

وهو الذي جعل نظام الامة أساسه الشورى

وهو الذي سن النظم المالية حتى لا يكون المال دولة في أيدي الاغنياء

وهو الذي رمز للعلم والمعرفة والقيام بالواجب . وعلم المسلمين التضحية في سبيل الحق الاعلى

أيها المستمعون هذه طرف من تعاليم الرسول الكريم والسراج المنير . من كان بالمؤمنين رؤوفا رحيما . تضيء في نفوسكم أنوار رسالته وتبعث في اعضائكم النشاط للقيام بأعبائها

فهل أنتم مدركون ذلك القبس من النور ؟

نعم تلك هي الشعلة الوضاءة التي بقيت في نفوس المسلمين وهي المرهم الذي تحتاج اليه نفوسهم عساها ان تجد الطبيب المداوي

ربي ان نور الهداية يكاد يحتجب عن الابصار وها هو العالم يتمخض عن حوادث عظام . فاهد أمة رسولك الذي تحتفل بمولده في هذه الليلة العظمى هداية سرمدية حتى يسيروا على غرار من سبقهم من الصالحين انك نعم المجيب

محمد الشاذلي ابن القاضي

القرآن الكريم

خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ

من تفسير العلامة الهمام فضيلة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور شيخ الاسلام المالكي

(ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة) هذه الجملة جارية مجرى التعليل للحكم السابق في قوله تعلى سواء عليهم آنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون وبيان لسببه في الواقع ليدفع بذلك تعجب المتعجبين من استواء الانذار وعدمه عندهم ومن عدم نفوذ الايمان الى نفوسهم مع وضوح دلائله فاذا علموا ان على قلوبهم ختما وعلى اسماعهم وان على ابصارهم غشاوة علموا سبب ذلك كله وبطل العجب . ولكون هذه الجملة واقعة موقع التعليل قطعت ولم تعطف ، والختم السد على الاناء والغلق على الكتاب بطين ونحوه مع وضع علامة مرسومة في خاتم ليمنع ذلك من فتح المختوم وقد كانت العرب تختم على قوارير الخمر ليصلحها انحباس الهواء عنها وتسلم من الاقذار في مدة تعتيقها . واما تسمية البلوغ لآخر الشيء ختما فلان ذلك الموضع او ذلك الوقت هو ظرف وضع الختم فسمي به مجازا وليس الختم على القلوب والاسماع ولا الغشاوة على الابصار هنا حقيقة كما توهمه بعض ظاهرية المفسرين فيما نقله ابن عطية بل ذلك جار على طريقة المجاز بان جعل قلوبهم في عدم نفوذ الايمان والحق والارشاد اليها وجعل اسماعهم في استكاكها عن سماع الآيات والنذر وجعل اعينهم في عدم الانتفاع بما ترى من المعجزات والدلائل الكونية كأنها مختوم عليها ومغشى دونها على طريقة الاستعارة بتشبيه عدم وصول النفع الى العقول والاسماع بالختم وتشبيه عدم وصول التأمل الى الابصار بالغشاوة وكلتاهما استعارة تحقيقية الا أن المشبه محقق عقلا لا حسا وليس ذلك باستعارة تمثيلية اذ ليست للقلوب والاسماع والابصار في هذه الحالة هيئة مشاهدة حتى تشبه بهيئة اخرى وقد قررها الكشاف ومتابعوه بما فيه بعد وتكلف ينبو عنه الذوق فلا اطيل بتقريره وتزييفه

وانما افرد السمع لانه اريد منه المصدر الدال على الجنس اذ لا يطلق على الآذان سمع الا ترى انه جمع لما ذكر الآذان في قوله يجعلون اصابعهم في ءاذانهم وقوله وفي ءاذاننا وقر فلما عبر بالسمع افرد لانه مصدر بخلاف القلوب والابصار فان القلوب متعددة والابصار جمع بصر الذي هو اسم لا مصدر ويمكن تقدير محذوف اي وعلى حواس سمعهم أو جوارح سمعهم. وقد لاح لي انه قد تكون في إفراد السمع لطيفة روعيت من جملة بلاغة القرءان وهي ان القلوب كانت متفاوتة واشتغالها بالفكر في حال الايمان والدين مختلفا باختلاف وضوح الادلة والكثرة والقلة وتلقي انواع كثيرة من الايات فلكل عقل حظه من الادراك . وكانت الابصار ايضا متفاوتة التعلق بالمرءيات التي فيها دلائل الوحدانية في الافاق وفي انفسهم والتي فيها دلالة المعجزات والعبر والمواعظ فلكل بصر حظه من الالتفات الى الآيات فلما اختلفت انواع ما تتعلقان به جمعتا واما الاسماع فانما كانت تتعلق بسماع ما يلقى اليها من الدعوة فلما أتحد تعلقها بالمسموعات جعلت سمعا واحدا ، وجملة وعلى سمعهم معطوفة على قوله على قلوبهم باعادة العامل لزيادة التاكيد حتى يكون المعطوف مقصودا لان على مؤذنة بالمتعلق فكأن ختم كرر مرتين على ما جزم به في الكشاف وفيه ملاحظة كون الاسماع مقصودة بالختم اذ ليس العطف كالتصريح بالعامل. وليس قوله وعلى سمعهم خبرا مقدما لغشاوة لان الاسماع لا تناسبها الغشاوة وانما يناسبها السد الا ترى الى قوله تعلى وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة وفي ءاذانهم وقر ويجعلون اصابعهم في ءاذانهم . وتقول العرب استك سمعه ولان تقديم قوله وعلى ابصارهم على قوله غشاوة دليل على انه هو الخبر لان التقديم لتصحيح الابتداء بالنكرة فلو كان قوله وعلى سمعهم هو الخبر لاستغني بتقديم احدهما وابقي الاخر على الاصل من التاخير فقيل وعلى سمعهم غشاوة وعلى ابصارهم وفي تقديم السمع على البصر في مواقعه من القرءان دليل على انه افضل فائدة لصاحبه من البصر كما بينه الفخر رحمه الله

(ولهم عذاب عظيم) العذاب الالم وقد قيل ان اصله الاعذاب مصدر اعذب اذا أزال العذوبة لان العذاب يزيل حلاوة العيش فصيغ منه اسم مصدر بحذف الهمزة وهو اسم موضوع للالم بدون ملاحظة اشتقاق من العذوبة اذ ليس يلزم مصير الكلمة الى نظيرتها في الحروف ووصفه العذاب بالعظيم دليل على ان تنكيره ليس للتعظيم بل لمجرد النوعية والقصد من الوصف الدلالة على تعظيمه صراحة لان التنكير وان كان صالحا للدلالة على التعظيم لكنه ليس نصا في تلك الدلالة

(ومن الناس من يقول ءامنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) الواو لعطف طائفة من الجمل على طائفة مسوق كل منهما لغرض للمناسبة باين الغرضين فلا يتطلب في مثله الا المناسبة بين الغرضين لا لمناسبة بين كل جملة واخرى من كلا الغرضين قاله التفتزاني في شرح الكشاف ونقله السيد ونوه به فقال انه اصل عظيم في باب العطف لم يتنبه له كثيرون فاشكل عليهم الامر في مواضع

شتى واصله ماخوذ من قول الكشاف « وقصة المنافقين عن ءاخرها معطوفة على قصة الذين كفروا كما تعطف الجملة على الجملة » فافاد بالتشبيه ان ذلك ليس من عطف الجملة قال المحقق عبد الحكيم وهذا مما اهمله السكاكي وتفرد به صاحب الكشاف. وانا اقول ان الآيات السابقة لما انتقل فيها من الثناء على القرءان بذكر المهتدين به بنوعيهم الذين يؤمنون بما انزل اليك الى ءاخر ما تقدم وانتقل من الثناء عليهم الى ذكر اضدادهم وهم الكافرون الذين اريد بهم الذين اشركوا بالصراحة كان السامع قد ظن ان الذين اظهروا الايمان قد دخلوا في قوله الذين يؤمنون بالغيب فلم يكن سائلا عن قسم ءاخر فهم الذين اظهروا الايمان وابطنوا الشرك او غيره المعبر عنهم بالمنافقين الذين هم المراد من الناس هنا بدليل قوله في عطف احوالهم واذا لقوا الذين ءامنوا قالوا ءامنا الآية لان هذا القسم لغرابة امره لا يخطر بالبال وجوده فناسب ان يذكر امره للسامعين ولذلك جاء بهذا الجملة معطوفة بالواو اذ ليست الجملة المتقدمة بمقتضية لها بخلاف جملة ان الذين كفروا سواء عليهم اذ ترك عطفها على ما قبلها لان ذكر مضمونها بعد مضمون التي قبلها كان مترقبا فكان السامع كالسائل عنه فجاء الفصل للاستيناف البياني . وقوله من الناس خبر مقدم لا محالة وقد يتراءى ان الاخبار بمثله قليل الجدوى لانه اذا كان المبتدا دالا على ذات او معنى لا يكون الا من احوال الناس يكون الاخبار عن المبتدا بانه من الناس او في الناس غير مجد بخلاف قولك الخضر من الناس اي لا من الملائكة فان الفائدة ظاهرة لانه قد يظن انه من الملائكة فبنا ان نوجه الاخبار بقولهم من الناس في نحو الآية ونحو قول أحد اصحابنا الاعزة يذكر خطة القضاء

في النـاس من القى قلادتها الى خلف فحرم مـا ابتغى واباحـا

ان القصد الى اخفاء المخبر عنه كما تقول قال هذا رجل وذلك عند ما يكون الحديث يكسب ذما او نقصا ولذلك التزم تقديمه في مثل هذا التركيب لان في تقديمه تنبيها للسامع على عجيب ما سيذكر ولو اخر لكان موقعه زائدا لحصول العلم بان ما ذكره المتكلم لا يقع الا من انسان . وقد قيل ان موقع من الناس مؤذن بالتعجيب وان اصل الخبر افاد ان فاعل هذا الفعل من الناس لئلا يظنه المخاطب من غير الناس لشناعة الفعل وهذا بعيد عن المقصود لانه لو كان كما قال لم يكن لتقديم الخبر فائدة بل كان تأخيره اولى ليتقرر الامر الذي يوهم ان مدلول المبتدا ليس من الناس فهذا توجيه هذا الاستعمال. وذلك حيث لايكون لظاهر الاخبار بكون المتحدث عنه من افراد الناس كبير فائدة فان كان المقصود افادة ذلك حيث يجهله المخاطب كقولك من رجال بعض القبائل من يبرقع وجهه او حيث ينزل المخاطب منزلة الجاهل كقول عبد الله بن الزبير (بفتح الزاي)

وفي الناس ان رثت حبالك واصل وفي الارض عن دار القلى متحول

اذا كان حال المخاطب حال من يظن ان المتكلم لا يجد من يصله ان قطعه هو وكقول دريد بن الصمة

وما انا الا من غزية ان غوت غويت وان ترشد غزية ارشد

اذ كان حال المخاطب حال من يظنه من قوم غير قومه

فلذلك طلب منه مخالفة حالهم فذكر من الناس ونحوه في مثل هذا وارد على اصل الاخبار هذا ما لاح لي في نكتة هذا الاستعمال وارجو ان يكون من مواهب الكبير المتعال وللكاتبين على الكشاف وتفسير البيضاوي وجوه في بيان فائدة مثل هذا التركيب تنكبوا فيها عن الجادة ولم يميطوا القناع عن وجه الفائدة وقد اشار اليها العلامة عبد الحكيم في حاشية التفسير وتقديم الخبر هنا للتشويق الى المبتدا لمعرفة الفريق المتحدث عنه واذا تقرر ان قوله تعلى من الناس موذن بان المتحدث عنهم لهم قصة حقيق صاحبها بالاخفاء اذ لا يستر ذكرهم الا لان حالهم من الشناعة بحيث يستحي المتكلم ان يصرح بموصوفها وفي ذلك من تحقير شان النفاق ومذمته امر كبير وارد على طريقة العرب فوردت في شانهم هنا ثلاث عشرة ءاية متتابعة نعي عليهم فيها خبثهم ومكرهم وسوء عواقبهم وسفه احلامهم وجهالتهم واردف ذلك كله بتحقير وتهكم وتمثيل حالهم في اشنع الصور وهم احرياء بذلك فان الخصلة التي تدربوا فيها تجمع مذام كثيرة اذ النفاق يجمع الكذب والجبن والمكيدة وافن الراي والبله وفساد التربية والطمع واضاعة العمر وزوال الثقة وعداوة الاصحاب واضمحلال الفضيلة . اما الكذب فظاهر واما الجبن فلانه لولاه لما دعاه داع الى مخالفة ظاهر فعله لما يبطنه . واما المكيدة فلانه يحمل على اتقاء الاطلاع عليه بكل ما يمكن . واما افن الراي فلان ذلك دليل على الشعور بضعف العقل حتى سلك سبيل اخفاء رايه . واما البله فللجهل بان ذلك لا يطول تمشيه . واما فساد التربية فلان طبع النفاق اخفاء الصفات المذمومة والصفات المذمومة اذا لم تظهر لا يمكن للمربي ولا للصديق ولا لعموم الناس تغييرها على صاحبها فتبقى كما هي وتزيد تمكنا بطول الزمان حتى تصير ملكة يتعذر زوالها . واما الطمع فلان غالب احوال النفاق يكون للرغبة في حصول النفع . واما اضاعة العمر فلان العقل ينصرف الى تدبير احوال النفاق وما يلزم اجراؤه مع الناس وما الحيلة لاخفاء ذلك وفي ذلك صرف الذهن عن الشغل بما يجدي . واما زوال الثقة فلان الناس ان اطلعوا عليه ساء ظنهم فلا يثقون بشيء يقع منه ولو حقا . واما عداوة الاصحاب فكذلك لانهم اذا علموا ان ذلك خلق صاحبه خشوا غدره فحذروه فادى ذلك الى عداوته . واما اضمحلال الفضيلة فنتيجة ذلك كله . وقد اشار قوله تعلى وما هم بمؤمنين الى الكذب وقوله يخادعون الى المكيدة والجبن وقوله وما يخادعون الا انفسهم الى افن الراي وقوله وما يشعرون الى البله وقوله في قلوبهم مرض الى نقص التربية وقوله فزادهم الله مرضا الى دوام ذلك وتزايده مع الزمان . وقوله قالوا انما نحن مصلحون الى اضاعة العمر في غير المقصود وقوله قالوا انا معكم مؤكدا بان الى قلة ثقة اصحابهم فيهم . وقوله فما ربحت تجارتهم الى ان امرهم لم يحظ بالقبول عند اصحابهم وقوله صم بكم عمي فهم لا يعقلون الى

اضمحلال الفضيلة منهم وسيجيء تفصيل لهذا وجمع عند قوله تعلى في قلوبهم مرض، والناس اصله اناس على اصح الاقوال بدليل ظهور ذلك في قول عبيد بن الابرص الاسدي يخاطب امرأ القيس

ان المنايا يطلعـ ـن على الاناس الآمنينا

وبدليل قولهم في مرادفه انس واناسي وكل ذلك مشتق من الانس بضم الهمزة فحذفت همزته تخفيفا وحذف الهمزة للتخفيف شائع كما قالوا لوقة في الوقة وهي الزبدة . وقد التزم حذف همزة اناس عند دخول ال عليه غالبا. وهو اسم جمع لانسان وقيل انه جمع وهو من الجموع التي جاءت على وزن فعال بضم الفاء مثل ظوار جمع ظير ورخال جمع رخل وهي الانثى الصغيرة من الضان ووزن فعال قليل في المجموع في كلام العرب وقد اولع ائمة اللغة بجمع ما ورد منه فذكرها ابن خالويه في كتاب ليس وابن السكيت وابن بري وقد عد المتقدمون منها ثمانية جمعتها ثلاثة ابيات تنسب للزمخشري والصحيح انها لصدر الافاضل ثم الحق كثير اللغويين بتلك الثمان كلمات اخر حتى انهيت الى اربعة وعشرين جمعا ذكرها الشهاب الخفاجي في شرح الدرة فعليكم بمراجعته وقد قيل ان ما جاء بهذا الوزن اسماء جموع وكلام الكشاف يؤذن به

والتعريف في الناس للجنس على الاصح لان ما عليه فيما تقدم من استعماله في كلامهم يؤيد ارادة الجنس ، ويجوز ان يكون التعريف للعهد والمعهود هم الناس المتقدم ذكرهم في قوله ان الذين كفروا او الناس الذين يعهدهم النبيء صلى الله عليه وسلم والمسلمون في هذا الشان وهم الكفرة وعلى كل تقدير فالمذكور بقوله ومن الناس من يقول الخ قسم ثالث مقابل للقسمين المتقدمين للتمايز بين الجميع بأشهر الصفات وان كان بين البعض والجميع صفات متفقة في الجملة فلا يشتبه وجه جعل المنافقين قسيما للكافرين مع انهم منهم لان المراد التقسيم بالصفات المخصصة

وانما اقتصر القرآن على قولهم ءامنا بالله وباليوم الاخر مع انهم أظهروا الايمان بالنبيء صلى الله عليه وسلم ايضا قصدا للايجاز في الاخبار لان الاول هو مبدا الاعتقادات كلها لان من لم يؤمن بالصانع لا يصل الى الايمان بما بعد ذلك اذ هو الاصل كما هو مقرر في كتب علم الكلام وبه صلاح الاعتقاد الذي هو اصل العمل، والثاني هو الباعث والوازع في الاعمال كلها وبه صلاح الحال العملي وعندي ان وجه الاقتصار على ذلك انه حكاية لكلامهم فهم الذين اقتصروا فيما اظهروه من الايمان على قولهم ءامنا بالله وباليوم الآخر لغلوهم في الكفر فلا يستطيعون ان يذكروا الايمان بالنبيء صلى الله عليه وسلم كراهية لهذا الاعتراف فيقتصرون على ذكر الله واليوم الآخر وهم يوهمون بذلك ان كلامهم اكتفاء في ظاهره وما هو الا محافظة على كفرهم باطنا لان اكثر المنافقين وقادتهم كانوا من اليهود فنبه القرءان على ما قصدوا تمويهه

وفي التعبير بلفظ يقول في مثل هذا المقام ايماء الى ان ذلك قول غير مطابق للواقع لان الخبر المحكي عن الغير اذا لم يكن المقصود ذكره نصه بحروفه وحكي بلفظ يقول اومأ ذلك الى انه غير مطابق

الحديث الشريف

بـــاب

قول النبي صلى الله عليه وسلم جعلت لي الارض مسجدا وطهورا (*)

أخرج البخاري من طريق جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صـلى الله عليه وسلـم : أعطيت خمسا لم يعطهن نبيء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الارض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي ادركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ، وكان النبيء يبعث الى قـومه خاصة وبعثت الى الناس كافة ، واعطيت الشفاعة .

هذا الحديث الشريف مما اشتهر بين ايمة الحديث ورواته اشتهارا بلغ مبلـغ التواتر بل قـال السيوطي انه متواتر وقد تضمن خمس خصائص مما اختص به صلى الله عليه وسلم دون سائر الانبياء عليهم الصلاة والسلام

الخصوصية الاولى النصر بالرعب اي الخوف يقذفه الله في قلوب اعدائه من غير اسباب تقتضي ذلك عادة قال تعالى سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب ، وقال وقذف في قلوبهم الرعب ، والتـقييد

لاعتقاده وأن المتكلم يكذبه في ذلك ففيه تمهيد لقوله وماهم بمؤمنين . وقوله وماهم بمؤمنين جيء فيه بالجملة الاسمية المنفية ولم يجيء على وزان قولهم ءامنا بان يقال وما ءامنوا لانهم لما اثبتوا الايمان لانفسهم كان الاتيان بالماضي اشمل حالا لاقتضائه تحقق الايمان فيما مضى بالصراحة ودوامه بالالتزام لان الاصل ان لا يتغير الاعتقاد بلا موجب كيف والدين هو هو ولما اريد نفي الايمان عنهم كان نفيه في الماضي لا يستلزم عدم تحققه في الحال بله الاستقبال فكان قوله وما هم بمؤمنين دالا على انـتفائه عنهم في الحال وهو يستلزم انتفاءه في الماضي بالاولى ، ولان الجملة الفعلية تدل على الاهتمام بشان الفعل دون الفاعل فهم لما رأوا المسلمين يتطلبون ايمانهم قالوا ءامنا والجملة الاسمية تدل على الاهتـمام بشان الفـاعل اي ان القائلين ءامنا لم يقع منهم ايمان فالاهتمام بالمسند اليه في جملة النفي تسجيل على كذبهم وهـذا من مواطن الفروق بين الجملتين الفعلية والاسمية وهو مصدق لقاعدة افـادة التقديم الاهتمام مطلقا وان اهملوا التنبيه على جريان هذه القاعدة في الفرق بين الجملة الفعلية والاسمية في كتب المعاني واشار اليه صاحب الكشاف هنا بكلام دقيق الدلالة

(*) درس الحديث الشريف الذي ختم به مولانا العلامة الهمام شيخ الاسـلام الحنفي الشيخ محمد بن يوسف ابقاه الله بجامع حمودة باشا في رمضان عام ١٣٥٦ وحضره جلالة الملك سيـدنا احمد باشا باي وآل البيت الحسيني العظام ووزراؤه الفخام ورجال دولته الكرام

بمسيرة الشهر للمبالغة فيعم الشهر وما دونه تشهد بذلك رواية عمرو بن شعيب ونصرت على العدو بالرعب ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر

الخصوصية الثانية جعل الارض له ولامته مسجدا وطهورا وهذه الخصوصية مجموع امرين احدهما جعل الارض كلها مسجدا اي محلا للسجود او مكانا للصلاة الا ما قام فيه الدليل على الكراهة او عدم الصحة وقد بين صلى الله عليه وسلم وجه الخصوصية بقوله وايما رجل من امتي ادركته الصلاة فليصل اي بخلاف من كان قبلنا فانما ابيحت لهم الصلاة في اماكن مخصوصة كالبيع والصوامع وقد جاء ذلك صريحا في رواية عمرو بن شعيب وكان من قبلي انما كانوا يصلون في كنائسهم. وفيما اخرجه البزار من رواية ابن عباس ولم يكن من الانبياء احد يصلي حتى يبلغ محرابه. ثانيهما جعل الارض له ولامته طهورا اي مطهرة يتطهر بها من الحدث كما يتطهر بالماء بيان لرخصة التيمم الذي جاء التنزيل بمشروعيته ببركة ءال ابي بكر

ففي صحيح البخاري حدثنا عبد الله بن يوسف قال اخبرنا مالك عن عبدالرحمن بن القاسم عن ابيه عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض اسفاره حتى اذا كنا مالبيداء او بذات الجيش انقطع عقد لي فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على التماسه وأقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فاتى الناس الى ابي بكر الصديق فقالوا الا ترى ما صنعت عائشة اقامت برسول الله صلى الله عليه وسلم والناس ليسوا على ماء وليس معهم ماء فجاء ابو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع راسه على فخذي قد نام فقال حبست رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء قالت فعاتبني ابو بكر وقال ما شاء الله أن يقول وجعل يطعنني بيده في خاصرتي فلا يمنعني من التحرك الا مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذي فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اصبح على غير ماء فانزل الله ءاية التيمم فتيمموا. فقال أسيد بن الحضير ما هذه باول بركاتكم يا ءال ابي بكر. فبعثنا البعير الذي كنت عليه فاصبنا العقد تحته

وفي الحديث دليل على صحة نسبة الفعل للمتسبب لقول الناس الا ترى ما صنعت عائشة اقامت برسول الله صلى الله عليه وسلم

وانظر ايها الباحث عن اسرار البلاغة ولطائفها الى قول عائشة رضي الله عنها فعاتبني ابو بكر ولم تقل ابي لان وصف الابوة المقتضي للحنو غير مناسب لمقام العتاب والتأديب بالفعل فانزلته منزلة الاجنبي وعبرت بالكنية المشعرة بنوع ما من التعظيم اداء لحق الابوة فوفت المقام حقه من الوجهتين الشرعية والادبية وذلك من كمال بلاغتها وكم لها في مثل ذلك من نظير

اخرج البخاري عن عبيد بن اسماعيل عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم اني لاعلم اذا كنت عني راضية واذا كنت علي غضبى. قالت: فقلت من أين تعرف ذلك فقال: اما اذا كنت عني راضية تقولين لا ورب محمد واذا كنت غضبى قلت لا ورب ابراهيم. فقلت: اجل يا

رسول الله ما أهجر الا اسمك. فتأمل حياك الله في قولها لا ورب ابراهيم فان التخصيص بسيدنا ابراهيم عليه السلام لاظهار التلطف وشدة التعلق بالنبيء صلى عليه وسلم ولو في تلك الحال لان النبي صلى الله عليه وسلم اولى الناس بابراهيم عليه السلام اي أخصهم به واقربهم منه قال تعالى ان اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبيء. فذكر من هو به اولى اجدر بمقتضى الحال واولى ثم اعطف ببصرك الى قولها ما اهجر الا اسمك لترى ما فيه من كمال الاحتراس والمحافظة كما لايخفى وقد اعاد البخاري حديث عائشة في التيمم من رواية عروة بن هشام وفيه ان عائشة استعارت القلادة من اختها اسماء رضي الله عنها وان الناس ادركتهم الصلاة فصلوا بغير وضوء. وترجم له بقوله باب اذا لم يجد ماء ولا ترابا. وانما اعاده بتلك الترجمة لامرين احدهما دفع التعارض بين الروايتين في نسبة القلادة بان اضافتها في الرواية الاولى لعائشة من اضافة الشيء للمستعير لكونه في يده وتصرفه وفي الرواية الثانية لاسماء من اضافه الشيء لمالكه. ثانيهما بيان الفقه الذي استنبطه من هذه الرواية وهو ان فاقد الطهورين يصلي ولا يعيد لان القوم صلوا من غير طهارة بالماء قبل نزول ءاية التيمم ولم ينكر عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ولا امرهم بالاعادة. ولان فقد التراب بعد مشروعية التمم بمثابة فقد الماء قبل مشروعيته. وذلك كدأبه الذي امتاز به هذا التاليف المبارك حتى اشتهر ان فقه البخاري في تراجم ابوابه بيد ان طائفة منها جاءت تطارحنا لا على طريق الصراحة بل على طريق الرمز والاشارة فكانت عزيزة المنال

اعي فحول العلم حول رموزما ابداه في الابواب من اسرار

ومن ثم قيل ان شرح تراجمه لم يزل دينا على الامة فلا غرو اذا قلنا ان جامع محمد ابن اسماعيل من الغريب المصنف في الاحكام الشرعية بمداركها الاجتهادية وبهذا النموذج اللطيف يتبين ان اعادة الاحاديث فيه ليست لمجرد التكرار بل لبيان الاسرار ومعاني الاثار ويرحم الله القائل

قالوا المكرر فيه قلت المكرر أحلى

وللمجتهدين في فاقد الطهورين اقوال يصلي. او يتشبه بالمصلي ويعيد. لا يصلي ويعيد. يصلى ولا يعيد. وهو قول البخاري وجمهور المحدثين وهو ظاهر الحديث من رواية عروة بن هشام

وسواء قلنا إن التيمم رخصة أو عزيمة فهو لما فيه من التيسر ورفع الحرج كسائر الرخص اللتي هي صدقات وهدايا من الله تعالى لعباده رحمة منه وفضلا فينبغي للعبد ان يتقبل هدية مولاه بواجب الشكر وغاية الاجلال والتعظم قال تعلى يا ايها الذين ءامنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله. وقال يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا. وفي الحديث ان النبيء صلى الله عليه وسلم قال في قصر الصلاة للمسافر انها صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته. الى غير ذلك من الايات والاحاديث ومن الهدايا الثمينة الوعد بالثواب الجزيل على العمل القليل كالتسبيح بالكلمتين الحبيبتين سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم

وفي حديث حذيفة عند مسلم وجعلت لنا الارض كلها مسجدا وجعلت لنا تربتها طهورا. وبه استدل الشافعي واحمد على تخصيص الارض في حديث جابر الذي رواه البخاري بالتراب فلا يجوز التيمم عندهما بغير التراب من اجزاء الارض خلافا لابي حنيفة ومالك واجاب القرطبي وابن الهمام بان حديث حذيفة غير مخصص لان التخصيص اخراج بعض افراد العام من الحكم ولم يخرج حديث حذيفة شيئا وانما ذكر فيه بعض افراد العام بحكم العام كقوله تعالى: فيهما فاكهة ونخل ورمان. وذكر فرد من العام بحكم العام لا ينافي حكم العام حتى يكون مخصصا. هذه خلاصة الجواب ولعلك تقول ان عنيت بعدم المنافاة عدمها من جهة المنطوق فمسلم لان حكم الفرد هو حكم العام وان عنيت من جهة المفهوم فلا لان الاقتصار على ذلك الفرد يفهم منه بطريق المخالفة نفي الحكم عما عداه وبذلك يتحقق الاخراج الذي هو التخصيص وعسى ان يكون ذلك ملحظ الامامين فالجواب ان هذا انما يتم اذا جوزنا تخصيص المنطوق بالمفهوم كيف والمنطوق مقدم على المفهوم وايضا فان لفظ التربة لقب ولم يقل بمفهوم اللقب الا الدقاق وبعض الاصوليين .

الخصوصية الثالثة احلال الغنائم وكان ذلك في غزوة بدر وفيها نزل قوله تعلى فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا كما في الصحيح ولم تحل لاحد من الأمم الماضية بل كانوا يجمعونها وتأتي نار تاكلها قال في الفتح وذلك في غير النساء والصبيان .

الخصوصية الرابعة عموم الرسالة للناس كافة وكان النبيء يبعث الى قومه خاصة وهو صلى الله عليه وسلم مبعوث لجميع الامم والشريعة التي جاء بها ناسخة لجميع الشرائع قبلها غير مقصورة على امته او طائفة دون اخرى تظافرت على ذلك الايات الصريحة والاحاديث الصحيحة قال تعالى : وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا . وقال : قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعا . وقد اجمعت الامة اجماعا قطعيا على ان المراد بهاتين الايتين مدلوهما اللغوي من غير تخصيص ولا تاويل ووردت السنة بذلك كحديث الباب ونحوه وكتب صلى الله عليه وسلم للملوك زمانه يدعوهم واممهم الى الاسلام ولا يشكل على ذلك ان سيدنا نوحا عليه السلام كان مبعوثا بعد الطوفان الى جميع اهل الارض وهم اصحاب السفينة الذين ءامنوا به وقبل الطوفان ايضا لدعائه على جميع اهل الارض بقوله رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا . لوجوه ذكرها العلماء احسنها عندي ان اهل الارض قبل الطوفان وبعده هم قومه للتنصيص على ذلك في ءايات انا ارسلنا نوحا الى قومه. ولقد ارسلنا نوحا الى قومه. فبعثته عليه السلام في ذاتها خاصة لكونها الى قومه وفي الصورة عامة لعدم وجود غيرهم في الحالتين

الخصوصية الخامسة الشفاعة والمراد بها هنا الشفاعة اللتي هي من خصائصه صلى الله عليه وسلم وهي ثلاث الاولى الشفاعة العظمى لا راحة الناس من هول الموقف وتقديمهم للحساب وهذه الشفاعة

لم يخالف فيها احد لا من المعتزلة ولا من غيرهم لتوارد الاحاديث الصحيحة البالغة مبلغ التواتر ومقامها هو المقام المحمود الذي يحمده فيه الاولون والآخرون واليه الاشارة بقوله تعالى ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا . وقد اجمع المفسرون على انه مقام الشفاعة وفي البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المقام المحمود فقال هو الشفاعة . الثانية الشفاعة في ادخال سبعين الفا الى الجنة بغير حساب فقد ورد في الصحيح يدخل الجنة من أمتي سبعون الفا بغير حساب . وفي ءاخر حديث الشيخين عن ابي هريرة فأرفع رأسي فأقول : يارب أمتي يا رب أمتي . فيقال يا محمد ادخل من امتك من لا حساب عليهم من الباب الايمن من أبواب الجنة الثالثة الشفاعة لمن دخل النار من المذنبين واخراج من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان وقد جاءت الاحاديث بذلك تترى فلا عبرة بانكار المعتزلة والخوارج بناء على اصلهم الفاسد . وله صلى الله عليه وسم شفاعات اخرى في رفع الدرجات وغير ذلك مما وردت به الاحاديث والاثار . هذا وليس تقييد الخصائص في حديث الباب بعدد الخمس مقتضيا لنفي الزيادة عليها بطريق مفهوم المخالفة لان المفهوم هنا معطل لا اثر له فقد جاءت الايات والاحاديث ناطقة باختصاصه صلى الله عليه وسلم بخصائص كثيرة اخرى كالكوثر والمقام المحمود ولواء الحمد والوسيلة وغير ذلك بالغة كما قال النيسابوري الى ستين ومن الاصول المقررة ان المنطوق مقدم على المفهوم على ان مفهوم المخالفة بجميع انواعه ومفهوم العدد بالخصوص من مجاري الخلاف بين ائمة الاجتهاد وقد اشتهر عن الحنفية القول بعدم اعتباره والتحقيق ان كلمة المتقدمين اختلفت في اعتباره ثبوتا ونفيا والذي تداوله المتأخرون انه غير معتبر في الادلة الشرعية لاحتمال ان يكون التقيد باحد الاشياء الدالة على المخالفة لفائدة اخرى غير نفي الحكم عن المسكوت ومعتبر في كلام الناس الجاري على مقتضى عرفهم في الاستعمال ككلام ارباب التنصيف ونصوص الاوقاف ونحو ذلك ومن ثم افتى كثير من الفقهاء بان اقتصار الواقف على رجوع نصيب من مات عن غير ولد لمشاركه في الطبقة يدل بطريق المخالفة على رجوع نصيب من مات عن ولد لولده لان نصوص الاوقاف من جملة كلام الناس وهو ما عول عليه شيوخنا في الفتوى والقضاء وجرى به عملنا الى هذا اليوم . وربما اشكل ذلك من وجهين الوجه الاول ان المعتبر في مفهوم المخالفة هو التنقيص اي نفي حكم المنطوق عن المسكوت لا ثبوت ضد الحكم للمسكوت بمفهوم في السائمة زكاة نفي الزكاة عن غير السائمة لا ثبوت الحرمة او الكراهة مثلا في غير السائمة وعلى وزانه تكون المخالفة في كلام الواقف عدم رجوع نصيب من مات عن ولد للمشارك الذي هو النقيض لا رجوعه للولد بالخصوص الذي هو ضد حكم المنطوق . الوجه الثاني قد تقرر ان نص الواقف كنص الشارع فكيف ساغ اعتبار اصل المخالفة في النصوص الوقفية الملحقة بالنصوص الشرعية والذي يظهر في الجواب عن الوجه الاول ان المعروف من كلام الواقفين الجارية به اقلام الموثقين في مثل ذلك هو ان المقصود من التقييد بمن مات عن غير ولد هو رجوع نصيب الميت عن ولد لولد

لا مجرد نفي رجوعه للمشارك والمعروف عرفا كالمشروط نصا وبذلك يتجلى ان المخالفة قد تكون على الضد وان اعتبار النقيض فيها ليس كليا بل هي على ضربين لغوية مبنية على النقيض بحسب الوضع وعرفية مبنية على الضد بحسب العرف . وعن الوجه الثاني بان الفقهاء صرحوا بان لفظ الواقف والموصي والحالف والناذر وكل عاقد يحمل على عرفه ولغته التي يتكلم بها فلا غرابة اذا ذهبنا الى تخصيص الكلية القائلة نص المواقف كنص الشارع بما ليس له عرف في الاستعمال وللعرف مكان من الاهمية والاعتبار في فصول كثيرة وفروع شتى من الاحكام

والعرف في الشرع له اعتبار   لذا عليه الحكم قد يدار

ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم خصوصيات امته عموما واصحابه خصوصا فانها من كمال تفضيله ومرجعها اليه

ما أنزل الرحمن أو ينزل   من رحمة تختص او تشمل

الا وصلة المصطفى عبده   مختاره نبيه المرسل

وللصحابة رضي الله عنهم خصوصيات كثيرة فمن خصوصيات ابي بكر رضي الله عنه مرافقته للنبيء صلى الله عليه وسلم في الهجرة ومؤانسته له في الغار واعظم بها من خصوصية وسد الابواب الشارعة الى المسجد الا باب ابي بكر ففي البخاري ان النبيء صلى الله عليه وسلم قال لا يبقين في المسجد باب الاسد الا باب ابي بكر . ومن خصوصيات سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فرار الشيطان منه . في صحيح البخاري عن سعد ابن ابي وقاص قال استاذن عمر بن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية اصواتهن على صوته فلما استاذن عمر بن الخطاب فمن يبادرن الحجاب فاذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك فقال عمر اضحك الله سنك يا رسول الله فقال النبيء صلى الله عليه وسلم عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب فقال عمر فانت احق ان يهبن يا رسول الله ثم قال عمر يا عدوات انفسهن اتهبنني ولا تهبن رسول الله فقلن نعم انت افظ واغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ايها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط الا سلك فجا غير فجك . ومن خصوصيات سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه تزوجه بكريمتي النبيء صلى الله عليه وسلم سيدتنا رقية ثم سيدتنا ام كلثوم واستحياء الملائكة منه كما في حديث مسلم وغيره . ومن خصوصيات سيدنا علي كرم الله وجهه اخاء النبيء له عند ما ءاخى النبيء صلى الله عليه وسلم بين اصحابه . وفي البخاري انه قال لعلي اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى وزاد مسلم الا انه لا نبي بعدي . ومن خصوصيات غير الخلفاء الراشدين من الصحابة خصوصية خزيمة ابن ثابت رضي الله عنه وهي جعل شهادته بشهادة رجلين

التقوى وحسن الخلق

عن ابي ذر ومعاذ بن جبل ـ رضي الله عنهما ـ ان رسول الله صلى عليه وسلم قال : اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن .(رواه البخاري)

الشرح : بقلم العلامة النحرير الحجة شيخ شيوخ الفتوى المنعم المبرور الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور *

هذا الحديث الشريف من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم . فقد اشتمل على نهاية الايجاز وما يقرب من حد الاعجاز فانه مع قلة الفاظه وعذوبة نظمه جمع صلى الله عليه وسلم ما يلزم الانسان في دار التكليف من اداء حقوق الخالق ومعاملة المخلوق وذلك مدار كلية التكليف كما لا يخفى . والخطاب وان كان لجزئية استعماله يقتضي قصر الحكم على المواجه به لكنه يعم كل مكلف صالح للخطاب عموما حقيقيا على ما هو طريقة الحنابلة المنسوبة اليهم في المستصفى اذ كل مكلف موجه له الخطاب القرءاني الذي هو عنوان الحكم التكليفي والمبلغ الاول الرسول صلوات الله عليه ثم المتأهل لذلك من الصحابة وعلماء الامة الواردة فيهم : علماء أمتي كانبياء بني اسرائيل

و (اتق) امر من الاتقاء افتعال من الوقاية التي هي في اللغة فرط الصيانة وشدة الاحتراس

ففي حديث ابي داود وغيره ان النبيء صلى الله عليه وسلم اشترى من اعرابي فرسا واستبعه ليعطيه الثمن فتقدم النبيء صلى الله عليه وسلم وتاخر الاعرابي فطفق رجال يساومونه بالفرس ولا يشعرون بان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ابتاعه حتى زادوا على ثمنه فقال الاعربي للنبيء صلى الله عليه وسلم ان كنت مبتاعا لهذا الفرس فابتعه والا بعته فقال له النبيء صلى الله وسلم او ليس قد ابتعته منك فجحد الاعرابي وقال له هلم شاهدا فجعل من حضر من المسلمين يقولون للاعرابي ويلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقول الا الحق فجاء خزيمة بن ثابت فقال انا اشهد انك بعته فقال له النبيء صلى الله عليه وسلم كيف تشهد ولم تكن معنا فقال انا صدقتك فيما جئت به افلا اصدقك على هذا الاعربي فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين ولم يكن في الاسلام من تعدل شهادته شهادة رجلين غير خزيمة وكان يلقب بذي الشهادتين . ومنها خصوصية سعد ابن ابي وقاص باجابة الدعاء اخرج الترمذي والحاكم وصححه من طريق قيس بن سعد ان النبيء صلى الله عليه وسلم قال اللهم استجب لسعد دعاءه فكأن لا يدعو بشيء الا استجيب له وكانت له دعوات كثيرة مستجابة

اللهم استجب دعاءنا وحقق بفضلك رجاءنا

---

* درس الحديث الذي ختم به فضيلة الشيخ في مسجد مدرسة حوانيت عاشور في رمضان

المكاره ومن درس واق اذا كان يقي أدنى شيء يصيبه . ومن الصيغة بذلك المعنى قول الشاعر :

فالقت قناعا دونه الشمس واتقت باحسن موصولين كف ومعصم

ومنه قول النابغة :

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

ومواقع استعمال الصيغة كالبيتين تقتضي ارادة التكلف والاتخاذ كما هو احد استعمالات افتعل وهو المفهوم من كلام اهل اللغة قال الراغب : التقوى هي جعل النفس في وقاية مما يخاف . وظاهر قول صاحب الكشاف في تفسير المتقي انه اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى ان الصيغة للمطاوعة . وتبعه القاضي عليه . وقرره حواشيه فتكلفوا للمطاوعة وجها مع بعده في نفسه يوجب التاويل في تعلق التكليف بالتقوى بصرفه الى التكليف بتحصيل اسباب القبول والا فالمطاوعة انفعال ولا تكليف الا بفعل كما قرر في الاصول . وعلى المختار فيما جاء تفسيرها من لسان أهل الشريعة فقالوا : هي حفظ النفس عن كل ما يؤثم . وسأل عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أبيا عنها . فقال : هل أخذت طريقا ذا شوك ؟ فقال نعم . قال : فما عملت فيه ؟ قال : شمرت وحذرت . قال : فذلك التقوى . ولقد أجاد رضي الله عنه في تمثيل معقولها بالمحسوس المفيد انها التحذر والصون من الوقوع في المخالفات . وقد احسن الغاية ابن المعتز في عقد ذلك نظما حيث قال :

خل الذنوب صغيرها ✽ وكبيرها ذاك التقى واصنع كماش فوق ار✽ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة ✽ ان الجبال من الحصا

ثم نظم ابن المعتز مبني على ان ترك الصغائر من مفهوم التقوى في عرف الشرع . واليه ذهب طائفة من المحدثين واهل السنة متمسكين بان فرط الصيانة الذي هو أصل التقوى يقتضي التخلي عن الصغائر . وبحديث : لا يبلغ احد ان يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به باس . اخرجه الترمذي وابن ماجة

ومذهب الجمهور انه لا يشترط في المتقي شرعا اجتناب الصغائر وحجتهم واضحة فان الصغائر قلما ينجو منها احد ومنهم من لا يسبق الى اسم المتقي بعد الانبياء غيرهم كالصحابة والتابعين ومن بعدهم من السلف الصالح والتمسك بالحقيقة اللغوية غير معتبر في الحقائق العرفية لكثرة التغاير بين الاصطلاحين بل ما كان تعدد الحقائق الا باعتبار التغاير . على ان الشهاب في حواشي القاضي انكر زياد لفظ الفرط وقال المذكور في كتب اللغة تفسيرها بالحفظ والصيانة وما ذكره من الزيادة زيادة . وعن الحديث بانه مسوق لبيان الكامل في الحقيقة بسند لزوم خروج من بناه وفيه نظر . وبان حمله على ظاهره يوجب خروج غير المتورع عن التقوى لان ترك ما لا بأس به حذرا من الوقوع فيما به الباس هو الورع ولا قائل بذلك من الفريقين فوجب تاويله على كلا القولين . على ان الحديث يحمل

محمل ومن وقع في الشبهات وقع في المحرمات المراد به التنبيه على شدة الحذر وعدم التساهل . فمعنى حتى يدع ما لا باس به ـ الخ ـ حتى يكون على غاية الحذر من الوقوع في المحرمات بان يكون متيقضا حازما غير متساهل بالامور . ونحن نقول ان ذلك معتبر في مفهوم التقوى كما لا يخفى ويؤيده ان التهاون بالصغائر والتساهل فيها يصيرانها كبيرة كما صرحوا به واليه أشار ابن المعتز في ثالث أبياتـه ولك باعتبار هذا ان ترجع بالخلاف الى الوفاق والله اعلم

ثم الواجب من التقوى المأمور به في غير ما ءاية صون العبد نفسه عن وعيد مخالفة الخالق بفعل المستطاع من المأمورات واجتناب المنهيات وذلك هو مقام عبوديته وهو المراد بالحق في قوله جل اسمه (يايها الذي ءامنوا اتقوا الله حق تقاته) قال القاضي : اى حق تقواه وما يجب منها وهـو استفراغ الوسع في القيام بالواجب والاجتناب عن المحارم . كقوله فاتقوا الله مـا استطعتم . اه .

ومن البين ان فعل المأمـور به وترك المنهي عنه لا يكون تقوى الا بملاحظة الامر والنهي وخوف الوعيد . يدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم في حديث مسلم عن ابي هريرة : التقوى ها هنا ويشير الى صدره ثلاثا أي عمادها الذي هو الخوف في القلب . أخذه علي رضي الله عنه فقال حين سئل عن التقوى : هي الخوف من الجليل . والعمل بالتنزيل . والقناعة بالقليـل . والاستعداد ليوم الرحيل . ومن حديث ان التقوى اتقاء وعيد المخالفة تعددت انواعها بتعدد المأمورات والمنهيـات وقبلت التفـاوت في نفسها وفي التنزيل (وسيجنبها الاتقى) بصيغة التفضيل اي الـذي اتقى الشرك والمعاصي . وكانت التقوى في كل شيء التزام العبودية الخاصة به من امر ونهي

قال اكثر المفسرين : ان عوف بن مالك الاشجعي أسر المشركون ابنا له يسمى سالما فأتى رسول الله صلى الله وعلم وشكى الفاقة وقال ان العدو اسر ابني وجزعت الام فما تأمرنا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : اتق الله واصبر وآمرك واياها ان تستكثرا من قول لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم فعاد لبيته وقال لامرأته ما قال له صلى الله عليه وسلم . فقالت نعم ما أمرنا به فجعلا يقولان وغفل العدو عن ابنه فساق غنمهم وكانت اربعة ءالاف شاة وجاء بها الى أبيه . فنزل قوله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب)

وقوله في الحديث : حيثما كنت . لافادة تعميم الا مكنة أي في كل مكان كنت فيه . والمراد من ذلك التنبيه على ملازمة التقوى على كل حال واختار عنوان المكان لما ان الغالب على الانسان التستر بمكان الانفراد حال التلبس بالمخالفة لغلبة الجهالة عليه إذاك حتى يغفل عن احاطة علمه تعالى بكل مكان ولله در بعضهم حيث يقول : اذا أردت ان تعصي الله فاعصه حيث لا يراك . ومن ثم عظم شان الخلوة وكانت خاتمة خصال السبعة الذين يظلهم الله بظله معبرا عنه بقوله عليه السلام : ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه

قوله صلى الله عليه وسلم : وأتبع السيئة الحسنة تمحها بفتح همزة أتبع بمعنى ان تفعل بعدها بقرب كما هو ظاهر الاتباع . وأل في السيئة والحسنة جنسية وظاهر ذلك ارادة السيئة بما يشمل الصغيرة والكبيرة ويراد من الحسنة ما يشمل التوبة وغيرها من أفعال البر . فالثاني يكفر الاول من السيئات والاول يكفر الثاني منها . وظاهر لفظ المحو كلفظ الاذهاب في قوله جل إسمه (ان الحسنات يذهبن السيئات) أنها تزال من صحف الكاتبين . وهو مدلول قوله جل اسمه (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب) وحاصل معنى هذه الجملة الشريفة أن السيئة اذا أتبعت بحسنة محيت . وتفصيله كما أشرنا اليه ان السيئة اذا كانت صغيرة محتها الحسنة التابعة كيفما كانت واذا كانت كبيرة كان محوها بحسنة مخصوصة هي التوبة . والمراد السيئات التي هي من غير حقوق العباد فلا تكفر الا بالاستحلال

واعلم أن تقسيم الذنوب الى كبائر وصغائر مذهب جمهور المتكلمين وعليه تدل آيات الكتاب المجيد كقوله تعالى (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) وقوله (وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان) فالفسوق الكبائر والعصيان الصغائر والالزم التكرار . ومناط التقسيم ذات الفعلة وما فيها من المفسدة دون الالتفات الى مخالفة الله فانها بالنظر الى ذلك على حد واحد وهي شبهة من نفى الصغائر

وعلى مذهب الجمهور اختلاف في تمييز الكبائر من الصغائر اختلافا أفضى الى عدم الاعتماد فيه على محصل فمنهم من سلك طريق العد على اختلاف في القلة والكثرة ومنهم من سلك طريق الضبط بما ورد فيه الوعيد بالنار أو ترتب عليه حد فهو الكبيرة . وكل ذلك لا يفيد تمييزا كما يعلم بمراجعة ما للعلماء في ذلك من الاقاويل وجنح شهاب الدين القرافي الى التمييز بعظم المفسدة وحقارتها فقال في التاسع والعشرين والمائتين من قواعده : الصغيرة في المعاصي ليس من جهة من عصي بها بل من جهة المفسدة الكائنة في ذلك الفعل فالكبيرة ما عظمت مفسدتها ورتب المفاسد مختلفة فأدنى رتب المفاسد تترتب عليها الكراهة ثم كلما عظمت المفسدة ارتفعت الكراهة حتى تكون أعلى رتب الصغائر تليها أدنى رتب الكبائر ثم تترقى رتب الكبائر بعظم المفسدة حتى تكون أعلى رتب الكبائر يليها الكفر اه .

وقدح فيه ابن الشاط بان النظر الى مقادير المفاسد في ضبط الصغائر والكبائر لا يصح لانه بناء على قواعد المعتزلة . ثم انه رجوع الى عدم التمييز لجهلنا بمقادير المفاسد وعدم وصولنا الى العلم بحقيقته اه .

قلت أما الاول فبين الفساد فان بناء الشريعة المطهرة على اعتبار المصالح والمفاسد أمر معلوم أثبته الاستقراء لها كما وقع التصريح به في أول كتاب المقاصد من الموافقات . والخلاف بين أهل السنة والمعتزلة انما هو في الوجوب وعدمه وكون العقل يتوصل الى المصلحة فيعلم الامر والى المفسدة فيعلم النهي أو لا يدرك ذلك الا بعد ورود الامر والنهي بالاولين قال المعتزلة وبالثانيين قال أهل السنة .

واما الثاني فهو وان كان متجه الظاهر اذ يقال لا يعلم من النهي الا وجود المفسدة وأما اعتبار مقدارها فقدلا يدرك كونه عظيما أو حقيرا لكنه مدفوع بالالتفات الى مقصد الشرائع وحفظ كلياتها فاذا تبين ما قصد الشارع حفظه تبينت رتب المفاسد ومقاديرها بالنسبة الى الخلل اللاحق لذلك المحفوظ وقد شرح ذلك بما لا مطمع للنفس وراءه حبر هذه الامة أبو حامد الغازلي فقال في كتاب التوبة من الاحياء: لنا سبيل كلي يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق وأما أعيانها فنعرفه بالظن والتقريب وبيانه انا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعا أن مقصود الشرائع كلها سياقة الخلق الى جوار الله وسعادة لقائه وأنه لا وصول لذلك إلا بمعرفةالله ومعرفةصفات رسله و كتبه واليه الاشارة بقوله تعالى (وما خلقت الانس والجن الا ليعبدون) أي ليكونوا عبيدا ولا يكون العبد عبدا ما لم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية فهذا هو المقصد الاقصى ببعثة الانبياء ولكن لا يتم هذا إلا بالحياة الدنيا وهو المعني بقوله صلى الله عليه وسلم الدنيا مزرعة الاخرة فصار حفظ الدنيا مقصودا تبعا للدين ووسيلة اليه وحفظ الحياة الدنيا منوط بحفظ النفوس والاموال فكل ما يسد باب معرفة الله فهو أكبر الكبائر ويليه ما يسد حياة النفوس وليه ما يسد باب المعائش التي بها حياة النفوس . فحصل من هذا أن الكبائر على ثلاثة مراتب الرتبة الاولى ما يمنع من معرفة الله ورسوله وهو الكفر فلا كبيرة فوقه ويتلوه مراتب البدع المتعلقة بذات الله وصفاته وافعاله وشرائعه واوامره ونواهيه ومراتب ذلك كثيرة وتفاوتها بحسب تفاوت الخلل اللاحق بها الى حفظ الكلي الذي هو المعرفة بحق الربوبية وحق العبودية. الرتبة الثانية حفظ النفوس فقتل النفس مباشرة من الكبائر وكذلك ما يفضي الى انعدام الحياة حقيقة او حكما كاذهاب الادراك بالمسكرات . الرتبة الثالثة حفظ الاموال على أربابها اذ بها بقاء الحياة عادة فكل ما يفضي الى ضياعها على أربابها كالسرقة بنصابها مخل بحفظ ذلك الاصل فيكون ذا مفسدة عظيمة ويكون كبيرة . اه بتصرف فيه

وهو الضابط الذي لا يشذ عنه فرد عند اعمال النظر ومراعاة تلك المقاصد ومعرفة ما يوجب الاخلال بها من غيره الذي هو مناط انظار الجهابذة النقاد . ولامرية في تطرق الخلاف الى بعض منها فان ذلك شان الاجتهاديات المشروع رحمة للامة . وبهذا البيان الذي هو من غزل ابي حامد الرقيق اتجه كلام الشهاب واندفع عنه ذلك الاشكال. ومن كان ذا نباهة وتفطن وغذي بلبان التحرير يتيقن ان ذلك الضابط لحجة الاسلام مستنبط من جملة حديث المجلس فان مضمون الجملة الاولى القيام بحق الربوبية وواجب العبودية الذي هو المقصد الاول من التشريع كما قرره ومضمون الجملة الثانية افادة كيفية جبر ما تقتضيه البشرية غير المعصومة من بعض الخلل في القيام بواجب الاولى . فهما جملتان لتحقيق القيام بالواجب الاول اصالة وجبراً وبقي القيام بالواجب الثاني المتعلق بالحياة الدنيا اليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم في الجملة الثالثة (وخالق الناس

بخلق حسن) خالق الناس عاشرهم بالخلق الحسن كذا في القاموس . وعليه فذكر المتعلق لزيادة البيان والايضاح . والناس عام للمؤمن والكافر فان للكافر حقوقا في المعاملات معروفة في الشرع بسطها الشهاب القرافي في التاسع عشر والمائة من قواعده . وخلاصتها منع الموالاة والتودد المصرح بهما في قوله جل أسمه : يايها الذين ءامنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة . ومنع كل ما يفضي الى اظهار سلطانه على المسلمين وتعظيم رتبته عليهم . أما برهم بغير ذلك من الرفق بهم ولين القول لهم من غير مذلة وكل حق يحسن من الاعلى مع الاسفل ان يفعله ومن العدو مع عدوه اذا قصد مكارم الاخلاق فهذا لا منع فيه بل هو من المطلوب كما دلت عليه نصوص الشريعة وكفى قوله تعالى : لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين . انتهى ملخص كلام الشهاب . وفي الجامع الصغير من طرق عديدة : اذا تاكم كريم قوم فاكرموه . وفي شرحه للمناوي : تعميم الحكم في الكافر والفاسق اذا كان كريم قومه مستدلا على ذلك بعنوان الحديث والعدول عن عنوان العلم او الدين وبأن معاملته بغير ما آتاه الله من الرتبة إبتلاء منه يجر الى مفاسد منهي عنها قال وقد غلط في هذا الباب كثير غفلة عن تدبير الله في خلقه وجمودا على ظاهر قوله تعالى : ومن يهن الله فماله من مكرم . وما دروا ان السنة شرحت ذلك وبينته أحسن بيان فموضع طلب إهانة الكافر والفاسق الامن من حصول مفسدة ذلك وقد كان صلى الله عليه وسلم يتواضع لاكابر كفار قريش ويكرمهم ويرفع منزلتهم .

وههنا بحث من تتمة هذا يجب التنبه له وهو ما حدث في معاشرة الناس ومكارمتهم من الآداب المستحدثة فربما أنكر ذلك من لا تضلع له في أصول الشريعة بسبب انها لم تكن في زمنه صلى الله عليه وسلم ولا في زمن السلف الصالح بعده ويراها لذلك بدعة مذمومة لما فيها من مخالفة السلف وتحرير ذلك ما ذكره الشهاب في التاسع والستين والمائتين من قواعده حيث قال : اعلم ان الذي يباح في مكارمة الناس قسمان . الاول ما وردت به نصوص الشريعة من افشاء السلام واطعام الطعام وتشميت العاطس والمصافحة عند الملاقاة وغير ذلك مماهو مبسوط في كتب الفروع — الثاني ما لم يرد به نص ولا كان في السلف الصالح لانعدام سببه عندهم وقد حدث سببه الآن المعتبر شرعا فتعين فعله لحدوث سببه لا لانه شرع مستانف اذ تاخير وقوع الحكم لتاخر سببه لا يكون شرعا جديدا وهذا القسم هو ما في زماننا من القيام للاعيان واحناء الرأس لهم والمخاطبة بالالقاب المؤذنة بالرفعة والمكاتبة بالنعوت الدالة على العظمة كالباب العالي والمجلس السامي والجناب المرفع وغير ذلك . فهذا كله لم يكن في السلف الصالح ونحن اليوم مامورون به مع كونه بدعة والسبب في ذلك ان ترك ذلك في زماننا يوقع في النفوس فتقع الشحناء والقطيعة المنهي عنها بحديث لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله اخوانا . فهذا الحديث قاض بان كل ما يؤدي الى تلك الافعال منهي عنه

وترك ما اعتيد في زماننا من المكارمات يؤدي اليها فوجب تركه وارتكاب المعتاد. وتلك المكارمات المستحدثة كانت في حيز الكراهة دون التحريم فلما صار تركها موجبا للمقاطعة المحرمة لزم دفعه كما هو قاعدة الشرع يقدم ترك المحرم اذا تعارض المكروه والمحرم. قال وقد حضرت يوما عند الشيخ عز الدين ابن عبد السلام رحمه الله وكان لا تاخذه في الله لومة لائم قدمت اليه فتيا فيها : ما تقول أيمة الدين وفقهم الله تعالى في القيام الذي احدثه اهل زماننا مع انه لمْ يكن في السلف. هل يجوز ام يحرم ؟

فكتب رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تباغضوا ولا تحاسدوا. الحديث. وترك القيام في هذا الوقت يفضي إلى المقاطعة والمدابرة فلو قيل بوجوبه ما كان بعيدا. هذا نص فتواه ثم قال الشهاب فعلى هذا القانون يجري هذا القسم بشرط أن لا يبيح محرما ولا يترك واجبا فلو علم أنه لا يرضى المعامل إلا بفعل المحرم لم يجز إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق

والخلق بضمتين هو في الاصل ملكة نفسانية تصدر عنها الافعال بسهولة فإن صدرت عنها الافعال الحميدة فهي الخلق الحسن والا فضد ذلك. ثم إن هذه الملكة لما كانت هيأة للنفس لا يتعلق بها التكليف لذاتها إذ ليست من الفعل في شيء نعم يتعلق التكليف بالاسباب المحصلة لها الراجعة إلى التصبر وحمل النفس على تحمل الضيم ومكابدة الاذى والعفو وغير ذلك فبتمرن النفس على الصفات الجميلة والاداب الممدوحة وبتعودها ذلك تحصل تلك الملكة فتنشأ عنها تلك الصفات بعد بسهولة بعد أن كانت شاقة في تحصيلها ويرجع السبب مسببا وهو مناط التكليف والمدح والذم. وبما بينا علم أن الخلق الحسن الذي هو مناط المدح والثناء مكتسب برياضة النفس والتأديب ومن ثم كان خلقه الله صلى الله عليه وسلم أشرف خلق حسن كما شهد له بذلك تعلى في قوله: وإنك لعلى خلق عظيم. حيث كان تأديبه آلهيا ورياضته قرآنية كما قالت الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما : كان خلقه القرآن قال الامام السهروردي في عوارف المعارف : في كلامها رضي الله عنها سر غامض وذلك أن النفوس البشرية مجبولة على طباع غضبية وبهيمية وسبعية والله بعظيم عنايته نزع حظ الشيطان منه الذي هو شر الاولى فبقيت نفسه الزكية مبقاة فيها أمهات تلك الصفات فتنزل الآيات لقمعها عند تحركها واضطرابها تأديبا له صلى الله عليه وسلم وهو قوله تعلى : كذلك لنثبت به فؤادك. فعند كل اضطراب تنزل آية لمصالح سنية يسكن بها. كما وقع في أحد إذ شج صلى الله عليه وسلم فقال كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم. فأنزل الله تعلى : ليس لك من الامر شيء فلبس قلبه لباس الاصطبار . ورجع بعد الاضطراب الى القرار فلما توزعت الآيات بحسب الاوقات صفت الاخلاق النبوية بالقرآن. إنتهى كلامه النفيس.

فأخلاقه صلى الله عليه وسلم ربانية بالتأديب الرباني والعناية الاحدية لا برياضة نفسانية وتكسب طبيعي كما يكون لغيره ولذلك لا يدرك شاو خلقه صلى الله عليه وسلم فافهمه

وفي المفهم (١) الخلق المحمودة اجمالا ان تكون مع غيرك على نفسك فتنصف منها ولا تنتصف لها، وتفصيلا : العفو . والحلم . والجود . والصبر . والرحمة . ولين الجانب . وتحمل الاذى . اهـ وجماع ذلك قوله جل اسمه : الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيض والعافين عن الناس والله يحب المحسنين .

والخلق الحسن محمود في كل أمة يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم : بعثت لا تمم مكارم الاخلاق . فانه صريح في سبقيتها في الامم السابقة غير ان الشريعة المطهرة جمعت ما تفرق منها واحكمته على وجه لا مطمع فيه من غيرها ولقد كانت الامة الامية من العرب يتسابقون الى نيل تلك الصفات ويناضلون عنها وكفى احدهم شرفا ان يعد من اصحاب تلك الخلال حتى قال السموءل ابن عاديا حكيم شعرائهم :

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
وان هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس الى حسن الثناء سبيل

ومن كلام حكماء اليونان قول سقراط الحكيم : الحكمة حسن الخلق

وقال ارسطو : بلين الكلام تدوم المودة في الصدور . وبخفض الجناح تتم الامور . وبسعة الاخلاق يطيب العيش ويكمل السرور . وكتب الى الاسكندر الارذال ينقادون بالخوف ، والاخيار بالحياء فاستعمل في الاولى البطش وفي الثانية الاحسان . وليكن غضبك لا شديدا ولا ضعيفا فان ذلك من اخلاق السباع وهذا من اخلاق الصبيان : واذا اعطاك الله ما تحبه من الظفر فافعل ما احب الله من العفو . اهـ

واعلم ان مدار اعتبار تلك الصفات ان تكون منبعثة من صفاء الباطن واخلاص الطوية كما يقتضيه اعتبار الملكة فيها . اما اذا كانت بحسب الظاهر فقط فهو التخلق المذموم . واياه يعني من يقول :

يا ايها المتحلي غير شيمته ان التخلق يأتي دونه الخلق

وقال محمد بن هاني مادحا

غني بما في الطبع عن مستفاده له كرم الاخلاق دون التكرم

وعنوان الحقيقة ظهور السرور والبشر عند التلبس بتلك الصفات فان الظواهر عنوان البواطن ومن هنا لما سئل سلام ابن ابي مطيع عن حسن الخلق انشأ يقول :

تراه اذ ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذي انت سائله

فلم يعتبر الاحسان من حسن الخلق الا مع التهلل والبشرى الدالين على طيب الباطن

وقد اجاد ابن الرومي مفصحا بطريقة سلام مع بيان الدليل فقال :

وقل من ضمنت خيرا طويته الا وفي وجهه للبشر عنوان
تلقاه وهو مع الاحسان معتذر وقد يسيء مسيء وهو منان
اذا تيممك العافي فكوكبه سعد ومرعاه في واديك سعدان
أحيى بك الله هذا الخلق كلهم فانت روح وهذا الخلق جثمان

والله اعلم

---

(١) شرح على صحيح مسلم للامام احمد القرطبي (المجلة)

التعاضد المتين
بين العقل والعلم والدين
« ١٠ »

بقلم العلامة الحجة الشيخ محمد الحجوي
وزير المعارف بالسلطنة المغربية

هل الاسلام دين العقل ؟

هذه المقالة نسبها بعض المؤلفين الى رجل مصر ومصلحها وفيلسوفها محمد عبده وحملها على غير محملها فيجب ان اشرحها بما يليق بمقام الشيخ المصلح وان لم اقف على سياق كلامه حتى اجزم بالمراد منه، ان ظني بالشيخ وما اعهده من لهجة ما وقفت عليه من كتاباته ان معناها ان الاسلام دين يوافق العقل ولا يناقضه بحال في اصوله وفروعه ويؤيد هذا المعنى ما اسلفناه وليس المراد انه شريعة عقلية بشرية ليست بوحي الاهي فهذا المعنى لا يقصده مسلم لانه كفر صراح . كما انه لا يقصد بها ان الشرع مفتقر الى العقل يرشده في كل شيء وانه لولاه ما اهتدى ، كلا ثم كلا فالشرع مستقل غير مفتقر وانما العقل ناصره وعاضده ومعينه كما سبق

كما انه لا يريد ما قاله المعتزلة وغيرهم من ان قواعد العقل مقدمة على نصوص الشرع عند التعارض ، كذلك لا يريد ما قاله المعتزلة من التحسين والتقبيح العقليين وان العقل مستقل بالاحكام يهتدى بفطرته الى عللها والى حكم تلك العلل البديعة والى الثواب والعقاب ويهتدي بفطرته الى اليوم الآخر والى المسئولية امام الله من غير توقف على الشرع . فاني احاشي جناب الشيخ عن ارادة هذه المعاني وان احتملها اللفظ ، اذ ورود الشرع يكون عبثا على هذا الاخير

« ذيل »

رد طعن مصطفى كمال على النبوات

من جملة ما اشتمل عليه كتاب مصطفى كمال قوله طاعنا في النبوات ان احدا من الانبياء لم يوح اليه برسالة تساعدنا على اختراع ءالة من ءالات استكشاف الكهرباء، او البواخر، او الطيارات، او التلفون اللاسلكي، او مبادي طب تساعدنا على مقاومة السرطان او السل الخ - وانا نجيبه عن استعجال ولا نوسع المجال ، وسأقوم بواجب عيني حيث لم اقف الي الآن علي من وقف موقف

النضال معه فاقول ان وظيف الانبياء تعليمي تهذيبي احساني تبشيري تنظيمي للاجتماع البشري موطد لايجاد ما كان مفقودا في وقتهم وامهم من اتقان نظام المجتمع العام ودفع الشرور عن هذا العالم الانساني المحفوف بالمخاطر من التغالب والتكالب ، والغيلة والاضطهاد والفوضى وتكميل النوع الانساني بالاداب والتفكير المنتج والقاح افكاره بالاخلاق العالية ومبادي العلوم التي كانت مفقودة وهي التي رقت افكار العالم ومداركه واوصلته الى ضالتكم المنشودة الى هذه المخترعات التي انتم بها معجبون .

ودونك القرءان العظيم طالعه وتدبره تجده هو الذي حرر الافكار من رق التقليد والتقييد . وفكك عنه ءاصار الاسر والتجميد . واطلق عنان التفكير للاكتشاف والاختراع واظهار مواهب الابداع . وهو الذي اثار حركة العقول وقيد كل شيء بالمعروف والمعقول . والقرءان هو الذي ازال القيود وسلاسل العبودية من عنق العقل بل جعل له هيمنة وجلالا . وصيره طليقا يتفكر في خلق السموات والارض بل جعله ملكا حاكما في المملكة الواسعة تتسابق جياده في ميدان الابتكار لتظهر مواهبها وتاتينا بطرائف الفوائد . حتى امتلات بها الموائد ، ثم انكم تعترفون ان سنة الكون ليست طفرة بل هو التدرج والتطور في المراحل الطبيعية التي لا بد من اجتيازها على ما تقتضيه سنن الكون ونواميس الوجود ولكل شيء ابانه ولا يكون الا في الوقت الذي قدر له

فأول نضوج الافكار بدأ بالنبوات والنضج لا يكون في لحظة ولابد له من زمان معدود محدود يقتضيه طلعه فيجتازه تدريجيا اذ فكر الانسان مقهور تحت نواميس الكون التي اقتضتها الحكمة الالهية وله عمر طبيعي ينمو فيه بالتجارب والاستفادة عنها واستنتاج المعلومات منها فهو كالمعدن والنبات والحيوان كل له عمر طبيعي ينضج فيه ويستكمل قوته حتى ان بعض المعادن يقضي في اجتياز عمره الطبيعي مئين من السنين ليتم فيها نضجها . وفكر الانسان كذلك لم يتم نضجه الا بالمراحل التي قد اجتازها فى ازمان النبوات وبعدها على سنة كونية بتقدير عزيز عليم

وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم قطع مرحلة كبرى زادته نضجا واسرع السير فيها الى عالم الكمال حيث تعبدت له طريق سوي بعلوم ادبية نشأت عنها علوم رياضية (١) والقرءان فيه كثير من الاشارات الى العلوم الرياضية وقواعدها وبعض الطبيعيات ايضا المتضمن ذلك للتشويق اليها بل والحض عليها وعملا بذلك التشويق القرءاني تمهدت العلوم الطبيعية التي لولاها ما امكن لعجلات الفكر أن تسرع

---

(١) فقد حض على علم التاريخ بقوله فاقصص القصص لعلهم يتذكرون وفي قوله لعلهم يتذكرون اشارة الى فلسفته وحض على الجغرافية بقوله قل سيروا في الارض فانظروا وحض على علم الهيأة والفلك والنجوم بقوله انظروا ما ذا في السموات والارض وفيها حض على طبقات الارض بل وعلم المعدن والنبات اذ النظر الذي يحض عليه القرءان ليس مطلق النظر السطحي الغير المثمر ويدعو الى علم التشريح والطب والطبيعة بقوله وفي انفسكم افلا تبصرون الى غير هذا (محرر)

المسير وتبلغ المراد من تلك المخترعات والمكتشفات ، وعلى كل حال فان ابان ظهور المخترعات لا بد ان يتقدمه وقت طويل ينضج فيه الفكر وهو زمن النبوات ، وحين جاء الابان جاءت تلك المخترعات التي لولا تمهيد النبوات لم تكن ممكنة ولا متيسرة

ثانيا ليس من المعقول ولا من المستحسن ان يكون المعلم المهذب : حقوقيا ، طبيبا ، صيدليا ، صناعا ، ميكانيكيا ، مهندسا ، اداريا ، منظما ، جامعا لكل الوظائف ، يباشرها في ءان واحد ومن غير تدريج .

هب انه كذلك على خرق العادة المناسب للنبوة . فليس يستطيع ان يخلق تلاميذ تكون لهم قدرة على تلقي هذه العلوم والصنائع في ءان واحد تعليما نهائيا لم يسبقه تعليم ابتداءي ينضج به الفكر الانساني ، فان ذلك يخالف سنة الكون المبني على نواميس خاصة وحركة فلكية متشدة .

فالنبوات علمت العالم تعليما تمهيديا ابتدائيا لهذه العلوم التي انت معجب بها . ثم بعد اطلاق الفكر صارت تلك المعارف تنمو الى ان بلغت لما ترى ولا تزال تنمو وستبلغ الى ما هو اعجب بما يناسب الوقت الاتي والاحوال المقبلة

ثالثا لو جاء نبي بها قبل تهذيب النوع باداب النبوة لكانت محض ضرر وخطر

رابعا لسنا على يقين من ملاءمة هذه المخترعات لوظيف النبوءة ونحن نرى ماذا وقع من موبقات واتلافات للنوع الانساني بسبب الحرب العالمية الماضية ، واظن انه لو بعث بها نبي ثم وقعت تلك الحرب المشؤمة على الانسانية ذات المجزرة الكبرى التي انتحرت فيها الانسانية بيد الاختراع والاكتشاف والتي تصدعت بها اركان المدنية . وظهرت بها ثمرة تلك المخترعات التي اهتبلتم بها ، لارتد اتباعه اجمعون اكتعون ، ولما بقي لرسالته اثر ، لان فائدة الرسالة ترقية النوع الانساني ادبيا قبل ارتقائه ماديا وتشييد دعائم العمران على اساس الود والمرحمة والتعاون وعطف الانسانية والتعاون ووصلة البر والاحسان ، ولم تكن قط رسالة مبنية على الهدم والفتك والافساد والخراب والدمار ولا تكون

ولقد شاهد العالم مشهدا لم يشهده جيل سابق قط من التناحر وفساد الاخلاق واضطراب الافكار وتباغض الاقطار . وتباعد الانظار . والتكالب على الاضرار . والتوثب على كل ما ليس بمشروع . ودك كل قانون سماوي او موضوع . وانحطاط الهمم . وخراب الذمم وشيوع الفساد في الارض وخرق كل اجماع طبيعي ، وافساد كل اصلاح اجتماعي . وكشف قناع كل حياء ؛ وتسلط الاقوياء على الضعفاء . وانتزاع الرحمة من كل ضمير . ولو اجال الانسان نظره في ما هو السبب الاقوى لتنوع هذه الانواع من الدواهي المخربة لما وجد لذلك من سبب اقوى من هذه المخترعات وما نشأ عنها من المنافسات في هدم اركان المدنية والانسانية . فهل يمكن مع هذه المشاهدة ان يقال ان

العالـم اسعد حالا مع هـذا الترقي في علم المادة . بـل البشر اشقى حـالا على وجـه العموم من حاله قبل ظهور هذه المخترعات . وان العداوة بين الاجناس لم تصل قط من الشدة في غابـر الدهر الى هذه الدرجة التي حصلت بهذه المخترعات ، وان القصد من النبوات هو سعادة العالم حالا ومئالا لا شقاؤه وان المخترعين انفسهم قد شعروا بهذا الخطر الذي نشأ عن اختراعهم واستكشافهم وتبريرا لعملهم يجيبون عن هذه المعضلة باجوبة واهية ، ومما اجـاب به المخترع الكبير في العصر الحاضر ماركوني الايطالي مخترع الراديو ان هذا الشقاء راجع لكون الترقي العلمي لا يسير بتناسب مع سير المدنية الاخلاقية بحيث ان الانسانية لم تستوف حقها من المدنية بالنسبة لما ادركته في ميدان الاختراع والاكتشاف ، وضرب لذلك مثلا بطفل تمكن من سيارة سباق سريعة ليلعب بها فانه يقع في الخطر فحالتنا بالنسبة للمخترعات الحديثة كحالة الطفل فاننا لم نتوصل بعد الى سائر طرق استعمال اختراعاتنا وزعم انه لولا هذا الاختلال في التناسب لكان الترقي العصري وسيلة لسعادة الانسانية ثم قـال ومن الصعب ان تعتبر الغازات الخانقة ووسائل التدمير والخراب من سعادة البشر ولكن ما حصل في ميدان الصناعة من اختراع ءالات زاد في راحة البشر وسمح لكثير من النـاس ان يتمتعوا بحياة لم يكن في استطاعتهم ان يتمتعوا بها من قبل واجاب عما وقع من مشاكل العمال والبطالة بما يطول . وكل هذا من قبيل الخيال في نظري ، والواقع المشاهد ان مشاكل العالم تكاثرت بسبب افساد الاموال في تلكم المخترعات وما من اختراع الا ويعقبه ارقى منه فيفسد المال الذي ذهب في الاول فضخمت الميزانيات وافتقرت الامم وكثرت البطالات بل المجاعات ، واما ما يتمتع به الاغنياء وارباب رؤوس الامـوال من النعيم فذلك كله نعيم فردي ويسرع زواله . وما امله مـاركوني من التمدن الادبي فذلك كالـه تحقق انه خيال ، وان ظهور المخترعات افسد اسس الاداب الانسانية وزاد في تكالب البشر وصيره عاصيا متمردا على كل ادب ورحمة وانسانية فالمخترعات العصرية المادية اذا استثنينـا المخترعات الطبية والجراحية وامثالها مما لا سبيل لاستعماله في التدمير كان وبالا على الانسانية وعلى الآداب الحقيقية التي جاءت بها النبوات ، لعمري كيف يمكن ان تكون وظيفة لنبي او يظهرها الله على يد رسول الله مبعوث للرحمة كلا ثم كلا الف الف مرة وان كانت الحقيقة مرة: فتلكم المخترعات والمكتشفات التي اهتبل بها مصطفى كمال ونبذ الدين واساء للمرسلين لا تتلائم ووظيف النبي الحقيقي بحال لان اهم وظيف يؤديه الرسول برسالته هو ايجاد روابط متينة نزيهة بين افـراد النـوع الانساني وامه وشعوبه مبنية على العطف والرحمة والحب والارتفاق وانتشال الانسانية المعذبة من سفالة الاخلاق والفتك والتخريب والاستعباد وصيانة الدماء والاعراض والاموال التي جاءت هذه المخترعات لاستباحتها وانتهاك حرمتها مخالفة لما جاءت له النبوات من تثبيت دعائم العدل والانصاف والتسامح ونشر الوئام الحقيقي والاخاء الذي لا تدجيل فيه وصقل الافكار بصيقل العلم الصحيح وتحريرها من كل ضغط وارهاق .

الملاجي الخيرية الاسلامية (*)

في الدولة الموحدية والمرينية بالديار المغربية

بقلم العلامة الجليل الحافظ المولى
محمد عبد الحي الكتاني دام نفعه

لا يخفى أن اقامة ملاجيء للبائسين وأصحاب العاهات والزمنى من اعظم ءاثار الحضارة ودلائل الرقي ومهما وجد هذا العطف الانساني من الاصحاء على الضعفاء ومن الاغنياء على الفقراء فذلك امارة التهذيب النفساني والتفكير الايماني والعاطفة الشريفة وقد اشتهر عند كثير من المؤرخين وغيرهم أن أول من اتخذ المستشفيات صدر الاسلام الوليد بن عبد الملك ويذكرون انه اقام في دمشق مستشفى للمجذومين لان لماء دمشق على ما قالوا خاصية دفع مرض الجذام عن اهلها فلا يصيبهم الا في النادر واذا دخله هناك غريب عن البلد تكسر عنه عاديته او يتوقف سيره في الجسد. وفي التاريخ المظفري: وفي سنة ثمان وثمانين أمر الوليد بن عبد الملك بعمل المارستان لعلاج المرضى وهو أول من فعل ذلك وجعل فيه الاطباء وأجرى فيه الانفاق وأمر بحبس المجذومين لئلا يخرجوا وأجرى عليهم الانفاق وعلى العميان. ه والحال ان الامام الحافظ أبا الحسن الخزاعي التلمساني بوب في كتابه تخريج الدلالات السمعية فقال: الباب الخامس في المرستان. قال: وفيه ثلاثة فصول. الفصل الاول في معناه واتخاذه وما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك ثم ذكر: ان مسلما خرج عن عائشة انها قالت: أصيب سعد يوم الخندق رماه رجل من قريش فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خيمة في المسجد يعوده عن قريب . وقال ابن إسحاق في السيرة: كان رسول الله عليه السلام قد جعل سعد بن معاذ في خيمة

وبعبارة أخصر وضع نظام للمجتمع او تجديده يتلاءم مع العقل والحكمة والاختيار غير مفروض على الناس بالجبر والقوة العسكرية الغاشمة الاثيمة التي تايدت بهذه المخترعات والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

هذا وانني بغاية الاسف مضطر ان اصرح بحقيقة راهنة . وهي ان هذه المخترعات وان ذممناها من حيث انها ضد الانسانية والرحمة وحقوق الضعيف ومصالح الاجتماع . فانه يجب اقتناؤها والاخذ بها من حيث الدفاع عن البيضة ومقابلة الشر بالشر كما قال الصديق رضي الله عنه قاتلهم بما قاتلوك به ومن هنا نشأت مشكلة المشكلات التي لا حل لها وهي (سلم . وتسليح) وكل من المبدأين مناقض للاخر فنحن معها كما قيل .

جعلت الدنيا لنا فتنة   والحمد لله على ذالكا
قد أجمع الناس على ذمها   وما نرى منهم لها تاركا

(يتبع)

(*) دعا الى تاخير هذا المقال العالي عن عدد سبق تحضير مواد ذلك العدد واليوم نبادر بتحلية هذا العدد به شاكرين فضل صاحبه الشريف العلامة ومستزيدين من فيوضه على هذه المجلة

لامرأة من أسلم يقال لها رفيدة قال ابن عبد البر في ترجمتها من الاستيعاب : وكانت امرأة تداوي الجرحى وتحتسب نفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين وكان رسول الله عليه وسلم قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق اجعلوه في بيت رفيدة حتى أعوده من قريب . وقد ذكر البلادري أن عمر بن الخطاب مر عند مقدمه الجابية من أرض دمشق بقوم مجذومين من النصارى فأمر أن يعطوا الصدقات وأن يجري عليهم الوقف . ووقف عثمان ابن عفان محلة سلوان في ربط القدس على ضعفاء البلد . فعلى هذا الوليد بن عبد الملك هو أول من اشتهر عنده من ذكر ذلك بالاهتمام بالمرضى والزمنى وتوسع في التوسيع عليهم اتباعا لظروف الفتح ولذا قالوا إنه أعطى لكل مقعد خادما ولكل أعمى قائدا .

وفي سنة ١٧٢ أمر المهدي العباسي أن يجرى على المجذومين وأهل السجون في جميع الافاق ، وبذلك عرفت أن القوم كانوا يخصون المجذومين بأماكن خاصة لئلا تسري العدوى منهم الى غيرهم . ويظهر مما ذكره الرحالة ابن بطوطة في رحلته ان سلطان المغرب أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الموحدي كتب الى السلطان نور الدين الشهير ينبهه على أن يبني مارستانا للمرضى من الغرباء ويحبس عليه الاوقاف ويبني الزوايا بالطرق ه إن فكرة بناء المارستانات كانت فكرة ذائعة في زمن السلطان يوسف المذكور بالمغرب وكانت وفاته سنة ٥٠٨ ومن المستحيل أن يأمر غيره بما لم يقم به هو في بلاده . وعلى طريق يوسف المذكور جرى ولده السلطان يعقوب المنصور الموحدي المتوفى عام ٥٩٥ ففي ترجمته من روض القرطاس لابن أبي زرع أنه بنى المارستانات للمرضى والمجانين الخ . قال : وأجرى الانفاق على أهل المارستانات والجذمى والعميان في جميع عمله وبنى الصوامع والقناطر والجباب للماء في البرية واتخذ عليها المنازل وبنى المنازل من سوس الاقصى إلى سويقة بني مصكود وكانت أيامه زينة الدهر وشرفا لاهل الاسلام . وفي ترجمته من المعجب في تلخيص أخبار المغرب للشيخ عبد الواحد بن علي المراكشي أنه بنى بمراكش مارستانا قال : ما اظن أن في الدنيا مثله وذلك انه تخير ساحة فسيحة في أعدل موضع في البلد وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخاريف المحكمة ما زاد على الاقتراح وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الاشجار والمشمومات والماكولات وأجرى فيه مياها كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على أربع برك في وسط أحداها رخام أبيض ثم أمر له من الفرش الثمينة من أنواع الصوف والكتان والحرير والاديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت وأجرى له ثلاثين دينارا في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجا عما جلب اليه من الادوية وأقام فيه من الصيادلة لعمل الاشربة والادهان والاكحال وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء فاذا نقه المريض فان كان فقيرا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يشتغل وإن كان غنيا

دفع له ماله وتركه وسبيله ولم يقصره على الفقراء دون الاغنياء بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل اليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت. وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخل ويعود المرضى ويسأل عن أهل كل بيت بقوله كيف حالكم وكيف القومة عليكم إلى غير ذلك من السؤال ثم يخرج ولم يزل مستمرا على هذه الحالة إلى أن مات رحمه الله هـ ص ١٩١ طبع مصر . وقد قال عن هذا المارستان صاحب الاستبصار في عجائب الامصار : ومن بركاته وضع دار فرج في شرقي الجامع المكرم وهو مارستان المرضى يدخل العليل فيها فيعاين ما أعد فيه من المنازل والمياه والرياحين والاطعمة الشهية والاشربة المقوية ويطعمها ويشربها فتنعشه من حينه بقدرة الله تعالى هـ

وهذا المارستان العظيم الشان من الملاجيء التي أكل عليها الدهر وشرب ودخلت تحت خبر كان ألا ان في عشرة السبعين وتسعمائة انشأ السلطان الغالب بالله السعدي المتوفي عام ٩٨١ بمراكش المارستان الذي قال عنه الافراني ظهر نفعه وأوقف عليه أوقافا عظيمة هـ ومحله اليوم بحومة الطالعة قرب السجن وقد اتخذ اليوم سجنا للنساء ومغتسلا للغرباء والمساكين وهذا حال الدهر الخؤون فسبحان مغير الاحوال من حال الى حال

ولا شك ان هذا العمل من يعقوب المنصور يعد في صدر أعماله الموفقة وهو مما يكتب به الفخر التليد للمغرب والمغاربة بحروف كالجبال تعلو وتطول بطول درنٍ وتدوم بدوامه وهذا غير عجيب عن يعقوب المنصور وذويه في باب الاعمال الخيرية والمشاريع العامة من جهادية وعمرانية وعلمية فهو يتيمة عقد الدولة الموحدية ولا أشكال وربما يستقل مصروفه الطعامي الذي حدده بثلاثين دينار يوميا ولكن عند من يجهل مقدار الدينار الذهبي على عهد الموحدين فانه كان لهم دينار كبير وزنا وعملا على ان اثمان الحاجيات في ذلك الزمان غيرها في هذا الزمان وإذا أردت الايضاح فقس ما كان يأتي به الدينار منذ خمسين سنة وما يأتي به اليوم يظهر لك الفرق ويتضح لك الحال جليا فافهم فأن الدرهم الشرعي كان في أول هذا القرن ربما يكفي لمصروف العائلة تقريبا وهكذا قس الى زمن الموحدين فكيف بالدينار

وما ذهبت دولة الموحدين بخيرها الكثير وشرها القليل حتى برقت بارقة الدولة المرينية ذات الحضارة والنضارة والتأسيسات العمرانية والعلمية بما أربى على عمل السابقين ففي ترجمة السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني المتوفي سنة ٦٨٥ دفين شالة أنه لما استقام له الامر بنى المارستانات للمرضى والمجانين وأجرى عليهم النفقات وجميع ما يحتاجونه من الاغذية والاشربة ورتب لهم الاطباء لتفقد أحوالهم كل يوم غدوة وعشية. وأجرى على الكل المرتبات والنفقات من بيت المال وكذا فعل بالجذمى والعمي والفقراء ورتب لهم مالا معلوما يقبضونه في كل شهر من جزية اليهود كما بنى المدارس لطلبة العلم ووقف عليها الاوقاف وأجرى عليهم بها المرتبات كل ذلك ابتغاء ثواب الله نفعه الله بقصده انظر القرطاس والاستقصا . ص ٣٢ ج ٢

وقال الحافظ أبو عبد الله ابن مرزوق في المسند الصحيح الحسن، في مئاثر أبي الحسن المريني إنه جدد المارستان بفاس وغيره وكان له به أعظم إعتناء وابو الحسن هذا هو الذي يقول عنه ابن الخطيب في رقم الحلل

باني المباني النخبة الشريفة بمقتضى همته المنيفة
وتارك المدارس الظريفة شاهدة بأنه الخليفة
وقاطع الدهر بغير لهو في مجلس معظم أو بهو
أما لتدبير وعلم يدرس أو لبلاد من عدو تحرس
أو لاياد في عباد تغرس أو لثواب ورضا يلتمس
أو نسخ قرءان وعرض حزب أو عدة معدة لحرب

وقد أحيى سبيله من بعده ولده السلطان أبو عنان المتوفي سنة ٧٥٩ والولد سر أبيه وذكر ابن بطوطة في رحلته ان السلطان أبا عنان المريني قد بنى في جميع بلاد المغرب مارستانات ولعل منه المارستان الذي ذكره: ابن الخطيب في كتابه نفاضة الجراب فيمن جمعني معه الاغتراب حين دخل لآسفى عام ٧٦١ قال. وفي هذه البلدة المدرسة والمارستان وعليها نفحة من قبول الله قال وتردد إلي بها صاحب السوق ومقيم رسم المارستان الشيخ أبو الضياء منير بن احمد الهاشمي الجزيري

أما مارستان فاس الذي بجوار سوق العطارين وسوق الحناء فهو مارستان خاص اليوم بالحمقى والمعتوهين ويغلب على ظني أنه من تأسيسات بني مرين وسمي بباب الفرج تفاؤلا بأن يحصل الفرج لمن يحل به وقد سبق عن صاحب الاستبصار أطلاق باب فرج على مارستان مراكش في زمن الموحدين ويوجد في كثير من جهات افريقيا مواضع وقفت لمثل هذا الغرض أطلقوا عليها فرج كما في الجزائر وغيرها

وأول من حفظ لنا التاريخ إسمه من نظار المارستان الذي بفاس العالم الصالح أبو فارس عبد العزيز ابن محمد القروي (بتقديم الراء على الواو) الفاسي أحد شيوخ العلم بفاس المتوفي سنة ٧٥٠ وهو صاحب التقييد على المدونة المنسوب لابي الحسن الصغير كما في مفتاح الشفا لانه كان أكبر أصحابه كما في إبتهاج القلوب وهو مترجم في درة الحجال وجذوة الاقتباس وكفاية المحتاج ونيل الابتهاج وغيرها من كتب الرجال وقد ذكره الشيخ بناني في حواشي الزرقاني على المختصر في باب الجنائز عند قول الشيخ خليل أونسي معه أن عبد العزيز القروي المذكور كان ناظرا على المرستان بفاس يتولى تجهيز الموتى بيده وقد جيء ذات يوم بميت غريب فلما أراد غسله وجد معه بضاعة من الفضة

فيؤخذ من هذه القضية ان هذا المرستان بفاس كان قبل ستمائة وست سنوات له ناظر وهو العالم الصالح المذكور وترجم في الجذوة لمحمد بن قاسم بن أبي بكر القرشي المالقي الغرناطي فقال كان لبيبا لوذعيا جامعا لخصال من خط وكتابة ونظم وشطرنج ثم تولى النظر على المارستان بمدينة فاس في ربيع ٢ عام ٧٥٤ ثم أرخ وفاته سنة ٧٥٧ فهاذا يدل على أنهم كانوا يختارون لنظارة أحباس المارستان أهل العلم والادب والنبل

وفي جغرافية ابن الوزان الفاسي المعروف بليون الافريقي ما يفيد انه كان توظف وهو صغير عدلا بالمستشفى الكبير بفاس عدة سنين باجرة عينها وكان ذلك في ايام الدولة الوطاسية التي يعبر عنها هو بالدولة المرينية لانهما من اصل واحد . ويفهم من كلام ابن الوزان المذكور انه كانت بفاس على عهده اول القرن العاشر الهجري عدة مستشفيات وانها كانت نهاية في الرونق والاتقان وكل غريب دخل المدينة له ان يقيم بهذه المستشفيات ثلاثة ايام وتوجد خارج المدينة عدة مستشفيات لا تقل اتقانا

تفصيل وبيان

بقلم العالم المدرس الشيخ علي النيفر

كانت نشرت في هذه المباركة أجوبة عن أسئلة ثلاث وردت عليها وذلك في عددها الاول من مجلدها الثالث بصحيفة ٣٥ وحيث وقع إطلاق يجب تقييده في السؤال الاول واجمال ينبغي بيانه في السؤالين التاليين فقد رأيت إعادة الاسئلة مع أجوبتها مفصلة مبينة واليك هي

س (١) ما قولكم في إمام جمعة تأخر عن الحضور بالجامع يوم الجمعة حتى أيس من حضوره الجماعة وقرب وقت العصر فقدموا من بينهم من صلى بهم الظهر لعدم من يحسن الخطبة منهم وبفراغهم من الصلاة جاء الامام فهل يؤدون معه صلاة الجمعة أم لا ؟

(الجواب) إن هؤلاء الجماعة معذورون في تركهم الجمعة وأدائهم لها ظهرا حيث كاد يخرج وقت الجمعة الاختياري ولم يكن فيهم من يحسن الخطبة إذ من المعلوم أن الخطبتين شرط في صلاة الجمعة صحة ووجوبا - أما الصحة فهو بمعنى ان الجمعة لا تصح بدونهما ، وأما وجوبا فلانه إذا لم يوجد في الجماعة من يحسنهما بشرطهما وهو كونهما عربيتين سقط وجوب الجمعة عنهم قال الشيخ عبد الباقي ما نصه فإن لم يعرف الخطيب عربية لم تجب اه وقال الشيخ عليش في شرحه على المختصر ما نصه فإن لم يوجد فيهم من يحسنهما عربيتين فلا تجب الجمعة عليهم ثم قال فالقدرة على الخطبتين من شروط وجوب الجمعة اه ولا ينتظرون الامام إلى دخول وقت العصر على مذهب ابن القاسم لان الجمعة كالظهر لا يجوز تأخيرها عن وقتها الاختياري إلا لعذر مبيح نعم لما جاء إمامهم وقد صلوا الظهر فانهم يصلون معه الجمعة إن لم يدخل وقت العصر لتبين إستعجالهم بالظهر أما إن دخل وقت العصر فانهم يعيدونها معه بنية الجمعة تنفلا لا وجوبا حيث سقط فرضهم بفعل ما وجب عليهم أما الامام فلا تجزيه إلا إذا كان معه جماعة غيرهم لم يصلوا تستقل بهم الجمعة

س (٢) ما قولكم في واقعة حال صورتها أن هناك قرية لا تقام بها الجمعة يصلي أهلها الجمعة في قرية أخرى تبعد عنها نحو الاربعة أميال مات بعض أهل القرية الاولى يوم جمعة فرأى أهل قريته ان الاولى

عن التي بداخلها قال وكان لها قبل مداخيل وافرة ولكن ايام حروب ابي سعيد المريني افقرتها وذلك ان السلطان ابا سعيد عثمان بن ابي العباس بن ابي سالم المريني المتوفى سنة ٨٢٣ احتاج الى المال واشار عليه شيطان ببيع اوقاف هذه الملاجيء فعارضته الامة اشد معارضة ووقفت في وجه ما يريد فاجابها احد وزرائه بقوله ان هذه الملاجيء نفسها واوقافها من صدقات اجداد الامير وحيث ذلك كذلك فللملك ان يفوت هذه الاوقاف ويصرفها في مصالح الملك فاذا انتهت الازمة اعاد شراء الاملاك فبيعت هذه الاوقاف ماسوفا عليها وكانت عاقبة السلطان خسرا فمات مقتولا داخل قصره، ولم ترجع المستشفيات الى حالها

(يتبع)

الاشتغال بمؤن تجهيزه ودفنه وإن كان ذلك مؤديا بهم الى ترك صلاة الجمعة لانهم إذا أخروا ذلك الى ما بعد صلاة الجمعة تأخر أمر الجنازة إلى ما بعد العصر وربما لم يفرغوا منه إلا بعد الغروب وأراد إمام قرية الجمعة تأخير أمر الجنازة إلى ما بعد صلاة الجمعة ليتسنى الجمع بين الفضيلتين وتنازع الفريقان في ذلك فما وجه الصواب في هذه القضية ؟

(الجواب) ان ما رآه اهل القريــة من المبادرة بتجهيز الميت وان ادى القائم به الى ترك صلاة الجمعة هو الحق سواء خيف على الميت التغير بسبب التاخير ام لم يخف عليه ذلك اما في الصورة الاولى فلقول حافظ المذهب ابن رشد - ومما يبيح التخلف (اي عن صلاة الجمعة) الاشتغال بجنازة ميت ينظر في امره اذا لم يجد من يكفنه وخشي عليه التغير ان اخره لصلاة الجمعة اهـ . واما في الصورة الثانية فلقول الامام ابن الحاج في المدخل وهو المعتمد كما قاله غير واحد ما نصه قد وردت السنة ان من اكرام الميت تعجيل الصلاة عليه ودفنه وكان بعض العلماء يحافظ على السنة اذا جاؤا بالميت الى المسجد صلى عليه قبل الخطبة ويامر اهله (١) ان يخرجوا الى دفنه ويعلمهم ان الجمعة ساقطة عنهم ان لم يدركوها بعد دفنه فجزاه الله خيرا عن نفسه على محافظته على السنة والتنبيه على البدعة اهـ قال العلامة الاجهوري ما نصه ظاهر المدخل ان السنة ما ذكر حيث دخلوا به وقت الخطبة وان لم يخش تغيره ولا خشي عليه الضياع اهـ فاذا كان تاخير دفن الميت بمقدار صلاة الجمعة بدعة يتحاشى عنها فتاخيره الى الغروب اشد ابتداعا كل هــذا بالنسبة للقائمين بامــر الميت ، خصــوصا اذا اضفنا الى ذلك كله عدم وجوب صلاة الجمعة على اهل قرية الميت حيث كان بين قريتهم وقرية الجمعة مسافة لا يجب عليهم معها السعي لصلاة الجمعة

س (٣) ما قولكم في حادثة تشبه الحادثة قبل هذه غير ان قرية الميت تقام بها الجمعة والخطيب هو الغاسل والوقت عند الزوال ايهما اولى للامام تقديم الجنازة وتاخير صلاة الجمعة الى وقت اصفرار الشمس ام تقديم صلاة الجمعة وتاخير الجنازة الى الاصفرار

(الجواب) ان السنة في الجنازة ان لا تاخر كما تقدم عن ابن الحاج في المدخل والامام يصلي الجمعة بالناس ويتولى غسل الميت غيره الا اذا لم يوجد من يحسنه سواه فهاهنا يبادر بغسل الميت وجوبا ان خشي على الميت التغير واستحبابا ان لم يخش تغيره ويؤم غيره في صلاة الجمعة الا اذا كان اهل القرية كلهم اميين لا يحسنون الخطبة فيصلونها ظهرا في آخر وقتها الاختياري ويعيدونها جمعة تنفلا مع الامام وتجزئه هو اذا كان معه جماعة غيرهم لم يصلوا تستقل بهم الجمعة وذلك ما لم تغــرب الشمس فان قدم الامام صلاة الجمعة على غسل الميت في الصورة الاخيرة فليصل على الميت قبل الاصفرار او بعد الغروب لكراهة الصلاة على الميت بعد الاصفرار وحرمتها وقت الغروب والله اعلم

علي النيفر

(١) يظهر من التعليل بالمحافظة على السنة ان التقييد بالاهل خرج مخرج الغالب والمراد من يقوم بدفن الميت وان لم يكن من اهله اهـ مجيب

التاريخ

صفحة من تاريخ تونس

القضاء الشرعي

« ٢ »

نستانف حديث القضاء الشرعي بتونس من حيث انتهائه في العدد الماضي فنقول لما دخلت الايالة التونسية في طاعة ءال عثمان اواخر المائة العاشرة عاد المذهب الحنفي للظهور واخذ مركزه في المقدمة لانه كان مذهب ولاة الامر ولا زال كذلك الى هذا الزمان فامراء الدولة المرادية كانوا من الاحناف وءال البيت الحسيني خلد الله ملكهم من نسل الترك والترك امة حنفية حنيفية وبديهي ان الترك اتخذوا لهم قاضيا من اهل مذهبهم عند اخذهم مقاليد الامور بايديهم كانوا ياتون به من اسلامبول ثم يبداونه بعد ثلاث سنين بقاض ءاخر من بلادهم وهلم جرا وكان سيدنا عمر يبدل قضاته بعد اجل معلوم كعامين او نحو ذلك وهكذا كانوا في الدولة الحفصية فان متولي القضاء في مدة السلطان ابي عمرو عثمان لا يبقي في خطة القضاء بجهة معينة اكثر من ثلاث سنين ثم ينتقل لغيرها الى ان يتصدى لقضاء الحاضرة ثم يتصدى للفتوى والشورى بين الناس وما اوقع لفظ الشورى في الاسماع ترتاح لذكره النفوس وتقول لاعطر بعد عروس . قال الشيخ محمد بيرم الثاني في شرح رسالة المفتيين : اول المفتين بتونس على المذهب الحنفي هو الشهير برمضان افندي وقد كان قدم اليها من الروم (اي بلاد الترك) بوظيفة القضاء على العادة ايام يوسف داي التي كان بدؤها عام تسعة عشر بعد الالف فلما استوفى مدته ورام العود اليها منعه ذلك الداي وقلده الفتوى اه قلت اول قاض حنفي انتصب عند الفتح العثماني فيما حكاه المؤرخ حسين خوجة في بشائر اهل الايمان هو المولى حسين افندي الحنفي عينه لخطة القضاء الوزير سنان باشا في جملة الانظمة التي وضعها عند ترتيب ديوان الحكم في سنة ٩٨١ وبعد ان اتم مدته قام مقامه قاض تركي ءاخر لمدة ثلاثة سنين وهلم جرا الى ان ءالت خطة القضاء للمولى علي افندي من فقهاء الترك وكان اصله من الجزائر قال في بشائر اهل الايمان : انه جاء من اصطنبول الى تونس بوظيفة القضاء فطلب نائبا (مالكيا) فلم تطب نفسه بنائب من علماء الوقت الا بالشيخ ساسي نوينه (كان موجودا على راس الالف) فطلبه للنيابة فابى فراوده فامتنع فقال له ءاخر مرة ان لم تتول النيابة لامتين بقتلك على مذهبك فلما سمع مقالته لم يسعه الا الامتثال فتولى النيابة المذكورة اه وهكذا استرسل الحال بولايه قاض جديد من الترك عند شغور الخطة بانتهاء مدة متوليها الى ان تولاها الشيخ محمد قارة خوجه الخ تولاها الشيخ محمد قارة خوجة المشهور ببرناز ومعنى برناز-

ذو الانف الطويل في اللسان التركي (والعامة يسمونه خشمون في تونس) وبرناز هذا كان من ابناء تونس وابوه من رجال الفتح العثماني فكان هو اول قاض حنفي تونسي عدل به اذ ذاك عن استدعاء قاض من الترك ومات الشيخ برناز قتيلا سنة ١٠٨٤ فيما حكاه صاحب كتاب بشائر اهل الايمان، على انهم لم يجعلوها قاعدة مطردة ، الا ابتداء من مدة الباشا علي باي الاول باشا فانه انف ان تكون ولاية قاضي الحضرة بغير اختياره وتعلل بان اغلب سكان البلاد من العرب لا يحسنون اللغة التركية فهم لا يفهمون مايقوله القاضي التركي ولا هو بدوره يفهم ما يقولون ولا هو عليم باخلاقهم واحوالهم ومعرفة ذلك من شروط القاضي فعند ذلك فوض له الباب العالي باختيار القاضي من العلماء الحنفية بتونس فكان اول قاض حنفي تولى القضاء بها باختيار الباي هو الفقيه الشيخ احمد الطرودي في سنة ١١٥٧ ثم الحق به قاض على المذهب المالكي الزكي ولم يكن قبل ذلك للجماعة المالكية سوى نائب قاض ينفذ عنه احكامه القاضي الحنفي واول من تولى نيابة القضاء المالكي على عهد حكومة الاتراك هو الشيخ ساسي نوينة كما سبقت الاشارة لذلك واسترسلت مباشرته لهذه النيابة في الدولة المرادية وممن تولاها بعده في العصر الحسيني الشيخ احمد الرصاع وابنه الشيخ قاسم وحفيده الشيخ حمودة باشروا نيابة القضاء المالكي على عهد المولى حسين بن علي وباشرها بعدهم الشيخ حمودة الريكلي وكانت ولايته سنة ١١٥٥ واول من تولى قضاء المذهب المالكي بالاستقلال هو الشيخ محمد سعادة (١) كان قاضيا مالكيا بتونس في وقت

ترجم له في بشائر اهل الايمان ونوه بقدره ونقل شيئا كثيرا من اخباره ورحلته وترجم له باوسع من ذلك في كتاب مسامرات الظريف ونقل نتفا من ادبه وقال انه تقدم للقضاء ثم للفتوى ثم لرئاسة اهل الشورى يعني كبيرا للمفتين على المذهب المالكي وقال ان الباشا علي باي امتحنه بالعزل من جميع خططه وسماها له واحدة واحدة فقال له الشيخ سعادة بقي عندي وظيف ءاخر لم تعزلني منه فقال له الباشا ما هو فقال له الشيخ وظيفة العلم الذي في صدري وبعد مدة اعاد عليه جميع وظائفه — قلت كان فقيها اديبا ناظما ناثرا له باع طويل في التاريخ من ذلك اخبار دولة المولى حسين بن علي وابنه المولى محمد الرشيد باي ومن اجلهما وضع كتابه المسمى قرة العين تضمن ارجوزة تربو على المائتي بيت في معنى الصادح والباغم في الحكم والامثال وكان مرجع اهل العلم في الفتوى يدلك عليه هذه الابيات التي خاطبه بها العلامة الاديب الشيخ احمد العصفوري في نازلة في العمرى أفتى فيها شيوخ العلم وطلب منه الافتاء فيها :

اری المفتين قد وضعوا خطوطا ... بفتياهم لنا حصلت افادة
وما زبرت يداه الشيخ حتى ... نراها مثل واسطة القلادة
لقد سبقت سعادتنا يقينا ... اذا ختمت بخط من سعادة

وقد اجابه عن سؤاله بما يشفي الغليل من ذلك قوله

تاملت السؤال وما علاه ... من العمرى المسطرة المفادة
وما زبر الشيوخ امام رقمي ... ويمناه لسائلهم افادة
فالفيت الجميع اجاد فيما ... اجاب به واغنى عن زيادة

له حاشية على شرح الاشموني سماها تقرير المسالك وله نظم بديع في مناسك الحج وله غير ذلك توفي رحمه الله سنة ١١٧١

واحد مع الشيخ احمد الطرودي قاضي الحنفية على عهد الباشا علي باي الاول كما اسلفنا فيكون النظام الشرعي المزدوج الموجود لهذا الزمان ارتكز اساسه المتين في العقد السادس من القرن الثاني عشر ويكون قد انقضى عليه قرنان كاملان فهو نظام باركت عليه يد الدهر بمسحة الخلود ، على ان وجود قاضيين من مذهبين مختلفين للحكم في وقت واحد ببلد واحد كان موجودا بالقيروان في عصر الاغالبة فان الامير زيادة الله ابراهيم بن الاغلب استقضى في وقت واحد ابا محرز الكناني من ائمة المالكية واسد ابن الفرات من ائمة الحنفية وقد نقل القاضي الشيخ محمد سعادة المتقدم ذكره ان الامام ابن عرفة افتى بجواز تولية قاضيين ببلد واحد على ان يخص كل واحد منهما بناحية من البلد او نوع من الحكم فيه لان هذه الولاية (اي القضاء) يصح فيها التخصيص والتحجير ولو استثنى في ولايته ان لا يحكم على رجل معين صح ذلك اه قلت وازيدك اخرى وهو انه وجد بمصر في سنة ٦٦٣ على عهد الملك الظاهر بيبرس اربعة قضاة كلا منهم متمذهب بمذهب .

هذا وكان لجانب كل من القاضي الحنفي والقاضي المالكي ولجانب نائب القضاة ايضا مفت من اهل مذهبه يرجع اليه عند الاقتضاء فكان اول مفت على المذهب الحنفي بعد الفتح العثماني الشيخ رمضان افندي واول مفت مالكي الشيخ سالم النفاتي مؤسس مجد البيت النفاتي (١) وكان جلوسهم بدار الباشا التي اقام على انقاضها الوزير مصطفى بن اسماعيل في سنة ١٢٩٦ داره بتونس وبمكانها اليوم مدرسة البنات المسلمات الواقعة بنهج الباشا وهذا النهج اطلق عليه المجلس البلدي اذاك اسم نهج المصطفية نسبة لاسم الوزير السالف الذكر فذهبت هذه التسمية الجائرة ادراج الرياح ولم يحفل بها احد وبقي نهج الباشا على تسميته كما كان وكان انعقاد مجلس الشيوخ للحكم صباح الخميس من كل اسبوع وهي سنة حفصية قررتها الدولة المرادية وجرى بمثلها العمل في الدولة الحسينية الى سنة ١٢٥١ وفيها اقيم شيخ اسلام للجماعة المالكية اتماما للتسوية المعنوية بعد التسوية الحسية الموجودة من قبل بين علماء المذهبين الشقيقين والغي لقب الباش مفتي بتونس وبطل استعمال العنوان الجليل المتلبس بلقب كبير اهل الشورى الذي مضت عليه القرون واذاك تقرر انعقاد المجلسين كل منهما بانفراده فاحتفظوا بيوم الخميس للسادة الحنفية كما في القديم وعينوا يوم الاثنين لاجتماع السادة المالكية . واول عهد باجتماع القاضي والمفتي في مجلس واحد وهو مجلس الحكم كان في زمن الدولة المرادية وفي مدة مراد باي الثالث الذي تولى الحكم في سنة ١١١٠ اضافوا للمفتي الحنفي وهو الشيخ عبد الكريم درغوث مفتيا

(١) من اشهرهم واوسعهم عارضة في العلم المفتي الشيخ علي النفاتي قال في مسامرات الظريف انه اتى بخط شريف من دار الخلافة في تنفيذ حكم كل من القاضي والمفتي من غير ان يسال واحد منهما عن نص المسالة بعد ان كانت العادة ان الخصم يسال كل عالم ويطلعه على المسالة وله ان يعارض بها القاضي او المفتي في مجلس حكمه وبذلك حصل للشيخ صيت عظيم وتوفي في طريق الحج سنة ١٠٤٩ اهـ

ثانيا حنفيا فكان هو الشيخ علي الصوفي وسنعود للكلام عليه عند التعريف بمسند مشيخة الاسلام الجليلة ثم توسعوا بالزيادة في عدد المفتيين الحنفيين فكانوا اربعة ثم خمسة في اواسط القرن الماضي وكانت الفتوى في الدولة الحفصية بدرجتين فتوى بالنص والكتاب المسطور وهي الدرجة الاولى وفتوى بالنص والقول المنثور (الشفاهي) وهي الدرجة الثانية فالغيت هذه وابقيت الاخرى للجميع (١) وعلى ذلك القياس كان العمل بالنسبة لاهل المذهب المالكي فقد كان لهم من المفاتي مثنى وثلاث ورباع قال في مسامرات الظريف انهم كانوا ثمانية في الدولة المرادية وزيادة على ذلك فان قاضي المحلة في الدولتين الحفصية والمرادية كان من فقهاء المالكية ومنهم ايضا كان قاضي باردو في الدولة الحسينية وباردو كان موجودا في المائة السابعة وما بعدها بعنوان دور وبساتين ومنتزهات لبني حفص سكنه بعدهم المراديون بالعنوان المذكور فلما افضت الولاية للمولى حسين بن علي اتخذه دار ملك ونصب به قاضيا مالكيا كما اسلفنا وكان هؤلاء القضاة هم المترشحون لقضاء الجماعة بتونس وتبعا لذلك كان قاضي الفريضة من المالكية ايضا وكان يجلس ببيت المال وبيت المال كانوا يسمونه بيت الحساب على عهد الدولة الحفصية فيما حكاه الفقيه الزركشي مما يدل وانه كان لهم ديوان منتظم الاحوال لضبط حساباتهم وكان القائم على راس هذا الديوان وزير المال ويسمونه في مصطلحهم صاحب الاشغال ويكتب عليه شاهد لقبه شاهد التنفيد وفي كتاب ابتسام الغروس لما توفى ولي الله سيدي احمد بن عروس تولى جنازته صاحب الاشغال بامر السلطان محمد المنتصر الحفصي. وعلى قياس قاضي الفريضة كان قاضي الاهلة وما مازالت احكام الرؤية حتى في هذا الزمان جارية على قواعد مذهب امام دار الهجرة رضي الله عنه لان لان ازدواج الحكم بما انزل الله في حالة وجود مذهبين قائمين في وقت واحد ببلد واحد قاد اهل الامر والنهي للبحث عن ايسر الطرق لاقامة قسطاس الشريعة بين الناس

وكلهم من رسول الله ملتمس غرفا من البحر او رشفا من الديم

لذلك جعلوا النظر في بعض المسائل الشرعية من علائق المذهب المالكي كما جرى بمثله العمل في بعض المسائل الاخري التي خصوها بالمذهب الحنفي كالتحابيس التي يكفي في انعقادها قولك حبست على ما افتى به الامام ابو يوسف رضي الله عنه وهذا اقصى درجات اليسر اذ يتم المقصود منه بكلمة واحدة

ولا يوجد في زماننا هذا ادنى ميز او شبه ميز بين قاضي المذهبين فهما اخوان في الله شقيقان في العلم مستويان في الحظوة والحظوظ متحدان في الحقوق والواجبات حصل بينهما هذا التساوي

---

(١) هي الفتوى بمشهور المذهب حتى اذا اختلف الشيوخ في الراي كان الامير حكما بينهم يعني بترجيح شق على شق بصفته قاضي القضاة التي هي من حقوقه الشرعية

الحق كحصوله بين بقية شيوخ المذهبين في عهد المشير احمد باي الاول سنة ١٢٥٦ والى ذالك يشير شيخ الشيوخ وطود الرسوخ ابو اسحاق ابراهيم الرياحي بقوله

جرى لبن من ثدي احمد فارتوى   بـه حنفي في الاخاء ومالكي

واكد الباي هذه المنقبة الخالدة بالاذن لقاضي المالكية يومئذ وهو صديقه الشيخ محمد بن سلامة باتخاذ طابع له كقاضي الحنفية . نعم ان الوزير خير الدين اجرى في اواخر القرن الماضي جراية استثنائية لشيخ الاسلام واخرى بنحو نصفها للقاضي المالكي ولكن ذلك كان في مقابلة مشاركتهما لـه في خدمات خصوصية اثنـاء انجازه لمشروع الاصلاح الـذي قـام بـه يومئذ لفائدة البلاد التونسية على ان كافـة شيوخ المجلسين . كانوا في ذلك الزمان وقبله متمتعين بمنح استثنائية كثيرة منها تزويد من يتقدم منهم للخطة الشريفة بفرس وسرج لركوبه ولقد رايت في كناش الشيخ الجد ان البـاي بعث لـه « بفرس هشوش وحكـة نشوق بعطر الفشوش » (١) ولمـا راج سوق العـربات وهي الكروسة (٢) صارت الدولة تسعفهم بعربة لركوبهم فـقد رايت في بعض التـقاييد ان البـاي احسن بثلاثـة ءالاف وستمائة ريال للقاضي الشيخ الطاهر النيفر بعنوان كروسه لركوبه في عـام ١٢٩١ وكانوا يعطونهم الجـوخ (الملف) اللازم لكسائهم والعلف اللازم لدوابهم وكان من يلتحق منهم بالـدار الاخـرة تتولى الدولة القيام بشئون مأتمه تنويهـا بشانه واحتراما لمنصبه الشرعي فكان مصروف جنـازة المفتي الشيخ علي العفيف في رجب ١٢٩٢ ريالات ٢٤٨٠ على يـد شيخ المدينة . فان قلت ان سلطة القاضي الشرعية كانت شاملة جامعة في القرون المتقدمة وهاهي اليوم باتت منحصرة في قانون الاحـوال الشخصية وفي نوازل الاستحقاق بين الرعايا قلنا ان هذا التجريد لم يكن من عمل اهل جيل واحد بل هو نتيجة تطورات كثيرة في احيال متتابعة افضت بنا لما نحن عليه ومن المعلوم ان سفينة الدهر تجري في مجاري المشيئة فحسبنا الدعاء بان يكون مرساها على ساحل السلامة ومهمـا كان الحال فقد بقي للقاضي الشرعي ولشيوخ الفتوى زيادة على وظائفهم القضائية مهمتهم الدينية وهـذه ولله الحمد لازالت في قـرار مكين واسعة المدا سميعة النداء ملتحفة برداء التعظيم والاجلال معتزة بالسودد والكمال وسنوفيها حقهـا ان شاء الله في العدد القابل مع التعريف بمسندي مشيخة الاسلام وعلاقة اهـل العلم باهل الدولة ونختم كلامي اليوم بسرد اسماء مشائخ المذهبين الذين تسنموا ذروة القضاء الشرعي بتونس في بحر المائتي سنة المتصلتين بعامنا الحاضر مع بيان تاريخ الولاية والحمد لله في البداية والنهاية

---

(١) هذه الحكة كانت مرصعة بالحجارة الكريمة والشيخ الجد كان زاهدا في دنياه ورده الحديث واكله ما حضر فدفعها لزوجته وهذه باعتها واشترت بثمنها دارا بجبل المنار

(٢) لفظ معرب من Carrozza في اللغة الطليانية . قال في المونس ان ظهـور الكروسة بتونس كان على عهد الدولة المرادية جيء بها (من اروبا) لركوب حمودة باشا المرادي

القضاة الحنفية

الشيخ	احمد الطرودي	تولى سنه	١١٥٧
«	يوسف القفال	«	١١٦١
«	مصطفى الطرودي	«	١١٦٧
«	علي الجربي بن عمر	«	١١٧١
«	عمر بوشناق	«	١١٧٢
«	خليل خوجه	«	١١٧٧
«	مراد بوسيكه	«	١١٨٠
«	محمد قاره باطاق	«	١١٩٠
«	محمد بيرم الثاني	«	١١٩٢
«	حسونه الترجمان	«	١١٩٣
«	محمد بيرم الثاني (مرة ثانية)	«	١١٩٤
«	حسين برناز	«	١٢١٥
«	احمد بن الخوجه الاول	«	١٢١٩
«	مصطفى دنقزلي	«	١٢٢٩
«	علي الدرويش	«	١٢٣٢
«	محمد بن الخوجه	«	١٢٥١
«	محمود بن باكير	«	١٢٥٩
«	مصطفى بيرم	«	١٢٦٢
«	احمد بن الخوجه الثاني	«	١٢٧٧
«	حسن بن الخوجه	«	١٢٧٩
«	محمد البارودي	«	١٢٨٥
«	محمد بن مصطفى بيرم	«	١٢٩٠
«	محمود بيرم	«	١٣٠٩
«	اسماعيل الصفايحي	«	١٣١٥
«	محمود بن محمود	«	١٣٢٥
«	محمد بن القاضي	«	١٣٣١
«	محمد رضوان	«	١٣٣٥
«	الطيب بيرم	«	١٣٤٩
«	محمد دامرجي	«	١٣٥١

القضاة المالكية

الشيخ	محمد سعادة	تولى سنة	١١٥٧
«	محمد الوافي المثلوثي	«	١١٧٠
«	محمد الكافي	«	١١٧١
«	ابراهيم المزاج	«	١١٧٢
«	سعيد الشيبوني	«	١١٧٥
«	محمد سويسي	«	١١٩٩
«	محمد الطويبي	«	١٢٠٤
«	عمر المحجوب	«	١٢١٧
«	اسماعيل التميمي	«	١٢٢١
«	احمد بوخريص	«	١٢٣٠
«	اسماعيل التميمي مرة ثانية	«	١٢٣٠
«	سالم المحجوب	«	١٢٣٤
«	الشاذلي بن المؤدب	«	١٢٤١
«	البحري بن عبد الستار	«	١٢٤٢
«	محمد السنوسي بن منيه	«	١٢٥٤
«	محمد بن سلامه	«	١٢٥٥
«	محمد البناء	«	١٢٦١
«	محمد النيفر	«	١٢٦٣
«	الطاهر بن عاشور الاول	«	١٢٦٧
«	صالح النيفر	«	١٢٧٧
«	محمد النيفر	«	١٢٨٠
«	الطاهر النيفر	«	١٢٩٠
«	الطيب النيفر	«	١٣١١
«	محمد القصار	«	١٣٢٥
«	الطاهر بن عاشور الثاني	«	١٣٣١
«	الصادق النيفر	«	١٣٤١
«	صالح المالقي	«	١٣٤٧
«	الطيب سياله	«	١٣٥٢

صفحة من تاريخ تونس

صلة تونس بالدولة العلية

بعثة خير الدين للاستانة

في سنتي ١٢٨١-١٢٨٨

« ٢ »

للعالم امير الامـراء الاستاذ
محمد صالح مزالي عامل بنزرت

« ٥ »

مكتوب من الوزير الاكبر مصطفى خزندار

الى الوزير خير الدين مؤرخ بيوم الاحد في ٢٠ رجب سنة ١٢٨١

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى ءاله وصحبه وسلم

الهمام المفخم الوزير امير الامراء وعمدة اعيان الكبراء السيد خير الدين ادام الله تعلى حراسته وحفظه اما بعد السلام التام عليكم ورحمة الله تعلى فان مكتوبكم المؤرخ بيوم الثلاثاء سابع شهر التاريخ بلغنا وكذلك مكتوبكم الخصوصي وكذلك ما الحقتموه بالبطاقة من تعيين يوم مقابلة مولانا السلطان وعلمنا جميع ما تضمنته وشكرنا الله تعلى اولا على عافيتكم ثم على ما حصل لكم من العناية والاكرام وسر مولانا ايده الله تعالى بجميع ذلك وقد كاتبناكم قبل هذا بما يغني عن الاعادة والواصل لكم صحبة هذا مكتوب من دار ارلانجي لنائبها باسلامبول ليكون لكم (كريدي) بمائتي الف فرنك تاخذها هناك اذا لزمكم ذلك الخ (لا يهم موضوعنا نقل البقية)

هذا ما بلغ اليه جهد المقل من البحث والتحري في ضبط اسماء البعض من هؤلاء الشيـوخ ولا سيما اهل الطبقة الاولى الذين تولوا القضاء في اواسط القرن الثاني عشر اذ من المحتمل ان تواريخ واسماء بضعة نفر منهم غير مطابقة للواقع وكان من العسير علينا تحرير ذلك كما هــو الحال في اسم الشيخ الثالث في السلسلة المالكية لاني سمعت من بعض شيوخ المذهب من يشك في صحة نسبه ويقول ان لقبه ربما كان القاضي لا الكافي كما اني لست على يقين من صحة اسم الشيخ الخامس في تلك السلسلة وهو الشيخ الشيبوني اذ لم نجد له ذكر فيما ادينا من كتب التراجم التونسية وهي قليلة جدا بالنسبة للقرنين الحادي عشر والثاني عشر

سقى لحد من بانوا وقد ضاجعوا الثرى — غمام الرضى حتى يرى روضة خضرا
وعـامـل من لـم يأتـه اجـل — بلطف له في هذه الدار والاخرى

محمد بنَ الخوجة

« ٦ »

مقتبس من مكتوب صادر من المستشار محمد البكوش

بتاريخ الثامن والعشرين من رجب سنة ١٢٨١

الحمد لله – سيدي ومعتمدي بعد اهداء السلام وتقبيل الايدي الكرام واداء ما يجب من الاجلال والاعظام......

اما اخبار تونس الدارجة في شان وجهة السيادة فانها مسرة للغاية والشكر لله تعلى وشائع عند الاجانب واهل البلاد ان الاكرام الذي حصل للسيادة لم يحصل لاحد الا لاسماعيل باشا مصر...

« ٧ »

نص مكتوب من المؤرخ الاكتب احمد بن ابي الضياف

حرر يوم الثلاثاء في ٢٨ رجب سنة ١٢٨١

الحمد لله – وصلى الله على سيدنا محمد وعلى ءاله وصحبه وسلم

سيدي وسندي والعروة الوثقى التي علقت بها يدي الوزير امير الامراء سيدي خير الدين ادام الله اجلاله وحرس كماله اما بعد السلام المديد لحق المقام بالسؤال عن احوالكم لا زالت ان شاء الله طوع ءامالكم ونحن والشكر لله بخير وعافية لا يخصنا الا الاجتماع بكم في اسعد الاوقات على احسن الحالات وقد كاتبناكم قبل هذا بما نرجو وصوله لجنابكم وسرنا مكتوبكم المؤرخ في اواسط رجب لا سيما ما في طرته بخطكم حيث قلتم ان ظاهر الامور على ما يسر مولانا ويرضيه وفرحنا بذلك كثيرا واخبركم ان امير الامراء سيدي علي باي سافر بالمحلة يوم الخميس في ١٧ رجب في مشهد عظيم وموكب فخيم والسيد رستم بمحلته الى وطن الكاف ونواجع ونيفة وان الشقي علي بن غذاهم نكث الامان وجمع شرذمة من الاوغاد اغار بهم على محلة السيد رستم عند رحولها فردهم الله على اعقابهم وشتت المدفع شملهم ومات منهم نحو الاربعين ونجى ابن غذاهم براس طمرة ولجام وخفي موضعه وقطعت نيته وكفى الله المؤمنين القتال والسيد احمد زروق لم يزل بالساحل واسركم ان اخباركم بتونس تعطر الارجاء وتقوي الرجاء والله ولي اعانتكم وهو المسئول ان يجمعنا بكم في اسعد الاوقات والسلام من كاتبها على جناح عجل احمد بن ابي الضياف (وبطرته) ومات من محلة السيد رستم نفر واحد فقط والظاهر ان محلة الباي تقصد اعراب ونيفة الآن والسلام

« ٨ »

مقتبس من مكتوب صادر من الوزير الاكبر مصطفى خزندار

بتاريخ الثامن والعشرين من رجب سنة ١٢٨١

الحمد لله وصلى على سيدنا ومولانا محمد وعلى ءاله وصحبه وسلم

الهمام المفخم امير الامراء الوزير السيد خير الدين حرسه الله تعلى السلام عليكم وبعد فان

كتابيكم المؤرخين في ١٥ شهر التاريخ بلغا الينا وعلمناهما ويوم التاريخ اجبناكم عنهما بمكتوبين مؤرخين بالتاريخ حاصلهما ان مولانا دام عزه وعلاه علم مقابلتكم للجناب الفخيم السلطاني وللوزراء واستحسن ايده الله تعلى الطريق الذي سلكتموه وسر ايده الله تعلى بحسن المقابلة التي ذكرتموها ...... (لا حاجة لنا هنا ببقية المكتوب)

« ٩ »

نص الجواب الصادر من المولى الصادق باي

الى الصدر الاعظم المشير السيد محمد فؤاد باشا مؤرخ في ذي القعدة سنة ١٢٨١

الحمد لله – اما بعد التحية المناسبة لرتبتكم العلية وفخامتكم التي هي عن الشرح غنية فانه بلغ لمعظم قدركم العالي الكتاب العظيم الوفادة الكثير الافادة المتضمن لبيان الخير وطرق السعادة فانشرح لمرءاه فؤادي ورايته من اثار صدق نيتي المؤسسة على صدق نية ءاباءي واجدادي وتعرفت منه ما ملأ العين احسانا والقلب استحسانا وافاض المسرة سرا واعلانا وحسبته من نتائج عمري والايات الدالة بفضل السلطنة العلية على فخري حيث تضمن رضى السلطنة العلية على العبد الفقير واحله بالثناء على سيرته المحل الاثير وافاده تقرير عاداته المعروفة المقررة المالوفة وشرح لنا الهمام المفخم الوزير امير الامراء ابننا خير الدين ما شاهده من الاعتناء الذي جنابكم اهله ومكانتكم العالية محله مع ما اتصل بذلك من الالتفات اليه من حضرة سلطنة الاسلام العلية وتشريفها له بما هو معهود من مكارمها السنية عنايات سلطانية جارية على ما نعهده نحن وءاباؤنا من الخلافة العلية والفخامة العثمانية اذ لم تزل ءاثارها متواردة والالسن والقلوب على معرفة قدرها متعاضدة فقد شاهدنا عيانا ءاثار مرضاتها التي افصح بها الكتاب الكريم المتلقى بالاجلال والتكريم لانا لا نشك في ان ذلك اصل الاسباب التي اعانت على رفع ما عرض من التخيير في الوقت القليل بالعمل اليسير واعتناؤها الرفيع العالي واعانتها المدعمة للسابق بالتالي وعنايتها بالعبد الفقير حيث تفضلت على وزيره الاكبر بنيشان الافتخار المرموق بعين الاجلال في سائر الاقطار التي تتوجه اليه الاطماع وتفتخر به الاشخاص والبقاع اذ من المقرر المعلوم المسموع ان العناية بالتابع عناية بالمتبوع خلد الله تعلى لهذه الخلافة الاسلامية سلطانها وبصرها للخير ولعانها وعمر بما يرضيها ازمانها وجعل التاييدات الالاهية اعوانها ولا غرابة في اعتناء سلطنة الاسلام الحامية للانام بما يعود عليهم بصلاح الامور ورعاية حال الخاصة والجمهور اذ ظهور الفضل من موضعه عادة مالوفة واشراق النور من مطلعه سنة معروفة وما هذا باول اعتناء تعرفناه وتعودنا به والفناه فطالما تواردت علينا من السلطنة العلية النعم وتناسقت وتبارت الافكار في معرفة مقاديرها وتسابقت نعم يقصر عن اداء شكرها لساني ولذلك اوكلت الجزاء عليها لمن يعلم سري واعلاني غير اني اجعلها ملهج لساني ونصب عياني ونرجو ان لا تزال متواردة الامداد على ممر الاماد غير منحصرة بعد ولا منتهية الى حد واني على يقين من أن جنابكم العالي من اعظم اسباب هاته النعم التي يقصر عن بيان قدرها لسان القلم اذ باب السلطنة هو الوزير وذلك هو المقطوع به عن كمالكم الشهير ومقامكم الكبير وان لساني يردد شكر مزاياكم المتكاثرة ومحامدكم المتواترة فلا زالت كمالاتكم واضحة الاشراق وسياستكم زينة

تهنئة الامير احمد

الملك المعظم

بمولد الرسول احمد صلى الله عليه وسلم

يا مولد شرفت به عدنان — وتعطرت بأريجه الاكوان
بشرى لنا بوجوده ووروده — سرت بها الاجفان والآذان
بمحمد سر الوجود ونوره — صلى عليه الخالق الرحمن
إرساله والفضل لله به — للعالمين هداية وأمان
في عام مولده وقاية مكة — والفيل عنها رد والحبشان
فهم وبيت حجيجهم حاقت بهم — بين الانام مهانة وهوان (١)
بركاته درت بها لحليمة — ولام معبد في العجاف لبان (٢)
ويرى بليل ما يرى بنهاره — وسيان خلف والوراء عيان
وإذا غفا والنوم من طبع الحيا — ففؤاده حال الكرى يقظان

الافاق ومما ننهيه الى جنابكم الرفيع انه عند ما يقتضي الحال الذي لا يمكن بمقتضى ما يعلمه جنابكم الرفيع ترك الالتفات اليه بحال طلب ما عرفنا جنابكم العالي بان الاذن العلي السلطاني ادام الله تعلى تاييده صدر به نطلب ان تشرفنا باصداره والمرغوب من همتكم العاية ومكانتكم السنية انهاء حمدنا وشكرنا للاعتاب السلطانية على ما املناه من اعتنائها واعانتها ووجدناه على نحو ما تعودنا به وعهدناه ودعائنا لها بالامداد وطول الاماد ومثابرتنا على ما تقرر بوزارتكم التي تقرب الصعاب وتدنيها وتغرس اصول السياسة وتجنيها وهو جلب مرضاة سلطنة الاسلام وعصمة الانام ومحافظتنا على اعتبار مننها الجسام والدعاء لها بدوام العز وحماية الاسلام ودمتم . . .

(يتبع) — محمد الصالح مزالي

---

(١) بيت عبادة الحبشة في اليمن اراد الاحباش جعلها حجا عوض مكة ودعوا اليها الناس فقعد فيها عربي نكاية بهم وذلك ما حملهم على هدم مكة واستصحاب الفيل لها

(٢) حليمة السعدية مرضعته صلى الله عليه وسلم وأم معبد امرأة مترجلة تطعم وتسقي المسافرين بين مكة والمدينة طلب منها صلى الله عليه وسلم عند هجرته بيع ما يقتاتون به فاعتذرت بفقد ذلك فمسح بيده الشريفة على ضرع شاة هزيلة هناك فدرت وحلبها ثلاثا حتى روي الجميع وترك منه لابي معبد المتغيب في رعي الشياه

لولاه ما عبد الآله حقيقة — بل ما درى الانسان ما الايمان
لما دعا الاقوام للدين السوي — لباه شكرا أنسهم والجان
أتباعه سعدت به دنياهم — ولهم بأخرى الفوز والغفران
يحظى ويرضى مادح لمحمد — من فيضه ومؤمل ظمئان
مدح النبيء جزاؤه لمحبه — ولتابعيه الروح والرضوان
شكرا لخالقنا ببعث محمد — وبما أشار بفتحه عثمان (١)
ساوت شريعة أحمد بين الورى — فسعت لها الاجناس والالوان (٢)
والنافرون من الهدى نقد القضا — فيهم وحال الاغبياء الكفران
فالخلق خمسهم هدوا وسواهم — لو بشروا فهديهم إمكان (٣)



ميلاد أحمد ياء (١٢) شهر ربيعه — وسما به في كافه (٢٠) نيسان (٤)
فالشمس ترسم عيده بشهورها — حتى يكون لها بذاك شان
والعام والايام من شمس الضيا — لما لكوكب أرضنا الدوران
والبدر يكمل كل شهر دورة — وجميعها عام له حسبان
لو أنصف الحساب مولد أحمد — جعلوه في (١٢) ياء الشهور وزانوا (٥)
والشمس قدر عامها وفصولها — ومواسم والسعد والدبران
لكنهم عشرين افريل نسوا — والمرء آفة علمه النسيان
ان الذي لم يرع في اعماله — هذا وذاك حسابه نقصان
فصيامنا وزكاتنا ووقوفنا — حجا لها من شمسنا ازمان
والشمس قد خصت بها صلواتنا — ومن التخصص يظهر البرهان

---

(١) سيدنا عثمان ابن عفان الخليفة الثالث أرسل أخاه من الرضاع عبد الله بن ابي سرح لفتح افريقية عام ٢٧ هـ ولولاه لكانت افريقية الان مجوسية همجية

(٢) ليس في الاسلام فرق بين العربي والعجمي والابيض والاسود على خلاف ما عرفت به بعض الدول الراقية في التمدن حتى إن الاسود لا يجالسهم ولا يساويهم الى غير ذلك من النعرة الجنسية والنسبية

(٣) المسلمون ثلاثمائة مليون والعالم البشري خمسة عشر مائة مليون

(٤) مولده صلى الله عليه وسلم بالحساب الشمسي في أفريل ٢٠ من عام الفيل

(٥) لما كان القمر في كل شهر يطوف بالارض مرة فمن الصواب انه كلما بلغ الحساب ١٢ يوما من كل شهر يكون ذلك اليوم ذكرى لميلاده صلى الله عليه وسلم

لمحمد خير الفصول ربيعها وإليه في خير البقاع مكان (١)
إن الربيع إذا الزهور تعطرت ومتى يحين النخل والرمان
فبطيبه كانت ولادته وفي جني الثمار بطيبة الهجران
بهلال شهر ربيع ترحاله وقبا بثامنه له الاتيان (٢)
حلت عدالة احمد بقبا كما في الاعتدال الشمس والميزان (٣)
في يوم طيب (٢١) واعتدال خريفه بنا المصلى للهدى اعلان
صلى برانوناء اول جمعة بطريقه وخطابه رنان (٤)
بلغ المدينة يوم ثاني عشرة فشدت به النسوان والصبيان
فيها القرار لناقة مأمورة يا حبذا الانصار والضيفان
فسراة يثرب بايعوا لنجاته وجفاة مكة كيدهم خذلان
لا يستوي غمر يهم بقتله وموفق بلقائه نشوان
في مكة تجري الشعائر خفية وصلاة يثرب جهرة وأذان

❀ ❀ ❀

ذي هجرة قد وافقت ميلاده شهرا وعدا فالوفاق يصان
إن المحرم مثله يناير رسمته غرة عامها الاذهان (٥)
فطليعة الايام منه عدادها ضمن المواسم امرها استحسان
والاشعري ورئيسه لم يدريا هل قام بل او قدمضى شعبان (٦)

---

(١) ميلاده وبلوغه للمدينة مهاجرا صلى الله عليه وسلم في ١٢ ربيع ١ وبالحساب الشمسي ميلاده في ربيع الازهار الشمسي أي في ٢٠ افريل وهجرته في ربيع الثمار أي في سبتمبر والاعتدال الخريفي وكانت العرب تسمي الخريف ربيعا

(٢) سافر صلى الله عليه وسلم من غار ثور بمكة يوم الاثنين غرة ربيع الاول وحل في قبا ثامنه وبنى من الغد ٢١ سبتمبر مسجد التقوى والشمس قد حلت ببرج الميزان وهو الاعتدال الخريفي

(٣) من الاتفاق الحسن ان حلول نوره وعدالته صلى الله عليه وسلم في قبا وبناءه اول مسجد في الاسلام كان في زمن الاعتدال وحلول الشمس ببرج الميزان

(٤) رانوناء كعاشوراء صلى في مسجدها صلى الله عليه وسلم الجمعة في طريقه بين قبا والمدينة ولما بلغ المدينة تلقته النساء والصبيان وكانت على السطوح المخدرات ينشدن طلع البدر علينا .... الخ الابيات الثلاثة

(٥) اول العام المسيحي يناير والميلاد قبله بسبعة أيام اي في ٢٥ ديسمبر - كما ان الهجرة في ربيع الاول وابتداء الحساب من المحرم غرة العام العربي اي قبلها بشهرين وايام - فاول العامين موسم عرفي (والهجرة والميلاد الحقيقيان موسمان دينيان)

(٦) توقف سيدنا عمر في شعبان برسم وقال هل هو الماضي او القابل وخاطبه عامله ابو موسى الاشعري في كون الكتب التي ترد اليه لا يدرى منها عام الشهر الذي بها (شعبان)

فتشاوروا والهرمزان مقاله ... في ضبط أحوال الزمان بيان (١)
وأشار في حرب المدينة قبله ... بالحفر رابع هجرة سلمان
جعلوا المحرم للحساب بداية ... من هجرة كانت هي الفرقان (٢)
فتأسس التاريخ سابع عشرة ... والفضل للفاروق والاذعان
عدد بهي (١٧) جاء عد أميرنا ... من ءاله بهما الورى جذلان
نعم الملوك السالفون وانما ... مرعى ولكن فاقه السعدان



يا مولدان تجمعا في شهرنا ... لكما مديح المصطفى إمعان (٣)
هذان عيدان ورؤية أحمد ... ورضاه عيد ثالث هتان
فثلاثة الاعياد عام حظوظنا ... ولكل أمر مقتض وأوان
فإلى التعلق بالرسول قلوبنا ... وإلى المديح لساننا وبنان
وإلى الامير ثناؤنا من عطفه ... والحي يملك حسه الاحسان



بالمولد الاسنى حراسة تونس ... لا يستبيح بها العباد فلان (٤)
أيظن ذاك الشخص ان بلادنا ... وحماتها الاحباش والالبان
كلا سيلقى من دفاع رجالنا ... ما في القديم تجرع الاسبان
ما كل أحمد ملك زوغو ولا ... ساوى شيوخ ملوكنا الشبان
خابت مطامع من يحارب تونسا ... هب أن ناصره الزعيم هيان
ان السيادة لا تكون لغيرنا ... وبنا انمحى الفندال والرومان (٥)
فالنابتون بارض تونس سادة ... وهم على طول المدى السكان

(١) جمع سيدنا عمر الصحابة لما يضبط به الوقت فشرح الهرمزان الفارسي طريقة التاريخ عندهم واهل فارس لهم حضارة عريقة وتقدم في نظام الحياة ـ كما اشار سلمان الفارسي عام الاحزاب بحفر الخندق حول المدينة سنة اربع

(٢) عمل سيدنا عمر برأي سيدنا علي كرم الله وجهه وجعل الهجرة مبدأ التاريخ الاسلامي واعتبر الحساب من المحرم مبدأ الشهور القمرية عند العرب

(٣) عشرون افريل صادفت غرة ربيع الاول في هذا العام فاجتمع الميلادان الشمسي والقمري في شهر ربيع الاول وفي العام القابل ١٣٥٩ هـ ١٩٤٠ م يكون الميلادان في يوم واحد

(٤) في المولد الشريف زالت المخاوف من الهجوم المتوقع على المملكة من الجنوب — والاسبان خرجوا من شواطيء تونس ٩٨١

(٥) الرومان أجداد الطليان انقرضوا من افريقية سنة ٤٣٤ وزال الفندال اجداد الالمان منها ٥٣٣ هـ

جنس عزيز لا تلين قناته وحروبه للمعتدين عوان
فقضى من الآلاف خمسا رابضا والناس ناس والزمان زمان (١)
هذا من التاريخ ما علموا به ولقد محى ما قبله الطوفان



ابناء حام مازجوا افريقشا في قطرنا فتزايد العمران (٢)
حتى تجدد من عتيق تراثهم لما أتى لفتوحهم حسان (٣)
وتتابع الولاة بعد جهاده نعم الشعار العزم والقرءان
خضعت الى الخلفاء افريقية وتمهدت بملوكها الاركان
فالاغلبي متغلب ولبأسه والاه هرون وشارلمان (٤)
وزيادة الله الجري لفتوحه أسد البحار العالم الطعان (٥)
ولآل فاطمة منابر طنجة والقيروان والحقت أسوان (٦)
فبمصر عاصمة بناها جوهر ونما بها في الازهر العرفان
وتلتهم صنهاجة ومعزها لكن أذل جيوشه العربان (٧)
لبس السواد وظن بغداد الدوا بينا العليل فراشه زغوان
اين العراق من المعز وصبرة ومؤمل نصر البعيد يهان
قد غره شرخ الشباب وملكه وعلومه وجنوده السودان
واذا بنو حفص تطول مدتهم فبدولة الاتراك جآء سنان (٨)

---

(١) من الطوفان الى الآن ٥٣٣٢
(٢) امتزاج العرب ابناء سام بالبربر ابناء حام
(٣) حسان ابن النعمان فاتح قرطاجنة قدم افريقية عام ٧٨
(٤) الاغالبة من ١٨٤ — ٢٩٦
(٥) زيادة الله باني جامع القيروان على الحالة الراهنة غزا صقلية عام ٢١٢ وامير الجيش اسد ابن الفراة قاضي القيروان
(٦) الفاطميون بافريقية من ٢٩٦ — ٣٦١ وفتحوا مصر ٣٥٨ واسسوا القاهرة والازهر
(٧) الصنهاجيون بافريقية من ٣٦١ — ٥٥٥ غلبه العرب الهلاليون على المملكة في اواسط القرن الخامس وعاثوا فيها فسادا سلطتهم عليه مصر لما قطع الدعآء للفاطميين اوليآء نعمته ودعا للعباسيين ولبس هو ورجال دولته الثياب السود التي هي شعار العباسيين الذين عجزوا عن افريقية واسلموها لجد الاغالبة اواخر المائة الثانية فكيف وهم في اواسط القرن الرابع على اضعف حالة والفاطميون يلتهمون ممالك دولتهم من اطرافها
(٨) الحفصيون — ٦٠٣ — ٩٨١ والمراديون من عام ١٠٢٢ — ١١١٣ والحسينيون من عام ١١١٧ وابو كمال كنية الامير الجليل

وبنو مراد فخرهم حمودة ... والى الحسين وفرعه التيجان

❁ ❁ ❁

فأبو كمال في السداد مقوقس ... والعدل قيصر والابا ساسان
ووزيره سبط الرسول محمد ... هاد به ملك الامير يزان
وبعصره شيخا الشريعة طاهر ... فكمالك ومحمد نعمان (١)
بهما علا صرح العلوم بتونس ... والفضل والانصاف والديوان
بهما يفاخر باينا لمغارب ... ومشارق مهمى يسن رهان
فالباي احمد تونس جمعت به ... ما لم يحز منه القليل مكان
فربيعه مرناق في قصر الهنا ... وكفى بروض حفه مليان
لنسيمه وشميمه ورياضه ... وحياضه لبس الحيا عمدان
واذا ترى المرسى وقصر أميرها ... فتقول ما كسرى وما الايوان
فاق الملوك السالفين شهامة ... وهم ثمان عدهم وثمان
ساووا بحور الشعر وهي جميعها ... (١٦)مشحونةبمديحهالاوزان(٢)

❁ ❁ ❁

والشعر تاريخ ومرءاة بها ... صور الثناء وما يذم تبان
عرفت مكانته الملوك فقربوا ... أربابه وحباهم الاعيان
فعلا به كعب لكعب واجتنى ... كرم النبي وزميله حسان
درر لشاعر ورغة في جدكم ... جاءت لكم بمثلها ورتان
فهم الحماة لجدكم في كافه ... بحياته ولديهم الجثمان
شب الحسين على الشجاعة والندى ... من بين اخوال هم الفرسان
واخلاصهم ارث لكم من جدكم ... وهم لك الاجداد والاعوان
لي في مزايا احمد وجدوده ... كتب وفي امداحه ديوان
والشعر غصت بحوره فنفيسها ... في تاج أحمد باينا جمان
من مثل أحمد في الملوك سياسة ... علمت بها طهران والافغان
او شابه الهادي الوزير مكارما ... قرت بذا السفرآء والاقران
والناس نبت فيه عطر فائح ... أو سكر وبثاخر قطران
وكذا الملوك غضنفر كأميرنا ... او شذقم او لادغ ثعبان
وزرآؤهم فالاخوة الهادي وفا ... والجود جعفر والغنا هامان
إن المواسم كالولاة مراتب ... ومحمد ميلاده سلطان
فاهنأ بمولد أحمد يا أحمد ... وبكم يزان ربيع والنيسان

محمد المقداد الورتتاني

---

(١) شيخا الاسلام العلمان سيدي محمد ابن يوسف للمذهب الحنفي وسيدي محمد الطاهر ابن عاشور للمذهب المالكي

(٢) عدد الامراء الحسينيين ستة عشر اميرا

اصلاح اغلاط مطبعية في الجزء الثالث

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٩٦	٦	افخرج	فخرج
»	٢٧	معالي	معاني
٩٧	٣	دار سلام	دار اسلام
»	١٢	المشتركين	المشركين
»	١٦	طوره الاشد	طور الاشد
»	١٨	والقضاء	والقضاة
»	٢٠	الزوج	الزواج
»	٢٢	بين	فيها
»	٣٣	الاوراك	الاوارك



ديوان الورغي

في العدد المقبل ننشر القطعة الاولى من ديوان الشيخ الورغي ان شاء الله فنلفت اليه الانظار وسنتتابع نشره الى التمام نسال الله الاعانة والتوفيق

المجلة الزيتونية

مجلة علمية أدبية اخلاقية

تصدرها الهيئة من مدرسي جامع الزيتونة المعمور

شهرية وسنتها عشرة اشهر

المجلد الثالث	تونس – في ربيع الثاني ١٣٥٨ – جوان ١٩٣٩	الجزء السادس

رئيس قلم التحرير :

محمد المختار بن محمود

المفتي الحنفي

بالديار التونسية

صاحب المجلة والمدير :

محمد الشاذلي ابن القاضي

المدرس من الطبقة الاولى بجامع الزيتونة

والخطيب الثاني بجامع حمودة باشا

المراسلات :

ترد باسم مدير المجلة بمحل الادارة

الادارة :

نهج الباشا رقم ٣٣ بتونس – تليفون ٤٩-٢٦

حساب جاري بادارة البريد رقم ٣٤٢٢

ثمن العدد ٣ فرنكات

المطبعة التونسية نهج سوق البلاط عدد ٥٧

المجلد الثالث — الجزء السادس

فهرس العدد

الاشتراك

الادارة نهج الباشا رقم ٣٢ — تونس

عن سنة بالحاضرة وبلدان المملكة والجزائر والمغرب الاقصى وسوريا فرنكات ٣٠

» في الخارج غير البلاد المذكورة فرنكات ٤٠

يخصم الربع للتلامذة

وصولات الاشتراك لا تعتبر الا اذا كانت ممضاة من امين المال

محمد الهادي بن القاضي

والمخابرات المالية لا تكون الا معه

المجلة الزيتونية

مجلة علمية أدبية اخلاقية

تصدرها الهيئة من مدرسي جامع الزيتونة المعمور

شهرية وسنتها عشرة اشهر

الجزء السادس	تونس - في ربيع الثاني ١٣٥٨ - جوان ١٩٣٩	المجلد الثالث

رئيس قلم التحرير :

محمد المختار بن محمود

المفتي الحنفي

بالديار التونسية

صاحب المجلة والمدير :

محمد الشاذلي ابن القاضي

المدرس من الطبقة الاولى بجامع الزيتونة

والخطيب الثاني بجامع حمودة باشا

المراسلات :

ترد باسم مدير المجلة بمحل الادارة

الادارة :

نهج الباشا رقم ٣٣ بتونس - تليفون ٤٩-٢٦

حساب جاري بادارة البريد رقم ٣٤٢٢

ثمن العدد ٣ فرنكات

المطبعة التونسية نهج سوق البلاط عدد ٥٧



الامـة الاسلامية

تنشد الاصلاح

ان هذه الامة المباركة قد حفظ الله لها ميزتها وعلو مقامها بما أنزل على رسوله الامين من آيات الذكر الحكيم المتضمنة لسعادة الدارين فالقرآن هو النور الذي يشع ويهدي المسلمين الى اقـوم السبل ويبلغهم الى أسمى المقاصد ويدركون به السعادة التي هي مطمح انظار البشر من يوم الخليقة فاذا كانت الشريعة الاسلامية وتعاليم القرءان هي التي رفعت مستوى شعوب قد أدركها الهوان والعطب في العصور الاولى فهو على الدوام المرهم الناجع لعلل الامم في الحاضر كما سلمها مما أصابها في تلك العصور المظلمة.

واذا كان الناس اكثر ما يسلمون للامور التي يقع عليها حسهم فهذا التاريخ الاسلامي حافل بالحوادث العظام وشاهد على مبلغ تاثير الاسلام الزكي في تطور الشعوب والنهوض بها من كبوتها واخراجها لعالم الحقيقة رافعة الرأس متوجة باكليل الهداية حتى أضحى المسلمون المثل الاسمى الذي يقتدى به وسار الناس على غرارهم اينما كانوا وحيثما حلوا

ولكن المسلمين اخـذتهم العزة بالاثم وخلدوا الى شهواتهم واستبدلوا الهداية بالغوايـة فابدل الله عزهم ذلا وامنهم خوفا فاصبحوا عالـة على المجتمع يتكففون ويبتز النـاس خيراتهم من أيديهم وهم صاغرون قد داهمتـهم الخطوب من كل جانب وهم لا يشعرون فلما فتحوا أبصارهم وجـدوا نفوسهم مكبلين بوثاق الـذل والعار واستحكم الخمول من نفوسهم فلم يترك لهم ان يحركوا ساكنا وتتابعت عليهم صروف الليالي وحوادث الدهر تنبههم من سباتهم وتناديهم بصوت أشد من الرعد الصاخب قـد علمه من في السماوات والارض أن تنبهوا فالويل لكم ان دمتم على سباتكم القديم

وتحركت العواطف وتشققت الاجنان تنظر الى مـا حولها فلم تجد ما تركت عليه العالم يـوم كان في قبضة يمينها زمامه هنالك أيقنت ان الخطب شديد نفضت عن نفسها رداء النوم ورامت ان تنهض من مضجعها تبحث عن سبب لتتعلق بـه وتستعين به في الدخـول الى هـذا المعترك الزاخر الصاخب

فوجدته متنكبا لها لم يحفل بخطواتها التي تخطوها في سيرها البطيء شان كل من مسح عن اجفانه غشاء النعاس والنوم ما زال يعاوده وتحن اليه اجفانه فهو يحط من قواه وهو يظن انها مداعبة النسيم باغصان الوردة الناعمة

اجل ها هي الامة الاسلامية قد ادركت ان ذلك الغرور الذي يمليه عليها الخيال يجب ان تبعد عنه وعلمت انها حالة يجب عليها ان تستبدلها بخير منها وطفقت تبحث عن الادوية لتعالج ما اصابها من وهن وتفحص عن وسائل تقدم الشعوب لتجاريها في هذا السباق الحيوي والامل يملأ ما بين جوانبها

فكانت نهضة طيبة في ذاتها طيبة فيما تعلقه عليها من عز وسؤدد وشرف ولكن النفوس خالطها من الانحراف عن سبيل الرشاد ما خالطها، والاخلاق اضحت موبوءة من تاثيرات بعضها يرجع الى تلك الغفلة التي صحبتها عند ما كانت فاقدة الشعور الصحيح وبعضها يرجع الى ما حيك لها من الدسائس او ما عليه غيرها من المفاسد ولما كانت تروم مجاراة الغير تسارعت اليها مساويه قبل محاسنه

وبما أن الشباب اشد تأثرا وسرعان ما يغمره السيل لقلة تجاربه كان تسرب تلك المساوي اليه أقرب وهو عن رد مفعولها اضعف بل ربما وقع في شراكها وهو لا يعلم انه زج بنفسه في معاطب ربما كانت عليه وبالا اشد مما رام التملص منه، وبهذا تعين علينا أن نبحث في أمرين عظيمين أولهما العلل التي اصابت المسلمين وعلى الاخص شبابنا الذي هو معقد الآمال حتى نعلم بعد ذلك طريق العلاج، والثاني ماهي الادواء التي تصلح مجتمعنا وتدفع عنه او تخفف شيئا فشيئا ما الم به من العلل وتكون سليمة من الغش لا انها تصلح عضوا وتنهك قوى عضو آخر يبقى معه جسم الامة عليلا ولا تكون حينئذ هذه المعالجة ناجحة الذي هو المطلوب بل ان من الادوية ما يحدث امراضا لبعض الاعضاء يكون خطرها اشد من خطر المرض الذي نروم معالجته فمعالجة امراض الامة امر له خطره وله شانه العظيم وليس كل حكيم في مقدوره ان يصف طرق العلاج والحكيم الماهر هو الذي يقدر ان يكون علاجه مراعى فيه دائما الحذر من الاصابة الطارئة على جسم الامة العليل ويحيطها بسياج الوقاية حتى تسلم مما اصابها ولا يتطرق الخلل الى ناحية اخرى ربما يكون خطرها اشد وحينئذ يبقى جسم الامة عليلا ولو تظاهر الهيكل بالنقاوة والسلامة

واذا شكى رجالات هذه الامة في العصر الماضي مما اصاب الامة مما وصفناه اولا من الخمول والسبات والمرض الفتاك والامة لم تشعر بما اصابها، فنحن نشكو اليوم مع ذلك من العلل الطارئة من مفعول سوء المعالجة لهذا قلنا ان الامة يلزمها ان تبحث عن امرين عظيمين اسباب السقوط والعلل التي انهكت جسمها حتى اضحى عليلا لم يبق في مستطاعه ان يضرب بسهم صائب في الحياة ثم بعد معرفة العلل يلزمها ان تتخير طرق المعالجة والمراهم التي نفعها محقق ولا خطر فيها،

وكاني بسائل يلقي سؤاله متحيرا متوجعا وهو يقول ألهذا الوقت وانتم تبحثون عن العلل وتبحثون عما يزيلها وقافلة البشر ممن سواكم دائمة السير لم تصدها هذه الفلسفة المبنية على التخوف وكل ذلك منشاه علل نفوسكم المتأصلة التي ما فتئت تسيطر عليها هواجس نفوسكم العليلة . وما دامت هذه الافكار مخيمة عليكم ومسيطرة على مشاعركم ومتأثرة بها نفوسكم فخطاكم لم تفارق مكانها الاول ولو انكم تحسبون ان تبديل الخطا وحده هو الذي يوصل الى الغاية كلا بل انتم تبدلون الخطا في مكان واحد وهذا لا يسمى سيرا لا في عرف الناس الماديين ولا عند من ينظر الى ما وراء المادة

والجواب ان الامم والشعوب مهما كانت عليه من الرقي او الانحطاط هي دائما تبحث عن الرقي والكمال وتدفع عن نفسها ما اصابها او ربما يصيبها من العلل والفساد ورجال الاصلاح وعلماء النفس وقفوا حياتهم على ذلك يعالجون المريض ويحيطون السليم بسياج الوقاية وأي أمة أو شعب لم يسلم من علة أو علل وانما يختلف ذلك قلة وكثرة وشدة وضعفا

والامة الاسلامية قد مرت بها أدوار مختلفة فمر بها دور عدم الشعور بالمرض والعلل حتى كثرت الاوجاع وعلت الاصوات بالشكوى ثم جاء دور البحث عن العلل ولكنها كانت متعددة فبحث رجالاتها عن العلل علة ثم أخرى وكلما تفطنوا الى نوع منها الا وصفوا دواءه وطرق معالجة ذلك الداء وليس في كل مرة يوفق الحكيم وليس كل معالج حكيم لهذا تكرر البحث وها هي اليوم في بعض ادوار الشفاء اذا وفق حكماؤها وأخلصوا وقدرت الامة على الصبر على شدة وطأة المعالجة وانقادت لما يوصف لها - وما أصعب الانقياد والتسليم - وحسن منها استعمال الادوية النافعة التي يصفها لها المصلحون

فما هي هذه العلل التي اصابت جسم الامة فأوهنته !

وكيف تكون بعد ذلك طرق العلاج الناجحة ؟

ليس الجواب عن ذلك في متناول كل احد . ولا ان الامر بهذه البساطة يمكن وصفه في جملة او جملتين . وأرجو من الله تعالى التوفيق في معالجة هذا الموضوع بعض المعالجة

والذي أتناوله بالبحث اولا هو ما يدور على الالسن من أن العلة التي اصابت الامة هو تنكبها عن تعاليم الاسلام ودواؤها الناجح هو رجوعها الى الاسلام الصحيح

هذا كلام حسن وحسن جدا ولكن أرى الناس قد فسروه كل بما وصل اليه فهمه فوقعوا في بعض الاخطاء التي قد نشأ عنها اختلاف كثير كانت عاقبته عدم الوصول الى النتيجة الحاسمة

فمن الناس من فهم من ذلك ان الاسلام قد جاء بشريعة بعضها يرجع الى عبادة الله تعالى وبعضها يرجع الى كيفية معاملات الناس مع بعضهم فمتى رجع المسلمون للعمل بهما سلموا مما اصابهم . ووقف ذلك الفريق عند هذا الحد

(البقية على صفحة ١٩)

تفسير

القرآن الكريم

يُخَادِعُونَ اللهَ والَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

للعلامة الامام مولانا شيخ الاسلام
المالكي الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور

جملة يخادعون بيان ليقول لانهم حين قالوا ذلك قالوه في حال عدم كونه كما قالوا فكان قولهم على حال الخداع فتكون حالا مبينة ووجه عدم اقترانها بالواو ظاهر لانها اما بيان او حال مفتتحة بالمضارع

والخداع مصدر خادع اذا فاعل الخدع والخدع هو فعل او قول يوهم انه على وفق هوى مصدره وهو يكرهه او لا يعتقده ولكن يقصد به تحسينه وترويجه على الغير ليغيره عن حالة هو فيها او يصرفه عن أمر يوشك أن يفعله تقول العرب خدع الضب اذا اوهم حارشه انه يحاول الخروج من الجهة التي ادخل فيها الحارش يده حتى لا يرقبه الحارش لعلمه انه ءاخذه لا محالة ثم يخرج الضب من النافقاء . والخداع فعل مذموم الا في الحرب والانخداع تمشي حيلة المخادع بالكسر على المخادع بالفتح وهو مذموم ايضا لانه من البله واما اظهار الانخداع من التفطن للحيلة اذا كانت غير مضرة فذلك من الكرم والحلم قال الفرزدق :

استمطروا من قريش كل منخدع ... ان الكريم اذا خادعته انخدع

وفي الحديث المؤمن غر كريم أي من صفاته الصفح والتغاضي حتى يظن أنه غر ولذلك عقبه بكريم لدفع الغرية المؤذنة بالبله فان الايمان يزيد الفطنة لان اصول اعتقاده مبنية على نبذ كل ما من شانه تضليل الراي وطمس البصيرة الا ترى الى قوله والسعيد من وعظ بغيره مع قوله لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين وكلاها تنادي على ان المؤمن لا يليق به البله

وأما معنى المؤمن غر كريم فهو ان المؤمن لما زكت نفسه من ضمائر الشرور زال خطورها بباله وحمل احوال الناس على مثل حاله فعرضت له حالة استثمان تشبه الغرية قال ذو الرمة

تلك الفتاة التي علقتها عرضا ... ان الحليم وذا الاسلام يختلب

فاعتذر عن سرعة تعلقه بها واختلابها عقله بكرم عقله وصحة اسلامه فان كل ذلك من اسباب جودة الراي ورقة القلب فلا عجب ان يكون سريع التأثر من حسنها

ومعنى صدور الخداع من جانبهم للمؤمنين ظاهر وأما مخادعتهم الله تعالى المقتضية أن المنافقين قصدوا التمويه على الله تعالى مع ان ذلك لم يقصدوه ولا يقصده عاقل يعرف ان الله مطلع على الضمائر والمقتضي أن الله يعاملهم بخداع وكذلك صدور الخداع من جانب المؤمنين للمنافقين كما هو مقتضى صيغة المفاعلة مع ان ذلك من مذموم الفعل لا يليق اسناده الى الله تعالى ولا يليق بالمؤمنين فعله يوجب تأويلا في معنى المفاعلة الدال عليه صيغة يخادعون او في فاعله المقدر من الجانب الآخر وهو المفعول المصرح به فاما التاويل في يخادعون فعلى وجوه : أحدها أن مفعول خادع لا يلزم أن يكون مقصودا للمخادع بالكسر إذ قد يقصد خداع احد فيصادف غيره كما اذا خادع احد وكيل احد في مال فيقال له أنت تخادع فلانا وفلانا تعني الوكيل وموكله فهم قصدوا خداع المؤمنين لانهم يكذبون ان يكون الاسلام من عند الله فلما كانت مخادعتهم المؤمنين لاجل الدين كان خداعهم راجعا لشارع ذلك الدين . ومعنى خداع الله تعالى والمؤمنين اياهم إغضاء المؤمنين عن توادهم وفلتات السنهم وكبوات افعالهم وهفواتهم الدال جميعها على نفاقهم حتى لم يزالوا يعاملونهم معاملة المؤمنين فان ذلك لما كان من المؤمنين باذن الرسول صلى الله عليه وسلم حتى اقد نهى من استأذنه في ان يقتل عبد الله بن أبي بن سلول كان ذلك الصنيع باذن الله فكان مرجعه الى الله كما رجع اليه خداعهم للمؤمنين وهو تاويل في المخادعة من جانبيها كل بما يلائمه

الثاني ما ذكره صاحب الكشاف أن يخادعون استعارة تمثيلية تشبيها للهيئة الخاصة من معاملتهم للمؤمنين ولدين الله ومن معاملة الله اياهم في الاملاء لهم والابقاء عليهم ومعاملة المؤمنين اياهم في اجراء أحكام المسلمين عليهم بهيئة فعل المتخادعين وهو وجه بليغ

الثالث ان يكون خادع بمعنى خدع اي غير مقصود به حصول الفعل من الجانبين للمبالغة

وهذا انما يدفع الاشكال عن اسناد صدور الخداع من الله والمؤمنين مع تنزيه الله والمؤمنين عنه ولا يدفع اشكال صدور الخداع من المنافقين لله تعلى

وأما التاويل في فاعل يخادعون المقدر وهو المفعول ايضا فبان يجعل المراد انهم يخادعون رسول الله فالاسناد الى الله تعالى اما على طريقة المجاز العقلي لاجل الملابسة بين الرسول ومرسله . واما مجاز بالحذف للمضاف فلا يكون مرادهم خداع الله حقيقة ويبقى ان يكون رسول الله مخدوعا منهم ومخادعا لهم

ولا مانع من مخادعة الرسول والمؤمنين للمنافقين لانها جزاء لهم على خداعهم فهو كالخداع في الحرب فهذا يدفع الاشكال عن قصدهم مخادعة الله تعالى فضلا عن اسناد المخادعة لله تعالى اياهم لانها لا تكون الا في مقابلة خداعهم اياه وقد علمت انه منتف الا على طريقة المجاز

ولم يقرأها احد من القراء الا بلفظ يخادعون الا اباحيوة قراها يخدعون بناء على الوجه الثالث في الجواب

وقوله وما يخادعون الا انفسهم حال ثانية من الضمير في يخادعون الاول أي هم يخادعون الله والذين آمنوا في حال ان خداعهم مقصور على ذواتهم لا يرجع شيء منه الى الله والذين ءامنوا فيتعين ان الخداع في قوله وما يخادعون عين الخداع المتقدم في قوله يخادعون الله فيرد اشكال صحة حصر الخداع على انفسهم مع اثبات مخادعتهم الله تعالى والمؤمنين . وقد اجاب صاحب الكشاف بما حاصله ان المخادعة الثانية مستعملة في لازم معنى المخادعة الاولى وهو الضرر فانها قد استعملت اولا في مطلق المعاملة الشبيهة بالخداع وهي معاملة الماكر المستخف فاطلق عليها لفظ المخادعة استعارة ثم اطلقت ثانيا واريد منها لازم معنى الاستعارة وهو الضرر لان الذي يعامل بالمكر والاستخفاف يتصدى للانتقام من معامله فلا يعدم قدرة او غرة من صاحبه فيضره ضررا فصار حصول الضرر للمعامل امرا عرفيا لازما لمعاملته وبذلك صح استعمال يخادع في هذا المعنى مجازا او كناية وهو من بناء المجاز على المجاز لان المخادعة اطلقت اولا استعارة ثم نزلت منزلة الحقيقة فاستعملت مجازا في لازم المعنى المستعار له فالمعنى وما يضرون الا انفسهم

واما احتمال ان يكون يخادعون الثاني اطلق بمعنى غير المعنى الذي في يخادعون الاول فمما لا يرتضيه سياق الكلام البليغ لانه يصير بمنزلة الاستخدام وهو لا يحسن في مثل هذا المقام

ويجوز بقاء يخادعون الثاني على نحو ما فسر به يخادعون الاول من كونه استعارة للمعاملة الشبيهة بفعل الجانبين المتخادعين بناء على ما شاع في وجدان الناس من الاحساس بان الخواطر التي تدعو الى ارتكاب ما تسوء عواقبه انها فعل نفس هي مغايرة للعقل وهي التي تسول للانسان الخير مرة والشر اخرى وهو شيء بني على الحكمة الاخلاقية لاحداث العداوة بين المرء وبين خواطره الشريرة بجعلها واردة عليه من جهة غير ذاته بل من النفس حتى يتأهب لمقارعتها وعصيان امرها ولو انتسبت اليه لما رأى من سبيل الى مدافعتها قال عمّرو بن معديكرب :

فجاشت علي النفس اول مرة   فردت على مكروهها فاستقرت

فكانهم لما غصوا نفوسهم التي تدعوهم للايمان عند سماع الآيات والنذر اذ لا تخلو النفس من اوبة الى الحق جعل معاملتهم لها في الاعراض عن نصحها واعراضها عنهم في قلة تجديد النصح لهم وتركهم في غيهم كالمخادعة من هذين الجانبين والنفس في لسان العرب الذات والقوة الباطنية المعبر عنها بالروح وخاطر العقل

وقوله وما يشعرون عطف على يخادعون والشعور العلم بالاشياء الخفية ومنه سمي الشاعر شاعرا لعلمه بالمعاني التي لا يهتدي اليها كل احد وقدرته على الوزن والتقفية بسهولة ولا يهتدي الى ذلك كل احد . وقولهم ليت شعري في التحير في علم امر خفي ولولا الخفاء لما تمنى علمه بل علمه بلا تمن واما تسمية الحواس مشاعر فلانها اصل العلم بالخفيات لان اصل العلم النظري راجع

الحديث الشريف

كتاب

الاعتصام بالكتاب والسنة (*)

الاعتصام التمسك بالحبل والاعتماد عليه كما في تفسير القاضي رحمه الله تعلى فهو من لوازمه وعليه فاثباته للكتاب والسنة تخييل دال على وقوع تشبيه في النفس بين الكتاب والسنة وبين الحبل وهو تشبيه مقبول بدليل انه قد صرح به في حديث هو حبل الله المتين . والجامع ان الكل به الربط والوصلة النافعة للتمسك وحينئذ ففي التركيب استعارة بالكناية على حد قوله :

ولئن نطقت بشكر برك مفصحا فلسان حالي بالشكاية انطق

ونظائره ، فالتشبيه استعارة بالكناية والاثبات استعارة تخييلية وحينئذ فكل من لفظي الاعتصام والكتاب حقيقة مستعملة في المعنى الموضوع له وليس في التركيب مجاز لغوي اصلا والمجاز الموجود فيه انما هو اثبات شيء لشيء ليس هو له وهو عقلي كاثبات الانبات للربيع وعلى هذا المذهب فالاستعارة

الى الضروري ومنته اليه . وقولهم هو لا يشعر وصف بعدم الفطنة لا بعدم الاحساس وهو ابلغ في الذم لان الذم بالوصف الممكن الحصول انكى من الذم بما يتحقق عدمه فان احساسهم امر معلوم لهم وللناس فلا يغيضهم ان يوصفوا بعدمه وانما الذي يغيضهم ان يوصفوا بالبلادة وخفاء مخادعتهم انفسهم مما لا يمترى فيه ولذلك اختيرهنا لا يشعرون واختير مثله في نظيره في الخفاء وهو : الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . لان كليهما أثبت فيه ما هو المآل والغاية وهي مما يخفى واختير في قوله : الا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون نفي العلم دون نفي الشعور لان السفه قد يبدو لصاحبه باقل التفاتة الى احواله وتصرفاته ولان السفه اقرب لادعاء الظهور من مخادعة النفس عند ارادة مخادعة الغير ومن حصول الافساد عند ارادة الاصلاح

(*) درس الحديث الذي ختم به العلامة النحرير الحجة الباش مفتي المالكي والامام الاكبر بجامع الزيتونة الاعظم أبو الفلاح الشيخ صالح النيفر برد الله ضريحه المولود سنة ١٢٣٦ والمتوفى سنة ١٢٩٠ القاه في رمضان سنة ١٢٧٣ بمسجد المدرسة المرادية

بالكناية والاستعارة التخييلية امران معنويان وهما فعلان للمتكلم ويتلازمان في الكلام اذ التخييلية يجب ان تكون قرينة للمكنية وهي يجب ان تكون قرينتها التخييلية . ثم ان الاعتصام اما بالكتاب فواجب قطعا قال شارحه : لقوله تعالى واعتصموا بحبل الله جميعا . قلت ولعله حمل الحبل فيها على القرءان كما في الحديث المتقدم وهذا هو الذي صدر به ابو الفرس والقاضي في تفسيريهما والذي ذكره صاحب الكشاف وتبعوه ان الحبل في الآية مستعار للعهد لكونه وسيلة لربط شيء بشيء على طريق الاستعارة التصريحية وقرينتها اضافته اليه تعلى وذكر الاعتصام ترشيح وجوز فيه صاحب الكشف ان يكون باقيا على معناه أو مستعارا للتوثق وهو الذي ذهب اليه السمرقندي في الرسالة لكن جزم سعد الدين في المطول ببقائه على معناه ونفى ان يكون من المجاز او الاستعارة مستدلا على ذلك بعبارة الكشاف وهي قوله يجوز ان يكون الحبل استعارة لعهده والاعتصام استعارة للوثوق بالعهد او ترشيح لاستعارة الحبل بما يناسبه فقابل بين الاستعارة والترشيح . وبحث في هذا الاستدلال السيد الشريف بان قول الكشاف اوترشيح يحتمل ترشيح فقط فيكون قوله قبل استعارة اي اما مستقلة او تابعة لاستعارة الحبل ورده عبد الحكيم بانه تأويل وهو خلاف الظاهر والاستدلال في المقام بالظاهر لان المطلب ظني انتهى وهو رد متجه لان محصل بحث الشريف انه استدلال تطرقه الاحتمال وحاصل الرد انه احتمال مرجوح وهو لا يكون مسقطا فانه لا يكاد يوجد نص لا احتمال فيه لكن العمدة على الظواهر وتحقيقه ان الاحتمال اذا كان مساويا اومتقاربا يكون الدليل مجملا والمجمل لا يستدل به واما الاحتمال اذا كان مرجوحا فمعه اللفظ يكون ظاهرا والظاهر كالنص يستدل به . وهاهنا مسالة وهي انه روي عن الامام الشافعي رحمه الله تعلى انه قال مرة حكايات الاحوال اذا تطرق اليها الاحتمال كساها ثوب الاجمال وسقط بها الاستدلال فجعلها على هاته الرواية مجملة لا يستدل بها ومرة قال ترك الاستفصال في حكاية الاحوال يقوم مقام العموم في المقال فجعلها عامة يستدل بها . فبعض العلماء حمل ذلك على انهما قولان له اختلفا كما تختلف اقوال العلماء في المسائل بالنفي والاثبات والذي حرره القرافي في التنقيح ان قولي الشافعي هذين محمولان على حالتين فروايته الاولى في دليل الحكم والثانية في محله وتقرير ذلك على ما ذكره ان الاحتمال تارة يكون في دليل الحكم كقوله عليه الصلاة والسلام في المحرم لا تمسوه بطيب فانه يبعث يوم القيامة ملبيا فهذا حكم في رجل بعينه يحتمل ان يكون خاصا به فيجوز لمس غيره بالطيب ويحتمل ان يعمه ويعم غيره من المحرمين وليس في اللفظ تعرض لغيره بل يحتمل التعميم وعدمه على السواء فسقط به الاستدلال على تعميم الحكم في المحرمين لانه اجمال في الدليل وتارة يكون الاحتمال المساوي في محل الحكم والدليل لا اجمال فيه كقصة غيلان بن سلامة الثقفي فان قوله عليه السلام له لما اسلم على عشر نسوة امسك اربعا وفارق سائرهن ظاهر في الاذن في الاربع كيف كن من غير تعيين والاحتمال انما هو في عقود النسوة التي هي محل الحكم فيصح الاستدلال على العموم فله ان يختار تقدمت العقود

او تاخرت اجتمعت او افترقت انتهى وهو تحرير حسن لو كان مذهب الشافعي في المحرم كمذهبنا لكن مذهب الشافعي رحمه الله تعميم الحكم المتقدم في كل محرم اخذا من الحديث السابق كما نقله القرافي نفسه عن الامام الشافعي وحينئذ فحمل العبارتين على قولين اولى . وها هنا تكميل مفيد وهو ان الامام ابا حنيفة رحمه الله يقول اذا تقدمت العقود على اربع وعقد بعد ذلك على غيرهن حرم عليه الاختيار من غير تلك الاربع لوقوعهن بعدهن ونكاح الخامسة وما بعدها لا يقر وانما الحديث محمول عنده على ما اذا عقد عليهن عقدا واحدا فلا يتعين الباطل من الصحيح فيختار اربعا يستأنف العقد عليهن قال شهاب الدين القرافي اثر مانقله ومذهبنا انكحة الكفار كلها فاسدة والاسلام يصححها واذا كانت باطلة فلا يتقرر اربع يكون من عداهن يبطل عقده والحديث لم يفصل مع انه تاسيس قاعدة وابتداء حكم وشان الشرع في مثل هذا رفع البيان الى اقصى غاية فلولا ان الاحوال كلها يعمها هذا الاختيار والا لما اطلق صاحب الشرع القول فيها وقد اشار الى ذلك المحلي في مبحث العام من شرح جمع الجوامع ولفظه النبيء صلى الله عليه وسلم لم يستفصل هل تزوجهن معا او مرتبا فلولا ان الحكم يعم الحالين لما اطلق الكلام لامتناع الاطلاق في موضع التفصيل المحتاج اليه واجاب الاصفهاني في شرح المحصول عن هذا المبحث بانه صلى الله عليه وسلم يجوز ان يكون عالما بصورة الواقعة وانه تزوجهن معا ولاجل ذلك لم يستفصل فلا يكون ذلك كالعموم انتهى . ولايخفى ان عقد غيلان على عشر نسوة معا من غير ترتيب في غاية البعد على ان اطلاع النبيء صلى الله عليه وسلم على حاله لا يسوغ الاطلاق لايهامه حكما عاما بالنسبة الينا . واما الاعتصام بالسنة فاعلم اولا ان السنة لغة الطريقة ولو كانت غير مرضية وعرفا هي ما واظب عليه النبيء صلى الله عليه وسلم او غيره ممن يقتدى به كالصحابة رضوان الله تعلى عليهم اجمعين لقوله صلى الله عليه وسلم عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي وهي اعم من الحديث لتناولها الفعل والقول والتقرير بخلاف الحديث فانه لا يتناول الا القول وهو اقواها . ثم ان فعله صلى الله عليه وسلم اما ان يكون شرعيا او جبليا او مترددا بين الجبلي والشرعي اما الجبلي كالقيام والقعود والاكل والشرب فالخلاف فيه بالاباحة والندب مشهور عند المحدثين لكن الذي في الاشارات للباجي ان الخلاف انما هو في صفة ذلك لا في اصل الفعل واما المتردد كالحج راكبا وكالضجعة بين ركعتي الفجر وركعتي الصبح المحتمل ذلك ان يكون للاستراحة أو التشريع فقد تردد فيه تاج الدين ابن السبكي واما الشرعي المحض ونعني به ما فعله النبيء صلى الله عليه وسلم على وجه القربة فهذا هو محل الخلاف المحكي في كتب الاصول المشهورة وارجح الاقوال فيه وهو مذهب مالك وبعض الشافعية الوجوب ومذهب الامام الشافعي الندب واتفقت جماهير الفقهاء والمعتزلة على وجوب اتباعه صلى الله عليه وسلم فيما فعله اذا علم وجهه على ذلك الوجه من الوجوب او الندب او الاباحة اذ لو خالفناه في النية لذهب الاتباع وذكروا لمعرفة الوجه طرقا منها وقوع التخيير بين ذلك الفعل وبين غيره مما علم حكمه فيسوى

به في ذلك الحكم فاذا خير بين ذلك الفعل وبين واجب علم ان حكمه الوجوب وهكذا في الندب والاباحة. فان قلت انه قد اختلف الحكم مع التخيير كما في حديث الاسراء فانه خير النبي صلى الله عليه وسلم بين قدحين احدهما لبن والآخر خمر واختار اللبن وقد قال له جبريل عليه السلام لو اخترت الخمر لغوت امتك فقد علم منه ان الخمر موجب الغواية واللبن موجب الهداية والاول منهي عنه والثاني مأمور به فقد اختلف الحكم حينئذ قلت الحكم الشرعي لم يختلف في القدحين بل كان واحدا وهو الاباحة غاية ما في الباب انه قد ربط باحدهما حسن العاقبة وبالآخر سوء العاقبة وذلك غير الاحكام الشرعية نعم لو قال جبريل لو اخترت الخمر لاثمت لاشكل اما العواقب فلا تناقض تقدم الاباحة وبالجملة لا منافات بين الاستواء في الحكم الشرعي والاختلاف في العاقبة ونظير هذا انه قد انعقد الاجماع على جواز بناء ما شئنا من الدور وشراء ما شئنا من الدواب وزواج ما شئنا من النساء ومع ذلك اذا عدل احدنا عن بعض افراد هاته المذكورات الى غيرها امكن ان يقول له صاحب الشرع لو اخترت تلك الدار التي عدلت عنها أو الدابة او المراة لكانت مشومة كما جاء في الحديث وان كان مختلفا في تاويله . واما تقريره صلى الله عليه وسلم على الفعل فيدل على جوازه للفاعل لانه لا يقر احدا من الناس على باطل وكذا لغيره خلافا للقاضي ابي بكر الباقلاني وحكى القاضي عياض الاجماع على ذلك وسواء في ذلك ما رآه عليه الصلاة والسلام فاقره او بلغه فلم يغيره وقيل التقرير يدل على الجواز الا في حق الكافر والمنافق فلا يدل تقريره له على جواز ذلك الفعل وبه قال امام الحرمين بناء على ان الكافر غير مكلف بالفروع والمنافق كافر في الباطن وقيل الا الكافر دون المنافق لان المنافق تجري عليه احكام المسلمين في الظاهر والاقوال الثلاثة حكاها المحلي . ثم ساق المصنف رحمه الله تعلى حديثا وجه مناسبته للترجمة ما اشتمل عليه من الآية الدالة على ان هاته الامة المحمدية معتصمون بالكتاب والسنة لان الله تعلى من عليهم باكمال الدين واتمام النعمة ورضي لهم الاسلام دينا وقد قدمه في كتاب الايمان لمناسبة اخرى فقال :

حدثنا الحميدي حدثنا سفيان عن مسعر وغيره عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال قال رجل من اليهود « هو كعب الاحبار رضي الله عنه قبل ان يسلم كما عند الطبراني في الاوسط » لعمر « بن الخطاب رضي الله عنه » يا امير المؤمنين لو ان علينا « معشر اليهود » نزلت هذه الآية اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا لاتخذنا ذلك اليوم عيدا فقال عمر اني لاعلم اي يوم نزلت هذه الاية نزلت يوم عرفة في يوم جمعة سمع سفيان من مسعر ومسعر قيسا وقيس طارقا

الكلام على هذا الحديث من وجوه الوجه الاول صرح المؤلف رحمه الله تعلى بالسماع فيما عنعنه اولا اطلاعا منه على سماع كل راو من شيخه وتنصيصا منه على وصل السند اذ العنعنة وحدها

قد قيل انها لا تدل على الوصل بل هي محمولة على الانقطاع حتى يتبين الوصل بمجيئه في طريق ءاخر انه سمعه منه لان عن لا تشعر بشيء من انواع التحمل وان كان هذا القول في غاية الضعف حتى قال النووي رحمه الله تعلى هو مردود باجماع السلف وقيل انها محمولة على الوصل لكن مع شروط وقع الخلاف فيها بينهم على اقوال وقد اشار الى جملة الاقوال شيخ الاسلام العراقي في الفيته المسماة بالتبصرة والتذكرة فقال :

وصححوا وصل معنعن سلم من دلسة راويه واللقا علم
وبعضهم حكى بذا اجماعا ومسلم لم يشرط اجتماعا
لكن تعاصرا وقيل يشترط طول صحابة وبعضهم شرط
معرفة الراوي بالاخذ عنه وقيل كل ما أتانا منه
منقطع حتى يبين الوصل

واقتصر الحافظ ابن حجر في نخبة الفكر على قولين منها ونصه : وعنعنة المعاصر محمولة على السماع الا من المدلس . وقيل يشترط ثبوت التقائهما ولو مرة وهو المختار . الوجه الثاني ظاهر الآية يقتضي ان الدين الذي كان عليه صلى الله عليه وسلم في غالب عمره ناقص لانها نزلت في ءاخر عمره صلى الله عليه وسلم وقد قيل انه لم يعمر بعدها الا واحدا وثمانين يوما او اثنين وثمانين يوما واجاب المفسرون عن هذا الاشكال باجوبة منها ما اشار اليه البيضاوي من ان المراد باكمال الدين ازالة الخوف عنهم واظهار القدرة على اعدائهم ومنها ان الاكمال انما هو بالنسبة الى ما يحتاجون اليه في تكاليفهم من تعليم الحلال والحرام وكلاهما عند الامام الرازي في تفسيره غير صحيح اما الاول فلانه يلزم عليه ان الدين كان من قبل قهرهم لاعدائهم ناقصا فيعود الاشكال وجوابه ان النقص انما يشكل لو كان نقصا قدريا اما ضعف اهل الدين عن قهر اعدائهم في صدر الاسلام واوله فهو واقع قطعا ولا يضر كما يشير اليه حديث بدىء هذا الدين غريبا وسيعود كما بدىء واما الثاني فلانه يلزم عليه انه لو لم يكمل الدين لهم قبل هذا اليوم لكانوا محتاجين اليه قبله فيلزم تاخير البيان عن وقت الحاجة وهو لا يجوز وفيه نظر لانا نمنع ان يكون هذا منه بل هو من تاخير البيان الى وقت الحاجة في النسخ والاتفاق بين المعتزلة واهل السنة على جوازه في خصوص النسخ وهذا منه قطعا ففي هذا اليوم قد انزل الله شريعة كاملة وحكما متبعا الى يوم القيامة لا نسخ بعده. سلمنا ان ما هنا ليس من النسخ فتاخير البيان الى وقت الحاجة ليس ممنوعا عند الكل بل انما نسبوا القول بالمنع للمعتزلة والجواز لاهل السنة ودليلنا على ذلك قول الله تعلى فاذا قرأناه فاتبع قرءانه ثم ان علينا بيانه وكلمة ثم للتراخي وكذلك قوله تعلى في قصة بقرة بني اسراءيل انها بقرة لا فارض، انها بقرة صفراء. انها بقرة لا ذلول، هو بيان لما امروا به من ذبح البقرة وهم لم يؤمروا الا ببقرة منكرة والمراد بها معينة فقد تاخر البيان فيها عن

وقت الخطاب بل وعن وقت الحاجة لانهم كانوا محتاجين لذبح تلك البقرة ليتبين امر القتيل وترفع الفتنة التي كانت بينهم والخصومات في امره على ان من جوز التكليف بما لا يطاق من العلماء وهو المعتمد جوز تاخير البيان عن وقت الحاجة ويدل لوقوعه اية البقرة المتقدمة كما علمت . الوجه الثالث مما فتح الله به على الفقير ان الاية الشريفة تضمنت تذكير نعم الله تعلى على الانسان بجميع انواعها الثلاثة الاتي تقريرها ومن ثم والله اعلم عبر باتمام النعمة وتقرير ذلك ان النعمة كما في احياء العلوم عبارة عن كل لذيذ واللذات بالاضافة الى الانسان من حيث الاختصاص والاشتراك على ثلاثة انواع . النوع الاول ما كان مختصا به لا يوجد في غيره من بقية الحيوانات وهي لذة العلم والحكمة وهي اشرف اللذات والنعم وان كانت اقلها وجودا اما بيان الاشرفية فلانها لازمة لا تزول ابدا لا في الدنيا ولا في الاخرة بخلاف غيرها من اللذات ولانها لا تمل بخلاف غيرها من اللذات كالطعام والوقاع ولانها لا تحتاج الى اعوان وحفظة بخلاف غيرها كالمال فان العلم يحرسك وانت تحرس المال والعلم يزيد بالانفاق والمال ينقص به ولانها لذة على الاطلاق فان العلم نافع لذيذ جميل في كل حال ابدا بخلاف المال فانه تارة يجذب الى الهلاك ومن ثم ذم الله تعلى المال في مواضع من القرءان وان سماه خيرا في مواضع واما بيان الاقلية في الوجود فلان العلم لا يستلذه الا عالم والحكمة لا يستلذها الا حكيم وما اقل اهل العلم والحكمة والاشارة الى هاته النعمة من الاية في قوله تعلى ورضيت لكم الاسلام دينا لان الاسلام كما قال البغوي لا يكون في محل الرضى الا بانضمام التصديق وهكذا اذا وقع في محل القبول نحو قوله تعلى ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه . النوع الثاني ما كان مشتركا بين الانسان وبعض الحيوانات من النعم واللذات وهذه لذة القهر والاستيلاء فانها كما توجد في الانسان توجد في الاسد والنمر ونحوهما والاشارة الى هاته النعمة من الاية بقوله تعلى اليوم اكملت لكم دينكم على بعض التاويلات المتقدمة فيه . النوع الثالث ما كان مشتركا بين الانسان وجميع الحيوانات وهي لذة البطن والفرج وهي اكثر الانواع وجودا واخسها ومن ثم اشترك فيها جميع الحيوانات حتى الديدان والحشرات والاشارة الى هاته النعمة من الاية بقوله تعلى فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لاثم فان الله غفور رحيم . احلت لكم الطيبات . وحينئذ فقد تمت نعم الله بجميع انواعها على هاته الامة المحمدية وقد كان هذا الاتمام في هذا اليوم الشريف فتاهل ان يتخذ يوم عيد يعظم في كل عام كما اشار الى ذلك كعب الاحبار رضي الله عنه ووجب ان تقيد هاته النعم العظام بالشكر فان شكر النعم يورث بقاءها وبالعكس وفي الحكم من لم يشكر النعم تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها فمن فتح الله على بصيرته ونور قلبه وطهر سريرته رجع الى مولاه بملاطفات الاحسان والا قيد اليه بسلاسل الامتحان . فمن لم يعرف قدر النعم بوجدانها . عوقب بوجود فقدانها . اذ مراد الحق من عبده الرجوع اليه طوعا او كرها . والنعم والنقم جندان من جنود الله تعلى يحوش عباده بهما اليه . فان قلت اذا كان شكري نعمة الله نعمة علي له في

مثلها يجب الشكر فكيف بلوغ الشكر الا بفضله وان طالت الايام واتصل العمر قلت قد سأل داود عليه السلام ربه عن ذلك فقال الاهي كيف اشكرك والشكر نعمة منك علي فاوحى الله تعلى اليه الآن شكرتني يا داود وقيل انه قال الاهي ابن ءادم ليس فيه شعرة الا وفوقها نعمة وتحتها نعمة فمن اين يكافيها فقال له تعلى اني اعطي الكثير وارضى باليسير وان شكر ذلك ان تعلم ان ما بك من نعمة فمني فحاصله ان البلوغ الى ذلك ليس الا بمحض فضل الله تعلى ورحمته وقد اشار الى هذا محمود الوراق في البيتين اللذين اوردناهما سؤالا ومثلهما قول الاخر :

لك الحمد مولانا على كل نعمة ومن جملة النعماء قولي لك الحمد
فلا حمد الا ان تمن بنعمة تعاليت لا يقوى على حمدك العبد

الوجه الرابع في اعراب قوله لو ان علينا نزلت هذه الاية هو على منوال قوله تعلى ولو انهم ءامنوا وقول الشاعر (ولو انما اسعى لادنى معيشة) وهو كثير قال في الخلاصة (وهي بالاختصاص بالفعل كان❊ لكن لو ان بها قد تقترن) وموقع ان مع صلتها في مثل هذا التركيب عند الجميع رفع فقيل على الابتداء وقيل على الفاعلية وعلى الاول فقال سيبويه وجمهور البصريين لا حاجة الى الخبر لاشتمال الصلة على المسند والمسند اليه وقال غيره لا بد من تقديره فقيل يقدر مقدما وقيل مؤخرا على الاصل وتقدير ذلك في نحو الآية ولو ثابت ايمانهم وفي الحديث ولو ثابت انزالها والقول بانه فاعل عليه الزمخشري والكوفيون والمبرد والزجاج وقد قاله الجميع في ما وصلتها في قوله لا اكلمه ما ان في السماء نجما . لا يقال ان حديث الباب لا يحسن تخريجه على قول سيبويه المتقدم من عدم الاحتياج الى الخبر لتوجيه الاستغناء عليه بالاشتمال على المسند والمسند عليه معا واين المسند اليه في هذا الحديث لانا نقول المسند اليه اما ضمير الشان المحذوف والفعل خبره او هو المسند اليه والخبر المجرور على اعتبار تجريده من الزمان وتقديره بالمصدر من غير اداة سبك وهذا وان نص عليه النحاة في الفعل المضارع في نحو تسمع بالمعيدي ونص عليه عبد الحكيم في الافعال الماضية الواقعة في التعاريف لكن الظاهر ان يجوز ايضا على قلة في غير ما ذكروا عند ظهور المعنى اذ لا مانع منه . الوجه الخامس ذكر الفقهاء في كتاب الحج انه يسن الجمع بين الظهرين مع القصر جمع تقديم في يوم عرفة وانه اذا وافق الجمعة فتصلى ظهرا والاشارة الى المسالة الاولى بقول خليل وجمع بين الظهرين اثر الزوال والى الثانية بقول ابن الحاجب والصلاة سرية ولو وقعت جمعة وقد حكى شارحه سيدي خليل في التوضيح مباحثة وقعت بين الامامين مالك وابي يوسف رحمهما الله بحضرة الرشيد في هاته المسالة وان الذي استقر عليه رايهما انها تصلى ظهرا بدليل انه عليه السلام وافق الجمعة بعرفة في حجة الوداع وصلى ركعتين لم يجهر فيهما وهذه قصة مشهورة وقد اعتنى بنقلها جماعة من العلماء منهم شهاب الدين القرافي ذكرها في الفرق الخامس والثمانين من فروقه وكل من هاتين المسالتين مشكل من جهة انه يتضمن ترك الواجب لغير ضرورة

وهو من تاخير صلاة العصر الى وقتها في المسالة الاولى وترك الجمعة في المسألة الثانية وفيه الاحتفاظ على المندوب واضاعة الواجب ولا يقدم مندوب على واجب لفضله عليه بصريح قوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعلى ما تقرب الي عبدي بمثل اداء ما افترضته عليه والجواب عن ذلك كما في الفرق المذكور اما في المسالة الاولى فلا نسلم ان ترك تاخير الصلاة الى وقتها كان في ذلك اليوم لغير ضرورة بل هو لضرورة الحاج في ذلك اليوم العظيم للتفرغ للاقبال على الدعاء والابتهال والتقرب اللائق به اذ هو يوم لا يكاد يحصل في العمر الا مرة واحدة بعد اقتحام مشاق الاسفار وقطع البراري والقفار فكان هذا ضررا اوجب التقديم وتلاشت معه مصلحة وقت العصر واما في المسالة الثانية فلان ترك الجمعة في ذلك اليوم كان بموجب ان الغالب على الحجاج السفر والمسافر فرضه الظهر لا الجمعة وعلى هذا فلم يترك الواجب هذا بالنسبة الى الغالب وهم المسافرون واما المقيم بعرفة او من كان منزله قريبا منها فحكمه حكم الغالب بالتبع له وكلاهما جواب حسن واما ما اجاب به القرافي ثانيا في الفرق المذكور عن المسئلتين معا من ان القاعدة ان الاوامر تتبع المصالح الخالصة أو الراجحة والنواهي تتبع المفاسد الخالصة اوالراجحة وانه على مقدار مصلحة الفعل يكون ثوابه وحينئذ فما قدمه الشارع من المندوبات على الواجبات فنستدل به على ان مصلحة ذلك المندوب اكثر من مصلحة ذلك الواجب المتروك فهو جواب لا يصح من وجوه الوجه الاول أن مقتضى الملازمة بين مقداري المصلحة والثواب ان لا يكون مندوب اكثر مصلحة من واجب اصلا لتفضيل الواجب عليه مطلقا كما تقدم. الوجه الثاني ما ذكره محشيه ابو القاسم ابن الشاط من انه امر على خلاف ما ذكر وان المعروف ان المصالح تتبع الاوامر والمفاسد تتبع النواهي لا ما ذكره من العكس قال وبيان ذلك اما في المصالح والمفاسد الاخروية فالامر واضح اذ المصلحة هي المنفعة والمفسدة هي المضرة ولا منفعة اعظم من النعيم المقيم ولا ضرر اعظم من العذاب المقيم واما في المصالح والمفاسد الدنيوية فيشهد لذلك دلائل من الظواهر الشرعية من ذلك قوله تعلى ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ومنها قوله تعلى واتقوا الله ويعلمكم الله ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم من اخلص لله اربعين صباحا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه. الوجه الثالث وهو مسك ختامها هو أن ما ذكره غير مطرد في جميع الاعمال فانا نجد كما قال القرافي نفسه في الفرق الذي بعده استواء العملين في المصلحة من كل وجه ومع ذلك يحكم الشارع بتفضيل احدهما على الآخر وذلك كتكبيرة الاحرام بالنسبة الى غيرها من سائر التكبيرات بل قد وجدنا اختلاف العملين في المصلحة ومع ذلك حكم الشارع بتفضيل الاقل منهما على الاكثر كتفضيل القصر على الاتمام وحينئذ فلا غنى عن الرجوع الى محض المشيئة والامتنان كما جاء ان بعض الاذكار مع خفته على اللسان وقلت تعبه يملا الميزان في حديث كلمتان حبيبتان الى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم انتهى. جمعه في ءاخر رمضان عام ثلاثة وسبعين ومائتين والف فقير ربه صالح النيفر كان الله له بمنه ءامين.

التعاضد المتين

بين العقل والعلم والدين

بقلم العلامة المصلح الهمام الشيخ محمد الحجوي
وزير معارف الحكومة المغربية الشريفة

١١

خطر اللادينية على الاسلام

ليست اللادينية من مبتكرات مصطفى أتاتورك وانما هو مقلد لمن تقدمه وان خطرها لاعظم الاخطار التي منيت بها هذه الامة منذ زمن البعثة النبوية الى الآن.

فان اللادينية تقلب حياة الامة المتدينة راسا على عقب فتفسد الافكار والاخلاق وتنتشر بها الموبقات والفواحش وتفقد الثقة بين وحدات الامة وتذهب الاعراض ضحية الاباحة الوقحة. وتفسد المعاملات وتضيع الاداب العائلية واصول التربية الاسلامية المبنية على اسس النزاهة والحشمة. ويضمحل كل اصل بنيت عليه حياتنا وينقلب علمنا جهلا وجدنا هزلا ونصير أضحوكة بين الامم. وما دخلت في دماغ امة الا ودخلتها الفوضى والثورات واباحة الدماء فللموت الزؤام أهون تجرعا من تجرع سموم اللادينية المخربة. نعوذ بالله من جهد بلائها. وظلمة عمائها.

ولنختصر لكم في بيان سبب انتشارها فأقول :

ان الخليفة عبد الحميد الثاني العثماني كانت له حمية اسلامية فيما هو مشهور عنه، غير انه ارتكب خطأ عظيما كان سببا لانتشار اللادينية (الالحاد) في الممالك الاسلامية التي لنظره ومنها سرى لغيرها سريعا

ذلك انه اراد إدخال النظم العصرية والمعارف الحديثة لمملكته، فبعث بعثات من الشباب الاسلامي لتلقي العلوم العصرية في ممالك اروبا المختلفة المشارب والمذاهب : فرانسا، ابريطانيا، المانيا، إيطاليا وغيرها : كان الواجب على عبد الحميد حامي الدين ان يقدم تهذيب تلك البعثات تهذيبا صحيحا اسلاميا قبل ارسالها الى دار المنازع والمذاهب ـ كما فعل محمد علي باشا مصر قبله ـ حيث اختار بعثاته من تلاميذ الازهر الانجاب المهذبين الثابت ثباتهم على عقائد الدين كالطهطاوي والرشيدي وغيرهما لكن عبد الحميد غلط غلطا فادحا فوجه شبيبة لم يتمكن التهذيب الاسلامي من اعماق قلوبها، ولا رسخت ملكته في افئدتها، فاختلطت بشبيبة مختلفة الميول والمعتقدات شبيبة

لم يتمكن التهذيب الاسلامي من اعماق قلوبهما . ولا رسخت ملكته في افئدتها . فاختلطت بشبيبة مختلفة الميول والمعتقدات شبيبة اروبية لادينية او متدينة بالكاطوليكية واخرى بالبروتستانية فصادف منها قلبا خاليا - إفرغ من طنبور - من كل تهذيب وايمان . فاصطبغت قلوبها بصبغات غيرت لون الاسلام النقي فتمكنت منها معتقدات غير عقائد الاسلام . واصبحت لها ميول سياسية جمهورية وفاشيستية وفوضوية وبلشفية وغيرها . خلاف الميول التي ببلادها ، بل كل من تعلم في مملكة جاء بافكارها ومذاهبها السياسية ؛ زيادة على المذاهب الدينية فتبلبلت المذاهب وكثرت النزعات كما تبلبلت الالسن واللغات . وحصل الخلاف وتنوع الشقاق بعد الاتفاق ومن اقبح ما جاءوا به في تحفة القدوم الالحاد العظيم ، واللادينية الوقحة . القاضية على كل خير وكل فضيلة وتهذيب .

ومن اسباب عظم المصيبة ان عبد الحميد ما كان يفكر هو ولا من قبله في ترقية الصناعة ولا الزراعة ولا كنوز المعادن ولا تحسين التجارة والعمارة . وانما همهم الوحيد العسكرية مكروب سرى في عروقهم من ءابائهم الذين كانوا امة جلد وجند وتغلب وقهر وحرب .

فكانت اكثر البعثات عسكرية فاصبحت تنشر افكارها بين الجنود . وصيروا الجند ءالة صماء في يدهم فبعد ما تخلصت تركيا من فساد جند الانكشارية اصبحت تعاني ويلات الجند النظامي المتفرنج . وكان هذا البلاء اشد لان الضربة قاسية في صميم الدين .

فبعد ما كان العالم الاسلامي يعلق كل ءاماله على هذا الجند المنظم ليكون حصنا منيعا للدولة الاسلامية ومعقلا للخلافة اصبح بالعكس ءالة هدم للخلافة ونشر افكارا تعفي اثر الاسلام في الشرق والغرب وهذا الجند هو الذي انزل عبد الحميد عن كرسي الاسلام ثم بعده اذهب الخلافة وصارت في خبر كان .

وهذه البعثات هي التي نشرت افكار القومية الضيقة فحرضت الترك على تتريك العرب وبقية الشعوب المنضوية تحت لواء الخلافة العثمانية اي تصيرهم تركا لغة وجنسية رغما عن تمسك الشعوب بلغتهم وقوميتهم . وما كان الخلفاء العثمانيون . يفكرون مثل هذا التفكير المفكك لعرى الخلافة بل كان الخلفاء متمسكين بالدين يحمونه وينصرونه ويعظمون القرءان والعربية والنبي العربي وءاثار العرب كما انهم يحترمون لغات بقية عناصر الخلافة العثمانية .

وعلى الاقل كانوا يحاملون الشعوب الضعيفة التي تركبت منها الخلافة ولا يمسونهم في لغة ولا عادة ولا دين وبهذا بقيت الخلافة في عقب الاتراك اكثر من ستمائة سنة مدة لم تتمتع بها دولة قبلهم رغما عن تقصيرها في نشر التعليم الذي هو حياة الامم .

ومن هذا الجند تكونت جمعية الاتحاد والترقي او الالحاد والتدلي وهي التي جاءت بمبدإ القومية التركية والتفوق الجنسي المنافي للاسلام والتي صارحت تلك الشعوب بوجوب تتريكها وابدال لغتها والانسلاخ من قوميتها ومقوماتها . فاغضبت عناصر الخلافة وملأت القلوب غيظا وإحنة . العراق . والشام . واليمن . ومصر . والجزيرة العربية . وغيرها .

فلما جاءت الحرب العظمى وظهر الوهن على جيوش الدولة انفرط عقد الخلافة واصبحت كل امة ولا سيما العرب تجاهر الاتراك بالعداء . ولعلها محقة فيما فعلت ، وقد نصب الترك المشنقة للعرب وقتلوهم تقتيلا ، فلم يزدهم ذلك الا تمسكا بلغتهم وقوميتهم بل زادهم ذلك تحمسا وصلابة ضد قومية الترك وكان سببا في ضياع مجد الترك وتحرير العرب واستقلالهم .

ولعلنا كنا مخطئين في تخطئة الامة العربية في انفصالها عن الترك ولعلها هي التي قد صادفت الصواب فيما فعلت .

اذ لو بقيت خاضعة للترك لبقيت متاخرة وتحت التسلط التركي الى الابد .

ولكنها الان تنال مرغوبها شيئا فشيئا ولا تبذل فيه الا اقل القليل مما تبذله لو بقيت راضية بالخسف والذل التركي .

وبالجملة هذه تجربة سلكتها تركيا في تتريك العرب فباءت بخسران عظيم لم تشهده في تاريخها .

وها هي في هذا العصر تجرب تجربة اخرى بيد مصطفى كمال وهي تأوروب الترك اي تصييرهم اروبيين في كل شيء حتى في الدين كاحكام الزواج والطلاق والسفور والارث وحتى في اللباس والقبعة والعوائد بل وحروف الكتابة ، واخاف ان تكون العاقبة خسارة وافلاس هذه التجربة ولكننا ننتظر اللعبة الاخيرة ولله عاقبة الامور .

واسال الله ان يهدي اخواننا الاتراك لما فيه صلاحهم حالا ومئالا وان يسلك بنا وبهم مسالك النجاة وان يقيهم شر الفتن والثورات

هذا وان افكار اللادينية لم تبق مقصورة على ضباط الجيش العثماني بل سرت سريان النار في الهشيم في سائر شبيبة بلاد الاسلام شرقا وغربا شمالا وجنوبا لا سيما الشبيبة التي تتلقى دروسا في اروبا قبل الدروس الدينية .

ومن العجب انها افكار سرت الى بعض تلاميذ المعاهد الدينية الشهيرة والتي هي المعدة للدفع في نحر اللادينية مثل الازهر والزيتونة والقرويين ولكنا نحمد الله على ندرة ذلك ونسال الله ان يوفق رجال هذه المعاهد لخنق هذه الحركة في مهدها قبل استفحالها بطرق مجدية .

وقد علمت ان السبب الاقوى في ذلك هو اهمال التربية في الصغر واغفال تعليم مبادي الاسلام الحقة بكيفية ناضجه سهلة ومفيدة وواضحة غير ملتوية وخالية من الفلسفة اللفظية والقشور التي توصلا الى نتيجة ونبذ الخيال نبذا كليا .

فقطع العلاقة بين الشبيبة الاسلامية وبين اصول التربية الاسلامية الحقة السلفية القرءانية والسيرة النبوية وتاريخ الاسلام الزاهر هو الذي اوجب هذه الحالة الاسيفة ، حتى صارت بلاد الاسلام تخرج مثل كتاب مصطفى كمال .

ومن موجبات الاسف الشديد : ان بعض من ينظر في شيء من كتب الاسلام من هذه الشبيبة قبل ان يتذوقها يصبح من دعاة الطريقة الوهابية وهو لم يعرف هذه الطريقة ايضا حق المعرفة . فاول ما يبدؤ به تكفير اخوانه المؤمنين بانهم طرقيون يعبدون الاصنام حيث عظموا الموتى وايجاب هدم المساجد المبنية عليها ثم يتدرجون الى ما لا تقره وهابية ولا غيرها من طوائف الاسلام وهو سب نفس الموتى من السلف من علماء وايمة كبار ثم الى سب الصحابة وتجريحهم ومن هناك الى هدم اساس الدين بالطعن في النبوات ، فتنقلب الوهابية لادينية ، وتذهب الفضيلة وتاتي الرذيلة .

ثم ياتون بما يناقض تشدقهم فيوجبون تشييد الابنية الفخمة على قبر امثال المعري وينصبون التماثيل في الميادين لمثل مصطفى كمال ويقفون امامها مطاطئي الرؤس وذلك هو عبادة الاوثان الخبيثة سموها بذلك او وضعوا لها لقبا ءاخر مزخرفا فيضعون في اقبح خزي ووبال . ويعبدون الاصنام باهتبال

فهدمهم لقبور من بنى مجد الاسلام وأفنى عمره فيه وقاسى الاهوال في نشره هو هدم لمجدهم الحقيقي وتاريخهم الذي يرجعون اليه وينبغي ان يكون قدوة لهم فيما يزعمون من التجديد وتشييدهم لغيره هو بلا شك من التمسك بالخيال الذي لا نجاة معه من النكال . واسال الله ان يلهمهم ويلهم خصومهم طريق الاعتدال ويجعلنا جميعا ممن عض بالنواجذ على وصاية القرءان (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) وجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه ءامين والحمد لله رب العالمين

محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الجعفري

الامة الاسلامية تنشد الاصلاح

(بقية الصفحة عدد ٢٦٠)

وهذا في الحقيقة نظر قاصر منشأه عدم فهم ما يعنيه المصلحون من قولهم ان من العلل التي اصابت المسلمين انحرافهم عن تعاليم الاسلام فهم يقصدون بذلك كل ما تدل عليه هذه الجملة من المعاني .

فالاسلام يدعو الى عبادة الله وتقواه ومتى كان المسلم عابدا تقيا صفت نفسه وتأهلت لكل الفضائل .

والاسلام يدعو الى الاخلاق الحميدة والصفات الكاملة ومتى كان المسلم متخلقا بآداب الاسلام صفت سريرته وحسنت سيرته وسلم من تأثيرات النفس الامارة بالسوء فأمن الناس من شروره وعاشر الناس بالمعروف وكان مثال الكمال الانساني

والاسلام أحاط طرق المعاشرة بسياج المروءة والعدالة فمتى راعى المسلم الحدود التي حدد بها الشرع الاسلامي طرق المعاشرة والمعاملات الخاصة والعامة سلمت العائلة الاسلامية من الفوضى وخلصت الهيئة الاجتماعية من العطب

والاسلام دعى الى الوحدة والاخاء والعزة ومهد الى ذلك السبل فمتى روض المسلم نفسه على التضحية والقيام بالواجب وأحس بانه عضو رئيسي في جسم الامة به عزها أو انحطاطها وفي سلامته سلامتها أمكن للامة أن تعتمد على بعضها وتسير متكاتفة متراصة الصفوف الى الغاية التي فيها عزها وحياتها .

والاسلام يدعو للاخذ بأسباب العمران فمتى ضرب المسلمون بسهم صائب في سائر العلوم وتعمقوا فيها أمكن لهم أن ينالوا حظهم في هذه الحياة غير منقوص منه ولا مشوها كما ناله أسلافهم الصالحون وكما وعدهم به الله

والاسلام يأمر بنبذ العادات الفاسدة والاعتقادات التي لا تلائم قواعد الدين الحنيف فمتى أزاح المسلمون عن نفوسهم تلك الوساوس والخرافات التي تعلق بعقول الناس ولم يستسلموا لتأثير العادات الممقوتة ولم يتركوها تسيطر على نفوسهم ولم يجعلوا للمشعوذين الضالين سلطانا عليهم سلمت عقولهم وحواسهم وتأهلت بصفائها للاخذ باسباب السعادة

هذا بعض ما يعني من تلك الكلمة الجامعة التي عدها المصلحون احدى الادوية التي يجب أن تعالج بها أمراضنا . وأعتقد ان الوقوف على موضع العلة ووصف الدواء الذي يزيلها لا يوصلان الى نقاوة الجسم الا اذا اعتمدنا على امرين لهما خطرهما الاول حسن المعالجة وذلك بمعرفة طرق العلاج . والثاني استعداد الامة للقبول وانقيادها لذلك وبدون هذين الامرين لا يتم شيء . وهذا هو الذي يجب ان نهتم به اهتماما شديدا « للبحث بقية »

محمد الشاذلي ابن القاضي

الملاجي الخيرية الاسلامية

في الدولة الموحدية والمرينية بالديار المغربية

بقلم العلامة الجليل الحافظ المولى
محمد عبد الحي الكتاني دام نفعه

حفظ التاريخ من مستشفيات فاس المذكورة على كثرتها هذا المستشفى الكبير المعروف الآن بالمارستان فهو الاثر الخالد الباقي الدال على اعتناء الدولة المرينية بالمعتوهين والضعفاء والمساكين ومن لا مأوى لهم ولا ملجأ وهذا المستشفى لا اظن انه يوجد باوربا على كثرة مستشفياتها مستشفى يضارعه في القدم ومن العجيب احتفاظ هذا المستشفى بمركزه رغما عن كثرة الحروب والفتن والاهوال التي توالت على فاس في هذه القرون السبعة التي مضت عليه ويذكر الشيخ بناني في حواشي الزرقاني كما علمت مما سبق انه كان يكفن فيه الغرباء ويغسلون يعني من اوقافه ويذكر الوزان كما علمت انه كان الغريب الافاقي الذي يدخل الى فاس له ان يقيم به ثلاثة ايام فكان هو على هذا بمنزلة فندق ينزلها السفر (اوتيلات) ويذكر الوزان في محل ءاخر انه كان يقوم به الشعراء اصحاب ما يسمى اليوم بالملحون يجرون عوائدهم ليلة المولد النبوي من انشاء المدايح النبوية بمحل مخصوص هناك وهذه العادة وقع الاحتفاظ بها الى وقتنا فيقوم حافظ من حفاظ الشعر الملحون في المولد وعاشوراء ويتلو ملحونه ويحلق عليه الناس وذلك تحت شجرة توتة هناك وكان يعد ايضا ملجأ للقلاق (بلارج) الطير المعروف من تكسر او اصيب منه ياوي اليه وتجري جراية لمن يضمده ويداويه ويطعمه، وكان به وقف على الموسيقيين الذين يضربون به النوبة على المعتوهين لما ذكره ابن سينا وغيره من الاطباء ان من النوبات العصبية ما يداوى بالنغمات والاوتار على حالة تسلية. ومن العادة انزال المغتسلات والمحافل الخشبية لغسل الاموات من المسلمين وحملهم الى مدافنهم تصنع اذا مات غني من ماله ثم توضع في المارستان المذكور يحمل عليها الفقراء مجانا وكثير من الناس كانوا يستخبرون عمن مات في فاس بتفقد هذه المغاسل صباحا في المارستان ومن الاموال الموقوفة عليه يجري تجهيز الضعفاء والغرباء الذين يموتون بفاس كما ان لهم مدفنا مخصوصا بهم خارج باب الفتوح يعرف بفدان الغرباء ومما كان يوضع بالمستشفى المذكور طبل ركب الحاج وهو طبل عظيم من نحاس كان امير ركب الحاج يستصحبه معه يضرب فيه وقت نهوض الركب ووقت جلوسه ضربة الاعلام بالتهيوء للنهوض فكان بالمارستان المذكور يوضع الطبل المذكور حيث انه من الاحباس العامة. وكان بجانب المارستان المذكور قديما محكمة المحتسب بها موضوعة كتب الحسبة وءالة الجزر والتعزير يجلس فيها المحتسب

وكتابه واعوانه لاجراء اعمال وظيفه الذي كان أكبر وظيف يذكر في الخطط الشرعية لان غايته الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذه مادة واسعة لا نهاية لها ولا حصر فكان للمحتسب السلطة التامة حتى على دور الخلفاء والملوك ويراقب وقت جلوس القاضي وانتهاء عمله وسيره في محكمته وهكذا مما له كتب مخصوصة واشغال وسلطة واسعة وكان قصدهم بجلوس المحتسب بجوار المارستان ووضع المارستان بجوار العطارين والقيسارية والضريح الادريسي وعلى قرب من القرويين التسهيل على اهل البلد نساء ورجالا وصبيانا في تناول حاجياتهم والوقوف على مرضاهم وتسهيل توصل مرضاهم بالطعام والشراب على اقرب حال فتخرج لذلك حتى العواتق والمخدرات بين الدور والرحاب والمساجد فلو وضع المارستان المذكور ابعد من هذا الموضع لضاعت خطوات المخدرات والمحتجبات ووقعوا فيما لا يرضي المجتمع الاسلامي وعوائده الموروثة في القديم والى زماننا هذا يعد سجنا للنساء وملجأ للقطاء والافارير الصغار حتى يبحث عنهم اهلهم ويقفوا عليهم فلذلك نرى ان العناية التي تريد الحكومة صرفها الى هذا الملجأ الخيري من اعظم ما يخلد لها به الفخر الدائم الذي لا يبلى ولا يبيد سيما وهي تريد الاحتفاظ بشكله وموقعه واوقافه وتدخل عليه من التحسينات العصرية ما يناسب روح العصر ولاشك ان توسعته واضافة بعض الدور والحوانيت اليه وجعل حديقة به لترويح المعتوهين وتنشيط المساكين كل ذلك مما تشكر عليه الحكومة وتتحاشى نقله من محله الى خارج المدينة لئلا يكون ذريعة للقضاء على معهد خيري قديم لا مثيل له في القدم في العالم . ومن الملاجيء الخيرية التي كانت ولا زالت بفاس ضريح الشيخ ابي غالب الصاريوي بصاريوة من فاس وابو غالب هذا هو الشيخ ابو الحسن علي بن ابي غالب الحسني الادريسي الصاريوي اليازغي من اهل المائة الثامنة وكان يعد من حكماء فاس وجراحيها علمته اولا امه وهو صغير صنعة الحجامة وعلاج الجراح والقروح ثم اخذ عن بعض المماليك من الاعلاج الذين كانوا يحترفون بتلك الصنعة واخذ عنه هو جماعة منهم الحاج حم الورشي قيل مولاهم وهو جد اولاد ابن حم الخراط ومن هناك صار الشيخ المذكور وضريحه ملجأ ومأوى لاصحاب العاهات والامراض . وفي القرن الماضي جدد بناء هذا الضريح السلطان المعظم ابو الربيع المولى سليمان بن السلطان ابي عبد الله سيدي محمد بن عبد الله العلوي المتوفى سنة ١٢٣٨ وجعل فيه مسجدا للصلاة وبيوتا للمرضى وذوي العاهات الذين ياتون اليه وقام بنصب سقاية ماء بظهره وذلك على يد قائد فاس الحاج محمد الصفار . ومن الملاجيء الخيرية التي كانت بفاس على عهد بني مرين دار بدرب السعود كانت موقوفة على سكنى الضعفاء والمساكين ذكرها القادري في النشر الكبير في ترجمة الشريف محمد بن العربي بوطالب الجوطي انظر قصتها فيه ودار درب السعود هذه كانت من اكبر دور فاس ضخامة وسعة رحاب وكثرة مياه وبها عرف الدرب والنسبة الى احد وزرائهم . ومن الملاجيء الخيرية بفاس على عهدهم بلاد كانت محبسة على شراء الحبوب لترمى للطيور قوتا يلتقطونه

في كل يوم بباب الحمراء، ومنها عرصة بباب بني مسافر موقوفة على الضعفاء والمساكين يعرسون فيها، ومن الملاجيء الخيرية التي كانت بفاس على عهد بني مرين دار يعرس فيها العمي فكلما تزوج اعمى بعمياء ممن لا سكنى لهم عرسا بها ثم سكنا وهي معروفة الآن بين الصاغة ورحبة قش وتعرف بدار الشيوخ برياض جحا، ومن الملاجيء الخيرية التي كانت بفاس دار لتعريس الشرفاء المقلين فاذا تزوج شريف بشريفة لا سكن لهما عرسا بهذه الدار وهي ذات مرافق ومنظر وبهاء وهي بوسعة العيون الى الآن ومن الملاجيء الخيرية بفاس حانوت بجهة بوطويل قرب القرويين اوقفت ليصرف كراؤها في شراء اواني الفخار تعطى للصبيان الصغار اذا خرجوا من مدارسهم الصناعية (درازات) باواني طعامية فتكسرت لهم في الطريق فاذا استحى الصبي من معلمه ذهب للمكلف فاخذ آنية جديدة بدل التي تكسرت له، ومن الملاجيء الخيرية بفاس ما ذكره الشيخ ميارة والشيخ التاودي بن سودة كلاهما في شرح التحفة والبليدي في حواشيه على الزرقاني والدسوقي في حواشيه على الدردير انه كان بقيسارية فاس حانوت (كبنك) بها دراهم موقوفة للسلف فما زالوا يتسلمونها ويردون فيها النقص والنحاس حتى اندرست وهذا من اعظم ما يدلنا على الرقي الفكري والعاطفة الانسانية والدينية في الزمن السابق وكيف كان عملهم على تنشيط الصانع والتاجر وكيف كانوا يمدون لذوي الحاجات يد المعونة ويرصدون الارصادات فهذا لاشك مما سبقنا به اوربا بقرون ولله في خلقه شئون ومن نحو هذا ما في ترجمة ابي عبد الله محمد البطيوي من اهل القرن ١٢ من سلوك الطريق الوارية للزبادي من انه كان يبدل الدراهم بالفلوس ويصبح بها كل يوم بسوق الغزل من فاس ومن اراد تصريف درهم صرفه له فهذا منه تسهيل على المرأة والصبي طريق الاخذ والرد في المبيعات جزاه الله خيرا على نيته ومن المراكز الخيرية بفاس ونواحيها على عهد بني مرين ما وقع في ترجمة العارف الكبير احد مفاخر فاس ابي عبد الله محمد بن ابراهيم ابن عباد النفزي المتوفى عام ٧٩٢ وهو الذي قال فيه في نفح الطيب انه عند اهل فاس بمثابة الشافعي عند اهل مصر انه اوصى بربعة كانت محفوظة عند رأسه ان يخرج ما فيها بعد موته ويشترى بها ربع يكون حبسا على مسجد القرويين ففعل ذلك فحسب ما فيها فاذا هو ثمان عشرة مائة مثقال من الذهب وذلك جملة ما قبضه في اجرته مدة خطابته وامامته بالقرويين وحكي ان الربع المشترى هو حمام القلعة بعدوة فاس القرويين بالقطانين منها قال في نشر المثاني ومن عجائبه انه يقصده اهل المرض المعروف بالحب وهو المعروف بحب الافرنج الذي هو من الامراض الشاقة يغسلون به للاستشفاء فيشفون واعجب منه ان لا يتأذى به من غسل معهم من السالمين ولم يسمع ان احدا غسل به اعداه شيء استقرئى ذلك منه ازمنة طائلة حتى صار لا يتجنبه احد اه ولا غرابة في هذا ولا عجب فان فاسا فيها وبدائرتها من الينابيع ما لا يوجد حول مدينة اخرى في العالم وذلك ان منشيء المدينة الاسلامية في المغرب الامام الاكبر المولى حسين ادريس بن ادريس رضي الله عنهما لما اراد بناء عاصمة بالمغرب باسمه طاف حول درن الى تادلا ينظر محلا مناسبا لاتخاذه عاصمة جامعة بين ما يكون مصحة للابدان وعونا على اقامة دين الملك الديان ويتخذ دائرة لدولاب العمران فاختار موقع مدينة فاس لغايات لا يتوخاها ويقصدها الا عظيم من حكماء البشر ومصلح كبير من رجال العمران والغيرة على صحة بني الانسان وتسهيل الحالة الاجتماعية للسكان (يتبع)

صفحة من تاريخ تونس

القضاء الشرعي

بقلم العالم المؤرخ امير الامراء سيدي
محمد بن الخوجه مستشار الحكومة

قلنا في المقالة الثانية من هذا المبحث ان سفينة الدهر تجري في بحار المشيئة وان انحصار سلطة القاضي الشرعي في نوازل الاستحقاق بين الرعايا وفي احكام الاحوال الشخصية من انكحة ومواريث وشبه ذلك انما هو ثمرة تطورات وفيرة في احيال كثيرة وحسب الانسان الخبير بتقلبات الزمان ان لا يستنتج من ذلك اكثر من العبرة التاريخية التي يجد لها نظائر واشباها كثيرة في بطون الدفاتر والكتب ففي عهد انحطاط الدولة العباسية كان القضاء يعطى التزاما بالمقاولة (بالسوق والدلال) على ان يستبد القاضي بفروض التعيين ونحوها في مقابلة مال سنوي يدفعه للحاكم وأول من التزمه عبد الله بن الحسين بن ابي الشوارب في بغداد سنة ٣٥٠ بمقدار مائتي الف درهم وكان ذلك مبدا السعي في طرق استنزاف اموال الخصوم وارزاق اليتامى ومن اجل ذلك وشبهه احدثوا ديوان المظالم للنظر في ظلامات الناس من اعتداء العمال والقضاة وكان اول ظهوره بالدولة الفاطمية بمصر – والحديث هنا قاصر على رجال الشرع المطهر بهذه الديار التونسية المختارة في هذا الزمان وهم بفضل صبغتهم الدينية المستمدة في اصلها من الانتساب لصاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم احرزوا بحق وجدارة على منزلة محاطة بسياج المهابة والاجلال في نظر عامة المسلمين وهذه الحيثية الدينية الشريفة نراها نضجت واخذت نصابها من الرسوخ في الاذهان بفضل ما توفق له علماء العصور الماضية من مظاهر التقوى والانقطاع للجناب الاقدس والسير على سنن من سلفهم من ائمة الدين واقطاب الملة بهذه الديار وما زالوا بفضل الله وتوفيقه آخذين بذلك طبقة بعد طبقة الى هذا الزمان فالفقيه المتوفرة فيه تلك الصفات صفات التقوى والعلم والعمل حق علينا ان نرعى له الذمام وان نستمد من انوار فضله وان نسعى اليه بتحية طيبة وسلام

ولننتقل الآن للتعريف بمنصب شيخ الاسلام بتونس فهذا اللقب الطنان العالي كان في البدء نعتا لمن ينتهي اليه العلم بين اهل عصره فالامام احمد بن تيميه كانوا يلقبونه بشيخ الاسلام في المائة السابعة وكثير غيره من ائمة الدين قبله وبعده . ويلوح ان ظهور الالقاب التفخيمية في الاسلام كان بظهور السلطة الفارسية في جسم الخلافة العباسية واول بارقة ظهرت من ذلك التلقيب بمثل جلال الدين وشمس الدين وشهاب الدين في اهل العلم وعضد الدولة ونظام الملك ويمين الدولة في رجال السياسة حتى اذا استقرت الخلافة في آل عثمان اتخذوا لهم شيخا للاسلام بالعنوان الرسمي له حق الاشراف على دواليب النظام الشرعي

باجمعه كما سياتي بيانه وبالتالي راج استعمال لقب شيخ الاسلام بتونس بعد دخولها في طاعة ءال عثمان فكانوا في سنة ١١٣٣ يلقبون الفقيه الشيخ علي الصوفي من ائمة الحنفية بشيخ الاسلام ولم يكن لهم يومئذ بتونس غير مفتيين وقضاة بل كانوا يلقبون ٥٠٠ في وقت واحد ثلاثة نفر آخرين من العلماء بلقب شيخ الاسلام. سأل بعض علماء الازهر صاحب مجلة المنار ايام كان يشارك في تحريرها الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية عن تاريخ منصب شيخ الاسلام فاجابه بما ياتي : هذا اللقب من الالقاب الحادثة لمنصب حادث ووظيفة شيخ الاسلام في الدولة العثمانية الفتوى الرسمية فهو المفتي الاكبر في المملكة واحد اعضاء مجلس الوزراء وقد وضع الملوك هذا المنصب بعد ما صارت امور المسلمين في ايدي الجاهلين بالشرع من السلاطين واعوانهم الوزراء فمن دونهم وكانوا محتاجين الى من يفيدهم حكم الشرع في بعض ما يعرض لهم في سياستهم للامة لا سيما قبل ان يستبدلوا القانون بالشرع في كثير من احكامهم وكان اختراع هذا اللقب في اوائل القرن التاسع زمن السلطان مراد خان الثاني الذي ولي السلطنة في الثامنة عشر من عمره وقد وليه في زمنه محمد شمس الدين سنة ٨٢٨ وفخر الدين العجمي سنة ٨٣٤ وشيخ الاسلام في الدولة هو الذي يولي القضاة والمفتين في المملكة كلها باذن السلطان . هذا هو اللقب الرسمي والعلماء كانوا يطلقونه على البارعين في علم السنة وفقه الدين كابن تيمية والعز بن عبد السلام ويطلقونه في مصر على شيخ الجامع الازهر اه .

اما في تونس فقد اشتهر لقب شيخ الاسلام بها بعد سفر الشيخ علي الصوفي للاستانة في مامورية رسمية وعوده منها لهذه الديار فكان اهل العلم يطلقون هذا اللقب على من ينفرد بالتفوق بينهم من شيوخهم سواء كان حنفيا او مالكيا ولكن ذلك لم يكن نعتا رسميا لهم فى نظام الدولة بل كانوا في الرسميات يلقبون كبير المفتين تارة بالمفتي الاول وءاونة بالمفتي الاكبر الى ان استقر عنوانه الرسمي في لقب الباش مفتي ومعنى « باش » في التركية « راس » فالباش مفتي معناه راس الفتوى او راس المفتين وهكذا استرسل الامر الى دولة المشير احمد باي الاول ولما عاد في سنة ١٢٦٣ من رحلته لفرنسا بعد ان شاهد هنالك فخامة الملك وقوة السلطان حدثته نفسه بما طبع عليه من الجنوح للتعالي والتفنن في مذاهبه ان يجاري السلاطين والملوك بالابنية المشمخرة كقصور المحمدية وبالمظاهر السلطانية في نظام الدولة فوضع ترتيبا لنيشان الافتخار الذي ابتكره ابوه وهذب اساليبه واحدث رتبة الفاريق في الجيش متخطيا في ذلك الحد المضروب له في الولايات العسكرية من لدن الباب العالي كما انجز ما كان عزم عليه من قبل بسنوات (١) من امناح لقب شيخ اسلام بالعنوان الرسمي لرئيس فقهاء الحنفية ولقب به باش مفتي الحنفية العلامة الشيخ محمد بيرم الرابع ولكنه اكتفى بامناحه هذا اللقب العلمي

(١) ورد في ظهير عتق العبيد الصادر في محرم ١٢٦٢ تلقيب الشيخ محمد بيرم شيخ الاسلام والشيخ ابراهيم الرياحي بباش مفتي المالكية

الدني بالقول الذكري لا بالقول الكتابي تحاشيا من مزاحمة الباب العالي في خطة من الخطط الرئيسية بالدولة العثمانية وبمقتضاه استمر اصدار مرسوم الولاية للباش مفتي الحنفي بعنوان كبير المفتين الحنفي ولكنهم كانوا يحلونه وينعتونه في غير مرسوم الولاية بشيخ الاسلام (١) ويلوح ان اول من امتاز بلقب شيخ الاسلام بعنوان خطة في مرسوم ولايته هو العلامة الشيخ احمد ابن الخوجه حسبما يستفاد ذلك من هذه العبارة المدرجة بالقسم الرسمي من الرائد التونسي . قال في عدد ٩ المؤرخ في ٢٩ صفر ١٢٩٤

في صبيحة يوم السبت السادس والعشرين من شهر التاريخ اولى المعظم الارفع مولانا وسيدنا ادام الله عزه الفاضل الهمام واحد علماء الاسلام الجهبذ الشيخ سيدي احمد بن الخوجه مشيخة الاسلام بتونس وذلك بالقصر السعيد جعلها الله ولاية سعيدة ميمونة حميدة اهـ

وهذا الشيخ رحمه الله هو الذي البس في العهود المتاخرة خطة المشيخة ثوب الاجلال والاعظام وكساها حلة الفخر والاكرام ولما التحق بالدار الآخرة في خامس حجه سنة ١٣١٣ تقدم مكانه العلامة الشيخ احمد كريم فكان ظهير ولايته صريحا بعنوان شيخ الاسلام ننقل هنا عبارته بالوقوف عليه :

سبحان من جعل الحمد فاتحة القرءان . وخاتمة دعاء اهل الجنان . وشرف نوع الانسان بارسال الرسل . لتشريع الشرائع وتوضيح السبل . نشكرك على ما اوليت من مواهب الاحسان . حمدا وشكرا يستخدمان من الانسان القلب واللسان . والصلاة والسلام على سيدنا محمد فائدة الكون ومعناه . الذي لا ينام قلبه اذا نامت عيناه . وعلى ءاله واصحابه حفظة الدين وائمة المهتدين . اما بعد فهذا ظهير عظيم . وكتاب كريم . يقابل بالاذعان والتسليم . لنفعه العميم . انتج الحق قياسه . وبني على الشرع اساسه . اصدرناه الى من يقف عليه من العلماء الاعلام . مشائخ الاسلام . وابنائنا امراء الامراء اعيان الوزراء وامراء الالوية وامراء الالايات وقائمي المقامات وامناء الالايات والبنباشية وكافة الجنود العسكرية وسائر اولي الولايات فيما لنا من الجهات . شرح الله تعلى للحق صدورهم . واستعمل في رضاه اميرهم وماموروهم . ليعلموا ان الهمام النحرير العالم العلامة الشيخ سي احمد كريم قدمناه على بركة الله تعلى وجعلناه شيخ الاسلام بمملكتنا التونسية يفتي ويحكم بمشهور مذهب الامام الاعظم ابي حنيفة النعمان رضي الله تعلى عنه وعن بقية الائمة المهتدين وما جرى به العمل مع مراعاة ترتيب دار الشريعة المعمورة . موصى في الابرام والنقض بتقوى من يعلم خفيات السماوات والارض . وصية صدرت مصدر الذكرى التي

(١) مما يؤيد هذه الحقيقة عبارة الوثيقة التاريخية الاتي نصها :
من عبد الله سبحانه الراجي عفوه واحسانه المشير محمد الصادق باشا باي سدد الله اعماله وبلغه من اعزاز هذا القطر ءاماله اما بعد فان العلم الهمام الحجة شيخ الاسلام محبنا الشيخ سي محمد بن الخوجه اوليناه نظارة دار الشريعة يتعاطى النظر في ذلك كمن كان قبله واوصيناه بمزيد الاجلال والسلام وكتب في ١٠ جمادى الاولى سنة ١٢٧٨

تنفع . ويعلي الله بها الدرجات ويرفع . كما اوصينا له بمزيد التعظيم والاجلال . ومعرفة ما له من الكمال وصون منصبه الشرعي عن الاخلال . والامر لله وحده الكبير المتعال . والسلام من الفقير الى ربه تعلى عبده علي باشا باي صاحب المملكة التونسية وفقه الله وكتب في ٨ يوم الاربعاء من ذي الحجة الحرام سنة ١٣١٣ الموافق للتاسع عشر من ماي سنة ١٨٩٦ اهـ .

واسترسلت ولاية المشيخة بنظامها المتقدم في فقهاء الحنفية الى محرم ١٣٥١ وفيه شغرت الخطة فوقع ازدواجها باحداث اخت لها على مذهب امام دار الهجرة رضي الله عنه واسنادها لكبير اهل الشورى المالكية والغي عندئذ لقب الباش مفتي المالكي بتونس كما الغي قبله بزمن طويل لقب باش مفتي الحنفية وبهذا الازدواج الذي كان متوقعا من قبل حصل التساوي الحق بين قطبي الشريعة صاحبي الفضيلة امامي المذهبين الزكيين واعلن ذلك بمنشور وزيري صدر للعمال لاذاعته في افاق المملكة التونسية

ولننتقل الآن للكلام على علاقة اهل العلم باهل الدولة ففي البداية نقول ان اهل العلم كانوا في القرون الاولى يتحرجون من الالتحام والانتساب لاهل الدولة اتقاء الزيغ عن الصراط المستقيم واليك نموذج في صحة ذلك . قال القاضي ابو الفضل عياض في كتاب المدارك : لما ثار القويبع على محمد بن الاغلب قال بعض القواد اليوم سيتمكن من سحنون اما يخسر دينه او دنياه فقالوا للامير سحنون داعية مطاع فامره بنصرك على هذا الخارجي فبعث فيه الامير واعلمه بالامر واستشاره في قتاله وان يعلم الناس بعرض ذلك عليهم فقال له سحنون غشك من دلك على هذا متى كانت القضاة تشاورها الملوك في صلاح سلطانها ونهض من عنده اهـ

قلت هذا الاعراض الذي تلقى به سحنون دعوة الامير الاغلبي لتاييده ومناصرته على عدوه ربما يقول قائل انه لم يكن ذلك بالقاعدة المطردة في علائق الملوك باهل العلم وهذه نظرية صحيحة لان التاريخ يثبت اختيار الملوك في مهمة القضاء لمن يكون معاضدا لسياستهم وموافقا لمشربهم كما تقدم بسطه في المقالة الاولى من هذا المبحث ولكن التاريخ يرينا من ناحية اخرى ان اهل العلم كانوا في كل عصر يمثلون العنصر المغالب لذوي السلطان على امرهم فالخليفة المستنصر بالله ثاني سلاطين بني حفص لما قال للفقيه ابن عصفور : قد اصبح اليوم ملكنا عظيما اجابه ابن عصفور بقوله : بنا وبامثالنا فهذا الجواب ولئن كان فيه حتف ابن عصفور يرينا ثبات عزيمة هذا الفقيه ورسوخ قدمه في المجتمع التونسي يومئذ نعم انه ابان من ناحية اخرى ان الفقهاء ابعد الناس عن السياسة اذ كان عليه ان ينظر فيما ذا سيكون صنيع الخليفة بعد سماعه لمثل تلك العبارة وهو انما تفاخر بعظم سلطانه لاستطلاع رايه فيه . وامثال هذا التناطح بين ولاة الامور وبين اهل العلم كثيرة في كتب التاريخ الى عهود متاخرة فتدخلات الشيخ ابراهيم الرياحي رضي الله عنه بالنقد والتفنيد وعبارات الوعيد فيما كان يراه زيغا من سلوك بعض اولي الحل والعقد عن منهاج الشريعة فيها الدلالة الكافية على ان اهل الدولة

كانوا في شق واهل العلم في شق آخر وهذا الشيخ الجد وهو وسلفه وعقبه من صنيع البيت الحسيني بعث له المشير احمد باي ذات يوم معينه صالح شيبوب لاستفسار خاطره وسؤاله عن صحته وفي اثناء الحديث قال المعين للشيخ رحمه الله ان سيدنا بعثني معاتبا من اجل طول مغيبك عنه فقال الشيخ للمعين :

قـــل للامير نصيحـــة لا تركنن الى فقيـــه
ان الفقيـــه اذا اتـــى ابوابكم لا خير فيـــه

ثم بسط كفيه لباري النسمات وباعث الرفات ودعا للمولى الامير بسعادتي الدنيا والاخرة وقال لمبعوثه اشهدك انني وهبت ثواب هذه السلكة التي بين يدي من صحيح البخاري لسيدنا المشير دامت معاليه وسعدت ايامه ولياليه اهـ

ولنضرب لك مثالا ءاخر في معنى تحرج العلمـاء من الـوزراء . ففـي سنة ١٢٨٧ شغرت بجامع الزيتونة خطة مدرس من الطبقة الاولى وراج عند ذلك بين العلماء اسم المرحوم الشيخ احمد الورتتاني واستحقاقه لتولي التدريس من الرتبة الثانية التي ستكون شاغرة بتقدم صاحبها للخطة المنحلة بالطبقة الاولى فلما كلموا في ذلك شيخ الاسلام الشيخ محمد معاوية قال ذلك رجل له صلة باهل المخزن يعني برجال الدولـة ونقلت العبارة للوزير مصطفى خزندار فاستصدر في الحال مكتوبا من سمو البـاي المعظم للمشائخ النظار في اختيار الشيخ الورتتاني للتدريس بداية بالرتبة الاولى وهذه الولاية لها اختان شبيهتان بها في تاريخ جامع الزيتونة ولولا خوف الاطالة لذكرتهما هنا ولكن قراء المجلة سيجدون ان شاء الله ذلك بالتفصيل في كتابي « معالم التوحيد في القديم وفي الجديد » الممثل الآن للطبع .

ولننظر الآن في علائق العلماء مع اهل الدولة بحصر المعنى اي من حيث الوضع الرسمي الذي هو خط السير في هذا الزمان فنقول يظهر فيما يلوح ان مشروع عهد الامـان كان فاتحة عصر جديد في تلك العلائق فان فقهاء المذهبين احضرهم المشير محمد باي يوم اعلانه بذلك المشروع في سنة ١٢٧٤ واحضر معهم في مجلس واحد اهل دولته وقناصل الدول وكبار القسيسين والرهبـان واحبار اليهـود فكان هذا اول اجتماع لاهل الشريعـة باهل السياسة في مجلس رسمي حفيـل لمصلحة عمومية تهـم الايالة التونسية واول الغيث قطر ثم ينهمر ومعلوم ان عصر المشير محمد باي جاء متمما بطبيعة حالـه لعصر سلفه المشير احمد باي الـذي اوجد كما اسلفنا تطورا عظيما بنظم الدولة وسلطة الدولة تشمل البر والفاجر فكان لا محيص لاهل العلم من مسايرة تيار المستجدات العصرية التي قضى بها الزمان في تلك الاثناء ولا سيما في عصر الدولة الصادقية الذي هو عصر الاصلاحات الجامعة الشاملة التي قام بها المصلح الكبير الـوزير خير الـدين في دواوين الدولة ودواليب الاعمال ومجالس الاحكام من شرعية ووضعية وعرفية وهنا نصل بالقاري الكريم للعقد الاخير من القرن الهجري الماضي .

في هذا العقد امتاز جماعة من فقهاء المذهبين بفهم اسرار الشريعة ومعاضدة خير الدين بتاييده في

سياسته واعانتـه على مشروع الاصلاح المشار اليـه وكان في مقدمة هذه الطائفة الصالحة من العلماء شيخ الاسلام الشيخ احمد بن الخوجه وبقية رجالها هم الشيخ مصطفى رضوان والشيخ محمد بيرم والشيخ الطاهر النيفر والشيخ عمر بن الشيخ فهؤلاء الاعلام كانت لهم يد عاملة في مقام الاصلاح وبمشاركتهم وقع تاسيس المدرسة الصادقية التي كان القصد من احداثها ايجاد طائفة من ابناء البلاد جديرة بالمشاركة في تسيير سفينة الاحوال بهذه الديار ولم يمر غير زمن قليل حتى ظهرت نتائج مشروع الوزير خير الدين فيما توخاه من النهوض بالبلاد في طرق الاصلاح وانشرحت الصدور واستبشر الناس وقالوا حي على الفلاح .

ولما استهل عصر الحماية كان اهل العلم بحالة فهم لتلك المقدمات وعلى تهيؤ واستعداد لمجاراة الحالة الجديدة ولكن كثيرهم كانوا يخشون الفكر العام لان لفيف الامة كانوا في مدارك الجهالة بالحالة السياسية الحادثة لانه مرت عليهم القرون وهم لا يرون الضوء الا من سم الخياط ناهيك ان الشيوخ تحاشوا عن المشاركة في عيد الجمهورية عند اقامة موسمه الاول بتونس فكان ذلك حاملا للوزير المقيم مسيو كمبون على الزامهم بالحضور في موسم العام التالي(١) ولما وجهت دولة الحماية عنايتها نحو تدوين القانون العقاري عقد مسيو كمبون لذلك مجلسا من اهل الدولة ومن علماء الحقوق وعلماء الشريعة فكان هذا المجلس فاتحة مستقبل سعيد ومنهج قويم سلكه الفقهاء في علائقهم مع الدولة وطبعا وقع التوسع بالتالي في هاتيك العلائق لمصلحة الجانبين ولما اعتدت يد اثيمة على جميل الذكر صاحب الفخامة مسيو سعدي كارنو رئيس الجمهورية في سنة ١٣١١ بمعرض ليون كتب بعض اهل العلم من ذوي الشخصيات البارزة تعزية في ذلك لجناب الوزير المقيم فلما شاع خبر هذه التعزية بين الناس قام بعض المذبذبين يقول ان مثل هذا السعي من علائق اهل السياسة لا من وظائف اهل العلم وكانه تعامى او تجاهل بما ورد في الصحيح من ان النبيء صلى الله عليه وسلم سعى بذاته الشريفة لعيادة جار له من اليهود. واتفق ان

(١) هذا الحادث نقلته مجلة العالمين باوضح بيان ضمن مجموعة رسائل صدرت من الوزير مسيو كمبون لزوجته في سنة ١٨٨٤ نشرتها المجلة المذكورة بعد وفاة هذا الوزير الخطير في سنة ١٩٢٤ ومما تضمنته تلك الرسائل تصريح مسيو كمبون بان الكردينال لافيجري كان في مقدمة المعاضدين له على انجاز مشروع الحماية وعلى تاييد شوكة فرنسا بتونس ننقل هذا الاعتراف هنا ليتدبر القاريء الكريم الفرق بين حيثية العالم الديني في بلاد الاسلام وبين حيثية العالم النصراني بـاروبا والكردينال لافيجري كان محرزا على خمس دكتوريات كان دكتورا في العلوم ودكتورا في الآداب ودكتورا في الفلسفة ودكتورا في الحقوق ودكتورا في علوم اللاهوت ونحن مازلنا نقوم ونقعد اذا رأينا فقيها امتاز بين اقرانه بالتفوق بفضل علمه ونشاطه وذكائه الفطري ووقوفه على اسرار الشريعة بما لا مانع فيه من حضور مظهر سياسي او احتفال او سعي لزيارة او ردها لبعض اهل الحل والعقد او شبه ذلك ولا نعدم عند ذلك قيام بعض المتبرئين من دم البراغيث بدس السم في الدسم والقول بان ذلك السلوك من متعلقات اهل الدولة لا من متعلقات اهل العلم وحسب هؤلاء الاعراض عن السياسة والاكتفاء بالتطيلس والرئاسة

الدولة عزمت يومئذ على تشريك معالم الدين في مظاهر الحداد بنشر الراية التونسية معصبة بالسواد فوق واجهات بيوت العبادة قياسا على العادة الجاري بها العمل باوربا فاستدعى الكاتب العام معتمد الجمعية صاحبنا السيد البشير صفر ليإذنه باتمام ما استقر عليه الراي وعندها لاحظ المعتمد بان ائمة الدين الاسلامي اعربوا عن شواهد اسفهم بالمكتوب الذي ارسله زعيمهم لجناب المقيم ويظهر ان في ذلك كفاية لان المساجد عندنا لا علاقة لها بالسياسة بل هي بيوت للعبادة وحسب وان كان ولا بد من مظهر علني في ذلك فليكن نشر الراية التونسية فوق ابواب امهات المدارس كمدرسة حوانيت عاشور وغيرها فاستحسن الكاتب العام هذا الجواب المقنع وكان العمل بمقتضاه وفي هذا السلوك دليل قاطع بصحة ما هو متعلق بالاذهان من احترام الامة الحامية لعقائد ومعابد الامة المحمية

وكان الشيخ احمد بن الخوجه رحمه الله يحضر حفلة التكريم التي يقيمها المجلس البلدي للمقدس المولى علي باي ليلة المولد الشريف بحضور رجال الحماية وسمو الباي يجلسه ليمينه بذلك المقام واتفق له ايضا حضور حفلات توزيع المكارم على التلامذة المبرزين بالمدرسة العلوية مع المقيم العام م. كمبون وبمدرسة كارنو مع م. ماز من اعضاء مجلس الشيوخ بفرنسا ولقد حضرت مرة بدار السفارة في جملة من شرفهم الوزير المقيم م. ريني ميلي بالاستدعاء لمشاهدة مناظر حية من معمل خالد الذكر الاستاذ باستور منقذ الجنس البشري من داء الكلب (١) فكان في مقدمة الحضور العلامة الشيخ احمد كريم شيخ الاسلام والمفتي الثاني الشيخ محمود ابن الخوجة ولما قدم فخامة مسيو لوبي رئيس الجمهورية لزيارة تونس وملكها المقدس المولى محمد الهادي باي سعى شيوخ المذهبين للسلام عليه بالسفارة العامة وحضر شيخا الاسلام الشيخ محمود بن الخوجه والشيخ احمد الشريف مع فخامته بميدان الملاسين لاستعراض مشائخ الطرق ومريديها وهكذا كان صنيعهم عند زيارة اخلافه بمسند الرئاسة الجمهورية : فخامة مسيو فليار وفخامة مسيو ميلران وفخامة مسيو دومرق وكلما تكرر قدوم مقيم جديد سعى الشيوخ للسلام عليه وعرض شواهد الصفاء والوفاء واعتمادهم على الدولة الحامية في مقام مناصرة الشريعة وصونها ورجالها من طوارق الحدثان الامر الذي وفت به فرنسا شبرا بشبر في بحر هذه الستين سنة ليرى مبصر ويسمع واع وانا بنفسي صاحبت شيوخ المذهبين للترجمة بينهم وبين الفقيد الوزير مسيو الابتيت يوم الاعلان بالهدنة عند انتهاء الحرب العالمية وكانوا كلهم السنة ناطقة بالحمد لله والشكر لله ثم بالدعاء وبشواهد الثناء والامتنان لذلك الرجل العظيم الذي قال لهم في جملة ما افضى به اليهم من الحديث انه لمغبوط ومفتخر بوجود اقطاب الشرع الاسلامي حوله وانه لمبتهج بسماع شواهد

(١) يستفاد من احصائية رسمية نشرتها جرائد هذا الشهر ان عدد المصابين الذين وقع علاجهم بمعهد باستور بتونس في عام ١٩٣٨ بلغ الى ١٠٧٩ نسمة

الـود وعرائض التهاني من افواه اهل هذه الطبقة الشريفة الممثلين للسؤدد كله ولجميع صفات الفضل والعلم فهو يستبشر بحلول طالع سعيد من اجل هذه الزيارة المباركة في مثل هـذا اليوم يوم الظفر والنصر العـائد فخره على الامتـين الحـامية والمحمية معا وبقي بمحفوظي انني ترجمت ذات مرة اخرى بين حضرات الشيوخ وبين جناب الوزير مسيو بيشون المقيم الاسبق في مناسبة هامة دلت على رسوخ ما هو متعلق بالاذهان من ان رجال الشريعة هم في مقدمة قـادة الامة وهم المثـل الاعلى الذي عليه الاعتماد واليه الرجوع وعليه الاستناد

وكيف يصح في الاذهان شيء اذا احتـاج النهـار الى دليل

انما الشيء الذي لا يناسب كرامة الفقيه هو الترامي على الابواب والاشتغال بما لا يعنيه او كان خاليا عن فائدة لجماعة المسلمين وهذه النقائص لم ينسبها احد حتى الآن لاهل العلم والحمد لله

بقي علي استدراك شيء فاتني التعليق عليه بمقالتي الاولى في مبحث القضاء من وجود مذهبين قائمين بالحكم في عصر واحد بهذه الديار الافريقية قال عياض في المدارك : وكان سحنون يجلس في بيت بالجامع بناه لنفسه اذا راى كثرة الناس وكثرة كلامهم فكان لا يحضر عنده الخصمين ومن يشهد بينهما في دعواهما وسائر الناس عنه بمعـزل لا يراهم ولا يسمع لغطهم ولا يشغـل باله امرهم فصار الجلوس في ذلك البيت سنة لقضاة المالكية فاذا ولي عـراقي (اي حنفي) هدمه واذا ولي مـدني (اي مالكي) بناه وحكم فيه اه

كذلك سبقت مني الاشارة في مقالة القضاء الثانية لاحكام رؤية الهـلال وانها من متعلقات قاضي المالكية فوقفت بعد ذلك على ما يؤيد ان النظر في ثبوت الهلال كان من حقوق الجماعة الحنفية في اواخر القرن الثاني عشر حسبما يستفاد ذلك من وثيقة تاريخية وهي عبارة عن مكتوب في ثبـوت هلال رمضان عام ١١٩٤ بعث به قاضي الجماعة الشيخ محمد بيرم الثاني للمولى علي باي الثاني ونصه : اما بعد السلام التام فلتهن مولانا بالهلال الجديد والطالع السعيد والمقدمة التي نتيجتها العيد فلقـد ثبت لدينا الثبوت الشرعي المحرر المرعي اهله الله تعلى علينا وعلى المسلمين باليمن والبركة وقران الخير في حال السكون والحركة فليأذن مولانا باطلاق البشير والسلام اه من رسالة التعريف بالبيارمة

وهنا انتهى بنا الكلام في مبحث القضاء الشرعي وسيكون عنوان مقالتي الاتية : اسد بن الفرات وفيها ناتي على تاريخ انتشار المذهبين الحنفي والمالكي بافريقية وكل ءات قريب محمد بن الخوجه

حديث ـ اتق الله حيثما كنت

اخرجه الترمذي في جامعه في باب ما جاء في معاشرة الناس قال : حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبدالرحمان بن مهدي حدثنا سفيان عن حبيب ابن ابي ثابت عن ميمون ابن ابي شبيب عن ابي ذر قال قال لي رسول الله اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن قال ابو عيسى هذا حديث حسن صحيح . وفي البـاب عن ابي هريرة حدثنا محمود بن غيلان حدثنا ابو احمد وابو نعيم عن سفيان بهـذا الاسناد نحوه حدثنا محمود حدثنا وكيع عن سفيان عن حبيب بن ابي ثابت عن ميمون بن ابي شبيب عن معاذ بن جبل عن النبيء صلى الله عليه وسلم نحوه قال محمود والصحيح حديث ابي ذر .

فوقع سهو في نسبة تخريجه للامام البخاري الذي اثبتناه في الجزء الخامس صيحفة ٢٢٤ تعين تداركه

صفحة من تاريخ تونس

صلة تونس بالدولة العلية

بعثة خير الدين للاستانة

في سنتي ١٢٨١ - ١٢٨٨

للعالم امير الامراء الاستاذ
محمد صالح مزالي عامل بنزرت



غير ان الصدارة العظمى لم تنجز ما وعدت به وفي سنة ١٢٨٨ تعكرت العلايق بين الدولة التونسية وحكومة ايطاليا التي كان مستقرها اذ ذاك فيرينسا قبل فتح رومة ولم تكن الحكومة الفرنساوية في استعداد لمعاضدة سمو الباي على عادتها في مقاومة التيار الايطالي لاشتغالها بحربها ضد المانيا وبالارتباكات الداخلية الناشئة عنها فظهر من المناسب تذكير الباب العالي واليكم نص المكتوب الموجه للصدر الاعظم في تاريخه في عالي باشا :

« ١٠ »

الحمد لله اما بعد التحية فالمنهي الى جناب الصدارة العظمى ادام الله تعلى اسعادها وجعل من التوفيق الالهي امدادها ان معظم قدرها العالي لم يزل جاريا في مجاملته للدول الاروباوية ورعاية نوابها ورعاياها بهذه المملكة على ما جرت به العادة واقتضته رعاية المصالح الاسلامية بهذه الديار بقدر الاستطاعة ومن جملتهم دولة ايطاليا الى ان عرضت لقنصلها نازلة جزئية بنى عليها امرا سياسيا وهو قطع الخلطة التي سعينا في ارجاعها بما امكن حسبما تقرر ذلك لسفير الدولة العلية بفرنسا على لسان رسولنا الذي وجهناه لهذه النازلة حسبما شرحها مستوفى بالتقرير الواصل مع هذا الجناب الصدارة العظمى ولما كان من المعلوم ان المقاصد السياسية الباطنة مخالفة لظواهرها والاعتداد للتوقي من ذلك امر واجب شرعا لا سيما مع تيسر اسبابه بوجود الدولة العلية الذي هي سلطنة الاسلام والمفزع في المهمات العظام القائمة بحماية اقطار المسلمين والاعانة على اقامة شعاير الدين التي لا يراع سرب من اتصل باسبابها وامل الخير والانعام من ابوابها اعاد معظم القدر العالي مطلبه من ابواب الخلافة العلية التي هي محط الآمال ومصدر النعم والافضال التي تعودها هو وسلفه من رفيع جلالتها المتين ورفيع جلالة سلفها الخلفاء الراشدين بكتابه الواصل مع هذا طالبا من فضلها العالي انجاز ما سلفت به الارادة السنية وهو صدور الفرمان العلي الذي تضمن كتاب الصدارة العظمى المؤرخ في ٢٣ رجب سنة ١٢٨١ انه حاضر وقت ما نطلبه وتكرر مناطلبه فيما سلف وتاكد مضمون كتاب الصدارة العظمى معتمدا على ابواب الصدارة

العظمى في اعانته على ما امله من فضل الخلافة العلية بمقتضى ما تعوده من فضلها وانجاز ما سلفت به الارادة السنية وهو صدوره على مقتضى ما تضمنه كتاب الصدارة العظمى المذكور اعلانا بنعمة الدولة العلية على شاكر فضلها والداعي بتاييدها ونصرها ووقاية لهذا القطر الاسلامي الذي تخطب ايمته على منابره بالدعاء للخلافة العثمانية والحامل لوائها والقائم باعبائها وتامينا له من الاغراض السياسية التي يوجب الدين القويم التحذر منها اذ صدوره على مقتضى كتاب الصدارة العظمى المشار اليه مانع لتلك الاغراض لتضمنه وصلة هذه الساحة بالممالك المحروسة واعانة لمعظم القدر العالي على اجراء مصالح هذا القطر التي هي مطمح انظارنا ومجال افكارنا بما جرت به العادة المقررة التي تضمنها الكتاب الكريم المذكور وعلى معارضة من يقصد هذا القطر بما يصادم حقوق الدولة العلية او حقوق معظم القدر العالي والمقطوع به عن جناب الصدارة العظمى التي احلها الله تعلى المحل الرفيع التفاتها لهذا المطلب والقاء للابواب العلية بما هو المعروف من غيرتها الدينية ومحافظتها على حماية الاقطار الاسلامية واستمطار مكارم الخلافة لاتمام ما تفضلت به لهذه المقاصد الدينية ومعظم القدر العالي يعتمد جلالة جنابكم الرفيعة التي يتيقن انها توجه عنايتها لهذه المصلحة التي هي من مصالح المسلمين والاعتناء بها اعتناء بحماية الدين وقد اعدنا هذا المطلب لهذا الغرض الديني وهو وقاية هذا الوطن على ما تعوده اهله وبموجب طلبنا له المرة بعد المرة لهذه المقاصد التي منها وصلته بالاقطار المحروسة نري اني وفيت للدين وأهله بما اوجبه الله تعلى من رعاية مصالحهما وارتفعت عني المسئولية في ذلك عند الله تعلى وعند عبيده والمحقق من جلالة الدولة العلية ان تسمح بتلك المقاصد لعامة المسلمين فضلا عن قطر لها به حقوق مرعية وعن عبد نعمتها الذي تقلب هو وسلفه في خدمتها والمقام الذي احل الله فيه الصدارة العظمى يوجب عليها الاعتناء بمصالح المسلمين وترغيب جلالة الخلافة العظمى في حماية اقطارها واتباعها المخلصين ودوام مرضاتها على عبد نعمتها الشاكر بفضلها وفضل سلفها الايمة المهتدين والله سبحانه المسئول ان يمدكم باعانته على عز الاسلام وتخليد المئاثر العظام ودمتم الخ وكتب في ٥ صفر الخير سنة ١٢٨٨ ثمان وثمانين . .

« ١١ »

تعريب الرقيم الوارد من دائرة الوزارة العظمى الى سمو الباي

في ١٤ ربيع الاول سنة ١٢٨٨

الحمد لله ان اعظم ما في أمال مولانا امام المسلمين خلد الله سلطانه انتظام ممالكه وتوابعها في سلك الامن والسعادة وان تكون الايالة التونسية التي هي وديعة تحت ادارتكم ايضا كذلك ويرى أعزه الله حسم ما كان يخالف موجبات الامن والراحة من متعلقات ادارتكم العلية ومما هو مندرج في طي

المتبوعية والذي اوجب هذا النظر الدقيق السلطاني من مولانا اعزه الله هو نازلة الطليان التي تكونت بتونس المستفاد اضمحلالها على احسن حال من الدولة المشار اليها بواسطة سفيرنا المقيم بها للصداقة الجارية بيننا وان المسئول عليه من هـذا الحادث وغيره ان ادارتكم في اكثـر الخصوصيات صارت غرضا لمشكلات صعبة تدعو الى ضرر خطير وفي هذا الباب لم يبلغ الدولة العلية خبر صحيح يعتمد عليه والا كان بالمذاكرة لم تبق معاملات الايالة تحت يد تحكم الغير ولا تخرج الامور عن دائرة العمود الحالية والاصول العمومية فكان الاهم والا لزم اعلامكم الـدولة العلية بالنوازل الحالية مهما عرضت والذي يناسب الحال الحاضر الآن هـو ان تنتخبوا امينـا من طرفكم يعتمد عليه وترسلوه للمذاكرة معه اعزه الله فيما تقتضيه المصلحة في دفع ما يتوقع من الحضرات الملحوضة بتسهيلات مولانا وهذا ما اقتضاه امره العلي وارادته السنية بادرنا في اعلامكم به والسلام

« ١٢ »

تعريب الرقيم الوارد من طرف الصدارة العظمى إلى سمو الباي

في ٢٨ ربيـع الثاني سنة ١٢٨٨

الحمد لله ان معروضكم الخصوصي المحتوي على ارتباط الايالة التونسية وعامة اهاليها بالسلطنة السنية وممالكها وعلى لزوم تاييد وتجديد حكم متبوعيتها القديمة وغير ذلك من تفاصيل وافادات من هذا الباب وصل يد ودودكم مصحوبا بكتب اخر من ذوي السعادة مصطفى باشا وخير الدين باشا وقد فـك ختامها في المجلس الخاص وقرئت على الانفراد بمحضر الوكلاء ثم عرضت على الاعتاب الملكية هذا وقد كانت فذلكة هذه التحريرات عبارة عن البحث في احوال الايالة الحالية وما نالها من المضار المجزوم بتاثير هلاكهـا وما اصاب اهاليها منذ مدة من العسر وما يشعر بالامل في استجلاب موجبات العمران والتشبث باسبابه كما انه عبارة ايضا عن طلب ما وعدكم به مولانا اعزه الله من اصدار فرمان يكون به تامين الايالة داخلا وخارجا ، ولما كان من مقتضيات ما تخلق به مولانا من السجايا الحميدة حب السعادة لكم ولذويكم ولمن هو تحت تصرف ادارتكم مع بذله اعـزه الله الهمة العلية في جلب ما يتم به لكم نصاب الامن والراحة

وكما يعلم بان ذلك ترتب في ذمته وتحتم عليه وانه من الحقوق المقدسة السلطانية يعلم ايضا ما به افتخاركم من اللياقة ومـا انتم مفطورون عليه من حسن الطوية من ءاثاره الباهرة مـع علمه بانكم تعلمون ذلك علمـا يقينيا وان لا تكون سعادة الايالة التامة وسلامتها الا بالتمسك والاعتصام بعـروة الخلافة الوثقى وبنـاء على ما اوجب ذلك من الحظوظ الصحيحة من مولانا يتوقع التردد في تفضله بالفرمان السالف الذكر غير ان من ذلك الوقت الى الآن فاحوال العالم التي لا حاجة في بيانها

والتغييرات الوقتية زادت في اشكال معاملات الايالة الخارجية زيادة كلية والآن يرى من اللازم دفع ما تسبب عند الشكوك والاشتباهات كما يرى من اللازم تامين وتاييد ذاتكم وذويكم ويوضح مالكم وعليكم من الحقوق المصدقة والمقدسة السلطانية بصورة كافية شافية بالفرمان المطلوب وان كان حصول هذا المقصد الاهم لا يتاتى بالرسائل والمكاتبات كما افدناكم برقيم قبل هذا بل لا يكون الا بارسالكم رجل عمدة او رجلين للمذاكرة معه في تاسيس ما به الامتياز المطلوب الادارة والمعاملات الآتية وتسويتها بالاتفاق وقد استنسب ذلك وصدرت به الاراد الملكية وفي نفس الامر لا شبهة في اوليتكم بالموافقة والتصريف ولذلك اكتفينا ببيان الحال فقط والنظر الاعلى لكم والسلام

« ١٣ »

تعريب الرقيم الوارد من الصدارة العظمى الى جناب الوزير الاكبر في ٢٩ ربيع الثاني سنة ١٢٨٨

الحمد لله — ان كتابكم المتضمن حرصكم على الفرمان الذي وعدتم به عام ٨١ ليكون به دفع ما عسى ان يقع من المضار وصل يد ودودكم وقرىء وفهم بكمال الامعان وبعد استيعاب ما اشتملت عليه معانيه في المجلس الخاص عرض على الاعتاب الملوكية وجملة الملاحظات التي هي ثمرة الدراية والحمية وقعت من مولانا اعزه الله موقعا زائد الاستحسان ولما كان ذكر ما رفع هذا الطرف ليس الا تكرار لحظ اذ هو بين بالتحرير المرسل لصاحب الولاية اعرضنا عنه واردنا بهذا الرقيم مجرد تاييد مباني الخلوص والموالاة والسلام

« ١٤ »

مثله بنصه من الصدارة العظمى لجناب الوزير المباشر خير الدين

....

❀ ❀ ❀

فوقع اختيار الحضرة العلية على خير الدين ليكون ذلك الرجل العمدة الامين المطلوب ارساله لدار الخلافة . ولدينا امران عليان في هذا التعيين احدهما مؤرخ في العشرين من جمادى الثانية سنة ١٢٨٨ والآخر مؤرخ بالغد اي بالحادي والعشرين من الشهر نفسه وكلاهما مختوم بالطابع السعيد ومحلى بالامضاء الشريف ومذيل بامضاء الوزير الاكبر مصطفى خزندار ولما كان النص متغايرا نوعا ما رأينا نشر الامرين مع اردافهما بنص المكتوب السامي الصادر لخير الدين في تحديد ماموريته وبه نجد ايضا بيان المقصد من تحرير امرين اثنين في التفويض (ننشرها في العدد القابل ان شاء الله)

الشرف الحسيني بالقيروان
والكلام على آل عوانة

بقلم الفاضل المؤرخ الشيخ محمد طراد

العوانيون نسبة الى جدهم عوانة بن حمود بن زياد بن علي الرضا ابن موسي الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن سيدنا الحسين السبط شهيد كربلاء سنة ٦١ . لا يخفى ان عليا الرضا من فضلاء ءال البيت وانه هو الذي زوجه المامون العباسي ابنته وعهد اليه بالخلافة وضرب الدنانير والدراهم باسمه وبذلك استمال القلوب وامتلكها وانه توفى بطوس سنة ٢٠٣ ودفنه المامون الى جنب ابيه الرشيد . وهو الجد الثاني لعوانة المذكور .

وفي شهر رمضان عام ٣٣١ شهد عشرة من خيرة فقهاء عدول القيروان ومشاهير فقهائها على الترتيب الآتي وهم :

« ١ » ابو زيد عبد الرحمن بن عمر بن علي بن عامر التميمي « ٢ » وابو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن ابي زيد (١) ـ «٣» وابو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري(٢) ـ «٤» وابو اسحاق ابراهيم بن محمد السباءي(٣) ـ «٥» وابو اسحاق ابراهيم بن علي القيسي « ٦ » وابو النما كثير بن عمر بن كثير القيسي « ٧ » وابو العباس احمد بن عبد العزيز الصدفي الجعدي « ٨ » وابو محمد عبد الصادق بن عبد الله الازدي « ٩ » وابو الحسن علي بن عبد السلام بن اخي حجون القرشي « ١٠ » وابو موسى عيسى بن عبد الحميد البلوتي . تلك عشرة كاملة شهدوا في رسم نصه :

شهودة يشهدون بمعرفة الفقيه (٤) ابي العلا سالم بن ابي مروان عبد الملك ابن ابي موسى عيسى ابن الشيخ الفقيه (٥) الصالح ابي العباس احمد بن عوانه القرشي الحسيني المعرفة التامة وهم يشهدون مع ذلك انه لم يزل ينتسب الى هذا النسب الشريف حائزا له ولم يزالوا يسمعون ذلك سماعا فاشيا منتشرا من الثقات العدول وغيرهم ان ابا العلا سالما المذكور قرشي حسيني ولا يعلمون احدا طعن عليه فيه منذ عقلنا الى حين التاريخ قيد (٦) على ذلك كله شهادته هنا بتاريخ شهر رمضان المعظم عام

(١) هو صاحب الرسالة والنوادر (٢) المعروف بالقابسي فقيه القيروان ومفتيها (٣) السباءي الشهير ضجيع سحنون اليوم (٤) ناهيك بشهادة ابن ابي زيد والقابسي ومن معهما له بالفقه الذي نازع بعض الفقهاء في وصف ابن ابي زيد نفسه بالفقيه وانه لا يستحق في ذلك العصر أن يوصف به ووصف في موضع ءاخر بالعدل ايضا (٥) ناهيك بقولهم الفقيه الصالح وما يدل عليه هذان الوصفان في ذلكم العصر الزاهر (٦) فاعل قيد هو قوله عبد الرحمن بن عمر الخ كما هو المالوف الى اليوم في قول العدل شهد الخ

احدى وثلاثين وثلاثمائة . ويليه اسماء اولئك العدول العشرة بخطوطهم ونصه على الترتيب المتقدم عبد الرحمن بن عمر بن علي الى ءاخر اسم العدل العاشر ويليه قول عدول هاته النسخة من هذا الاصل بما نصه : هذه نسخة ذلك كاصلها فاو قوبلت به فكان سواء ممن وقف على الاصل المنتسخة منه هذه النسخة وعاين شهادة ابي زيد عبد الرحمن وذكروا اسماءهم على الكيفية (١) والترتيب المتقدم وبالكنى عنده المتقدمة وقالوا اثر قولهم وعاين شهادة الخ مكتتبة بموضعها منه وعلم انها شهادتهم بخط ايديهم لا شك في ذلك ولا ريب وانهم ماتوا على العدالة وقبول الشهادة وقيل على ذلك شهادته على ذلك كله بتاريخ العشر الوسطى من شهر شوال عام ثلاثة وعشرين وستمائة شهد علي « ١ » بن عبد الله بن قاسم بن مصيله الهواري « ٢ » وصالح بن حسن القرشي ويحيي « ٣ » بن عمر بن عبد الرحمن المدحجي « ٤ » وعبد الرحمن ابن ثابت التميمي

فشهود هاته النسخة والمعرفون بخطوط عدول الاصل اربعة من ثقات فقهاء عدول القيروان المشاهير في أول القرن السابع زيادة عن العدول الآخرين الآتية اسماؤهم اذ هذا الثبوت الاصلي اخذت منه هذه النسخة في هذا التاريخ وبهؤلاء العدول المذكورين وبشهادتهم بعد التهم وقبول الشهادة منهم حتى لوفاتهم .

واخرجت منه ايضا نسخة اخرى وعلى هذا النمط مؤرخة بغرة ذي القعدة عام ٦٧٨ بشهادة العدلين ابي عفيف صالح بن حسن القرشي وابي زيد عبد الرحمن بن ثابت التميمي المذكورين لمن طلبها منهما من مستحقيها .

ونسخة اخرى ايضا مؤرخة بالعشر الاول من شهر محرم عام ٦٨٢ اثنين وثمانين وستمائة بشهادة العدول الاربعة الآتية اسماءهم وهم الفقهاء اسحاق بن ابراهيم بن يعقوب الدهماني ومحمد بن ابراهيم بن عمر بن عبد العالي الربعي وعبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن ابي دلف وعبد الرحمن ابن محمد بن علي الانصاري . ونسخة ايضا مؤرخة باوائل جمادى الاولى عام ٧٩٧ بشهادة العدلين محمد ابن عبد الواحد بن عبد السلام الدهماني ومحمد بن عبد العزيز بن ابي الرجال الربعي . واخرى مؤرخة باواخر جمادى الاخرة عام ٨٣٧ بشهادة العدلين بالقيروان فى التاريخ المذكور الفقيهين الشيخ خليفة ابن احمد بن ناجي التنوخي واحمد بن محمد بن مخلوف التوزاني . (يتبع)

« محمد طراد »

---

(١) هاته الكيفية وهو تلقي شهادات الشهود والشهادة من العلم مثل هذا الثبوت تقع بغير اذن القاضي ودامت على ذلك حتى للدور الحفصي فصار يضع القاضي عقده أمام الحمدلة موضع الطابع اليوم ولا يذكر اسمه في الرسم

حول مقال

لا عزاء بعد ثلاث

ورد على ادارة المجلة المكتوب الآتي من العالم الفاضل الشيخ بن باشير الرابحي امام وخطيب جامع سيدي محمد بلدة الزحاولة ونصه :

فضيلة الاستاذ العالم النحرير الشيخ محمد الشاذلي ابن القاضي مدير « المجلة الزيتونية » والمدرس من الطبقة الاولى بالمعهد الزيتوني المعمور والخطيب الثاني بجامع « حمودة باشا » السلام عليكم ورحمة الله تعلى وبركاته ، وعلى اسرة المجلة الشريفة . وبعد فاني احمد اليكم الله الذي لا اله الا هو واساله ان يبقيكم لخدمة دينه وارشاد خليقته ءامين ، سيدي انى - والحمد لله - شغوف بمطالعة دواوين العلم ولوع بقراءة المجلات العلمية الدينية لا سيما « المجلة الزيتونية » ذات البحوث القيمة والفصول الممتعة وكيف لا وهي تصدر تحت اشراف هياة علمية راقية ضربت بسهم وافر في تعليم العلم وانارة فكرة الشباب . وقد زادها جمالا وبهاء ما يحبره ذلك القلم السيال قلم مولانا الاستاذ الاكبر الشيخ سيدي محمد الطاهر ابن عاشور شيخ الاسلام المالكي حفظه الله وادام النفع بـه . ولقد تتبعت كتاباته كلهـا لاكترع من ذلك المورد الصافي والمنهل الكافي والدواء الذي هو لكل داء شافي . غير ان شغفي بكتاباته ومتين استدلالاته ووفور علمه، وسعة اخلاقه يجعلني في مامن مما عسى ان يكون ممكن الوقوع عند ابداء ملاحظة سبق بها قلم الطباعة وكنت - علم الله - اترجى ان يستدرك ذلك .... فطال الامـد ولم يقع شيء من ذلك . فقد جاء في الجزء الثاني من المجلد الثالث تاريخ شهر ذي الحجة ١٣٥٧ - فيفري ١٩٣٩ صحيفة ٦٠ في المقال المعنون بـ « لا عزاء بعد ثلاث » وبعد ان قتل الموضوع بحثا وتدقيقا قال بعد كلام « ولم يسمع في كلام العرب اطلاق لفظ العـزاء على معنى التعزية » . والصواب خلاف ما ذكر : فقد قال الامام الحافظ اللغوي شرف الدين النووي في كتاب « تهذيب الاسماء واللغات » من ص ٢١ والجزء ٢ ما لفظه « والعزاء اسم اقيم مقام التعزية » وعزاه للازهري اه بالحرف . ومثله في كتاب التسلية ص ١٠٤ قال « والعزاء بالمد اسم اقيم مقام التعزية » ذكره النووي اه .....

فبادرنا بعرضه على فضيلة مولانا شيخ الاسلام أبقاه الله فاجاب عن توقف الشيخ الرابحي بما نصه :

تحقيق معنى لفظ العزاء

الى ابني العزيز الشيخ سيدي محمد الشاذلي ابن القاضي المدرس من الطبقة الاولى وصاحب المجلة الزيتونية حفظه الله تعلى ، تحية طيبة مباركة ، قد اطلعت على الاشكال الذي ورد اليكم من الشيخ ابن بشير الرابحي الامام ببلدة الزحاولة من القطر الجزائري الذي يقول فيه « لقد جاء في الجزء ٢ من المجلد ٣ صحيفة ٦٠ في المقال المعنون (لا عـزاء بعد ثلاث) ما نصه : ولم يسمع في كلام العرب اطلاق لفظ العزاء على معنى التعزية . وقد قال شرف الدين النووي في كتاب تهذيب الاسماء واللغات خلاف ذلك ولفظه « والعزاء اسم اقيم مقام التعزية وعـزاه للازهري اه بالحرف »

وقد رايته حقيقا بالاشكال، لما وقع في كلام النووي من الاختزال، فصاغ به كلام الازهري على غير مثال،

اعلم ان كلمات ايمة اللغة قد اطبقت على ان العزاء اسم بمعنى الصبر وهو من الناقص اليـاءي

وفعله كرضي ولم يسمع مصدره القياسي اي بوزن رضى كانهم استغنوا بالاسم عن المصدر. واطبقت على ان العزاء يطلق في مادة اخرى مصدرا لفعل عزا الناقص الواوي (وياتي ايضا ياءيا بقلة) وذلك بمعنى النسبة يقال عزوت هذه القصيدة الى فلان عزوا وعزاء.

وقد روي حديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من لم يتعز بعزاء الله فليس منا (١) قال ابن مكرم في لسان العرب اي من لم يدع بدعوى الاسلام فيقول يا لله او يا للمسلمين (يعني انه من عزا الواوي فالمراد النهي عن الاستصراخ بالقبائل وهو دعوى الجاهلية) ثم قال قال الازهري (٢) له وجهان (يعني لمعنى الحديث) احدهما ان لا يتعزى بعزاء الجاهلية ودعوى القبائل ولكن يقول يا للمسلمين والوجه الثاني ان معنى التعزي في هذا الحديث التأسي والصبر ومعنى بعزاء الله اي بتعزية الله اياه فاقام الاسم مقام المصدر الحقيقي وهو التعزية كما يقال اعطيته عطاء ومعناه اعطيته إعطاء اه وقريب منه في النهاية لابن الاثير غير معزو الى الازهري والازهري لم يذكر هذا في كتاب التهذيب له في اللغة بل في كتاب شرح مختصر المزني في الفقه الشافعي فهو وارد في مساق شرح وتاويل لا في مساق بيان الالفاظ اللغوية. وليس واردا مورد النقل وقد فرض احتمالين في الحديث وحاصل الاحتمال الثاني ان لفظ العزاء الذي هو اسم مرادف للصبر اقيم مقام مصدر تعزى على وجه النيابة بطريق التوسع ولذلك قال فاقام الاسم مقام المصدر الحقيقي فدل على انه ليس بمصدر حقيقي بل توسعي اي بقرينة وقوعه بعد قوله لم يتعز. والتوسع باب في كلام العرب يشبه باب المجاز وهو استعمال الكلمة في غير معناها الموضوعة له لا على طريقة المجاز بل توسعا في الكلام للتخفيف او نحوه فالفرق بين التوسع والمجاز بشيئين هما عدم العلاقة في التوسع بخلاف المجاز وكون القرينة في المجاز قرينة مانعة والقرينة في التوسع قرينة معينة فقط. فالنووي نقل كلام الازهري مبتورا محذوفا منه ما فيه من العبارات المحررة فاوهم ان التعزية من معاني لفظ العزاء ولم يذكر الحديث الذي تاوله الازهري على ان قول الازهري «اقيم مقام التعزية حارس من توهم ان العزاء مرادف للتعزية اذ لو كان مرادفا لما استقام قوله اقيم مقامه. ولو كان الازهري يريد بذلك اثبات معنى التعزية لكلمة العزاء لكان نقلا شاذا لم يسبقه به احد من ايمة اللغة وليس الازهري في عداد الايمة الذين تقبل افرادهم، المذكورة جماعة منهم في النوع الخامس من كتاب المزهر. ولو قبلنا منه هذا الفرد لكان اطلاق العزاء على معنى التعزية من غريب اللغة غير المشتهر بين نقلة اللغة وذلك ينافي وقوعه في كلام افصح العرب صلى الله عليه وسلم اذ الخلوص من الغرابة من جملة معنى فصاحة الكلمة. وايضا فكلام الازهري لو اخذ على ما يلوح منه اول وهلة لكان قصاراه ان هذا احتمال في الحديث والمعاني اللغوية لا تثبت بالاحتمال بل يتعين في اثباتها ايراد شاهد لا احتمال فيه او ايراد شواهد كثيرة ظاهرة في المعنى المثبت وان كانت فيها احتمالات ضعيفة تدحضها كثرة الظواهر على نحو ما قرره علماء اصول الفقه في خبر الواحد

الخيال في الادب العربي

بقلم الاديب الشيخ احمد المختار الوزير
المعلم بمدرسة ترشيح المعلمين

قلنا في حديثنا السابق إن الخيال هو العنصر النفسي القوي اللازم لتكميل الفن وابرازه في اشكاله والوانه المختلفة . واذكر اني وعدت حضرات القراء الكرام باستعراض مثالا لهذا الفن الذي ابدع في تنسيقه وانسجامه الخيال الخصب كل الابداع

فهذا ابو عبادة البحتري استطاع ان يحرك في نفوس قرائه عاطفة حزينة باكية مشوبة اللوعة . فتضرمه الحسرة . بقصيدته الخالدة التي رثى بها المتوكل وما ذلكم الا لانه إستلهم خياله . فاملى عليه صورا عميقة قوية التاثير واضحة الظل والضياء . عرضها البحتري في شعره عرضا مو... ما له خطرا العظيم في الالهام والتأثير . فاستمعوا له اذ يقول وقد هدت ركنه الاحزان وابكت جفنه الحسرات واضناه الاسف اللهيف وقيدته الحيرة الذاهلة :

محل على القاتول اخلق دائره ... وعادت صروف الدهر جيشا تغاوره
كان الصبا توفي نذورا اذا انبرت ... تراوحه اذيالها وتباكره
ورب زمان ناعم ثم عهده ... ترق حواشيه ويورق ناضره
تغير حسن الجعفري وانسه ... وقوض بادي الجعفري وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجاءة ... فعادت سواء دوره ومقابره
اذا نحن زرناه اجد لنا الاسى ... وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
ولم أنس وحش القصر اذ ريع سربه ... واذ ذعرت اطلاؤه وجاذره
واذ صيح فيه بالرحيل فهتكت ... على عجل استاره وستائره
ووحشته حتى كان لم يقم به ... انيس ولم تحسن لعين مناظر
فاين الحجاب الصعب حيث تمنعت ... بيهبته ابوابه ومقاصره
واين عميد الناس في كل نوبة ... تنوب وناهي الدهر فيهم وآمره
حلوم اضلتها الاماني ومدة ... تناهت وحتف اوشكته مقادره

هذه ابيات من مرثاة البحتري تشعر وانت تتلوها بصوت واضح النبرات او تطيل انصاتك

لسماعها – كانك تقف مع البحتري وقفة الباكي الحزين تشهد ما كان يشهده من هول الخطب وكانك معه بحسرات قلبك وعبرات طرفك في كل ما الم به من سوء صروف الدهر وشرور ملماته المشجية المروعة

أفهل ترى البحتري استعان بشيء من الخيال في تصوير نفسه البرة ومحبته الخالصة وعهد وفائه الوثيق ثم في تصوير مصيبته الفاجعة ومحنته الفادحة ؟ وهل كان البحتري ليستعين بوحي خياله الخصب الا ليهون حعدة الالم الذي ينتابه ويساوره ويتظفر مخالبه الدامية في مداخل كل عضو من اعضائه ؟ فابو عبادة البحتري كان دون شك يشعر بالالم شعورا حادا عنيفا وكان يلتمس السبيل الى الترويح عن نفسه من ضيق هذا الالم العاصف. فنطق برثائه الذي سمعناه وما اظن الا انه احدث اعظم اثر في تموج شعورنا العاطفي.

وسل ما شئت بعد هذا كله هل في مرثاة البحتري ما ينسب الى تكلف التشبيه وصيد الاستعارة الغريبة النابية. وما ينسب الى التزوير والتلفيق والحشو الذي الفه شعراء المراثي فالسماء ما زالت تظل الناس. والشمس ما زالت تظهر في تبلج اشراقها وضياء نورها. والقمر ما زال وضيئا لموعا يسامر النجم ويناجي الشعراء والارض مازالت على عهدها السابق لم تدمرها الزلزلة ولم تحطمها الصاعقة والجبال لم تنسف ولا اندك شيء من شاهق صروحها واعالي عروشها ومرثاة البحتري على خلوها من هذه الغرائب تصور نكبة القصر وفاجعة الخطب ورزيئة الموت في ابلغ عبارة واضحة واسلوب رصين فيه من القوة ما يثير كوامن الاشفاق والرحمة والحزن الشديد. بل قل ان بيتا واحدا من مرثاة البحتري يكفي لاثارة ما اراد الشاعر اثارته في نفوس السامعين وهو هذا البيت :

ولم انس وحش القصر اذ ريع سربه واذ ذعرت اطلاؤه وجآذره

فلو ان البحتري استعرض في مرثاته صورة اخرى بدل هذه الصورة فحدثنا عن الفة الناس الذين كان يجمعهم القصر ويظلهم برواق السعادة ويكتنفهم بخيرات الترف وبركات النعيم وكيف صارت تلكم الالفة الجامعة الى الفرقة والشتات والى ضلال الفزع وذهول الحيرة لما بلغ تاثير البحتري هذا الحد البعيد في غوره ومداه.

صدقوني اني لاجد في استعراض هذه الصورة الكاملة من مثيرات الحزن ودواعي الحسرة وبواعث الاشفاق والرحمة. اثرا عظيما تضج به النفس وتضطرب له اشد الاضطراب

اليس هذا البيت رمزا يدل في يسر وقوة على كمال المعاني الانسانية وسموها في نفس الشاعر؟ ان رحمة الانسان بالانسان لا تحد ومن سوء الفهم لمعاني الانسانية الكاملة ان يحاول المرء تحديد شعوره السامي الذي يدفعه دفعا الى الرحمة والترفق. وكل حد يجعل نهاية قصوى لتحديد ما يتولد عن هذا الشعور من قول وعمل ومن سعي متدارك وبذل جديد يكون دون شك بترا لهذا الشعور قاضيا بفساده او بتلاشيه وتلفه. وليس يحمد الشاعر ان هو قصد الي تصوير هذا الشعور

الانساني فأطره في مظهر قاصر محدود . يتناول الانسانية مترفقا باخيه الانسان ليس غير ، اذ ان الشاعـر ينزع الى استحضار المثل العاليـة ورحمـة الانسانية لا تحد باي مثـال مهما كان رفيعا عاليا ما لم تتسع حدود محيطه ويبعد في استغراقه وشموله . ولقد تفطن نبوغ البحتري لهذا وادركت عبقريته انه ليس من فضل الانسية ان يرثى لهـؤلاء الذين تعست حالهـم من العذاري الحسان ومن جواري القصر والصبايا والفتيـان رأى انـه ليس من الفضل في شيء أن يرثى لهؤلاء ولا يرثى لحال غيرهم فتسامى به الخيال والشعور الانساني الكامل الى استعراض هـذه الصورة التي جعلت شعورنا يفيض متفجرا ويعم بفيض غمراته الانسان والحيوان .

الخيـال الاستحضاري والخيال الابتكاري

ويحسن هنا ان نلم بايسر تعريف الخيال اذ لعلنا على ضوء هذا التعريف الجامع نستطيع ان نتبين اقسامـه وان نستوضـح خصائص كل قسم وان نعـرف الى اي حـد نتصل هذه الاقسام بقوة الادب وضعفه ويكفي ان نذكر في تعريـف الخيـال : انـه جميع العمليات العقلية التي ينشأ عنها استحضار صور ذهنيـة قد تكون في جملتها قريبة الشبه والمطابقة للتجارب الماضية والمدركات الحسية السابقة . وهذا ما يسمى بالخيال الاستحضاري . وقد تخرج عن حدود هذا الشبه القريب والمطابقة المماثلة بحيث تكون الصور الذهنية جـديدة التكوين وليدة الابداع لا عهـد لنا بها من قبل اذ ليس ثمة ما يماثلها في محيط الواقع والتجارب السالفة . ومعنى هذا ان الشاعر يجرد من هياكل الاشياء نعوتا اذا اجتمعت تألف من جملتها مثال مبتكر طريف وهذا ما يسمى بالخيال الابتكاري .

وما من شك ان الادب في بداءته يستند الى ذلكم الطرف الاول اذ به يستذكر الانسان حوادثه الماضية والوان الاشياء واجزاءها وتراكيبها على ما هي عليه وبه يحكي ما حـدث ويصف ما كان . وهذا الاستحضار الخيـالي يعين الاديب ولكنه لا يكون عنصـرا من عنـاصر القـوة الا في نوعـي الادب القصصي والوصفى . .

اما ذلكم الخيال الابتكاري المبدع فهو العنصر الذي يسمو بالادب ثم يسمو به الى حيث يحلق في مسابح بعيدة الافاق وهنالكم يستنزل وحـي الهامه من المثـل العالية للجمال . وعلى هـذا النـوع من الابداع الخيالي يقوم الادب الغنائي والتمثيلي . . وعليه يقوم النقد اذ انه يدلنا في صدق وصراحة على اختلاف طبائع الادباء وكبر نفوسهم وعلى شـارات كل اديب وميـزاته ولونـه الـذي يرسلـه على ما يناوله من شتى المعاني والاغراض . (يتبع)

« احمد مختار الوزير »

صفحة من

الادب التونسي

في القديم

من علماء تونس في القرن الثاني عشر وشعرائها الشيخ عبد الله السنوسي المترجم له في كتاب عنوان الاريب للعلامة الشيخ محمد النيفر . وللشيخ عبد الله السنوسي هذا ثلاثة ابناء محمد وهو اكبرهم ومحمد الوسط واحمد اخذوا العلم عن والدهم قال العلامة الشيخ ابن ابي الضياف في شانهم .

كانوا على درجة عليا في العلم والفضل واكبرهم آية الله في الشعر والادب وشعره يسع ديوانا معروفا عند اهل الادب واوسطهم آية الله في الفقه والتصوف . قال : ولم اقف على تاريخهما . اما اصغرهم فقدترجم له وفيما يظن ان اكبرهم وهو الشيخ السنوسي توفي على راس القرن الثالث عشر . ومن شعره ما هنأ به النجم ابن سعيد حين ختمه لكتاب الشمائل ونصه :

أرى ربع من اهـواه غير بعيـد ... فها هو مـني مثل حبل وريد
فعـوجا قليـلا بي لعـلي اشتفـى ... بسكب دموع فـوق صحن خدود
حكى صوبها صوب الغمام اذا همى ... وصوت زفير القلب صوت رعود
على انـه لم يجدني سكب عبرتي ... على طلل عـاف بطـول عهـود
وفي كبدي نـار يشيب لهيبها ... لبينهـم لم تتصـف بخمـود
يرى الشوق جثماني فصار من الضنا ... دقـاق عظـام ضمنت بجلـود
ولم يبق في جسمي سوى رمق غدا ... دليـل حيـاة مؤذنـا بوجود
ولم يثنـني عن حبهم طـول نأيهم ... ولم اسلهـم طـول الحيـاة بغيد
فحبهـم وصفـي وبي قـام لازمـا ... كما قـام وصف العلـم بابن سعيد
هو العلـم السامـي الامـام محمد ... سليـل عـلي ذو الوفـا بوعـود
ومن اسعـد الراجين نيل علومه ... بفـهـم ورأي صـائب وسديد
وقـد قيـد العمر المديـد حياته ... بحـل عـويص او بقيـد شرود
فلا جدة اغنتـه عن حب نائـل ... ولكـن لزهـو في دنـاه شديـد
ومن جعـل العلم المشرف بـازيـا ... لصيد العطايـا كان غير رشيـد
وما هـو الا للنفـوس مكمل ... وليس سبيـلا لالتقـام ثريـد

فمن شاء وصف العلم فليك هكذا … والا فمنه الذم غير بعيد
حويت ابا عبد الاله شمائلا … صعدت بها العلياء خير صعود
فغادرت كل الحاسدين كانهم … بقايا ثمود في ديار ثمود
كختمك في يوم شمائل احمد … فكنت بذاك الختم خير حميد
فكن ذا فخار ماشيا تحت راية … تخفق في دار الدنا وبنود
وتحت لواء المصطفى يوم محشر … جزاء لما أرضيته بمزيد
كاني بمرأى منك حقا ومسمع … فآونة تلقي لسمع مريد
حديثا باسناد صحيح رويته … فانت لما ترويه خير مجيد
وانك ذو لفظ شهي مهذب … الى كل من يصغي اليك مميد
يحاكيه لحن الموصلي وزلزل … اذا غنيا يوما بشعر لبيد
فكيف اذا تروي الحديث معنعنا … ببيت عتيق للالآه مشيد
ولولا وداد منك صح مصاحبا … بحسن وفاء بالعهود مديد
لما ملت يوما للثناء على امرء … وقمت الى الانشاد بعد قعود
فشعري ذو ود لاهل مودتي … وليس لمن لم يهوني بودود
فودي الى طول المدى ليس ينقضي … وحقك الا بانتهاء وجودي

فاجابه العلامة ابن سعيد (١) بقوله

لمن ظبيات في معاجر سود … تركن اسود الحي غير أسود
وغير بعيد ان يكن اوانسا … اتين الينا من جنان خلود
هززن قدودا ثم قلن الى القنا … تاخرن ما فيكن مثل قدودي
وأسفرن عن در يقول ابتسامه … عقود النجوم الزهر دون عقودي
وابرزن رايات الخدود وقلن لي … اياعم هل في الروض مثل خدودي
خليلي لا اخفيكما الحال انني … اصبت بها في اعظمي وجلودي
والا فما بالي كان محاجري … بمرتميات الدمع واد زرود
ولم أر نيرانا حوائي تلتظي … وفي القلب مني حر ذات وقود
على انها لم تلقني بقطيعة … ولا اعترضتني في ثياب صدود
سقى بانتيها غاديات يسوقها … تبسم برق لابكاء رعود

---

(١) هو العلامة الجليل الشيخ محمد بن سعيد صاحب الحاشية الجلية التي كتبها على الاشموني وغيرها المتوفى سنة ١١٩٩

والا دموعي الساريات كانها	اذا ما اذيلت خافقات بنود
والا يراعات تسيل مياهها	فتنشيء روضي نرجس وورود
يراعة مولانا الرئيس الذي به	عرفنا لساني جرهم وثمود (١)
اخو اللفظ احلى من عتيق مدامة	وابهج من ريا المخلخل رود
اذا هال القى فيه شعلة قابس	وان هان القى فيه نفحة عود
من القوم لا يلقاهم زائر لهم	سوى فرقتين ركع وسجود
على انهم في العلم والحلم والحجى	وبذل العطايا نيرات سعود
ابوه الذي الحمى تخاف بجوده	وهل عرفت حمى تخاف بجود
واغلب فخر من يكون مفاخرا	به وبآباء له وجدود
ايا سيدا ادركت في خلواته	جنود جنيد في جنيد جنود
ويا فاضلا شاهدت في جلواته	صعود سعيد في سعيد صعود
تأن فقد غادرت من كان لاحقا	كانك قد قيدته بقيود
وخل من العليا قليلا فانها	غدت عن جميع الناس ذات ندود
وقم لنقود من حبيب عهدته	على وفق ما ترضى بغير نقود
اتبعث لي بالشمس والبدر ثم لا	تلفعها في سابغات برود
وترسل لي بالشهب لماعة ولا	توصي رسولا جاءني بجحود
فهبني قد انكرت فيما بعثته	ايعوزهم فيها قيام شهود
وكثرت حسادي على أنني امرء	رماني حسود فوق كل حسود
على انني لا استطيع لك الجزا	وان جئت من خير الثنا بوفود
نعم سوف تجزى من شمائل احمد	(٢)
فدم انت والاحباب في خير رفعة	وخل الاعادي في اذل ركود

« انتهت »

---

(١) يظهر من هذا البيت ومن بعض ابيات القصيدة التي هذه جواب عنها ان قائليهما كانا قرينين فليست تلك تهنئة من تلميذ لشيخه بل من تهنئة صديق لصدقه خصوصا ووفاة الشيخ ابن سعيد كانت سنة ١١٩٩ في حال شبيبته والله اعلم .

(٢) بياض بالاصل الذي بين أيدينا فالرجاء من السادة الادباء اذا عثر احدهم على عجز البيت أن يرسله الينا لنقدمه لقراء المجلة ونحن له من الشاكرين

نشرة المجلة الزيتونية

ديــوان

أبى عبد الله محمد الورغى

المتوفى سنة ١١٩٠

تـــونس

مدير المجلة

محمد الشاذلى ابن القاضى

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ العالم اللغوي الشاعر المفلق مفخرة زمانه ابو عبد الله محمد بن احمد الورغي الكاتب المتوفى سنة ١١٩٠ يخاطب الجناب العالي جناب سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويذكر اشواقه الى زيارة قبره الشريف ويشير الى شغف الامير المولى علي باي ابن المولى حسين باي بالحديث واجلال اهله واختصاصه بمؤانسه اهل العلم ومسامرتهم واستلذاذه بذلك

الحمد لله الذى جعل الحديث النبوى امانا من المخاوف . كما جعله مبنى للنجاة ومنبعا للمعارف . وصلاته وسلامه الاتمان على من ختم به الرسالة . كما انار به الحق وطمس به الضلالة محمد سيد العالمين وملجا الثقلين . وعلى آله وصحبه البالغين فى نصرته . المثابرين على اعلاء كلمته . وبعد فان العبد الفقير . تطفل على باب اللطيف الخبير . بمدح رسوله سيد البشر . بما اسكنه من القول وحضر . هدية قدمها بين يدى نجواه . فيبلغ كل من حضر هذا المحفل مناه ، ببركة هذا الختم العظيم . في هذا المقام الكريم . والوقت الذى ينزل فيه النعيم . من الرحمن الرحيم . فقلت مخاطبا لذلك الحبيب . وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب

تملا من شوقي اليك جناني ... فهل يبلغ المقصود منك عياني
وهل تمسح الاجفان موطىء اخمص ... مشت من ذرى العليا باي مكان
وهل انظرن يوما بقاعا نظرتها ... بعينيك او مرت بها القدمان
اماني ما بعد الرضى منك بعدها ... لذي صبوة صبت عليه اماني
يقربها مني رجاء يقيمني ... ويقعدني عنها شحيح زماني
اذا انبعثت من جانب الغرب رفقة ... لنحوك هم القلب بالطيران
وقلبت طرفا جاري الدمع ماله ... بقيمة طرف للجنوح يدان
ولو امكنت مابت الا معانقا ... بساحة فتح الله حمر هجان
احدثها عجماء عن طيب نجعتي ... فتصغي ولا تعيي من الوخدان
وتصبح كالامساء في كل منزل ... تقصر طول الخطو بالنزوان
وتختصر التوديع من قبل (رادس) ... لتنزل من بعد على صلتان
اذا ابصرت قصر الفلاحين لا ثحا ... ففي (المحرس) التعريس بعد ثمان
فان قابلتها (قابس) اودنت لها ... (طرابلس) مرت بغير عنان
لتطوي الى (مصر) منازل بعضها ... لبعض وان طال المدا متدان
تقول فما في (البركة) الان مبرك ... يطيب وقلبي للبويب دعاني
ولا في ربى الخضراء يثبت منسمي ... ولا في القباب يستقر جراني
وشوقي لبير النخل من قبل (ايلة) ... وقبربي (لقو) زاد في هيماني
كاني اذا جئت (المغارة) حالم ... له النبك والاقصاب يلتقيان
فمالي وللحوراء ينبع دمعها ... ودمعي بذات الدهنوين ثوان
احن الى مرءى (حنين) ومقصدي ... مبادرتي (بدرا) بغير توان
لعلي ارى من (رابغ) بعد بزوة ... وبير علي عزمة المتوان

فاخلص من وادي السويق وعسفه — الى مجمع الخلصا الى عسفان
ومن بطن مرو والمساجد دونها — بيوت الى البيت العتيق دوان
منازل للاسعاد لا غير كونت — كفتنا عن الشرطين والدبران
بلغنا بها لا بالسماكين مطمحا — به الوحي والارسال يلتقيان
مزار يروح الزور منه بما اتوا — له من منى عظمى وعقد امان
اذا ما افاضوا مصدرين ومسحوا — بايمانهم من اسود ويمان
دعتهم الى الاقلاع كوم مسنة — تخيرها العراف غير سمان
تباري مهب الريح ان قيل طيبة — وتزري على الاطواق عقد جمان
امن طرب تبكي وحق لصخرة — تكون كذا فضلا عن الحيوان
لذاك ترى الركب المجدين نحوها — يخوضون في بحر من الغشيان
سكارى ولكن بالحبيب وذكره — جرى طرب الجريال في الشريان
فكيف اذا قاموا ومن دون قبره — اذا حرر التقدير قيد بنان
هناك فحدث كيف شئت عن الذي — تراه فاني ما ارتضيت بيان
ولا لوم ان افحمت مثلي فانها — معان تكل الفكر اثر معان
اذا مدحته الآي قبلي فما عسى — يخمن قلبي او يقول لساني
حماك رسول الله يقبل لاجئا — اقامت له الايام سوق طعان
الى اين ان اغلقت بابك دوننا — وحاشاك إن يؤذى بعرضك جان
اما انك المبعوث للخلق رحمة — فلست اذا ما كنت لي بمهان
ومن شرعك المحمود ان تخلص الدعا — لذي الامر في حب وفي شنئان
وهذا علي ابن الحسين كما ترى — بذكرك مشغول بكل اوان
يعامل من جراك امتك التي — توصي بها خيرا بكل حنان
ويروي احاديثا اليك استنادها — لتجزيه خيرا عن فل وفلان
ولا تلهه الاشغال عن نشر طيبها — صحاح على طول المدا وحسان
ولكن في الجعفي منه محبة — تخلص من ضيق ومس هوان
لما انه لما بنا القبة التي — اجاد لها الاحسان خير مكان
حمى وطئها الا بختم صحيحه — باخلاص نيات وبث مثان
فكان ابتداء الختم بدء دخولها — وكان بليل القدر من رمضان
وانت بها يا اكرم الخلق حاضر — تشاهد ما ياتي به الثقلان
عسى نفحة من فيض فضلك تحتوي — وتشمل هذا الجمع بالسريان
فيرجع راو للحديث وسامع — ومبني بما يشفي الغليل وبان
عليك صلاة الله ثم سلامه — وذالك طرا ما التوى الملوان

وقال يمدح مخدومه الجامع بين شرفي العلم والامارة
المنعم المبرور أبا الحسن علي باشا ابن محمد التركي
صاحب تونس ويهنيه بعيد الفطر

أعيدا حديث الانس عن ساكن السفح — عسى تبردا ما بالجوانح من لفح
وإياكما ذكر العذيب فانه — على غيرتي عنه غني عن الشرح
خليلي لا أنسى وقد جئت حيها — وحيدا أسر الخطو في غيهب الجنح

تطالعني الجوزاء شزرا وينطوي(١) ... على حنق قلب السماك مع النطح
وما وطئت رجلي على غير شائك ... ولا قبضت كفاي إلا على رمح
أحاول منها لفتة لا لريبة ... واطلب منها نغمة لا على قدح
ولولا انتشار النشر من طي ردنها ... وبرق ثناياها ضللت الى الصبح
فأيقظها ملبعد (٢) خفق حشاشتي ... وقد عاد حرب الدهر فيها الى الصلح
فوافت ويا لله كابن محمد ... وقد قام للتعييد في ساحة الصرح
ألا إنه الباشا الذي اعترفت له ... ملوك(٣) الورى بالخلق والخلق السمح
همام اذا عاينته قلت إن من ... سواه من الاملاك من جملة السرح
طوى لاكتساب الحمد كل تنوقة ... وأصبح عن كسب الهوى طاوي الكشح
وأظهر في ذا الملك كل عجيبة ... يغني بها طير الفخار على دوح
رأيناه لما ودع الصوم راجعا ... وأقبل عيد الفطر في معرض الفرح
تطلع من بين الاساطين مثلما ... تطلع وجه الرشد من خلل النصح
وقام لاعطاء التحية مقبلا ... كما انتصب الركن اليماني للمسح
وابرز للتقبيل كفا لو انها ... تمر بمقروح لصح من القرح
ولا شك أنا إذ لمسنا يمينه ... ظفرنا بكنز اليمن من معدن الربح
فيا أيها الغيث الذي جود كفه ... من الدر والابريز منتشر السح
ويا أيها السيف الذي انقطعت به ... رقاب بني البهتان من غير ما جرح
فداك من الاسواء كل مملك ... سجيته وقف على الجبن والشح
وهنيت بالعيد الذي كل موسم ... على إثره أزكى واعظم بالنجح
تحاشا وأيم الله عن كل وصمة ... سوى انه قد جاء في أثر الفتح
فلاقاه من والاك كالزهر باسما ... وواجه من عاداك في غاية القبح
وأنعم بهذا القصر دهرك باديا ... لك البشر من أرجائه عالي القدح
سواريه(٤) مثل الغيد أرخت ذوائبا ... ولولا الحيا مالت حواليك للشطح
ترى كل بيضاء الاديم توكأت ... على مثلها سمراء في جودة السطح
شددن على الاوساط حزما كانما ... يرحين أن تدعو الجميع الى الكدح
وقمن على دست النضار كأنه ... من الثلج إلا أنه فاقد الرشح
ونمقن أعلى الوجه نقشا كانه ... شظايا قتيل الليل في غرة الصبح
بدائع أزرت بالبديع وأغمدت ... مصانع ذي غمدان في حيز الطرح
ورام يحاكيها السدير بما له ... وأين من السعدان نابتة الطلح(٥)
وكم لك في نشر المفاخر مثلها ... اذا بلغت شانيك أيقن بالذبح
أما يتوقى من يباريك عزمة ... تميز بعد المزج عذبا من الملح
بعثت بها للشرق والغرب خطة ... تخط بها الاقلام مجدك في لوح
فلا زالت تبدي كل حين غريبة ... تروق النهى بدأ وتختم بالمدح

---

(١) وفي رواية وينثني — (٢) أصله من العبد حذف النون تخفيفا على حد قول المتنبي :

نحن قوم ملجن في زي ناس ... فوق طير لها شخوص الجمال

اصله من الجن (٣) وفي رواية جميع (٤) وفي رواية حواليه (٥) السعدان نبت من أفضل مراعي الابل وفي المثل مرعى ولا كالسعدان وله شوك يشبه به حلمة الثدي والطلح شجر عظيم تشتكي الابل بطونها من رعيه

# المجلة الزيتونية

مجلة علمية أدبية اخلاقية

تصدرها هيئة من مدرسي جامع الزيتونة المعمور

شهرية وسنتها عشرة اشهر

الجزء ٧ و ٨	تونس - جمادي ١ و ٢ - ١٣٥٨ - جويلية - اوت ١٩٣٩	المجلد الثالث

رئيس قلم التحرير :

محمد المختار بن محمود

المفتي الحنفي

بالديار التونسية

صاحب المجلة والمدير :

محمد الشاذلي ابن القاضي

المدرس من الطبقة الاولى بجامع الزيتونة

والخطيب الثاني بجامع حمودة باشا

المراسلات :

ترد باسم مدير المجلة بمحل الادارة

الادارة :

نهج الباشا رقم ٣٣ بتونس - تليفون ٤٩-٢٦

حساب جاري بادارة البريد رقم ٣٤٢٢

ثمن العدد ٣ فرنكات

المطبعة التونسية نهج سوق البلاط عدد ٥٧

فهرس العدد

المجلد الثالث — الجزء ٧ و ٨

المجلة الزيتونية

مجلة علمية أدبية اخلاقية

تصدرها الهيئة من مدرسي جامع الزيتونة المعمور

شهرية وسنتها عشرة اشهر

الجزء ٧ و ٨ | تونس - جمادي ١ و ٢ - ١٣٥٨ - جويلية - اوت ١٩٣٩ | المجلد الثالث

رئيس قلم التحرير :

محمد المختار بن محمود

المفتي الحنفي

بالديار التونسية

صاحب المجلة والمدير :

محمد الشاذلي بن القاضي

المدرس من الطبقة الاولى بجامع الزيتونة

والخطيب الثاني بجامع حمودة باشا

المراسلات :

ترد باسم مدير المجلة بمحل الادارة

الادارة :

نهج الباشا رقم ٣٣ بتونس - تليفون ٤٩-٢٦

حساب جاري بادارة البريد رقم ٣٤٢٢

ثمن العدد ٣ فرنكات

المطبعة التونسية نهج سوق البلاط عدد ٥٧

بسم الله الرحمن الرحيم

في جامع الزيتونة

الاحتفال السنوي العظيم

بانتهاء العام الدراسي بالكلية الزيتونية العامرة

احتفل يوم السبت في جمادى الاولى ١٣٥٨ وفي ١٥ جويلية ١٩٣٩ بختم الامتحانات بجامع الزيتونة ادام الله عمرانه وقد كان احتفالا بهيجا حضره رجال الدولة الاعلام يتقدمهم الهمام الافخم امير الامراء المولى الوزير الاكبر سيدي الهادي الاخوة نائبا عن صاحب الكرسي الحسيني الملك المعظم مولانا احمد باشا باي الثاني ادام الله اجلاله وحضره ايضا اعضاء مجلس الاصلاح بالجامع والشيخان المفتيان سيدي محمد العنابي وسيدي محمد المختار بن محمود والشيخان النائبان لشيخ الجامع سيدي عبد العزيز النيفر وسيدي الشاذلي الجزيري والاساتذة بالمعهد والمشائخ المدرسون من الطبقات الثلاث والمتطوعون بالتعليم وتلامذة المعهد ونخبة من سراة الامة يتوسط الجميع فضيلة الاستاذ الاكبر مولانا شيخ الجامع وفروعه الشيخ سيدي صالح المالقي وبعد قدوم المولى الوزير الاكبر ومن حضر بمعيته من رجال الدولة وتبادل التحيات تلا الشيخ علي بن سالم ربعا من القرآن العظيم وبانتهائه من التلاوة خطب صاحب الفضيلة شيخ الجامع ثم نودي على اسماء من فاز في حلبة الامتحانات ووزعت المكارم على المبرزين منهم وختم الاحتفال بتلاوة أم الكتاب وانتثر عقد المجلس والكل يدعو بدوام عمران جامع الزيتونة بشيوخه الجلة وتلامذته الذين عليهم المعول في حفظ الملة مكبرين همة فضيلة شيخ الجامع وما يسديه للمعهد من عظيم العناية والسير به في مدارج الرقي المستمر كلل الله اعمال الجميع بالتوفيق والنجاح حتى نرى الكلية الزيتونية على الدوام من ارقى الكليات العلمية انه سميع مجيب

خطاب الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الاعظم

حمد الله تعالى أجل مهم يقصد واشرف غاية، وأهم أمر يعتمد بدءا ونهاية، وصلاته وسلامه على أشرف مرشد وأفضل معلم، المعرب في غير ما حديث عن فضيلتي العلم والتعلم، وعلى ءاله وأصحابه، المهتدين بهديه والمتادبين بآدابه، وعلى تابعيهم من سائر علماء الامة المرشدين، وتابعيهم في ذلك الى يوم الدين

وبعد فان السنة الدراسية للجامع الاعظم ادام الله عمرانه، وشيد بمعالم العلم اركانه، آذنت اليوم كعادتها في مثله بالانصرام، يتضوع من ارجائها مسك الختام، حافظة لما قد حواه تاريخها للمعهد من

مجاسن احاسن، وما ارتوى به وراده من ماء غير ءاسن ، وما اهدته حلق التعليم له من ثمار يانعة ، ومجالس لمختلف العلوم جامعة ، قطوفها لمجتنيها دانية، وخرائدها لمجتليها متدانية، اقتطف المجدون من ثمراتها كل حسب جده واستعداده ، واخفق الراسبون فيها وانى يظفر مقصر بمراده ، وجوزي بها من تنكب الجادة الى بنيات الطريق ، التي لا يسلم سالكها من اقتحام عقبة او ترد في مضيق ، ليعلم الكل ان من جد وجد ، ومن توانى فقد ، ومن زرع حصد

احتفل اليوم في هذا المجلس الحافل الحاشد بعلية القوم وسراة الامة من وزراء فخام وعلماء اعلام واساتذة جلة وشيوخ كرام وذوي خيثيات من رجال الحكومة وشخصيات بارزة من سائر الطبقات حفظ الله جميعهم تزينه طلعة صدر الصدور ومن اليه المرجع في مهمات الامور الهمام الافخم والعماد المفخم امير الامراء وتاج اكاليل الوزراء المولى الوزير الاكبر ممثل الحضرة العلية والسدة الملوكية ومن له في اعتزاز الجانب العلمي اعلى مزيه حضرة ولي النعم وكريم الشيم ومفخرة العصور والامم المحفوف حماه بسر السبع المثاني سيدنا ومولانا احمد باشا باي الثاني صاحب المملكة التونسية لا زالت طلعته مزدهرة وايامه رائقة هنية عملا بما جاء في الفصل السادس والثلاثين بعد المائتين من ظهيره المطاع اهتماما منه ايده الله بالهيئة العلمية وتنشيطا لها بايفاد من ينوب جنابه العالي في احتفالها الرسمي وذلك لعرض حالة التعليم وما انتجه المعهد في بحر السنة الدراسية من ترقيات علمية وما قد احرز عليه المبرزون في شهاداته بسائر انواعها مما سنتعرض له فيما بعد بهذا المجلس مع ذكر اسماء اولئك المبرزين والجوائز المحظى بها من فاق منهم في حلبة الامتحان اظهارا لمزيتهم واستنهاضا لعزيمة من لم يلتحق بهم من اخوانهم الذين شاركوهم في مهمتهم من كل من كبا به في ميدان الامتحان جواده ولم يسعفه فيه حظه واسعاده راجين لجميعهم بما لنا من العطف الابوي نجاحا متداركا يجبر ما مضى كمن فاتته الحاضرة فتداركها بالقضا بما سيبذلونه من جدّ في العمل يبلغ به صاحبه غاية السؤل والامل والله الموفق سبحانه لا اله غيره

كنا تعرضنا في مثل هذا اليوم من السنة الفارطة الى بعض واجبات التلميذ والخطة المثلى التي يجب عليه سلوكها الكافلة بنجاحه والحافظة له في مستقبله واسدينا لهم في ذلك نصائحنا الخالصة مستروحين بما نقلناه عن بديع الزمان الهمذاني فيما راسل به حفيده من تلك العبارات الذهبية التي حسن وقعها ساعتئذ ولم تزل عالقة باذهان مستمعيها الجلة

ونذكر اليوم بمزيد السرور انا قد راينا ءاثار تلكم النصائح بادية باقبال تلامذة المعهد على دروسهم وعدم انخداعهم لمن رام ان يكيد لهم ويستعملهم كآلة يتوصل بها لسخيف اغراضه فلم ترج عليهم خزعبلاته ولم يجد لدعايته الزائفة بينهم من سبيل بما اظهروه من الثبات وكامل الرصانة وتقديرهم لنصائح المشيخة قدرها التي جنوا اليوم ثمارها وحمدوا مغبتها وءاثارها (وعند الصبح يحمد القوم السرى) فكان المعهد بحمد الله في كامل السنة محل الهدو والطمانينة وباء دعاة السوء وهواة الشقاق بصفقة المغبون

٣

التعليم بالمعهد وفروعه

جرى التعليم بالمعهد وفروعه على مقتضى البرنامج الذي هياته المشيخة قبل افتتاح السنة الدراسية فكانت الدروس يوم افتتاح المعهد والفروع منتظمة مكتضة بتلامذتها والمراقبة تجري عليهم من حيث الحضور والغيبة من طرف مشائخهم طبق التعليمات في ذلك من المشيخة مع افهام التلامذة بما اصدرته المشيخة في بلاغاتها واعلانات لهم به من ان سائر الترقيات العلمية واجراء الاختبارات والامتحانات عليهم ءاخر السنة والمنع من ذلك تبنى على مواظبة التلميذ واقباله على دروسه طبق الملاحظات المتلقاة من شيوخه في ذلك فكان لذلك التفقد اليومي اثره المقصود ووقعت الاجراءات على مقتضى ذلك واعلم اولياء التلامذة الذين لم يسمح لهم بالمشاركة في الامتحانات لتخلفاتهم التي نشا عنها عدم مزاولتهم لمقررات السنة الدراسية وكان قيام اساتذة المعهد والمشائخ المدرسين من سائر الطبقات والمشائخ المتطوعين في دور نيابتهم عن بعض مدرسي الطبقة الثالثة في التعليم الابتدائي في الفروع قياما محمودا كل فيما نيط بعهدته تستوجب مزيد الثناء لما قد بذلوه من جهود قيمة ومن اسداء نصائح لتلامذتهم ابنائهم الروحيين وتوخي الطرق المنتجة في اساليب التعليم شكر الله لهم وامد الجميع بالاعانة على ما فيه ترقية شان المعهد والصعود به في اوج الكمالات

الكتب التدرسية وطريقة اختيارها

الكتب التدريسية التي تبنى عليها موازنة الدروس وبرنامج التعليم المشار اليه ءانفا هي نتيجة مقررات لجنة علمية خبيرة تشكلها المشيخة برئاستها لها في كل سنة من بعض اساتذة المعهد ومدرسيه من سائر الطبقات لتعرض عليها الكتب الصالحة للدراسة وبعد درسها لها ولمقررات السنة قبلها تبدي رايها فيما ترى لزوم تحويره من ذلك او ابداله بغيره من التآليف سواء في ذلك المؤلفات الحديثة وغيرها مما هو اوفق بالتعليم وايصال التلامذة مع استنهاض المشيخة لذوي المقدرة من اهل العلم بامدادها بمؤلفات تجمع بين الافادة وسهولة التعبير لتدخلها في برنامج التعليم وقد وقع بعض ذلك فعلا وهو مما يزاول اليوم وبه يفند زعم من زعم ان الكتب التدريسية التي تسير دولاب الجامع الاعظم اليوم عديمة النفع غير صالحة للدراسة وانها من اسباب اخلال التعليم به وتغالى البعض في ذلك بما ادى به الى الحط من بعض علوم المعهد محاولا بذلك قلب هياته والخروج به عن صبغته وعما هو قائم به نحو الامة التي تفديه بالنفس والنفيس ولا تبغي به بديلا (والمعهد للامة لا لهؤلاء) .

تطرفت شرذمة قليلة تنتمي للمعهد وهي تكيد له تحت عنوان طلب اصلاحه زعمت ان التعليم بالمعهد والكتب التي تدرس به واساليب تدريسها وسائر تقاليده مما مضت عليه عدة قرون بما صيره عديم الجدوى ضئيل النفع غير ملائم للوقت الحاضر وللتطور الاممي وانتقدت التوسع في علومه والتوغل فيها الامر الذي لم يرق لها في نظرها طالبة مزاحمة علومه الاصلية التي هي به بالمنزلة الاولى في القصد من تفسير وحديث وعلومه وكلام وفقه واصول وحكمة تشريع وعلم الاخلاق وغيرها من بقية علوم الدين واصول الشريعة وعلوم العربية على اتساعها الحافظة على الامة لغتها وقوميتها والخادمة لعلومها الشرعية رائمة مزاحمة ذلك كله بما هو في نظرها اجدر نفعا واتم فائدة وذلك مما

٤

يقضي على علوم المعهد الاصلية ويجعلها بمنزلة دون المنزلة المقصودة منها مصرحا ذلك البعض بان المعهد لم يدخله تجديد ليومنا هذا كما دخل لغيره فيروم اليوم تجديده بذلك وقد جهلت او تجاهلت هاته الفئة وظيفة المعهد ورسالته التي يقوم بها نحو الامة مما اسلفناه .

كما جهلت ان العلوم التي تدرس به اليوم تناهز الاربعين علما من بينها ما تمس الحاجة اليه من العلوم الرياضية ونحوها التي يعبرون عنها في اصطلاحهم الخاص بالعلوم العصرية وهو غلط منهم اذ لا ينسب للعصر الا ما استجد فيه وهاته العلوم نجدها قديمة العهد مزاولة منذ عصور وحظ المعهد منها غير منقوص حيث يزاول به منها ما لا بد منه مما لا يزاحم علومه الاصلية احتفاظا على اصل وضعيته حسبما اقتضاه الفصل ٢٠ من قانون الاصلاح .

اما الاصلاح المنشود اليوم للمعهد وادخال تحسينات على ما هو موجود به الآن فلا يعارض فيه احد اذ كل حسن قابل لزيادة التحسين (وفوق كل ذي علم عليم) .

وقد تكفلت الحكومة بذلك بتشكيلها للجنة من اهل العلم وذوي الثقافة خبيرة باصول التعليم وطرائقه ووسائل تعميمه وكل ما يعود بالنفع على المعهد من جميع جهاته وهي تواصل الآن عملها بجد وقد اشرفت ماموريتها على الاتمام مع محافظتها على صبغة المعهد الدينية وعلومه الاصلية وعدم الخروج به عما اسس له منذ القديم . وفوق الجميع نظر امير البلاد ايده الله بما له من الرئاسة الدينية والذي له القول الفصل في كل ما يرجع لمصلحة الامة وحفظ شريعتها المقدسة ومعهدها العلمي .

الامتحانات ونتائجها

اجريت امتحانات المعهد لدى اعضاء لجنة الاصلاح لكل من شهادات التحصيل في العلوم وفي القراءات والاهلية يعضدها في ذلك نخبة من مدرسي الطبقة الاولى وتخصصت اللجنة الاصلية بامتحانات شهادة العالمية في انواعها الثلاث الشرعي والادبي والقراءات كما تخصصت لجنة بالرياضيات من بينها بعض معلمي تلك العلوم وكانت مباشرة اولئك الشيوخ الجلة لمهمتهم الموما اليها محل الثناء بما اظهره جنابهم من كامل العناية ومزيد التمحيص واعطاء كل ما يستحقه مما يكون داعيا للاقبال على التعليم ويزرع في التلامذة نشاطا كما قامت نخبة من المشائخ المدرسين من سائر الطبقات وبعض اساتذة المعهد باختبارات التلامذة في سائر مراتب التعليم . تختص الاساتذة من ذلك بالتعليم العالي وقد اظهر الجميع في ذلك من الحزم والنشاط ما يوجب اسداء الشكر لهم وتقدير ما قد قاموا به من تلك المهمة

وكان عدد الذين شاركوا في امتحان شهادة العالمية في القسم الشرعي ١١ نجح منهم ٥ وفي الادبي اثنان وقع ارجاؤهما لدورة اكتوبر المقبلة وفي القراءات ٦ نجح منهم ٢ وفي شهادة التحصيل في العلوم ١٥١ نجح منهم ١٠٩ وفي القراءات ١٠ نجح منهم ٧ وفي شهادة الاهلية ٣٤٠ نجح منهم ٢٠٩ حسبما يقع التصريح الآن باسمائهم وما احرز عليه البعض منهم من الجوائز وفي الختام نوجه ثناءنا لسائر متوظفي المعهد وفروعه من مشائخ كتبه وقيمين ووكلاء كتب وحافظي المكتبات واعوان الادارة كل فيما قام به مما نيط بعهدته بحزم وامانة والله المسؤول ان يديم لهذا المعهد عمرانه ويشيد بمعالم العلم اركانه ـ ما تعاقبت في جوها غادية ورائحة وختمت المجالس العلمية بسورة الفاتحة .

القرآن الكريم

في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا
ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون

من تفسير الاستاذ الامام المولى محمد
الطاهر ابن عاشور شيخ الاسلام المالكي

استيناف محض ويجوز أن يكون بيانا لجواب سؤال متعجب ناشيء من سماع الاحوال التي وصفوا بها قبل وهي ما في قوله تعالى « يخادعون الله والذين ءامنوا وما يخادعون الا انفسهم وما يشعرون » فان من يسمع ان طائفة تخادع الله تعالى وتخادع قوما عديدين وتطمع ان خداعها يتمشى عليهم ثم لا تشعر بأن ضرر الخداع لاحق بها يعلم انها طائفة جديرة بان يتعجب من أمرها المتعجب ويتساءل كيف خطر هذا بخواطرها ، فكان قوله في قلوبهم مرض بيانا للسبب وهو ان في عقولهم خللا تزايد إلى أن بلغ حدا لافن . ولهذا قدم الظرف وهو في قلوبهم للاهتمام لان القلوب هي محل الفكرة في الخداع فلما كان المسؤول عنه هو متعلقها واثرها كان هو المهتم به في الجواب .

والمرض حقيقة في العارض للمزاج الذي يخرجه عن حد الاعتدال الخاص بنوع ذلك الجسم خروجا غير تام وبمقدار الخروج يشتد الالم فان تم الخروج فهو الموت . وهو مجاز في الاعراض النفسانية العارضة للاخلاق البشرية عروضا يخرجها عن كمالها وإطلاق المرض على هذا شائع مشهور في كلام العرب ، وتدبير المزاج لازالة هذا العارض والرجوع به الى اعتداله طب حقيقي ومجازي كذلك قال علقمة :

فان تسالوني بالنساء فانني خبير بادواء النساء طبيب

فذكر الادواء والطب لفساد الاخلاق واصلاحها . والمراد بالمرض في هاته الآية هو معناه المجازي لا محالة لانه هو الذي اتصف به المنافقون وهو المقصود من مذمتهم وبيان منشأ مساوي اعمالهم .

ومعنى فزادهم الله مرضا ان تلك الاخلاق الذميمة الناشئة عن النفاق والملازمة له كانت تتزايد فيهم بتزايد الايام لان من شأن الاخلاق اذا تمكنت أن تتزايد بتزايد الايام حتى تصير ملكات كما قال :

ورج الفتى للخير ما ان رأيته على السن خيرا لايزال يزيد

وكذلك القول في الشر ولذلك قيل من لم يتحلم في الصغر لا يتحلم في الكبر ، وقال النابغة يهجو عامر بن الطفيل :

فانك سوف تحلم أو تناهى   اذا ما شبت أو شاب الغراب

وانما كان النفاق موجبا لازدياد ما يقارنه من سيء الاخلاق لان النفاق يستر الاخلاق الذميمة فتكون محجوبة عن الناصحين والمربين والمرشدين وبذلك تتأصل وتتوالد الى غير حد فالنفاق في كتمه مساوي الاخلاق بمنزلة كتم المريض داءه عن الطبيب وقد بينا ما ينشأ عن النفاق من الامراض في الجدول المذكور هنا واشرنا الى ما يشير الى كل خلق منها في الآيات الواردة هنا او في آيات اخرى واليكم هذا الجدول :



إعلم أن هذه طباع تنشأ عن النفاق أو تقارنه من حيث هو ولا سيما النفاق في الدين فقد نبهنا الله تعالى لمذام ذلك تعليما وتربية فان النفاق يعتمد على ثلاث خصال وهي الكذب القولي ، والكذب الفعلي وهو الخداع . ويقارن ذلك الخوف لان الكذب والخداع انما يصدران ممن يتوقى اظهار حقيقة أمره وذلك لا يكون الا لخوف ضرر أو لخوف اخفاق سعي وكلاهما مؤذن بقلة الشجاعة والثبات والثقة بالنفس وبحسن السلوك . ثم إن كل خصلة من هاته الخصال الثلاث الذميمة تولد هنوات أخرى فالكذب ينشأ عن شيء من البله لان الكاذب يعتقد ان كذبه يتمشى عند الناس وهذا من قلة الذكاء لان النبيه يعلم

ان في الناس مثله وخيرا منه ثم البله يؤدي الى الجهل بالحقائق وبمراتب العقول ولان الكذب يعود فكر صاحبه بالحقائق المحرفة وتشتبه عليه مع طول الاسترسال في ذلك حتى انه ربما اعتقد ما اختلقه واقعا وينشأ عن الامرين السفه وهو خلل في الرأي وأفن في العقل وقدأصبح علماء الاخلاق والطب يعدون الكذب من أمراض الدماغ. واما نشأة العجب والغرور والكفر وفساد الرأي عن الغباوة والجهل والسفه فظاهرة . وكذلك نشأة العزلة والجبن والتستر عن الخوف ، وأما نشأة عداوة الناس عن الخداع فلان عداوة الاضداد تبدأ من شعورهم بخداعه وتعقبها عداوة الاصحاب لانهم اذا رأوا تفنن ذلك الصاحب في النفاق والخداع داخلهم الشك أن يكون اخلاصه الذي يظهره لهم هو من المخادعة فاذا حصلت عداوة الفريقين تصدى الناس كلهم للتوقي منه والنكاية به وتصدى هو للمكر بهم والفساد ليصل الى مرامه فرمته الناس عن قوس واحد واجتنى من ذلك ان يصير هزؤا للناس اجمعين . وقد رأيتم أن الناشيء عن مرض النفاق والزائد فيه هو زيادة ذلك الناشيء أي تأصله وتمكنه وتولد مذمات أخرى عنه ولعل تنكير مرض في الموضعين أشعر بهذا فان تنكير الاول للاشارة الى تنويع أو تكثير وتنكير الثاني ليشير الى ان المزيد مرض آخر على قاعدة اعادة النكرة نكرة ولو اريد ازدياد المرض الاول لقيل فزادهم الله المرض واسندت زيادة مرضهم الى الله تعالى للتنبيه على خطر الاسترسال في النوايا الخبيثة وانه يزيد تلك النوايا تمكنا من القلب فيتعذر الاقلاع عنها فلما خلق الله هذا المعنى في النفوس حذر الناس من اسبابه فجملة فزادهم الله مرضا خبرية معطوفة على قوله في قلوبهم مرض واقعة موقع الاستيناف للبيان داخلة في دفع التعجب أي ان سبب توغلهم في الفساد ومحاولتهم ما لا ينال لان في قلوبهم مرضا ولانه مرض يتزايد مع الايام تزيداً مجعولا من الله تعلى فلا طمع في زواله وقول بعض المفسرين هي دعاء عليهم كقول الشاعر :

تباعد عني مسمع اذ دعوته ❊ امين فزاد الله ما بيننا بعدا

تفسير غير حسن لانه خلاف الاصل في العطف بالفاء ولان تصدي القرءان لشتمهم بذلك ليس من دأبه ولان الدعاء عليهم بالزيادة تنافي ما عهد من الدعاء للضالين بالهداية في نحو اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون

(وقوله ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) معطوف على قوله فزادهم الله مرضا اكمالا للفائدة فكمل بهذا العطف بيان ما جره النفاق اليهم من فساد الحال في الدنيا والعذاب في الآخرة وليس معطوفا على (ومن الناس من يقول) لانه ان جعل عطفا على قوله من الناس لم يكن بينهما تناسب اذ قوله ومن الناس مبدأ تفصيل أحوال فريق ثالث كما قدمنا فلا يناسب ان يعطف عليه ما هو من أحوال ذلك الفريق وان جعل عطفا على الصلة وهي يقول لم يصح اذ ليس استحقاقهم العذاب بمعلوم حتى يتميز الموصول به ويكون من الاحوال المختصة به في علم المخاطب . وتقديم الجار والمجرور وهو لهم للتنبيه على انه خبر لا نعت حتى يستقر بمجرد سماع المبتدا العلم بان ذلك من صفاتهم فلا تلهو النفس عن تلقيه .

الحديث الشريف

حقوق المسلمين على بعضهم

اخرج الامام مسلم عن ابي هريرة رضي الله عنه انه قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌ ، إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْهُ ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهُ فَشَمِّتْهُ ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ ، وَإِذَا مَاتَ فَاتْبَعْهُ .

الشرح

ان الله تعالى جعل الامة الاسلامية وسطا مثال الكمال ، عالية الخصال ، بها يقتدى ومنها تلتمس الفضيلة ، وحلاها بازكى الصفات ، وارشدها الى الاداب المرضية والحقوق المرعية فالرسول الاعظم ، والمرشد الاكرم ، صلى الله عليه وسلم ، قد علم المسلمين ما يجب عليهم من الحقوق وما يتحتم ان يتخلقوا به من كريم الخلال ، ويتأدبوا به من الآداب ، ليتم ما انتدبوا له ، من غير افراط ولا تفريط فاهتدى بهديه اصحابه الاعلام ، حتى كانوا مثال الفضائل ، واتخذهم الناس قدوتهم

والاليم فعيل بمعنى مفعول وأصله عذاب مؤلم بصيغة اسم المفعول ووصف العذاب به مجاز عقلي لان المؤلم بالفتح هو الذي مسه العذاب وليس هو نفس العذاب وهذا كما قالوا جد جده أو هو فعيل بمعنى فاعل من الم بمعنى صار ذا الم واما ان يكون فعيل بمعنى مفعل أي مولم بكسر اللام فمما لم يسمع في هذا الوصف وسمع في نظيره واختلف في جواز القياس عليه .

وقوله بما كانوا يكذبون الباء للسببية وقرىء يكذبون بتشديد الذال ويكذبون بتخفيفه فاما التشديد فعلى تكذيبهم الرسول واما التخفيف فعلى كذبهم الخاص في قولهم ءامنا بالله وعلى كذبهم العام في قولهم انما نحن مصلحون .

المثلى ومما اوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم واكد ، وعلم اصحابه وارشد ، حقوق الناس على بعضهم . فان امرها عظيم وبقدر ما يترتب على رعايتها من المحاسن وعلى تضييعها من المساوي يكون الجزاء .

والحقوق جمع حق والحق هو الامر الثابت الذي تلزم مراعاته والاهتمام به .

ثم الحقوق التي اوجبها الشرع على الناس لبعضهم وتلزم مراعاتها والاهتمام بها على نوعين خاصة وعامة

اما الحقوق الخاصة فلم يتعرض لها هذا الحديث لانه ليس مساقا لبيانها وهي ما تترتب على امر خاص بين اثنين او اكثر كحقوق الزوج على زوجته وحقوقها عليه وكحقوق الاب على ابنائه وحقوقهم عليه ونحو ذلك .

واما العامة فهي حقوق المسلمين على بعضهم لا فرق في ذلك بين الامير والحقير والنبيل والصعلوك وهذه هي التي عناها الحديث بالبيان ولم يذكر جميعها وانما اقتصر على ست منها حسبما دعته الحاجة لبيانه . فان التشريع كانت الطريقة المتبعة فيه ان يكون تدريجيا وبحسب ما تدعو الحاجة اليه وكذلك ارشاده صلى الله عليه وسلم ووعظه فهذا الامام البخاري يحدثنا في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه انه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة في الايام كراهة السآمة علينا . ولكل مقام ما يناسبه من الارشاد . فالنبي صلى الله عليه وسلم يتفقد احوال الناس وما هو الانسب لاوقاتهم فيلقي عليهم مواعظه الطيبة الاثر وينشر بينهم آداب الاسلام ومآثره الحميدة فمثابته في علاج اسقام الامة بمثابة الطبيب الماهر والحكيم الخبير يعطي من الدواء بالمقدار الملائم للمرض ويتمشى معه في طريق العلاج مترقيا في مقدار الدواء حتى لا يمل المريض ويكره الدواء فيصعب علاجه ويستفحل داؤه ويعز شفاؤه فلذلك نرى الرسول صلى الله عليه وسلم يذكر حقوق المسلم على المسلم ويعد منها في هذا الحديث ستة حقوق والعدد لا مفهوم له كما هو مقرر في الاصول المستنبطة من تتبع نصوص الشريعة واستقرائها فلا اشكال حينئذ ولا تعارض بين هذا الحديث وغيره مما تعرض لغير الست من الحقوق او المأمورات . فقد جاء في بعض الطرق بلفظ امرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء ايضا عدها سبعا . من ذلك الحديث الذي رواه البخاري وغيره من عدة طرق منها عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال امرنا النبي صلى الله عليه وسلم بسبع ونهانا عن سبع امرنا بعيادة المريض واتباع الجنازة وتشميت العاطس واجابة الداعي ورد السلام ونصر المظلوم وابرار المقسم . ونهانا عن سبع عن خاتم الذهب او قال حلقة الذهب (شك من الراوي) وعن لبس الحرير والديباج والسندس والمياثر .

واول الحقوق التي عدها الحديث الشريف (السلام) فقال صلى الله عليه وسلم مخاطبا من حضر مجلسه الشريف ـ وهو خطاب عام لكل من يصح منه التلقي ـ اذا لقيته (اي المسلم) فسلم عليه . اللقاء الاجتماع بعد الافتراق

والسلام هو الامان والسلامة من كل مكروه ظاهرا وباطنا . فقول المسلم لاخيه المسلم الذي تربطه واياه رابطة الدين والاخوة الاسلامية ـ واعظم بهما من رابطة ـ السلام عليك بمعنى أأمنك من كل مكروه وأعطيك الامان والسلامة من كل خطر وأتباعد بك عن الخيانة والغدر ونحو ذلك فهي تحية طيبة مباركة جاء بها الاسلام يحيي بها المسلم أخاه فتعبر عن معان سامية هداهم اليها دينهم الذي ارتضاه الله لهم وادبهم باشرف الآداب وأزكاها وتكون لهم نعم العون على احداث التعارف والتوادد وداعية للمحبة والالفة وطريقا الى الجنة قال صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنه حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أفلا ادلكم على امر اذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم

والحديث جعل على المسلمين حق السلام عند الملاقاة ولم يخصص أحد المتلاقيين بالتحية فعلمنا من اطلاقه ان ذلك الخطاب موجه لهما وأفضلهما من بادر بها وحصل على مزية الاسبقية كما يدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم : إن أولى الناس بالله من بداهم بالسلام(١) فاذا سلم وجب على الآخر ردالتحية بالمثل، واحسن اذا زاد عليها اما وجوب الرد فانه عده صلى الله عليه وسلم حقا على المسلم كما في الحديث الذي رواه ابو سعيد الخدري رضي الله عنه واخرجه البخاري ومسلم وابو داود عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : إياكم والجلوس على الطرقات . فقالوا ما لنا بد إنما هي مجالسنا نتحدث فيها . قال: فاذا أبيتم الا المجالس فأعطوا الطريق حقها . قالوا : وما حق الطريق ؟ قال : غض البصر وكف الاذى ورد السلام والامر بالمعروف والنهي عن المنكر

فعد صلى الله عليه وسلم من الحقوق الواجبة رد السلام حيث ان المفروض ان المار اذا لقي المسلمين حياهم بتحية السلام فقال : السلام عليكم . وهو ما بينه الحديث الذي رويناه ، فمن حقه عليهم ان يردوا عليه السلام فعلمنا من الحديثين ان من الحقوق العامةعلى المسلمين التحية بالسلام والرد وقد ارشد القرءان الكريم الى هدا والى فضل الزيادة في قوله جل ذكره (واذا حييتم بتحية فحيوا باحسن منها اوردوها ان الله كان على كل شيء حسيبا) قال جمهور العلماء المراد بالتحية السلام وبنوا عليه وجوب الجواب على التخيير بين ان يكون باحسن منه وهو الافضل بان يزيد عليه ورحمة الله وبركاته قال البيضاوي وغيره وهو النهاية أو برد مثله من غير ان يزيد . والزيادة المأثورة بذكر الرحمة والبركة قد استجمعت مع الاصل جميع اصول المطالب التي يسعى الناس اليها ـ وهي السلامة عن المضار الدال عليها لفظ السلام ، وحصول المنافع الدال عليه لفظ الرحمة ، وثباتها ودوامها الدال عليه لفظ البركة ، وما قاله القاضي البيضاوي من أن في قوله والبركة نهاية الرد هو رأي كثير من العلماء وذهب قوم الى ان الزيادة لاتقدر بكيفية ولا بكمية وهو الاظهر لاطلاق النصوص الدالة على فضل الزيادة وكان ابن عمر رضي الله عنهما يزيد باكثر من البركة في مواطن فقد اخرج البخاري في الادب المفرد عن سالم مولى ابن عمر قال كان ابن عمر اذا سلم عليه فرد زاد فاتيته فقلت السلام عليكم فقال : السلام عليكم ورحمة

(١) الحديث اخرجه ابو داود والترمذي من طريق ابي امامة رضي الله عنه

الله تعالى ثم أتيته مرة اخرى فقلت السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. فقال : السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وطيب صلواته وقد استثنى مواطن لا يجب فيها رد الجواب فلا يرد في الخطبة وقراءة القرءان وفي الحمام وعند قضاء الحاجة وفي الوضوء وعند التيمم (١)

هذا وقد جاء البيان بمن يبدأ بالسلام في بعض المواطن فيدأ الراكب بالسلام على الراجل والقادم على الحاضر والمار على القاعد والقليل على الكثير قال عليه السلام (٢) يسلم الصغير على الكبير والمار على القاعد والقليل على الكثير وفي رواية ابي هريرة ويسلم الراكب على الماشي ثم ان ظاهر لفظ الحق يدل على وجوب السلام ولكن قامت القرائن على انه حق ادبي نقل ابن عبد البر وغيره ان الابتداء بالسلام سنة واما رده فهو واجب. فان كان المسلم عليه واحدا وجب الجواب علينا وان كان جماعة فالجواب فرض كفاية في حقهم لما اخرجه أبو داود مرفوعا قال يجزىء عن الجماعة اذا مروا أن يسلم احدهم ويجزىء عن الجلوس ان يرد احدهم. وقد اقتصر الحديث في بيان حق السلام عند اللقاء ولم يتعرض لحال الفراق وقد جاء بيان ما يطلب فيه في حديث اذا قعد احدكم فليسلم واذا قام فليسلم وليست الاولى باحق من الآخرة رواه ابو داود الترمذي فعلمنا منه ان من اداب المفارقة ان يسلم المرء على من سيغادر مجلسهم ففي هذه التحية من المكارمة ما في الاولى.

وها نحن نرى وندرك ان من يغادر مجلسه من غير ان يحيي جلساءه يحدث صنيعه في نفوسهم بعض الوحشة فان في تبادل السلام يشعر كل من راد السلام وملقيه بميل نحو صاحبه وفي تكرره ينمو ذلك الميل

والناس يصفون المقصر في السلام باخس الصفات ويتخذون ذلك منه أمارة على كبره وغلاض طبعه وشراسة اخلاقه وللتحاشي من هذا الظن حث صلى الله عليه وسلم على بذل السلام على من عرفت ومن لم تعرف زيادة عما يحدث من السلام على من لا يعرف من ربط العلائق بين الناس بعضهم ببعض واحداث التعارف والالفة وتنمية الاخوة واستحكام علائقها فان ذلك مقصد عظيم من مقاصد الشريعة السمحة وهدي نبوي اهتدى به المسلمون فنرى المسلمين والحمد لله يسلمون على بعضهم بتحية الاسلام فتنزل على قلوبهم بردا وسلاما ولكن يسوؤنا ان بعض الشبان قد استبدل هذه التحية الطيبة المباركة بغيرها من الالفاظ الدخيلة جهلا منهم بمزية ما ادبهم به الرسول. كما انه سرى لبعض العقول السلام على من هو دونهم في المظاهر الدنياوية يزري بمقامهم فيترفعون عنه وهذا ايضا منشاه عدم ترويض النفس بالاخلاق الطاهرة المحمدية فليحذر الناس من شر هذه الفتن النفسية التي تردي بصاحبها في هاوية سحيقة وليتنبه المرء الى أن من أهم مقاصد الاسلام بث روح الاخوة الاسلامية بين الطبقات وليجعل امامه قوله عز وجل:

(١) احاديث اخرجها ابو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي
(٢) الحديث رواه الشيخان وامام دار الهجرة وابو داود والترمذي والدارمي

التعاضد المتين

بين العقل والعلم والدين

بقلم العلامة المصلح الهمام الشيخ محمد الحجوي
وزير معارف الحكومة المغربية الشريفية

١٢

الاسلوب العلمي العربي

ان اسماعيل مظهر في كتابه تاريخ الفكر العربي رمانا بنوع من السهام صنع معمل الشعوبية المغرضة فزعم ان اسلوب العرب في علومهم العقلية وغيرها اسلوب غيبي بخلاف اسلوب الاروبيين فانه اسلوب يقيني زاعما انهم نقلوا ما نقلوه من علوم اليونان بواسطة المدرسة الاسكندرية التي ادخلت في كل علومها الطلاسم والعزائم ونحو هذا : ويشير الى ما جاء في القرءان العظيم (يؤمنون بالغيب) سورة البقرة .

جوابنا (١) المشاهدة تكذب هذا فان كتاب اقليدس في الهندسة مثلا الذي هو عمدة الفن والذي بذل العرب جهودهم المتعبة في ترجمته من لدن المائة الاولى هجرية وتحافظوا عليه الى ان وصل ليد الاروبيين مشروحا مختصرا معلقا عليه وامثاله من كتب الحساب والجبر وغيرها كل ذلك سالم من هذه الوصمة .

وهذا جابر ابن حيان المولود في المائة الاولى والمتوفى في ءاخر الثانية اول من هدى الاروبيين باعترافهم الى علم الكيمياء العملي الحقيقي الخالي من كل تدجيل وغيب وما فطنت اروبا الى كتبه وهي في خزائنها الا منــذ نحو مائة سنة وبدراستهم لكتبه واكبابهم على تجاربه الصادقة العجيبة اهتـدوا

انما المؤمنون اخوة، ويتدبر ما في هذه الآية من معان سامية ليسهل عليه اطفاء ما يدور بخلده من العزة والجبروت وليتنبه الى ان تحيته لاخيه الضعيف لا تزيده في نظره ونظر الناس كافة الا كل اجلال وتعظيم وان طغيانه وجبروته لايورثانه الا الندامة ولو بعد حين وفي مسند أحمد ان من أشراط الساعة أن يسلم الرجل على الرجل لا يسلم عليه الا لمعرفة . سلمنا الله من شرور انفسنا الجامحة وهدانا الى صراطه المستقيم .

(يتبع)

محمد الشاذلي ابن القاضي

لوجه الصواب في هذا الفن العظيم الذي به تقدموا وافتخروا وقهروا العالم وهي تجارب خالية من كل تدجيل .

نعم عنده كتب فيها شيء من الامور الغيبية والطلاسم وذلك شان العارف البحاث الذي يختبر كل الطرق ويسلك منها ما هو موصل للغرض وذلك مدح له لا ذم .

فهو الرجل العظيم الذي ازاح الستار بتجاربه عن اعظم فن افتخروا به وقد خصصته بترجمة مستقلة وستلقى في المذياع قريبا .

ترك نحو . . ٥ كتاب منها كثير موجود الان والاكثر قد فقد فمن كتبه ما هو من الاسلوب الذي عابه ولا عيب يلحقه لان الرجل كان يستقصي في البحث كل طريق الى ان اهتدى للطريق الحقيقي فجلى فيه واعترف له المستشرق برتيلو الفرنسي في كتابه تاريخ الكيمياء في القرون الوسطى وغيره قائلا انه في علم الكيمياء كارسطاطاليس في علم المنطق يعني الاول واضع الكيمياء والثاني واضع المنطق . فالطريق الغيبي موجود عندنا وعندهم والمتخصص فيها قليل لا يضر سمعتنا العلمية

(٢) ان قوله تعلى يومنؤن بالغيب ليس معناها ان الله اوجب علينا الاعتراف بكل غيب ولو خالف الشهادة ولو كان وهما وخيالا ـ كلا ـ ثم كلا الف مرة

الغيب الذي مدحنا بالايمان به هو ما بينه باثر هذه الآية والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالاخرة هم يوقنون اوجب علينا الايمان باليوم الآخر وهو اصل الكمالات في سائر الديانات . وان نؤمن بالقرءان الذي انزل على نبينا وبسنته التي تواترت الينا وبما انزل على الانبياء قبله مما وصل الينا غير محرف دون من بعده فمفهوم لفظ من قبلك متحكم في معنى الآية امـا ما يزعمه من جاء بعد نبينا من مغيبات كشفية او ذوقية او من يقول رايت النبي صلى الله عليه وسلم يقظة او مناما وامرني او اخبرني فهذا ليس مما يجب اعتماده في الدين ولا هو بحجة باجماع المسلمين ولا يعتمده في دينه او دنياه الا معتوه او جاء مشعوذ بطلسمات وعزائم كل ذلك لا يساوي عندنا شيئا وهو الذي نسميه اوهاما وخرافات ولا ينبغي تلطيخ سمعة المسلمين به فالمسلمون الحقيقيون يعتبرونه تدجيلا وخرافات ويحرمون عمل الطلسمات والعزائم ويحكمون بمعاقبة من يشتغل بها فهذا الاسلوب الغيبي الذي يعيب اسماعيل مظهر علوم العرب به كله عندهم خارج عن الدين غير ملتفت اليه عند من هم عمدة في علم الدين او علوم الدنيا وهذه الطائفة التي تشتغل بالاوهام الغيبية موجودة عند كل الامم وربما كانت الآن في اروبا اكثر من غيرها وكما انها ملموزة ممقوتة هناك ملموزة هنا ولا يشتغل بخرافاتها الا جهلة العوام ولا دخل لخرافاتها في امر الدين بل نحن نعتبرها هدامة للدين . وامور سياسية واقتصادية شباك صيد بيد البطالين والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

انتهى

رفع اللبس عن خطبة تزكية النفس

بقلم الفاضل الزكي الشيخ الجيلاني حمزة
الامـام بجـامع مصطـفى حمزة بالمهدية

وقع لبعض الافاضل توقف في موضعين من الخطبة التي نشرتها بالعدد الاول من السنة الثالثة من المجلة الزيتونية الغراء فرايت من الواجب علي دفعا للالتباس وزيادة لتحقيق الموضوع ان اتعرض بالشرح والبيان للموضوعين المـذكورين لكن قبل الشروع في ذلك لا باس ان اوضح لقراء المجلة الافاضل خطورة المهمة الملقاة علي نحو الوعظ والارشاد ومدى الخطة التي اسلكها تجاه هذه الغاية النبيلة والذي أحب ان يعلمه القراء هو ان الوعظ احد سلاح ندفع به اخطـار الجرائم وأنجع دواء نكافح به وباء الشرور والآثام التي غمرت هذا العصر بطوفان جارف لا نجاة لنا منه الا بان يعد الواعظون المصلحون سفينة النجاة لينقذوا البشرية من حمأة الرذائل التي تفاقم خطبها واشتد كربها واستعصى داؤها . والرذائل اذا فشت في امة هدمت بناءها واورثتها خرابا ودمارا وجعلت اهلها اعداء بعضهم لبعض فتحسبهم جميعا وقلوبهم شتى لذلك نحظ كل واعظ بل كل مسلم ان يجاهد بماله وبلسانه وهو واقف عند حد الحق والقانون لا يحيد عنهما قيد شعرة ولا انملة ليسلم ويامن ويؤدي ما وجب عليه ويجتني ثمرة طيبة من عمله . فالدين قد اناط بكل فرد من افراد المسلمين واجب السعي في اعلاء كلمة الدين وان اعظم ما يثاب عليه المسلم السعي وراء تحقيق السعادة واعلاء شان الامة بقدر ما يستطيع

انه لا يكفي المسلم ان يقول انـا مسلم وهو خامل لا يعمل بجد ونشاط على اعزاز دينه وعلى تبوئه عرش الكرامـة والعزة والا كان مغرورا في دينـه والغرور في الدين مرض يتولد منه كثير من امراض الحياة وهيهات ان تستقيم حياة مع امراض . لقد طفقت افكر فيما نحن فيه الآن من سوء الحال وفساد الخلال فدمعت العينـان وحزن القلب على ما حل بنـا في هذا الزمان من انحدار في الاخلاق وتنطع في الطباع فقد نزلت الاثرة وحب النفس مكان العطف وحلت القسوة محل الرحمة واستبـدل البخل بالكرم وغلت الايدي الى العنق بدل البذل والسخاء في مواقف الشرف واعتاض الانسان عن الشهامة بالنذالة والامانة بالخيـانة والكرامة بالدناءة وبالجملة فقد عمت الفوضى وراجت سوقهـا في كل ناحية من نواحي الحياة وبات المصلحون حيارى لا يدرون الى اي هاوية نسير في هذا العصر المتاخر الذي يقول اهل جيلنا الحاضر فيه انه عصر الحرية والنور ولو انصفوا لسموه عصر السماجة والفجور لاننا لا نعلم زمانا اجترأ فيه الناس على الاثم والعدوان كهذا العصر فاننا نرى المرء يرتكب ما يرتكبه

ولا يبالي بان يعرف بين عشيرته وجيرانه بانه على غير هدى وعلى غير اعتدال في كثير من شؤون حياته لذلك فاننا اذا اكثرنا من عتاب اخواننا المسلمين على تقصيرهم في الحياة وشؤونها ولا سيما ما يتصل منها بالدين والاخلاق لم يكن قصدنا بذلك الا دلالة المسلم على ما به من عيب ونقص ليسعى في علاج نفسه واصلاح حاله فلقد عاهدنا الله عند التصدي لمهمة الوعظ ان نجهر بالحق ولا نخشى فيه لومة لائم ولا سيما في شؤون الدين الحنيف ما دمنا في حضيرة قانون الاخلاق وكذلك عودنا انفسنا ان نخشى الله قبل ان نخشى الناس فرسول الله صلى الله عليه وسلم قد حذر تحذيرا شديدا كل من يشاهد غيره يتجاوز حدود الله ولا يتقي محارمه ثم لا ينهاه عما هو فيه. فقال صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين : (مثل القائم في حدود الله والواقع فيه كمثل قوم استهموا على سفينة. فكان بعضهم اعلاها وبعضهم اسفلها. فكان الذي في اسفلها اذا اخذوا الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو انا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فان تركوهم وما ارادوا هلكوا وهلكوا جميعا وان اخذوا على ايديهم نجوا ونجوا جميعا) حقا لقد صار اهل الاصلاح في تشخيص داء المسلمين وفي وصف الدواء الذي يستاصل هذا الداء ويذهب به في حيرة والحق انه لا حيرة ولا غموض فداؤهم ذو شعب وفروع

واصله انهم نبذوا دينهم وراء ظهورهم فكان عاقبة امرهم ان صار بعضهم لبعض عدوا حتى قال بعض ملوك الاسلام ما اخشى على المسلمين الا من المسلمين وهذا قول فصل ليس بالهزل فانه ما من ضر واذى يصل الى اهل الاسلام الا على يد مسلم او من طريق فيه مسلم . فهل الذين يستعين بهم اعداء الملة على الاضرار باخوانهم هم بحق وصدق مسلمون صادقو الاسلام ومؤمنون كاملو الايمان ؟ كلا ثم كلا فالايمان له امارات تدل عليه لا يثبت بمجرد الدعاوي وقد اخطأ من ظن ان الاسلام هو ان يمسك المرء السبحة بيديه ويقلب خرزها باصبعيه ثم تراه بعد ذلك ياكل لحم اخيه وينبش عن مساويه ويوشي به من غير حق ويخدعه ثم يزيد يحتال في ذلك الخداع كما يحتال المرء في اصطياد الحيوانات الضارة فينصب لها الفخاخ والمصائد ويضع فيها اللحم والشحم ويفتح لها باب الضيافة فاذا ولجت الابواب امسكت الفخاخ بلحمها وعظمها واوردتها موارد الردى ولا شك ان الخداع لا يتصف به الا فاجر تجرد من مزايا الايمان فهو لا يرعى عهدا ولا يرقب من الناس احدا واني لا استقبح في هذه الدنيا شيئا بعد الكفر بالله كاستقباحي للاضرار بالناس بل اجد نفسي غير مستعدة لان تقبل عذر من يسعى في الاضرار باخيه ما لم يكن في ذلك اقامة للحق او دفاع عن النفس والعرض فالله تعالى يقول (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما إكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا) نسال الله ان يرزق المسلمين تبصرا في دينهم حتى يستطيعوا ان يروا الاسلام بالعين التي يجب ان يرى بها .

هذا ولنشرع في شرح الموضوعين اللذين اشرت اليهما في طالع المقالة شاكرا لفضيلة الاستاذ الامام سيدي محمد الطاهر ابن عاشور شيخ الاسلام المالكي عنايته السامية التي لم يزل يفيضها على الوعظ

والوعاظ في كل مناسبة وما هـذا الشرح والبيان الا نتيجة من تذكيره وتنبيهه ابقاه الله ذخرا للاسلام والمسلمين . وشرح الموضوعين يرجع الى فقرتين الاولى هي قولي في طالع الخطبة (ايها الاخوان ان اعمال الخير اثر الايمان ولا يكون المؤمن مؤمنا الا اذا كان لاعتقاده الباطن اثر في عمله الظاهر ، اما من اكتفى من الاسلام باسمه . ومن الشرع برسمه . ثم لا يكون لذلك اثر في تزكية نفسه . فهو من المنافقين . وان صلى وصام وزعم انه من المسلمين . لان مخالفة الظاهر للباطن آية النفاق . والمنافقون في الدرك الاسفل من النار . ولهم في الآخرة الخزي والعار) والجواب على ذلك هو ان مرادي بالنفاق النفاق العملي لا الاعتقادي لان النفاق كما لا يخفى ينقسم الى قسمين نفاق ديني ونفاق عملي فالنفاق في الدين معروف وهو اظهار الايمـان او التظاهر بالايمان واخفاء الكفر والنفـاق العملي هو التظاهر بالحسن واخفاء القبيح فالمنافق في الاخلاق انسان حي يغـدو ويروح ولكن وجوده قـذر الانسانية ودنسها برجسه وخسة فعله ولؤم طبعه فهـو في الخلق والصورة انسان ولكنه في الحقيقة مارد وشيطان تراه يظهر لك المودة في كل لحظة من لحظات حياته فيهتف بمزاياك في كل ءان ويمدحك في وجهك وفي كل مكان ، يطرق بابك بكرة وعشيا يسأل عنك ويتودد اليك فتحسبه بذلك صادقا في الصورة التي ظهر بها ربما افضيت اليه بشيء من كامن اسرارك التي لا يطلع عليها الا الصديق الحميم والخل الوفي وبعد ايام تنكشف لك حقيقته ويفتضح لك امره وغدره فاذا به محتال واثيم ينصب فخه ويغطيه بالرماد

وقـد مني اكثر الناس في هذا الزمان بهذه الصفات وفشت فيهم . وجونا مملوء بهذا النوع نوع المنافقين نفاقا خلقيا وهم الذين عنيتهم في الفقرة الاولى من خطبتنا فهم في الحقيقة علة العلل في انحلال الامة وشقائها واذلالها .

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في النفاق العملي (اربع من كن فيه كان منافقا خالصا وان صلى وصام وزعم انه مسلم اذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا ائتمن خان واذا خاصم فجر) وعندي ان من وجدت فيه الخصال الاربع مجتمعة ولا يبالي بها بعد انذار الله وتشديد رسوله صلى الله عليه وسلم فليبشر نفسه بسوء الخاتمة والعياذ بالله تعالى نسأل الله ان يجنبنا النفاق بفضله وكرمه .

من هذا يتبين لك ايها القاري الكريم ان المراد بالنفاق في الخطبة نفاق العمل وصاحبه وان لـم يعتبر خارجا عن الملة ولم يكن في الدرك الاسفل من النار لكن له من دركاتها وعذابها على قدر الآثار السيئة التي تنشأ عن نفاقه والمضرات التي تلحق الناس من خديعته وقد وصف القـرآن الكريم ارباب النفاق فقال (يقولون بافواههم ما ليس بقلوبهم) ومن الآيـات التي تكاد تكون صريحـة في وصف النفاق الاجتماعي قوله تعالى (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيـا ويشهد الله على ما في قلبـه وهو الد الخصام واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد واذا قيل له اتق الله اخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد » نزلت هذه الآية في منافق خاص وقيـل في المنافقين عامة ولا يخفى ان الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامة بعد وقد طبق هـذه الآية بعض علماء السلف فقالوا (ان لله عبادا السنتهم احلى من العسل وقلوبهم امر من الصبر لبسوا للناس جلـود الضان من اللين ليجروا الدنيا بالدين) وعلى هذا فان الآية تشمل في عمومها اولئك الذين يتظاهرون في

مجالسهم مع الناس بحبهم لعمران بلادهم ورغبتهم فى اصلاح شؤونها ويؤكدون اقوالهم باغلظ الايمان ويكونون هم في الباطن مبغضين لكل اصلاح اجتماعي بدليل انهم اذا قاموا من مجالسهم الى ممارسة اعمالهم كانت مساعيهم منصرفة الى تخريب البلاد والتمويه على العباد. اما الاحاديث الواردة في ذم النفاق والمنافقين فكثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم (من ارى الناس فوق ما عنده من الخشية فهو منافق) رواه مسلم في صحيحه والمراد بالخشية الخوف يتظاهر بذلك تظاهرا

ومن ضروب النفاق والرياء من يتصدى لنصح الناس ووعظهم وأعماله تخالف ذلك كمن يزهد القوم في جمع المال وهو مكب عليه وكمن ينهى الناس عن المسكر وهو غريق في دنانه صباحا مساء وكمن يحذر المسلم محاربة الله ورسوله بالتعامل بالربا وهو ياكل ويشرب مما يدره عليه هذا الحرام ورحم الله من قال

ما اقبح التزهيد من واعظ ... يزهد الناس ولا يزهد
لو كان في تزهيده صادقا ... أضحى وأمسى بيته المسجد
يخاف ان تنفد ارزاقه ... والرزق عند الله لا ينفد
والرزق مقسوم على اهله ... يناله الابيض والاسود

وقول الآخر

وغير تقي يامر الناس بالتقى ... طبيب يداوي الناس وهو عليل

فليحذر المربي هذا الامر من نفسه ولا يفعل فعل ذلك الواعظ الذي سرق الدجاجة ثم قام يخطب في القوم ويحضهم على ممارسة الفضيلة والعفة عما في جيوب الناس واذا بالدجاجة تقرقر في جيبه فالوعظ لا يثمر ثمرة الطيب الا اذا اقترن به عمل الواعظ (يا ايها الناس لا تقولون مالاتفعلون كبر مقتا عند الله ان تقولوا مالا تفعلون)

الفقرة الثانية قلت : (ان ابليس خير من هؤلاء الكذابين الدجالين . لان ابليس كان عاقلا وصادقا حين قال : رب بما اغوتني لازينن لهم في الارض ولاغوينهم اجمعين الاعبادك منهم المخلصين . فلم يكذب ولم يخادع ولم ينافق واعلن انه يستثني منهم المخلصين .) والجواب على ذلك انه لا يخفى على القارىء ما ينتج عن الخصال المتقدمة من الفساد والشرور وتباغض الاحباء وتقاطع المتعاهدين على الصفاء والوفاء فكانت هذه الخصال الذميمة منافية للاسلام لان تتبع المسلم لعورات اخيه وبحثه عن اسراره يريد بذلك هلاكه وفضيحته والتنكيل به كلما قدر عليه ولم يسلم من عظيم اذايته احد قدر عليه ويتوصل الى اغراضه بمخادعته لذلك قلنا أن ابليس خير من هؤلاء لان ابليس فرق بين المخلص وغيره وعلمنا شره فلا نتركه يسيطر على نفوسنا ولا نتبع غواياته فشروره يمكن التحرز منها اما هؤلاء فنسقط في ايديهم ونحن نظن بهم خيرا . ومن تعلم مضرته خير لك ممن اخفاها عليك . فكان هؤلاء يجهلون ان الله يعلم ما يفعلون او كانهم اتخذوا عند الله عهدا الا يحاسبوا ولا يسألوا فلا لوم حينئذ على من يرى أن أمثال هؤلاء شر من ابليس وليس ببعيد ان يكون امثال هؤلاء الضالين سبب النكبة العامة التي حكم الله بها على البلاد كما حكم على العباد فقال في كتابه الكريم (وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة او معذبوها عذابا شديدا كان ذلك في الكتاب مسطورا)

الملاجيء الخيرية الاسلامية

في الدولة الموحدية والمرينية بالديار المغربية

٣

بقلم العلامة الجليل الحافظ المولى
محمد عبد الحي الكتاني دام نفعه

ان اقل نظرة يلقيها الرجل على فاس يجد انه يحيط بها ينابيع اربعة كل ينبوع قاطع لجرثومة داء فالحمة اليعقوبية لداء الجلد والقروح والحمة الخولانية للمعدة ومجاري البول وحمة زالغ المعروفة بحمة وشتاتة لداء الراس وحمة بني سادة التي بضفة وادي سبوا لغير ذلك فاي قاعدة في العالم تكتنفها اربع حميات كل واحدة لداء هذا زيادة على ما في ينابيع ماء وادي فاس ومجاريه من العشب والنباتات التي لها من الخواص ما تتبعه ابن ابي زرع والجزداءي وابن القاضي وغيرهم من مؤرخي فاس . الى كون بناء المدينة جاء في مصب وادي الجواهر فيدخل اليها نقيا ثم يخرج بفضلات اهلها فليس هناك بلدة في الدنيا يخرج الماء بسائر فضلاتها في وقتها عداها فلا تحتاج الى مطامير لخزن الفضلات لتباع بعد الادخار ولا لاستخدام ءالاف من الرجال وءالات يحملها سرا ان لم يكن جهرا كما هو الجاري في سائر بلاد المعمور ولا شك ان هذا يدل دلالة واضحة على عظمة هذا الرأس المفكر وبعد غور هذا المؤسس العربي الفذ المدبر ولا شك ان الحكمة بنت النبوة وهو احرى واجدر بالتفضل والفتوة وقد ذكر ابن القاضي في الجذوة ان الذي اعتنى ببناء حمة خولان على وجه محكم لتتم به مصالح الناس السلطان ابو الحسن المريني رحمه الله . بقي ان نختم هذا المقال بمسالة هامة تتعلق بالمستشفيات الاسلامية كان احد الاطباء في مستشفى الحكومة الاكبر بفاس قبل سال هل هناك من تكلم على العمل الجاري قديما في تغسيل الموتى وغسل ثيابهم اذا ماتوا بداء معدي في المستشفيات الاسلامية المذكورة وقد كان اشتد بحثي عن نص صريح يؤول معناه الى البيان حتى ظفرت بكتاب في الطب لابي عبد الله محمد ابن يحيى الشيخ السوسي فوجدته يقول حين تكلم على الوباء والعمليات الطبية التي يجب ان يعامل بها وكيف يتعامل الاصحاء مع المرضى قال ويحترس من تناول الحوايج من المرضى خصوصا كسوة المريض ولباسهم وفراشهم والمايع من فضل طعامهم وما وصله عرق المرضى ورطوباتهم وروائحهم والمكث في موضع مريض او ميت قال ويتحفظ في حفظ المرضى ويفرد لهم موضع يليق بهم بعيدا عن مسكن غيرهم بنحو قدر رمح ولا يكون في جهة الريح للاصحاء ويجدر في تمريض المرضى وغسل الموتى وحملهم ومس ثيابهم باستعمال الضماء على الانف والبعد منهم ان امكن ويغسل ثيابهم بعد البرء او الموت بماء بارد بعد مضي ثلاثة عشر يوما ويترك الكسوة خارج البيت في تلك المدة للرياح وينبغي غسل ثياب الاموات في مجرى الماء على حجر صلد مستو بحيث يذهب الماء المنفصل بسرعة وكذا غسل الاموات انما يكون بالماء البارد في موضع مكشوف ويقف الغاسل والمعين وراء الريح ويمسح انفه بالقطران او الصبر او الورد عند مخالطة المرضى والاموات او الصبر والريحان مع الخل او ماء الليمون او الماء ويحذر عند دفن الميت ذكرا او انثى فيأمر الناس بالبعد عن القبر جدا ويقف من يتولاه وراء الريح ويفعل ذلك بسرعة مشمرا ثيابه مالئا انفه بالصبر والخل ونشر النارنج المدقوق وهو جيد الخ.

ومما يدل على ان الناس في القرون الاولى الاسلامية كانوا يدركون تاكيد الابتعاد عن مهاب الرياح محال ذوي العاهات المعدية ما وقع في روض القرطاس لابن ابي زرع من ان باني فاس الامام ادريس ابن ادريس برد الله مرقده لما وصل في بناء سور المدينة الى كراوة صنع هنالك بابا شرقيا يعرف بباب الكيسة قال ومنه يخرج الى حارة المرضى قال وكانت حارة المرضى بخارج هذا الباب ليكون سكناهم تحت مجرى الريح الغربية فتحمل الرياح ابخرتهم ولا يصل الى اهل المدينة منها شيء وليكون تصرفهم من الماء وغسلهم بعد خروجه من البلد ولما ظهرت الدولة المرينية انتقل الجذمى خارج باب الخوخة وسكنوا بالكهوف التي بقرب الوادي بمطامر الزرع الى ان تم امر بني مرين في الظهور فرفع الى يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني امر الجذمي وان تصرفهم وغسل ثيابهم وءانيتهم واقدارهم في نهر مدينة فاس لقربهم منه وان ذلك ضرر لاهل المدينة فامر رحمه الله عامله على المدينة وهو الشيخ ابو العلاء ادريس بن ابي قريش ان ينقلهم من هنالك ليبعدوا عن ماء النهر فنقلهم الى كهوف برج الكوكب الذي بخارج الجسية من ابواب عدوة القرويين وذلك في سنة ٦٥٨ وقداوماً الى ما ذكر العلامة ابن غازي في كتابه المسمى بالاشارات الحسان المرفوعة الي حبر فاس وتلمسان وذلك انه ذكر فيه ان في بعض التواريخ ان الامام ابابكر بن العربي المعافري دفن على مقربة من حارة الجذمى قال وجوابه ان الجذمى كانوا هناك قديما حتى تضرر اهل فاس بسكناهم فنقلوا الى موضعهم اليوم والمحل الذي انتقلوا له بكهوف برج الكوكب هو محل مناسب جدا لبعده عن المدينة والمارة وانحداره جدا وقد احسن في النعت والوصف ابن القاضي في الجذوة لما ترجم ليوسف بن عمر شارح الرسالة فانه قال ودفن خارج الجسية بين الحارتين على قرب مقابلة برج الكوكب اه صحيفة ٣٤٦ ومما يدل على ان اهل القرون الاولى الاسلامية كانوا يعملون على ان الوقاية من اعظم طرق الرعاية ما ذكره الامام ابو جعفر من خاتمة الاندلسي في كتابه الذي الفه في الطاعون الواقع ببلدة المرية بالاندلس عام ٧٤٧ وسماه غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد قل في المسالة ٤ منه التي هي فيما ظهر من عدواه ما نصه. الظاهر الذي لا خفاء به ولا غطاء عليه ان هذا الداء يسري ويتعدى ضره شهدت بذلك العادة واحكمته التجربة فما من صحيح يلابس مريضا ويطيل ملابسته الا وتتطرق اليه ءافته ويصيبه مثل مرضه من حينه عادة غالبا اجراها الله والفعل في الاول والثاني للحق جل جلاله خالق كل شيء نفيا واثباتا نفيا للتوليد الذي يذهب اليه اهل الضلال وابطالا العدوة التي كانت تعتقدها العرب في الجاهلية وأعلانا بالحق الذي قام عليه شاهد الوجود وذلك ان اصل هذا الحادث هو تغير الهواء واستحالته الى طبيعة اخرى ولا شيء اعظم تغيرا او استحالة الى العيب من الابخرة التي تنفصل عن المرضى الذين حل بهم هذا الداء ولا سيما ما خرج منها مع انفاسهم عند استحكام التعفن والعيب في ابدانهم وارواحهم وذلك عند الموت فانها ابخرة رديئة لا يستنشقها احد ممن يلابسهم ويداوم على ذلك الا اثرت فيه على الفور الى ان قال وكذلك من استعمال ملابسهم وافرشتهم التي تقلبوا عليها زمن مرضهم كما شهد له به العلم والتجربة قال ولقد شاهدت اهل سوق الحلق بالمرية الذين يبتاعون بها ملابس الموتى وفرشهم مات اكثرهم ولم يسلم منهم ولا من الذين خلفوهم الا القليل الاقل وغيرهم من ارباب الاسواق حالهم كحال سائر الناس واطلعت من حال البلدان الذين حرس اهلها نفوسهم على ان لا يدخل اليهم احد من اهل بلاد الوباء وحافظوا على ذلك يستصحب السلامة زمنا طويلا ه كلامه وبعبارة ابن خاتمة نختم حديثنا والسلام عليكم ورحمة الله .

صفحة من تاريخ تونس

القضاء الشرعي

٤

عود على بدء

بقلم العالم المؤرخ امير الامراء سيدي محمد
ابن الخوجة مستشار الحكومة التونسية

قلت في خاتمة مقالي الثالث المدرج بالعدد السادس من هـذه المجلة المباركة « وسيكون عنوان مقالي الاتية : اسد بن الفرات وفيها ناتي على تاريخ انتشار المذهبين الحنفي والمالكي بافريقيـة » والله تعلى يقول : ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله ـ فلما قصدت في هذه الاثناء استيناف بحوثي لاستكمال المادة التي بين يدي لتحرير ترجمـة اسد واهمها كتاب المدارك للقاضي ابي الفضل عياض وكتاب معالم الايمـان للدباغ مع ذيلـه لابن ناجي وقفت على نبذة مهمة بكتاب فتوح العرب لصقلية للمؤرخ اماري من كبـار المستشرقين في القرن الماضي استغرقت نحو اثني عشرة صحيفة في تاريخ حياة اسد عزى بعضها المستشرق المذكور لكتاب رياض النفوس (١) للمؤرخ ابي بكر عبد الله ابن محمد بن عبد الله المشهور بالمالكي وهذا الفاضل من رجال المائة الخامسة فكتابه متقدم على كتاب المدارك وهذا بدوره متقدم على كتاب معالم الايمان وهذان الكتابان هما عمدتنا في التراجم وعند ذلك لاح لي ان ترجمة اسد لا يصح تحريرها بوجـه مفيد الا بعد النظر في اقدم كتب التراجم الافريقية عهـدا يعني كتاب رياض النفـوس ولكنه لسوء الحظ من الكتب المفقودة او ما في معناها فلزم بحكم الضرورة زيادة البحث عنه او التصدي على الاقل لترجمة ما نقل عنه المستشرق اماري وهذا يستدعي لا محالة اكثر من الايام المعدودات الفاصلة بيني وبين بزوغ قمر هـذا العدد من المجلة الزيتونية فلسد هذا الفراغ ارجيت تحرير ترجمـة اسد مع ما يتبعها من تاريخ انتشار المذاهب السنية بافريقية الى فرصة قابلة يساعدنا عليها طقس رحيم ينسينا جهنمية هذه السبعة والاربعين درجة ظلية التي نشفت دونها المحابر وتصدعت اسنة الاقلام وهناك باعث ءاخر على هذا الارجاء وهو وجوب السعي للوقوف ولو على قطعة من المدونة الاسدية وهي من الكتب المفقودة بتونس لكن بعض الشيوخ يقول انه ربما بقيت منها بقية مشتتة بخزانة جامع القيروان لان الكلام على اسد من الناحية الشرعية اي بصفته فقيها قبل

(١) توجد منـه نسخة مخطوطة تعتورها انقاص كثيرة تم نسخها في سنة ٧٢٩ محفوظة بالمكتبة العمومية بباريس مرسمه تحت عدد ٢١٥٣ بفهرس التآليف العربية بالمكتبة المذكورة

ان نتكلم عليه من الناحية الاجتماعية اي بصفته قائدا فاتحا لصقلية سيجرني للكلام على اخذه عن الامام ابي يوسف ولا سيما عن الامام محمد بن الحسن فلو تهيأ لنا الاقدار الوقوف على بعض اوراق الاسدية لما صعب على اهل العلم تحليلها تحليلا فقهيا يرينا على ضوء الهداية والتسامح هل كانت الاسدية كلها من املاء عبد الرحمن بن القاسم تلميذ امام دار البحر مالك بن انس رضي الله عنه أم ان اسدا في دائرة اجتهاده وهو من كبار المجتهدين بما لاريب فيه شحنها بشيء كثير من مروياته عن شيخه محمد بن الحسن صاحب الامام الاعظم ابي حنيفه رضي الله عنه اذ من المعلوم ان اسدا اخذ في مبادي امره عن المدنيين وهم اهل الرواية ولكنه اظهر بعد ذلك ميله باجمعه للعراقيين وهم اهل الرأي الى غير ذلك مما سنبحث فيه ان شاء الله عند توفر المادة بالحصول على شيء من كتاب رياض النفوس ومن كتاب الاسدية بخزانة القيروان

بقي لي استدراك على ما ورد بآخر المقالة الثانية من مبحث القضاء الشرعي بالصفحة ٢٤٨ من المجلة حيث اشرت لما حصل لبعضهم من الشك في اسم القاضي الشيخ محمد الكافي ففي هذا المعنى نقول ان اسمه صحيح برسمه الوارد في قائمة القضاة المالكية بالصفحة ٢٤٧ من المجلة ، قال الشيخ محمد بيرم الرابع في رسالة التراجم المهمة للخطباء والايمة عند الكلام على القاضي الشيخ مصطفى بن القاضي الشيخ احمد الطرودي الحنفي ومن خطه ننقل هنا ما نصه : واجتمع به (اي الشيخ مصطفى) في القضاء من المالكية الشيخ ابراهيم المزاج ومن قبله القاضي الكافي الذي هو اخر قضاة علي باشا وعزله المولى محمد باي (الرشيد) اه

وهذه وثيقة اخرى غريبة في نوعها لانها عبارة عن تفويض من المشير احمد باي لشيوخ المذهب الحنفي بالنظر والترجيح بين آراء شيوخ المذهب المالكي في نازلة من انظارهم وهي تدلنا من ناحية على سعة انظار سمو الباي الموما اليه وتحريه في النوازل الشرعية وترينا من ناحية اخرى درجة التسامح والتكاتف المغبوط بين فقهاء المذهبين الشقيقين ومحصل النازلة ان جنديا دمى عليه جريح بشهادة عدلين فجاء الجندي بشهادة تثبت انه كان ساعة القتل في بلد الكاف حاضرا بحفلة عرس وهو غير البلد الذي وقع فيه الاعتداء على الهالك فاختلف يومئذ الشيخ ابراهيم الرياحي كبير اهل الشورى المالكية وكاهيته المفتي الشيخ محمد بن سلامه وقاضي الجماعة الشيخ محمد النيفر الاكبر واصر كل على ما راى فلما عرضوا أراءهم على سمو الباي للترجيح امر باحالة القضية على الجماعة الحنفية وكتب بذلك مكتوبا للشيخين ابي عبد الله محمد بيرم الرابع وابي عبد الله محمد بن الخوجه وهذا نص المكتوب بحروفه :

حفظكم الله تعلى ورعاكم ونور العلم بتقواكم الفاضلين الخيرين العالمين العاملين قطبي مذهب النعمان والقدوة في أم الشريعة الوثيقة الاركان احبابنا الصدر شيخ الاسلام سي محمد بيرم وكاهيته الشيخ

سي محمد بن الخوجه سدد الله انظارهما اما بعد السلام عليكم ورحمة الله فان جريحا دمى على رجل بشهادة عدلين وشهدا بموته فوجهنا النازلة لعلماء المالكية كما هو الحكم الجاري بقطرنا في نوازل الدماء ثم ان المدعى عليه استظهر بشهادة تنافي رسم التدمية وطال الخصام في النازلة فانتج قياسها خلافا بين علمائنا المالكية وتحرجت من تنفيذ ما يقتضيه الاجتهاد في السياسة لانها كانت على بساط الحكم الشرعي وجالت فيها انظار نوابنا في ذلك فظهر لي ان اوجه لاماتتكما حجج الفريقين ومكاتيب علماء المالكية لاعتمد على ترجيحكما فانظرا فيها كانكما مالكيين (كذا) من اعتبار اقرار القتيل وان القتل بغير محدد كما هو المذهب المالكي وليكن مناط نظركما كلام المشائخ المالكية الذي انهوه الينا وكاتباني بما يثلج اليه صدركما من الترجيح وبما تدينان الله به يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا فانكما بحمد الله ممن لا تاخذه في الله لومة لائم والدين واحد واختلاف الايمة الذي هو رحمة لا يمنع المخالف من النظر بالعلم في قول غيره فان تطبيق النصوص والقواعد على النوازل ليس من شرطه اتحاد المذهب انما شرطه الفهم والعلم وهذا دم مسلم يلزمنا في اراقته التحري والله يقول ولكم في القصاص حيوة فعنايتنا بالحي مثل عنايتنا بالقتيل والله يقول الحق وهو يهدي السبيل والسلام من الفقير الى ربه تعالى عبده المشير احمد باشا باي وفقه الله ءامين وكتب في ٢٧ رجب سنة ١٢٦٥ اهـ.

هذا ولاتمام ما تقدم نشره بالعدد الاخير من المجلة بخصوص علاقة اهل العلم باهل السياسة في مقام الامور الرسمية نلحق بذلك هنا وثيقة تاريخية في مقام العلائق الادبية بين العلماء واهل السياسة من الاروباويين بتونس وهي عبارة عن تقريض لرسالة كتبها المستشرق ريشار وود قنصل انكلترة بتونس اسماها (الادلة الجلية في موافقة شريعة الاسلام للقواعد الانسانية) فهذه الرسالة اهداها صاحبها للعلامة الشيخ احمد بن الخوجة ولما قراها الشيخ رحمه الله قرضها بالمكتوب الاتي نصه:

جناب البارع الحاذق الماهر المجرب البصير بالسياسة المدنية والتهاذيب الانسانية الموقر سيادة ريشار وود نائب وقنصل جنرال بريطانيا بالمملكة التونسية حرسه الله تعلى بعد الدعاء لجنابكم بالسعادة ودوام العافية فقد وصلتني هديتكم السنية كتابكم الذي سميتموه الادلة الجلية فسررنا به سرورا عظيما وزاد في ايضاح الدلالة على امتداد باعكم في المعارف وكمال انصافكم ومفاخركم المقتضية لتقدمكم في المناصب العالية وشريعة الاسلام واردة على الميزان الاعدل مؤسسة على الرفق والرحمة حافظة لمصالح الخلق على النظام المحكم الذي يشهد بفضله العيان فان صدر من بعض المتوحشين خلاف ذلك فهو خروج عن قواعدها ونظامها وقد اوضحتم في كتابكم من هذا الغرض ايضاحا جميلا والوقائع التاريخية تشهد بان المتوحشين يفعلون ذلك البغي مع بني دينهم من المسلمين ويعوقونهم عن اقامة قواعد ملتهم كما في حروب القرامطة في البصرة والكوفة وما فعلوه مع الحجاج من نهب الاموال وسبي النساء والصبيان والقتل والافساد وبقي الحجاج كما قال الفاضل ابن خلدون في تاريخه كتاب العبر ضاحين الى ان هلكوا الى غير ذلك مما هو مسطور في كتب التاريخ فنحن ندعو الله تعلى بدوام العافية في ذاتكم وانجالكم واهلكم مع سعادتكم اجمعين على ملاحظتكم الجلية وكمال انصافكم وصدعكم بالحق حرره الفقير الى ربه احمد بن الخوجة شيخ الاسلام بالمملكة التونسية كان الله له في ١ ربيع الانور سنة ١٢٩٦ اهـ

محمد بن الخوجة

صفحة من تـاريخ تونس

صلة تـونس بالدولة العلية

بعثة خير الدين للاستانة

سنتي ١٢٨١ - ١٢٨٨

للعـالم امير الامـراء الاستـاذ
محمد صالح مزالي عامل بنزرت

« ١٥ »

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى ءاله وصحبه وسلم

امرنا هذا بيد الهمام المفخم امير الامراء ابننا خير الدين الوزير المباشر واننا انتخبناه للرسالـة للابواب العلية السلطانية العثمانية خلد الله تعلى سلطانها وارشدها للخير واعانها لطلب الفرمـان العلي الشريف الذي صدرت به الارادة السنية بمقتضى كتاب الصدارة العظمى المؤرخ في ٢٣ رجب سنة ١٢٨١ المتضمن بيان حقوق الدولة العلية بهذه الايالة وحقوق معظم قدرها وءال بيته بها وفوضنا اليه في طلب ما ذكر راجيا من الله تعلى ان يحفه من انوار الخلافة بما تقر به العيون مما املناه من مكارمها المعروفة وطلبناه حتى يرجع الينا بهذا المطلب الذي هو الامل ونتيجة القول والعمل وان يمده باعانته وتوفيقه بمنه وكرمه والسلام من الفقير الى ربه تعلى عبده المشير محمد الصادق باشا باي وفقه الله تعلى وكتب في ٢٠ جمادى الثانية سنة ١٢٨٨ ثمان وثمانين ومائتين والف صح من محمد الصادق باي

مصطفى (الطابع السعيد)

« ١٦ »

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى ءاله وصحبه وسلم

امرنا هذا بيد الهمام المفخم امير الامراء ابننا خير الدين الوزير المباشر واننا انتخبناه للرسالة للابواب العلية السلطانية العثمانية خلد الله تعلى سلطانها وارشدها للخير واعانها لعرض مطلبنـا على اعتابها السنية وفخامتها العلية وهو صدور الفرمان الشريف العلي في بيان جهة الارتباط الذي بين الايالة التونسية والخلافة العثمانية بايضاح ما للدولة العلية بها من الحقوق المقررة وما لمعظم قدرها وءال بيتـه من الحقوق المقررة بها ايضا وفوضناه له في ذلك بما يراه صالحا لهذا المقصد الديني والسياسي بحيث ان ما يبرمه في ذلك ماض علينا راجيا من الله تعلى ان يحفه من انوار الخلافة بما تقر به العيون ويوضح ما هو في جنب مكارمها المظنون وان يمده باعانته وتوفيقه بمنه وكرمـه والسلام من الفقير الى ربـه تعلى عبده المشير محمد الصادق باشا باي وفقه الله تعلى وكتب في ٢١ جمادى الثانية سنة ١٢٨٨ ثمان وثمانين ومائتين والف صح من محمد الصادق باي

مصطفى (الطابع السعيد)

التعليمات السرية

« ١٧ »

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى ءاله وصحبه وسلم

الهمام المفخم امير الامراء ابننا خير الدين الوزير المباشر حرسه الله تعالى السلام عليكم وبعد فانكم على علم بمكتوب الصدارة العظمى المؤرخ في ٢٣ رجب سنة ١٢٨١ الذي اتيتم به لما وجهناكم في ذلك العهد للدولة العلية العثمانية ونص ترجمته المبعوث في هذه الوجهة صحبة سعادة خير الدين باشا من المكتوب المشيري شاكرا لاثار الالتفاتات السلطانية في خصوص الوقائع المكدرة الاخيرة التي وقعت في نازلة تونس المحمية ومؤيدا بعهوديتكم وخصوصيتكم البهية مع مكتوبكم المرسل الى هذا المخلص المثني على ذاتكم العلية قد قدمناهما للعتبة السنية الخاقانية وصارا معلومين عند حضرته الملوكية خلده الله تعلى على سرير شوكته وجعله زينة لاريكة عدالته وخلافته التي هي مرجع الانام وملجا الاسلام بحرمة حبيبه الاكرم عليه السلام مدى الدهور والاعوام فانه متخلق بفضل الله بالسجايا التي تستجلب وتستدعي دائما رفاهية حال البرية من تبعة دولته العلية فلذلك يريد ويؤمل سعادة الحال واستراحة البال على الدوام والاستمرار لذاتكم وللمنتسبين الى سلسلتكم العالية وللعباد الذين حسن ادارتهم مودوع بيد حضرتكم السامية وانه ايده الله بعد ما تاثر وتاسف من ظهور ذلك الاختلال قد صار مسرورا من زواله ولله الحمد على وجه السهولة في المدة اليسيرة كما انسر من تعظيمكم قدر قيمة همته العلية ومساعيه المصروفة السنية في اندفاع هذه الحادثة الفجيعة ثم ان السلطنة السنية مرادها الحقيقي ومقصودها القطعي على الوجه المحرر عبارة عما يستوجب بقاء الاستراحة في تونس وارتقاء عمرانها وتاسيس بناء الراحة والامن بها يوما فيوما لاهاليها وتبعتها ولاجل تمام حصول هذا الغرض الذي هو راجع وعائد اليها لا تنقطع عنها الهمة والاعانة في وقت من الاوقات والدليل الجديد العلني على صدق هذا المدعى رافعا ودافعا لما عسى ان يتوهم تقوية الامتيازات القديمة على وجه التجديد رسما وهي الخطبة والسكة يكون كل منهما باسم السلطان كما كانا في القديم لكونهما علامة علنية لارتباط ايالة تونس التي هي من الاجزاء المتممة للممالك العثمانية ارتباطا شرعيا بمقام الخلافة الإسلامية والسنجق يكون شكله ولونه المخصوص به الان باقيا على حاله والمعاملات الارتباطية الجارية مع طرف الدولة العلية الى هذا الوقت تكون مرعية وجارية كما كانت وعلى بقاء هذه الامور ودوامها يكون امر الولاية على طريق الوراثة مخصوصا بسلسلتكم العالية كما كان وتكونون انتم مستقلا بالتصرف في الولايات الشرعية والسياسية والعسكرية وفي العزل بمقتضى القوانين الموافقة للعدل وفي الادارة الداخلية لتلك الايالة موافقة للشرع العزيز ومطابقة للقوانين العدلية التي هي كافية لتامين الانفس والاموال والاعراض وموافقة لمقتضيات الوقت والزمان ومرخصا في المعاملات المعلومة مع الدول

المتحابة كما كان وكذلك للمتولي ان يبعث ويطلب الفرمان العالي ويعطى له على العادة هذا ومهما وقع الاستدعاء والطلب من جنابكم السامي لصدور الامر العالي والفرمان الخاقاني فيما ذكر من الامور كلها المقررة اعلاه يصدر لكم حسبما صدر الاذن العالي بذلك وبحسب المامورية تسارعنا لبيان هذا الحال لجنابكم بكل سرور يكون معلومكم ذلك وباطلاعكم على هذا المكتوب الدال على الخصوصية ويما يقرره لجنابكم خير الدين باشا شفاها يتبين لكم ان نية السلطنة العلية منحصرة في الاصلاح والتاييد لايالة تونس ولذاتكم السامية ومقصورة على تخليص الرابطة القديمة والتابعية الممتازة بمقر الخلافة العلية ومنع ما يوجب دخول الخلل والتنافر ويحصل لكم الجزم واليقين بها ولا اشتباه في انكم تستجلبون دائما محاسن انظار حضرة سلطان الاسلام التي توجب سلامة الدارين وتستوجب ذكر الخير لحضرتكم مدى الاعوام فلذلك اكتفينا بتحرير هذا القدر ورفعنا دعاءكم الى محل الاستجابة فليكن ما كتبناه رهين علمكم العالي والامر كله لمن له الامر . انتهى

وقد طلبنا فيما سلف الفرمان المشار اليه به فورد كتاب الصدارة المؤرخ في ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٢٨٢ متضمنا ان ليس تاخير ارساله ناشيا عن تاخير المطلب او تركه بل المقصد تسهيل اجرائه ثم لما طلبناه عام التاريخ ورد جواب الصدر الاعظم المؤرخ في ٢٨ ربيع الثاني سنة ١٢٨٨ متضمنا ان هذا المقصد المهم لا يتاتى بالرسائل والمكاتيب ولا يكون الا بارسال من يعتمد للمذاكرة في تاسيس ما به الامتياز المطلوب والادارة والمعاملات الاتية وتسويتها بالاتفاق حسبما ذلك كله على علم منكم وتتذكرونه من النسخ التي اخرجت لكم من المكاتيب المتعلقة بالنازلة وبناء على ما تضمنه كتاب الصدارة العظمى سمحنا بتوجهكم بامن الله تعلى وسلامته الى الدولة العلية العثمانية وكاتبناها بما علمتم طالبين منها الفرمان المذكور وكتبنا لكم امرنا المؤرخ بالعشرين من شهر التاريخ بناء على ما تضمنه المكاتيب الواردة من جناب الصدارة العظمى بان الفرمان حاضر وقت ما نطلبه ولما كان من المحتمل ان المقصود من طلب توجيه من ذكر ان يطلبوا شيئا زائدا على ما تضمنه كتاب الصدارة المضمن اعلاه كتبنا لكم امرنا المؤرخ بيوم التاريخ في التفويض لكم فيما تضمنه واستوعبنا في هذا ما يمكن ان تطلبه الدولة العلية نظراً لما سبق من الكلام في ذلك وما يمكن الاسعاف عليه من جهتنا لتوافق عليه بمقتضى امر التفويض المذكور وما لا يمكن الاسعاف عليه بحيث انه اذا لم يصدر الفرمان المشار اليه بمكتوب الصدارة اعلاه وتوقف على فصل او على الفصول التي يمكن فيها الاسعاف بمقتضى هذا فانك توافق عليها بموجب امر التفويض نظرا لحصول المصلحة المقصودة من الفرمان المذكور واما اذا توقف صدوره على ما لا يمكن الاسعاف له بمقتضى هذا فانك لا توافق على ذلك والفصول المشار اليها - ١ - هي انهم اذا طلبوا توجه من يتولى لمركز الخلافة فالجواب انه لا يمتنع - ٢ - واذا طلبوا ان الخلطة السياسية وما يقع من الخلاف بين الايالة والدول الاجنبية يكون بواسطة سفراء الدولة فالجواب انه اذا بلغت النازلة الى ما يمس اصول السياسة المعبر

الشرف الحسيني بالقيروان
- ٢ -

بقلم الفاضل المؤرخ الشيخ محمد طـراد

سبب شهادة العشرة في وثيقة الشرف

ان بني عبيد الولاة في ذلك الوقت مذهبهم اذ ذاك هو مذهب الامامية فيما بعد الذين يرون ان من تنقص شريفا يكون مباح الدم ومع ذلك ينتقصون كثيرا من عظماء الصحابة والخلفاء الراشدين كالشيخين ابي بكر وعمر رضي الله عنهما .

ففي المواسم التي يكثر فيها الواردون على القيروان من قراها وضواحيها وبقية مدن القطر الافريقي يعمدون الى رؤوس الحيوانات المذبوحة في ذلك الموسم وبالاخص موسم عاشوراء فيعلقون من تلك الرؤوس على الحيطان المرتفعة ويكتبون في قراطيس توضع عليها اسماء بعض الصحابة تشهيرا لانتقاصهم .

ويبعثون دعاة ينشرون مذهبهم بين العامة فيعارضهم العلماء السنيون ويناظرونهم في ذلك ويبكتونهم

عنها (بدروا انترناسيونال) فان الواسطة بين من ذكرهم السفراء -٣- واذا طلبوا ان الشروط التي تقع بين الايالة والدول الاجنبية تتوقف على الامضاء من السلطان فالجواب ان الشروط السياسية التي تمس حقوق السلطان في هذه المملكة لا تكون الا بموافقته واما الشروط المتجرية وغيرها من المعاملات مع الدول ورعاياهم فانها على العادة ولا تتوقف على الموافقة -٤- واذا طلبوا ان يكون تقديم من يرسل من الايالة للدول الاجنبية في المراسلات الودادية بواسطة سفراء الدولة فالجواب ان ما يتعلق باصول السياسة المعبر عنها بدروا انترناسيونال فانها لاتكون الا بواسطة من ذكر واما ما عدا ذلك من الخلطة الودادية وغيرها فانها على العادة -٥- واذا طلبوا ترجيع السكة على عادتها اي بحذف ما زيد فيها فالجواب انه لا مانع -٦- واذا طلبوا ان تكون ادارة المملكة واحكامها على اصول كافية للادارة مطابقة للعدل ولعادات البلاد وسياسة اهلها فالجواب انه لا مانع من ذلك وكذلك -٧- اذا طلبوا الالتزام باعانة الدولة اعانة حربية عند ما يعرض للدولة حرب مهم فالجواب انه لا مانع من ذلك اما اذا طلبوا ابطال اعطاء النواشن للدول الاجنبية او اداء مبلغ من المال فانه لا تتيسر الموافقة على ذلك حررنا لكم ما ذكر لتعتمده في وجهتك المباركة ونعتمد على الله سبحانه وتعلى في اعانتكم وتسديد عملكم ونجحه على ما نعلمه من وفائكم وامانتكم وكفاءتكم بحول الله تعلى وقوته والله تعلى يمدكم بعونه والسلام من الفقير الى ربه تعلى عبده المشير محمد الصادق باشا باي وفقه الله تعلى وكتب يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من جمادى الثانية سنة ١٢٨٨ ثمان وثمانين ومائتين والف .

مصطفى

صح من محمد الصادق باي

(الطابع السعيد)

ولا تسال عن تعذيب من يخالفهم بانواع من العذاب لم يسبقوا اليه من ذلك قصة عروس المؤذن الذي لم يزد في اذانه : حي على خير العمل اذ قطعوا لسانه وجعل بين عينيه وطيف به وقتل بالمرضاخ سنة ٣١٧ الى غير ذلك من افاعيلهم المنكرة التي يضيق عنها مجلد خاص .

وفقهاء القيروان لم يطيقوا الصبر والتحمل فيغيرون عليهم في كل مجالسهم واغضب ذلك بني عبيد حتى أجبروهم على ابطال دروسهم للعامة وصار قوادهم بالمرصاد من علماء السنة .

ومع ذلك لم ينفك الفقهاء من الارشاد والاستهداف لاخطارهم وتداول الفقهاء البحث فيما بينهم في امر بني عبيد فرأوا باتفاق جميعهم ان الخروج على بني عبيد امر واجب ولو مع ابي يزيد الخارجي لان الخوارج هم من اهل القبلة لم يزل عنهم الاسلام فيرثون ويورثون . وبنو عبيد ليسوا كذلك لانهم مجوس زال عنهم اسم المسلمين فلا يتوارثون معهم ولا ينتسبون اليهم وقدر ان اتى ابو قضاعة داعية بني عبيد الى القيروان وحضر مجلس عقد نكاح وحضره كثير من هؤلاء الفقهاء وجماعة مشارقة من شيع العبيديين وعلى مذهبهم وكان بالقرب من ربيع القطان احد اولئك الفقهاء ابو قضاعة المذكور فاتى رجل من اعظم المشارقه فقام اليه رجل منهم وقال الى هنا يا سيدي الى جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني أبا قضاعة ويشير بيده اليه فانكر الفقهاء ذلك وكثرت اجتماعاتهم في الجامع وفي المصلى وفي غيرهما لاعمال رايهم في الامر واخيرا اتفقوا على قتالهم والخروج عليهم .

وفي رجب من عام ٣٣١ تاريخ الوثيقة اجتمعوا في الجامع وقرروا الخروج وعقدوا سبعة الوية لكل فقيه من زعمائهم لواء وركزوها قبالة مسجد الحدادين بما فهم منه ان خروجهم كان من باب نافع وهو احد ابواب المدينة الثنتي عشرة وهو بالجهة الشرقية ويخرج منه لمقبرة باب نافع التي هي مقبرة سحنون اليوم اذ سوق الحدادين كان هنالك . وتوجهوا قاصدين المهدية مع ابي يزيد الخارجي الذي مكر بهم في هاته الواقعة ووقع بينهم القتال خارج المهدية بالمحل المعروف بالوادي المالح وسميت الواقعة باسم هذا الوادي . وحيث ان العبيديين يدعون انهم فاطميون ولم يثبت ذلك عند الفقهاء وكثير من علماء النسب وألف بعضهم في ذلك تاليفا وان اثبت ابن خلدون لهم هاته الدعوى وقال جادلت عنهم في الدنيا وأرجو ان يجادلوا عني يوم القيامة . فان فقهاء القيروان لم يقفوا عند حد هزيمتهم في واقعة الوادي المالح ومكر ابي يزيد بهم . وكان من بين القيروانيين بيت ابن عوانة المشهورة بالشرف الحسيني والعلم والامانة والفقه والصلاح حسبما صرح بذلك في الوثيقة فانهم جعلوا تلك الوثيقة وشهد لهم فيها اولئك العلماء العشرة

وحيث لم يحصل لهم المقصود من جعلها بقيت من تاريخها لم تخرج منها نسخة الا بعد استقرار الدولة الموحدية ورسوخ قدم بني حفص فاخرجت منها النسخ المتقدم ذكرها للتوصل لاخذ بني عوانة حقوقهم الهاشمية من بيت المال ومن الاحباس الموقوفة من الاسلاف القيروانيين رحمهم الله وجازاهم عن برهم على ارفاق واعانة اهل الفضل وهو وقف المرتفقات المعروف الى اليوم زيادة عن اوقاف الفقراء المحبس على فقراء القيروان واوقاف مارستانات المرضى بالامراض المعضلة والمعدية واوقاف السجن واوقاف الزيت والاكواز التي تنكسر ويراق زيتها للصبيان الذين يرسلهم اباءهم عشية لذلك الى غير ذلك من اوقاف اوجه البر ومحتها يد السنين من لوحة العمل بها وان بقي الكثير منها الى اليوم في تصرف جمعية الاوقاف .

واضع بين اعين القراء هاته الوثيقة التي اقيمت عام ٨٠٢ ونصها :

بعد طالعتها يعرف شهوده الشيخ الفقيه المكرم ابا عبد الله محمد المذكور اعلاه (اي اعلا النسخة من الوثيقة العوانية) واولاده ابا الحجاج يوسف وابا عبد الله محمدا وابا محمد عبد الله وابا اسحاق ابراهيم وابا مروان عبد الملك وابا العباس احمد معرفة تامة ويشهدون انه هو واولاده ضعفاء التكسب قليلوا ذات اليد ممن تجب مواساتهم محتاجين لارفاق المرفقين واحسان المحسنين تبركا وتوسلا بذلك لنسبهم الشريف الكريم ابتغاء ثواب الله الجسيم العظيم وخصوصا بارفاق المقام العلي المولوي السلطاني المتوكلي المنصوري المؤيدي المجاهدي وفر الله جنودهم ونصر اعوانهم وجيوشهم تبركا بجدهم المرجو شفاعته يوم الحساب رجاء ثواب الله سبحانه وحسن المئاب بهذه الحالة عرفهم شهوده وبها خبروهم وقيدوا على ذلك شهادتهم لسائلها بتاريخ اواخر شهر شوال عام اثنين وثمانمائة وبان نعت الشريف المذكور حسن القد صوب الجسم ازهر اللون يعلوه صفرة خفيفة كهل السن احبه املج الحاجبين اصلع صليت العارضين بتغير مقدم اللحية اشمط الشعر بجبهته اثر جرح برئي وعفا اصفى الجوهرة اليمنى والثانية التي تليها فمن عاين من حلية الشريف المذكور ما حلي به ووصف به قيد على ذلك شهادته في التاريخ المذكور ويلي ذلك اسماء العدول الشاهدين بذلك معقودة اسماءهم على الكيفية المعهودة في عقودهم في تلك العصور بحيث تقرا اسم العاقد من عقده على هاته الكيفية وهم :

محمد بن محمد بن ابي القاسم بن احمد الشقانصي — ومحمد بن ابي بكر بن علي الفاسي — واحمد بن محمد بن ابراهيم الحنضلي — ومحمد بن عبد العزيز بن رجال الربعي — ومحمد بن عبد الواحد بن عبد السلام الدهماني — ومحمد بن عياد بن موسى الحضرمي — وعمر بن عبد الرحمان بن عمر الدهماني وعمر بن ابراهيم المسراتي — واحمد بن يوسف بن عيسى الترهوني — واحمد بن عبد الوهاب بن خليفة بن محمود البيري .

ومما يناسب ذكره هنا تتميما للفائدة ولمعرفة درجة التوثيق في تلك العصور وتحري العدول في شهاداتهم انهم ذكروا في رسم بعد هذا الرسم مؤرخ باواخر رجب عام ٨٣٧ صفة حفيد من هاته السلسلة وهو الفقيه محمد بن الكاتب محمد ابن العدل يوسف واوصلوه بالسلسلة المذكورة وان من صفته شاب السن غير ملتحي كبير الوجه ادم اللون بين ثناياه السفلى فلجة متسعة اقنى ابلج اغم افلج الثنايا العليا وانهم قيدوا على ذلك شهادتهم للحاجة اليها خوف التلبيس ممن يشتبه عليه وينتسب لنسبه والتحوط على هذا النسب الشريف العلي ولكونه متصفا به وحائزا له الخ شهد به خليفة بن ناجي واحمد التوزاني المتقدم ذكرهما وشهد به في اواخر رمضان عام ٨٤٠ عبد الله بن ابي القاسم الشقانصي وابراهيم بن محمد بن عبد الله بن عوانة الحسيني وشهد به في تاسع شعبان عام ٨٤٤ من غير تحقق انه اشم وليس باقنى وهو الى الشم اقرب احمد بن عمر بن ابراهيم بن محمد بن عمران المسراتي

فتأمل رعاك الله كيف كانت العدول وتحريهم في شهاداتهم وفي تحاريرهم ومن هم هؤلاء العدول وهل هم الا فقهاء بمعنى الكلمة فصحاء لا تصدر منهم كلمة على غير القواعد العربية والطرائق البلاغية اقلهم يصلح لقضاء العواصم اليوم وما قبله اما اليوم فقد اختلط الحابل بالنابل

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

يتبع

محمد

الصادق الامين المبعوث رحمة لعامة الناس اجمعين

بقلم العالم المدرس الشيخ الطاهر النيفر

منذ ثلاثة عشر قرنا ونيف وخمسين سنة وكتائب اعداء الاسلام توالي هجماتها نحو هذا الدين المحكمة دعائمه بكل ما لديها من قوة وتكتل وحزم ومواصلة عمل وهو كالجبل الراسي لا تقوى على زعزعته اعاصير الايام ولا عواصف الليالي. وذلك بفضل سماحة تعاليمه وما ضمنه للبشر من سعادة ورغد عيش فهو الذي يعلمهم النظام ويفهمهم معنى الاخوة وما تنطوي عليه من هناء وسعادة ويرشدهم لما في توحيد الكلمة وجمع القوى من سمو وبلوغ آمال وهو الذي يسوي بين ضعيفهم وقويهم امام الحق وينشر على الجميع لواء الحرية الحقة بكل ما في معنى الكلمة من سمو ورفعة

بهذا وغيره من فضائله التي لا تكاد تحصى لم تزده مهاجمة اعدائه وتقادم العصور عليه الا شيوعا وانتشارا وها هو يتوغل اليوم في قارات المعمورة وتظهر متانته وعجائب اسراره كلما تقدمت المعارف واتسعت مدارك البشر (سنريهم ءاياتنا في الافاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم الحق) فأقلق ذلك اعداءه والمناوين له واصبحوا يغزون المسلمين في عقر بيوتهم ويحاربونهم في عقيدتهم سالكين للتاثير على البسطاء ممن جهلوا تعاليمه (وهم في هاته الاعصر كثيرون ويا للاسف) مسالك شتى

لكن ابى الله الا ان تكون اسلحتهم في هذا الميدان مفلولة وعملهم ضائعا لم يأت بنتيجة وان قلت

ولا ينبغي ان يكون ما لاقاه هؤلاء من الاعراض وما صادفته سلعتهم من البوار فاتا في سواعدنا عن كشف استار اباطيلهم وما جاءوا به من ترهات الاضاليل . فانا ان امنا على هذا الجيل من الانخداع لهؤلاء الابالسة فلا نامن على بعض ابناء الاجيال القادمة من ان تصادف شبهاتهم بعض الضعف في نفوسهم خصوصا انا اصبحنا نشاهد والاسف يملا ما بين جوانحنا ابناءنا يبتعدون شيئا فشيئا عن تعاليم الاسلام ويتوغلون رويدا رويدا في الجهل باسراره وفضائله

اذا فواجبكم يا حماة الدين المحمدي شيوخا وشبانا ان تقفوا وقوف الرجل الواحد في وجه هاته الكتائب المسلحة التي وجدت المجال فسيحا لبث سمومها والطعن بحرابها في ربوعنا الاسلامية التي توالت عليها النكبات وتعددت بها المصائب لاسباب يحمل البعض منها على كواهلنا .

فقوموا بواجبكم نحو هذا الدين الذي وكلت لكم حمايته حتى تؤدون الرسالة التي ائتمنكم الله عليها واستخلفكم من اجلها في الارض بعد انتقال المشرع الاعظم صلواة الله وسلامه عليه فانتم ورثته وخلفاؤه في هذا الامر. ان من اخطر الدعاوي على الاسلام ما يتخرص به بعض هؤلاء المبطلين من

انه دين خاص بالعرب فانهم يتظاهرون بتسليم رسالته صلى الله عليه وسلم وبتصديقه فيما جاء به الا انهم يدعون انه ارسل الى العرب خاصة ولم تشمل رسالته الامم الاخرى وبذلك يستديمون حياة شريعتي موسى وعيسى ويامنون عليهما من ان تصيبهما الشريعة المحمدية بمعول التقويض والازالة

ولم يقف اعداء الاسلام في وجه انتشاره بمثل هذا السلاح المفلول من اليوم بل هي شنشنة قال بها اصحاب ابي عيسى الاصبهاني من اليهود منذ امد بعيد ولكنها من اشد الدعايات خطورة عليه لانها لا تثير غضب البسطاء ممن تلقى عليهم من أهله ابتداء ومن اول الامر فانهم يبادرونهم بالاقرار بصحة عقيدتهم في رسالة سيدنا محمد وبتصديقه فيما جاء به حتى اذا رأوا منهم الاستيناس بهم والاستماع لاقوالهم وصلوا بهم الى الغاية المقصودة اعني ادعاء قصر رسالته على العرب ولربما تمكنوا بسبب هذا السلوك الذي لا تثير الغضب والاعراض عن الحديث من اصله من القاء بعض الريب في نفوس بسطاء مستمعيهم

وجدير بنا ان نلم موجزين بحالة العالم باسره قبل بزوغ الشمس المحمدية لتعلم الضرورة التي دعت لمنقذ البشرية المعذبة فقد تقطعت اوصالها وانتهكت حرماتها وديست عقائدها وابيحت اعراضها واستحلت اموالها ودماؤها واكل قويها ضعيفها بعد ان امعن في استعباده وتسخير جهوده لا في مقابلة شيء . ولم تكن هاته الويلات والامراض الاجتماعية مقصورة على امة دون اخرى بل عمت سائر امم المعمورة فهاته امة الفرس العريقة في الحضارة والمدنية قد اثرت فيها اذ ذاك الحروب المتوالية مع الرومان للتحصيل على سيادة العالم ويرجع تاريخ التعادي بين الامتين الى ما قبل القرن الخامس وقد استمرت دواليك وكانت سجالا من سنة ٦١٠ الى ان ختمت في سنة ٦٢٧ بانهزام الفرس الهزيمة الاخيرة والشنعاء التي افضت ببلوغ جنود الرومان نينوى عاصمة الاشروبيين قديما فظهرت بدولة الفرس مخايل الانحلال السياسي واشتد بها الهزال وعمتها الفوضى حتى اصبح الملك لا يلبث على دسته الا زمنا قليلا فتثور عليه ثائرة البعض من رعاياه ويفضي الامر الى انزاله ووضع آخر مكانه وهكذا يصاب بمثل ما اصيب به الاول فقد قام خلال اربع سنين تسعة من ملوكهم كل واحد منهم يدعى الملك ثم لا يلبث ان تزل به قدماه وكفاك هذا التفرق والضعف في الدولة دليلا على انحلال وحدة الامة وتفرق كلمتها زد على ذلك ما اصابها من الظلال في العقيدة والتدهور في الاخلاق من اجل تشعب المذاهب الدينية فهؤلاء يعبدون الكواكب وينسبون لها التاثير على العالم وآخرون يعتقدون في الوقاية بالطلاسم والعزائم وينخدعون للسحور والشعوذة واولئك يتبعون ما اختلقه زرادشت من المذهب المجوسي الذي يجعل للعالم الاهين احدهما للخير ويسميه بهرمز وعنوانه النور والآخر للشر ويسميه بهريمان ويرمز اه بالظلمة ويدعي ان ما من امر محبوب الا وهو من صنيع الاول وما من امر مكروه الا وهو من صنيع الثاني ولذا كان اتباع هذا المذهب يعبدون النيران التي يؤججونها في رؤوس الجبال لانها رمز الاله الخير ثم زاد الطين بله وعظمت عليهم البلية وبلغ بها

الضلال والتدهور الاخلاقي الذي انتهى لما جاءهم اللعين مزدك مدعيا ان الله بعثه ليأمر باباحة النساء والاموال بين الناس جميعا لانهم اخوة من اصل واحد وبذلك جرى من الظلم والجور وانتهاك الحرمات والاعراض واباحة الفروج واختلاط الانساب ما لايحيط به التعبير الا ان كسرى وان اباد هذا المذهب وقتل داعيته واتباعه لكنه لم يكن في مقدوره ان يبيد ما علق بالنفوس منه من السقوط الخلقي والاثر المذموم .

اما امبراطورية الرومان فلم يكن حظها اذ ذاك باسعد من حظ اختها فان كثرة الحروب مع الفرس وانغماس القياصرة في اللهو والمجون وافراطهم في تبذير اموال الرعية واغداقها على الاشراف واهل المناصب من البطارقة قد احدث ضائقة اقتصادية وضعفا عظيما في الثروة العامة وكثرت بسببها الضرائب وثقل حملها على الامة بعد ان ابتزت حتى اموال الكنائس وماكان مدخرا بها من الذهب لمحاربة الفرس في سنة ٦١٠ فكان من نتيجة هاته السياسة التي يراد منها اشباع الكبراء والسادة وتوفير العطاء لهم ولو افضي الامر الى تفقير العامة واهل الولايات التابعة لسلطانهم فكان من نتيجة ذلك كله ان شقت هاته الولايات عصا الطاعة تخلصا من مظالم هؤلاء الحكام وجشعهم المستديم ودبت في اجزاء الامبراطورية عقارب الانحلال مع ما اثرته هاتيك الحروب الهائلة فيها من الضعف وعمت الفوضى السياسة جميع المناصب الدولية حتى اصبح الملك يعطي لمن زاد في العطا وهاته الحالة وان اراد اصلاحها دقلدتانوس ومن جاء بعده الا انهم لم يتم لهم النجاح كله وقضى عليه تشعب المذاهب الدينية فقد قام اتباع كل مذهب بحرب عوان دفاعا على معتقدهم فعمت الفوضى الامور الدينية كما استولت من قبل على المناصب الحكومية واصبحت الامة على شفا جرف هار تنتابها الفوضى في المعتقدات والسياسة وتاكل وحدتها نار الفتنة الداخلية والخارجية وياتي على تبذير اموالها تصرفات كبرائها وتكالبهم على موجبات الترفه واسباب الزينة ونعيم الحياة وتكون من مجموع ذلك تدهور في الاخلاق عظيم يضاف الى ذلك كله معاداة اليهود لهم الذي بلغ منتهاه في زمن هرقل فقد بلغ من تنكيل اليهود بهم ان اشتروا من الفرس ثمانين الف اسير من الروح وذبحوهم عن آخرهم وقد قاموا نحوهم يعاملونهم بالمثل فقرروا منع اليهود من اقامة شعائرهم الدينية بل الغوا الديانة اليهودية رسميا من بلادهم واجروا عليهم من الشدائد ما لا يوصف وبذلك تعلم ايضا ما كان عليه اليهود اذ ذاك من التدهور الاخلاقي والقسوة والظلم وما اصيبوا به من التعذيب والتنكيل .

اما امة الهند فلم تنج هي بدورها ايضا من السقوط الخلقي والضلال في المعتقد فقد انتشر بينهم المذهب الاباحي وعم الفروج والاموال وبلغ الفحش فيهم منتهاه حتى كان الكاهن عندهم يختص بالعروس في ايامها الاولى لينشر عليها وعلى زوجها البركة والنعمة وهم يدعون جهرة الى المنكرات باناشيد يرددونها في الاجتماعات العامة .

أما الامة العربية فانها رغم ما كانت عليه من الكمال الخلقي في بعض النواحي لم تكن سليمة من مثل هاته الامراض الاجتماعية الفتاكة فهم لا يأوون الى دعوة يعتصمون بها ولا الى ظل الفة يعتمدون على عزتها فما شئت من ارحام مقطوعة وغارات مشنونة واصنام معبودة وبنات موؤدة فكانت الحرب بين القبائل لا تكاد تضع اوزارها ومنهم من اتخذ الغارة موردا لعيشه

ليس هناك ما يجمع كلمتهم او يوحد جهودهم فلا يعرفون للدولة تكوينا الا من قل من بعض المتحضرين منهم ولا يدركون للعلاقات السياسية معنى فكل قبيلة تقوم بنفسها وتجمع امرها لتشن الغارة على الاخرى . اما حالتهم الاقتصادية فهي ادهى وامر فزيادة على جدب اراضيهم قد استغل المال بعض اهل الطبقة العليا منهم وابتزوا اموال الضعفاء بانواع من المظالم ما انزل الله بها من سلطان وعمل الربا الفاحش في تفقيرهم عمله المشئوم حتى اصبح موردا ثانيا بمكة بعد التجارة وحسبوه لا فرق بينه وبين التجارة (قالوا إنما البيع مثل الربا) وقد بلغت بهم الشدة والقسوة في هذا الباب المنتهى فحملوا المدينين على اكراه فتياتهم على البغاء (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان اردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) وتكالبوا على جمع المال من أي وجه كان فكانوا كما وصفهم القرآن بقوله (اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون) فاخذت الديون برقاب الناس حتى كانت النصارى منهم يجعلون المدين عبدا مملوكا للدائن بسبب الدين الذي عليه ولم تخل حالتهم الخلقية في النواحي الاخرى من بعض الشين فهم فيهم الخمر والنصب والمقامرة خصوصا عند ابناء السراة منهم ووجد السلب والنهب فيهم وعملت العصبية كل ما في طوقها من الظلم والتعدي وعظم في نفوسهم حب الانتقام حتى كانت النساء لا يرضين بسوى صبغ ملابسهن بدم القتيل واكل قلبه وكبده اما ظلمهم للضعفاء واستعبادهم للارقاء فحدث عن البحر ولا حرج

ولا تسأل عن ضلالهم في الاعتقاد فقد ضجت منه السموات والارض فمنهم من تاول الاله ببعض الحيوان ومنهم من تمثله في الكواكب ومنهم من حسبه في الاشجار والاحجار اوقطع الحلوى تعالى الله عما يشركون

ومع هذا كله فلم تخل الامة العربية من افذاذ وحدوا الله ونزهوه عن التشريك وادركوا ما كان عليه قومهم من البغي والضلال وانذروهم بسوء العاقبة ووخامة المنقلب كما هبوا لانقاذهم من الظلم والعدوان بما استطاعوه من قوة وما حلف الفضول الذي عقد بمكة وحضره النبي صلى الله عليه وسلم عنكم بخاف كما قام الشعراء بنصيبهم في هذا المضمار قصد التاثير عليهم فهم عندهم بمنزلة الزعماء والمصلحين في بقية الامم الاخرى قال الاعشى

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

الا ان هاته المنازع الاصلاحية التي قام بها البعض منهم لم تكن كافية لردع جميعهم عن الشر والطغيان فهما اللذان طبعت عليهما نفوسهم منذ نعومة اظفارهم

ولذا كان العقلاء منهم كورقة بن نوفل وعبد المطلب بن هاشم وامية بن ابي الصلت يتكهنـون بانه قد اقترب ان يبعث في هذا العالم نبيء ليخلصه من هذا الشقاء الذي خيم عليـه في شتى نـواحيه جريا على ما علموه من سنة الله تعالى من قبل فان الضلال والتدهور قد بلغا بالناس الغاية

اذا علمت هذا فهل كانت الامة العربية فقط في حالة تدعو لارسال منقذ لها يخلصها مما انغمست فيه من ضلال وفساد ام كانت حالة الشعوب كلها في ذلك سواسية فما منها الا ما تدعو حالته للانقـاذ ؟

لا شك ان من علم هذا ووعاه ايقن بان حالة الشعوب كلها اذ ذاك كانت داعية لمنقـذ ياخذ بيـد جميعها الى طريق الفلاح ويضيء دياجيرها بنور الحق والعدل

اذا فكيف يدعى بعد هذا ان الرسالة المحمدية خاصة بالعرب مع ان حالة العالم كله اذ ذاك داعية لانقاذ البشريه المعذبة فهل ان الامة العربية هي اولى عند الله بالانقاذ والرعاية من بقية البشر ؟ كلا ثم كلا

البشر كله عند خالقه سواء لا يرتضي له الا السعادة ورغد العيش وانما خصت الدعوة بالنسبة لبقية الرسل لان الداعي لرسالتهم انما هو امر معين لم يحط الا بالامة التي بعثوا فيها

فموسى عليه السلام بعث لتخليص بني اسرائل من ظلم فرعون وجنوده وهو ظلم لم ينزل الا ببني اسرائل خاصة فان المصريين اذ ذاك كانوا ذوي قدم راسخة في العلوم والمدنية ولهم نصيب وافر من الاخلاق الكاملة فارسل موسى اليهم لتخليص بني اسرائيل من ظلم فرعون وقومه . وكانت رسالـة عيسى عليه السلام خاصة بقومه لانه بعث لانقاذهم من الرذائـل التي انغسموا فيها وليصلح نفوسهم مما تأصل فيها من ضروب الفساد وهو امر خاص بقومه اذ ذاك فقد كانت الحضارة الرومانية في ذلك العهد بالغة متنهاها اما قبل بعث سيد البشر فقد تاصل الفساد في البشر قاطبة وذلك ما دعا لتعميم الرسالة بفضل حكمته جل من خالق ورافته بعبيده ولا يسع اي كائن من كان انكار هذا الامر الذي اثبته التاريخ الصحيح وحكم بمقتضاه العقل السليم الذي لم يحجبه التعصب الاعمى

ولنسق لك بعد هذا من كلام الله تعالى وكلام النبوة وسيرة الرسول ما لا يبقي معه مجال لانكار هذا المدعي الاثيم فمثل هذا مما تقوم به الحجة على الخصم لانه يسلم صحة رسالته ويثبت له الصدق ويسلم بالتبع لذلك حجية اعماله

اما ادلة ذلك من الكتاب فاكثر من ان تحصى منها قـوله تعالى (وما ارسلنك الا كافـة للناس بشيرا ونذيرا ولكن اكثر الناس لا يعلمون) ومنها قوله جل من قائل (قل يايها الناس اني رسول الله اليكم جميعا) ومنها قوله جل جلاله (ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) وهي في السنة لا تقل عن ذلك كثرة منها قوله صلى الله عليه وسلم (بعثت للناس كافة) الحديث ومـا محاربته صلى الله عليه وسلم ليهود خيبر الامن ادلة ذلك فهل يتناسب مع صدق الرسول ومـا ارسل به من العدل واقامة قسطاسه بين الناس ان يحارب قوما من اجل عدم اتباعهم لاحكامه والحال انـه لم يرسل اليهم ومن اظهر الادلة على عمـوم رسالته صلى الله عليه وسلم . الكتب التي ارسلهـا لغالب

عظماء الامم يدعوهم بها الى الاسلام . فقد ارسل حاطب بن ابي بلتعه الى المقوقس صاحب الاسكندرية وابن وهب الى الحارث بن ابي شمر الغساني عامل قيصر على غسان بالشام ودحية الكلبي الى قيصر وهو يومئذ هرقل ملك الروم وصليت بن عمر الى هوذة بن عمرو الحنفي وعمر بن امية الى النجاشي وعبد الله بن حذافة الى كسرى ملك الفرس وكان ارسال هؤلاء جميعا في يوم واحد سنة ٩ هجرية كما ارسل غيرهم لغير هؤلاء فهلا يستحي بعد هذا من يدعي عدم العموم في رسالته

ولا نريد ان نلوي عنان القلم عن هذا الموضوع قبل ان نجيب عما عسى ان يورده الخصم في هذا المقام من ان رسالته صلى الله عليه وسلم اذا كانت عامة فلماذا اختير لها عربي وبذلك وقع الخروج عما جرت به سنة الارسال . ولماذا كان البعث في مكة مع ان البلاد الاخرى كفارس وارض الرومان هي اكثر مدنية واستعدادا لتلقي النظام وتفهم احكامه او ليس من اللائق برسالة كهاته أن تكون بين قوم قلبوا الحياة ظهرا لبطن وعلموا اسباب السعادة وموجبات الانحطاط ؟

وانا نجيب عن هذا بان الداعي لجعل الرسالة العامة في العرب امران أولهما ان رسالة كهاته ستفاجيء العالم كله بتسفيه احلامه وتضليل آبائه وتحويله بعد التفرق الى الالفة وبعد الشقاق والتطاحن الى الايخاء والاتحاد وتعمد الى القياصرة والملوك الذين الهوا انفسهم من دون الله فتسويهم بالسوقة من رعاياهم امام الاحكام والقضاء وتجعلهم سواسيه لافضل لاحدهم على الآخر الا بالتقوى وتقتلع من نفوس البشر قاطبة ما الفوه من الطباع لتضع في مكانها ما يناقضها على خط مستقيم رسالة كهاته امرها ليس بالهين ونجاحها ليس بالسهل فان الرسالات الاخرى التي تقدمتها ولم تقاوم الا شعبا واحدا فحسب لم يفلح غالبها ولاقى اصحابها جميعا كل اذى ومكروه ومنهم من قتل في سبيلها .

اذا فلا بد لها من انصار اهل عزيمة وثبات واصحاب بطش وقوة جاش وصبر على ملاقاة الاهوال والشدائد ذوي عصبية يستميتون في الدفاع عن بعضهم من اجلها حتى تتمكن الرسالة من الثبات امام العواصف الهوجاء التي ستلاقيها من كل حدب بمعونة هؤلاء المدافعين الاشداء الذين تدعوهم حميتهم المقدمة عندهم على كل اعتبار آخر للدفاع عن صاحبها وان كانوا غير مقتنعين بصحة رسالته

ولم تجتمع هاته الصفات في غير الامة العربية وقد استفادت الدعوة المحمدية بالفعل من هاته الصفات العربية في اول نشأتها فقد وجد صلى الله عليه وسلم من حماية عمه ابي طالب في صدر البعثة ما تمكن معه من القيام بواجبه على اكمل وجه كما وجد بعد ذلك لما اشتدت مناوات قريش له من بني هاشم والمطلب التعهد التام بحمايته من الشر لا فرق بين مسلمهم وكافرهم وما دعاهم الى ذلك الا حميتهم التي يجعلونها فوق كل شيء .

الامر الثاني : ان الاسلام قد جاء بتقرير كثير من الاخلاق العربية الكاملة التي كادت ان تنفرد بها الامة العربية من بين سائر الامم الاخرى فهي اذا اكثر قابلية للشريعة الاسلامية الملائمة لبعض اخلاقها وطباعها فيكون انتشارها فيها اذا ظهرت اسرع من انتشارها في بقية الامم ومتى انتشرت فيهم لاقت من حميتهم وشدتهم في الدفاع ما يثبت به قدمها امام القوة المعارضة . وقد تم هذا بالفعل ورأينا من فضائلهم بعد ذلك في نصرة هذا الدين وتفانيهم في الدفاع عنه وخدمته وخدمة من جاء به صلى الله عليه وسلم، ما لم نر مثله من بقية الامم الاخرى بعد دخولها في الاسلام وبذلك تم ما اراده الله وارتضاه

تأثير الادب في رقي الامم

بقلم أمير البيان عطوفة شكيب ارسلان

حياة الامم كحياة الافراد عبارة عن مسابقة شاقة ينال فيها كل بحسب استعداده وعلى قدر اجتهاده ومن حيث اننا نتكلم الآن على الشعوب لا على افراد وعلى الوسائل التي تتوسل بها هذه الشعوب لاجل النهوض من الحضيض الاوهد الى السنام الامجد كان بديهيا ان نقول إن رأس وسائل النجاح في هذه المسابقة هو العلم . ليس في ذلك نزاع ولكن العلم فنون كثيرة لا تكاد تحصى فأي فن من فنون العلم يجب على الامة الناشدة لاسباب الترقي أن تنشده قبل غيره وتبدأ به لتعرج الى العلاء ؟ الجواب هو : الادب . وربما ذهب أناس من المفكرين الى أن رقي الامم يتوقف على العلوم الصحيحة أو ما يسمى بالعلوم الثابتة كالرياضيات او كالطبيعيات وما تفرع منهما وهو كلام من حقه ان يبحث وهو صحيح من حيث المآل ولكن المرحلة الاولى في طريق نجاح الامم هي للادب دون غيره وذلك لان الادب هو ثقاف النفس وصقال الهمة ومثار كوامن العزائم وهو المشتمل على نواحي الحياة الروحية كلها . فالنفس لا تتوق الى المعالي الا بالادب وهو المهماز الاعظم الذي يبعث النفس على الخب في ميدان المجد . ومتى اوجد الادب هذا الشوق الى المجد نشدت الانفس ضواله المتعددة اينما وجدتها ومن أي نوع كان . فكانت العلوم الكونية والمعارف الطبيعية وجميع الاسباب التي لا تترقى الامم الا بها النظم والنثر والزجل والامثال والحكم والقصص والتاريخ والاساطير وكل ما يهز النفس ويروقها ويثير فيها الوجد ويشوقها هي الوان الادب الذي لا مناص للامم التي تبغي العلاء وتتقي الفناء من استيفاء شروطه واستكمال ادواته حتى ترقى معارج المدنية وتتسق لها السعادة في الداخل والسيادة في الخارج .

وبعبارة اخرى العالم مركب من مادة ومعنى . فالمادة جامدة صلدة صامتة لا تعلق لها بالارادة ولذلك فهي تنتظر التصريف من عالم المعنى الذي هو المملكة الروحية القائدة المدبرة المرشدة الآمرة الناهية التي اذا تعلقت ارادتها بشيء مضت تطلب أسبابه المادية . فكان عالم المادة خادما لعالم المعنى خدمة الجسم للروح وكان مقدار هذه الخدمة على نسبة مقدار الارادة وقوتها . فاذا اشتدت الارادة في امر اطاعتها المادة فيه اطاعة بعيدة المدى عميقة الغور . واذا كانت الارادة فيه ضعيفة كانت طاعة المادة للارادة ضعيفة وجاءت خدمتها لها ضئيلة كما نشاهد من احوال الامم اللائي لا يزلن في دور الانحطاط فان استمرار قصورها منشأه الحقيقي فقدها لاسباب الرقي المادية من بخار وزيت وكهرباء وما اشبهها وفقدها لهذه الاسباب انما هو من ضعف ارادة هذه الامم في نشدانها وضعف هذه الارادة انما هو من

ضعف ملكة الادب فيها . اذ لو كان ناشئة هذه الامم يقرؤون من الاشعار ما يهز أوتار أعصابهم ويحفظون من الازجال ما يثير كوامن نفوسهم ويستظهرون من الحكم والامثال ما يوسع دائرة عقولهم ويطالعون من التاريخ ما يفسح آفاق تفكيرهم وما يقوي فيهم الرجاء ويدفع اليأس الى الوراء لكانت الامة ارقى حالا واشد على العلم اقبالا .

وقد يكون للقصص والاساطير ايضا وهي من المنازع الادبية عمل عظيم في انفسهم يسوقهم الى الكمال ويحفزهم الى المثل الأعلى لانه كما تقدم القول عليه لا تتحرك الارادة الا من بعثة روحية وعن نهضة نفسية وهذه انما يقتدح زنادها الادب وتلقح مزنها رياح النظم والنثر وتستنبط ينابيعها مطالعة التواريخ وتنشل كنائنها الازجال والاسجاع والاقوال التي تتسوغها الطباع والامثال التي تهفو اليها الاسماع .

فقولنا اذن إن الادب هو المرحلة الاولى من مراحل الحياة المستراد لمثلها انما هو القول الفصل المنحوت من اصفى مقاطع الحقيقة ولولا ذلك ما قال المؤرخون ان الثورة الفرنسية الكبرى ما كانت لتثور لولا الافكار التي زرعها فولتير وروسو وهما من أساطين الادب . ولما كان كارليل الكاتب الانقليزي يقول نحن الانقليز نرى شكسبير أنفس لدينا من الهند فانَّ هذا القول يبدو غريبا لمن لم يتأمله حق التأمل فيقول كيف ان فذا من أفذاذ الانقليز مهما علا في الادب كعبه وملك العقول سلطانه يكون لدى ادباء الانقليز اثمن من الهند التي تتوقف عليها عظمة بريطانيا العظمى كلها . ولكن من تعمق في النظر يجد ان شكسبير هو الذي بقصائده هز معاطف الامة الانقليزية فاوردها موارد الصفاء واصعدها مصاعد العلاء وحبب اليها الجمال والجلال واطمعها في القلم والكمال وان فتح الهند المشتملة على مئات الملايين من الانفس انما كان من ثمرات تلك الشجرة الادبية التي غرستها يد شكسبير في هذه الامة العظيمة

ولولا ان يكون الادب هو مصدر الانبعاث الروحي ما كان الالمان فتنوا بغوتة الى حد ان شبانا كثيرين انتحروا من شدة التأثر باحدى رواياته . وما كان بعضهم يقول ان الله عوض الالمان من المستعمرات بالافكار الفلسفية ومن الفتوحات العسكرية بالفتوحات العقلية وهذه كانت نتيجة الثقاف النفسي والصقال المعنوي وهو الادب الذي نحن بصدده والنهضة الفكرية والنهضة البدنية هما ابدا توأمان ولي من قصيدة :

والعرب لا تبدا بجمع جوعها   الا سمعت نشيدها وحداءها

هذا وما تبسطت امة في الفتح والاستعمار الا على اثر نغمات شعرائها ونبرات خطبائها ونفثات ادبائها فهم هم المحركون للساكن الموقظون للهاجع الناشرون للهامد الرافعون للمتضامن الحافزون للقاعد المتصرفون بقلوب الامة التي من بعد تصرفهم بها تتصرف بما لديها من مواد وخيرات على ايدي المهندسين والصناع والزراع وسائر العاملين بالمادة . واما العرب فلم يشذوا عن هذه القاعدة بل كان

الادب من أعمل العوامل في نفوسهم. ولن تجد لهم فضيلة من قبل الاسلام الا كان الباعث اليها الادب من شعر وقصة وعظة ومثل. فهذه هي التي رغبتهم في الفضائل ونفرتهم من الدنايا وهونت عليهم بذل المهج في حفظ الذمار وصون العرض واغاثة الملهوف والانتصار للضعيف وهي التي قدست لديهم قرى الضيف والايثار على النفس وكون الانسان يعطش الى ان يموت حتى يسقي اخاه النميري وهي التي جعلت البدوي المعدم المنتبذ قاصية الفلاة تضيق عليه مذاهبه وتضيق عليه نفسه وقد اقبل صوب خيمته ضيف هو عاجز عن قراه فقال :

(هيا رباه ضيف ولا قرى   بحقك لا تحرمه تا الليلة اللحما)

وابنه يراه في هذه الحيرة وهو غلام يافع فيقول لابيه . . (ايا ابت اذبحني ويسر له طعما) ويقول لابيه إلا تفعل يكن عارا كبيرا علينا فقد يظن الضيف اننا بخلنا عليه بالزاد ونحن نملكه . . (يظن لنا مالا فيوسعنا ذما) وان الرجل قد يهم بذبح ابنه لولا ان الله انقذه من هذه الورطة بمرور عانة ظباء اصمى منها بسهمه واحدة في ابان احتياجه الى القرى ولكنه كان قد حدث نفسه بذبح ابنه عند ما ضاق به الامر (وان هو لم يذبح فتاه فقد هما)

وما كان غير هذا الادب الموروث الذي تتناقله انسالهم خلفا عن سلف ولا يزال ملهج السنتهم وحديث اسمارهم والمثال الاكمل في انظارهم حاملا لهم على هذه المبالغة في اكرام الضيف والايثار على النفس. وكم قيل في هذا الباب من بيت رفع وضيعا وخفض رفيعا وكم رويت من قصة ترنحت لها الاعطاف وثملت بها الالباب من دون سلاف وكم سارت الركبان بحداء يتضمن من هذه الافعال النبيلة والمنازع العالية ما تنقطع دونه الاعناق حتى صار هذا الامر عندهم نهاية الشرف والسؤدد وصار المجد غير معقول من دونه وكم حدثوا عمن اوفى بعهده واتقى وتقلوا في سمر الليل من قصة في هذا الباب تتأرج بها الاندية. ورووا من مأثرة في الوفاء تطيب لها الانفس وترتفع الارؤس وذكروا اناسا ممن امن خائفا فاذا بهذا الخائف هو نفسه قاتل ولد الرجل الذي اجاره وامنه. ومع ذلك فبعد ان عرف هذا الرجل ان هذا الملتجيء هو نفسه كان قاتلا لولده لم يخفر عهده ولم يرض ان يغدر به. بل من هؤلاء المجيرين من ساعد المستجير على الفرار سرا في جوف الليل حتى لا تعلم به عشيرته فتفتك به وهذا في العرب كثير وله اماثيل قديمة وحديثة. ومنهم من كان عنده نزيل فوقعت واقعة بين ابنه وبين ابن ضيفه وكان من الصبيان الاغرار ففتك ابن المضيف بابن الضيف ولم يجد المضيف عند ذلك بدا من قتل ابنه ليخلص من عار القالة بان ولده قتل ولد ضيفه وليتقي سبة يرثها الاعقاب وتعير بها تلك القبيلة على مدى الاحقاب وهذا كابن مويت شيخ الضفير من عشائر العراق وهي معال لا يفهمها غير العرب ولا ترتقي همم الاعاجم الى ادنى درجاتها واذا رويت لغير العرب لم يفقهوا لها حديثا وقد يقدرونها قدرها ولكنهم لا يعملون بشيء منها مع انها عند العرب من الخلائق الطبيعية التي لا يتصور

وجود العرب من دونها وانما رسخ هذا في نفوس العرب وامتزج بدمائهم بكثرة ما ورد في شعرهم ونقل من سلفهم الى خلفهم وتراجزت به سقاتهم على افواه الموارد وتغنت به حداتهم في اجواز الفيافي وهو الشعر الذي اوجده الله احسن قيد للمعالي واثبت سجل للمآثر على حد ما قال حبيب الطائي :

ان المعالي والمساعي لم تزل … مثل الجبان اذا اصاب فريدا
هي جوهر نثر فان الفته … بالشعر صار قلائدا وعقودا
في كل معترك وكل مقامة … يأخذ منه ذمة وعهودا
فاذا القصائد لم تكن خفراؤها … لم ترض منها مشهدا مشهودا
من أجل ذلك كانت العرب الاولى … يدعون هذا سؤددا محدودا
وتند عندهم العلا الاعلا … جعلت لها مرر القصيد قيودا

وماكانت للعرب فعلة مجيدة الا اخذت من الادب عهدا ومن الشعر موثقا ولا دارت معركة ظهروا فيها على اعدائهم الا خلدتها اشعارهم وسارت بها ازجالهم وكانت حافزا لهم على مواقف مثلها . إنظر الى قصائد ابي تمام والبحتري والمتنبي وغيرهم في مغازى الخلفاء ومقاماتهم في الذب عن هذه الامة تجد فيها من العزة القومية ما يحرك الجماد ويزلزل الاطواد وذلك مثل قصيدة ابي تمام في فتح عمورية التي اولها .

السيف اصدق انباء من الكتب … في حده الحد بين الجد واللعب

ومنها

ابقت بنو الاصفر المصفر كاسمهم … صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

وقصيدته في ذكر تغلب العرب على العجم في يوم ذي قار قبل الاسلام

لهم يوم ذي قار مضى وهو مفرد … وحيد من الاشباه ليس له صحب
به علمت صهب الاعاجم انه … به اعربت عن ذات انفسها العرب
هو المشهد الفصل الذي ما نجا به … لكسرى ابن كسرى لا سنام ولا صلب

فاي عربي يسمع هذا الشعر ولا ترقص ناصيته ولا تهتاج مريرته عزة بقومه ونخوة بعصبيته ولا يستخف بالمنايا في سبيلهما ؟؟؟

وماذا نحصي من امثال هذه القصائد التي تغنى فيها شعراؤنا بمجد العرب وعليائهم فينطبع بها ناشئتهم على الغرام بالفتح والمجد ومعالي الامور وشرائف الاعمال ويعلمون انهم سلائل تلك الامة العظيمة الفاتحة . اننا ان حاولنا احصاءها كنا كمن يحاول إحصاء رمل عالج . وانما نجتزي هنا بمجرد الاشارة .

وقد بقي الشعر في العرب يرفع ويخفض وينصر ويخذل وهو أدب العرب الاسنى في الجاهلية

الى أن نزل الوحي على محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فنسخ الادب الالهي كل أدب قبله وأقرض الاخلاق ما كان مستحسنا وأبطل ما كان من حمية الجاهلية الجهلاء فاصبح الادب مقيدا بالشرع فاعتدل مائله ودجن نافره وسلكت به المحجة الوسطى وعدل عن شعاب الانحراف وترهات الاسراف فسار الدين مع الدنيا رفيقين وتجلت الاولى والعقبى توأمين . وبديهي أن أدبا اثمره الوحي وثقافا أنجبه القرآن وفصاحة غذتها فصاحة التنزيل لمما يفوق كل ادب آخر علما وعملا .

وقد شهد التاريخ العام للادب القرآني بخوارق العادة في أسلوبه وتأثيره ولم تكن هذه الفتوحات التي دهش بها المؤرخون ومكنت الاسلام من نصف المعمورة في نصف قرن لا غيره الا ثمرة هذا الادب العالي الذي كان يفعل بالالباب فعل الشراب وناهيك بآداب رسول الله وآله واصحابه حملة الويتها وعمار انديتها وقد قلت فيهم برثائي لجاحظ العصر مصطفى صادق الرافعي رحمه الله :

من ذا يطاول في البلاغة احمدا ... وصحابه وأبا تراب حيدرا

المعربين اذا ارادوا خاطرا ... عنه بأعذب ما يكون وأقصرا

والمانعين المسكرات وقولهم ... ما خامر الالباب الا أسكرا

نعم ان فتوحات الصحابة لم تكن كلها بجوامع الكلم وأوابد الشعر وكان العامل الاعظم فيها الصارم البتار وقد يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن . ولكن كم من كتابة أغنت عن كتيبة وكم من قول اغنى عن صول وكم من معركة كانت تدور الدائرة فيها على المسلمين لولا شعراؤهم وخطباؤهم وشواعرهم وأديباتهم وفرسان البيان منهم . وقد طالما لعب الشعر الحماسي ادوارا في هذه الفتوحات التي قلبت وجه العالم وطالما منع عنهم خوف العار واتقاء الاشعار هزيمة شنعاء وداهية دهياء ولله در المتنبي الذي يقول :

تلف الذي اتخذ الجراءة خلة ... وعظ الذي اتخذ الفرار خليلا

والعار مضاض وليس بخائف ... من حتفه من خاف مما قيلا

ولم تكن فائدة الشعر ومساجلات الشعراء ومحاضرات القصاصين والادباء منحصرة في اشارات نخوة المقاتلة وتهوين الموت على الغزاة في سبيل الله بل كان الادب متغلغلا في كل ناحية من نواحي الحياة الاسلامية لا يتحرك فيها متحرك ولا يسكن ساكن الا وللشعر والخطابة والبيان هناك الاثر البليغ والعمل العميق . وما كانت نهضة العرب العلمية في القرنين الثاني والثالث بعد الهجرة وتطاولهم الى الفنون والآداب والحكمة التي كانت للاعاجم الا من نتائج انتشار الادب العربي لاسيما الادب القرآني الذي فيه (ومن يوت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) . ولم تعول الدولة العباسية على ترجمة فلسفة يونان ونقل حكم فارس والهند والتبحر في العلوم العقلية والعددية والطب وغير ذلك من الاسباب التي أسست بها هاتيك الحضارة الباهرة التي كانت الاولى من نوعها طوال القرون الوسطى الا بعد ان امتلأ

حوضها بشعر أبي العتاهية وأبي نواس ومروان ابن ابي حفصة وبشار بن برد وأبي تمام والبحتري وابن الرومي ثم المتنبي والمعري وغيرهم من فحول الشعراء الذين كانوا يقظة في أبصار الدولة ولقاحا لخواطر الامة وكهرباء في اعصابها وبعد ان تدفق بعمرو ابن بحر الجاحظ وبهر سحر بيان ابن المقفع والصابي وابن العميد وامثالهم من كتاب العهد العباسي ومما لا مشاحة فيه أن المدنية الراقية لا بد لها من التحقق بالعلوم الصحيحة والعمل بها والاعتماد على الحقائق الكونية والتجاريب الراهنة مما يعبر عنه اليوم بالمذهب الواقعي . ولكن الادب هو الذي يصقل الاذهان ويشحذ القرائح وينبه نائم العزائم ويملا الحياة نشوة وسرورا ويجعل للمجتمع الانساني رونقا وبهاء ويشق الطريق الى المجد ويحمل وسائل الترقي والتوقي وما كثر في الدنيا شيء الا ابتذل الا الادب فانه كلما كثر علا وهو الذي يحلي صاحبه بحلية الكياسة وهو الذي يؤمن له طريق الرئاسة ولله در القائل :

ما حوى العلم جميعا أحد ... لا ولو مارسه ألف سنة
إنما العلم عميق بحره ... فخذوا من كل شيء أحسنه

فالادب هو صنعة الاخذ للاحسن من كل شيء وقد أجاد الآخر في قوله :

ما خلق الله لامرىء هبة ... أفضل من علقه ومن أدبه
هما حياة الفتى فان فقدا ... ففقده للحياة أليق به

وقديما قالوا ليكن علمك ملحا وأدبك دقيقا وحسبك في فضل الادب وشرفه قوله صلى الله عليه وسلم (أدبني ربي فأحسن تأديبي ثم أمرني بمكارم الاخلاق) فانت ترى ان مكارم الاخلاق هي من نتائج الادب وكفى بذلك للادب تكريما وتعظيما .

وخلاصة القول ان ارقي المجتمعات البشرية هي التي يشع فيها الادب ويعلو مناره وينتظم به القول مع العمل ويتآخي فيه الخيال مع الواقع وتسير به الحقائق الى جانب الرقائق فان الطبع البشري يأبى التمحض في منحى واحد ولا بد لرقي المجتمع من تاليف الاضداد وتعديل الاقسام حتى يحصل الاعتدال .

شكيب ارسلان

انتظروا ....

معالم التوحيد في القديم وفي الجديد

لامير الامراء سيدي محمد بن الخوجه

الخيـال

في الأدب العربي

بقلم الاديب الشيخ احمد المختار الوزير
المعلـم بمدرسة ترشيح المعلمين

« ٣ »

الخيال الاستحضاري القصصي

ولعلي في حاجة ماسة الى ذكر امثلة منوعة حتى لا يذهب كل قولي خلوا عاطلا من دلائل الاستقراء والصدق . وساختار من شعر عمر بن ابي ربيعة مثالا للخيال الاستحضاري القصصي . اذ هو شاعر القصة في ادبنا العربي . وطريفة جدا هذه القصة التي استحضرها خيال عمر وتحدث بها في قصيدة من غر قصائده اذ يقول

زعموها سألت جارتها ... وتعرت ذات يوم تبترد
أكما ينعتني تبصرنني ... عمركن الله ام لا يقتصد ؟
فتضاحكن وقد قلنا لها ... حسن في كل عين من تود
حسدا حملنه من شأنها ... وقديما كان في الناس الحسد
غادة تفتر عن اشنبها ... حين تجلوه اقاح او برد
ولها عينان في طرفيهما ... حور منها وفي الجيد غيد

❀ ❀ ❀

ولقد اذكر اذ كنا معا ... ودموعي فوق خدي تطرد
قلت من انت ؟ فقالت انا من ... شفه الوجد وابلاه الكمد !
نحن اهل الخيف من اهل منى ... ما لمقتول قتلباه قود ! !
قلت : اهلا انتم بغيتنا ... وتسمينا فقالت : انا هند
انما اهلك جيران لنا ... انما نحن وهم شيء احد
كلما قلت متى ميعادنا ... ضحكت هند وقالت : بعد غد

ما اشك ان هذه الابيات استرعت اسماعكم. وانكم استحليتم رنة تنغيمها الموسيقى العذب . وان قلوبكم ترقصت طربا لما في هذه الابيات من سرد حوار ممتع هـو من سر احاديث المحبين ونجوى العشاق المعاميد اذا انقطع بهم المكان وبعد عن عيون الرقباء وآذان الوشاة

واما اشك انكم تعجبون كل العجب من دقة هذا الشاعر في استحضار هذا الحوار بين هنـد وبين جارتها في شأن ما كان يصفها بـه من مجيد النعوت وحلو الصفات . فهند فخورة بجمالها العاري وهي ايضا فخورة بجمال الادب الرفيع الذي كان يطوق جيدها وصدرها الناهد. ويكلل جبينها الوضيء المتبلج . ثـم انكم لتعجبون من استحضار هذا اللقاء الذي ظفر بـه عمر . فاذا هو يسألها مستأنسا مترفقا . وفي تصون وعفة . عن اسمها . واذا هي تصارحه راضية بكل شيء بالاسم والنسب وبالمنزل والحمى وتتحـدث اليه بذلك مرتاحـة مطمئنة . وادعة هادئـة . بل ربما كانت عابثة لاهية . بل ربما كانت مستهزئة ساخرة .

هذا هو خيال عمر بن ابي ربيعة الشاعر القصصي الـذي ظهر في حواضر بلاد نجد بين تلكم الربا المعشبة الخضرة . والاودية المزدانة النضرة. فعاش متقلبا في اعطاف النعيم يلهو مع لذاته. ويمرح في مراتع الانس منقادا الى ضلال صبواته. ومضى في ميعة الشباب النشيط محبا للفراغ . مؤثرا للخلاعة. وما كان يدري انه سيعيش مفتونا باغلى محاسن الدنيـا . مفتونا بجمال المرأة . فما كان يفارق زهرة الا ليحط على زهرة . ومـا كان ينصرف عن رحيق وردة . الا ليقبـل بعواطفه وروحه على رحيق وردة . وهكذا لانه كان يتعشق معـاني الانوثة . وما ترمز اليه المرأة اكثر من المرأة . ومن يدري لعله كان يرى فى تغنيه بمحاسن امرأة واحدة ركودا . واسرا والشاعر من تعلمون اعزف الناس عن قيد الركـود . واسر الجمود . وبهذا القلب المشبوب عاش عمر للشعر والجمال . . وانتهـج نهج القصص فكـان صاحب فضـل في هـذا المنحى تقدم اليه ولـم يغلب عليه . عهـد كان والى هـذا العهد القريب .

الخيال الاستحضاري الوصفي

ولتكميل اطراف الموضوع ساختار مثالا للخيال الاستحضاري الوصفي من شعر ابي الحسن علي ابن العباس المعروف بابن الرومي . فهو شاعر الوصف في الادب العربي غير منازع رسخت في نفسه ملكة التصوير . وطبع خياله على التشخيص والتجسيد . واستعراض الكائنات في حلل من خصائص ميزاتها . وشاراتها . والوانها . فاذا تعرض لوصف شيء ملا عينيه وقلبه بكل ما قد احتواه واشتمل عليه . وتـناول منه الخفي والظـاهر والجواهر والاعراض . والحركة والسكون . وما دون هذا كله من الدقائق التي لا يتفطن لها احساس غيره .

ولقد اعان ابن الرومي على نبوغه في فنه الكامل ، طفولة عرائزه ، وقوة حواسه ويقظات شعوره التي لا قرار لها ولا سكون ، فليس يغيب عنه شيء الا ادركه ، وليس يدرك شيئا الا تاثر به وتلهى بالاقبال عليه ، وفحصه من كل جانب .

فلابن الرومي حاسة ذوق تدرك الحلو والمر وتعرف كيف تستحلى حلاوة الحلو وكيف تعاف مرارة المر وله حاسة سمع منتبه لمختلف الاصوات تدرك الغليظ الفاحش وتستنكره وتدرك الرقيق الرخيم وتستلذه وتستعذبه ، وله حاسة بصر عميقة متأثرة فاحصة مستوعبة تتفقد مواضع الملاحة وتقدر الجمال ولا يفوتها الاقتباس من فتنة لمحاته الخاطفة وانواره المشرقة وقل ان شئت كان ابن الرومي مزودا بغريزة حب الاستطلاع ، وكان ذا فن غزير ، فكان ينحت اوضاع وحدته وعناصر معانيه من اصفى المقاطع ويفتن في تأليف والانسجام بقدرة كاملة وذوق صحيح .

وسترون على ضوء هذا التصدير ما قد امتازت به شاعرية ابن الرومي اذ يقول في وصف يوم خرج فيه مع اثنين من الاصدقاء لصيد الطيور .

وقد اغتدى للطير والطير هجع ولو أوجست مغداى ما بتن هجعا
بخلين تما في ثلاثة اخوة جسومهو شتى وارواحهم معا
اذا ما دعا منا خليل خليله : بافديك لباه مجيبا فاسرعا
كأن له في كل عضو ومفصل وجارحة قلبا من الجمر أصمعا
فثاروا الى آلاتهم ، فتقلدوا خرائط حمرا تحمل الشم منقعا
محملة زادا خفيقا مناطه من البندق الموزون قل واقنعا
وقد وقفوا للحائنات وشمروا لهن الى الانصاف سوقا واذرعا
وجدت قسي القوم في الطير جدها فظلت سجودا للرماة وركعا
وظل صحابي ناعمين ببؤسها وظلت على حوض المنية شرعا
طرائح من سود وبيض نواصع تخال اديم الارض منهن ابقعا
نؤلف منها بين شتى وانما نشتت من الافها ما تجمعا
فكم ظاعن منهن مزمع رحلة قصرنا نواه دون ماكان ازمعا
وكم قادم منهن مرتاد منزل اناخ به منا منيخ فجعجعا
هنالك تغدو الطير ترتاد مصرعا وحسبناها المكذوب ترتاد مرتعا
ثوب بها قد امتعتنا وغادرت من الطير مفجوعا به ومفجعا



انه لا يقول شعرا في هذا القصيد ولكنه يزخرف صورا حية ناطقة ، مفعمة بالمناظر والاشكال

والحركات والسكنات . فقد خرج مع رفقة من خيرة الاصدقاء صدق مودة . ومكين حب . وبكروا في غبش الفجر حين كانت الدنيا ما تزال هادئة ساكنة يلفها الليل بشف الاستار . وينشر عليها الصبح شعاعا رقيقا من شعلة الانوار . وحين كانت النسمات الندية تنبه غفلات الاطيار . فتلمس اجنحتها لما رفيقا وهن ما يزلن هجعا بالاوكار . وما كانت الحائنات تدري ولا كان الانسان يدري ما تخبئه الاقدار

والويل للطير . فقد شمر هؤلاء الرفاق للصيد وكشفوا الى الانصاف سيقانهم وادرعتهم ذلكم ليكون اسرع في تصويب السهام والملاحقة واعملوا في الطيور الحائنات سهامهم فراشوا في الصميم ألوفا كانت مؤلفة . فاصبحت الى الفرقة والشتات . وهكذا ظلت الطيور تهوي ساجدة راكعة للرماة . قل انظروا فهناك السود والبيض ترقشت بها مطارح الارض الخضراء . فما كان احفله من منظر فرح به الاصدقاء فراحوا يجمعون هذه الطرائح في ثمول من النشوة الظفر بخير تأميل ورجاء

أليس هذا شريطا مؤلف الصور من الحركات والسكنات والاشكال والمنازع ؟ ولم ينس ابن الرومي ان يتحدث الينا بما كان يحسه نحو الطير المسكين من الاحساس الاليم . فقد كان قبيل حين وادعا مطمئنا هاجعا في اوكاره او حائما او محلقا يتخير المنازل ويرتاد المراتع . فما هي الا ساعة حتى راشته السهام . فسقط يتمرغ من حرارة الضرام . وترك من الطير مفجوعا به ومفجعا .

تلكم هي عبقرية ابن الرومي التي اجابها الوصف . وابدع في التصوير كل الابداع . الا يخيل اليك انك معه بيقظات شعورك . وانتباه خاطرك . يقول استاذنا العقاد « واذا كانت هذه قدرة ابن الرومي على خلق الاشكال للمعاني المجردة او خلق الرموز لبعض الاشكال المحسوسة . فان القدرة التي سبق بها الشعراء في الامم كافة بغير شك ولا تردد هي قدرته البالغة على نقل الاشكال الموجودة كما تقع في الحس والشعور والخيال او هي قدرته على التصوير المطبوع لان هذا في الحقيقة هو فن التصوير كما يتاح لانبغ نوابغ المصورين . فلست اعرف فيمن قرأت لهم من مشارقة ومغاربة او يونان اقدمين واروبين محدثين شاعرا واحدا له من الملكة المطبوعة في التصوير مثل ما كان لابن الرومي في كل شعر قاله مشبها او حاكيا على قصد منه او على غير قصد . لانه مصور بالفطرة المهيأة لهذه الصناعة . فلا ينظر ولا يلتفت الا تنبهت فيه الملكة الحاضرة ابدا . واخذت في العمل موفقة مجيدة . سواء سهر عليها او سها عنها . كما قد يسهو المصور وهو عامل في بعض الاحايين »

(يتبع)

احمد المختار الوزير



من رياض الادب

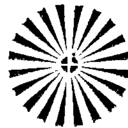
بمناسبة ختم السنة الدراسية بالمعهد الزيتوني القى الشعراء الفحول بمذياع تونس البريدية قصائد من غرر الشعر وابدعه في تهنئة الناجحين والتنويه بشان جامع الزيتونة المعمور وعلومه

قصيدة الاديب الكبير
الشيخ العربي الكبادي

دخلت بيتي واستوحيت وجداني ... لكي يجود بياقوت ومرجان
من القريض الذي تبقى مآثره ... ما دام بالارض آثار لانسان
حتى اطوق اجيادا قد اتصفت ... بالسبق اربابها في خير ميدان
من كل اروع في عرنينه شمم ... ذي همة اقعدته فوق كيوان
يا فتية اسهروا الاجفان وارتضعوا ... ثدي المعارف في سر واعلان
زرعتم فحصدتم ما يشرفكم ... من فاخر السبق في مضمار عرفان
ايقنتم بنشاط المرء رفعته ... ولا يتاح العلا يوما لكسلان
فكنتم لكتاب الدرس من شغف ... سفرا يضم الذي فيه باتقان
والعلم انواعه شتى فما احد ... يحويه طرا ولو مع طول ازمان
وخير انواعه ما جر منفعة ... يوم الجزاء وفوزا عند ديان
ينيل من اخلصوا في حال طاعته ... وراقبوه باتقان واحسان
وهؤلاء هم القوم الذين لهم ... تعلق بعلوم الدين ذو شان
قوم بجامعنا المعمور ما فتحت ... على نظير لهم في الارض عينان
يمم اذا شئت عند الصبح معهدهم ... او المساء تجدهم جد ظمآن
الى العلوم التي تفضي بصاحبها ... بعد الممات الى روح وريحان
ما بين فقه وآداب مهذبة ... وبين نحو وتفسير لقرآن
وسنة سنت الاخلاق طاهرة ... من كل ما شان من زور وبهتان
وليس ذاك بمقصيهم ومانعهم ... مما يروقهم بالعالم الفاني
ما دام في حيز الشرع الذي نزلت ... آياته الغر في رشد وتبيان
ومن يكن لسبيل الشرع متبعا ... فليس يثنيه عن نيل العلا ثان

قصيدة الاديب النابغ
الشيخ الطاهر القصار

قم في الدنيا وحيي الجامعا — وانشر هناء الناجحين بدائعا
وانشر مديح ذوي الدراية والحجا — أرجا يعم نواديا ومجامعا
وانظمه في نحر الزمان قلائدا — جمعت من الشعر البليغ روائعا
فالعلم يبني كل ملك باذخ — ويغادر الجهل الديار بلاقعا
ولتونس في العلم اعظم معهد — غمر البلاد مكارما وصنائعا
فلجامع الزيتونة المجد الذي — اضحى لمختلف المفاخر جامعا
جمع الشباب سوابقا نحو العلا — والاتقياء سواجدا ورواكعا
هذي الدهور شواهد بعلائه — فلينكر الطرف الكليل الواقعا
في كل عام هزة لنتاجه — تذر القلوب من الحبور سواجعا
اسمع به وابصر فها قد اطلعت — جناته زهر الثقافة يانعا
فتأرجت مدن الشمال بعرفها — وغدا بها طير البشارة ساجعا
والناس قد طفحت لذاك وجوههم — بشرا واعينهم سناء ساطعا
اعظم بختم الجامع السامي الذرى — من مشهد يدع النفوس خواشعا
حفل به برزت خلائف يعرب — متقاسمين فخار سبق واسعا
متسلمين من المكارم خيرها — متقبلين من العلوم ودائعا
حفل تكلل بالكرام جبينه — وحوت مظاهره الجلال الرائعا
نظمت به آي العلوم كواكبا — غررا تلألا في الفضاء لوامعا
فليهنا ابناء الشمال بفوزهم — وينشئوا فوق النجوم مرابعا
ولتسعد الخضراء بالبيت الذي — اسدى لطلاب النهوض منافعا
وليمرح التاريخ تيها وليقل — قم في فم الدنيا وحيي الجامعا



قصيدة الاديب الفحل
الشيخ بلحسن بن شعبان

هو العلم فابذل ما استطعت له جهدا ... ولا تتخذ شيئا سوى نيله قصدا
وجرد لـه عزما وكن في سبيله ... صبورا على حمل العنا يقظا جلدا
فانت بـه عال الى منتهى العلا ... وانت بـه مستقبل زمنا رغدا
فعقبى اقتناء العلم فوز محقق ... ونيل امان لست تدري لها حدا
بـه يبلغ الانسان اقصى مرامه ... به كم بنى من لم يكن ماجدا مجدا

❁ ❁ ❁

الا حي من قد احرزو في مجاله ... مفازا وأكبر فيهمو الحزم والجدا
فقد حمدوا اليوم السرى وتكللت ... مساعيهمو بالنجح واستعذبوا الوردا
واثمر جهد قد اتوه مضاعفا ... واسدى لهم من خالد العز ما اسدى
وعادوا الى اهليهمو في مسرة ... وكل غدت ازكى التهاني له تهدى
فذلك تحصيل وذا عالميه ... وهذا حوى اهلية توقظ الكدا
ايا جامع الزيتونة السامي الذرى ... لقد كنت في خضرائنا العلم الفردا
بنوك لقد اضحوا بذا القطر انجما ... تنير الدجا الا استطيع لها عدا
وادوا كما ترجوا وسالتك التي ... تقلدتها واستوجبت في الورى حمدا
بهم لم تزل تزدان كل مهمة ... بهم معقل العليا تدعم واشتدا
فما انت الادوحة تثمر المنى ... وتنشر من شتى المعارف ما اجدى
فلا زلت حصن الدين واللغة التي ... بفضلك لم تبرح لنحر العلا عقدا

❁ ❁ ❁

اتيناك في مضى فافضت من ... عوارف لا تبلى واكسبتنا رشدا
لدى حلقات يزخر العلم عندها ... ويظفر بالمرغوب من رامها وردا
رعى الله عهدا فيه شبت عقولنا ... واشياخ علم زينوا ذلك العهدا
وان انس لا انسى جميل صنيعهم ... ولست مضيعا ما حييت لهم ودا
واني لمن ابدى الجميل لشاكر ... ولن تبصروا منى لمعروفه جحدا



القضاة الشرعيون

في القديم

بقلم العلامة الجليل الشيخ محمد
البشير النيفر الاستاذ بجامع الزيتونة

العالم النحرير الكاتب المجيد المدرس الشيخ سيدي محمد الشاذلي ابن القاضي مدير المجلة الزيتونية حفظه الله السلام عليكم ورحمة الله وبعد فقد قرأت ما نشر بمجلتكم الغراء بقلم العلامة البحاثة المؤرخ سيدي محمد بن الخوجة من تاريخ القضاء الشرعي بالحاضرة وأسماء من تقلد هذه الخطة من منتصف القرن الثاني عشر الى اليوم من أهل المذهبين وكنت جمعت تراجم مفصلة لهؤلاء على ما انتهى اليه بحثي فللمالكية من منتصف القرن السادس للهجرة الى اصيل القرن الثالث عشر وللحنفية من القرن الحادي عشر الى أصيل الثالث عشر أيضا فرأيت تكملة للفائدة أن أقدم اليكم خلاصة وجيزة منه لتنشر وها هي ذي تصلكم مبتداة بأقدم قاض وقفت على اسمه والله يتولى حفظكم واعانتكم والسلام من عبيد ربه محمد البشير النيفر وكتب في التاسع والعشرين من جمادى الاخرة سنة ١٣٥٨

١ ـ الشيخ أبو الحسن علي بن احمد الابي

كان هذا القاضي على عهد عبد المؤمن بن علي الذي اقام في الامارة ثلاثا وثلاثين سنة وثمانية اشهر وخمسة عشر يوما وتوفي سنة ٥٥٨ قال الزركشي في كتابه تاريخ الدولتين (ص ٩) اثناء الكلام على دولة عبد المؤمن :

وانشد قاضي تونس ابو الحسن علي بن احمد الابي بعد وقعة وقعت في الاعراب وهزيمة في خبر يطول :

ولى الشباب امام الشيب منهزما   فذا يصول وذا يشتد في الهرب اهـ

٢ ـ ابو عبد الله بن زيادة القابسي

هو من قضاة الامير ابي زكرياء يحيى قال الزركشي في تاريخه (ص ١٨) : وفي الموفى ثلاثين لشهر رمضان من سنة خمس وعشرين وستمائة عزل ابو زكرياء يحيى قاضي الجماعة بتونس طلب من السلطان ذلك وقدم عوضه أبا عبد الله ابن زيادة الله القابسي اهـ

٣ - ٤ - ابو القاسم المريش وعبد الرحمن بن نفيس

هما من قضاة الامير ابي زكرياء ايضا . قال الزركشي في تاريخه (ص٣٣) : وفي سنة ٦٤٠ اخر المولى ابو زكرياء ابا القاسم المريش عن قضاء تونس وقدم عوضه عبد الرحمن بن عمر بن نفيس اه وتوفي الشيخ ابن نفيس سنة ٦٨٢ قاله الزركشي (ص٣٩)

٥ - عبد الرحمن بن علي التوزري المعروف بابن الصائغ

ولي القضاء على ما في تاريخ الدولتين (ص٢٣) يوم الاربعاء ثاني صفر سنة ٦٤٦ بعد ان صرف عنه الشيخ عبد الرحمن ابن نفيس وتوفي على ما في تاريخ الدولتين (ص٢٩) سنة ٦٥٩

٦ - ابو القاسم بن علي بن عبد العزيز بن البراء المهدوي

ولي القضاء على ما في تاريخ الدولتين (ص٢٦) سنة ٦٥٧ بعد ان صرف عنه الشيخ عبد الرحمن ابن الصائغ وبيت هـذا القاضي من بيوتات العلم والوجاهة بتونس . قال الشيخ احمد بابا في نيـل الابتهاج في ترجمة حفيده عبد الله نقلا عن الشيخ خالد في رحلته ما نصه :

هو الشيخ الفقيه الخطيب ابن الشيخ الفقيه من بيت علم وادب ، ومجد وحسب . قطفوا ثمار المجد من غرس العـلى ، واليهم الرتب والمنتهى ، فهم لباب مجد عزة انفس وذكاء ألباب ، ما منهـم الا عالم اوحد ، لا ينعت ولا يحد ، والقاضي ابو القاسم به سفر مجدهم ، وهو الذي عمر ربع الملك ، وامر بالحياة والهلك ، وذبح القرطاس وفوف ، ودرس العلم وصنف اه وكانت وفاة الشيخ ابي القاسم على ما في تاريخ الدولتين (ص٣٣) سنة ٦٧٧

٧ - ابو موسى عمران بن معمر الطرابلسي

قال الزركشي في تاريخه (ص٢٦-٢٧) : وفي سنة ٦٥٧ عزل السلطان القاضي عبد الرحمن عن قضاء تونس وقدم الفقيه ابا القاسم بن البراء المهداوي ثم اخره عن القضاء وقدم ابا موسى عمران بن معمر الطرابلسي وكان فقيها صالحا حسن الاخلاق وطيء الجانب حافظا للمذهب عارفا بالمسائل بصيرا بالاحكام ولي قضاء بلدة طرابلس والخطبة والصلاة بجامعها ثم نقل عنهـا الى قضاء تونس سنة ٥٨ فلم يزل قاضيا الى ان توفي اه ورايت له ترجمة مختصرة في كتاب التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الاخبار ، (ص١٧٥) وفيه انه ابو موسى بن عمران ، ومما جاء فيها انه كان . . . فقيها عالما تولى القضاء بطرابلس نيفا وثلاثين سنة واستن فيه بسنة اهل الفضل والعدل ، وانـه كان ذا اخلاق جميلة وسيرة

حميدة . . . . ارسل له الخليفة الحفصي سنة ثمان وخمسين وستمائة فوصله بتونس فولاه القضاء بها واقام نيفا وعشرين شهرا ثم توفي رحمه الله سنة ستين وسبعمائة اه والصواب ان وفاته سنة ٦٦٠ وكانت عاشر شهر ربيع الآخر على ما في تاريخ الدولتين (ص ٢٩)

٨ ــ ابو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم المهدوي المعروف بابن الخباز

ولي القضاء على ما في تاريخ الدولتين (ص ٢٩) بعد وفاة أبي موسى الطرابلسي ثم صرف عنه في ثالث شهر رمضان سنة ٦٦٢ ثم اعيد اليه في التاسع والعشرين لذي القعدة سنة ٦٦٧ وتوفي على ما في تاريخ الدولتين (ص ٤٠) بالمهدية في ٢٧ من جمادى الآخرة سنة ٦٨٣

٩ ــ احمد بن محمد بن الحسن الشهير بابن الغماز

ولي القضاء للمرة الاولى بعد ان صرف عنه إبن الخباز في ثالث شهر رمضان سنة ٦٦٢ ثم عزل رابع شوال سنة ٦٦٧ .

وهذا القاضي من افذاذ رجال العلم ، وهو أنصاري خزرجي ولد ببلنسية يوم عاشوراء سنة ٦٠٩ واخذ عن جماعة من شيوخ الاندلس ثم قصد بجاية واتخذها وطنا واشتغل فيها بالتوثيق ثم استوطن تونس واشتغل فيها بالتوثيق ايضا ثم ولي قضاء بجاية ، وكان في القضاء مثال الزعامة في الحكم والدراية بادارة رحاه على قطب السياسة الحاضرة مع حفظ الحق ان يهضم ، وتبين للناس تفوقه على من جاء قبله من رجال القضاء .

ومن اجمل ما تركه أثرا يذكر ويشكر أن جيش بجاية اتحد بجيش افريقية لحصار مليانة فاصبحت البلاد خالية من الجند وطلع قرن الفتنة والهرج من الخارج فتداركها رحمه الله بتدبيره وجده وحصر النار في مواقدها وقد خاف الناس ان تنتشر وأدار الخندق بالبلاد وشيد من اسوارها ما كان محتاجا الى التشييد .

وهذه حجة قيمة على من يزعم أن أهل العلم لا طاقة لهم أن ينهضوا بالامور العامة .

ولما عادت السيوف الى اغمادها دعي رحمه الله الى تونس فقلد القضاء في كثير من بلادها ثم قدم الى قضاء الحاضرة في شهر رمضان من سنة ٦٦٢ وقد اسلفناه قريبا وتكررت ولايته الخطة وصرفه عنها نحوا من سبع مرات قاله ابن فرحون في الديباج

وقال في عنوان الدراية : ولم يزل يخلع القضاء بحاضرة افريقية ويلبسها خلعا احسن من لبس ولبسًا أحسن من خلع لانه كان لا يخلعها الا لمثلها وما هو اسنى منها ، ولم يكن الخلع لشيء اصلا اه

وكان اول صرف له عن الخطة رابع شوال سنة ٦٦٧ وآخر ولاية له في تاسع عشر شهر رمضان سنة ٦٩١ وتوفي عليها وقدم فيما بين التاريخين الى العلامة الكبرى سنة ٦٧٧ على عهد ابي اسحاق بن ابي زكرياء . وسمت منزلته في قلب السلطان ابي عبد الله محمد ابن الامير ابي زكرياء الملقب بالمستنصر بالله واصطفاه رسولا منه الى بعض ملوك المغرب وكانت وفاته يوم الخميس عاشر المحرم سنة ٦٩٣ ودفن بمقبرة الشيخ عبد الرحمن المناطقي بالحاضرة .

١٠ ـ احمد الشهير بالمفسر

ولي القضاء بعد ان صرف عنه ابن الغماز رابع شوال سنة ٦٦٧ ثم عزل في التاسع عشر من ذي القعدة في السنة نفسها واعيد الى القضاء ابن الخباز .

١١ ـ ابو محمد عبد الحميد بن ابي الدنيا

ولي القضاء بعد عزل ابن الغماز في رجب سنة ٦٧٩ ثم صرف عنه في شهر رمضان من هذه السنة نفسها وهذا القاضي من افذاذ رجال العلم والدين وهو طرابلسي الاصل تفقه بطرابلس الغرب على ابن الصابوني ودخل المشرق مرتين ورجع الى طرابلس بعلم جم فتصدر للتدريس بها واخذ الناس عنه الفقه واصوله واصول الدين وهم ممن ينكر المنطق من علماء الاسلام . ولما اشتهر ذكره دعي من بلاده الى تونس فدخلها عزيزا كريما وولي بها القضاء قال في عنوان الدراية : وهو ممن يتجمل القضاء به لاهليته الدينية والعلمية اه وتوفي في السادس والعشرين من شهر ربيع الاول سنة ٦٨٤ ودفن بالزلاج قال الزركشي وتلمح العلامة ان عند رأسه سارية طويلة فيقولون قال صاحب هذا القبر اجعلوا لحدي بقدر علمي يريدون كبر درجته في العلم اه قلت وهو بعيد لان الرجل كان في الدين بالمقام الذي لا يدنو منه الاعجاب بالنفس ومن كلام الغبريني في عنوان الدراية فيه : وديانته وصيانته وورعه معلوم لا شك فيه اه وفي كتاب التذكار (ص ١٧٦) ان الخليفة المستنصر الحفصي اظهر تغيرا له في بعض الاوقات .

(يتبع) محمد البشير النيفر

المجلـة

تطلب وكلاء في المدن التي لم تبق تصل اليها المجلة فمن آنس من نفسه الاستعداد والمقدرة يخاطب ادارتنا باسم امين مال المجلة

ان الدين عند الله الاسلام

مراحل التشريع الاسلامي
بين مكة والمدينة

ان الله تعالى شرع الدين لتصفية أرواح البشر، وتخليصهم من شوائب الضلال، وتطهير عقولهم من الادران التي تعلق بها، لتتمحض للاعتقاد الصحيح، وتصلح للعبادة والطاعة، وتخلص اعمالها لله وحده، وتتهذب لحسن المعاشرة بالمعروف، فالدين هو ركن الاصلاح، ونبراس الهداية، والدواء الناجع لامراض النفوس، والرابطة المتينة التي تجمع البشر على الخير، وتصل بهم الى السعادة العظمى.

وتعاليم الدين مجموع امور ثلاثة، ما يحصل به الاعتقاد الصحيح، وما تتهذب به النفوس، وما يتم به حسن المعاشرة الخاصة والعامة، وهي التكاليف الشرعية الموسومة ايضا بالملة والشرع على اختلاف في الاعتبار.

قال ابو اسحاق الشاطبي في الموافقات ان الشريعة ترجع الى حفظ المقاصد التي يكون بها اصلاح الدارين وهي: الضروريات والحاجيات والتحسينيات وما هو مكمل لها ومتمم لاطرافها.

وقد اطلق القرءان اسم الاسلام على الدين الحق الخالص من كل شائبة قال تعالى: ان الدين عند الله الاسلام وهو الدين الذي جاء به الرسول لهداية البشر فخلصت به معتقدات متبعيه وكانوا على بينة فيما حملهم الرسول عليه وتمسكوا به، واسلموا وجوههم لباريء الكائنات واحسنوا في اعمالهم ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا.

واسم الاسلام يتناول سائر الشرائع السماوية الخالصة من شائبة التحريف التي خلصت معتقدات البشر فاصبحوا على بينة من الحق فالحق واحد والدين في اصله ومغزاه واحد وجاء التبديل من بعد فترتب عليه التغاير قال تعالى انا انزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين الا لله الدين الخالص وقال تعالى: وما ارسلنا من قبلك من رسول الا يوحى اليه انه لا إله الا انا فاعبدوني. وجاء التماثل في اصول التشريع قال تعالى: شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه. ومثل ذلك ما شرع في اصول العبادة يرشد اليه ما جاء في قوله تعالى مما خاطب به موسى (صلعم) انني انا الله لا إله الا انا فاعبدني واقم الصلاة لذكري.

وفي اصل مشروعة الصيام ما خاطب به القرءان المسلمين بقوله تعالى كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون.

وفي مشروعية الحج وبيان امده ووقته قال تعالى: الحج اشهر معلومات. علموها من شريعة

ابراهيم عليه الصلاة والسلام، وقال تعالى في بيان نوع من التشريع لامة خلت فيما يتعلق بالعقوبات وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والسن بالسن والعين بالعين والجروح قصاص . وقال سبحانه في التشريع الاسلامي ولكم في القصاص حياة . وقال تعالى بعد ذكر الانبياء عليهم السلام اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده خطابا للنبيء صلى الله عليه وسلم . وقال سبحانه في حق المسلمين . يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم. وعلى هذا الاصل نقول ان الشرائع متحدة في اصل العقيدة واصول الطاعات . متحدة في العناية بتهذيب النفوس ونشر الاخلاق الكريمة ، فان الله واحد لا شريك له. وصفاته سبحانه ازلية قديمة لا تبديل فيها ، ويوم الجزاء بما اشتمل عليه ثابت لا يتغير. واستحقاق المنعم للشكر والطاعة قضية مسلمة لاخلاف فيها قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون والفضيلة في نفسها فضيلة مرغوب فيها على الدوام والرذيلة رذيلة لا تنقلب فضيلة . وانما التخالف في الملابسات . وعلى هذا القياس

والتغاير بين الشرائع فيما هو اخص من ذلك انما التغاير في فروع الشرائع والعوارض الطارئة في التكاليف والتكاليف انواع القسم العظيم منها يرجع الى الحياة العامة او الخاصة ومنها ما يتصل بهيئة العبادة وتنويعها والتحريم والتحليل حسب المصلحة التي تقتضي ذلك مما يعود بالنفع العام على الناس وذلك قوله تعالى : ولكل منكم جعلنا شرعة ومنهاجا. فهو يرجع الى فروع الملة على ما اقتضته الحكمة من اوجه الحفظ والرعاية المتنوعة فان حالة البشر لم تكن متناسقة في جميع العصور فكان هذا مدعاة لاعتبار المراحل في تبليغ الملل. والرسل قد قطعوا بالبشر المرحلة تلو المرحلة على حسب الاستعدادات التي كان عليها الناس حتى كانت خاتمة المراحل التي انتهى اليها البشر فجاء التشريع العام الذي يصلح لكل عصر وفي كل مصر بما اوحاه الله تعالى لخاتم الرسل عليه الصلاة والسلام

وبهذا نعلم انه لا تفاضل بين الشرائع من حيث اصل التكليف ضرورة أن مصدر جميعها واحد وهو الله تعالى فهو سبحانه الذي ارسل الرسل وأوحي اليهم بالشرائع التي اتت كل واحدة منها ملائمة للحالة الاجتماعية التي كانت عليها الامة المرسل اليها طبق الحكمة الالهية التي ربما تخفى على بعض العقول وحيث ثبت التغاير من جهة الفروع جاء وصف التفاضل منظورا فيه الى التشريع السابق واللاحق بالنسبة للامة من حيث وطأة التكاليف ويسرها وسهولتها فنعت الشريعة بهذا الوصف ينبغي ان يكون من هذه الجهة لا من الجهة الاولى واحسب ان هذا لا يخالفني فيه مخالف

وبهذا نعلم ايضا وجهة النظر في جواز تفضيل بعض الانبياء على بعض وعدم الجواز

فباعتبار انهم رسل ارسلهم الله بشرائع لانارة سبل الهداية فلا تفاضل بينهم وعليه جاء قوله عليه الصلاة والسلام لا تفضلوني على الانبياء وقوله لا تفضلوني على يونس بن متى

وباعتبار ما يلاقونه في سبيل الدعوة من المشاق المتفاوتة وما اودع الله في نفوسهم من الصبر

لتحمل اعباء الرسالة وشدة صبرهم على تحمل الاذاية من المعاندين المكابرين فهم متفاوتون في المزية كتفاوتهم في الخصائص والصفات فمنهم اولوا العزم ومنهم من خصه الله بصفة الخلة ومنهم من كلمه الله ومنهم من خصه بالشفاعة العظمى يوم المحشر . فهذه المزايا وهبها الله تعالى لاصفيائه من خلقه والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم

ويتبع ذلك ما خص به تعالى هذه الامة وميزها به من طرق الهداية وشرفها بخاتم الرسل وخاتمة الاديان وجعلنا امة وسطا شهداء على الناس وجعل الرسول علينا شهيدا قال تعالى في معرض التفضل والامتنان وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا . قال المفسرون وسطا اي خيارا

فتلك منازل الشرف التي قصرت عنها سائر المنازل وسمانا سبحانه المسلمين على لسان رسوله وعلى لسان ابراهيم من قبله عليهما الصلاة والسلام فاكرم بها من نعم لا نحصى ثناء وشكرا عليها

واعلم ايها الراغب في الخير المتطلع الى السعادة ان الله تعالى شرع لنا هذا الدين الذي شرفنا به وانزله على رسوله العظيم في ارض الحجاز . وقد كانت مدة التشريع اثنتين وعشرين سنة وبضعة اشهر .

واول التشريع كان نزوله بمكة ام القرى . وهو يشتمل على معظم القواعد الكلية . وكان اولها تصحيح العقيدة واقامة البراهين على ان الله هو الواحد الاحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً احد . ليس كمثله شيء وهو السميع البصير قل لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا

ثم تبعه ما هو من الاصول العامة كالصلاة وانفاق المال والترغيب في ثوابه تعالى والترهيب من غضبه واليم عقابه والنهي عن كل ما هو كفر او فسوق

ثم جاء التشريع بما يتعلق باصلاح النفوس وتهذيبها والحث على مكارم الاخلاق التي بعث صلى الله عليه وسلم ليتممها بالقول والفعل . قال عليه الصلاة والسلام بعثت لاتمم مكارم الاخلاق . وقال تعالى : وانك لعلى خلق عظيم

والعناية باصلاح النفوس مقصد عظيم واصل من اصول التشريع الاسلامي ولذلك جاء متصلا باصلاح معتقد الناس يامرهم بمحاسن الاخلاق كالعدل . والاحسان والوفاء بالعهد . والعفو . والاعراض عن الجاهل . والدفع بالتي هي احسن . والخوف من الله تعالى . والصبر والشكر . وصلة الرحم وكل معروف . ويحذرهم من مساوي الاخلاق كالفحشاء والمنكر . والبغي . وقول الزور . والتطفيف في المكيال والميزان والفساد في الارض . والزنا . وقتل النفس بغير حق . ووأد البنات . وقيل وقال . وكثرة السؤال . واضاعة المال الى غير ذلك من الصفات

وقصة ابي سفيان مع هرقل عظيم الروم قد جاء فيها ان هرقل سأل ابا سفيان . وقال له ماذا

يامركم (يعني بـه النبيء صعلم) قال ابو سفيان قلت : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا بـه شيئا واتركوا ما يعبد آباؤكم . ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة

وكانت المدة التي وقع فيها التشريع بمكة اثنتي عشرة سنة وخمسة اشهر وبضعة ايام تبتدىء من السابع عشر من شهر رمضان سنة احدى واربعين من ميلاده عليه الصلاة والسلام وتنتهي في ربيع الاول سنة اربع وخمسين من الميلاد وهي نفس المدة التي اقام فيها بمكة بعد البعثة وقد اطلق العلماء على التشريع في مكة انه التشريع الاجمالي المتضمن لمعظم القواعد الكلية . والجزئيات المشروعة بمكة قليلة

والمرحلة الثانية في التشريع كانت بعد الهجرة ومدة التشريع فيها تسع سنين وتسعة اشهر وبضعة ايام . تبتديء من ربيع الاول سنة اربع وخمسين من ميلاده صلى الله عليه وسلم وتنتهي في ذي الحجة سنة ثلاث وستين من الميلاد وهي المدة التي اتخذ فيها صلى الله عليه وسلم المدينة دار إقامة واعتمدنا هذا الحساب باعتبار تاريخ الآية التي اشعرت بتمام التشريع وكمال الدين وهي : اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا وتاريخ نزولها يوم عرفة وهو اليوم التاسع من ذي الحجة في حجة الوداع وان كان للعلماء هاهنا خلاف نقتصر على هذا وهو المتجه في نظرنا

والتشريع الذي وقع بعد الهجرة قد كملت به الاصول الكلية وما يتبعها من الجزئيات . كالوفاء بالعقود وتحديد الحدود واصلاح ذات البين ونظام الاحوال الشخصية في المواريث .والانساب والجهاد والزكاة وصوم رمضان والحج وتحريم المسكرات الى غير ذلك مما يحفظ الامور الضرورية في الحياة العامة او الخاصة ، وما يكملها ، وما يحسنها .

فعلمت بهذا ان التشريع وقع على مرحلتين الاولى قبل الهجرة وقد روعي فيـه حال المخاطبين به فكان على نحو ما ذكرنا ، ثم لما استقرت العقيدة في النفوس وصلحت لتلقي بنود الشريعة واتسعت خطة الاسلام كانت المرحلة الثانية . على ان من التشريع ما وقع خارج الحرمين فان النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا ما تحدث الحادثة وهو في سفر فيقع التشريع وذلك كمشروعية التيمم وكالتشريع الذي وقع في الغزوات .

وبهذا ننتهي الى اصل من اصول التشريع . وهو ان الاحكام الشرعية نزلت تدريجيا بحسب ما تقتضيه سنة التكليف ، روعي فيها حالة المتلقين لها.

وكانت تأتي مرة بحسب الحوادث . وطورا تكون جوابا عن سؤال الصحابة .

والسؤال على نوعين اما ان يكون لاستظهار حكم في واقعة حال فياتي الحكم عاما لكافة الامة. كقولـه تعالى يسالونكم عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما اكثر من نفعهما واما ان لا يكون السؤال لاستظهار حكم . والجواب عن هذا النوع مرة يكون مطابقا لاصل السؤال ولا يترتب عليه حكم لا خاص ولا عام ومرة يكون الجواب غير مطابقا للسؤال لافادة السائل ما

يهمه معرفته وتحويله الى شيء ينبغي ان يكون السؤال عنه كقوله تعالى يسالونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج وطورا يقع التشريع ابتداء. فيأتي الحكم بعد ان يستقر ما شرع قبله في النفوس .

وهذا لطف من الله تعالى بعباده حتى لا تضجر نفوسهم بتكاليف الملة وترتاض لاوامر الله ونواهيه على طريق التدريج وحكمة منه سبحانه وهو العليم الحكيم وهو تعاليم وارشاد لاولي الامر ليسلكوا مع الرعية طرق اللين والتدريج فيما يكلفونهم به مما توجبه المصلحة العامة . ولا يغامرون بهم فيفرضون عليهم المشاق التي تتضاءل المصلحة المنتظر حصولها امام ما يقع من التصدع ويفضي الى عدم اداء الواجب وقد ظهرت اثار هذا التعليم في سياسة الخلفاء الراشدين التي ساسوا بها الامة الاسلامية مدة خلافتهم

فهذا عمر الفاروق رضي الله عنه يعفي القائد العظيم خالد بن الوليد من قيادة الجيش الاسلامي رأفة منه رضي الله عنه بالمسلمين الذين كانوا تحت قيادة ذلك البطل

وكذلك كان حاله رضي الله عنه مع المسلمين لما خاطبه عمرو بن العاص في غزو مصر . فانه تردد رضي الله عنه بين الاقدام والاحجام ولم يرد المغامرة بالمسلمين اتقاء ان يحملهم امرا ربما المصلحة في عدم الاسراع به ويكلفهم ما هو فوق طاقتهم فهو يرى ان الفتح يكون تدريجيا كما علمهم رسول الله حيث القى عليهم الشرع تدريجيا .

وبهذا نعلم أصلا آخر من الاصول التي راعاها التشريع الاسلامي . الا وهو رفع الحرج في التكاليف الشرعية واستقراء نصوص الشريعة يفضي بنا الى هذا الاصل العظيم ايضا قال تعالى ما جعل عليكم في الدين من حرج .

وقال تعالى ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج . ولكن يريد ليطهركم وقال تعالى لا يكلف الله نفسا الا وسعها .

ومنه نعلم اصلا ثالثا وهو ان الدين يسر وليس بعسر وان الشريعة ميسرة لا منفرة قال تعالى : يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر

وقال جل جلاله: يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا . وكذلك كان حاله صلى الله عليه وسلم مع الامة . وفي الحديث : ما خير صلى الله عليه وسلم بين امرين الا اختار ايسرهما ما لم يكن اثما .

ومن ذلك ما جاء في جامع الترمذي عن ام المؤمنين عائشة رضي الله عنها عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : إدراوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم . فان كان له مخرج فخلوا سبيله . فان الامام ان يخطيء في العفو خير من ان يخطيء في العقوبة

ولا نطيل في ذكر النصوص الدالة على يسر هذا الدين الذي جعل الله فيه لعباده الرحمة والسعادة . ورتب على الحسنات والطاعات المغفرة وحسن المثوبة وعفا عمن يهم بالمعصية وتضعف له حسنات اذا قصد بالكف الخشية من الله تعالى وذلك كله رحمة من الله سبحانه بهذه الامة وهو ارحم الراحمين

بحر الانساب

نور الانوار ـ ذيل بحر الانساب المحيط

أهدى الى المجلة فضيلة الاستاذ الجليل الشيخ حسن الرفاعي الشريف الحسيني من كبار علماء الازهر ورئيس رابطة الاشراف الكبرى بمصر هذا السفر الفاخر الجليل المشتمل على كتاب بحر الانساب المسمى بالمشجر الكشاف لاصول السادة الاشراف للعلامة النسابة السيد محمد بن احمد عميد الدين علي الحسيني النجفي الذي اشتمل على اصول وفروع عموم السادة الاشراف وعلى شرحه للعلامة السيد محمد مرتضى الزبيدي وكتاب نور الانوار في فضائل وتراجم ومناقب ومزارات آل البيت الاطهار للشيخ السيد حسين محمد الرفاعي وذيل بحر الانساب له ايضا جمع فيه ما وصل اليه من الشجرات الزكية المتصلة بالنسب الشريف من جميع الاقطار . فجاء سفرا جامعا له قيمته التاريخية وثمرته العلمية فهو جامع عظيم القدر يجد فيه الناظر ما يعز وجوده سيما بعد ان تمم الشيخ الرفاعي ما انتهى اليه النجفي والزبيدي واما النسخة المخطوطة التي طبع عليها الاصل وشرحه فهي النسخة الوحيدة بالقطر المصري وقد زادت قيمة الاصل والذيل بالفهارس التي جعلها لها وهي ستة فهارس في موضوعات الكتب والاعلام وقد ذكر فيها اعلام اصول الشجرات والامم والقبائل والمدن والقرى .

والشيخ الرفاعي قد ادى بهذا العمل المثمر المشكور واجبا عظيما نحو آل الرسول الاشراف نرجو له حسن المثوبة عند الله والاقبال على هذا (البحر) الزاخر ممن يقدر نفائس الاشياء حق قدرها وهو مع ما جمع فيه من فروع الشجرة الزكية فلم يزل كثير من الفروع لم تلحق باصلها فيه فنحن نحض السادة الاشراف على ان يراسلوا الشيخ حسين الرفاعي بسلاسل انسابهم او يرسلوها الى ادارة مجلتنا ونحن نتعهد لهم بابلاغها الى رئيس رابطة الاشراف ليقع نشرها في الجزء الرابع لبحر الانساب وهذا بعض ما نقوم به لآل الرسول الاكرمين عليه من الله افضل الصلاة وازكى التسليم وعلى آله آمين .

الاجابـــة

لايراد ما استدركته عائشة على الصحابة

كما اهـــدى الينا الاستاذ العالم السيد سعيد الافغاني الدمشقي كتاب الاجابة لا يراد ما استدركته عائشة على الصحابة تأليف الامام بدر الدين الزركشي المولود بمصر سنة ٧٤٥ والمتوفى سنة ٧٩٤ وهو كتاب عظيم الفائدة جمع فيه مؤلفه الاحاديث التي تفردت بها ام المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن باقي الصحابة وقد الف في مستدركات عائشة رضي الله عنها جماعة من اهل العلم منهم ابو منصور عبد الحسن البغدادي المتوفى سنة ٤٨٩ وقد اثبت مؤلفنا ما استدركه البغدادي وزاد عليه ما تفرد بتخريجه والنسخة التي طبع عليها الناشر هي نسخة بخط المؤلف نفسه وقف عليها بخزانة المكتبة الظاهرية بدمشق وصدره بمقدمة حافلة ضمنها موضوع الكتاب وترجمة المؤلف كما علق عليها حواشي تدل على قيمته العلمية وسعة اطلاعه وختمه بفهارس خمسة على الطريقة الحديثة فنشكر الاستاذ الافغاني على هذه التحفة الثمينة والذخيرة التي قدمها لاهل العلم مع تقديرنا لمجهوده

وقال يخاطب الامير الجامع بين العلم والامارة المولى محمد باي ابن الامير الكبير المولى حسين باي ابن علي المتولى سنة ١١٦٩ يستعطفه ويستقيل العثرة ويطلب الافراج عنه من السجن

لبشري بتمام عفوك ما طلب	ما بعده لي في الاماني من أرب(١)
وأقل شيء من رضاك محصل	لمؤمل نيل السعادة ما أحب
فاذا ظفرت به فاني آمن	لا أختشي جور الزمان وان غاب
ولانت أولى أن تعود بنظرة	في شان من نادى حنانك من كثب
الحلم فيك سجية معروفة	يا خير من يولي الجميل إذا غاب
انتم شموس هداية وطلوعها	قد كان حسما للتعسف والشغب
خصصتم أبني حسين بالتي	يرضى بها رب الشريعة والحسب
الملك أنتم أصله ولكم به	قدم التقدم والعلي من الرتب
فلذاك أجري أمره بسدادكم	سهلا وتمضون العويص بلا تعب
يا من بنى للعفو بيتا لم تزل	تعلو دعائمه على هام الشهب
هذا مقام معذب بك عائذ	من هفوة ألقته في طرق العطب
عظمت ولكن كان عفوك عندها	عفو النبي عن ذنب كعب اذ رهب
فاسمح بها أمنية عنوانها	منك التبسم بعد هاذاك الغضب
وامدد إلي يدا أفوز بلثمها	ويزيل عني جودها هذا النصب
دامت حياتكم وعز جنابكم	ما نال راجي منكم ما قد طلب (٢)

وله يخاطب الوزير الحاج علي بن عبد العزيز في طلب الشفاعة عند مخدومه المذكور

يا ابن عبد العزيز انت عزيز	ثابت الود في جميع القلوب
تحمل الكل في المضيق وتحمي	من يناديك من تعدي الخطوب
واذا ما الزمان اصبح صعبا	كنت عونا على الزمان الصعيب (٣)

وله مهنئا للامير المولى محمد باي بولادة ابنه الامير الاشهر الافخم المولى محمود باشا ومؤرخا عام ولادته(٤)

طالع السعد بالميامن حيا	واضح البشر مستنير المحيا
حين قالت لدى الولادة يا بشـ	ـراي هذا غلام قلنا رضيا
فجرى الفال بابن يعقوب بدءا	وتناهى بان النبي زكريا
ذاك محمود الرشيد تجلى	اثر ما قال رب هب لي وليا
يا اباه محمدا فز بنجل	لم تكن بالدعاء فيه شقيا
جاء للملك كالمهني ذويه	بعد ما انتبذوا مكانا قصيا
صانه الله وارثا لابيه	وابيه موفقا لوذعيا
ولهم قيل عند ما ارخوه	ووهبنا لكم غلاما زكيا

١١٧٠

(١) وفي رواية من طلب . (٢) وفي رواية (ما اشتاق مضطر لعفو مرتقب) . (٣) وقد نجح مطلبه فان الامير اطلقه وتولى بعد ذلك في ولاية الامير علي باي شهادة غابة الزيتون وصلح حاله عنده . (٤) كانت ولادة الامير محمود سنة ١١٧٠ وولايته الملك في اوائل صفر سنة ١٢٣٠ وتوفي سنة ١٢٣٨

وله يرثي الامير محمد باي المذكور رحمه الله ويعزي شقيقه ووارث الملك من بعده صفر الملوك الشبيه بالرشيد المولى علي باي

هل اذكرتك العهد بعد تناسي … دمن تقادم عهدها بالناس
ان كنت تجحد ما لقيت فانني … رهن الاسى او كل قلب قاسي
ولئن نسيت الظاعنين وقد مضوا … يوم النوى فرقا فلست بناسي
هذي المنازل اقفرت من بعدهم … ولطالما ملئت من الايناس
كانوا الضياء لها ولما ادلجوا … طلع الظلام لغيبة النبراس
يجد الجماد على العشير كآبة … غلب المشوق فكيف بالحساس
من مخبري عن سيرهم اوسوءهم … في اي ناحية واي مواس
ومتى يكون ايابهم واظنهم … لا يرجعون لآخر الاحراس
واود لو سمعوا حديثا دار في … خلدي بخلت به عن الجلاس
ما لي اغالط بالسلو وقلما … وقف العليل لصكة المقباس
والهم يغلب من يحاول سيره … حتى يغيبه عن الاحساس
ومن استمال الى الليالي امنا … ضربت له الاخماس في الاسداس
والحي عرضة كل سهم صائب … ومصائب الدنيا على اجناس
وانا الذي عاينت من اوجاعها … فطعمت منها لدغة الدساس
والشيء يخبر عن حقيقة امره … من ذاقه نصا بغير قياس
وهي الدواهي مرة وامرها … موت الشقيق الطيب الانفاس
ذهب الامير محمد وكانه … لم يعل فوق مراتب وكراسي
او انه لم يسم في طلب العلا … حتى ألان الصعب بعد شماس(١)
من اين ادركه الحمام ودونه … حرم السلاح وحومة الحراس
أ تغافل البواب ام سبقت له … قبل الهجوم يد مع العساس
جهل الزمان ولو درى بمقامه … ما ساقه قسرا الى الارماس
صعب على الايام ان يرى لها … جبل من الحلم المقدس راسي
قد كان طلاع الثنايا خيرا … عونا على الازمات خير مواسي
(٢) حردا على الواشين ليس يهزه … للموبقات مكائد الوسواس
يبكي له الادب القريظ واهله … وعوامل الاقلام والقرطاس
والسيف ملتفت الى ايضائه … والخيل تائقة الى الاحلاس (٣)
كادت عرى الاسلام تنقض بعده … لو لا مقيم الدين بالقسطاس
خير الخلائق صنوه وقسيمه … وقت الرخاء وضيق حر الباس
ما اخلق الملك العلي عماده … بعلي الشهم النزيه الباس
ناه عن اتيان المناكر امر … بالعرف لا ساه ولا نعاس
الملك يعلم انه بعناية … يمسي ويصبح في اعز لباس
يا من يعز على المعالي ان يرى … خلقا من الزمن المسيء الجاسي(٤)

---

(١) أي شدة وصعوبة ومنه فرس شماس اذا استعصى على راكبه. (٢) اي كثير الغضب على الواشين من حرد كفهم اي غضب . (٣) الاحلاس جمع حلس وهو كساء يجعل على ظهر الدابة تحت الرحل او السرج . (٤) اسم فاعل من جسا الشيء يجسو اذا يبس وصلب

ما مات من كنت الخليفة بعده — محيي الحيا بالاربع الادراس
ان المنايا لا ترق لجازع — فترد فائته عقيب الياس
فهي التي مردت على حكامها — من كل ذي قلم وذي قرطاس
فجعت متمما الاسيف بمالك — ونعت بصخر مرة لخناس
واذاقت النعمان سما ناقعا — وسقت كُليبا من يدي جساس
وتتابعت في تبع وسطت على — سيف ابن ذي يزن وذي نواس
وشجت امية في بنيه وعبست — لاولي النباهة من بني العباس
ولآل اغلب قارعت وترصدت — لبني عبيد ساعة الالباس
وقضت على لمتونة وتقلبت — بقبيل عبد المومن الهرماس
ولقى بنو زيان من اوصابها — وبنو مرين شدة في باس
وهوت باملاك الطوائف بعد ما — سقط الخلائق في فضا النبراس
ورمت بني حفص بكل رزية — ذهبت بهم في دامر الافلاس
وهلم جرا لم يصن من كبتها — حصن السيوف ولا حمى الاتراس
ولانت افضل مذعن لمقالة — جاءت بها تعزية الاكياس
اصبر نكن بك صابرين فانما — صبر الرعية عند صبر الراس
خير من العباس اجرك بعده — والله خير منك للعباس

وله يمتدح المولى علي باي ويذكر مواطنه وما قاساه في طلب
تراث ابيه من ملك تونس وظفره بذلك بعد الاهوال الصعاب

يا سعد باسمك فال من يستنطق — حيا ديارك صيب يتدفق
حدث عن الريم المقيم برامة — هل غربوا بخيامه ام شرقوا
عهدي بهم نزلوا العذيب وقصدهم — وادي العقيق وبعد ذاك الابرق
تلك المنازل لم اهم برسومها — الا لاسمع قولها لو تنطق
والدار يذكرها اللسان معرضا — والقلب بالسكان منها اعلق
والنفس تخضع للمليح وانما — يرمي بها اقصى المرام الرونق
ولعارض ابعدت علمي جانبا — حتى عشقت ولمت من لا يعشق
وذهلت عن قول العواذل ما له — خلع العذار لبارق يتالق
نظروا كما نظر الخلي مخائلا — لكنهم لما راوها رنقوا (١)
ونظرت كاليوم المبارك دمية — ماء البهاء بوجهها يترقرق
تفتر عن كالبرق ابصر ضوأه — من بات من سخط له يتشوق
ويلوح تحت الجيد من اطواقها — فجر اذا كذب السماء يصدق
وتميس كالغصن الرطيب يناله — من جانب (٢) سيل مغدق
تلك التي سارت وقلبي اثرها — كالباز في اثر الشريد يحلق
لم انس اذ قالت وقد ودعتها — بان الخليط فقل بمن تتوثق
قلنا علي ابن الحسين ملاذنا — قالت ظفرت اذا وعز الابلق
ذاك الذي ينسى الغريب بقربه — اوطانه ويجود منه المملق
ملك لايام الشباب محاسن — واذا تعد فلهو منها الريق

(١) اي تكدروا . (٢) بياض بالاصل

غلط الزمان به لغير اوانه ولرب شيء دون وقت يخلق
حملت به الايام في تعنيسها واسترضعته وهي عجفا شملق
وبه استعادت ما مضى من عمرها وشبابها وكذا العوائد تخرق
اذ قام بالعبء الثقيل لثاره والحزم بالشهم المؤيد اوفق
وسعى لرد الملك وهو مصمم كالسهم من خيف الرمية يمرق
من بعد ما قذفت به ايدي النوى في كل ناحية تروع وتقلق
كالبدر اذ حاز الكمال وسيره تدرى المغارب كونه والمشرق
ناهيك من اسد اذا حمي الوغى وبه يلاذ اذا يراع الفيلق
تلقاه للخطب الجليل مبادرا والى النزال بكل فج يسبق
فافاض من بحر الخميس مناهلا غصت بها طرق الربى والخيفق(١)
ينحط من بطن الجزائر فيضه ويسيح للخضراء وهو المغرق
امواجه الخيل العتاق وانها يملا الفضاء صهيلها والهندق
تذري سنابكها على اعطافها مثل السحيق يجف منه المهرق
وكانها العقبان تحمل فوقها اسد الشرى وبكل طرف تمشق
لم يعيها التاويب في ادلاجها كلا ولا قطع الفيافي مخلق
حتى اناخ على طريق مغيرة قلنا حديث الفال عنها اصدق
مارد كف (الكاف) صدمته ولا منع الردى متريسها والخندق
ودعته تونس بعد فجر خميسها والهام في كل الجهات تفلق
فتعانقا اذ ذاك من فرط الهوى وكذا المشوق اذا رآه الشيق
وكذلك الاخطار يدركها الذي يلج المضيق وفي العزيمة يصدق
فخر به حازته تونس وحدها لم تلقه دار السلام وجلق
يايها الملك الذي نظر السنا في وجهه الاسنى فقال موفق
مالي احاول شربة من عفوكم فأذاد وهو على الورى يتدفق
ان كان لي الذنب العظيم فحلمكم يبلى به ذاك العظيم ويمحق
قالت قتيلة للرسول وربما من الفتى وهو المغيظ المحنق
هذي حرائر خاطري وجهتها خدما لعز مقامكم لا تعتق
جاءتكم تمشي على استحيائها ولكم بكل عبارة تتملق
ومدائحي كالدر موضع حسنه عند المليحة راسها والمخنق
يبلى الزمان وخلقها متجدد يروي الغبي حديثها والاشدق
فانظر لها نظر الشفيق واولها خلق الكريم فان مثلك يشفق
واسلم بحالة غبطة حتى ترى ولد البتول وانت حي ترزق

وله فيه ايضا رحمهما الله تعالى

حيا فحن له الفؤاد المدنف طيف الم بمن له يتشوف
لا يا تخلص كالشفاء ودونه ظن يسيء به ووعد يخلف
واقل ما استقالت وقفة زائر خاف العيون وضاق عنه الموقف
واقل منها وكنت جلدا قبلها صبري وقد ولى الخيال المشرف
ما ذا لقيت من الزمان يروعني بالحيف حتى في المنام يخوف

(١) الخيفق الفلاة الواسعة

من كل وجه لي عليه ملامة	وله علي غضاضة وتكلف
أ فلا كفى ان عشت فيه وقالبي	واه وقلبي بالدواهي يقصف
يرد المياه بنوه لا عن غلة	وأحوم من فرط الغليل فاصرف
هين عليهم لو قذفت بهمتي	وسعيت ما بين الملا اتكفف
والموت اسعد وهي بغية كلهم	لي من وقوفي بينهم استعطف
فاذا قرمت اكلت لحم انامل	واذا عطشت فمن دمي اترشف
وتنوب عن خطب الوفود دفاتري	اذ حيلتي عن غير ذلك تضعف
عجبا لايام تجور الم يكن	فيها علي بن الحسين المنصف
حرم الامان لمن اراد حماية	ولذي الخصاصة بالسحاب الاوطف
ملء القلوب اذا بدا متبسما	وذكاؤه مثل الزمان ونيف
كم نحتمي في القول عند مديحه	من قولة عند التامل تكشف
حتى اذا نظر المديح بدا له	بدء الهوى ذاك الكثيف (١)
فنعود من ءادابه بفوائد	وبمثلها اخرى عليها تعطف
وعلا بهمته الكريمة ان يرى	في غير طاعة ربه يتصرف
وكفاه عن سمع الملاهي درسه	قول النبي ووردة والمصحف
وتفقه في الدين ثمة فصله	لحكومة عنها الشريعة تكشف
وافاضة للعالم بين طوائف	تاتي واخرى بالجوائز تصرف
والذ ما يسديه منها عنده	نيل يعان به الفقيه ويتحف
ومضت كذا عفوا جميع فعاله	لا راجع عنها ولا متكلف
ودعى بقفصة فاستجاب معينها	عقب الدعا وهو الابي المتعسف
وجرى يخرق كل بطن قرارة	عرضت له والكل صلد يثقف
واطاعت الانجاد فيه وهادها	وتماثلت اوعارها والصفصف
فتراه كالثعبان في حركاته	سهل الممر على البسيطة يزحف
حتى لوى بشعاب تونس راسه	ومشى على ارجائها يتطوف
وانحل عن عذب الزلال ولاؤه	فاذا به في كل ربع يقذف
فغدت به الاكباد بعد اوارها	ريا وصح سمينها والاعجف
وراته اعظم منة اذ جاءها	والنجم في وقت الاغاثة مخلف
لا زال يظهر كل حين غرة	يفنى الزمان ونورها لا يكسف

وله فيه ايضا

اقصر والتطويل في الشكر واجب	لمن فضله في كل ما شئت غالب
واهدي اللبيس (٢) الناقص القدر للذي	عن النقص في كل المشاهد غائب
اذا لم يكن فيما مضى لي والد	ولا لي في الآتي من الدهر صاحب
تنادي مزايا ابن الحسين الا انهضوا	بواجب اطراءي واين المجاوب
كان بني الاشعار صموا عن الندا	بلى فاتهم في ذاك طبع مناسب
فواعجا منها ومني ومنهم	وفي كل قول للفهوم مسارب
اما انها عين حسان تبرجت	وليس لها عن عين مرءاه حاجب

---

(١) بياض بالاصل . (٢) اللبيس هو الثوب قد كثر لبسه حتى صار خلقا

كأني انا وحدي رايت عيونها ... تغامزن لي والغمز للصب جالب
اطلت وايام المكارم عنست ... على حين شاخ الدهر فهي الغرائب
فاصبحت الايام في عنفوانها ... وقام لها من مقعد العز طارب
فلا خير الا وهو كالعدل لازب ... ولا شر الا وهو كالظلم عازب
فهذي طريق الحمد فيه توضحت ... لمن هو في شكر المزية راغب
وإن ألسن الاقوال كلت فانما ... على ألسن الاحوال منه الضرائب
فاغناه فيض الجود عن كل مصقع ... وفي كل صقع من اياديه جانب
واجلال اهل العلم طرا لاجله ... وايثارهم حتى يغار الاقارب
ودقة فهم للعويصة رامها ... اخو فطنة اولج فيها المشاغب
ومعرفة الفضل الحقيق لاهله ... واكرام من يدنو له او يجانب
وانصافه من نفسه غير ساخط ... ولا منكر ان جاء للحق طالب
ونصرة ملهوف واحسان عشرة ... وكظم لغيظ حين يجفو المغاضب
وجبر كسير القلب باتت همومه ... تغالبه عن نومه ويغالب
وحفظ لذكر الله عن وصم فترة ... واصدق ما في الذكر ما هو دائب
ورعي جناب الله في كل حالة ... يلاحظها منه التقي المراقب
فيايها المولى الذي يقضاتنا ... بدولته حلم وحاشاك كاذب
لك الله من قطب تدور باوجه ... مشارق امداح الورى والمغارب
لما انك استوجبتها بشمائل ... يسلمها الراضي ومن هو غاضب
دفعت بها في صدر كل مملك ... يرى انه فوق السهى او يقارب
فمرت على اسماعه فيك مدحة ... تقبض منها جيده والعراقب
فما وسعته الارض حتى اراحه ... عن الفكر في استعلام شانك نايب
فوجه مرتادا يخلف اهله ... على رغبة في رجعه وهو راهب
فجاء ومن قدامه الامن قائد ... ومن خلفه حبل المهابة جاذب
وعاين ما بين السماطين برزخا ... تدب به رجلاه والراس راسب
وقد حسدت عيناه رجليه ان سعت ... ببهو تود السعي فيه الثواقب
وما شغلته الدار تلعب بالنهى ... عن الفكر في تزوير قول يناسب
ولما افتتحت القول طيرت سحره ... وضاقت عليه في الخلاص المذاهب
وشاهد ما لم ينخرط في حسابه ... واسمع ما لم تنتخبه الاعارب
وولى على الاعقاب تصغر نفسه ... ومخدومه والمنتمي والمصاحب
وانذر مولاه بان وراءه ... تمام جلال هذبته التجارب
وان ملوك الارض قسمان بعده ... فذو الهزل ممقوت وذو الجد تاعب
فهذا حديثي عنه اسندت بعضه ... وعش لترى الباقي عدتك النوائب
ولست براض من مديحك بالذي ... يباهتني فيه اذا غبت عاتب
وهل لي اعتذار في انتحالي ناقصا ... ومادح ذي زيد بناقص عائب
على ان من اهدى لغيرك مدحة ... على قدر ما اسدى له العذر واجب
كعذر نصيب اذ تبجح للذي ... قضاه نصيبا ضمه وهو راكب
فقال ولو لاقاك يا بحر لم يقل ... وقد افعمت دنياه منك المناقب
فعاجوا واثنوا بالذي انت اهله ... ولو سكتوا اثنت عليك الحقائب

الاشتراك

الادارة نهج الباشا رقم ٣٣ – تونس

عن سنة بالحاضرة وبلدان المملكة والجزائر والمغرب الاقصى وسوريا فرنكات ٣٠

» في الخارج غير البلاد المذكورة فرنكات ٤٠

يخصم الربع للتلامذة

وصولات الاشتراك لا تعتبر الا اذا كانت ممضاة من امين المال

محمد الهادي بن القاضي

والمخابرات المالية لا تكون الا معه

المجلة الزيتونية

مجلة علمية أدبية اخلاقية

تصدرها الهيئة من مدرسي جامع الزيتونة المعمور

شهرية وسنتها عشرة اشهر

المجلد الثالث	تونس ـ في شهر رمضان ١٣٥٨ وفي اكتوبر ١٩٣٩	الجزء التاسع

رئيس قلم التحرير

محمد المختار بن محمود

المفتي الحنفي

بالديار التونسية

صاحب المجلة والمدير :

محمد الشاذلي ابن القاضي

المدرس من الطبقة الاولى بجامع الزيتونة

والخطيب الثاني بجامع حموده باشا

المراسلات :

ترد باسم مدير المجلة بمحل الادارة

الادارة :

نهج الباشا رقم ٣٣ بتونس - تليفون ٤٩-٢٦

حساب جاري بادارة البريد رقم ٣٤٢٢

المطبعة التونسية نهج سوق البلاط عدد ٥٧

المجلد الثالث | الجزء التاسع

فهرس العدد

صحيفة	المقال	صاحبه
٣٦٤	تفسير آية من سورة البقرة	العلامة الامام المولى الشيخ الطاهر ابن عاشور شيخ الاسلام المالكي
٣٦٨	درس في موطا الامام مالك رضي الله عنه	العلامة الامام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور شيخ الاسلام المالكي
٣٧٧	الاوقاف والنظار او الاحباس والمقدمون	العالم النحرير الشيخ الناصر الصدام المدرس من الطبقة الاولى بجامع الزيتونة
٣٨٦	القضاة الشرعيون في القديم	العلامة الجليل الشيخ محمد البشير النيفر الاستاذ بجامع الزيتونة
٣٨٤	وثيقة تاريخية جليله « مارستان العزافين والمستشفى الصادقي	العالم المؤرخ امير الامراء سيدي محمد بن الخوجة مستشار الحكومة
٣٩٢	بعثة خير الدين للاستانة	امير الامراء الاستاذ محمد صالح مزالي عامل بنزرت
٣٩٦	عشية في شاطىء رواد............	العالم الاديب الشيخ الطاهر القصار المدرس بجامع الزيتونة
٣٩٧	استقبال شهر رمضان	الفاضل الواعظ الشيخ الجيلاني حمزه
٤٠٠	شهر الصيام	الاديب الكبير الشيخ العربي الكبادي
٤٠١	استقبال شهر رمضان المعظم	الاديب النابغ الشيخ بلحسن بن شعبان
٤٠٢	التكاليف الشرعية.............	صاحب المجلة

الاشتراك

عن سنة بالحاضرة وبلدان المملكة والجزائر والمغرب الاقصى وسوريا فرنكات ٣٠

« في الخارج غير البلاد المذكورة فرنكات ٤٠

يخصم الربع للتلامذة

وصولات الاشتراك لا تعتبر الا اذا كانت ممضاة من امين المال

محمد الهادي ابن القاضي

والمخابرات المالية لا تكون الا معه

الادارة نهج الباشا رقم ٣٣ — تونس .

المجلة الزيتونية

مجلة علمية أدبية اخلاقية

تصدرها هيئة من مدرسي جامع الزيتونة المعمور

شهرية وسنتها عشرة اشهر

الجزء التاسع	تونس - في شهر رمضان ١٣٥٨ وفي اكتوبر ١٩٣٩	المجلد الثالث

رئيس قلم التحرير :

محمد المختار بن محمود

المفتي الحنفي

بالديار التونسية

صاحب المجلة والمدير :

محمد الشاذلي ابن القاضي

المدرس من الطبقة الاولى بجامع الزيتونة

والخطيب الثاني بجامع حمودة باشا

المراسلات :

ترد باسم مدير المجلة بمحل الادارة

الادارة :

نهج الباشا رقم ٣٣ بتونس - تليفون ٤٩-٢٦

حساب جاري بادارة البريد رقم ٣٤٢٢

المطبعة التونسية نهج سوق البلاط عدد ٥٧

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن الكريم

من تفسير الاستاذ الامام المولى الشيخ محمد
الطاهر ابن عاشور شيخ الاسلام المالكي

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ

يظهر لي أن قوله واذا قيل لهم عطف على قوله يخادعون لان قوله واذا قيل لهم لا تفسدوا في الاوض قالوا انما نحن مصلحون اخبار لبعض غرائب احوالهم ومن تلك الاحوال انهم قالوا انما نحن مصلحون فهو المعطوف في المعنى لان ما قبله ظرف مقدم عليه . واذا هنا لمجرد الظرفية وليست متضمنة معنى الشرط اذ لا يستقيم ذلك الا بتكلف لا داعي اليه كما انها هنا للماضي ليست للمستقبل وذلك كثير فيها كقوله تعالى حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الامر الآية . ومن نكت القرءان المغفول عنها من قبل تقييد هذا الفعل بالظرف فان الذي يتبادر الى الذهن ان محل المذمة هو انهم يقولون انما نحن مصلحون مع كونهم مفسدين ولكن عند التامل يظهر ان هذا القول يكون قائلوه اجدر بالمذمة حين يقولونه في جواب من يقول لهم لا تفسدوا في الارض فان هذا الجواب من المفسد لا ينشأ الا عن مرض القلب وافن الرأي لان شأن الفساد ان لا يخفى ولئن خفي فالتصميم عليه واعتقاد انه صلاح بعد التحذير والموعظة افراط في الغباوة او المكابرة وجهل فوق جهل . وعندي ان هذا هو المقتضي لتقديم الظرف على جملة يقولون لانه اهم اذ هو محل التعجيب من حالهم ونكت الاعجاز لا تتناهى . والقائل لهم لا تفسدوا في الارض بعض من وقف على حالهم من المؤمنين الذين لهم اطلاع على شؤونهم لقرابة او صحبة فيخلصون لهم النصيحة والموعظة رجاء ايمانهم ويسترون عليهم خشية عليهم من العقوبة وعلما بان النبيء صلى الله عليه وسلم يغضي عن زلاتهم كما اشار اليه ابن عطية ويدل لذلك عندي بناء الافعال للمجهول بخلاف ما ياتي في قوله تعالى : واذا لقوا الذين ءامنوا قالوا ءامنا . ولا يصح ان يكون القائل لهم الله او الرسول كما قال بعض المفسرين اذ لو نزل الوحي وبلغ

الى معينين منهم لعلم كفرهم ولو نزل في مجملات كما تنزل مواعظ القرءان لم يستقم جوابهم بقولهم انما نحن مصلحون فتأمل حق التامل .

وقد عن لي في بيان فسادهم في الارض انه مراتب اولها فسادهم في انفسهم بالاصرار على تلك الادواء القلبية التي اشرنا اليه فيما مضى وبما يترتب عليها من المذام ويتولد من المفاسد . الثانية افسادهم الناس ببث تلك الصفات والدعوة اليها وافسادهم ابناءهم وعيالهم في اقتدائهم بهم في مساويهم كما قال نوح عليه السلام (انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا) . الثالثة افسادهم بمفاسد الافعال كالقاء النميمة والعداوة وتسعير الفتن وتاليف الاحزاب على المسلمين واحداث العقبات في طريق المصلحين . والفساد خروج الشيء عن حد الانتفاع به في بابه فالافساد في الارض الفعل الذي يخرج الاشياء الصالحة في الارض عن الحد المنتفع به فيها فمنه افساد الذوات كالحرق والقتل وافساد الانظمة كالفتن والجور وافساد المساعي كبث الجهل وتعليم الدعارة والتحريض على الكفر ومناواة المصلحين ولعل المنافقين قد أخذوا من كل ضرب من ضروب الفساد بنصيب فلذلك حذف متعلق الافساد تاكيدا للعموم المستفاد من وقوع الفعل في حيز النفي وذكر المحل الواقع افساد كائناته وهو الارض قصدا للتعميم من جهتين فكانه قال لا تفسدوا كل فساد في اي مكان من الارض . فالمراد من الارض هنا ما تحتوي عليه من الناس والحيوان وسائر الموجودات التي بها دوام نظام العالم ونظيره قوله تعالى (واذا تولى سعي في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد)

وقوله تعالى (قالوا انما نحن مصلحون) جواب وجاءوا بانما المفيدة لقصر الموصوف على الصفة ردا على قول من قال لهم لا تفسدوا لان القاعل اثبت لهم وصف الفساد اما باعتقاد انهم ليسوا من الصلاح في شيء او باعتقاد انهم خلطوا عملا صالحا وفاسدا فردوا عليهم اما بقصر القلب او بقصر الافراد لان قصر الموصوف على الصفة لا يكون حقيقيا لتعذر الاحاطة بصفات الشيء .

وقوله تعالى (الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) اقول هو رد عليهم في غرورهم وحصرهم انفسهم في الصلاح فرد عليهم بطريق من طرق القصر هو ابلغ فيه من الطريق الذي قالوه لان تعريف المسند يفيد قصر المسند على المسند اليه فيفيد قوله الا انهم هم المفسدون قصر الافساد عليهم بحيث لا يوجد في غيرهم وذلك ينفي حصرهم انفسهم في الاصلاح وينقضه وهو جار على قانون النقض وعلى اسلوب القصر الحاصل بتعريف الجنس ويضمر الفصل وان كان الرد قد يكفي فيه ان يقال انهم مفسدون بدون صيغة قصر الا انه جيء بالقصر ليفيد نفي الافساد عن غيرهم اعني المؤمنين الذين عرض بهم المنافقون حين قالوا انما نحن مصلحون فذلك هو الغرض الاولي من رد الله عليهم ما ادعوه لان الله ولي المؤمنين فالذب عنهم مقدم على ذم المنافقين فقد حصل بهذا القصر رد الدعويين وقد يفيد ذلك ان المنافقين ليسوا ممن ينتظم في عداد المصلحين لان شان المفسد عرفا ان لا يكون مصلحا

اذ الافساد سجية ودأب لا يـكاد يفارقه موصوفه فهذا يستفاد بطريق لحن الخطاب

وقوله (ولكن لا يشعرون) محمله محمل قوله تعالى قبله وما يخادعون الا انفسهم وما يشعرون فان افعالهم التي يبتهجون بها ويزعمونها غاية الحذق والفطنة وخدمة النفع الخاص ءايلة الى فساد عام لا محالة الا انهم لم يهتدوا الى ذلك لخفائه وللغشاوة التي القيت على قلوبهم من اثر النفاق ومخالطة اهله فان حال القرين وسخافة المذهب تطمس على العقول النيرة وتخف بالاحلام الراجحة حتى ترى حسنا ما ليس بالحسن

(واذا قيـل لهم ءامنـوا كما ءامن الناس قالوا انؤمن كما ءامن السفهاء) هو من تمام المقول قبله فحكمه حكمه في العطف والقائل ويجوز هنا ان يقول القائل ايضا طائفة من المنافقين يشيرون عليهم بالاقلاع عن النفاق لانهـم ضجروا وسئموا كلفة مخادعاته ومتقياته وكلت اذهانهم من ابتكار الحيل واختلاق الخطل وحذف مفعول ءامنوا استغناء عنه بالتشبيه في قوله كما ءامن الناس او العلم به .

وقوله كما ءامن الناس الكاف فيه للتشبيه او للتعليل واللام في الناس للجنس او للاستغراق العرفي والمراد من عدا المخاطبين اقول هي كلمة تقولها العرب في الاغراء بالفعل والحث عليه لان شأن النفوس ان تسرع الى التقليد والاقتداء بمن يسبقها في الامر فلذلك ياتون بهاته الكلمة في مقام الاغراء او التسلية او الايتاء قال :

ونصر مولانا ونعلم انه كما الناس مجروم عليه وجارم

وقولهم انؤمن كما ءامن السفهاء استفهام للانكار والسفهاء جمع سفيه وهو المتصف بالسفاهة والسفاهة في الاصل الخفة قال ذو الرمة

مشين كما اهتزت رماح تسفهت اعاليها مر الرياح النواسم

ثم سميت بها خفة العقل وقلة ضبطه للامور قال السموأل

نخاف ان تسفه احلامنا فنخمل الدهر مع الخامل

والعرب تطلق السفاهة على افن الرأي وضعفه كما علمت وتطلقها على سوء التدبير للمال قال تعلى (ولا تؤتوا السفهاء اموالكم . وقال : فان كان الذي عليه الحق سفيها او ضعيفا الآية) لان ذلك انما يجيء من ضعف الراي

(الا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) اقول اتى بما يقابل جفاء طبعهم انتصارا للمؤمنين واعلن ذلك بكلمة ألا المؤذنة بالتنبيه للخبر وجاء بصيغة القصر على نحو ما قرر في (الا انهم هم المفسدون) ليدل على ان السفاهة في الدين مقصورة عليهم دون المؤمنين فهو قصر اضافي لا محالة واذا ثبتت لهم السفاهة انتفى عنهم الحلم لا محالة لانهما ضدان في صفات العقول وان هنا لتوكيد الخبر وهو مضمون القصر وضمير الفصل لتأكيد القصر والا كأختها المتقدمة في الا انهم هم المفسدون

وقوله : (ولكن لا يعلمون) اقول انه نفى عنهم العلم بكونهم سفهاء بكلمة يعلمون دون يشعرون خلاف

للايتين السابقتين لان اتصافهم بالسفه ليس مما شانه الخفاء حتى يكون العلم به شعررا ويكون الجهل به نفي شعور بل هو وصف ظاهر لا يكاد يخفى لان لقاءهم كل فريق بوجه واضطرابهم في الاعتماد على احدى الخلتين وعدم ثباتهم على دينهم ثباتا كاملا ولا على الاسلام كذلك كاف في النداء بسفاهة احلامهم فان السفاهة صفة لا تكاد تخفى وقد قالت العرب السفاهة كاسمها

(واذا لقوا الذين ءامنوا قالوا ءامنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون)

عطف على ما عطف عليه واذا قيل لهم لا تفسدوا واذا قيل لهم ءامنوا كما ءامن الناس والكلام في الظرفية والزمان سواء والمقصود من الاخبار عنهم بقولهم ءامنا هو التقييد بقوله : واذا لقوا الذين ءامنوا) لا يقولون ذلك ولو باللسان الاحين لقاء المؤمنين وتمهيد لقوله : واذا خلوا فبذينك الغرضين كان مفيدا فائدة جديدة على قوله السابق ومن الناس من يقول ءامنا بالله الآية ونكتة تقديم الظرف تقدمت

ومعنى قولهم ءامنا اي كنا مؤمنين فالمراد من الايمان هنا اللقب الذي هو مجموع الاوصاف الاعتقادية والعملية الذي تلقب بها المؤمنون وعرفوا بها على حد قوله تعلى : انا هدنا اليك) اي كنا على دين اليهودية فلا متعلق لقوله ءامنا حتى يحتاج لتوجيه حذفه او تقديره، او اريد ءامنا بما ءامنتم به والاول عندي اظهر

وقوله : واذا خلوا الى شياطينهم الخ معطوف على ما عطف عليه واذا لقوا والشياطين جمع شيطان وهو اسم جنس لصنف من الموجودات المجردات التي لا ترى عادة والتي هي مدبرات الفساد والشرور الصادرة من بني ءادم وهذا حقيقة هذا الاسم وقد يطلق مجازا على من كان دأبه ذلك الصنيع من البشر فهو مدبر السوء واطلق ايضا على الذي يأتي بالعجائب التي لا يستطيعها البشر ولذلك اثبت العرب شياطين لنوابغ الشعراء، ويطلق على زعيم اهل الدعارة وهو المراد هنا اي اذا خلوا الى رؤسائهم وقادتهم كما قال تعلى : وكذلك جعلنا لكل نبيء عدوا شياطين الانس والجن

وخلوا بمعنى انفردوا فهو فعل قاصر ويعدى بالباء واللام ومن ومع بلا تضمين ويعدى بالى على تضمين معنى ءاب ورجع وانزوى ويعدى بنفسه على تضمين تجاوز وباعد وقد عدي هنا بالى ليشير الى ان الخلوة كانت في مواضع هي مثابهم ومرجعهم وان لقاءهم للمؤمنين انما هو صدفة ولمحات قليلة افاد ذلك كله قوله لقوا وخلوا وهذا من بديع الايجاز، وقولهم انا معكم بالتاكيد دليل على انهم قد بدا من إبداعهم في النفاق عند لقاء المسلمين ما يوجب شك كبرائهم في البقاء على الكفر وتطرق به التهمة ابواب قلوبهم فلذلك احتاجوا الى تأكيد ما يدل على انهم باقون على دينهم، وكذلك قولهم انما نحن مستهزءون فقد ابدوا به وجه ما اظهروه للمؤمنين وجاءوا فيه بصيغة قصر القلب لرد اعتقاد شياطينهم فيهم ان ما اظهروه للمؤمنين حقيقة وايمان صادق ، واما تجريد قولهم ءامنا من المؤكدات مع ان

درس في موطا مالك

رضي الله عنه

بقلم الاستاذ الامام المولى محمد الطاهر
ابن عاشور شيخ الاسلام المالكي

جامع القضاء وكراهيته

ملك عن يحيى ابن سعيد ان ابا الدرداء كتب الى سلمان الفارسي ان هلم الى الارض المقدسة فكتب اليه سلمان ان الارض لا تقدس احدا وانما يقدس الانسان عمله وقد بلغني انك جعلت طبيبا تداوي فان كنت تبرىء فنعمالك وان كنت متطبيا فاحذر ان تقتل انسانا فتدخل النار فكان ابو الدرداء اذا قضى بين اثنين ثم أدبر عنه نظر اليهما وقال ارجعا اعيدا علي قضيتكما متطبيا والله

لم يترك الامام رحمه الله تعلى في تبويبه هذا حقا من المناسبة في التبويب الاقضاه اذ اخر التحذير من القضاء الى ءاخر كتاب الاقضية واستهل كتاب الاقضية بالترغيب في القضاء بالحق ءاثر بذلك التقديم وهذا التاخير ترتبا طبيعيا من وجهين : اولهما ان الناس لو سلك بهم مسلك الاقتصار

مقتضى الظاهر ان يكون التأكيد في خطابهم للمؤمنين فلانهم لا يريدون ان يأتوا بما يجدد شك المؤمنين فيهم ولا ان يجعلوا انفسهم بموضع سوء ظن المؤمنين فيهم ولذلك حكى صدور هذا القول منهم عند مجرد لقاء المؤمنين من غير ان يسألهم المؤمنون عن دينهم فكان المنافقون يوهمون المؤمنين انهم صادقون في الايمان فلا يخطر ببالهم ان يشك احد في اخلاصهم لانهم اذا ظنوا شك الناس فيهم فقد نبهوهم على سوء طواياهم كما قال المتنبي

اذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه   وصدق ما يعتاده من توهم

وقولهم انما نحن مستزءون قصروا انفسهم على الاستهزاء قصرا إضافيا للقلب اي مؤمنون مخلصون. وجملة انما نحن مستهزءون تقرير لقوله انا معكم لانهم اذا كانوا معهم كان ما اظهروه من مفارقة دينهم استهزاء او نحوه فاما ان تكون الجملة الثانية استينافا واقعة في جواب سؤال مقدر كان سائلا يعجب من دعوى بقائهم على دينهم مع ما تفننوا به من طرق النفاق في معاملة المسلمين وينكر ان يكونوا باقين على دينهم وسأل كيف امكن الجمع بين البقاء على الدين واظهار المودة للمؤمنين فأجابوا انما نحن مستهزءون وبه يتضح وجه الاتيان بأداة القصر لان المنكر السائل يعتقد كذبهم في قولهم انا معكم ويدعي عكس ذلك ويتضح ايضا وجه اختيار انما من بين بقية طرق القصر لان انما مشعرة برد انكار منكر وجواب سائل لمكان ان في اصل تركيبها الوضعي. واما ان تكون الجملة بدلا من انا معكم بدل اشتمال لان من دام على الكفر وتغالى فيه فقد حقر الاسلام واهله واستخف بهم

على الترهيب من القضاء ثم تمشى ذلك في عقول العلماء العدول فعافت نفوسهم القضاء وتمالؤوا على التفصي منه لكان من اثر ذلك ان يصبح الناس فوضى ويرجعوا الى الهمجية الاولى يقتصون لانفسهم تلك الهمجية التي كان من جهد الشريعة ابعاد الناس عنها قال الحماسي :

فلسنا كما كنتم تصيبون سلة فنقبل ضيما او نحكم قاضيا

ولكن حكم السيف فينا مسلط فنرضى اذا ما اصبح السيف راضيا

من أجل ذلك جاء الترغيب في القضاء بالحق كانه ياخذ بيد الخايف الوجل من هذا الامر ويطل به عليه يبين له ان اكبارة خيال كبير وان المرء اذا شاء اجراء العدل كان يلي بولايته القضاء اكبر خطة واصلحها للكون ثم جاء الامام في ءاخر كتاب الاقضية بالترهيب منه ايقاضا لنفوس ربما خامرها الذهول فاستهونت امره بعد استكباره ولم ترقب حق الله من الاحتياط فيه واخرج في هذا الاخير هاتيكم الكلمة الفذة كلمة سلمان رضي الله عنه . وثانيهما يناسب حال المرء الذي يلي القضاء اي ان يكون مكتوبا على هذا السطر القويم فتكون رهبته من القضاء بعد ولايته اشد من نفوره عنه من قبل فان الولاية ربما خيبت اماني وبدلت اخلاقا . قد تغر بوارق المرء فيظن سحابه ماطرا وما هو الاجهام لا ينشيء الا غما للكون وساكنيه وحرارة يوقدها برقه الخلب فيه

خلق افادته الولاية انها خلق يغير اهله ويبدل

اراد الله تعلى عمران هذا الكون ففطر البشر على الدأب نحو استحصال منافعه واجابة طلبات نفسه تلك الفطرة التي هي أصل التسابق لاقتضاء ما يستتب به العمران ولكن هاته الفطرة كانت بحكم الضرورة ميالة الى استلاب المنافع من أيدي أصحابها وروم انضمامها الى المصالح الذاتية احساسا يجده الحي في نفسه ويسمعه يوحي اليه في باطنه ان لو استطعت ان تملك الدنيا فافعل به امكن ان يسعى المرء في نيل ما يجب ولكنه سيجد المدافع عن اخذ ما بيده فيضطر الى الفكر في استخراج ما يطلب من غير يد مالكه بان يسعى اليه من جهة لم يسبق عليها تلك جهة الاحياء والاختراع التي لا ينطفىء نبراسها من الامم ولكنه ينوس بمقدار الحاجة الداعية كما قيل « الحاجة ام الاختراع » ولكن النفوس من قبل اميل الى الدعة والراحة واعشق الى الشيء المشاهد الحاصل فلذلك يكون ميلها الى استلاب المملوكات اسبق من تفكرها في ابتداع ما تشتهيه هكذا كان يجري هذا بين الافراد في خاصتها والقوم في قراها والامم في وحدتها والذي يظهره لكم في مظهر واضح اختلاف الملوك والفاتحين في توسيع الممالك وطموح كل امة الى تعميرها الارض وفناء ما سواها بالوجه الذي تراه. افكان التدافع بين افراد النوع لذلك طبيعيا ناشئا عن تحرك القوتين الشاهيه والغاصبة عند التزاحم في مزدحم الحياة وكذلك تكون المصالح غالبا غير سالمة من اضرار تعقبها هي منها بمنزلة ما تشتمل عليه الثمرة الطيبة من البزور والحلفايات فللتشريع في هذا ان ينظر بعد اقتضاء المصلحة العمرانية الى

ما تخلفه فيكفي الناس مضرته بوجه تسلم بـه تلك المصلحة من الاضرار . هـذا الوجه هـو حماية الحقوق اي رد يد الظالم عن تناول ما للغير بدون رضى وهو أمر حسن توافق عليه الفطرة ما دامت غير مستهواة لهوى غالب في جزئية خاصة ولا تستقل امة عن الحاجة اليه مهما بلغت من الرقي فان الامم المنحطة لا يمكنها الوصول الى ايفاء الحقوق اهلها فضرورتها الى القضاء ليست بالامر الخفي واما الراقية فانها تتالف من جماعات فاضلة ومن اضدادها فلا غنى بها عن تاسيس قواعد العدل لاصلاح الدهماء ولاقناع الحكماء والعلماء لان هؤلاء وان كانوا يعرفون العـدل ويجزمون بحسنه الا انهم في الاحوال الخاصة ماسورون للشهوة او الغضب فكانهم يحبون ان يكونوا في تلك الحالة الخاصة استثناء من هاته المصلحة الكلية لما يغلب من الهوى على التعقل وهكذا يبقى ذو الهوى في كل مسالة يحب الاستثناء فاذا جاءت النوبة غيره احب ان يكون مستثنى ايضا واغراه الطمع ان يقاس على سالفه فكان العدل اذن اصل العمران وبه قامت الارض ودامت الدولات وكان اهم ما ينشأ عنـه صفتين ان همـا تحققتا سعدت الامة ودام بقاؤها الا وهما الحرية والاخوة فان الحرية ان لم يكن معها عـدل ذبلت حتى تساقط الى الحضيض اذ حقيقتها ان ياخـذ المرء بكل حقوقه وان يفي بجميع حقوق غيره وان يصدع بارائه وهذا كله لا يكون بغير العدل كيف يجد المرء بغير العـدل الاخذ بكل حقوقه وهـو يرى الكثير منها مستترا في حصون العظماء فلا تستطيع يده وصولا اليه ولا فمه أن يبدي حنينا عليه ام كيف يمكنه أن يسلم حقوق غيره وهو ان ترك اخذ حقه وزاد فسلم للناس حقوقهم رجعت كفه صفرا فلم يجد في حياته ما يتخذه ذخرا وكيف يمكنه التجاهر برأيه وهو يعلم ان كلمة تغضب زيدا وعملا يسوء عمرا فـلا يأمن من الاذى باصنافه وبهذا ينمحي تغيير المنكر والامر بالمعروف من الناس ذلك الوصف الـذي ان فقدوه فسدوا وذلـوا قال عمر ابن الخطاب لابي مريم الحنفي يوما : اني ابغضك لانك قتلت اخي زيدا قال ابو مريم : يا امير المؤمنين هل يعدمني بغضك اياي حقا لي في الاسلام ؟ قال عمر : اللهم لا قال ابو مريم : اذن لا يرغب في الحب الا النساء .

امـا التاخي فضروري انه لا يحصل ما دامت الامة متنافرة هذا يسلب حقا والآخر يسترجعه وثـالث يرى سلب الاول اياه ملكا فيثأر بحب اخذه من يد مسترجعه وكذلك يكون امرهم تنازعا حتى يفشلـوا وتذهب ريحهم قال تعلى انما المؤمنون اخوة وقال رسوله صلى الله عليه وسلم « المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله » فانظر كيف قرن بين الاخوة ونفي الظلم

لعل في هذا المقدار مقنعا لكم ان أردتم أن تعرفوا مرتبة القضاء بالحق ومكانه من الفضيلـة . قال ابن فرحون « اعلم ان اكثر المؤلفين من اصحابنا بلغوا في الترهيب « من الدخـول في ولايـة « القضاء . . . ورغبوا في الاعراض عنها حتى تقرر في ذهن كثير من الفقهاء والصلحاء ان من ولي « القضاء فقد سهل عليه دينه وهذا غلط فاحش يجب الرجوع عنه والتوبة منه . . . واعلم ان ما جاء

«من الاثار التي فيها تخويف ووعيد فانما هو في حق قضاة الجور العلماء او الجهال الذين يزجون « بانفسهم في هذا المنصب بغير علم واما قولي من ولي القضاء فقد ذبح بغير سكين فهو بمعنى المجاهدة « للنفس وهو دليل على فضيلة من قضى بالحق اذ جعله ذبيح الحق » وقوله تجب التوبة منه صحيح لانه يجر الى تنقص رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ كان القضاء من تصرفاته وتصرفات خلفائه المتأسين به في سنته وسر ما اخرجه الامام رحمه الله في هذا الكتاب تحت ترجمة الترغيب في القضاء بالحق حديث انما انا بشر مثلكم وانكم تختصمون الي ولعل بعضكم ان يكون الحن بحجته من بعض فاقضي له على نحو ما اسمع لينبه على ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قاضيا بين الناس ثم كان القضاء من شان الخلفاء الراشدين فلما ءالت الخلافة الى من لم يكن لهم من العلم بالسنة مكانة تخولهم السلامة من الخطا غالبا ءال ذلك الى اسنادهم هذه الولاية الى احد العلماء المسلم لهم العلم والعدل ليأمنوا يوم القيامة عمل حسابهم اما ان بعدت الاقطار فان من السنة ارسال القضاة تخفيفا من مشقة المتداعين وسرعة بانفاذ الحق المبين . استقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذا باليمن واول من استقضى بالمصر من الخلفاء علي رضي الله عنه استقضى شريحا بالكوفة ايام شغلته الخوارج بحروبها

(ملك عن يحيى ابن سعيد ان ابا الدرداء كتب الى سليمان الفارسي ان هلم الى الارض المقدسة)

ابو الدرداء هو عويمر ابن عامر الخزرجي احد الثلاثة الذين نزلوا دمشق من الصحابة مع بلال ومعاوية توفي سنة ٣١ ولي قضاء القدس في خلافة عثمان وامير الشام يومئذ معاوية وقيل بل ولاه عمر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حكيم امتي ابو الدرداء . وسلمان هو سلمان الفارسي من رامهرمز (١) قال في الاستعاب شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحكمة في قوله لو كان الدين او العلم بالثريا لناله سلمان وفي رواية رجل من فارس والمراد به سلمان توفي سنة ٣٥ شهد وقعة الاحزاب وهو الذي اشار ان تحض المدينة بخندق يحيط بها . سلمان وابو الدرداء ءاخى بينهما النبيء صلى الله عليه وسلم حين ءاخى بين المهاجرين والانصار وقد ورد دخول سلمان بيت ابي الدرداء وانه وجد ام الدرداء متبذلة وانه لام ابا الدرداء على ذلك . وهما من الاربعة الذين شهد لهم معاذ اذ قال: طلبوا العلم عند اربعة رهط عند عويمر ابي الدرداء وسلمان الفارسي وعبد الله ابن مسعود وعبد الله ابن سلام وباعتبار الشهادة النبوية لابي الدرداء وسلمان يكون الحوار الذي دار بينهما ملحقا بالحديث النبوي اذا هو دائر بين الحكمة والعلم المشهود بهما لهما . وهلم اسم فعل بمعنى اقبل الي يلازم حالة واحدة فلا يتغير باختلاف المخاطب به من تعدد او تانيث ، استوفد ابو الدرداء سلمان لمساكنته

---

(١) وتقول العرب رامز اختصارا . مدينة مشهورة من نواحي خوزستان ما بين تستر وشيراز تبعد عن تستر ٨٢ ميلا الى الجنوب الشرقي وموقعها على نهر فتحها المسلمون في خلافة عمر تحت قيادة النعمان ابن مقرن سنة ١٧ من الهجرة

رغبة في جوار أهل الفضل من الاخلاء لانهم رهط الرجل الذين يعتضد بهم وهم انفع اليه من اقاربه المنافرين لشربه فالعاقل في مواصلة اهل رايه ارغب منه في مجاورة اهل جسده وكذلك يكون الجوار حلة متى جلبه الود والاصطحاب ، سئل الحكيم اي الرجلين احب اليك اخوك ام صديقك فقال انما احب اخي اذا كان صديقي قال ابو الوليد الباجي في المنتقى « قول ابي الدرداء ان هلم الى الارض المقدسة يريد المطهرة والمقدس في كلام العرب المطهر وانما اراد موضعا من الشام يسمى المقدس ومنه سمي مسجد ايليا البيت المقدس ومعناه انه مطهر مما كان فيه غيره من الكفر وكان ذلك في وقت من الاوقات فلزمه الوصف بذلك ويحتمل ان يكون معنى تقديسها انها تطهر من الذنوب والخطايا فيكون المعنى المقدس اهله ويدل على هذا قول سلمان ان الارض لا تقدس احدا فيكون انما وصف اهل بيت المقدس بذلك في زمان عملوا فيه بالطاعة وكان كثير منهم انبياء وسايرهم اتباعا لهم اهـ واقول تقديس البقاع مثل تقديس ألاوقات هو امر جعلي من الله تعلى تبعا لما رسم لها من ايقاع الاعمال الصالحة التي أهمها التوحيد وقد كان المسجد المقدس ثاني بيت وضع للناس لاعلان توحيد الله وتنزيهه وذلك اساس فضائل الاعمال (فكتب اليه سلمان ان الارض لا تقدس احدا) لم يشتمل جواب سلمان على تقرير لما يخالف اعتقاده كالذي تشتمل عليه مخاطبات الناس ورسائلهم من الاطراء لما قد يعتقده المرء فاسدا بعلة المداهنة التي علق عليها الناس اسم المداراة فعدموا بذلك فائدة النصيحة والتواصي بالحق ذلك ان سلمان وامثاله صدقوا ما عاهدوا الله من بذل النصيحة لكل مسلم وكذلك يكون الامر بين اقوياء النفوس وراجحي الاحلام ان لا يكتموا شيئا يرون منه صلاحا ونصحا لان الكذب هو علة انقلاب الحقائق وموجب ارتفاع الاطمئنان وذلك يسبب التخاذل والتفريق فلا يرجى اتحاد ما دام هذا سائدا في امة . قوله ان الارض لا تقدس احدا هو رد لما تضمنه كلام ابي الدرداء حين دعاه الى سكنى الارض المقدسة لان الصفة تؤذن بالتعليل فيتضمن انه يكتسب من السكنى بها تقديسا في نفسه وقصد سلمان ان يدفع ما وقر في صدور الناس من الشعور بان المرء قد تغني عنه ملابساته حتى الارض التي هو فيها وابو الدرداء وان كان منزها في نظر سلمان عن اعتقاد هذا لعلمه وصحبته ولكنه رأى لسانه جرى على ما تجري به السنة العموم او انه رام ترغيبه في القرب منه بمرغب ما وهو فضل الارض التي يسكنها استكمالا للفضيلة (وانما يقدس الانسان عمله) جاء بقضية كلية بعد ان نفى التقديس في جزئية لان تلك الجزئية المنفية ليست اولى الجزئيات بثبوت الحكم بحيث ان نفي عنها اقتنع المتكلم عن نفي ما عداها من الجزئيات ما الشبهة فيه اشد والخطأ اليه اسرع نحو قرابة من المقدس او صلة به

فأورد هذا الحصر بانما تنبيها على تعميم القضية فقصر بذلك صفة تقديس الانسان على العمل لا تتجاوزه الى غيره وهو قصر حقيقي وليس ورود القصر بعد النفي بجاعله اضافيا لان النفي انما يلمح الى الاعتقاد المردود الباعث على سلوك طريق القصر على ان النفي هنا متقدم وهو عند التقديم

صريح في انه الداعي الى الخطاب بالقصر يفيد ووزانه وزان انما الولاء لمن اعتق بعد كلام اشار الى ان البايع لا يستحقه ولذا اتفق جمهور الفقهاء على ان لاولاء الامن اعتق (وقد بلغني انك جعلت طبيبا تداوي) اشار الى ولاية ابي الدرداء قضاء بلد القدس ومراد سلمان ظاهر اذ قد علم ابو الدرداء انه لم يكن طبيبا فهو يعلم ان سلمان اراد تمثيل حاله في القضاء بحال الطبيب او المتطبب وسمى القاضي طبيبا على طريقة الاستعارة لمشابهة القاضي الطبيب في اصلاح حال البشر وازالة ادواء الظلم فان كان الطب يصلح مزاج المرضى فالقضاء بالحق يصلح مزاج العالم اجمع كما قال الله تعالى ومن احياها فكانما احيا الناس جميعا لان الناس ان اطرد بينهم القضاء بالحق زالت طماعيتهم في استلاب حقوق الغير فاستقاموا من تلقاء انفسهم متى علموا ان لا غاية يجتنونها من وراء الظلم فاما متى كان القضاء مختلا فان للظالم امنية الانزواء تحت التخفيف هب ان الجور كان يقضي ان يشدد على البريء تارة فان ذلك لا يرفع المظالم لان النفوس عند الشهوات تتمسك بالطمع ولهذا حظرت الشريعة الشفاعة لمن بلغ الامام في الحدود وغيرها ، وجاء بكلمة تداوي ترشيحا للاستعارة وايماء الى وجه الشبه اذ كانت الاستعارة من الغرابة بالمكان الذي ربما ابهم امرها على السامع (فان كنت تبريء) طرد الاستعارة ومن محاسن التشبيه ان يكون مطردا في جميع اصوله وفروعه . واراد بكونه يبريء القدرة على اصابة الحق وحمل الناس عليه بتنفيذه فيهم وتحمل مصاعب القضاء التي اقل ما فيها انه يقضي على ذويه واصحابه وهو كاره وهم كارهون قال الباجي « يريد بالابراء اصابة الحق ورفع الباطل لان الباطل هو الداء الذي يسال عنه المفتي لازالته (فنعما لك) نعم فعل غير متصرف عند محققي النحاة وتدخل عليها ما التي هي في الاصل معرفة غير موصولة هي بمعنى الشيء فتدغم ميم نعم في ميم ما والغالب ان يقع بعدها ضمير مخصوص بالمدح نحو قوله تعالى فنعما هي فان وقع فعل بعد ما صارت موصولة نحو ان الله نعما يعظكم به فلا يذكر بعدها مخصوص بالمدح استغناء عنه بما اشعر به من الكلام واذا وقع بعد ما حرف جر كما هنا صح ان يجعل صلة ما اوصفة لها اي نعم الشيء لك او نعم الذي لك وفي الحديث بئس ما لاحدهم ان يقول ليست ءاية كذا وءاية كذا الخ والمعنى فنعم الشيء لك القضاء بين الناس لما فيه من ايصال الحق (وان كنت متطببا فاحذر ان تقتل انسانا) اراد بالمتطبب هنا المتفعل المتكلف من الطب المراد هناك اي غير عالم بوجوه القضاء ورشح هاته الاستعارة بقوله ان تقتل انسانا وقد شبه بقتل المتطبب مريضه ما يحدثه قضاء القاصر من ضياع الحقوق المفضي الى الفساد فيكون الترشيح مستعارا للازم المشبه من لوازم المشبه به على نحو اعتصموا بحبل الله جميعا فيفيد الترشيح بلفظه والاستعارة بمعناه وقرينته واراد بالمتطبب الذي ليس على بينة من امره فهو يقصد الحق فيقع في الباطل كشان كل من لم يكن متحققا من شيء فسلمان لا يخشى على ابي الدرداء الجور ولا يحذره منه لانه ءامن عليه منه لعدالته اذ هو من اصحاب رسول الله وهم عدول وانما خشي عليه

ان لا يتامل جيد التامل من بعض القضايا مبالغة في النصح له وذلك لان القضاء بغير الحق جهلا يساوي قصد الجور في عدم الوصول الى الحق وفي حديث النساءي عن ابي هريرة قال رسول الله القضاة ثلاثة اثنان في النار وواحد في الجنة رجل عرف الحق فقضى به فهو في الجنة ورجل عرف الحق ولم يقض به وجار فهو في النار ورجل لم يعرف الحق فقضى للناس فهو في النار وهذا يدل على اشتراط العلم في القاضي والعلم مهما اطلق في لسان اهل الاصول والمتقدمين فانما يراد به اصدق معانيه وهو الفكر والنظر فلا يصح عند الايمة ولاية قاضي عامي او مقلد لا يستطيع النظر في مدارك الاحكام او في مسائل الخلاف قال عبد الوهاب في التلقين « ولا يستقضى الا فقيه من اهل الاجتهاد لا عامي مقلد » وشرحه المازري فقال « وقد قال مالك في كتاب ابن حبيب لا ارى خصال القضاء تجتمع اليوم في احد ولكن يجب ان يكون عالما عدلا قال ابن حبيب فان لم يكن عالم فعاقل ورع فانه بالعقل يقف وبالورع يسأل فهذا قول ابن حبيب سهل في ولاية قضاء المقلد ولكنه لم يصرح بجواز هذا مع القدرة على قاضي نظار بل اشار الى كون الضرورة تدعو الى ولاية مقلد ولا خلاف ان ولاية النظار اجدر من ولاية المقلد وانما الخلاف هل تصح ولاية المقلد وتنفيذ احكامه ام لا فيمنع من ذلك الشافعي وهو الذي يحكيه ايمة مذهبنا عن المذهب ويجيز ذلك ابو حنيفة ويامره بمشاورة النظار واحتج اصحابنا واصحاب الشافعي بقوله تعالى لتحكم بين الناس بما اراك الله وبقوله فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول اما عصرنا هذا ففي اقليم المغرب لا يوجد مفت نظار فالمنع من ولاية المقلد تعطيل للاحكام ولكن تختلف احوال المقلدين ثم اذا كان النظر شرطا فهو يتضمن المنع من اشتراط الامام على رجل نظار ان لا يحكم الا بمذهب احد الايمة لان الرجل اذا اداه اجتهاده الى الصواب وامر ان يقضي بخلاف ما عنده فقد صار مامورا بمخالفة الحق في اعتقاده فاذا انعقدت الولاية على هذا الوجه فان هذا عقد لا يجوز وينبغي فسخه ورده وذهب بعض الناس الى ان القضاء على هذه الصفة لا يفسخ بل يمضي ويبطل الشرط لان الفساد في الشرط لا في التولية » اه وقال ابو بكر ابن العربي الذي يقضي بالحق ان كان عن علم فهو الذي تقدم وان كان عن تقليد فلا يجوز ان يتخذ قاضيا الا عند الضرورة فيقضي بفتوى عالم رءاه ورواه بنص النازلة فان قاس على قوله او قال يخرج من هذا كذا او نحوه فهو تعد. اه وقال خليل « مجتهد ان امكن وان لا فامثل مقلد » وشذ ابن رشد وابن زرقون فقالا ذلك مستحب صرح بذلك في المقدمات وعليه قال ابن عاصم « ويستحب العلم فيه » فلما اطلع على هذا اللفظ من لا وقوف له على اصطلاح الناس في العلم ظن ان المستحب العلم المقابل للجهل . هكذا يتم تشبيه سلمان لان العالم بالحق يقضي وهو عالم ان ذلك هو الصواب فهو كالطبيب المعتمد فيما يشير به على تجزية النفع اما المقلد فهو كرجل بلغه ان الدواء نافع ولم يجربه او اقتضب دواء من تلقاء نفسه يريد ان يجربه في ذلك المريض فهذا اذا ناول المريض شيئا لم يكن ءامنا

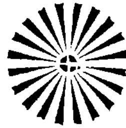
من سوء المغبة واذا نظرنا الى الشروط الواجبة في القاضي نجدها ترجع الى دفع وصف المتطبب عنه وهي التكليف لان غير المكلف قاصر النظر قطعا والذكورة (٢) لضعف المراة عن الاخذ بالحقوق ونزوعها الى الرحمة والشفقة (٣) والحرية لان المملوك لا يرجى لاقامة الحق ما دام يخاف غيره فربما قضى بهوى سيده هـذا هو الذي تشدون عليه من سر اشتراط الحرية في القاضي ولا تصغوا الى ما يذكرونه من ان الرق اثر الكفر لانه لو صح لبطل استقضاء المولى (٤) والعدالة وامرها واضح (٥) والسلامة من فقد الحس او المنطق لانه لا يتوصل الى الحقيقة الا بالفهم والاستفهام وبقي شرط الاتحاد على خلاف فيه فدليل مشترطه انه اعون على اتحاد الاحكام والسلامة من التشويش على الخلق .

(فتدخل النار) لقد ابدع كلام سلمان في التفنن اذ تخلص من المشابهة التمثيلية على طريقة الخطابة البلاغية الى المشابهة الشرعية المسماة بالقياس فمرتب على تمثيل القضاء بغير الحق بقتل النفس تحذيرا من العقاب المشهور لقاتل النفس وهو دخول النار بجامع اضاعة الحق فيهما ولان القضاء قد يتعلق بالقصاص فاذا تساهل فيه قتل نفسا خطأ قريبا من العمد لاجل التساهل وقد بلغ سلمان النصيحة والتذكير بخوف الله تعالى فاستقاموا واقاموا العدل وسادوا العالم فلما انقلبت الحال في عقائد الناس الى المماهلة في امر الله والاستخفاف بالوعيد تحت اسم الرجاء وما هو الا الارجاء واتكل الناس على الطمع في المغفرة ءال بهم الامر الى الادبار قال حجة الاسلام ابو حامد في كتاب الرجاء من احياء علوم الدين « المحبوب المتوقع لا بد ان تكون له اسباب فان كان انتظاره لاجل حصول اكثر اسبابه فهو الرجاء حقيقة وان كان مع انخرام اسبابه فهو الغرور وان لم تكن الاسباب معلومة الوجود ولا العدم فهو التمني اه ومعرفة الاسباب تسهل لمن يعرض نفسه على كتاب الله تعالى ولا يصغى الى ما يقربه الغرور من الاستخفاف وتهوين لامر الله عند عامة عباده . (فكان ابو الدرداء اذا قضى بين اثنين ثم ادبرا عنه نظر اليهما ثم قال ارجعا اعيدا علي قضيتكما) هذا اصل عظيم في ان المرء لا يامن من الخطا ما بلغ به العلم وانه يجب تعقب الاحكام لازالة الخطا عنها وان تقرر الخطا للقاضي اذا لاح له فاستنكافه عن نقض حكمه شر الجورين فان جعل ذلك اليه بالولاية فظاهر وان لم يجعل اليه نقض احكامه وجب عليه رفعها لمن اليه النقض والابرام (متطبب والله) قد يقف النظر هنا ريثما يستبين امر هاته الكلمة فانه يرى ابا الدرداء بعد ان نصح له سلمان بان المتطبب لا يامن ان يقع فيما يدخله النار وقبل النصيحة منه اخبر عن نفسه بانه متطبب فيتساءل لماذا لم يترك هاته الخطة لطبيب فيظن ان هاته كلمة تواضع منه ولكنه ما يقدم خطوته حتى يرى يمين ابي الدرداء على ذلك الذي يعين كلامه للحقيقة وقد كان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتادوا من قدوتهم الاعظم العصمة فصاروا على وجل من اقتحام القضاء بين الناس مع انتفاء العصمة ولذلك قال ابو بكر رضي الله عنه اي ارض تقلني واي سماء تظلني ان قلت في كتاب الله شيئا من رأيي فكذلك ابو الدرداء لما اعتبر

بكلام سلمان رأى أن التطبب لا يفارق غير المعصوم فقال متطبب والله . فينبغي أن يكون مراده تطببا غير التطبب الذي اراده سلمان واحسب انه اراد به عدم امن المجتهدين من الخطا في اجتهادهم فهو لا يسلم من الوعيد الا اذا بذل مقدار استطاعته مع مظنة المقدرة والتاهل من نفسه لان الخطا لا ينافي العلم والنظر ولا يلام في ذلك الا حيث يكون الخطا في محل الوضوح والحياد عن الدليل الى غيره او مع التقصير في تقصي النظر ومعرفة الحجج . فهو باعادة النازلة يستدرك ما عسى ان يلم به من خطا على غرة ولو كان ابو الدرداء شاكا في كفاءته لمنعته عدالته من ان يلي هذا الامر وفي كلام ابي الدرداء ما يصدق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه انه حكيم فقد دل على سعة صدره وترحابه بما يسدى اليه من النصائح وذلك ءاية الكمال ومحبة الحق لان النفوس الكبيرة لا يهمها الا المشي على الصواب ابدا فهي لا تحب ان تخالفه ولذلك تبتهج بكل ما يجنبها الضلال عنه اما النفوس المستضعفة والعقول السخيفة فانها تستنكف عن شعور الناس بحالها اذ ليس لها ما تقنع به نفسها الا المغالطة والتناسي فهي لا تستطيع كمالا مع شعورها بالعجز عنه فلذلك يكون ذكره لها تعبا ونكدا خلاف الاخرى فانها ان لاح لها خطا في بعض اعمالها تعزت بالصواب في بقيتها فانشد حالها قول أبي الطيب :

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا ان تعد معائبه

قال الله تعالى فاما الذين ءامنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون واما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم . وفي ملازمة ابي الدرداء لهاته الكلمة اشعار بتحفظه على النصيحة حتى لقد اتخذ لفظها شعارا له لا يفارقه ذكره في كل قضية وكذلك حكماء الناس اذا اهتموا بامر ربما اتخذوا اسمه شعارا لهم حتى لقد كانت تعرف اخلاق الرجل منهم في اختيار نقش خاتمه وهذه سنة كل قول انما يعتد به اذا تبعه عمل وبمقدار ذلك يكون النفع والتاثير فايما قول او علم لم يتبعه عمل فهو تبعات على صاحبه لهذا تعوذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من علم لا ينفع اي لا ينشأ عنه عمل . قد كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علما . والله اعلم .



الاوقـاف والنظـار

او الاحباس والمقدمون

بقلم العالم النحرير الشيخ الناصر الصدام
مدرس الطبقـة الاولى بجـامع الزيتونة

الوقف في الاسلام احسبه القول السديد الذي ارشـد الله تعلى بـه حيرة المشفقين من اخترام المنية وحيلولتها بينهم وبين الضعفاء من ذريتهم الذين خافوا عليهم من ضياع تراثهم والتدهور في هوة الافلاس وسوء المنقلب لما في الحبس من ينبوع حياة لا ينضب معينه

وفي الوقت نفسه نبـه سبحانه على انه من اثر تقـواه (فليتقوا الله) وهـذا التنبيه من جوامع القرءان الحكيم ذلك ان الوقف تكتنفه تقوى الله تعلى من عموم نواحيه

فالناحية الاولى طيب الكسب الموقوف فلا يصح وقف المغصوب وغير المملوك وما تعلق به حق الغير من غريم او وارث لم يجزه ونحو ذلك

الناحية الثانيـة اخلاص النية فيـه لله سبحانه لا للمراءات وحسن الاحدوثة والتذرع بـه الى المجادة والسؤدد فانما الاعمال بالنيات

الناحية الثالثة ان يتوخى به سبيل العطايا من التسوية بين الاولاد في الانصباء اذ ذلك الافضل في العطية ولا جناح عليه ان سلك بذلك مناهج الفريضة الشرعية (للذكر مثل حظ الانثيين) او حرم الانثى مطلقا لكنه يقعد به ملوما محسورا

الناحية الرابعة ان يعهد بالولاية والرقابة عليه لمن يغلب على ظنه رشده وكفاءته فان ذلك وسيلة حفظ كيان الاوقاف لما للمتولي من رد اليد العادية عنها اذ يزع الله تعلى بالسلطان ما لا يزع بالقرءان ولما له ايضا من البصارة باحيائها وانمائها واستثمارها وصرف غلاتها في مصارفها

فحقا انه القول السديد والكنف الاحمى لوقاية الاموال والابقاء عليها وجعلها موردا لارتزاق العائلة أولها وآخرها وهو آية من آياته سبحانه

ثم لنا فيه وراء ذلك مئارب اخرى افلا تراه كيف ظاهر ذوي الهمم واليسار وتقوى القلوب على اشادة المساجد والحصون والمعاقل والمدارس وما الى ذلك من كل ما فيه مصلحة عامة الامر الذي يوفر على بيت المال موارده ويديمه عدة وارهابا ولولاه لما سمحت انفسهم بشيء من ذلك اذ لاضمان بابقاء ما كان على ما كان الا بالوقف

ومن ثم خرج الوقف بمجرد التحبيس عن ملك الواقف الى ملك مالك يوم الدين سبحانه

نشأ الوقف نشأته الاولى في الاسلام على يد مشرعه صلى الله عليه وسلم المبين للناس ما نزل اليهم متنوعا الى نوعيه الاهلي والعام وذلك في الحوائط السبعة التي اوقفها صلى الله عليه وسلم على ما في كتب

السنة والفقه فكان منها ما سبل في المصالح العامة كالفقراء والمساكين وابن السبيل وفي الرقاب والغزاة في سبيل الله تعلى والضيف ومنها ما سبل على النفس مدة الحياة والعيال والذرية حتى اذا ما انقرضوا وهو الوقف المؤبد والملك الحرام المسرمد رجع لجهة بر لا تنقطع كفقراء المهاجرين مثلا

وفي احكام الاوقاف للخصاف رحمه الله تعلى بروايته عن سفيان بن عيينة رضي الله تعلى عنه الذي كان يلي صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم (ابو رافع) رضي الله تعلى عنه فكان ياتيه منها بالباكورة فياكلها ويؤكلها

واصرح من هذا دلالة على ولاية الولاة والنظار والمقدمين ما روي في صدقة وتحبيس الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب رضي الله تعلى عنه ونصه على ما في احكام الاوقاف حدثنا يزيد بن هارون قال حدثنا عبد الله بن عون عن نافع عن ابن عمر قال اصاب عمر مرة ارضا بخيبر فقال يا رسول الله اني اصبت ارضا بخيبر لم اصب ما لا قط انفس عندي منها فما تأمرني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان شئت حبست اصلها وتصدقت بثمرتها فجعلها عمر صدقة لاتباع ولا توهب ولا تورث يتصدق بها على الفقراء والمساكين وابن السبيل وفي الرقاب والغزاة في سبيل الله والضيف لا جناح على من وليها ان يأكل منها بالمعروف وان يطعم صديقا غير متمول منه واوصى به الى حفصة ام المؤمنين ثم الى الاكابر من آل عمر اهـ)

واصرح من هذه دلالة ايضا ما في اواخر الكتاب المومى اليه ونصه فان قلت(١) أرأيت رجلا جعل ارضا له وحددها صدقة موقوفة لله تعلى ابدا على وجوه سماها وقفا صحيحا وجعل القيام بامر هذا الوقف في حياته وبعد وفاته الى رجل وجعل لهذا الرجل من غلة هذا الوقف في كل سنة مالا معلوما لقيامه بامر هذا الوقف هل يجوز هذا ؟ قال هذا جائز قياسا على ما فعله عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فيما جعل للقيم بصدقته اذ قال على ان لوالي هذه الصدقة ان ياكل منها غير متاثل مالا وعلى(٢) ما جعله علي بن ابي طالب رضي الله تعلى عنه للعبيد الذين وقفهم مع صدقته يقومون بعمارة صدقته وهذا بمنزلة

---

(١) السائل هو الامام ابوبكر الخصاف المؤلف والمسؤول هو شيخه هلال رحمهما الله

(٢) قال الخصاف في كتابه احكام الاوقاف حدثنا محمد بن عمر الوقادي قال حدثنا سليمان بن بلال وعبد العزيز بن محمد عن ابيه عن علي ابن ابي طالب رضي الله عنه ان عمر ابن الخطاب قطع لعلي ينبع وهو حصن له عيون ونخيل وزروع بطريق حاج مصر ثم اشترى علي الى قطيعته التي قطع له عمر اشياء فحفر فيها عينا فبينما هم يعملون اذ انفجر عليهم مثل عنق الجزور من الماء فاتى عليا فبشره بذلك فقال علي بشر الوارث ثم تصدق بها على الفقراء والمساكين وفي سبيل الله وابن السبيل القريب والبعيد في السلم والحرب يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ليصرف الله النار عن وجهه بها ثم قال وحدثنا علي بن عيينة عن عمرو ابن دينار قال في صدقة علي بن ابي طالب ان جبيرا ورباحا وابانيزر موالي يعملون في المال خمس حجج منه نفقاتهم ونفقات اهليهم ثم هم احرار لوجه الله تعلى اهـ محل الحاجة منه

الاجراء والوكلاء فيالوقف الا ترى ان لوالي الوقف ان يستاجر الاجراء لما يحتاج اليه من العمارة وهذا شيء قد كفينا مؤنة الاحتجاج له لان عمل الناس عليه قلت هل يحد القيام الذي يستحق به هذا الرجل ما جعل له الواقف من غلة هذه الصدقة قال ليس عندنا في هذا شيء محدود وانما ذلك على ما يتعارفه الناس من القيام بعمارة ما وقعت عليه عقدة هذه الصدقة واستغلال ذلك وبيع غلاته وتفرقة ما يجتمع من غلاته في الوجوه التي سبلها فيها قلت أرأيت ان يباشر الرجل هذا بنفسه قال انما يكلف من هذا ما يجوز ان يفعله مثله ولا ينبغي له ان يقصر عن ذلك واما ما كان يفعله الوكلاء والاجراء فليس ذلك عليه الا ترى انه لو جعل القيام بذلك الى امراة من اهله او من بيته وجعل لقيامها بذلك مالا سماه لها في كل سنة هل تكلف المراة من القيام الا مثل ما يفعله النساء قال ليس عليها من ذلك الا ما يتعارفه الناس في هذا الامر الا ترى ان الرجل يكون له الضياع فلا يباشرها بنفسه ولا يشاهدها وانما يقوم بامرها كفاته فكذلك حال القيم بامر هذه الصدقة فيما يتولاه من ذلك) اهـ

وفي موضع آخر من هذا الكتاب ان الذي يلي على الوقف وكيل للواقف في حياته ووصي له بعد موته اهـ

وأرى ان نظر الوقف والقائم عليه هو وراء كونه وكيلا او وصيا محتسب خاص على شعيرة خاصة من شعائر الله تعلى لها اهميتها وخطورتها ووجود الناظر في الوقف شرط لقيامه ودوامه على ما سلف تحريره فلا وقف الا بناظره القائم عليه . ذلك مدرك المذهب الحنفي الزكي رضي الله تعلى عن امامه وعن سائر ائمة الدين في امر النظار والمقدمين

هذا وقد تاصلت قواعد هذا المذهب في الاوقاف على ما فيه تسهيل وتقريب وترغيب للناس في الوقف واكثر اصحاب الامام الاعظم رضي الله تعلى عنه بصارة باحكام الوقف ومعرفة لاسراره وحكمه واحاطة بما صح عن الامام فيه تلميذه الآخذ عنه الامام الثاني ابو يوسف رحمه الله تعلى الذي اقسم كغيره من التلامذة الائمة الآخذين عنه قدس سره على انهم لم يقولوا في مسالة من المسائل بقول غير مروي عن شيخهم امام المذهب ابي حنيفة النعمان روح الله روحه وقدس سره حسبما نص على ذلك في عامة كتب المذهب فمن ذلك القول بصحة الوقف على النفس ومنه القول بعدم افتقار صحة الحبس الى الحوز والقبول ومنه انه يصح على من سيوجد بخلاف الوصية حيث لا تصح للمعدوم الى غير ذلك من مظاهر التقريب والترغيب ومن ثم توافر المسلمون في مشارق الارض ومغاربها قديما وحديثا على تقليد هذا المذهب فيما لهم من الاوقاف لائذا بما فيه من تيسير ناهيك انه يصير الحبس فيه حبسا بمجرد قول الواقف حبست

وحيث كان الاغلب على اوقاف الناس في ديارنا التونسية ما نص فيه اصحابه على تقليد مذهب ابي يوسف جرى عمل امراء المسلمين بتونس على تخصيص احكام الاوقاف بالمذهب الحنفي

وعلى ذلك جرى عمل اميرنا ابقاه الله تبعا لاعمال اسلافه وطريقتهم المرضية مراعاة لجانب المصلحة اما ما كان مالكيا فانه لا تخصيص فيه ،

كما ان لهؤلاء الامراء نظرا ساميا في تخصيص بعض المسائل والقضايا باحد المذهبين الزكيين الحنفي والمالكي المنتشرين بهذا القطر المحروس كتخصيصهم لمسالة رؤية الهلال ولمسألة الميراث وغيرهما من كثير من المسائل بالمذهب المالكي الزكي

واختيار أئمة المسلمين لقول من قولين أو أقوال في مذهب أو مذاهب شنشنة أخزمية اذ لهم في كل عصر من التبصر بمصالح الرعية ما يخولهم ذلك

وذلك فيما اظن من اصول منشإ اختلاف العمل عند السادة المالكية . ثم من قبل ان الشريعة الاسلامية قد جاءت بتحكيم العرف وبافساح المجال لائمة المسلمين وقضاتهم في تخصيص ما يرون تخصيصه للقضاء استغنت عن التجديد الذي هو ضروري للشرائع الوضعية(١)

هذا وبما اننا قد احطنا خبرا بنسبة النظار والمقدمين من الاوقاف وهي نسبة الشرط من المشروط وجب المصير الى بيان ما يلزم اجراؤه واتخاذه في الوقت الحاضر دفعا للضرر اللاحق للاوقاف من جراء فساد الزمان وضياع الامانة فنقول .

ينبغي ان يكون نظر الاوقاف الى هيئة علمية حنفية يرأسها فضيلة الشيخ المفتي الحنفي المكلف بالاحتساب على الاوقاف بعضوية ثلاثة مدرسين من الطبقة العليا بالجامع الاعظم ادام الله عمرانه ومن عشرة كتاب على الاقل من مهرة المتخرجين في شهادة التحصيل يرشحون لذلك بمناظرة تجري لانتخابهم ومن أعوان ثقات للاستخلاص وغيره ومن مترجم ومن محامين من ذوي الذمة والتضلع في الحقوق تنتخبهم الهيئة بمزيد التحري والاحتياط

هذه هي الاركان الذاتية للهيئة المذكورة واما ما يتعلق بمواد اجراءاتها الادارية فلنا فيه اليوم كلمة موجزة نلقيها مذيلين بها هاته العجالة وهي ان تعمل هاته الهيئة في حدود ما يحرر الاوقاف من كل ما يأتي على جانب من ثروتها ومن الاجراءات المجحفة بوفرة ريعها ولو بوجه الانزال او المعاوضة وغير ذلك مما لا يلائم كيانها الاصلاحي وحرماتها الدينية كل ذلك في نفوذ واسع وسلطان وازع وسيف من الاقضية المحدثة لما احدث من الفجور قاطع والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

محمد الناصر الصدام

---

(١) واما حديث ان الله يبعث على رأس كل مائة عام من يجدد على هذه الامة امن دينها الذي اخرجه ابو داود فالتجديد فيه بمعنى التقوية والتأكيد ذلك أن تطاول الامد موجب لقسوة القلوب وضعف الوازع الديني قال الله تعالى فتطاول عليهم الامد فقست قلوبهم . ولا ريب أن المائة سنة أمد طويل والتجديد تذكير والذكرى تنفع المؤمنين . هذا هو معنى التجديد وحمله على خلاف هذا من تحريف الكلم عن مواضعه .

القضاة الشرعيون

في القديم

بقلم العلامة الجليل الشيخ سيدي محمد
البشير النيفر الاستاذ بجامع الزيتونة

١٢ أبـو القاسم بن زيتون

ولي القضاء بعد أن صرف عنه ابن ابي الدنيا في التاريخ الذي رايته قريبا (١) ثم صرف هو عنه ايضا ثامن عشر شهر ربيع الاول سنة ٦٨٠ واعيد ابن الغماز الى القضاء

وهذا القاضي من افذاذ رجال عصره. وهو ابو احمد ويكنى بابي الفضل ايضا بن ابي بكر بن مسفر بن ابي بكر بن احمد بن عبد الرفيع اليمني ويلقب بتقي الدين . وفي عنوان الدراية : ابو القاسم ابن ابي بكر اليمني اه

ولد سنة ٦٢١ وتبرز في الفقه حتى قال صاحب عنوان الدراية في شانه : وفقهه جار على قوانين النظر والاجتهاد وكان طلبه العلم اول امره بتونس ثم تحركت همته للضرب في الارض في سبيل تحصيله فام المشرق سنة ٦٤٨ وسمع الحديث من الحافظ عبد العظيم المنذري وغيره واخذ عن سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام وشمس الدين الخسروشاهي وسراج الدين الارموي ثم حج البيت ورجع الى تونس ثم خرج منها الى مصر سنة ٦٥٦ فأقام بالقاهرة ثم حج ورجع الى بلاده

ولم يكن رحمه الله فقيها فحسب بل كان كما في عنوان الدراية عالما بالاصلين والمنطق ذا مشاركة في الحكمة . وفي الديباج للشيخ فرحون انه اول من اظهر تآليف فخر الدين بن الخطيب الاصولية باقرائه اياها في مدينة تونس

وفي عنوان الدراية انه توجه في الرسالة لبعض ملوك المغرب عن المستنصر بالله الحفصي مرتين فشكرت رسالته وحمدت همته العلية وسياسته اه

ورأيت في باب العقيقة من مختصر الشيخ ابن عرفة الفقهي ان صاحب الترجمة دخل على المستنصر بالله فسأله كيف تسمى بابي القاسم مع صحة حديث تسموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي فأجابه الشيخ بأنه تسمى بكنية النبيء صلى الله عليه وسلم ولم يتكن بها ونقل الشيخ ابن عرفة عن بعض شيوخ شيوخه استحسان هذا الجواب . وفي هذا الحوار من العبرة حسن مشاركة الامير المستنصر وبداهة الشيخ ابن زيتون

(١) راجع صفحة ٣٥٣ من الجزء الثامن

وقد وهن الجواب الشيخ الابي في شرحه على صحيح مسلم « ص ٤١٦ ج (٥) طبع مطبعة السعادة سنة ١٣٢٨ وله الحق فيما يظهر

ذلك انه صح من حديث ابن المنكدر وهو في صحيح مسلم انه سمع جابر بن عبد الله يقول ولد لرجل منا غلام فسماه القاسم فقلنا لا نكنيك ابا القاسم ولا ننعمك عينا فأتى النبيء صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال أسم ابنك عبد الرحمان اه قال : الأبي لا يسمى بأبي القاسم كما لا يسمى القاسم على هذا الحديث . ثم ذكر قصة صاحب الترجمة مع المستنصر واستحسان بعض اهل عصره الجواب وقفى على اثره بقوله : ولا يخفى عليك ما في هذا الجواب من النظر على هذا الحديث اه ثم قال : وفي العتبية قيل لمالك رضي الله عنه قد كنيت ابنك بابي القاسم قال ما فعلت بل هو فعل اهل البيت ولا باس به قال ابن رشد رضي الله عنه لا باس تدل على ان تركه اولى لما في ظاهره من الاخبار بالكذب ولا اثم فيه لان القصد ترفيعه لا الاخبار به اه

والذي نقله الشيخ ابن عرفة عن القاضي عياض أن فقهاء الامصار على جواز التسمية والتكنية بأبي القاسم وان النهي عنه منسوخ

وخلاصة القول في الموضوع انه ثبت النهي عن التكني بكنية النبيء صلى الله عليه وسلم وهو في الصحيحين فقصر مالك وجماعة النهي على زمانه صلى الله عليه وسلم لان علة النهي خوف الالتباس به عليه الصلاة والسلام فقد جاء في احدى روايات الحديث عند مسلم من طريق انس نادى رجل رجلا بالبقيع يا ابا القاسم فالتفت اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني لم اعنك انما دعوت فلانا فقال رسول الله صلى الله عليه وسليم تسموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي

وذهب الاكثر الى ان النهي عن ذلك منسوخ وقد سمى جماعة من السلف ابناءهم بمحمد وكنوهم بابي القاسم والحجة لذلك حديث علي وطلحة رضي الله عنهما واستشهاد علي رضي الله عنه ناسا أنه صلى الله عليه وسلم رخص في ذلك .

هذا وكانت وفاة صاحب الترجمة يوم الاثنين سابع شهر رمضان سنة ٦٩١ ودفن بجبل المرسى قال الزركشي ومثله في الديباج : ولا يكاد يصح ما نقله الشيخ احمد بابا عن التجيبي ان مولده سنة ٦٦٦ ووفاته سنة ٧٣٠ لانه ولي قضاء الجماعة سنة ٦٧٩ كما اسلفناه قريبا فهل يكون عمره يومئذ ثلاث عشرة سنة ؟

١٣ الغوري الصفاقسي

جاء ذكر هذا القاضي اثناء كلام للزركشي في وفاة الشيخ ابي محمد المرجاني ولم يذكر تاريخ ولايته قال « ص٤٣ » من تاريخه ما نصه وفي اوائل جمادى الاولى سنة ٩٩ « اي وستمائة » توفي الشيخ الصالح المرجاني ودفن بجبل الجلاز وكان صديقا لقاضي الجماعة بتونس الفقيه أبي يحيى أبي بكر الغوري الصفاقسي وكان القاضي مريضا فكتم قرباؤه موت صديقه ولم يخبروه به وجعلوا

يوصون من يعوده بان لا يخبره بموت صديقه فاتى الفقيه أبو اسحاق بن عبد الرفيع لعيادة القاضي فاوصي ان لا يخبره بشيء فنسي واخبره وازداد القاضي مرضا على مرضه وتوفي يوم الاحد رابع عشر جمادى الاول سنة ٩٩ فقدم بعده لقضاء الجماعة بتونس الفقيه العالم :

١٤ ابو اسحاق ابراهيم بن الحسين بن علي بن عبد الرفيع الربعي

وهي أول ولايته لهذه الخطة فحكم عاما واحد عشر شهرا ثم عزل وولي عوضه الفقيه :

١٥ أبو زيد عبد الرحمان بن القطان الباوي

من أهل سوسة في غرة ربيع الآخر من سنة احدى وسبعمائة وتوجه الى سوسة وابطأ على الناس فضجوا من تأخر خصوماتهم فامر ابو اسحاق ابن عبد الرفيع بتنفيذ الاحكام الى ان يقدم القاضي فتواصى حسدته من صنفه بأنه لا يعلم بوصوله حتى يكون بمحفل يقال له فيه لا تحكم فان القاضي قد وصل وجعلوا من يرصد الطريق ففهمها ابن عبد الرفيع واوصى من يثق به ان يخبره قبل دخول القاضي بوصوله ليكون هو الممسك عن الحكومة ويصرف العون عن بابه بنفسه. فاتفق ان كان يوم سبت وقد جرت عادة قضاة تونس وفقهائها بوصولهم يوم السبت بمجلس الخليفة للسلام عليه ويجلس كل صنف منهم مع صنفه في بيوت اعدت لهم الى ان يخرج الخليفة. فبينما الفقهاء والقضاة جالسون وابن عبد الرفيع بينهم اذ أقبل كاشفه يعلمه قبل ان تصل رصدة حساده بقدوم القاضي فلما رءاه فهم فقام من محل جلوس القاضي منتقلا الى بت اهل الشورى ففهم عنه حسدته فحدقوا ابصارهم نحوه فانحلت عقدة سراويله وقد توسط حلقة المجلس فجعل يصلحها ونظر اليهم... فادار وجهه اليهم وقال الحمد لله الذي لم يجعل فيكم من يصلح لها فأبكتهم ونكاهم من تشمتهم بقيامه. اهـ ما قاله الزركشي بنصه (يتبع)

محمد البشير النيفر

مجلة الامالي

في عامها الثاني

مجلة الامالي من خيرة المجلات العلمية الثقافية التي تصدر ببيروت وقد قطعت مرحلتها الاولى بانتهاء عامها الاول فخورة بما نشرته من الابحاث الرفيعة الشان والمقالات المدبجة بيراعة علية الكتاب ذات المواضيع الثقافية الادبية الممتعة بما يدل على اتساع الحركة العلمية وانتشارها في القطر السوري العريق في المعارف والمجد وقد وصلتنا الاعداد الاولى للمجلد الثاني حافلة بالابحاث والمواضيع المتنوعة فنثني على همة صاحبها ومديرها الكاتب الفذ الدكتور عمر فروخ والهيئة المساعدة له. ونرجو للرصيفة حياة وانتشارا وكل تقدير

صفحة من تاريخ تونس

وثيقة تاريخية جليلة

(مارستان العزافين والمستشفى الصادقي)

بقلم العالم المؤرخ امير الامراء سيدي
محمد بن الخوجه مستشار الحكومة التونسية

مما لا خلاف فيه ان مدينة القيروان في عهد الاغالبة ومدينة المهدية في زمن العبيديين ومدينة تونس في العصر الحفصي كان بجميعها ملاجي خيرية لمعالجة المرضى ومآوي للبائس وابن السبيل قاموا بذلك وفقا للمقصود من الاحباس التي كان يتصدق بها اهل البر والمعروف على اخوانهم المسلمين المعوزين في هاتيك العصور - فلما استقر الاتراك بهذه الديار في اواخر المائة العاشرة كان خيارهم من ذكور واناث بين سابق ولاحق في ميدان المشاريع الخيرية من شتى الاصناف وبديهي ان كان في المقدمة اعظم تلك القربات الى الله وهي المساجد لاقامة الصلوات ثم الحقوا بها المدارس لنشر العلم وصرفوا مع ذلك مجموع همتهم نحو حماية البيضة باقامة الثكنات والحصون والاسوار ثم مد الجسور والطرقات باطراف البلاد وعمروها بالاسبلة لتمهيد اسباب العمران - وممن حفظ لهم التاريخ جميل الذكر في هذا المقام الباي محمد ويدعى حمودة باشا المرادي فهذا الامير الصالح هو المؤسس لمارستان العزافين المعروف بتونس وهو موضوع الحديث . ولقد عثرت اثناء بحوثي المتواصلة للكشف عن مآثر اسلافنا الكرام برد الله مراقدهم على وقفية هذا المستشفى الذي كانوا يسمونه بالمارستان (١) فرايت من خدمة التاريخ نشر عبارة هذه الوثيقة الجليلة تخليدا لذكر صاحبها قدس الله سره وءاثرت بها هذه المجلة المباركة لاسيما وان العامة في تونس بل وحتى بعض الخاصة يعتقدون ان مستشفى العزافين من مآثر صاحبة الخيرات عزيزة عثمانة (٢) وهو مجرد وهم سرى لبعض المتقدمين درج

(١) لفظ مارستان محرف عن بيمارستان في اللغة الفارسية ودخل للاستعمال بتونس في عهد الدولة المرادية على يد الاتراك قال الشهاب الخفاجي : هو لفظة فارسية استعملها العرب ومعناها مجمع المرضى لان بيمار معناه المريض وستان هو الموضع واول من صنعه بقراط اه من كتابنا جيش الدخيل في اللسان التونسي الاصيل

(٢) اسمها عزيزة بنت احمد بن محمد بن عثمان داي دفين زاوية الشيخ سيدي احمد بن عروس وكانت وفاته سنة ١٠١٩ وعلى عهده كان قدوم جالية الاندلس الاخيرة بتونس اما المحسنة حفيدته العزيزة عثمانة فقد التحقت بالدار الاخرة في حدود سنة ١٠٨٠ ودفنت بتربتها المجاورة للمدرسة الشماعية بحلقة النحال (لا النعال كما هو مشهور على السنة الناس بتونس)

عليه المتاخرون بسبب ان هذه المحسنة الكبيرة ما زالت لها صدقات جارية الى هذا الزمان وقع الاصطلاح على الحاقها من حيث الوجهة النظامية باوقاف المارستان كوقفها المؤسس لتزويج البنات الابكار ووقفها الخاص بختن فقراء الصبيان الذين كانوا يباشرون اختتانهم يوم عاشوراء بسقيف المستشفى (١) ويزودونهم بالاكسية اللازمة من ريع ذلك الحبس فحسبوا ان المستشفى نفسه ايضا من حسنات تلك السيدة الكريمة ولم يكن هذا الغلط التاريخي بالمقصور على اهل تونس فقط بل نجده ايضا بين اهل البوادي ولنسق لك مثالا في ذلك ففي مدة مباشرتي لعمل بنزرت حضر لدي ذات يوم شيخ قبطنة ليحيطني علما باحوال جهته وكان في جملة مقرراته الاعلام بنازلة رجل اصيب بطلقة مكحلة جعلت حالته في خطر فسالته هل عجل بعرضه على الطبيب فاجاب : نعم لمجرد وقوع الحادث عجلت بحمل الجريح لمستشفى عزيزة عثمانة بفريفيل (كذا) قال ذلك معتقدا ان مستشفى فريفيل (٢) الذي هو مؤسسة عسكرية فرنساوية حديثة فرع لمارستان عزيزة عثمانة الذي لا وجود له الا في عالم الخيال او ان كل مستشفى يطلق عليه اسم عزيزة عثمانة .

اما الوثيقة التاريخية المشار اليها في مقدمة الكلام فهذه عبارتها :

الوثيقة التاريخية

الحمد لله الذي بيده الضعف والقوة وخلق الداء والدواء وجعل الجرم كفارة للجرم جالبا للاجر دافعا للبلوى . يعلم ما ظهر وما بطن وما عليه كل انطوى . والصلاة والسلام على نبيه الاكرم وطبيبه الاعظم سيد العرب والعجم سيدنا ومولانا محمد خاص المحبة عام الرسالة والدعوى . رحمة العالم وارومة دوائه قطب دائرة حكمه ومعدن شفائه المنزه في فصيح نطقه عن الهوى . كفى دليلا بسورة والنجم اذا هوى . وعلى ءاله الاطهار واصحابه الاخيار انجم الهدى واساس التقوى . وبعد فلما كانت سلسلة الممكنات مرتبطة بوجود الحق تبارك وتعالى فكذلك ينتظم نظام كل مملكة بوجود امير او خليفة فان الاصل ان السلطان امان من حوادث الزمان كان مما من الله به على هذه الديار التونسية والبلاد الافريقية حضرة من انام الانام في ظل الامان . وانشأ لهم سحائب الخيرات والاحسان . فافاضها عليهم من هاطل وبلها الهتان . من رد بسياسته كيد ذوي البغي والطغيان . ومهد بهيبة رئاسته

---

(١) ختن الصبيان الفقراء تباشره جمعية الاوقاف بطريقة منتظمة في موسم عاشوراء من كل عام واختتانهم يقع في هذا الزمان بمدرسة بير الحجار

(٢) فريفيل بلدة تابعة لعمل بنزرت ظهرت في عالم الوجود على راس هذا القرن المسيحي واسمها مقتبس من اسم الوزير جول فيري مبتكر مشروع حماية فرنسا على تونس ومن ملحقاتها بلدة تينجة تشتملان معا على نحو ثمانية ءالاف نسمة اكثرهم من العملة الفرنساويين بترسخانة سيدي عبد الله بوراوي وقد اختصت تلك الجهة بانتاج ثمار الفراولة ذات التجارة الرابحة يصدر منها ارباب السواني نحو اربعة ءالاف رطل في اليوم لفندق الغلة بتونس

طرق الخوف والعدوان . حتى سار بها الرجال والولدان . وذوات الخدور الخرائد الحسان . فكم قاس قساه بقسي سهمه السديد . فاصاب الغرض بحبل الوريد . وكم عاد اليه فعاد عليه بعائدة الصلة من فيض بحره المديد . وهو السيد الامين العلم الاظهر الشهير نخبة الامراء الماضين . وتحفة سلالة الباشات السالفين . مدبر حياة عسكر تونس المشهورة . وصاحب راياتها المنشورة . اخو الانابة والاصابة في القول والانشا . السيد ابو عبد الله محمد باشا . اعانه الله بعناية رعايته . وادام على المسلمين العافية ببقاء ولايته . اذ كان اعلى الله تعالى قدره . واحفل واجمل بجميل الثناء ذكره . مع اشتغاله بهذه السياسة العظيمة . والرئاسة الصميمة . له مزيد اعتناء بالتقرب بالقربات . من مواساة ذوي الحاجات والهيئات . والصدقات الوافية الجارية . والاحباس الصالحة الباقية . فمن ذلك ما تعلقت به الآن همته العالية . وتوجهت اليه وجهته السامية . رفقا بحال الفقراء ورثا لشان الضعفاء والمرضى . احدث مارستانا اليه ياوون . به دواءهم وقوتهم وما يحتاجون . وقد استقر على ملكه حفظه الله تعالى وابقى اسعاده وبلغه ما امله ١ جميع الفندق القبلي المفتح قرب القباقبيين . ومكتب العزافين داخل تونس المحروسة يحده قبلة حيث المفتح وشرقا حق الآن للدعيصي وجوفا حق للمؤذن الحاج محمد القصار وغيره وغربا الطريق بحقوقه ومنافعه ٢ وجميع الستة حوانيت المخرجة منها الشاملة لها حدوده المذكورة الخ ٣ وجميع الفرن المعد الان لطبخ الخ ٤ وجميع الكوشة المعدة الخ ٥ وجميع الفندق الجوفي الخ ٦ وجميع الحانوتين المخرجين من الفندق المذكور الخ ٧ وجميع المخزن الجوفي الخ ٨ وجميع الكوشة الشرقية الخ ٩ وجميع الحانوت الشرقي الخ ١٠ وجميع الكوشة القبلية الخ ١١ وجميع الفندق القبلي الخ ١٢ وجميع الحانوتين الشرقيين الخ ١٣ وجميع الفندق ذي البابين الخ ١٤ وجميع الفندق الغربي الباب الخ ١٥ وجميع الحمام الغربي الباب المحدث البناء الكائن ببلد الكاف الخ ١٦ وجميع الخمس حوانيت الملاصقة له الخ ١٧ وجميع الماء المجلوب من العين المعروفة بعين سيدي سالم الخ ١٨ وجميع الماء الخارج من الحمام المذكور الخ ١٩ وجميع الحمام الغربي المفتح ببلد زغوان الخ ٢٠ وجميع الاربع تبنات ماء من الماء الجاري بالبلد المذكورة الخ ٢١ وجميع الفرن القبلي المعد للخبز الكائن ببلد الكاف الخ ٢٢ وجميع الطاحونة المعدة لرحي الطعام الغربية بالكاف الخ ٢٣ وجميع الحمام الشرقي الكائن برحبة بنزرت الخ ٢٤ وجميع الكوشة والدار الملاصقة لها بربض بلد باجه الخ ٢٥ وجميع الفندق الغربي بها الخ ٢٦ وجميع النصف من جميع الدار الجوفية الباب الكائنة بحارة اليهود داخل باب السويقة من تونس المحروسة الخ وبعد تقرر ذلك كذلك حضر الآن لشهيديه السيد المعظم الارفع مولانا ابو عبد الله محمد باشا صاحب كرسي مدينة تونس المحروسة وهو الواضع طابعه هـ ا ايده الله ونصره وألهمه الخير وبصره . وهو المالك لجميع الربع المحدود المذكور اعلاه . زيد فخره وعلاه . ابن الامير المعظم المنعم المقدس المرحوم السائر الى رحمة الله الملك القيوم مولانا ابي

الظفر مراد باشا قدس الله روحه واسكنه من الجنان فسيحه واشهد حفظه الله تعالى انه حبس ووقف جميع الرباع المحدودة المذكورة اعلاه بما لها من الحقوق والمنافع وما يعد منها وينسب اليها على ما سيذكر مفصلا بعد فالفندق المبدأ بذكره جعله مارستانا منزلا لسكنى المرضى والجرحى من سفر البحر او المحال او الغزو في سبيل الله الفقراء الذين لا مال لهم وليس لهم من يقوم بهم ولا من يؤويهم بمدينة تونس فينزل به المرضى المذكورون ويقيمون مدة بقاء المرض بهم الى حصول الشفاء التام فاذا بريء من مرضه احد المرضى واخبر الطبيب بشفائه فالناظر بالمارستان المذكور اخراجه ولا فرق في المريض والجريح ان يكون عربيا او عجميا تركيا او غيره وباقي الرباع المذكورة كلها تصرف غلتها فيما سيذكر ويفسر بعد فمنها ما يكفيهم من القوت والدواء اللائق بحال كل واحد منهم ومن يقوم بخدمتهم وتمريضهم ليلا ونهارا الى بلوغ الغاية وكذا ما يكفيهم من الفراش والغطاء والوطاء من الحصر والمضارب والسفاسر والوزاري (١) شتاء والملاحف من الكتان صيفا ومن قدر الله بوفاته من المرضى المذكورين فالمارستان المذكور ينفق عليه ما يكفيه في كفنه ومواراته ودفنه وعين حفظه الله تعالى طبيبا ماهرا لعلاجهم فيعالج كلا منهم بما يليق به من الاشربة والمعاجن والدهان والمراهم على ان له بيتا من المارستان المذكور يضع فيه ما يحتاج اليه من الادوية وغيرها وحانوتا من الحوانيت الملاصقة للمارستان المذكور يجلس فيه وثمانية ناصريه (٢) واربع خبزات موظفة له كل يوم وعين ناظرا على المارستان المذكور ينظر في مصالحه ويقبض محصول اوقافه ويصرفها في مصارفها وله ست ناصريات (٣) واربع خبزات موظفة كل يوم وطباخا يطبخ لهم قوتهم من لحم وغيره وله خمسة ناصرية وخبزتان كل يوم ورجلا ينفق عليهم وكيلا للخرج وله اربعة ناصرية وخبزتان كل يوم ورجلا بوابا ملازما المارستان ليلا ونهارا يتعاطى غلق ابوابه وكنس عرصته وفنائه واستقاء مائه للشراب والغسل وغسل ثياب المرضى وغير ذلك مما يحتاجون اليه وله ثمانية ناصرية واربع خبزات كل يوم والخبز المذكور كل خبزة منه بناصري في زمن الرخاء والشدة (٤) حبس جميع الرباع المذكورة ووقفها على من ذكر كيف ذكر بما لها من الحقوق والمنافع حبسا حراما ووقفا دائما سرمدا

(١) الوزاري جمع وزرة وهي عبارة عن احرام من نسيج صوف الضأن الاسود في غالب الاحوال وقد يكون من الصوف الأبيض واليها ينسب سوق الوزر بتونس خلافا لما يعتقده بعضهم من انها نسبة وزيرية

(٢) هذه الجراية المعطاة للطبيب كانت بمقدار جراية شيوخ التدريس في ذلك الزمان

(٣) مفرده ناصري نسبة لمبتكره السلطان الناصر لدين الله وهو من مسكوك الفضه يقابله في المسكوك الذهبي الدينار المؤمني نسبة لعبد المؤمن بن علي وكانوا يلقبونه في افريقية بامير المسلمين وتلقب بعده المستنصر بالله الحفصي بامير المؤمنين

(٤) يستروح من هذا القيد انهم كانوا يعرفون في ذلك الزمان نظام المقاولات بطريقة المناقصة في لزم التوريد والتموين وشبه ذلك

لا يباع ولا يوهب ولا يورث الى ان يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين . لا يبدل عن حاله . ولا يغير عن منواله الى ان يرثه الله قائما على اصوله محفوظا بشروطه فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم قصد بذلك ابتغاء وجه الله العظيم ورجاء ثوابه الجسيم أنه يجزي المتصدقين ولا يضيع اجر المحسنين وذلك كله بعد التبدية بما يحتاج اليه الربع المذكور من بناء واصلاح حتى يبقى قائما على اصوله منتفعا به وجعل النظر في ذلك اولديه المعظمين الاسعدين المرفعين الامجدين السيد ابي الظفر مراد باي صاحب المحال المنصورة والسيد ابي عبد الله محمد باي صاحب سنجق مدينة القيروان المحمية وسوسه والمنستير وصفاقس والبلاد الساحلية حفظهما الله تعالى ثم للاكبر فالاكبر والاصلح فالاصلح من اخوتهما الذكور ثم لاولادهم واولاد اولادهم واعقابهم واعقاب اعقابهم ما تناسلوا وامتدت فروعهم في الاسلام لا يتقدم اهل الطبقة السفلى على اهل الطبقة العليا في النظر ولو كانوا اسن منهم واذن حفظه الله تعالى للناظر الآن في المارستان المذكور وهو الاجل موسى خميرة الاندلسي في قبول ذلك منه وحوزه جميع الرباع المسطورة عنه فحضر وقبل ذلك منه قبولا تاما واحاله على ثواب الاخرة شهد على اشهادهما بذلك في الحالة الجائزة من وقف على الاستقرار المذكور كيف ذكر بتاريخ اواسط شهر ربيع الاول الشريف بمولده صلى الله عليه وسلم تسليما عام ثلاثة وسبعين والف بمعرفة الناظر المذكور والمعرفة بالسيد محمد باشا المذكور تامة حفظه الله تعالى واحسن اليه - بشهادة الفقيهين الاعدلين الشيخ ابي عبد الله محمد المحرزي والشيخ المفتي عبد الله ناجي (١) فهذه نسخة ذلك على ما هو عليه فمن قابله باصله اتفقا وكانا نصا سوا وشهد بذلك هنا اوائل حجة الحرام من عام مائة والف اه يليه عقدا شاهديه

بعد هذا نقول ان صريح عبارة هذا التحبيس تفيدنا ان مارستان العزافين كان باصل وضعه مستشفى خاصا بالغزاة والمجاهدين المسلمين في البر والبحر وبالتالي وقع التوسع في النفع به لفائدة عموم فقراء المسلمين لا سيما بعد القضاء على القرصنة البحرية ومحو قوانينها من لوحة الوجود فكان المارستان المتحدث عنه من يومئذ قاصرا على الفقراء والبائسين من اهل البلاد طيلة العصر الحسيني وقد توفق الباشا علي باي الثاني ابن حسين بن علي بتعزيزه بتكية للرجال واخرى للنساء في سنة ١١٨٨ ومن القدر المقدور ان كان القرن الثالث عشر للهجرة مرتعا لمقدمات التمدن الاروباوي بتونس وفي اثنائه توثقت روابط الخلطة بين تونس وبين البلاد الاروباوية ولا سيما فرنسا الفخيمة حامية هذه الديار فاخذت الدولة التونسية من يومئذ تتدرج في مراقي النهوض بالحاضرة المحمية اقتداء بعواصم اروبا الى ان كانت دولة المشير محمد باي فامضى بمساعدة الدولة الفرنساوية اتفاقا في التحمل بسبعة ملايين ريالا لجلب ماء عين زغوان لمدينة تونس التي كانت ترتوي منه قبل

(١) لم نقف على اسم هذا الفقيه بسلسلة الفقهاء التي بين ايدينا

ذلك بستمائة سنة في عهد المستنصر الحفصي بواسطة القناة التاريخية التي اقامها لذلك الانبراطور هادريان في اوائل القرن الثاني الميلاد والخامس قبل الهجرة وكان في مقدمة النظامات الجديدة التي ادخلها المشير المذكور لبلاده مشروع عهد الامان الذي اعلن به اخوه من بعده واسس المطبعة الرسمية واشترى لوازمها من باريس كما اسس مجلسا بلديا بالحاضرة ووضع نظاما للديوان الشرع المطهر وسن له قانونا جامعا من انشاء صهره الشيخ محمد بيرم الرابع وخلفه بكرسي الايالة في سنة ١٢٧٦ شقيقه المشير محمد الصادق باي فسار في منهج الاصلاح العصري من حيث انتهى سلفه ووجه مهجته باجمعها في ذلك السبيل مبتدئا بالاعلان بقانون عهد الامان المشار اليه ونصب المجالس الناتجة عنه ثم احدث جريدة رسمية للحكومة وهي صحيفة الرائد التونسي التي هي اليوم في السنة الثامنة والثمانين من عمرها الزاهر السعيد ووضع ترتيبا للوزارات ووسع في دواليبها التي انشأها من قبله ابن عمه المشير الاول احمد باي واعار جانبا عظيما من نشاطه للجانب العلمي فوسع في ارزاق شيوخ التدريس بجامع الزيتونة واقام المكتبة الصادقية مكان المكتبة الحفصية بالعبدلية التي عفت رسومها من اواخر المائة العاشرة متمما بذلك مشروع ابن عمه المشير احمد باي الذي عمر صدر جامع الزيتونة بخزانة كتبه الثمينة التي احدثها في سنة ١٢٥٦ ووضع ترتيبا للتدريس بالجامع وءاخر لضبط احوال الاشهاد العام وآخر لتحسين احوال السجون واهلها وءاخر للفلاحة الخ الخ وكانت مفخرة مساعيه الجليلة في باب المستجدات العصرية تاسيس المدرسة الصادقية كل ذلك تم على يد وزيره الناصح الامين المرحوم خير الدين وهنا لا مناص لنا من الاشارة لكون الاصلاحات التي تمت على يد خير الدين كان لاهل العلم نصيب فيها لا سيما العلماء الاعلام والشيوخ العظام منهم الشيخ احمد بن الخوجة وكان في راس تلك الطائفة الصالحة ومن رجالها الاطهار ايضا الشيخ الشاذلي بن صالح والشيخ محمد بيرم والشيخ الطاهر النيفر والشيخ مصطفى رضوان والشيخ سالم بوحاجب والشيخ عمر بن الشيخ وغيرهم الهداة الاعلام والمقام لا يقتضي التوسع بأكثر من هذا لان زيادة البسط فيه تبعدنا عن الموضوع الذي نحن بصدد البحث فيه فلنرجع بقراء المجلة لروح المقصود ونقول ان من متممات الاصلاحات التي وقع انجازها في عهد الدولة الصادقية المستشفى الصادقي وهذا المستشفى الذي شمله برنامج الوزير خير الدين لم تهيئ له الاقدار اظهاره لعالم الوجود لانه بارح الوزارة قبل انتهاء اعماله فيه وبعد تهيئة اسبابه لان يكون مستشفى اسلامي تام العدة يحاكي المستشفيات الاروباوية لاسيما وانه كان يومئذ بتونس مستشفى خاص بالاروباويين واسمه مستشفى صان لويس يعالجون فيه مرضاهم (١) فتخلى خير الدين عن الوزارة

(١) في اوائل القرن الثاني عشر للهجرة ظهر على يد قنصل فرنسا اول مستشفى للجالية الاروباوية بتونس وكان موقعه بحومة سيدي المرجاني داخل باب البحر وكان يعرف بين اهل البلاد باسم « سبيتار النصارى » ولفظ سبيتار محرف عن hopital في الفرنساوية ومعناه مستشفى وبالتالي عوض هذا المارستان بمستشفى ءاخر اوفر منه مرافقا واحسن مناخا وفي سنة ١٢٤٩ وقع تحويل

في سنة ١٢٩٤ وتولاها مكانه (موقتا) الوزير محمد خزندار وفارقها بعد شهور فتقدم لها الوزير مصطفى بن اسماعيل في سنة ١٢٩٥ وحاول ان يبني لنفسه – ولكن بدون اساس – صرحا من المجد قياسا على صنيع سلفه الاسبق خير الدين وهنا دبر عليه بعض خواصه بالشروع في بداية امره باستمالة العلماء واعيان البلاد اليه حيث كانوا على بينة من نشأته واطواره فبادر لاشتراء كتب المرحوم امير الامراء عصمان قائد عساكر الساحل واضاف لها ما وصلت اليه يده من كتب الوزير الاسبق مصطفى خزندار وحبس جميع ذلك على اهل العلم بجامع الزيتونة ثم سعى في اتمام مشروع المستشفى الصادقي الذي بقي معطلا من عهد خير الدين وفعلا تم ذلك في اوائل صفر سنة ١٢٩٦ ووقع نصبه بالقشلة المعروفة بقشلة البشامقية (١) ونقل اليه مرضى مارستان العزافين وجعلت نظارته للشيخ محمد بيرم رئيس جمعية الاوقاف التي كان بيدها من قبل حق التصرف في مداخيل الرباع والعقارات الموقوفة على مارستان العزافين وفي يوم افتتاحه ترأس سمو الباي المعظم بنفسه على حفلة التدشين اظهارا لعنايته بهذا المشروع الجليل واشرف بذاته على المرضى واوصى بهم خيرا وخطب في ذلك المجلس وحوله وزراؤه ورجال دولته واهل العلم فقال والكلام من انشاء وزير القلم الشيخ محمد العزيز بوعتور : لقد سرني ما شاهدته من حسن وضع هذا المستشفى المبارك واستحسنت ترتيبه وتنظيمه وانا اشكر جنابك ايها الوزير الاكبر (مصطفى بن اسماعيل) على اعتنائك بهذه المصلحة التي نرجو ان تكون

المارستان الاول بمساعي قنصل فرنسا لكنيسة اطلق عليها اسم « سانت كروا » رمزا لطغمة الرهبان الثالوثيين المنتصبين بها وهذه هي عين الكنيسة الموجودة لهذا الزمان بنهج الكنيسة بتونس trinitaires وهذا نص الامر الملوكي الصادر بذلك من المرحوم المولى حسين باي :

من عبد الله سبحانه الراجي عفوه وغفرانه المتوكل عليه المفوض جميع الامور اليه حسين باشا باي امير افريقيا وفقه الله لما يرضاه وعانه (كذا) على ما اولاه الى معاهدنا القنصل اسكندر دفال القائم بقنصلية دولة الفرنسيس بتونس اما بعد فانه وصلنا كتابكم في شان كنيسة لاجتماع النصارى فيها وجميع ما ينتم لنا علمناه والجواب نحن اعطيناكم المكان المعروف بالسبيتار داخل باب البحر وجعلنا كراءه الف ريال كل عام وان كنا سابقا ناخذ منه كراء كثيرا لكن مساعدة احوالكم ءاثرناها وقد ءاذناكم في التصرف فيه على الوجه المناسب لكم ولا زائد الا الخير وكتب في ٢٨ محرم سنة ١٢٤٩ اهـ ثم في سنة ١٢٦١ تفضل المشير احمد باي باسقاط جملة الكراء الموظف على هذه الكنيسة وزاد في مساحتها بما يقرب من مساحتها الاصلية

(١) قشلة البشامقية هي احدى القشلات الخمس التي احدثها المرحوم الباي حمودة باشا الحسيني بتونس والاربع الاخريات هي قشلة الزنايدية وبها اليوم دواوين ادارة جمعية الاوقاف وقشلة العطارين وبها اليوم المكتبة العمومية الفرنساوية ومدرسة اللغة والاداب العربية وادارة الانطكخانة وقشلة سيدي عامر البطاش وتسمى ايضا قشلة المال لان المشير احمد باي نصب بها البنك التونسي الذي كانت حياته قصيرة وءال امره للافلاس وبها اليوم مصالح الجمعية الخيرية الفرنساوية وهي الكائنة ببطحاء نهج سيدي علي عزوز وقشلة الحنفية وهذه عفت رسومها واقام المجلس البلدي مكانها بطحاء فسيحة مشجرة للعموم وهي الكائنة بسوق الوزر

محققة النفع حيث انجزتها في اقرب وقت وعلى وفق المامول كما اني اثني على من باشر وضعه على وفق المقصود منه وبذل جهده في ذلك واحث من انتخبناهم لاجراء ترتيبه على الاعتناء بما تقتضيه مصلحة المحل وسكانه ببذل كل منهم جهده في ذلك بما تقتضيه ماموريته ونرجو من الله تعلى ان يرينا نفعه ويعين اولئك المنتخبين على ما يثمر لهم الشكر واحرض جنابك على الاعتناء باعانتهم والمحافظة على اجراء ترتيبه واحترامه والمامول من الله تعالى ان يقر اعين الاهالي بما يشاهدونه من راحة سكانه وانتظام حالهم وعموم الشفاء لهم اه

وقد ارخه صاحبنا المرحوم العلامة المورخ الشيخ محمد السنوسي بابيات ننقلها هنا اتماما للفائدة

لمشير تونس خير فضل يقتفى	فيما اشاد الى الاهالي واصطفا
فحمى جميعهم بفضل وارف	وحباهم منه الحباء الالطفا
نشر المعارف والعوارف بعد ان	حاط المحاكم والزروع بما كفى
والان اثل خير مستشفى به	حفظ الحياة لكل شخص قد وفا
واتى يعود جميعم في موكب	ظل الفخار عليه اضحى مورفا
حتى غدا كل ينادي داعيا	ويقول في التاريخ لي قدم الشفا

١٢٩٦

وبالتالي زيد في توسيع محلات المستشفى الصادقي بادخال المدرسة اليوسفية في عموم ابنيته ثم باستلحاق جميع الدور والحوانيت المجاورة له بنهج البشامقية كما الحقت به ايضا الارض الفسيحة الكائنة بالقصباء التي كانت موقعا لمقبرة السلسلة الدارسة التي سبق نقل رفاتها لمقابر الزلاج لنحو ثلاثين سنة فارطة بحيث لقد اصبح اليوم المستشفى الصادقي في ابتهاجه وانتهاجه يضاهي ارقى المستشفيات العصرية بحسن مناخه ومرافقه وانتظام احواله كل ذلك مع بقائه على قاعدة الاختصاص بمعالجة المرضى المسلمين دون غيرهم وحيث اصبحت مداخيل اوقافه المنجرة له من مارستان العزافين غير موفية بحاجاته لما تناوله من التوسيع والضبط والاصلاح الملائم للنظم الصحية العصرية لتحقيق النفع به لقصاده الكثيرين من اهل الحاضرة وغيرهم فان الدولة اغدقت عليه بما فيه الكفاية من الميزانية العامة للقيام بمهمته الجليلة بحيث هو اليوم جدير بان يعتبر في مقدمة التاسيسات التونسية النافعة التي يحق لنا الافتخار بها بين عموم عناصر السكان لا سيما اذا اعتبرنا ما نتج عن نظامه الحديث من تهيئة طبقة معتبرة من المعاونين الطبيين التونسيين الذين بلغوا في الحذق لصناعتهم لمنتهاه وعم بهم النفع في الحواضر والبوادي وربك يخلق ما يشاء ويختار

محمد بن الخوجة

صفحة من تاريخ تونس

صلة تونس بالدولة العلية

بعثة خير الدين للاستانة

سنتي ١٢٨١ - ١٢٨٨

للعالم امير الامراء الاستاذ
محمد صالح مزالي عامل بنزرت

« ١٨ »

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى ءاله وصحبه وسلم

الهمام المفخم أمير الامراء الوزير المباشر السيد خير الدين حرسه الله تعلى السلام عليكم ورحمة الله تعلى وبركاته وبعد فان المعظم الارفع مولانا وسيدنا دام عزه وعلاه لم يزل ملاحظا لما ضمنه املي جنابه من ان المناسب هو الاقتصار على الطابع السعيد في كتابه للابواب العلية وللصدارة وان تصحيحنا فيهما غير لازم ولاجل ذلك كتب ايده الله تعلى نظيرين منهما مختومين بالطابع السعيد فقط وهما الواصلان لكم ونرجو انهما يصلان اليكم قبل الاحتياج لتسليم الاولين الذين بايديكم فاذا بلغا اليكم قبل ذلك فانك تبقي الكتابين الاولين وتسلم هذين وقد كاتبناكم بالتلغراف بالارقام لتعلم بمجرد وصولكم على خبر ذلك واذا تاخر عنكم ورود ما ذكر وخشيت التعطيل او ان يقع في الظن شيء فانك لا تضيع الوقت في الانتظار ويرى الحاضر ما لا يراه الغائب وعلى فرض انه لزمك تسليم الاولين وتوجه أعتراض فان الاعتذار عن التصحيح هو الاهتمام بحال النازلة وبموجب هذا التلغراف يكون ابتداركم فيها تكاتبنا به بالتلغراف حرف التاء المثنات ونسركم ان الحضرة العلية ونحن وجميع الاهل بخير الشكر لله تعلى والله تعلى يمدكم باعانته وحفظه والسلام من الفقير الى ربه تعلى امير الامراء الوزير الاكبر مصطفى وكتب يوم ٢٤ السبت من جمادى الثانية سنة ١٢٨٨

مصطفى

(وبطرته) الحاق خير وقد كنا تكلمنا معكم في شان النيشان ونعرفكم بان الحضرة العلية لم بات لها نيشان المجيدية المرصع نبهناك لهذا والله تعلى ولي عونكم والسلام مصطفى

« ١٩ »

صورة التلغراف الرمزي الموجه من الوزير المباشر خير الدين لجناب الوزير الاكبر التونسي مؤرخا من اسلامبول في الثامن والعشرين من جمادى الثانية سنة ١٢٨٨

٢٢»١»١٤»٢٦»١٧»٢٦»١٤»١٦»٢٩ ٢»٢٦»٢٥»٢٨»١٩»٢٩»١٤»٢٨»١»٢٩»٢٤»٢٩»

٢٦.»٢»٢٦»١٤»٢٨»١٩»٢٦»١٨»٢٥»٢١»٢٨»٢٩»١٤»١٧»٧»٢٩»٩»٢٥»١٥»٥»١٥»٢٦»٧

١٦»٧»٢٨،١٥»١»٢٩»٢٤»٢٩»

ومفتاح ذلك اعتبار الباء مبدأ الحساب في ترتيب حروف الهجاء فيكون النص بعد الايضاح :

قبل وصولنا توفي عالي باشا وتولى عوضه في الصدارة محمود نديم باشا

« ٢٠ »

صورة التلغراف المؤرخ في ٢ رجب سنة ١٢٨٨

٢٨»١٣»٢٧»٢٥»١٤»٢١»٢٨»٢٩»١٣»١»٢٨»١٣»٢٥»٩»٢٧»٨»٢٥»٢١»٢٨»١٣»٢٦

٢٧»١»٢٢»٨»٢٨»١٣»٢٧»٢٥»١٣»٢٨»١٣»١٢»٢٦»١٤»٢٠»٢٧»٢٨»١٣»١٥»٢٨»٩»١٣»

٢٤»٢٦»١٥»٢٤»٣»٦»٢٧»٢٨»١٣»١٥»٢٨»٩»١٣»٢٤»٢٦»١٥»٢٤»٣»٦»٢٧»٦»٢٠»٢٧»

١٨»١٨»١٣»٢٧»٢٢»٢٥»٢٨»١٩»٧»٢٨»١٣»١٥»٢٨»٩»١٣»٢٤»٢»١٤»١»٢١»١٨»٢٨»١٣

،»١٤»٢١»٢٨ ٢٩»١٣»٢٤»١٣»١٣»١٢،١٣»٢٦»١٤»

وفي هذا ينبغي اعتبار بداية الحساب بحرف التاء حسب الاصطلاح فتكون ترجمة البرقية :

اليوم قابلت الوزير وقال لا يتيسر اليوم الكلام في النازلة لانه جديد في الخطة فيلزمه الاطلاع على كواغد النازلة ثم تقع المقابلة للكلام

***

وهكذا في كل برقية ينتقل من حرف الى آخر على ترتيب المعجم ليكون ذلك الحرف هو الاول في الاعتبار ويكون الحرف بعده ذا الرقم ٢ وهلم جرا ـ ولا فائدة في التطويل باثبات نصوص البرقيات على صورتها الرمزية فلنكتف اذن بنقل ترجمتها بلسان القلم

« ٢١ »

ترجمة برقية للوزير الاكبر بتاريخ الخامس من رجب سنة ١٢٨٨ (مفتاح حلها حرف الثاء) :

بلغنا تلغرافكم المؤرخ بيوم الاثنين والمكاتيب لم تصلنا الآن واليوم قابلت الوزير مرة ثانية فاخبرني انه لم يزل يتأمل في النازلة وعن قريب تتقابل للبحث عن كيفية فصلها

« ٢٢ »

برقية له في ٩ رجب (مفتاح حلها حرف الجيم)

في هذا اليوم وقع كلام اجمالي مع الوزير يظهر منه انه ليس لهم مطالب خارجة عن دائرة ما يمكن قبوله وبعد الاتضاح نشرح لكم الحال

« ٢٣ »

نص مكتوب للحضرة العلية مؤرخ في ٥ رجب سنة ١٢٨٨

قد وصلنا بحمد الله تعالى الى اسلامبول صبيحة يوم الاربعاء الفارط ولقينا بسعادتكم في حال نزولنا وبعده مزيد الاكرام اللائق بخدام حضرتكم مع ما صادفناه عندهم من التغيرات والتبديلات الواقعة في الوظائف السياسية الناشئة عن موت الصدر الاعظم عليه رحمة الله وخلفه في الصدارة سعادة محمود نديم باشا وقد قابلته يوم السبت الماضي لكن لخلو ذهنه من اصول نازلتنا لزم تاخير الكلام الى مقابلة اخرى

والحاصل انا لم نر بحمد الله من اول السفرة الى هذا الوقت ما تتكدر منه الا وفاة خديم حضرتكم امير اللواء السيد الياس جعله الله تعلى فداء حضرتكم المحمية ثم قبل كتب هذا بنحو ساعة قابلت الوزير المذكور مرة ثانية فاخبرني انه لم يزل يتأمل في النازلة وعما قريب تقع المقابلة للبحث عن كيفية الانفصال في شانها هذا ملخص ما عندنا الآن انهيناه لحضرتكم السامية ومهما يتجدد عندنا امر نبادر بانهائه بالتلغراف الى جناب الوزير الاكبر والله تعلى يديم تاييدكم وعزكم

« ٢٤ »

للوزير الاكبر في عين التاريخ

فانا بحمد الله لم نر في هذه السفرة الى الآن امرا مكدرا الا وفاة المرحوم سي اليـاس جعله الله فداءكم من البـاس وتفصيل السفرة انا لما راينا طيب الهواء في اول مسيرنا ترجح عندنـا ان نغتم فرصة هدو البحر ونقصد طريق اسلامبول من غير تعريج الى مالطة فسالنا عن الفحم فقالوا يكفينا الى اسلامبول فقصدنا طريقها ولم يتغير علينا الهواء الا بقرب البوغاز فهناك تحركت رياح معارضة لسيرنا ولو كنا ذهبنا لمالطة لكانت تصادفنا في البحر الكبير وربما نرجع بها الى خلف وكان وصولنا الى إسلامبول في صبيحة يوم الاربعاء الفارط فمكثنا بالفابور الى ان اتانا مأمور من قبطان باشا وبعد ذهابه اطلقنا مدافع السلام فاجابتنا مدافع الترسخانة هناك وقبل نزولنا بلغنا خبر وفاة الصدر عالي باشا ومحمد قبرسلي باشا فالاول مات يوم الاربعاء والثاني يوم الخميس الذي يليه وهو يوم ركوبنا من تونس ثم وجه لنا قايق من قياق السلطان وبه مامور من الباب العالي فنزلنا فيه الى البر ووجدنا كروسة عينوها لركوبنا ما دمنا هناك وانزلونا بدار كانت معدة لسكنى رئيس الضبطية ولم نزل نرى الاكرام يتزايد كل يوم ولما كان يوم الخميس والجمعة لا خدمة فيهما تاخرت مقابلة الصدر الى يوم السبت والصدر الجديد اسمه محمود نديم باشا ولم يقع بيننا في المقابلة الاولى الا ما اخبرت به سيادتكم بالتلغراف واما ما كان من خبر سي الياس فانه بعد نزولنا تخلف بالفابور لترتيب احوال البحرية وكان العزم

انه من الغد يقدم للدار التي نحن بها ليقيم معنا فما راعنا الا وشخصان من بحريتنا يقرعان الباب في اخر الليل فاخبرانا بموته فسالناهما عن السبب فقالا لم نر لذلك سببا سوى انا كنا جالسين معه بالقمرة في اول الليل فسمعنا زعزعة شديدة بالفابور فقام السيد الياس فزعا من ذلك وظن ان الفابور ادركه الغرق فتبين ان فابور البوسطة السلطاني صادم فابورنا صدمة شديدة حتى انقلعت قروته التي بالبروة وبموجب ذلك ادخل الان للترسخانة للاصلاح ثم ان السيد الياس بعد سكون روعه قدم اليه العشاء فاكل كعادته ثم ذهب لينام فاخذه القيء اولا ثم تهوع ليتقايا ثانيا فلم يقدر ثم اضطجع يتاوه ثم انقلب على جنبه نخاطبه الحاضرون فلم يرد عليهم فارسلوا لطبيب الفابور القريب منهم فما اتى الا وقد نجز رحمة الله عليه فامتحنه الطبيب فقال انه مات بما يشبه النقط عافاكم الله وقد صار لدفنه موكب عسكري حفيل حضره نائب وزير البحرية بنفسه وهو ابراهم باشا وذهب وراء جنازته راجلا والمطر يهمي على راسه ولم يزل واقفا في المطر حتى وقع الفراغ من الدفن وكان دفنه بتربة قاسم باشا المعدة لدفن الكبراء عندهم ثم اني قابلت الصدر مرة ثانية في يوم التاريخ فاخبرني بانه لم يزل يتامل في النازلة وعما قريب تقع المقابلة للبحث عن كيفية فصلها وقد ورد علينا تلغرافكم الثالث المؤرخ بامس التاريخ يتضمن انتظاركم لعلم ما وقع في النازلة وسؤالكم عن وصول المكاتيب الموجهة من جنابكم فاجبناكم بان المكاتيب لم تصلنا الان لعدم مضي المدة التي يمكن فيها وصولها واما انتظاركم لعلم ما وقع في النازلة فسيادتكم تتحقق انا لو حصلنا على ادنى علم مفيد لكنا نبادر بانهائه في الحين الى جنابكم لكن لا يخفى سيادتكم ان موت الصدر من الامور التي حدث بها تبدل كبير في الوظايف السياسية كما تتعرفون ذلك من الجوايب وممن تبدل امس التاريخ شيخ الاسلام وتولى مكانه عالم يقال له منلا افندي فافكار القوم مشغوله باحوال التبدلات المشار اليها ومع ذلك فقد وقع الوعد بمناجزة الانفصال والتسديد بيد الكبير المتعال (كذا) وبمقتضي ما نشأ عن موت الصدر المذكور من انقلاب الوظائف وصيرورة اربابها الآن غير معروفين لنا ولا عارفين باحوال نازلتنا ربما يخشى منه التصعب كما انهم بمنة الله واعانته ربما يكونون من قسم وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وان كنا الى الان لم نر منهم الا البشاشة وقد اخبر الصدر يوم التاريخ انه عما قريب يقابلني بحضرة السلطان ويصلكم مع هذا مكتوب للحضرة العلية من جناب الصدر الجديد في الاعلام بولايته جعله الله مباركا على الاسلام والسلام

الحاق خير اذا ظهر لجنابكم ان تطلب من فضل الحضرة العلية اعانة ايتام المرحوم السيد الياس فلا باس بذلك فاني نظن انهم محتاجون ودمتم

تنبيه

ضاق نطاق العدد عن نشر قسم من ديوان الشيخ الورغي وسنتابع نشره ان شاء الله في الاعداد القابلة

اقترحنا على شاعرنا المجيد الاديب الكبير الشيخ الطاهر القصار ان يعارض قصيدة الورغي التي عارض بها « يا هبة باكرت من نحو دارين » فاجاد وبلغ غاية المراد في هذه المعارضة التى وصف فيها عشية في شاطيء رواد مع جمع من اخوان الصفا

عشية في شاطيء رواد

للعالم الاديب الشيخ الطاهر
القصار المدرس بجامع الزيتونة

يمم برواد مرعى الشاء والنون ... واصرف حديثك عن غيطان جيرون
وخذ على الشاعر الورغي غفلته ... عن ذكر رواد في وصف البساتين
شط حبته الصبا درعا مزردة ... تبدو بشمس المسا في خير تلوين
تخاله ذوب فاروز يخالطه ... ذوب اللجين بتمويه وتزيين
تميس مثل القطا امواجه مرحا ... فيزدري حسنها بالخرد العين
تاتيك صامتة حتى اذا بلغت ... الى الضفاف اهلت بالتلاحين
كانهن قيان حركت وترا ... من عود اسحاق في ايوان هارون
أو أنهن مزامير قد ابتدرت ... من نفخ داوود حظا غير مغبون
فترقص الطير في عليائها جذلا ... وتنثني طربا خضر الافانين
وينعم النعم الراعي بضفته ... بكمأة وبماء غير مأسون

***

شط فسيح نقي العرض من دنس ... ومن مظاهر اصباغ وتلوين
ومن مزيف حسن غب تطرية ... من المساحيق تغري كل مأفون
به الطبيعة قد جلت محاسنها ... في معرض الوصف عن شك وتخمين
رمل كحلة ديباج يريك به ... وقع الحوافر اشكال التعابين
ومنزه غادر الوسمي روابيه ... تختال عجبا بتيجان الرياحين
فيدري حسنها ءامال خاطبها ... في ساحة الروض من تين وزيتون
صفت بجانبها الاكواخ ءاهلة ... بسادة البدو والعرب الميامين
لهم من الشمس اولى القبلتين وفي ... بيوتهم موئل السفر المضاعين
ففي البداوة حظ النفس مكتمل ... في يسر عيش من الانكاد مأمون
وفي البداوة حسن غير مفتقر ... لما عهدناه من صبغ وتحسين
لله وقت تقضى عند شاطيء رو ... واد الجميل بانس غير موهون
في رفقة زانت الآداب مجلسهم ... في ما يصوغون من نثر وموزون
عشية من يد الدنيا قد اختلست ... تقل في حقها اموال قارون
سيقت الينا بها اللذات اجمعها ... لكنها بين مشروع ومسنون
والقوم في لجة الآداب قد نسجوا ... لصيد در ولاستخراج مكنون
هذي الاماني فدع من قال عن وله ... « ياهبة باكرت من نحو دارين »
وقل لمن يبتغي للنفس راحتها ... يمم برواد مرعى الشاء والنون

الطاهر القصار

الوعظ والارشاد

استقبال شهر رمضان

بقلم الفاضل الواعظ الشيخ الجيلاني حمزه

الحمد لله الذي فضل شهر رمضان وجعله شهر البركة وشهر العبادة وشهر الاحسان ، واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له الملك الديان ، واشهد ان سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله النبيء العدنان ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى ءاله واصحابه ومن تبعهم باحسان وسلم تسليما كثيرا اما بعد فيا عباد الله لقد هبت عليكم الان نسمات رمضان الزكية ، واشرقت عليكم انوار ايامه ولياليه الزاهرة البهية ، فاهلا وسهلا برمضان . اهلا وسهلا ومرحبا بطلعتك الميمونة يا شهر الامة وموسم الغفران ، هنيئا لك بزيارتك المباركة ايها الطبيب الجليل ، والحاذق النبيل ، فايامك ولياليك ساطعة الانوار ، وبركات ساعاتك مشاهدة لاولي البصائر والابصار ، ما صامك احد ايمانا واحتسابا الا قبل منه صومه ، وخرج من ذنوبه كيوم ولدته امه ، فانت شهر الربح ؛ ورمز العفو والصفح . فيا ليت شعري من لم يربح فيك ففي اي وقت يربح . ومن لم يجتهد بالطاعة في ايامك ففي اي وقت يسعد وينجح ، انت زمن البركات ، وشهر الطاعات ، من رحم فيك فهو المرحوم ، ومن حرم خيرك فهو المحروم ، انت موسم التجار من اتجر فيك بالاعمال الصالحة كان ربحه عتق رقبته من النار فاستقبلوه ايها الاخوان بالفرح والسرور وعمل الطاعات . ولا تستقبلوه باللهو واللعب والاخلاد الى الشهوات ، تزودوا فيه بالاعمال الصالحة والقربات . واملئوه بالحسنات والصدقات والصلوات . فلقد جعل الله الحسنة في رمضان بعشر امثالها الى سبعمائة ضعف الى ما لا يعلم له مقدار وجعله مكفرا لذنوبكم وما لكم من سابق الاوزار . فاحمدوا الله على هذه الرحمة العظيمة الغالية ، واشكروه ان امد في انفاسكم واحياكم حتى شاهدتم رمضان مرة ثانية وانتم بصحة وعافية . فقد كان اسلافكم يفرحون الفرح الشديد بقدوم رمضان ويعدون ادراك رمضان فضلا من الله ونعمة وكرما ورحمة ، وكان صلى الله عليه وسلم يبشر اصحابه بقدوم رمضان يقول « قد جاءكم شهر رمضان مبارك كتب الله عليكم صيامه فيه تفتح ابواب الجنان وتغلق فيه ابواب الجحيم وتغل فيه الشياطين فيه ليلة القدر خير من الف شهر من حرم خيرها فقد حرم » وكان يحرض اصحابه على العبادة في رمضان يرغبهم وينذرهم . فلنتسابق اذن ايها الاخوان الى العمل الصالح في ايامه ولنكثر من اعمال البر والاحسان ، والتسبيح والذكر وقراءة

القرءان . فقد تبين لكم بالمحسوس ان ايام رمضان غنيمة عظيمة هنيئا لمن ابتدرها، وفرصة ثمينة هنيئا لمن انتهزها وحصلها، فكم من فرص مرت ندم عليها من اغفلها فكثير منا كان يؤمل ان يصوم هذا الشهر مرة ثانية فخانهم الامل وصاروا قبل مجيئه في ضيق القبور وتحت الجنادل والصخور . قال صلى الله عليه وسلم (ما من احد يموت الا ندم قالوا وما ندامته يا رسول الله قال ان كان محسنا ندم الا يكون ازداد خيرا وان كان مسيئا ندم الا يكون نزع) فانتهزوا رحمكم الله هذه الفرصة قبل ان يفاجئكم الموت فتندموا وتقولوا ياحسرتنا على ما فرطنا في جنب الله . واعلموا يا عباد الله ان للصوم فوائد كثيرة لاتحصى لا باس بذكر شيء منها ليتعرف الصائم مقدار نعمة الله عليه بهذه العبادة فيزداد حبا لها . منها ان الله يكرمه ويرضى عنه (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل عمل ابن ءادم له الحسنة بعشر امثالها الى سبعمائة ضعف قال الله عز وجل الا الصيام فانه لي وانا اجزي به انه ترك شهوته وطعامه وشرابه من اجلي) يتبين لنا من هذا الحديث ان الله يجازي الصائم الجزاء الاوفى حيث ان الصوم لا رياء فيه . قد تصلي ليقول الناس انك مصل او تزكي ليقولوا انك كريم اما ان تصوم طمعا في ان يقول الناس انك صائم فهذا لا يكون ابدا . ومنها انه وقاية من النار قال صلى الله عليه وسلم الصوم جنة اي وقاية من النار ومنها انه يشفع لصاحبه يوم القيامة قال صلى الله عليه وسلم الصيام والقرءان يشفعان للعبد يوم القيامة يقول الصيام أي رب منعته الطعام والشهوة فشفعني فيه ويقول القرءان منعته النوم بالليل فشفعني فيه قال فيشفعان) ومنها انه يدخل الجنة من باب الريان قال صلى الله عليه وسلم ان في الجنة بابا يقال له الريان لا يدخل منه الا الصائمون . ومنها ان الله اكرم هذه الامة بخمسة اشياء قال صلى الله عليه وسلم اعطيت امتي في شهر رمضان خمسا لم يعطهن نبيء قبلي اما واحدة فانه اذا كان اول ليلة من شهر رمضان ينظر الله عز وجل اليهم ومن نظر الله اليه لم يعذبه ابدا . واما الثانية فان خلوف افواههم اطيب عند الله من ريح المسك واما الثالثة فان الملائكة تستغفر لهم في كل يوم وليلة واما الرابعة فان الله يامر جنته فيقول لها استعدي وتزيني اوشك عبادي ان يستريحوا من تعب الدنيا الى دار كرامتي واما الخامسة فانه اذا كان ءاخر ليلة غفر لهم جميعا ومنها صحة البدن وقد اثبت الطب ان الصوم علاج نافع لامراض كثيرة كامراض المعدة التي قل ان يسلم منها احد ولا سيما الذين تعودوا التفنن في الماكل والمشرب وللمناسبة اذكر لكم ان طبيبا اجنبيا عرض عليه مريض قد اعيا الاطباء امره فقال لا دواء له الا الصوم فقالوا هو صائم بطبيعته فقال لا انما اريد صوم محمد (صلى الله عليه وسلم) فجربوا ذلك الدواء فعادت عليه صحته . ومنها غرس ملكة الصبر على المكاره قال صلى الله عليه وسلم الصيام نصف الصبر . ومنها تذكير الموسر بحالة الفقير المعسر فان الغني متى أحس بمرارة الجوع وحرارته عرف ان هناك طائفة دفعها الفقر وآلمها البؤس فيحمله ذلك على ان يمد اليهم يد المعونة فيخفف من بؤسهم ويلطف من عنائهم . ومنها اجابة الدعاء وذلك من

عنـاية الله بالصائم قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم (ثلاث لا ترد دعوتهم الامام العـادل والصائم جتى يفطر ودعوة المظلوم) ومنها فرح الصائم عند فطره وفرحه عند لقاء ربه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (للصائم فرحتان يفرحهما اذا افطر فرح بفطره واذا لقي ربه فرح بصومـه) وليس المراد بفرحه عند فطره فرحه باكله وشربه وانما المراد فرحه باتمـام صومه وتوفير اجره وقد جمع الله جميع هذه الحكم في ءاية واحـدة من كتابه العزيز فقال : (يا ايها الذين ءامنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) . عباد الله ان جميع هذه الحكم العالية والمزايـا الكـاملة التي تكرم الله بهـا على هـذه الامة المحمـدية التي جعلهـا خير أمة اخرجت للنـاس لا شك انها تزيد في ايمـانكم وترغبكم في مضاعفة الطـاعة والانابة الى ربكـم وتتيقنـون بها انـ شهر رمضان ليس كما يزعمـه بعضهم هو شهر سهر وضيـاع وقت ولعب ميسر وسرف وعصيـان ولكنه شهر عبادة واستقامة وحكم عالية لا يقدر على احصائها الا الله العزيز الرحمن . فاحرص ايها المؤمن على هذه الحكم ولا تضيعهـا ففيها الشفاء والنجاة من جميع البلاء . واياك ثم اياك ان تفهـم رمضان مثل ما يفهمه الجهلة الذين قلبوا حكمته وغيروا غايته وشوهوا بهجته ونبذوا وراء ظهورهم حكمته كذلك انصحك ايها الاخ اذا اردت ان يكون صومك مقبولا وتخرج من هذا الشهر كيوم ولدتك امك يجب عليك ان تصون لسانك عن الكذب والغيبة والنميمة وجميع الصفات الذميمة كذلك يجب عليك ان تصرف وقتك فيما يعنيك ولا تصرفه في قيل وقال ، وافتراء على الاحساب والانساب ، وانبـذ لعب الاوراق وعوضها بقراءة القرءان وسمـاع حديث نبيئك العدنان واكثر من الصدقات واطعام المساكين وبر بجيرانك وعشيرتك وقدم التوبة وعاهد ربك على ذلك واعزم على عدم العود الى المعـاصي . عباد الله ان من خير اغراض الصيام تطهير النفوس من جميع العيوب وكف الجوارح من الاثـام والذنوب . فمن اغتاب احدا او نـم او هجا او ذم فقد فوت على نفسه ثواب الصيـام . ومن قال زورا او بـاطلا فقد عرض نفسـه لغضب الله الملك العـلام وتلك خسارة لا تعوضهـا عليه الايـام (قـال رسول الله صلى الله عليـه وسلم من لـم يدع قـول الـزور والعمـل به فليس لله حاجة في ان يـدع طعـامه وشرابه) وكذلك علمنا نبيئنا الا نجازي في رمضان من اساء فاذا سبنـا احد او شتمنـا اعرضنا عنه وقلنا انا صائمون لاننا اذا جاريناه في قوله كنا خاطئين ولثواب الصوم مضيعين (قـال صلى الله عليه وسلم اذا كان صوم يوم احدكم فلا يرفث ولا يفسق وان امرؤ قاتله او شاتمه فليقل اني صائم مرتين) يقول ذلك ليشعر نفسه انه في ضيافة الرحمن . نسألك اللهم ونتضرع اليك ان تجعلنا في هذا الشهر من عبـادك المقربين وفي صيامنا وقيـامنا من المقبولين ومن عـذاب القبر ووحشته آمنين والى الخيـرات والطاعات متسابقين بفضلك يـا ارحم الراحمين

الا ان احسن ما تتشوق اليه قلوب المؤمنين كلام مولانا رب العالمين (اعوذ بالله من الشيطان الرجيم يا ايها الذين ءامنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون اياما معدودات)

الجيلاني حمزة الخطيب بجامع الحاج مصطفى حمزة بالمهدية

شهر الصيام

الاديب الكبير الشيخ
العربي الكبادي

اهلا وسهلا بشهر الصوم والبركة ومن بـه امم الاسلام مشتركه
يلقونـه مثل ما يلقى اخو شغف حبيبه بعـد بين مؤلم عركه
بـه تفتح ابـواب الجنان وفي ايامـه يتجلى الانس والبركه
من صامه فـاز بالاحسان مغتبطا والويل والتعس والبلوى لمن تركه
هلالـه منجـل يبـدو لناظره بحصده عمل المجان والفتكه
فيصبحون وقد بارت بضاعتهم ولا يلاقون مثل الفطر من حركه
يا صائمـين حذاري في صيامكم فان ابليس فيـه ناصب شركه
وراقبـوا الله في اعمالكـم وذروا شينا يزج بكم في زمرة الهلكه
ولا تكونوا كقوم في صيامهم يـؤم واحدهم للفتك معتركه
يروقهم فيه ان يرضوا بطونهم ويركبوا للهوى من جهلهم رمكه (١)
لا صوم الا لمن طابت سريرتـه وبات لله عبـدا مخلصا نسكه
كم صائـم حظه من صومـه ضمأ يضني وجوع ممض يفسد الملكه
وانما يرتجي اجـر الصيـام فتى لطاعة الله امسى راغبا دركه
يغض طرفا ولا يهذي وان حسنت منه الخليقة يحسو آمنا حشكه
لا يالف الشر في صوم يدنسه وكل شر اتى من حولـه بتكه (٢)
نهـارة صائـم يرجـو مثوبتـه وليلـه قائم حتى يرى الديكه
يصدحن اذنا باصباح دنـا وبـدا يشفي نفوسا من الظلمـاء مرتبكه
ذاك الـذي ربحت نسكا تجارتـه ونال في الدين سبقا دونه السلكه (٣)
واكرم الله مثـواه وانزلـه منازل الصدق اذ من عسجد سبكه

(١) الرمكة الفرس والبرذونه التي تتخذ للنسل معرب
(٢) البتك القطع
(٣) اراد الشاعر سليك السعدي وهو من العدائين واسم امه السلكه يضرب به المثل في شدة العدو

استقبال شهر رمضان المعظم

للاديب النابغ الشيخ بلحسن بن شعبان

رمضان اقبل حبذا اقباله — وبدا كما شاء الجمال هلاله
شهر يحل الخير يوم حلوله — ويعم آفاق البلاد نواله
شهر يفيض على الانام عوارفا — وأخو الخصاصة فيه تسعد حاله
والمسلمون جميعهم في اي نا — حية بدوا من دأبهم اجلاله
يلقاه كل موفق مستبشرا — وتطيب في أيامه اعماله
ويهب عند لقاه مسرورا الفؤا — د لطاعة الرحمن جل جلاله
وتراه فيه وقد تضاعف أنسه — وازداد فضلا واستبان كماله
فهو الربيع لقلب كل موحد — يخضل فيه وينتفي امحاله

***

أهلا بشهر الصوم اهلا بالزما — ن المستطاب النيرات خلاله
اهلا بمقدمه فكم راقت لنا — اسحاره واستلطفت آصاله
من صامه لله محتسبا ولا — زم ما يليق فذا النعيم مآله
فرض اراد به الاله صلاحنا — والضر موصول به اهماله
قل للاولى لم يفقهوا ما فيه من — حكم ولاح عليهمو استثقاله
يتبرمون به اذا وافى كمن — بعد السراح تقله اغلاله
قل فالمقالة ربما اجدت وقو — ل الحق لم يك لائقا اغفاله
الصوم خير مهذب لنفوسنا — وبه تعسفها يراد زواله
الصوم طب للجسوم وكل جسـ — ـم في لظى شهواته اعلاله
وبه تزاح عن القلوب غشاوة — فالقلب يصدأ والصيام صقاله
قل ما تشاء ففيه كل مزية — وتكاد تعجز من يعد خصاله
في الناس من جعل الصيام مطية — لشروره وازداد فيه ضلاله
رأي بان العذر فيه ممهد — لركوب اثم والمجال مجاله
يقضي سواد الليل في سهر اثيـ — ـم ثم يصبح لا يطاق جداله
قد هاله ترك الطعام وما تعو — ود برهة فاعجب لما قد هاله
عار على ابناء دين محمد — ذنب تطول لدى الصيام حباله

***

بشرى لمن ادى الصيام وقد زكت — بصيامه بين الانام فعاله
ذاك الذي يحظى بخير مثوبة — من ربه وينا له افضاله

التكاليف الشرعية

وسر مشروعية الصيام

يأيها الذين ءامنوا كتب عليكم الصيام
كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون

ان الله تعالى خلق الخلق وهو غني عن طاعتهم لا علاقة لكماله سبحانه بمعاصيهم ضرورة ان الجزاء راجع اليهم او عليهم ولما كانت عقول البشر متفاوتة في ادراك المنافع كما انهم في جانب الضار ليسوا على قدم واحدة فربما تزل اقدام قوم وهم لا يشعرون لذلك كان من لطف الله بعباده وهو اللطيف الخبير أن اوضح سبل السعادة للبشر في دينه القويم وعلى لسان رسوله الامين صلى الله عليه وسلم فجاء الشرع الاسلامي متكفلا باخراج المكلف من داعية هواه حتى يكون عبدا اختيارا كما هو عبد اضطرارا ، ومن أخص صفات العبودية الاضطرار الدائم الذي لا ينفك عن العبد طرفة عين ومن شريف مناقبها الخضوع والخنوع والتقوى والقيام بواجب الشكر . حتى يكون الانسان عبدا شكورا . ولا يكون عبدا كفورا . وقيام العبد بواجب الشكر ينحصر في عبارة موجزة خفيفة الوقع على النفوس الزكية شديدة الوقر في ءاذان الطغاة المتمردين الا وهي الرجوع الى الله في جميع الاحوال والانقياد الى احكامه على كل حال وهو معنى التعبد لله تعالى الذي خلق من اجله الانسان المشار اليه بقوله تعالى وما خلقت الانس والجن الا ليعبدوني على ما فسره به ابو اسحاق الشاطبي في الموافقات . وبهذا نعلم ان للسعادة شعبا ومسلك هذه الشعب الانقياد والتقوى . وللشقاوة شعبا ومسلكها اتباع هوى النفس الامارة . وقد جاءت الشريعة الاسلامية متكفلة بتوضيح تلكم الشعب والمسالك في ضمن التكاليف وعلى وفق مصالح العباد بحسب تقرير الشارع الحكيم . وما دام العبد مسائرا لما حدده الشارع قائما بوظائفه العامة والخاصة على وفق تعاليم الدين كانت تصرفاته طاعات يرتجي من وراء امتثاله ثوابا عظيما . وأخص ما يتقرب به العبد الى الله بالاصالة العبادات المفروضة وذلكم الايمان وتوابعه التي هي قواعد الاسلام الخمس والاسس المتينة التي اقيم عليها هذا الدين الزكي فالله تعالى تعبدنا بالصلاة والصيام والزكاة والحج كما تعبدنا بتوحيده والاعتراف بربوبيته وجعل سبحانه في هذه العبادات منافع للناس لو كانوا يعلمون وخص منها الصيام بمزايا عظام ودرجات عليا فجعله بين سائر العبادات له تعالى . وعظم ثوابه بما فيه من القرب والاختصاص . وأكرم به من فريضة جاء في التنويه بشانها والتنبيه على سمو مقامها قوله عز وجل

« يأيها الذين ءامنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »

فالله فرض الصيام على المسلمين وكتبه سبحانه علينا كما كتبه على اهل الملل السابقة فكان ركنا من الاديان سابقها ولاحقها لانه من اخص العبادات . واقوى ذرائع التهذيب . يتجلى فيه معنى الاخلاص . وتزكو به النفوس . فتتحلى بصفات المتقين التي هي المنزلة التي يسعى الى بلوغها اهل الحق والرضوان زيادة عما شرف به الزمان الذي هو ظرفه الذي يقع فيه بما جاوره من نزول القرءان . فايقاع هذا النوع من العبادة في شهر نزل فيه القرءان اقرار بما شمل الانسان من الهداية . وشكر للمنعم على ما اسدى لعبده من العناية والتوفيق . وفي قوله تعالى كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون اعلام منه تعالى بانه فرض علينا الصيام كما فرضه على الذين من قبلنا

وتاكيد لامر هذه الفريضة الشاملة للامم في عامة الاديان، وترغيب فيه بما يحرض على الامتثال وعدم الترك والتبديل .

والصيام عرف عبادة يتقرب بها في سائر الشرائع . ولا يزال اهل الاديان يصومون ويتقربون بهذه العبادة ، الى يوم الناس هذا . على ان من ينكر فرضية الصيام في عامة الشرائع محجوج بتصريح القرءان بانه كتب على الذين من قبلنا القاضي اسم الموصول فيه بالعموم فلم يبق ريب في ان الصيام فرض في جميع الشرائع السابقة . اذ عموم الاشخاص يستلزم عموم الاحوال والازمنة والبقاع كما هو مقرر في علم الاصول الدالة عليه جزئيات الشريعة . غاية ما هنالك ان الاختلاف بين الشرائع كان في المقدار والوقت . فكان في كل شريعة بحسب الحكمة القاضية بالتعيين والصفة وعظم الحادثة التي حدثت فوقت بها . على ان التغاير في الكمية والكيفية لا يعد اختلافا في اصل العبادة

ثم ان كيفية صيام من قبلنا لم تبينها الآية كما انها لم تبين الكمية لان بيان ذلك لم يتعلق به غرض المشرع بالنسبة الينا واما الصفة التي هي المقصد فجاءت ظاهرة المعنى في قوله تعالى : كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم فعلمنا ان الصفة الوجوب . وعدت الآية الكريمة من قبيل المجمل قال ابو بكر الجصاص لما لم يكن في قوله كما كتب على الذين من قبلكم دلالة على المراد في العدد وكيفية الصيام وفي الوقت كان اللفظ مجملا . الى ان قال رحمه الله فلما قال تعلى في نسق التلاوة شهر رمضان الذي انزل فيه القرءان هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه . بين ذلك عدد الايام ووقتها . اهـ كلامه . فآية : فمن شهد منكم الشهر فليصمه . جاءت مؤكدة للوجوب الذي علم من قوله سبحانه وتعالى كتب عليكم الصيام . فان معناه فرض عليكم كما في قوله عز وجل : كتب عليكم القتال . وقوله : ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا .

فالله سبحانه شرع لنا الصيام وفرضه علينا كما فرضه في الشرائع السابقة التي لحقها من اهلها التبديل والزيادة والنقصان حتى تحولت العبادة التي كانت لله الى غيره واشركوا في الله بغير علم فخسروا خسرانا مبينا . ونبهنا سبحانه في الآية الى مخالفتهم

ومشروعية صيام رمضان كانت في السنة الثانية من الهجرة الشريفة في شعبان . فصامه النبيء صلى الله عليه وسلم وصامه المسلمون معه في رمضان الموالي للشهر الذي جاء فيه التشريع وقد بين الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم ان صيام رمضان شرع على معنى الطاعة والعبادة لله تعالى كما جاء في الحديث القدسي الذي اسلفنا الكلام على معناه . وهو قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن رب العزة عز وجل : الصيام لي وانا اجزي به

هذا وقد ارشدنا العزيز الحكيم لحكمة هذه الفريضة . وسر مشروعية هذه العبادة الفاضلة بقوله عز وجل لعلكم تتقون بما دلت عليه لعل من اعداد الصيام نفوس الصائمين لتقوي الله تعالى فالصوم يهييء النفوس للتقوى التي هي نبراس الهدى . وذلك يتجلى من وجوه نقتصر منها على وجهين اولها ان الصيام موكول الى نفس الصائم لا رقيب عليه سوى الله تعالى . وسر بين العبد وربه لا يطلع على حقيقته غيره سبحانه ففيه ترك المؤمن شهوته امتثالا لامر ربه . وخضوعا لما جاء به نبيه . ملاحظا ذلك في سائر احواله وكلما تاقت نفسه لشهوة صدها عن التعدي عن حرمات الله ولو ما اطلاع الله تعالى عليه وعلمه بحاله لما ترك اطفاء شهوته فهذه صفة الملاحظة التي يورثها الصيام . ثانيها : ان الصائم بتكرار ملاحظة خشية الله تعالى للقيام بفريضة شرعية تتكون له ملكة المراقبة لله عز وجل ان يراه حيث نهاه . وذلك كمال الايمان وحصول التقوى التي هي صفة الابرار المقربين وبذلك يسلم من معاطب الزلل . فان المسلم متى جعل نصب عينه ان الله يراقبه في سائر احواله . ومهماهم بفعل امر تجلت له هذه الحقيقة . وشع نورها امام بصيرته سلم من الوقوع في المحضورات وتجنب المنكرات

وذلك الفوز العظيم اما اذا ستر بصيرته حجاب الغفلة وأهمل شأن نفسه واتبع هواه فلا هو يعنفها اذا همت بالمعصية ولا هو يلاحظ انه بين يدي رقيب عتيد يعلم ما تظهره الانفس وما تخفيه الصدور فذلك تتحكم فيه الشهوة الى أبعد حد ويقدم على المعاصي بكل استهتار وبدون خجل وما وقع في معصية الا وأفضى به حاله هذا الى ما هو اعظم منها واخطر وليس هناك ما يصده عن غيه ويرده الى رشده ما دام امر الملاحظة لا يخطر له على خاطر ومراقبة الله ليس من سبيل الى مثولها امام ناظره وعلى عكسه من اصبحت مراقبة الله له ملكة يلحظها في احواله ويزكي بها نفسه في اقواله وافعاله امسك راية الفلاح باليمين وتأهل لمرتبة الناجين ثم مقام المقربين وحسن أولئك رفيقا

واذا علمت ان روح الصوم هذه الملاحظة والمراقبة تجلى لك سر اضافة الصيام الى الله عز وجل في الحديث القدسي وظهر لك كيف يكون الصيام النفوس حتى تتهيأ لتقوى الله الذي دل عليه قوله تعالى لعلكم تتقون وعلمت ايضا كيف يكون الصيام جنة يستر القائم به ويقيه لفرط خشية الله عز وجل من الوقوع في المنكرات كما ورد في الحديث الصحيح الصيام جنة .

واذ قد تبين لك مبلغ تاثير الصوم في دقة الملاحظة ومراقبة العزيز العليم الذي لا تخفاه خاوية الاعين وما تخفي الصدور وتجلى لك ان ما يصدر من الناس في شهر رمضان من الذنوب سببه ضعف هذه المراقبة ومتى انعدمت الاسباب انعدمت مسبباتها وتصبح العبادة شبحا بلا روح وهو مصداق قوله صلى الله عليه وسلم : كم من صائم ليس له من صومه الا الجوع والعطش

وهو جوابنا عن الايراد الذي اورده بعض الافاضل كيف يكون الصوم التقوى مع ان الناس يحدثون من الفجور مع الصيام ما لا يرتكبونه في الافطار وهو على وزان جوابنا على ايراد كثرة فواحش المصلين والله يقول ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر

ومن هنا قسم اهل المعرفة الصوم الى ثلاث درجات صوم العموم وصوم الخصوص وصوم خصوص الخصوص ولهم بيانات في تفسير الدرجات وعندي في تقسيم الصوم الى درجات ثلاث الاولى صوم العموم وهو الامساك عن الفطرات من غير خشية ولا مراقبة . وهذه الدرجة لا تنشر على الصائم جلباب التقوى فيكون انتفاعه بصومه ضئيلا . ولم يتحقق مع هذا الصوم سره ومعناه فجاء عبادة بلا روح فلا يحصل منه المقصد الاسمى ولا تزكو به النفس ولا تنال به الدرجة السامية

الدرجة الثانية هي التي اشار لها حديث كم من صائم ليس له من صومه الا الجوع والعطش وهو صوم الفاسق الفاجر .

الدرجة الثالثة صوم من اتقى ونهى النفس عن الهوى فحصل له من الصوم سره ومعناه ولازمته الخشية والمراقبة . فحصل على رضى الرحمن ونال عند ربه جزاء وشكورا . وهذه الدرجة مع ما فيها من الامتثال هي درجة الخوف من غضب الله والوقوف عند الامر ومراقبة الله في احوال العبد . ويسمو العبد في تلك المراتب حتى يبلغ الى الكمال وهي الدرجة التي اشار اليها حديث من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه رواه احمد والشيخان واصحاب السنن .

فليضع الانسان نفسه في اي الدرجات احب . وموفور الكرامة لا يرضى لنفسه بالدون ويعتبر في صومه ما ندبه الشارع واختاره اليه من الكمالات ويحقق في نفسه معنى قوله تعالى لعلكم تتقون فيلازم المراقبة والخشية والتحلي بالتقوى وما يتبعها من كمالات ومن كانت هذه صفته كان راضيا مرضيا .

محمد الشاذلي ابن القاضي

المجلة الزيتونية

مجلة علمية أدبية اخلاقية

تصدرها هيئة من مدرسي جامع الزيتونة المعمور

شهرية وسنتها عشرة اشهر

المجلد الثالث	تونس - في شهر ربيع الثاني ١٣٥٩ وفي ماي ١٩٤٠	الجزء العاشر

رئيس قلم التحرير

محمد المختار بن محمود

المفتي الحنفي

بالديار التونسية

صاحب المجلة والمدير :

محمد الشاذلي ابن القاضي

المدرس من الطبقة الاولى بجامع الزيتونة

والخطيب الثاني بجامع حمودة باشا

المراسلات :

ترد باسم مدير المجلة بمحل الادارة

الادارة :

نهج الباشا رقم ٣٣ بتونس - تليفون ٤٩-٢٦

حساب جاري بادارة البريد رقم ٣٤٢٢

ثمن الجزء ثلاثة فرنكات

المطبعة التونسية نهج سوق البلاط عدد ٥٧

الفهرس

المجلة الزيتونية

مجلة علمية أدبية اخلاقية

تصدرها الهيئة من مدرسي جامع الزيتونة المعمور

شهرية وسنتها عشرة اشهر

الجزء العاشر	تونس - في شهر ربيع الثاني ١٣٥٩ وفي ماي ١٩٤٠	المجلد الثالث

ختام المجلد الثالث

باسمك اللهم تفتتح مهمات الامور وتختم ومن فضل جودك يستمد التوفيق والهداية والثبات على العمل الصالح وبتاييدك لنا نتغلب على عواصف الحوادث فتندك امامنا دكا ويعود لنا نشاطنا بعد المصارعة وما النصر الا من عند الله

وبعد فان المجلة الزيتونية قد عرضتها من الحوادث ما اضعف من نشاطها في بحر سنتها الثالثة وهي مع ذلك تقاوم وتتدرع بالصبر والتجلد ثم يكتب لها التوفيق والفوز في النهاية لا سيما في هذه الاشهر الاخيرة وقد تعثر منها الجزء العاشر من مجلدها الثالث وهو الجزء الاخير لهذه السنة ولم يساعده الحظ ان يتبع سير ما سبقه في الصدور في موعده فاحتجب قسرا لا عن اختيار وقد تطاولت الاعناق وتكرر من نصراء المجلة ومريديها السؤال عن المجلة ولا غرابة في ذلك فان المجلة مشروعهم العلمي فاذا ظهرت منهم العواطف الحسنة فما ذلك الا حرصا على المشروع ان ينتابه ما زعزع اركان المشاريع النافعة من قبله واردى بها في حضيض الاهمال ونحن نعتمد على الله جل جلاله ان يكلا هذا المشروع ويحفظه حتى يستمر على طريقته المثلى ويؤدي مهمته

ونحن بهذا العدد نختم المجلد الثالث للسنة الثالثة راجين من قراء المجلة الافاضل الصفح وعدم المؤاخذة على هذا التاخر الجزئي ونحن اشد حرصا على متابعة السير بقوة عزيمة ونشاط لا يعتريه فتور ولا كلل حتى لا يبقى مكان المجلة شاغرا في ميدان العمل الصالح والله المسؤول ان يأخذ بايدينا الى ما يرضاه انه سميع مجيب

بسم الله الرحمن الرحيم

خطاب الاستاذ الاكبر

صاحب الفضيلة العلامة الشيخ سيدي محمد العزيز جعيط المفتي المالكي والمكلف بمشيخة الجامع وفروعه

هذا نص الخطاب الذي القاه فضيلته امام محراب جامع الزيتونة يوم تكليفه بمشيخة الجامع في موكب حافل حضره شيوخ المعهد وتلامذته

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى ءاله وصحبه اجمعين ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين اما بعد فيا زملاءي حضرات شيوخ المعهد الزيتوني العلمي ويا ابناءي الاعزاء النجباء .

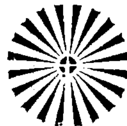
اذا كان شكر المنعم يندب اليه الشرع ويغري به الطبع وجب علي ان اشكر المقام الملكي مقام المليك الاسمى سيدنا احمد باشا باي صاحب المملكة التونسية دام له العز والتاييد ولا شكر الرياض للامطار والنسيم للازهار والعليل للشفاء والافق للضياء لما نفح به ايده الله من جميل وحاط به من عناية فمنح ثقته هذا العبد الضعيف في ادارة المعهد الزيتوني وفروعه على وجه تستجد به المعارف رواءها وتقوى به اضواؤها وانها لمهمة تنوء بالعصبة اولي القوة الا اذا صحبها حسن النية ولحظ المضطلع بها التوفيق فانارت المناهج له اضواء الاستقامة وذلل الصعاب نفاذ البصيرة وصدق العزيمة الامر الذي اقتص سالفي العلامة النحرير الهمام فكان سباق غايات ومعجزة ءايات وعلقا ضنينا به في المهمات .

سادتي لم اتلق هذه الولاية بيد الاحجام مع علمي بثقل وطاتها وقوة شكيمتها وانها مهمة يكبو في مدحضتها الجواد وينبو في معمعتها الصارم ويهفو في مشكلتها العالم الخريت ثقة بشيوخ هذا البيت المعمور واعتمادا على الاستفادة من رجاحة احلامهم وسعة معارفهم وحنكة تجاربهم .

زملاءي الاعلام اذا كانت المصلحة العامة هي ضالتنا المنشودة والرقي العلمي هو مناط الرجاء وجرى كل منا في دائرة عمله على ما يحقق هذا الامل ويبرز هذه الامنية بلا ريب ان الله يمدنا باعانته ويحوطنا بحسن رعايته ويفجر لنا ينابيع الحكمة ويوطؤنا اكناف النعمة ويفسح للناشئة العلمية

مجال المعارف وينبتها نباتا حسنا بيد ان السبيل لادراك هذه الغاية انما يحصل بالاعتصام بحبل التقوى وكبح جماح الاهواء وشق عصا الشقاق وارتضاع افاويق الوفاق والترفع عن ذميم الاغراض والعروج الى مستوى النصفة والتجافي عن سوء الاحدوثة وتقوية العاطفة العلمية فاهل العلم ابنـاء علات يلزهم تمتين عرا التناصر ونفخ روح التـودد والتراحم فلا تقاطـع ولا تدابر ولا تباغض ولا تحاسد ولا اسرار حسد في ارتقاء ولا اغماض عين على قذى فعلى من ابصر اخاه في مزلة ان ياخذ بضبعه حتى لا يصرع وعلى من احس بخلـل في الادارة ان يبادر بالنصيحة فالادارة هي منتداكم وعيبة نجواكم وحصن منعتكم الذي تدافعون عنه وتاوون اليه كيف لا وجميعنا على بينة من ان الرئاسة في الاسلام على اختلاف اصنافها وكثرة القابها وتباين اوصافها لم تشرع الا لصيانة الحقوق ورفع صرح الخيرات وحراسة المصالح من ان تعبث بهـا ايدي الشهوات فلنسر على هـذا الضياء لنحمد السرى ونظفر بالبغية

ابناءي النجباء يلزمكم انـ تنظروا للحقائق بعين البصيرة وتهتموا بتحسين السيرة واصـلاح السريرة فالآمال معقودة بنواصيكم والظفر بالاماني منوط بمجهوداتكم وانتم شغل التراث العلمي ورمز المثال ومرتع حدب الشيوخ ومحط عنايتهم ومركز تدبيرهم ومبعث تفكيرهم فمن حقهم عليكم مقابلتهم بالبر والتوقير واتبـاع نصائحهم الثمينـة الرامية الى الاقبـال على مناهل العلم بهمة لا يعتريها فتور والاعراض عما يشغل مقاعد افكاركم بغيـر العرفان ويضيع نفيس اوقاتكم في غيـر حسن التلقي والمطالعة فان ابان التعلم كابهام القطاة والحياة هدف عوائق ودرية ءافات والتعلل بسعة المستقبل غرور فالعاقل من لا يؤخر عمل يومه لغده ومن اضاع فرصة التعلم سقط في يـده ومن اشتغل بمـا لا يعنيه فاته ما يرتجيه واعتبروا ايها الابناء الاعزاء ان مشيخة الجامع لكم بمنزلة الحارس الامين تريق ماء قواها في سبيل حفظكم من عبث العـابثين ونفثات الغاوين ومتى تبلغوا اشدكم وتستبينوا رشدكم تستيقنوا سديد اعمالها وتستعظموا محكم صنعهـا وتترادف عليكم بواعث الاقرار لها بالجميل وحب الالتفاف حولها والله المسئول ان يمد الجميع بتوفيقه واعانته حتى نقوم بالواجبـات طلبة وقادة ويبعث بينا عزائم وقادة لنحقق للعلم مراده وان يرزقنا الاخلاص في العمل ويعصمنا من كتائب الهوى ودواعي الكسل حتى تصبح المساعي الحميدة ناجحة بحرمة خير الانبياء وبركة سر الفاتحة



موجز من القول في

ترجمة فقيد العلم والرسوخ

شيخ الشيوخ الاستاذ الاكبر شيخ الاسلام الحنفي
سيدي محمد بن يوسف رحمه الله رحمة واسعة

بقلم العلامة الاستاذ
الشيخ محمد البشير النيفر

فجعت البلاد التونسية والاندية العلمية ودار الشريعة العامرة في ضحى يوم الخميس الخامس والعشرين من شوال سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة والف بوفاة الامام العلامة الفهامة شيخ الجماعة الشيخ سيدي محمد بن يوسف فراع موته كل من يقدره قدره ويحيط بسعة الفراغ الذي تركه في العلم ومذهب الامام ابي حنيفة رضي الله عنه ، وحياة كحياة هذا الامام الجليل قضى اكثرها في خدمة العلم بجامع الزيتونة ، وازدوج النفع بها اكثر من ربع قرن بينه وبين دار الشريعة يجب ان يسجل تاريخها الحفيل بقلم الانصاف والتحري ، لذا راينا ان ندون هذه الكلمات تخليدا لذكره وتعريفا بقدره لمن لا يعرفه من اهل البلاد النائية عنا وفي مجملها ما ينبيء عن تفصيل ،

« اصل الشيخ ونشأته وطور الاستفادة والتحصيل فيه »

هو الشيخ محمد بن يوسف بن ابراهيم تعرف اسرته باسرة التركي وفيها الى اليوم من يدعى بهذا اللقب ، وادركت من المتقدمين في العمر من يلقب به صاحب الترجمة رحمه الله .

ولد هذا الامام حوالي سنة سبعين ومائتين والف(١) فيما يظهر فان اترابه الذين رافقوه في طلب العلم ولدوا في هذه السنة او ما قبلها مما لا يبعد عنها ، ويؤيد هذا ما سمعته يفضي به رحمه الله الى بعض الشيوخ في احد مجالس امتحان التطويع سنة ١٣٣٦ وهو يومئذ يتولى النيابة عن الشيخ العلامة محمد رضوان القاضي الحنفي سمعته وهو يشكو ضعف قوته يقول : كيف حال من عمره خمسة وستون عاما او ما هذا معناه .

وقد سجل في قصيدة له رثى بها عصريه العلامة الشاعر المبدع الشيخ ابا محمد حمودة تاج المتوفى في صفر عام ١٣٣٨ انه عاشره ستين حولا اذ قال فيها :

وما انا بالناسي اخاء تأسست — على البر والتقوى قديما معاقله
نردده ستين حولا من الصبى — الى هرم مدت الينا حبائله

والشيخ حمودة رحمه الله مولود في نحو سنة سبعين على ما سمعت منه قبيل وفاته

(١) كنا سمعنا من الشيخ رحمه الله انه ولد في عام ١٢٧٤ (المجلة)

ولما بلغ سن القراءة دخل مكتب كوشة طاباق فشرع به في حفظ القرآن الحكيم ورافقه في القراءة به الشيخان الجليلان عبد العزيز تاج وشقيقه ابو محمد حمودة وكان هذا مبدأ تعرفه بهما ، وسمعت منه رحمه الله ان ممن رافقهم ابنا للعلامة الشيخ ابي العباس احمد بن ابي الضياف توفى ولم يبلغ الحلم ، وذكر لي اسمه وفي ظني انه المختار .

ولما اتم حفظ القرآن دخل جامع الزيتونة لاخذ العلم به والظاهر انه دخله سنة تسع وثمانين فقد حدثني رحمه الله انه رغب هو واحد رفقائه من الشيخ العلامة محمد الطاهر النيفر ان يقرئهما القطر فوعدهما الاجابة ولم يمض الا قليل حتى رقي الشيخ الى قضاء الجماعة في جمادى سنة ١٢٩٠ والمعروف ان القطر انما يدرس في السنة الثانية من سني التحصيل .

ورافقه في الطلب نفر لحقوا بربهم . وخلد في الصالحات ذكرهم منهم الشيخ العلامة ابو الفداء اسماعيل الصفايحي القاضي الحنفي المتوفى بالقسطنطينية سنة ١٣٣٧ والشيخان الجليلان عبد العزيز تاج وشقيقه ابو محمد حمودة والشيخ العلامة المدرس ابو الحسن علي الشنوفي رحمهم الله اجمعين ، وكانت الصلة بينهم متينة السبب وطالما سمعت منه رحمه الله من حسن الثناء عليهم ، والتنويه باقدارهم في العلم والرسوخ . وشهدت من مظاهر احتفاظه بمودتهم ما عرفني بمكاني خلقي الانصاف والوفاء من الشيخ رحمه الله ، وكان يختص بزائد الثناء من بينهم الشيخ اسماعيل الصفايحي ويقول هو الذي كان يسيرنا وكنا عن رأيه نصدر .

وكان اخذه عن ثلة من علماء ومحققي ذلك العصر ، فاخذ عن الشيخين المدرسين ابي عمرو عثمان الشامخ وابي العيش عمار بن سعيدان الاجرومية بشرح الشيخ خالد وعن الشيخ العلامة المحقق ابي عبد الله حسين بن حسين الالفية بشرحي ابن عقيل والاشموني وعن الشيخ العلامة النظار ابي الحسن الشاذلي ابن القاضي بعض كتب المنطق الابتدائية والمطول والمغني وعن الشيخ العلامة ابي العباس احمد ابن مراد بعض كتب الفقه وعن الشيخ العلامة ابي عبد الله محمد الطيب النيفر متن التلخيص للقزويني وعن الشيخ العلامة ابي الثناء محمود بيرم الدرة والالفية بشرح الاشموني والكنز وعن الشيخ العلامة ابي عبد الله محمد النجار وعن الشيخ العلامة ابي النجاة سالم ابي حاجب وعن الشيخ العلامة ابي حفص عمر بن الشيخ وعن الشيخ العلامة ابي النخبة مصطفى رضوان وحضر بعض دروس تفسير القاضي البيضاوي التي كان يلقيها بجامع الزيتونة العلامة المحقق الشيخ ابو العباس احمد بن الخوجة ، ولازم من بين هؤلاء الاساتيذ الشيخ ابا عبد الله حسين بن حسين والشيخ ابا الحسن الشاذلي بن القاضي واستفاد من مجالسهما الخاصة في بيتيهما ومن محرراتهما التي كان يستنسخ بعضها مثل ما استفاد من دروسهما العامة بجامع الزيتونة .

كان طلبه للعلم طلب ذي همة عالية وفكر وقاد وصادف اثناء مدة طلبه ان احيى الوزير الطيب

الذكر خير الدين المكتبة العبدلية ونقل اليها ما بقي من الكتب الموقــوفة بالجوامع والمدارس والزوايا وما اشتراه من كتب العلامة شيخ الاسلام ابي عبد الله محمد بيرم الرابع فعني رحمــه الله على ما سمعت منه بمطالعة اكثر هذه الكتب او كثير منها واستفاد منها ما زاد في تضلعه ورسوخه وعني بمطالعة كتب الادب . وفيه نفسية الشعر والكتابة فاجادهما على الطريقة المعروفة في ذلك العصر وما يعرف من شعره قليل وآخر ما سمعنا منه قصيدته الرنانة في رثــاء صديقه العلامة الشاعر الشيخ ابي محمد حمودة تاج ، وقد ذكرنا في صدر ترجمته بيتين منها .

ثم تقدم لامتحان التطويع سنة ١٢٩٧ وكانت مادتــه يومئذ درسا فحسب فظهر بمظهر جليل في التحقيق وحسن البيان واعجب به شيوخ النظارة اعجابا واخرج منه الامتحان لجامع الزيتونة مدرسا ينفع الناس بعلمه الواسع وفهمه الثاقب وبيانه الرائع وتحقيقه البديع ، ودخل الشيخ من يومئذ في

« طور الافادة »

شرع صاحب الترجمــة رحمه الله بالتدريس في بعض مساجد الحاضرة ومنها المسجد المعروف بمسجد « قدوار » فتناول بعض الكتب الابتدائية وغيرها في فنون مختلفة ومنها النحو وكان مما درسه فيه شرح الاشموني على الالفية ولم ينقطع عن الاستفادة من مجالس دروس شيوخه الاعلام حرصا في التوسع في العلم ورسوخ القدم فيه ولم يمض الا نحو من نصف حول حتى شغرت خطة مدرس من الرتبة الثانية الحنفية وكان الاختيار للتدريس يومئذ حقا للنظارة العلمية بجامع الزيتـونة وليس من شرط ارتقاء المتطوع لهذه الرتبة الاقراء عامين ، وكنت سمعت منه رحمه الله في شان اختياره ان مجلس النظار اجتمع واستحضر بعض شيوخه الجريدة التي بها اسماء المتطوعين لاختيار احدهم لخطة التدريس فقال المرحوم العلامة قاضي الجماعة يومئذ الشيخ محمد الطاهر النيفر لا حاجة بنا الى الجريدة لتعرف اسماء المتطوعين منها فالامر يتــردد بين الشيخ محمد بن يوسف والشيخ اسماعيل الصفايحي وارى الاقراع بينهما فنفذ رايه رحمه الله وساعد القدر صاحب الترجمة فتمت ولايته ونقل الى جامع الزيتونة بعض دروسه التي كان يلقيها خارجه ومنها شرح الاشموني على الالفية .

ابتدأ التدريس بالجامع في سنة ثمان وتسعين فنفع الناس وافاد وربى الطبقات المتتابعة وتخرج من دروسه الحافلة اعلام محققون زانوا التدريس بجامع الزيتــونة ومناصب القضاء والافتاء ودواوين الحكومة على اختلافها وتناول الكتب الابتدائية والمتوسطة والعالية في فنون مختلفة فقتل مسائلها تحقيقا وتحريرا وقد أوتي رحمه الله من طلاقة اللسان وحسن البيان ما يستهوي الاسماع والنفوس ويمتلك العقول والقلوب وكانت طريقته في التدريس تجمع بين تحقيق مسائل العلم وعبــارات المؤلفين مبينة كيف يستفاد العلم من كلامهم . وكان مما عني بتدريسه مختصر السعد وشرح الجلال المحلي على جمع الجوامع ، ودرس قطعة من دلائل الاعجاز للشيخ عبد القاهر وجملة صالحة من مشكل الآثار للطحاوي والكنز في

٦

الفقه الحنفي بشرح الزيلعي والشفاء للقاضي عياض ثم اختص بعنايته التفسير والحديث فشرع في تدريس تفسير القاضي البيضاوي وصحيح البخاري وعني بتتبع حواشي عبد الحكيم على تفسير القاضي وكتب عليها حواشي نفيسة افردها بالتدوين واطلعني رحمه الله على بعضها ، وكان يكبر مقام الشيخ عبد الحكيم علما وفهما ولا يسارع الى انتقاد كلامه وينكر جد الانكار على من يتساهل في نقده ومضى في تدريس التفسير الى ان ختم سورة البقرة في زهاء ثمانية عشر عاما تخللها انقطاع عن التدريس غير مرة لاعتلال صحته او مباشرة القضاء بالنيابة ، واما صحيح البخاري فقد درس طائفة منه ولم يتمه .

واشرب في قلبه التدريس فكان يسرع اليه الملل من النيابة في القضاء لانها تصرفه عنه ، وكانت المدة التي باشر فيها التدريس نحوا من اربعة وخمسين عاما بث بها العلوم النافعة في صدور الرجال ، والله ولي جزائه .

وظائفه

وفي اوائل عهده بمباشرة التدريس تصدر للشهادة وتبرز في التوثيق ودخل ادارة الاوقاف فتدرج في رتبها من الشهادة فالكتابة فرئاسة الكتابة فالعضوية بمجلسها ثم رقي الى التدريس من الرتبة الاولى في سنة ١٣١١ وكان قد صدر قانون المناظرة ناسخا ما كان من تفويض الامر في الاختيار الى النظارة العلمية ، ولكن اقرانه من مدرسي الطبقة الثانية يومئذ تنازلوا عن حقهم القانوني في مناظرته فخلصت الخطة له بدون مناظرة .

وفي شهر ربيع الاول من سنة ١٣٣١ ولي الفتوى فازدوج النفع به بين دار الشريعة وجامع الزيتونة ، وافاد بفتاواه المحررة وقد دونها في ديوان خاص . وفي سنة ١٣٥٠ ولي الامامة والخطابة بجامع حمودة باشا المرادي وخطب به خطبا نفيسة من انشائه واقام به سبعة اختام كانت مهبط تحقيق وافادة وعني بها الجناب العالي أيده الله فحضرها .

وفي المحرم من سنة ١٣٥١ ارتقى الى منصب مشيخة الاسلام الجليل ، ولم تصرفه الولاية عن مباشرة التدريس فدرس بعدها نحوا من حول وكانت الايام تنال من قوته وصحته ، ولكنها لا تنال من عزيمته وهمته وغرامه بالعلم مطالعة ومذاكرة وافادة وكثيرا ما تعتل صحته ويلزم الفراش فنعوده ونشهد من اثر السقم في بناء جسمه ما نحترس معه من مجاذبته اطراف الحديث في المسائل العلمية ولكنه رحمه الله رحمة واسعة لا يملك نفسه ان يوغل في الحديث فيها ويطيل كأن المذاكرة في العلم دواء يعالج به سقمه .

وكان على مباشرة التدريس والفتوى يؤلف ويحرر . واذكر من مؤلفاته رسالة في الكشف عن ضلالات وبدع كتاب « إمرأتنا في الشريعة والمجتمع » ـ وكان عضوا او رئيسا للجنة التي شكلتها النظارة العلمية يومئذ للنظر في الكتاب يوم بروزه ـ وحواشيه على حواشي عبد الحكيم على تفسير القاضي ورسالة في كم . واختامه السبعة في الجامع الباشي . وشرع في رجز في الاحكام على المذهب الحنفي حاكى به التحفة لابن عاصم المالكي ولم يتمه .

ولم يبرح يفيد وينفع الى ان ألم به مرض الموت في رجب سنة ١٣٥٨ واخذت صحته تنحط يوما فيوما وفاضت روحه في التاريخ السالف الذكر . وشهد الجناب العالي ايده الله موكب جنازته طبق الرسوم المالوفة ، وصلي عليه يوم الجمعة ببطحاء القصبة ودفن بالزلاج ، بعد ان انشد جملة من فحول الشعراء القصائد الرنانة في رثائه فرحمه الله رحمة واسعة ووفاه اجره انه جواد كريم .

نبذة من حياة شيخ الاسلام

سيدي محمد بن يوسف برد الله ثراه

بقلم العلامة الاستاذ
الشيخ الصادق المحرزي

انتظمت في سالك تلامذة الجامع الاعظم جامع الزيتونة ادام الله عمرانه في شهر شوال المبارك سنة ١٢٩٩ وكان الشهر المذكور مفتتح السنة الدراسية في ذلك التاريخ فوجدت الشيخ رحمه الله يقري قبل الزوال متن الالفية بشرح المكودي بدرس حافل يحضره اعيان تلامذة تلك الطبقة منهم الشيخ صالح الشريف والشيخ عمر بن عاشور وكان الشيخ اذ ذاك مدرسا من الطبقة الثانية وسنه يقارب الثلاثين سنة فيما اظن ويحضر هو نفسه في المساء درسي المطول والمغني على شيخ الشيوخ العالم الجليل سيدي الشاذلي ابن القاضي مع اعيان من معاصريه كالشيخ اسماعيل الصفايحي والشيخ حمودة تاج وغيرهما كما يحضر قبيل الزوال درس الشفاء على العلامة المقدس سيدي محمد النجار رحمه الله وكنا نحن تلامذة الطبقة الصغرى نعجب من دروسه لما خصه الله تعلى به من فصاحة اللسان وحسن البيان وكثيرا ما نقف حذوها مستمعين ولجواهرها ملتقطين وعند ما تاهلنا لقراءة الكتب المتوسطة حضرنا عليه في درس الملوى على السلم فاستفدنا منه تحريرات وتحقيقات لحواشي الصبان كانت وشاحا للنسخ التي قرانا بها عليه وختمناه في مدة عامين فطلبنا منه اقراء مختصر السعد على التلخيص فاجابنا لذلك وكانت الطريقة في ذلك العصر ان التلامذة يطلبون من الاساتذة اقراء ما يحتاجون اليه من الكتب وتجيبهم المشائخ لمطالبهم اذا كان الكتاب من كتب الدراسة القانونية وفي التلامذة كفاءة واهلية والا فانهم يشيرون عليهم بكتاب ءاخر هو انفع لهم فابتداه رحمه الله من خطبة الشارح ولم يهمل فوائدها فحضر عليه اعيان من المتطوعين في ذلك العصر نخص منهم بالذكر الشيخ سيدي محمد بن القاضي المتوفى في خطة القضاء قدس الله روحه والشيخ سيدي عمر بن عاشور والشيخ سيدي الصادق بن ضيف والشيخ سيدي محمود ابن موسى المفتي بالمنستير والعبد وغيرهم فقرانا عليه جانبا من مختصر السعد قراءة تحقيق وتحرير بتتبع لحواشيه وحواشي المطول كالسيد وعبد الحكيم مدة اربع سنوات في يومين من الاسبوع وله عليها تحريرات وتحقيقات لم تزل محفوظة عندي الى الآن ولما وصلنا فيه لقول الخطيب القزويني فينبغي أن يقتصر من التركيب على قدر الحاجة طوى الكتاب وامتنع الشيخ من الزيادة بدعوى حصول المقصود من تربية الملكة والتمرين على فهم الكتاب بما قراناه منه قائلا لنا ان شيخهم سيدي عمر بن الشيخ كان اقراهم الاشموني قراءة تثقيف ولما بلغ لقول ابن مالك وليقس ما لم يقل طوى الكتاب واذنهم باقرائه وانا لكم مثله

وكان التدريس في ذلك العصر بالنسبة للكتب الابتدائية وما يليها يقتصر فيه على بيان المتن والشرح وحفظ القواعد والمتون بحيث لا يقرا التلميذ كتابا الا بعد ان يحفظ متنه وكان الكثير منا يحفظ الالفية على طرف ثمامه ومتن التلخيص والعاصمية وغالب متن الكنز وخليل وبالنسبة للكتب العالية طريقتان طريقة تحصيل وعليها غالب المدرسين فيقتصر فيها على بيان الشروح والبعض من الحواشي وقد امكننا بها ختم الاشموني في ثلاث سنوات واشهر على استاذنا سيدي حسين بن حسين وختم مختصر السعد في ثلاث سنوات على الشيخ سيدي مصطفى رضوان والطريقة الثانية طريقة تربية للملكة والثقافة وعليها جلة من الاساتذة كالشيخ سيدي سالم ابي حاجب وسيدي عمر بن الشيخ وسيدي

محمد النجار وشيخنا سيدي محمد بن يوسف وغيرهم وكان شيخنا المذكور كثيرا ما ينشد في اثناء الدرس .

اذا لم يكن في مجلس التدريس نكتة   وتحرير اشكال باوضح صورة
فدع سعيه وانظر لنفسك واجتهد   ولا تتركن فالترك اقبح حلة

ولعمري ان لكل من الطريقتين مزاياها وخصائصها والتلميذ يجمع بهما بين تحصيل العلم والملكة وكان شيخنا سيدي محمد النجار قدس الله روحه اذا ابتدا كتابا من الكتب العالية يقول انا لا اقصد ختمه ولكن اقصد ان اقرئى منه جملة صالحة . رحم الله الجميع

وفي اثناء تلك المدة انخرط استاذنا المذكور في خدمة جمعية الاوقاف بصفة شاهد على اوقاف المدرسين ثم ترقى في وظائفها بما له من الفكر السديد والباع المديد الى خطة ناظر على عدول الاوقاف فكان محل الثقة والعدالة ثم الى خطة كاتب اول بها وهي وظيفة عالية يكون لصاحبها الرئاسة على جميع المتوظفين ثم ترقى منها الى وظيفة عضو لمجلس الاوقاف بانتخاب رئيسها الهمام المفضال سيدي محمد البشير صفر نعمه الله فباشر العضوية سنينا عديدة ثم اصطفته الدولة لخطة الافتاء في المذهب الحنفي فزانها ورفع شانها وكلف في اثنائها بخطة القضاء مرارا بطريق النيابة وكان رحمه الله غير حريص على الترقي في الوظائف ويابى الله الا ان يتم نوره فترقى من الافتاء الى خطة مشيخة الاسلام ثم اجاب داعي ربه ذي الجلال والإكرام فقلت كلمة في منعاه ولا حول ولا قوة الا بالله .

خطب الم بنادي العلم والعمل   جرى به قلم الاقدار في الازل
اعظم به نبأ افضى بفاجعة   اعظم علينا بها من حادث جلل
محمد ابن يوسف الذي فقدت   به نوادي العلوم ايما رجل
بحر من العلم غورا في التراب غدا   ففاض منه غزير الدمع في المقل
وطود عز ثوى بين القبور وقد   كان الجلال له من ابهج الحلل
قضى وافتى وشاد المنصبين بما   يرضى الالاه واحيي سنة الرسل
تبكيه مشيخة الاسلام اسفة   لفقد حافظها من طارق الخلل
ياراحلا عنا والابصار تسبقه   اودعتك الله في حل ومرتحل
من للحديث وللتفسير بعدكم   في معهد كنت فيه مورد المثل
كشاف اسرارها مفتاح مغلقها   وضاح مشكلها في الموقف العضل
فصاحة تسحر الالباب لهجتها   تفتر عن شنب احلى من العسل
سبعين حولا له في العلم قد سلفت   يهدى به جيلا لا قوم السبل
واليوم وافى لدار الفضل مرتجيا   جود الكريم بلا علم ولا عمل
فاجمل ثراه وحقق فيك مأمله   وكن له اليوم ياربلاه خير ولي
واقبل دعاء صميم القلب ارخه   نزله ضيفا جوار سيد الرسل

٥٦١ ٣١٤ ٢١٠ ١٨١ ٩٢

سنة ١٣٥٨

حول حياة فقيد الاسلام والعلم

مولانا المقدس ابي عبد الله الشيخ سيدي محمد بن يوسف

شيخ الاسلام برد الله ثراه

بقلم العلامة المدرس الشيخ محمد الناصر الصدام

دخلت الجامع الاعظم ادام الله عمرانه منذ اربعين حجة فارطة عن التاريخ فوجدته يموج باعيان الاعلام والجهابذة النحارير من اهل العلم وفي طليعتهم صاحب الترجمة قدس الله روحه بتربيته الممتازة وشخصيته البارزة وصدارته وتبريزه بالمواهب والشيخوخة على عامة اساطين الجامع مباشرة وبواسطة سوى معاصريه واهل طبقته

فكنت اراه كلما ازفت الساعة الثامنة صباحا طالعا من باب الشفاء احد ابواب الجامع المعمور طلوع الغزالة باجلى آفاقها في حسن سمته وهندامه العلمي الجميل عليه مسحة من جلال العلم وروعته الى ان ينتهي الى مجلس درسه عند احدى الاساطين التي تكتنفها الابواب الساحية للجامع الاعظم بمقربة من الدكانة المنعوتة بدكانة سيدي منصور بن جرذان رضي الله تعلى عنه

وبمجرد ما ترمقه عيون تلامذته المراقبين لطلعته يستديرون حول مجلسه حلقة قد أفرغها حسن الادب والنظام على افساح لممره الكريم حتى اذا ما اجتازه عادت اطراف الحلقة للانتظام وعلتها السكينة والوقار

وعند ما يطمئن به الجلوس يحييهم فيحيونه بأحسن تحية ثم يضع نظارته على عينيه ويسرد من المتن مقدار الدرس ثم يضع الكراس وياخذ في شرح وتحليل المسئلة بمزيج من عبارة الشارح والكاتبين بانيا لها على سابقتها بناء الفرع على اصله او رابطا بينهما بغير التفريع من اوجه الارتباط ان جمعت بينهما الصلة والتناسق

وهكذا يأخذ يسمو بالمسئلة رويدا رويدا في شرحه وايضاحه سمو حباب الماء حالا على حال حتى اذا تم له بسطها ارتقى باذهان تلاميذه الى ما عنده في القضية من تمحيص ونقد وتصويب عبارة او ذكر قيد لمطلق او مخصص لعام قائلا ان من دأب اهل العلم تعميم المخصص واطلاق المقيد ايكالا الى ذكرهم للمخصص او القيد في غير ذلك الموضع حتى لا يدعي علهم الا من زاحمهم عليه بالركب ينقل ذلك عن المولى الرحمتي في حواشيه على البحر الرائق

ومما لقننا به رحمه الله تعلى مما لم تطوه الكتب كشحا (ان المراد يدفع الايراد في الكتب العالية) وان ما شاع من ان المراد لا يدفع الايراد فانه خاص بالكتب الابتدائية ولكل مقام مقال

وبالجملة فله في تدريسه الطريقة الممتازة والاسلوب الخلاب الآخذ بمجامع القلوب ذلك انه في الوقت الواحد يعلم المسئلة وطريقة تفهمها واستنباطها من عبارة المؤلف فيستفيد بذلك تلامذته أمورا أولها تحصيل الفائدة العلمية وثانيها تعلم معاناة وتفهم عبارات المؤلفين الامر الذي تتكون به الملكة العلمية وثالثها اخذ ذلك عن بصيرة وبرهان لا عن تقليد بلا اذعان

ولربما أثار ذلك بينه وبين من لم يبلغ مبالغه في الفهم اخذا وردا يكون باعثا لهمته العلية ونفسه الابية العصامية على التماس ادلة من نفس كلام المؤلف ما مستها يدان ولم يطمثها من قبله انس ولا جان

فاذا هو بربوة من فهمه ذات قرار ومعين متلقيا لما رفع من راية مجد باليمين واذ ذاك يتحدث بما يتحدث من نعمة ربه الاعلى

وحذار ان تجادله في ذلك بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير فانه يصول صولة الاسود ويورد مباحثه موارد المكابر فلا يسعه قيام ولا قعود ثم سرعان ما يسكت عنه الغضب فتراه برد الله ثراه يتلطف بالمباحث ويعتذر اليه بضيق الصدر الذي كان يعروه في اغلب اوقاته

والعذر له فان من البلية خطاب من لا يفهم

ومن ذكائه النادر معرفته بنفسية تلامذته فردا فردا فاذا راى من احدهم هما بالتكلم ابان تقريره أومأ اليه بيده ان امسك وربما استوقفه ببعض التراكيب الحلوة البليغة كقوله انت على المجرب وابلعني ريقي فقد أتعبني طريقي او نحو ذلك حتى اذا أتم تقريره التفت الى ذلك التلميذ قائلا هل بقيت حاجة في نفس يعقوب . وقد سبق لي تصدير هذا العجز فقلت

يقول من بعد ايضاح لمشكلها فهل بقت حاجة في نفس يعقوب

وقد كان رحمه الله تعلى يقول المدرس بحق من يحيط عقله بعقول تلامذته ويقتدر على ارجاع عقولهم الى عقله

واذكر ان يوما من ايام دراسته للمقدمات من جمع الجوامع وشرحه للجلال المحلي وهي السلكة التي سلكناها على يديه من اول الكتاب الى آخره التي هي من منن الله سبحانه علينا لنز بنا في قرن من بحث تشعبت مسالكه وحمى وطيس الجدال فيه بينه وبين الكاتبين بحيث تظافرت عامة الحواشي على طريقة واحدة في فهم كلام الجلال المحلي ارتأى الشيخ خلافها فكثر اللغط والانحياز الى ما عليه الكاتبون من بعض التلامذة فصال رحمه الله تعلى بالميدان صولته وجال به جولته وأخذ يفيض على الجميع من الادلة والبراهين ما انقطعت به من الخصم الحجة واستنارت به المحجة وتجاوز الدرس ميقاته فانفض الجمع ومن الغد القيت بين يديه قصيدة اعتذرت بها عن الباحثين في كلامه بانهم على حسن نية وانهم قد قصرت بهم مداركهم عن التبصر بمحاسن كلامه فارتاح اليها ايما ارتياح وبلغ من اعجابه بها ان أجاب عنها بقصيدة عصماء من بحرها ورويها في صباح الغد واليكم ما اذكر من القصيدتين اللتين بعد العهد بهما فمطلع قصيدتي

هب الصبا بحديقة مطلولة — فثنى بها نضب الاراك للينه
فربت روابيها واينع زهرها — والماء يجري من عيون معينه

ومنها

خاض الفطاحل لجه فتراجعوا — وعبرته قسرا بغير سفينه
وتنزلت آيات علمك بينهم — فحوت لوصف الآي في تبيينه

ومنها في الاعتذار

لم يتركوا تقديس رايك عزة — لكننا وحياتكم من دونه
واذا المدارك ناولتك نتيجة — فاسبر بها فلهي عرض ثمينه

ونص ما يعلق بذهني من قصيدته الرنانة التي هي آية على علو كعبه في البلاغة والادب

جاءت مع الصبح المنير فخلتها — شمسا بدت للصبح فوق جبينه
وسعت على قدم المبرة والرضا — هيفاء جللها الحيا بشؤنه
نفثاة ذي ادب وصنعة جابر — يجلو عليك التبر من تكوينه
لله درك من بليغ ماهر — خبر القريض وزاد في تحسينه
فلانت (ناصره) وناظره الذي — يرعى به مستودعات فنونه
الشعر ما احكمت حلة نسجه — والسحر ما أودعت في مكنونه
حيا قريضك كل شعر رائق — شكرا وصافحك العلى بيمينه

اما قلمه في العلميات فله المنزلة السامية في تحريره وتحبيره وله النظم الفقهى الذي حاكى به النظم العاصمي فلم يقصر عنه في ابداعه وحسن سبكه وجمعه للكثير من المسائل في افصح عبارة وأوجزها اتى فيه على معظم من ابواب المعاملات ولم تساعد الاقدار على اتمامه

وله الفتاوي الغريبة النادرة في قسمة الاوقاف وتبيين اغراض الواقفين والجريان على طبق الفاظهم ورعاية عوائدهم واعرافهم وغير ذلك من الرسائل والتحارير ، وبالجملة فموته ثلمة في العلم والادب قد عظمت بها رزية الجامع بل القطر التونسي بل الشمال الافريقي فانا بفراقه لمحزونون فإنا لله وانا اليه راجعون ثم الى الله الضراعة في اطالة حياة خلفه مولانا العلم الهمام الحجة الامام الخطيب شيخ الاسلام الحنفي ابي عبد الله الاستاذ سيدي محمد الطيب سليل آل بيرم كرام المعادن الاعلام ومصابيح الظلام ومشائخ الاسلام سراة تواصوا في خطتهم المنيفة بالحق وتواصوا بالصبر وخلد لهم التاريخ في ذلك اعظم فخر الى مساع في الصالحات مشكورة ومعرفة بمنازل واقدار الناس مأثوره وادوات تامة موفورة احرزوا بها حميد الخلال وبرزوا بتوفيق الله تعلى الى غايات الكمال

محمد الناصر الصدام

سلسلة المشائخ الصدور

بمسند الرئاسة المذهبية الحنيفة

في الدولتين المرادية والحسينية

بقلم العلامة المؤرخ امير الامراء ومستشار
الحكومة سيدي محمد بن الخوجة

نظرا لكون هذا العدد من المجلة الزيتونية هو اول عدد يصدر من المجلة بعد وفاة شيخ الشيوخ وطود الرسوخ العلامة الامام شيخ الاسلام والمسلمين مولانا الشيخ محمد بن يوسف طاب ثراه احببت ان تكون مشاركتي في هذا العدد من المجلة قاصرهم على ذكر اسلافه قدس الله ارواحهم بمسند رئاسة الفتوى الحنفية في الدولة المرادية ولا سيما في العصر الحسيني السعيد وذلك بدون مراعاة لالقابهم المختلفة في رسوم الدولتين

مسند الفتوى الشرعية هو الركن الاصلي للرئاسة المذهبية بدار الشريعة ففي بداية الامر كانت الفتوى فردية واول من تولاها الشيخ رمضان افندي بعد انتهاء مدته في منصب القضاء الشرعي وعزمه على الرجوع الى الاستانة فرغبه الامير يوسف داي في الاقامة بتونس وقدمه لمنصب الفتوى فكان هو اول مفت حنفي بتونس بعد دخولها في طاعة ءال عثمان ثم بالتبعية للتطورات الزمانية ونزولا عند حكم النواميس الطبيعية القاضية بارتقاء كل حي نام امتاز المفتي في تونس بلقب المفتي الاكبر عند ازدواج خطته باضافة مفت ثان له وذلك ابتداء من دولة مراد باي الثالث التي كان مفتتحها في عام ١١١٠ فكان الشيخ عبد الكبير درغوث (١) مفتيا اكبر وجليسه المفتي الثاني ثان له واسترسل الامر كذلك في الدولة الحسينية حتى مع ارتفاع عدد المفتين لثلاث فكان الشيخ علي الصوفي هو المفتي

---

(١) تقدم من بيتهم اربعة لمنصب الفتوى منهم الشيخ يوسف درغوث الاصغر الذي كان من أول البيوت العلمية مصاهرة لابيت الحسيني حيث عقد الامير المولى علي باي الثاني في حياة والده المولى حسين بن علي لابنه سليمان باي على ابنة هذا الشيخ وقفت على رسم صداقها فاذا هو مصدر بخطبة جليلة تم عقده في اوائل شعبان عام ١٠٥٠ واليك تفصيل ما جاء فيه من المهر ـ قال :

فزوجه اياها على صداق نقده قبل البناء وارخاء الستر عليها الف ريال واحده (بسكة ذلك الزمان فما بالك بمصارفتها من عملة هذا الزمان) ونصف رطل من الجوهر النفيس وثمانية قفاطن مختلفات الالوان اثنان من المذهب ومثلهما من الموبر ومثلهما من الكمخة ومثلهما من الاملس وثمانية فرامل مع كل قفطان منها فرملة وثمانية احزمة حريرا مثقلة الاطراف بالفضه مختلفات الالوان وعلجية ورومية وست اماء من جنس السودان واعدلهن في القيم والاسنان اهـ

الاكبر (١) في دولة المولى حسين بن علي طاب ثراه واخلافه على قياسه الى منتهى مدة الباي الرابع في السلك الحسيني النفيس فلما ءالت الامارة للمقدس المولى حموده باشا وهو خامسهم في الملك ظهر لقب الباش مفتي بين الناس تبعا لقاعدة النمو الناشئة عن استكمال الاحوال واستقرار السلطان اقتسبوا ذلك فيما يلوح بالقياس عما حصل في هاتيك الايام من اشتهار الكاتب الاكبر الذي هو رئيس ديوان الانشاء بلقب باش كاتب وهي القاب تفخيمية اقتضاها تطور الدولة وتدرجها في مراقي الظهور والاستقلال النوعي الذي ما برح يومئذ في ازدياد بحيث جعلوا على راس كل هيأة منتظمة رئيسا لاهاها اقبوه بالباش منهم الباش كاتب والباش مفتي المشار اليهما ومنهم الباش حانبه والباش بواب والباش ءاغه والباش شاطر والباش عشي والباش طبجي والباش بلهوان والباش قزق وهذا من النصارى (٢) الى غير ذلك مما لا يدخل تحت حصر . فكان المفتي الاكبر الشيخ محمد البارودي هو اول من غلب عليه يومئذ لقب الباش مفتي في مدة صهره المولى حموده باشا السالف الذكر وكان هذا الشيخ بحرا زاخرا في علوم الشريعة وءاية في الصوت الرخيم كانه اوتي مزمارا من مزامير ءال داود يقصده الناس من بعيد لسماع ترتيله ءاي الذكر الحكيم في الصلاة ، وارتسم بعده هذا اللقب في الاذهان باستقرار الرئاسة الشرعية في السلالة الطاهرة البيرمية من عقب الشيخ محمد بيرم الاول الذي سياتي ذكره في سلسلة الشيوخ التي سنختم بها هذه النبذة المباركة فكان ابنه كبير المفتين الشيخ محمد بيرم الثاني باش مفتي الحنفية ومثله بعده ابنه الشيخ محمد بيرم الثالث فولده الشيخ محمد بيرم الرابع الى ان جلس على كرسي الملك الحسيني المشير احمد باي الاول ففي اواسط دولته اتفق له تلقيب هذا الشيخ الرابع بشيخ الاسلام وهذا افخم الالقاب التي تداولتها الرءاسة الشرعية بتونس منذ المائة العاشرة فما دون ولكن هذا االقب الجليل لم يتغلب يومذاك تماما على اللقب السابق بل بقي رءيس المذهب ينعته الكثيرون مع لقب شيخ الاسلام بلقب الباش مفتي الذي ارتسم في الاذهان من قبل .

---

(١) يستفاد من رسالة المفتين للشيخ محمد بيرم الثاني ان المفتي الشيخ علي الصوفي كان الناس ينعتونه في زمنه بشيخ الاسلام مع ثلاثة ءاخرين من معاصريه وهم الشيخ يوسف درغوث الاكبر والشيخ مصطفى بن عبد الكريم من ايمة الحنفية والشيخ محمد فتاته من ايمة المالكية وهذا فيه دلالة كافية على ان لقب شيخ الاسلام انما هو في اصله من اوصاف التعظيم والتفخيم التي كانوا يحلون بها كل من ينتهي اليه العلم كما كانوا يلقبون به الشيخ احمد بن تيميه من ايمة الحنابلة في المائة السابعة وامثال ذلك كثيرة في كل زمان ومكان

(٢) هو المكلف بالمهمات في البلاط الملكي ويعرف ايضا بوكيل الغرفة كانو ينتخبونه من ابناء العصر الاروباوي الناشئين بالسراية الملكية ومنهم من بلغ في المجد لرتبة امير الامراء ولدرجة المستشار بالوزارة الخارجية كما حصل في عهد الدولة الصادقية

والحقيقة ان القاب الرئاسة الشرعية في الازمان الماضية لم تكن مقيدة بالضبط المدقق المحيط بهيكلها في الزمن الحاضر (١) ولم يكن لتلك الالقاب رواج بين اهل العلم قبل انتشار مبادي النظم العصرية بالديار التونسية لاعراضهم فيما يلوح عما كانوا يرونه من قبيل القشور واكتفائهم بلقب اللباب الذي هو الكتاب والسنة فان الشيخ ابراهيم الرياحي خلع كساء التقليد عند خروجه من حضرة الباي يوم ولايته رئاسة المذهب المالكي لانه كان محلى بالديباج ولقد وقفت على محررات كثيرة رسمية وغير رسمية لجملة من

(١) تاييدا لهذه النظرية نقول انه يستفاد من بعض المراسيم الدولية التي وقعت بيدي ان الشيخ ابراهيم الرياحي كانوا يلقبونه تارة بكبير اهل الشورى من المفتيين المالكيين كما ورد في ظهير ولايته وطورا بباش مفتي المالكية كما ورد في منشور عتق العبيد الصادر في عام ١٢٦٢ . اما ظهير ولاية الشيخ المشار اليه الذي هو عبارة عن وثيقة تاريخية مباركة فقد ءاثرت نقل عبارته هنا لانها غير معروفة بين علماء هذا الجيل لكونها لم يتقدم نشرها بمكان ولانها ايضا جاءت بغير اسلوب المراسيم الملكية المعروفة لهذا الزمان واليك هي نقلا عن كناش الشيخ الوالد ومن خط يده :

الحمد لله الذي جعل الشريعة قسطاسا وميزانا وجعل الاعمال الصالحة على الرضا عنوانا وخص بالسعادة من شاء من عبادة تفضلا وامتنانا فاطلق بالخير منهم يدا وانطق بالحق منهم لسانا والصلاة والسلام على سيدنا محمد ارفع الانبياء شانا خاطب الامم فوسعهم تبيانا وشيد باحكامه في الخلق بنيانا ليرتاب الذين في قلوبهم مرض ويزداد الذين ءامنوا ايمانا وعلى ءاله الذين كانوا في معاضدته اخوانا ولامته في الهداية شهبانا بلغوا سيره واحاديثه صحاحا حسانا اما بعد فهذا كتاب كريم وظهير عظيم يقابل بالاذعان والتسليم لنفعه العميم انتج الحق قياسه وبنى على الشرع اساسه صدر من مولانا الهمام نخبة الملوك العظام الجامع لما تفرق من محاسن الدهر كفؤ الخلافة الملبي لها بالمهر من داب على حوطة المجد وجد وورث الملك من اب وجد مولانا حسين باشا باي امير القطر الافريقي اصلح الله حاله وبلغه من احياء السنة ءاماله الى كل من يقف عليه ويتدبر ما لديه من العلماء الاعلام ومشايخ الاسلام المفتين والفضلاة والكواهي والاغوات والمشايخ والرعية وسائر اولي الولايات السياسية شرح للحق صدر الجميع ووفق الكل لصالح العمل وحسن الصنيع معلنا بانه قدم الحبر الحجة الثقة صدر الاجلة (كذا) وعلم الملة الذى استمدت من نوره البدور والاهلة تاج العصر وامام هذا المصر الذي ملأ علمه النواحي محبنا الشيخ سي ابراهيم الرياحي وجعله كبير اهل الشورى من المفتين المالكيين بدار المملكة تونس حاطها الله زين جبين وجهه بتاج هذه الولاية وصرف له وجوه البر وعيون العناية بعد ان اجال قداح الاختيار فبلغ الغاية واقامه يفتي المسترشدين بمذهب امام دار الهجرة مالك بن انس رضي الله عنه وعن سائر الايمة الثابت لديه من اعلام مذهبه الثقات الذين احيوا من ارض العلم الموات فليتول هذه الخطة عالما بمقدارها متصفا بما يحمد من ءاثارها مهيبا بالدين رءوفا بالمؤمنين قادحا بالمشورة زند التوفيق عادلا الى سعة الاقوال عن المضيق متثبتا حتى يظهر صبح التحقيق واوصاه في الابرام والنقض بتقوى من يعلم خفيات السماء والارض فان الله يراه والهدى هدى الله وصية صدرت مصدر الذكرى التي تنفع ويعلي الله بها الدرجات ويرفع كما اوصى له بالاجلال وحفظ منصبه عن الاخلال فانه اقطعه جانب الانعام الجسيم وزاده في مراقي التنويه والتكريم اجلالا لخطته التي لا يلقاها الا ذو حظ عظيم وعلى الواقف على هذا المقال ان يبادر بالامتثال ويعلم قدر هذا الاجلال والامر لمولانا الكبير المتعال وكتب لخمس عشرة خلون من جمادى الاولى عام ١٢٤٨ ثمانية واربعين ومائتين والف اهـ

الشيوخ منهم الشيخ ابراهيم والشيخ اسماعيل التميمي والشيخ الجد والمشايخ البيارمة وغيرهم من اقطاب القرن الاخير واحرى اسلافهم علماء الاجيال السابقة فلم نر فيها من عقب منهم اسمه بذكر خطته تصريحا او تلميحا خلافا للقاعدة الجاري بها العمل في الازمان المتأخرة والحاضرة واول ما رايت ذكر الخطة تلو اسم صاحبها كان تاريخه حوالي سنة ١٢٩٠ على عهد الشيخ محمد معاويه فقد وقفت لـه على مكتوب من خط يده مختتم بقوله : محمد معاويه شيخ الاسلام . ومعلوم ان خلفه في الرئاسة الشرعية هو الشيخ احمد ابن الخوجه الذي بلغت المشيخة الاسلامية في مدته لقمة مجدها الرسيخ بفضل توسعه في العلم ومشاركته مع غيره من شيوخ المذهبين في مشروع الاصلاح الذي انتهجه الوزير خير الدين بالبلاد التونسية من الوجهتين العلمية والاجتماعية فكان لقبه المشهور بين الخاصة والكافة هو شيخ الاسلام بالمملكة التونسية وبهذه التسمية جاءت مراسيم ولاية اخلافه بمسند المشيخة الى مفتتح عام ١٣٥١ وفيه وقع تفريعها لمشيختين مشيخة اسلام حنفية بالتخصيص ومشيخة اسلام مالكية بالتخصيص وهي الحالة التي ءالت فيها رئاسة المحكمة الشرعية الحنفية لنوبة الشيخ محمد بن يوسف رحمه الله

ولنختم الآن هـذه النبذة التاريخية بذكـر اسماء كافة الشيوخ الماضين الذين توارثوا رئاسة المذهب الحنفي من البداية الى النهاية بقطع النظر عن القابهم التي قدمنا بيـان تطوراتها حول السنين واليك ذلك :

١ – الشيخ رمضان افندي تـولى في حدود سنة		١٠٢٠
٢ – الشيخ احمد الشريف الحنفي	»	١٠٤٤
٣ – الشيخ احمد الشريف الاندلسي	»	١٠٥١
٤ – الشيخ محمد بن مصطفى الازهري تولى سنة		١٠٦١
٥ – الشيخ مصطفى بن عبد الكريم	»	١٠٦٧
٦ – الشيخ يوسف درغوث الاكبر	»	١٠٧٥
٧ – الشيخ عبد الكبير درغوث	»	١٠٧٦
٨ – الشيخ علي الصوفي	»	١١٣٣
٩ – الشيخ يوسف درغوث الاصغر	»	١١٤٣
١٠ – الشيخ محمد ارناووط	»	١١٥٦
١١ – الشيخ حسين البارودي	»	١١٦٩
١٢ – الشيخ محمد بيرم الاول	»	١١٨٦
١٣ – الشيخ محمد البارودي	»	١٢١٤
١٤ – الشيخ محمد بيرم الثاني	»	١٢١٥
١٥ – الشيخ محمد بيرم الثالث	»	١٢٤٧
١٦ – الشيخ محمد بيرم الرابع	»	١٢٥٩
١٧ – الشيخ محمد بن الخوجه	»	١٢٧٨
١٨ – الشيخ محمد معاويه	»	١٢٧٩
١٩ – الشيخ احمد بن الخوجه	»	١٢٩٤
٢٠ – الشيخ احمد كريم	»	١٣١٣
٢١ – الشيخ محمد بن مصطفى بيرم	»	١٣١٥
٢٢ – الشيخ محمود بن الخوجه	»	١٣١٨
٢٣ – الشيخ احمد بيرم	»	١٣٢٩
٢٤ – الشيخ محمد بن يوسف	»	١٣٥١

فجع الورى وتضعضع الاسلام

الاديب الكبير الشيخ العربي الكبادي

فجع الورى وتضعضع الاسلام … وعلا وجوه النيرين قتام
واهتز عرش العلم من اسف على … حبر تضن بمثله الايام
علامة الدنيا الذي قد قصرت … عن أن تحيط بفضله الافهام
يا لهف تونس عن همام طالما … كان المنير اذا اتيح ظلام
تتسابق العلماء نحو دروسه … ما صد راغبهم هناك زحام
علما بانك في زمانك واحد … ولكل عصر سنة وامام
من للكتاب اذا تطاول مشكل … وتقاصرت عن دفعه الاعلام
الا الذي طوت المنون حياته … فخفا الظيا وطبق الاظلام
ولسنة المختار يشرح خافيا … من سرها ويعينه الالهام
لا تنكروا فضل ابن يوسف بينكم … ان كان فيكم همة وذمام
فهو الذي كشف الطريق لكل من … قد جاوز الطبيين منه حزام
وبهديه نالوا المراد وطأطأت … لهم من المجد الاثيل الهام
ان حالت اليوم الصفائح دونه … وعرت خطوب لا تطاق جسام
فلطالما شهدت اعلام الهدى … وهم قعود حوله وقيام
يجنون من ازهار روضة علمه … زهرا تحطم دونه الاوهام
ما في ايالة تونس من عالم … الا بمجلسه له المام
وهناك يظفر بالرشاد مريده … ويزول عن ذهن الضعيف سقام
واذا السحاب تحجبت بكثيفه … خوف الوصول لكنهها الاجرام
وتعمقت في الاختفاء فذهنه … كالبرق في وسط السحاب يشام
يا من ترحل تاركا من فقده … بحشا الهدى والعالمين ضرام

هؤلاء الاشياخ الافذاذ مضوا كلهم وانقضوا فسبعة عشر قطبا منهم اجابوا داعي الله في العصر الحسيني وسبعة سبقوهم لدار النعيم فى الدولة المرادية ولكن فضيلة العلم مسحت على وجوه جميعهم بيد الخلود فبقي ذكرهم حيا وسيكون كذلك الى ما شاء الله

محمد بن الخوجه

رثاء شيخ الشيوخ رحمه الله

للفاضل العالم المدرس الشيخ علي النيفر

حم القضاء فلا حام ولا واق ... للمرء من شجن للنفس طراق
غشى على افق الخضراء غيهبه ... امسى مطبق اقطار وآفاق
بذ القوى نفث البلوى بكل حشى ... اغرى الجفون بدمع منه دفاق
أدمى القلوب أسى أذكى بها قبسا ... أذابهن بلذع أو باجراق
يا ليت شعري وللادواء مرهمها ... هل للمنية من طب ودرياق
مضى الردى بملث النفع غيداق ... وكور الموت شمسا ذات إشراق
مضى بعلامة الخضراء جهبذها ... مضى بمن ذكره بين الورى باق
محمد علم الفتيا ابن يوسف من ... في حلبة العلم أمسى خير سباق
شيخ الشيوخ الذي كانت مجالسه ... تحبو مجالسه فوزا بأعلاق
كم أنبتت من نحارير حدائقها اللاتي تروق لاسماع واحداق

لما رايت الناس في دنياهم ... تركوا سبيل الصالحات وناموا
لم يفهموا ما قد كتبت ولم يكن ... لهم على ما قلته استعلام
وتمسكوا بالمنكرات فلم يعد ... لهم على غير الخنا اقدام
ودعت دنياك التي ما نالها ... منكم على اقبالها استعظام
بل كنت تنظرها بمقلة عارف ... ان الحياة متاعب فحمام
فجعلت همك في اقتناما ترتضي ... يوم الجزا وينااله الاعظام
الحمد والحمد فيك سجية ... ما شانها في موقف احجام
لما سرى نبأ ارتحالك عمنا ... الم وبان على الوجوه سآم
وتسابق الفضلا الى توديعكم ... كهل وشيخ عاجز وغلام
ما اودعوا في الترب جسمك انما ... علما تقدر كنهه الاقوام
هل ثم من خلف يخفف بعض ما ... زلت لهول مصابه الاقدام
حتى تقر العين بعد بكائها ... ولو انه بعد الغزير رهام
وقد هتديت ببارق من فكركم ... ارخته برق هداه ختام

١٣٥٨

وأغدقت مزنها للمستظل بها — صوبي ذكاء وعلم أي إغداق
كم قد وردت بها من منهل فهق — عذب لدى ظل أوراد وأوراق
وكم قبست سنا من نور فكرته — في كل معطلة كرت باغساق
وكم شهدت من التحقيق آيته الـكبرى لديه بقول رائع راق
به بلغت الذي أرجوه من أمل — به تكامل إزهاري وإيراقي
كم حاد للذكر من تفسيره حبرا — مذهبات الحواشي غر أخلاق
وصاغ من شرحه متن الصحيح حلى — من عسجد القول محضا صوغ حذاق
وقلد الجم أعلاق البلاغة من — دلائل الشيخ ما أزرى بأطواق
وكم له قدم في غيرها رسخت — مهما وصفت فلا أرمى باغراق
يا للقريض لقد الوى بجده — دهر فلم يبق منه غير أرماق
وللخطابة من بعد ابن يوسف قد — جادت بدمع كصوب المزن مهراق
ولهف معهدنا العلمي حين غدا — لما يبثه فيه رهن اشواق
ولهف معهدنا الشرعي أصبح مذ — أصابه الثكل في حزن وإطراق
قد كان فيه رئيسا لا يرد له — قول يصول بارعاد وإبراق
يمضي كما السيف لا تنبو مضاربه — حتى طوته شعوب طي أوراق
وكان في مذهب النعمان باقعة — شأى سواه باجماع وإصفاق
لله فخر لهذا القطر شاد له — ذكر يجول بأصقاع وآفاق
جادت به كف هذا الدهر آونة — ثم اغتدت وهي منه ذات إملاق
قد عاش ما عاش في أسر الحياة وان — طابت فبشراه أن منت باطلاق
لا هم أمنه في يوم يطول به — كرب ويكشف فيه الهول عن ساق
واجعل شآبيب رحمى منك واكفة — على ضريح ثوى منه بأعماق
رمس اليه هوى نجم العلوم ومن — لم يعر من أمه رجعى باخفاق
قد قلت لما ثوى فيه أؤرخ يا — لهفي على العلم يضحى خلف أطباق

١١ — ١٢٥ ١١٠ ١٧١ ١٨١ ٥١٠ ١١٣

سنة ١٣٥٨

علي النيفر

رثاء خاتمة المحققين

للعالم الاديب المدرس
الشيخ الطاهر القصار

هو الخطب فلتطرق عليه المجامع ... وذا الرزء فلتبك النهى والمدامع
هوى العلم السامي على قمة العلا ... فمادت اقاليم وريعت مرابع
وزلزل صرح العلم وانهار ركنه ... وكانت تناغيه النجوم السواطع
ونال الردى منه الصميم فاصبحت ... معالمه الغناء وهي بلاقع
وادمى الاسى منا المحاجر والنهى ... وبلبل البابا لها العلم جامع
وذا معهد العرفان فانظر قبابه ... قد انهمرت منها الدموع الهوامع
وذي انة المحراب امسى دويها ... له اثر في مسمع الصم قارع
تناثر عقد الدر من حلقاته ... ورجت الساطين به ومصانع
وقد سكنت انفاس اهليه دفعة ... واصماهم سهم من الحزن صارع
وباتوا كاشبال تردى هزبرها ... فالقت عصاها حولهن الفجائع



أسيف الردى قد جئت شر مساءة ... وانغرت درعا ما له الدهر راقع
والحقت بالخضراء ضرأ لوانه ... غدا فوق رضوى لاحتوته الاصابع
صرعت امرءا يزري على البحر علمه ... وتخشى حجاه النيرات اللوامع
دري بنظم القول درا وجوهرا ... بليغ تحاماه الفحول المصاقع
يكاد يضيء العقل مشكاة فكره ... ويبصر رشد الرأي فيه المطالع
له همة في العلم من دون امرها ... ظبات العوالي والسيوف القواطع
مجالسه الفيحا حدائق حكمة ... وساح سباق للنهى ومرائع
هنا وهنا ورد النبوغ مفتح ... وزهر الفنون الغض بسام يانع
هو الحق وضاء اذا قال قوله ... بهالته الزهراء والحجر واسع
له الحلقات الغر موصولة العرى ... بكل همام ما لهن تقاطع
تجود على الطلاب دأماء علمه ... بخير الذي ترجو المنى والمطامع
له الفكرة العصماء والنظرة التي ... تزاح بها في المشكلات البراقع

امام عديم الند انسان عصره وبدر علاء في سما العلم ساطع
وشمس نبوغ زينت افق تونس فباءت بوسم الغيض تلك المطالع
طراز جلاه الدهر في الناس نفحة وكوكب سعد فاتن الحسن بارع
اضاء على الخضراء تسعين حجة وما شاخ ما احنت عليه الاضالع
تراه نحيل الجسم لكن لبه تخر لديه القارعات الزعازع
كأن سعال الصدر وهو قرينه زئير هزبر في فضا الكون ذائع
لدى رأيه تحنو الجباه مهابة وتعنو له الالباب وهي خواشع
قضى مرشدا سبعين حولا سمت بها عصور وآماد طوال شواسع
فكانت على التاريخ سطرا مذهبا وعنوانه ذكر مدى الدهر شائع
تسنم صرح العلم فاحتل رعنه وكم خاب في نيل المفاخر طامع
وشقت فتاويه الدجى مثل بارق يصاحبه غيث من السحب نافع
وسحت على الديوان انواء حكمه ففاضت به للواردين المنابع
وقلده الاسلام كبرى رئاسة لدى بابها هام العلا تتواضع
فاصبح للاسلام شيخا وقدوة وبات عن الاسلام نعم المدافع
حباه هدى النعمان عزا وسؤددا لظلميهما شم الانوف تسارع

⊛ ⊛ ⊛

ايا شيخ اسلام ايا ركن امة ايا علما قامت عليه المنافع
اشيخ شيوخ العصر يا نير الحجا ويا مرجعا دانت اليه المراجع
مضيت فخلفت اللهى تندب النهى وفت فانت للفراق المجامع
ووليت شطر القبر وجها تلالات به مرهفات الشيب فانداك جامع
وقوض من نادي الخطابة منبر لمصقعه الخطاب تعنو المسامع

⊛ ⊛ ⊛

بني تونس هذا ابن يوسف قد قضى مهمته والموت لا شك واقع
« وما المال والاهلون الا ودائع » « ولا بد يوما ان ترد الودائع »
فهل فيكم كفؤ لهذا الطود وارث يذود الاسى عن لبكم ويدافع ؟
كأني اصغى لفظ . لا . حول موقفي وذلك يغري بالاسى ويشايع
لنبك اذا طود المعارف كلما همى وابل او كلما ناح ساجع
وننشر على ناووسه الشعر باكيا فقد كان في مضماره لا يقارع
وكم من يد اسدى الي ونعمة وهل في سوى ذا اليوم تجزى الصنائع
فنم يا امام القطر نومة آمن يحيط به عفو من الله واسع
فان كان اقصاك الردى عن ربوعنا فذكرك باق طيلة الدهر شائع

موت العالم ثلمة

بقلم مدير المجلة

هوى بدر العلوم اللامع من اوج الثريا الى الثرى ففجعت المحافل العلمية وتصدعت اركانها وغشاها ظلام حالك وحزن عميق واضحت القلوب بلوعة الاسى مكلومة ومن شدة الصدمة ترجف كيف لا والنفوس قد اصطدمت بمصاب عظيم ورزء جليل لما نعي اليها شيخ الاسلام وعالم القطر فعظم الخطب وحارت به الالباب واضطربت من اجله الافكار فلقد فقد من بيننا امام من ايمة المسلمين وبحر زاخر بعلوم الشريعة ذو فكر وقاد ومدارك سامية وعزيمة لا يلحقها فتور ولا ملل حتى بعد الشيخوخة وتقدم السن وقريحة صافية من كل قتام تجلت امامها الحكمة غير مشبوهة ولا ملتبسة

برز في الفنون ونضجت مادته العلمية فكانت ثمرة طيبة استساغها منه طلابه وموردا عذبا تزاحمت عليه رواده فاتسعت شهرته اتساعا قل فيه المشارك وعز فيه المزاحم وطبق ذكره الآفاق وخطب وده فحول العلماء والكل يودون به التحاق وخف لمجلسه العلمي كل من رام الفوز في هذا السباق لما خصه الله به من ذوق علمي نادر المثال ورجاحة عقل وبراعة بيان

اجل عرفتك استاذي وانا في سن الحلم لما بين اسرتي ومقامك الكريم من الوصلة العلمية المستحكمة العرى المقامة على اساس متين هي صلة الروح بالروح واعظم بها من صلة تضعف دونها الصلات وتشوقت للالتحاق بمجالس درسك الجليل وانا ازاول التعليم الثانوي فانظر الى تلك الطلعة المباركة في كل صباح وامني النفس لو يتاح لي عبور هذه المرتبة لاحظى بالانضمام الى درس عالم القطر وشيخ الشيوخ ثم يداخلني القلق والاضطراب خيبة ان احرم من الارتشاف من ذلك المعين الصافي او يحول ستار الموت قبل ان ارجع بقبس من نور تلك المشكاة اللامع الذي اجلى عن صدور طبقات ما بها من ظلمة الجهل او الاضطراب وهداها الى الحكمة والقول الفصل وشاء الله ان لا احرم مما قصدت وكتب لي في سنة اربعين هجرية ان التحق بدرس شيخنا وامامنا فاصبحت من اخص تلاميذه البررة مفتخرا بشدة اخلاصي اليه مغتبطا بما افوز به كل صباح من درره اللوامع وجواهره المصقولة المجلوة عن اصدافها في احسن سمت واروع بهجة . وازدوج النفع وعظمت الفائدة وكلما تقادم العهد ازداد بي ادراك المنزلة السامية التي يحظى بها كل من ساعده القدر ويسر له الاتصال بذلك الركن الركين والبحر الزاخر الذي لا ينفك يقذف باللالي ولو في اخص الاوقات وكملت عشر سنوات ونحن نرفل في حلل المعرفة ونخوض معارك يقودنا اليها بصائب راي وجودة قريحة فننقلب من حلبة الدرس بغنائم احلت لنا ولم تبح لاحد من قبله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

اي شيخنا الامام لقنتنا الاخلاص للعلم فتمكنت من نفوسنا تلكم النصيحة السامية

اوصيتنا بحمى الحواصل من صغار الطلبة خيرا ومبرة وصدقا في التعليم وانقطاعا للدرس فصدقنا النية واخلصنا ان شاء الله في القول والعمل

هذبت نفوسنا بنصائحك الاخلاقية فاهتدينا الى السبيل على ضوء تلكم الوصايا والنور اللامع الوضاء

بعثت في قلوبنا الطموح للعلمي وشجعتنا على الولوج في فيافيه ومغاوره ورسمت لنا الخطط والمناهج لنسلكها من غير هوادة ولا اضطرب

حببت الينا النقد وعبدت لنا مسالكه ولا ترضى منا مجرد لنقل المسائل العلمية واخذها على كلاتها فتسمو بعقولنا وتحلق بها في سماء المعرفة وتفتح امام الانظار نوافذ تشرف على رياض ناعمه ثمارها مقطوعة ولا ممنوعة

وفرت لنا في شخصك الزكي معرفة الفضيلة والكمال واخلاص الضمير في العمل

من قصصك اخذنا المواعظ البالغة ووفرة الكرامة وحسن السلوك وصدق المودة وطهارة العاطفة

ادنوت منك طلابك وانزلتهم من نفسك اخص المنازل فنمت فيهم عواطف الاخلاص والمبرة لمقام شيخوختكم زتسابقوا في ميدان المبرة وتلكم من احض التي امتزتم بها وروضتم بها نفوسهم

من مجالسك اقتبسنا طيب الحديث وانفع الذكر وابلغه

امام انظارنا وفي قرارة نفوسنا تجلت تلكم النفس المطمئنة المفعمة بالافكار السامية والمدارك الراقية الطافحة بالتفكير الصحيح والقول السديد

في ءاخر ايام حياتكم الدنيا وانتم على سرير المرض تضمني الى صدرك الطاهر وتخصني باطيب الدعوات المفعمة بالرضى الشامل والمبرة الموفورة وتنحدر دمعات الحنان فتزيد في لوعتي وحزني حرارة وشدة

وفي ءاخر ساعة يشفع لي اخلاصي الى مقام شيخوختكم فاحظى بوضع جسدكم الطاهر في مرقدكم الاخير

فانا لفراقكم لمحزونون فانا لله وانا اليه راجعون . محمد الشاذلي ابن القاضي

---

(١) راجع المجلة باعداد - ١ - صحيفة - ٣٣ - و - ٦ - ٢٩١ - ٧ - ٣٣١ من سنتي ٥٧ - ٥٩

اشرنا في طالعة كتابتنا الى بعض الوثائق التي اوردها محبنا الشيخ محمد طراد في اثبات نسب الاشراف العوانيين بالقيروان ، ويناسب ان نورد هنا ما يؤيد انتشار هذا النسب الكريم في المشرق - مصر والحجاز والشام - كاشتهاره في الديار الافريقية ، فقد ساق المؤرخ المصري ابن إياس الفقرة الآتية ضمن حوادث سنة ٨٩١ ، قال (٥) :

« وفي المحرم من السنة توفي السيد الشريف ابو عوانة - واسمه احمد بن ابي بكر - التونسي المالكي رحمه الله ، وكان يعرف بالعواني ، وكان دينا خيرا جميل الصورة حسن الشكل ، ويقال ان فيه شياء من شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومولده قبل الاربعين والثمانمائة . »

فهذه فقرة اولى تفيدنا - على ما فيها من الايجاز - بتاريخ وفاة احد العوانيين من غير ان تبين لنا محل وفاته ولا كامل نسبه ، لكن هناك امام القرن التاسع العلامة شمس الدين السخاوي سيرشدنا الى كل ما نترقبه من واسع علمه واحاطته في الاطلاع باحوال اهل عصره . فانه ترجم لشريفنا هذا بما يشفي الغليل وعرف به لا سيما وانه كان ممن يحضر دروسه في الحديث ، قال السخاوي رحمه الله تعالى (٦) :

احمد بن ابي بكر بن احمد بن علي بن احمد بن علي بن يوسف بن عبد الملك بن عبد الله بن سالم بن عبد الملك بن عيسى بن احمد بن عوانة بن حمود بن زياد بن علي بن محمد بن جعفر بن علي التقي بن محمد التقي بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب . أبو العباس بن ابي يحي الحسيني القيرواني الاصل التونسي المالكي نزيل مصر ويعرف بابن عوانة ، ولد يوم عاشوراء سنة تسع وعشرين وثمانمائة بتونس ونشأ بها وقدم القاهرة في اول دولة الاشراف إينال وحج منها في سنة ثمان وخمسين وكانت الوقفة الجمعة وصحب خطيب مكة فنوه به وعرفه بالاكابر من الامراء وغيرهم . وشاع بين العامة شبهه بالنبيء صلى الله عليه وسلم وكتابة علماء القيروان كابن ابي زيد صاحب الرسالة فمن قبله باستفاضة نسب شخص من اسلافه . مات بالاسكندرية فى مستهل المحرم سنة احدى وتسعين (وثمانمائة) بالاسكندرية وكان توجه اليها بالزام السلطان له مع صهره ابي عبد الله البرنتشي (٧) كالامين ، وكان كثير المحاسن ، عالي الهمة مع من يقصده ، لا يهاب ملكا ولا غيره ، كريما شهما متوددا متجملا في ملبسه ومركبه ممن تكرر الي مع من يقصده في الاجتماع بي من غرباء بلده كقاضي الركب ، وربما سمع معهم علي ، ومقاصده شريفة ، وخصاله منيفة ، عوضه الله الجنة . »

---

(٥) كتاب « بدائع الزهور . في وقائع الدهور » لابن اياس ط بولاق سنة ١٣١١ ج ٢ : ٢٣٣

(٦) « الضوء اللامع ، لاهل القرن التاسع » ط مصر ١٣٥٣ ج ١ : ٢٤٨

(٧) البرنتشي نسبة الى حصن من غرب الاندلس (اصل)

صفحة من تاريخ تونس

صلة تونس بالدولة العثمانية

بعثة خير الدين للاستانة

سنتي ٢٨١ ـ ٢٨٨

تعريب الفرمان السلطاني الشريف حسبما آل اليه

للعالم امير الامراء الاستاذ
محمد صالح مزالي عامل بنزرت

منذ احيلت واودعت من جناب سلطتنا السنية ادارة الايالة التونسية التي هي من ممالك الدولة العلية المحروسة المتوارثة الى عهدتكم ذات اللياقة والاهلية كما وجهت الى عهد اسلافكم لم تزل تظهر حسن السيرة والخدمة وتنهى الى الطرف الملوكي الاشرف خلوص النيــة والاستقامة حتى صار ذلك قرينا لعلمنا المضيء بالعالم فمأمولنا السلطاني على مقتضى الشيم المرضية التي جبلتم عليها هــو الدوام في هذا المسلك المرضي والجد والاجتهاد في كل ما ينمي عمـران مملكتنا الشاهانية وسعادة اهاليها تبعـة دولتنا العلية ورفاهيتهم وراحتهم حتى تستديم بذلك استحقاق العنـاية الشاهانية والاعتمـاد السلطاني المبذولين في حقك انـا فئآنا وتعرف قــدر تلك العناية والاعتماد وتشكرها ولما كان المقصود الاصلي والمراد القطعي لسلطتنا السنية هو ارتقاء طمأنينة الايالة المهمة الراجعة لسلطتنا الفخيمة ونمو عمرانها وتاسيس ابنية الامن والراحة لسكانها يوما فيوما وكان من البديهيات ان السلطنة العزيزة لا يعزها ولا يؤدها صرف الهمة والعناية العائدة الى حقوقها الاصلية لتمام استحصال هاته المطالب وورد الطلب المدرج في كتابك المخصص الموجه من طرفك اخيرا الى جانب الخلافة العلية . قررت وابقيت ايالة تونس المحدودة بحدودها القديمة المعلومة بعهدتك بضم امتياز الوراثة وبالشرائط الاتيــة وحيث ان مرغوبنا السلطاني على ما تقدم بيانه انما هو تزيد عمران تلك المملكة الشاهانية وثـروة اهاليها وهي الآن في حالة مضايقة وتإخر في الواردات لكل من الحكومة والايالة قد سمحت السلطنة السنية بعدم

فانت ترى من هذه الترجمة الحافلة ان الوثيقة التي شهد فيها الحبر ابن ابي زيـد وغيره من اعلام القيروان بثبوت نسب العوانيين والتي نشر نصها صاحبنا طراد كانت معروفة من العلماء الباحثين وان صداها بلغ المشرق كما طوق المغرب ، وهذا هو الشرف الذي لا يدانيه شرف !

نسب تحسب العــلا بحــلاه   قلــدتــه نجـومهـا الجـوزاء

وربما عدنـا في فرصة اخرى لاستقصاء خبر اشراف آخرين اتخذوا افريقية دارا وقرارا ، وفوق كل ذي علم عليم

ح . ح . عبد الوهاب الصمادحي

ارسال ما كان يرسل باسم معلوم من الايالة لطرف دولتنا العلية بموجب التبعية المقررة المشروعة رحمة لاهالي تلك الايالة ولما كانت الايالة المشار اليها من الاجزاء المتممة لممالكنا الملوكية صدرت الارادة السنيةبان يكون الوالي بتونس مرخصا له تولية المناصب الشرعية والعسكرية والملكية والمالية وهذا السياسة لمن يكون متأهلا لها وفي العزل عنها بمقتضى قوانين العدل ومن اجراء المعاملات المعلومة مع الدول الاجنبية كما كانت فيما عدى المواد البوليتكية العائدة الى حقوقنا المقدسة السلطانية ونعني بها ما كان كعقد الشروط المتعلقة باصول السياسة والحرب وتغيير الحدود ونحوها مما يكون اجراؤه راجعا الى حقوق السلطنة السنية على شرط ان تستمر الخطبة باسمنا السلطاني وتزين به السكة التي تضرب هناك علامة علانية للارتباط القديم الشرعي لايالة تونس لمقام الخلافة الجليل وان يبقى السنجق على شكله ولونه ومهما وقع حرب لسلطنتنا السنية مع اجنبي يرسل العسكر من تلك الايالة الشاهانية بقدر الاستطاعة طبق ما جرت به العادة القديمة ومع دوام تلك المواد ان يكون امر الولاية بطريق الوراثة مخصوصا بعائلتكم على ان تبقى سائر المعاملات الارتباطية مع دولتنا العلية جارية ومرعية كما كانت سابقا وان تجري الادارة الداخلية مطابقة للشرع الشريف وموافقة لقوانين العدل التي يقتضيها الوقت والحال الكافلة بتأمين السكان في النفس والعرض والمال وعند حلول القدر المحتوم في مقام الولاية وتقديم معروض الطلب من الوارث الاكبر من عائلتك لطرف سلطنتنا السنية يرسل له الفرمان الشريف مع منشور الوزارة والمشير به الهمايوني كما استمر العمل بذلك الى الآن فاعلانا لما ذكر اصدر هذا الفرمان الشريف الجليل القدر من ديواننا الهمايوني وارسل موشما اعلاه بخطنا الميموني السلطاني فخلاصة نياتنا الخيرية الشاهانية انما هي اصلاح حالة تلك الايالة المهمة وءال بيتك وتقوية ذلك حالا ومئالا واستكمال اسباب اسعاده والرفاهية والامنه لصنوف تبعتنا المستظلين بظل عدلنا السلطاني ومامولنا القطعي السلطاني يبذل من جهتكم الجهد في حصول ما ذكر ثم حيث كان تمام المحافظة على حقوق سلطنتنا السنية المحققة بتونس من قديم الازمان وعلى امن الاهالي القاطنين بتلك الايالة المودعة بعهدة صداقتك من حيث النفس والعرض والمال وسائير الحقوق العمومية شرائطا اساسية مقدرة لامتياز الوراثة فيقتضى ان تتأكد محافظتها على تطرق الخلل دائما سرمدا ويتباعد عن وقوع الحال والحركة على خلافها اذا علمت ذلك فلا بد ان تعرف انت ومن يقام في امر الولاية بالتوارث من اعضاء عائلتك قدر هاته النعمة وتشكرها فعلى ذلك تسعى لتحصيل رضاءي السلطاني بالغيرة والاهتمام باجراء هذه الشروط المؤسسة .

الخيال في الادب العربي

٥

بقلم احمد المختار الوزير

الخيال الابتكاري

على اساس ما تقدم اريد ان اتمم حديثي عن الخيال في الادب . واذكر انني انتهيت بالبحث الى ذكر مثال لهذا الخيال الابتكاري الذي يستمد قوته من الحياة . اذ انه يستوعب الحياة ويشمل كل ما فيها من الحركات الاجتماعية . وتقلب النظريات العلمية . والفلسفية والاخلاقية .

هذا الخيال الفياض الذي يستنزل الهامه ويجمع عناصر قوته وخلوده من اسرار الخلائق وما قد تحجب في اعماق النفوس وغيب القلوب . من احط جوعات الغرائز . ونزوات الشهوة . الى ذلكم الطموح اللهيف . والامل النشيط .

هذا الخيال المبدع في تصويره لحقائق الكون والطبيعة . وللمثل العالية للخير والجمال . هذا الخيال الطليق الذي تترامى في التصور افاقه . وتبعد في النظر طروح مسابحه حتى يقف من هذه الدنيا على سواحل السرمدية وعوالم الجمال الابدي . هذا الخيال الذي يجعل من الشاعر العبقري مثيل الفيلسوف في شوقه الى اكتناه كل شيء من طريق الاحساس والشعور ثم في تعبيره عن كل شيء تعبيرا صادقا جميلا مؤثرا نلمح في فصول اقضيته . وطوالع ابنيته . وفواصل تراكيبه وجمله . عنوان نفسه الكبيرة التي كان يشعر بها ويحس . وليس من شك ان هذا الخيال الفياض هو الذي ينتج ادب الحياة والخلود . تطالعه فيفتح في نفسك المغلقة ابوابا جديدة للاحاسيس . ويلهم قلبك وعقلك ما شئت من المعاني السامية والاغراض النبيلة . ويملا عينيك بالنور ويضاعف فيك حب الحياة ونحن نسأل بعد هذا هل في ادبنا العربي القديم والحديث ما يصح ان يكون مثال لهذا النوع من الخيال . وقل ان شئت هل بلغ الخيال العربي في شموله وفي بعد حدوده الى هذه الغاية ؟ هل عبر عن هذا الجمال المصور في كل مظاهر الطبيعة والحياة ؟ هل استوعب بنظراته العميقة المتأثرة هذا السحر الفاتن المتجلي في مناص الوجود ؟ ثم هل امتد الى ما قد تحجب في ضمير الانسانية من كوامن الاحاسيس ومختلف المنازع في الخير والشر . والى هذا الشك الحائر الذي يجتذب العقائد والافكار . فتضطرب حينا وتسكن حينا اخر . وتلقي سؤال حيرتها على كل شيء تستعلن سره وتستوضح غيبه ؟

ذلكم ما سأتصدى لتحصيله بعد حين . ومن الخير ان ناخذ في درس هذين البيتين لشاعر عربي

تحدث فيهما عن زهرة من زهرات الربيع فوصفها بما استحضره من اوصافها ونعوتها . واراه قد افتن في تاليف هذه النعوت والاوصاف الى حد بعيد يقول ابن خفاجة .

ومائسة زهى وقد خلع الحيا عليها حلى حمرا واردية خضرا
يذوب لها ريق الغمائم فضة ويمكن في اعطافها ذهبا نضرا

فالزهرة هنا ليست ذلكم النوع المادي المالوف في عالم النبات بخصائص اللون البديع والشكل الجميل ، والفوح العطر ، وانما هي كائن حي له ما للكائنات الحية من خصائص الحياة . كذلكم يراها شاعرنا ، وكذلكم تقع في تصور خياله وعبقريته ، وليس بدعا ان يرى ابن خفاجة زهرة الربيع فيملا عينيه من مدركاتها الحسية . ويأخذ في تأويل تلكم المدركات والمعاني المستحضرة في مجالات خاطره وخياله . فاذا الزهرة صبية فاتنة الجمال فيها خفر واستحياء ، وفيها تيه وخيلاء ، واذا هي تعطف مترنحة وفي عطفها معاني الدلال والغنج . وتستقيم وفي استقامتها معاني الزهو والاعجاب . وتعابثها نسمات المساء فتلين لهذا العبث وتطرب له اشد الطرب ، وتبدي من زينتها وفتنة جمالها ما لم تكن ابدته من قبل .

الم تعجب الزهرة بحلاوة حسنها . وسحر جمالها ؟ الم تظهر شعورها في اختيار ما خلع عليها الحياء من الوان الزينة وتبرج الاصباغ ؟ ثم الم تكن ثملة منتشية من ريقة الندى وخمرة الغمائم . اذ ترشفت من ذوب سلسلها العذب ما استحال فوق مراشفها الغضة نورا يلمع لموع الفضة والذهب؟ هكذا تصور خيال ابن خفاجة زهرة الربيع وتحدث عنها . فاذا ما رءاها القاريء من خلال هذا الوصف او من خلال نظرات الشاعر ، جن من اعجابه بجمالها الحضري ، واخذ يتروح بالاقبال عليها والنظر الى محاسنها . وكلما لاح له من حسنها شيء جديد عظم في نفسه الاعجاب والحب . وازداد شغفا ، وكلف بما للزهرة من حسن وبهجة ، وما ذلكم الا لان خيال الشاعر استطاع ان يريك في زهرة الربيع او في هذا الكائن الحي الذي تناوله بالوصف ما لم تكن رايته من قبل ولا تنبهت يقظات حسك لجماله من قبل .

ومهما قلنا في ابداع ابن خفاجة وقدرته على الابتكار في عرض الجمال والتعبير عنه فاننا لم نذهب في ذلكم مذهب المبالغة والغلو . فابن خفاجة لم يحتفل بشيء غير الجمال . فكان كل شعره تعبيرا عن الجمال ليس غير .

ولكن هل تعمق ابن خفاجة في فهم الجمال ؟ وهل كانت له جولة فكرية في استقصاء معانيه وهل تطلعت نفس الى ما هو اروع؟

ثم هل كان يقف امام مشاهد الجمال في خشعه العابد وامعان المفكر . ام انه كان يقف وقفة من يحمل بين اضلاعه روح الطفولة العابث ولهو الشباب الساخر مفتونا بما يرى ثم لا يريد ان يفسد على نفسه لذة الاستماع ونشوة السرور ؟

هذه اسئلة القيها على شعر ابن خفاجة وفي الحق انه من الجائز ان نتمارى في القاء هذه الاسئلة على شعراء الطبيعة في ادبنا العربي . اذ ان آثار انتاجهم التي احتفلت بها الدواوين وكتب الرواية . كلها جاءت على نمط واحد في الاحساس والشعور . وفي الفكر والخيال . فاذا تقصيتها بالنقد وتناولتها بالدرس . كنت كمن ينصت الامد الطويل ليسمع نغما واحدا من وتر واحد . وتلكم هي علامة التقليد ومبهمة الواضح في جملة اشعار اولئكم الشعراء .

فكلهم يتلهون بالازهار . ويقبلون عليها مفتونين باللون والشكل وطيب النشر وفوح العبير وكأن نعوت الازهار اقترنت في اذهانهم بنعوت المرأة . ومن ثم استقام لهم التشبيه . وحسنت الاستعارة

واستقرت الكنايات والمجازات . ولسنا ننكر على شعرائنا انهم قرنوا خصائص النساء بخصائص الازهار او العكس . اذ ربما كانوا موفقين في ذلك . وربما كان الربط في تداعي المعاني بين الازهار والنساء . قويا مستحكما وثيقا متمكنا ولكن الـذي ننكره ونبالـغ في انكاره انما هـو ضعف الابتكار في الاستحضار والعرض . وقصور الخيال في التنسيق والانسجام . وتخاذل الفكر في الاستقصاء والتعمق . فكل شعرائنا يجدون اللذة في الاستمتاع بجمال الزهور ، ويشغلهم هذا الجمال الظاهر ، او هذا الاستمتاع على الصحيح فتقف شاعريتهم حيال ما يرون راضية مطمئـنة . تصف مـرة وتشبه مـرة وتجمع بين الوصف والتشبيه مرات اخرى . وقد نجد في تعبير احدهم توفيقا واقتـدارا . وحسنا وافتنانا . ولكنه مهما وفق واجاد فانه لا يكاد يقضي حاجة النفس المترقبة المتطلعة . ولا يـكاد يصور حالاتها المتطلعة الطامحة .

واحسب ان وقفتهم حيال ما يرون من الجمال الظاهر . وتلهيهم بما يجدون من متعـة السرور ونشوات الفرح والحبور . جعلت خيالهم عاجزا محدود المنازع لا يتطلع الى ما يتطلع اليه خيال غيرهم ولا يحاول ما قد يحاوله خيال غيرهم من استجلاء الغامض واستعلان المكتوم . ولتقرير هذه المعاني في الاذهان انقل هذا الخطاب الذي تحدث به « تنيسون » الى زهرة الربيع ايضا انه يقول :

(ايتها الزهرة النابتة في ثغر الجدار لله حسنك وجمالك ، ولله اليد التي زرعتك وتعهدتك باسباب النماء والزكاة اعالجك باطراف انامل وقتلعك اقتلاعا . وتصيرين في قبضة يدي . وحبذا لو تم لي بمثل هذه السهولة ان اعرف ما تكونين ، وما تكون اصولك هذه النحيفة . واوراقك هذه الجميلة . اذ لو عرفت . ما انت وما اصلك وفصلك ؟ اذن لعرفت ما هو الانسان . وما هو الله سبحانه)

افليست هذه التحية الفاضلة تعبر في سهولة عن المعاني المكتظـة في خاطر هذا الشاعر الصـوفي الناسك . واحسب انها تعبر عن خطر كل نفس ضجت بها سئامة الجهل . وحزبها البـأس بـالسوار من الحيرة . اذ ترى الظلام يحول بينها وبين ما تنزع الى ادراكه ومعرفته . وتقرا هذه التحية واجمـل ما يتلقاك من بلاغتها الخالدة انك ترى في ظلال كلماتها ما يتخلج في النفس من خداع الظنون . ثم هذه الجودة في التثبت ثم هذه الكثرة الملحة في الطلب . ثم هذه القوة المتمردة . التي لا تهدا ولا تسكن وان قيدها خذلان الحيرة والجهل . فهي بالرغم من ذلكم تريد ان تنسف نسفا حجب الجلالة واسرار الغيوب

وتقرا هذه التحية مرة ومرة وفي كل مرة تعطيك من وفرة معانيها ما لم تكن ادركته من قبل

وما اشك ان هذه التحية هي اصدق مثال للادب الخالد . يقول الكاتب الفرنسي الشهير « مانت يوف » (الاديب هو الكاتب الـذي يغني العقل الانساني ويزيد ثروته ويساعده على ان يخطو الى الامام . وهو الذي يكشف حقيقة ادبية ويزيل ما حولها من الشك والغموض . وهو الذي ينفـذ الى اعمـاق قلب الانسان فيستخرج منه عـاطفة ادبية في حين يظن الناس انه لم يعد هناك شيء يكشف في هذه المنطقة وهو الذي يبرز الى الوجود افكاره وملاحظاته او ما وصل اليه من الحقائق في صورة دقيقة صحيحة جميلة . معقولة . وهو الذي يخاطب الناس باسلوب هو اسلوبه الخاص . ولكـنه اسلوب جميع القراء في القديم والحديث معا . صالح لكل زمان ومكان) ولن يكون هذا الحد مطردا في افتلاء شعرائنا ونقد انتاجهم على مقتضى اوضاع فصوله . اذ قلما نجد بينهم من اتسع خياله وسما ابتكاره ثم سما حتى يبلغ هذه الغاية القصوى .

وليس موضوعي ان ازيد في توجيه الخطاب الى شعرائنا وان اتمادى في توضيح هذه الظواهر العائقة . التي جعلت شعراء العرب على كثرة حبهم للقول والانشاد في امر ممقوت يهيمـون في ظلالات الحسية . ويتروحون بالاقبال على الاستمتاع باللذائذ الغريبة الدانية . ولا تنزع شاعريتهم الى ما فـوق هذا . . .

(يتبع) احمد المختار الوزير

فهرس عام للمجلد الثالث من المجلة الزيتونية

مرتب على حروف الهجاء

انتهى المجلد الثالث

المجلة الزيتونية

ان المجلة الزيتونية بهذا الجزء تختم المجلد الثالث فخورة بما وفقت اليه من الخدمات العلمية الثقافية شاكرة سعي السادة الكتاب والمحررين الذين شاركوها في هذا الميدان ومقدرة ولاء السادة الفضلاء قرائها الكرام وتشجيعهم المتواصل

وهي تذكر السادة المشتركين الذين لم يسددوا ما تخلد بذممهم من معلوم الاشتراكات عن سنة او سنوات ان يتفضلوا بتقديم ما ترتب عليهم نحو هذا المشروع الذي لا يقوم الا على دعائم اهمها المال

وقد راينا بعض تقاعس او اهمال من بعض السادة المشتركين وتعديات متكررة من بعض الباعة ما تسبب في تعطيل سير المجلة عن صدورها في اوقاتها الشهرية بانتظام ولكن الحالة الآن ليست كما سبق ونفقات الطبع قد تضاعفت مرارا وللمجلة قبل جمهور عظيم من المشتركين والباعة اموال طائلة وان هم احجموا عن دفع ما عليهم يكونون قد ضربوا المشروع في الصميم والعهدة تكون عليهم فيسجلها لهم التاريخ والله يشهد اننا قمنا بهذا الواجب وبذلنا في سبيله مجهودات مادية وادبية

ويعز علينا ان يقبر وهو في شبابه لا شيء سوى عدم الاهتمام بالحقوق وعدم مراعاة الواجب وها نحن قد القينا المسؤولية عن سواعدنا فلننظر ما سيصنعه السادة الغيورون ولنا كامل الثقة في اخلاصهم واجابة هذا النداء

(الادارة)

خلاصة التاريخ التونسي

بين الآونة والاخرى يظهر اهتمام اساتذة التعليم بتونس بالناشئة المتعلمة بما يقدمونه لهم من نفائس المؤلفات العلمية المناسبة لرتبتهم الثقافية على الاساليب الحديثة الكافلة بحصول النفع العميم

ومن بين اولئك العاملين لخير الشباب المتعلم الشيخ عمر الركباني المعلم بمدرسة خير الدين فالشيخ قد وقف حياته على العلم فهو ما برح يخرج للناشئة كتبه الدراسية الصالحة وقد وفق خير توفيق وها هو يعيد طبع كتابه (خلاصة تاريخ تونس) بعد ان ادخل عليه تنقيحات مفيدة والاقبال على كتبه يزداد يوما فيوما ونحن نهني الشيخ الركباني بهذا التوفيق ونتمنى له النجاح المطرد